

تَفْسِيرُ

بُشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ

إِلَى الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ فِي التَّفْسِيرِ

جَمْعُهُ وَحَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

إِيَادِينَ عَبْدِ الْلطِيفِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ لَقَيْتِي

رَاجَعَهُ

عُمَانُ بْنُ مُعَلِّمٍ مُحَمَّدٍ

أَشْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ

سَعْدُ بْنُ فَوَّازٍ الصَّمِيلِ

الْحِجْرَةُ السَّادِسُ

سُورَةُ الْفَتْحِ - سُورَةُ الرَّافِعِ

دَارُ ابْنِ الْجَوْزِيِّ

حقوق الطبع محفوظة لدار ابن الجوزي

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٣٢هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوال: ٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحصاء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت - هاتف:
٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج م ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس:
٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:

aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

تَفْسِيرُ

شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ

الْمَجْلَعُ لِلْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ فِي التَّفْسِيرِ

جَمَعَهُ وَحَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

إِيَادُ بْنُ عَبْدِ الْلطِيفِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْقَسِّي

رَاجَعَهُ

عُثْمَانُ بْنُ مُعَلَّمٍ مُحَمَّدٍ

أَشْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ

سَعْدُ بْنُ فَوَّازِ الصَّمِيلِ

الْمَجْمَعُ السَّادِسُ

سُورَةُ الْفَتْحِ - سُورَةُ الْأَعْلَى

دَارُ ابْنِ الْجَوْزِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح

وقال في نزول سورة الفتح:

(«سورة الفتح» الذي فيها ذلك أنزلها الله قبل أن تفتح مكة؛ بل قبل أن يعتمر النبي ﷺ، وكان قد بايع أصحابه تحت الشجرة عام الحديبية سنة ست من الهجرة، وصالح المشركين صلح الحديبية المشهور، وبذلك الصلح حصل من الفتح ما لا يعلمه إلا الله، مع أنه قد كان كرهه خلق من المسلمين؛ ولم يعلموا ما فيه من حسن العاقبة حتى قال سهل بن حنيف: أيها الناس! اتهموا الرأي، فقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددت، رواه البخاري وغيره^(١)، فلما كان من العام القابل اعتمر النبي ﷺ، ودخل هو ومن اعتمر معه مكة معتمرين، وأهل مكة يومئذ مع المشركين؛ ولما كان في العام الثامن فتح مكة في شهر رمضان، وقد أنزل الله في سورة الفتح: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ ذُوْنِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧] فوعدهم في سورة الفتح أن يدخلوا مكة آمنين وانجز مواعده من العام الثاني وأنزل في ذلك: ﴿الْشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] وذلك كله قبل فتح مكة فمن توهم أن سورة الفتح نزلت بعد فتح مكة فقد غلط غلطاً بيناً^(٢)).

وقال رحمه الله: (فأما عمرة الحديبية فإنه اعتمر من ذي الحليفة ميقات أهل المدينة هو وأصحابه الذين بايعوه في تلك العمرة تحت الشجرة ثم إنهم لما صدهم المشركون عن البيت وقاضاهم النبي ﷺ على العمرة من العام القابل وصالحهم الصلح المشهور حل هو وأصحابه من العمرة بالحديبية ولم يدخلوا مكة ذلك العام فأنزل الله في ذلك «سورة الفتح» وأنزل قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ

(١) البخاري (٧٣٠٨)، ومسلم (١٧٨٥). (٢) مجموع الفتاوى (٣٥/٦٠ - ٦١).

الْهَدْيِ ﴿الآية [البقرة: ١٩٦] وقد ذكر الشافعي وغيره الإجماع على أن هذه الآية نزلت في ذلك العام) ١. هـ^(١).

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾

(وقد قال الله تعالى لنبيه بعد صلح الحديبية وبعدة الرضوان: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعَمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ٣) فأخبر أنه فعل هذا ليهديه صراطاً مستقيماً فإذا كان هذا حاله فكيف بحال غيره.

و(الصراط المستقيم) قد فسر بالقرآن والإسلام وطريق العبودية فكل هذا حق فهو موصوف بهذا وبغيره، فحاجته إلى هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته، بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر، فإن الله يرزقه فإذا انقطع رزقه مات والموت لا بد منه، فإن كان من أهل الهداية كان سعيداً بعد الموت، وكان الموت موصلاً له إلى السعادة الدائمة الأبدية، فيكون رحمة في حقه) ١. هـ^(٢).

﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعَمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾

(ومنه قوله تعالى لنبيه سنه ست من الهجرة: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ومع هذا فما زال يستغفر ربه بقية عمره) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (كتأويلهم قوله: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ المتقدم ذنب آدم والمتأخر: ذنب أمته وهذا معلوم البطلان ويدل على ذلك وجوه:

«أحدها»: أن آدم قد تاب الله عليه قبل أن ينزل إلى الأرض فضلاً عن عام الحديبية الذي أنزل الله فيه هذه السورة قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ١) ثُمَّ أَجْبَلَهُ رَبُّهُ فَأَبَى عَلَيْهِ وَهَدَى ٢) [طه] وقال: ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَبَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْتَوَابُ الرَّجِيمِ﴾ ٣) [البقرة] وقد ذكر أنه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٤٠١).

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/٢٥٣).

(٣) مختصر الفتاوى المصرية (٢٥٩).

و«الثاني»: أن يقال: فآدم عندكم من جملة موارد النزاع ولا يحتاج أن يغفر له ذنبه عند المنازع فإنه نبي أيضاً ومن قال: إنه لم يصدر من الأنبياء ذنب يقول ذلك عن آدم ومحمد وغيرهما.

«الوجه الثالث»: أن الله لا يجعل الذنب ذنباً لمن لم يفعله فإنه هو القائل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] فمن الممتنع أن يضاف إلى محمد ﷺ ذنب آدم ﷺ أو أمته أو غيرهما وقد قال تعالى: ﴿فَأَنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] وقال تعالى: ﴿فَقَنِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤] ولو جاز هذا لجاز أن يضاف إلى محمد ذنوب الأنبياء كلهم، ويقال: إن قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ المراد ذنوب الأنبياء وأممهم قبلك فإنه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم وهو سيد ولد آدم، وقال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر وآدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة. أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا، وإمامهم إذا اجتمعوا»^(١)، وحينئذ فلا يختص آدم بإضافة ذنبه إلى محمد بل تجعل ذنوب الأولين والآخرين على قول هؤلاء ذنباً له فإن قال: إن الله لم يغفر ذنوب جميع الأمم، قيل: وهو أيضاً لم يغفر ذنوب جميع أمته.

«الوجه الرابع»: أنه قد ميز بين ذنبه وذنوب المؤمنين بقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنباً له.

«الوجه الخامس»: أنه ثبت في الصحيح أن هذه الآية لما نزلت قال الصحابة: يا رسول الله هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] فدل ذلك على أن الرسول والمؤمنين علموا أن قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مختص به دون أمته.

«الوجه السادس»: أن الله لم يغفر ذنوب جميع أمته بل قد ثبت أن من أمته من يعاقب بذنوبه أما في الدنيا وإما في الآخرة وهذا مما تواتر به النقل وأخبر به الصادق المصدوق واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وشوهد في الدنيا من ذلك ما لا يحصىه إلا الله

(١) أبو داود (٤٦٧٣)، الترمذي (٣٥١٥)، أحمد (١٤٤/٣) والحديث صحيح، والبعض منه في مسلم (٢٢٧٨).

وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِإِيمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] والاستغفار والتوبة قد يكونان من ترك الأفضل فمن نقل إلى حال أفضل مما كان عليه قد يتوب من الحال الأول لكن الذم والوعيد لا يكون إلا علي ذنب (١) هـ. ١.

وقال أيضاً راداً على من زعم أن غفران الذنب هو ذنب آدم:

(﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [أي ذنب آدم وما تأخر من ذنب أمته فإن هذا ونحوه من تحريف الكلم عن مواضعه].

أما أولاً: فلأن آدم تاب وغفر [له] ذنبه قبل أن يولد نوح وإبراهيم، فكيف يقول [له]: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك ذنب آدم.

وأما ثانياً: فلأن الله يقول: ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ آخَرَتُ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فكيف يضاف ذنب أحد إلى غيره؟.

وأما ثالثاً: فلأن في حديث الشفاعة الذي في الصحاح أنهم يأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته اشفع لنا إلى ربك فيذكر خطيئته ويأتون نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى فيقول لهم: اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكان سبب قبول شفاعته كمال عبوديته وكمال مغفرة الله له فلو كانت هذه لأدم لكان يشفع لأهل الموقف.

وأما رابعاً: فلأن هذه الآية لما نزلت قال أصحابه ﷺ: يا رسول الله هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] فلو كان ما تأخر من ذنوبهم لقال: هذه الآية لكم.

وأما خامساً: فكيف يقول عاقل: إن الله غفر ذنوب أمته كلها، وقد علم أن منهم من يدخل النار؟ وإن خرج منها بالشفاعة؟ (٢) هـ. ١.

قال رحمه الله: (﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فإن هذه الآية قد ثبت في الصحيح^(٣) أنها نزلت عام الحديبية لما بايعه الصحابة بيعة الرضوان تحت الشجرة وانصرف، وقد خالط أصحابه كآبة وحزن لرجوعهم، ولم يتموا العمرة التي خرجوا لها،

(١) مجموع الفتاوى (٣١٤/١٠ - ٣١٦). (٢) منهاج السنة (٤٠١/٢ - ٤٠٢).

(٣) مسلم (١٧٨٦).

وقد صالحوا المشركين، لما أن في ظاهره غضاضة عليهم، حتى كرهه كثير منهم، وجرت فيه فصول، فأنزل الله سورة الفتح بنصرته من الحديدية، وهو في الطريق قبل وصوله إلى المدينة، ثم إنه تجهز من المدينة لفتح خيبر، وفي أواخر غزاة خيبر قدم عليه أبو موسى والأشعريون، وفي تلك المدة أسلم أبو هريرة، ولما أنزل الله عليه هذه الآية: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال له الناس: يا رسول الله! هذا لك. فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] (١).

وفي هذا ردّ على طائفة - من الناس - كبعض المصنّفين في السير وفي مسألة العصمة. يقولون في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾: وهو ذنب آدم، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ذنب أمته، فإن هذا القول وإن كان لم يقله أحد من الصحابة والتابعين ولا أئمة المسلمين ولا يقوله من يعقل ما يقول فقد قاله طائفة من المتأخرين، ويظن بعض الجهال أن هذا معنى شريف، وهو كذب على الله وتحريف الكلم عن مواضعه، فإنه قد ثبت في الصحاح (٢) في أحاديث الشفاعة: أن الناس يوم القيامة يأتون آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر إليهم ويقول: إني نهيت عن الشجرة فأكلت منها، نفسي نفسي، ويأتون نبياً بعد نبي إلى أن يأتوا المسيح، فيقول: اتنوا محمداً فإنه عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلو كانت ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو ذنب آدم لم يعتذر آدم.

وأيضاً فلما نزلت الآية قالت الصحابة: هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] فلو كان «ما تأخر» مغفرة ذنوبهم لقال: هذه لكم) ١. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَنْتَعِزُّ عَيْنَكَ عَنْ يَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿وَيُصْرِكَ اللَّهُ بِكَ نَصْرًا عَزِيزًا﴾).

وهذه الهداية الخاصة التي أعطاها إياها بعد فتح الحديدية أخص مما تقدم فإن السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيء بعد شيء ويزيده الله هدى بعد هدى وأقوم

(١) مسلم (١٧٨٦).

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٩٤) عن عدد من الصحابة.

(٣) جامع المسائل (٢٨/٤ - ٣٠).

الطريق وأكملها الطريق التي بعث بها نبيه محمداً ﷺ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] هـ. ١^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى لنبيه بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) وَيُصْرِّحَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٢﴾، فأخبر أنه فعل هذا ليهديه صراطاً مستقيماً فإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره؟

والصراط المستقيم قد فسر بالقرآن، والإسلام، وطريق العبودية، وكل هذا حق، فهو موصوف بهذا وبغيره، فحاجته إلى هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه وإذا انقطع رزقه مات والموت لا بد منه فإن كان من أهل الهداية كان سعيداً، وإن كان بعد الموت، وكان الموت موصلاً له إلى السعادة الدائمة الأبدية فيكون رحمة في حقه، وكذلك النصر إذا قُدِّرَ أنه قُهر وغلب حتى قتل فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيداً، وكان القتل من تمام نعمة الله عليه، فتبين أن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق بل لا نسبة بينهما، فلهذا كان هذا الدعاء هو المفروض عليهم) هـ. ١^(٢).

وقال رحمه الله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقال له الناس: هذا لك فما لنا؟ قال: فأنزل الله تعالى: ﴿... هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الفتح: ٤].

وفي هذا رد على الطائفة الذين يقولون: معنى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ هو ذنب آدم «وما تأخر» هو ذنب أمته فإن هذا القول وإن لم يقله أحد من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين فقد قاله طائفة من المتأخرين ويظن بعض الجهال أنه قول شريف وهو كذب على الله وتخريف.

فإنه قد ثبت أن الناس يوم القيامة يأتون آدم فيعتذر إليهم ويذكر خطيئته فلو كان ما تقدم هو ذنب آدم لم يكن يعتذر وقد قالت الصحابة ﷺ: «هذا لك فما لنا»^(٣) فلو كان ما تأخر مغفرة ذنوبهم: لكان قال: هذا لكم.

(٢) جامع الرسائل (١/ ١٠٠).

(١) الجواب الصحيح (٣/ ١٨١).

(٣) ابن جرير (٢٦/ ٧٠).

وأيضاً فقد قال الله تعالى له: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]
 فكيف تضاف ذنوب الفساق إليه ويجعل الزنا والسرقة وشرب الخمر ذنباً له؟
 ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] وأي فرق بين ذنب آدم ونوح
 وإبراهيم وكلهم آباؤه؟

وقد قال تعالى في غير موضع: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْبَيِّنَاتِ﴾ [النور: ٥٤] فيكيف يكون ذنب أمته ذنباً
 له؟ هذا لا يخفى فسادَه على من له أدنى تدبر، وإن كان قاله طائفة من المصنفين في
 العصمة، حتى ترى ذلك في كلام بعض من له قدم صدق من أهل السنة لكن الغلو
 أوجب اتباع الجهال الضلال فإن أصل ذلك من المبتدعين الغالين وأولهم الرافضة فإنهم
 لما ادعوا العصمة في علي وغيره، حتى من الخطأ، احتاجوا أن يثبتوا ذلك للأنبياء
 بطريق الأولى ولما نزهوا علياً عليه السلام ومن دونه أن يكون له ذنب يستغفر منه، كان
 تنزيههم للرسول أولى.

وكذلك القرامطة: لما ادعوا عصمة أئمتهم الإسماعيلية القرامطة الباطنية الفلاسفة
 الدهرية وعبدوهم، واعتقدوا فيهم الإلهية، كما كانت الغالية تعتقد في علي وغيره الإلهية
 أو النبوة، وكما ألزموا الدعوة للمتظر، وأنه معصوم، وقالوا: دخل في سرداب سامرا
 سنة ستين ومائتين وهو طفل غير مميز، وصار مثل هذا يدعى حتى ادعى ابن تومرت
 المغربي صاحب المرشد أنه المهدي، صار طائفة من الغلاة في مشايخهم يعتقدون لهم
 العصمة بقلوبهم أو يقولون: إنه محفوظ، والمعنى واحد، ولو أقر بلسانه عامله بالعصمة
 بقلبه.

فهؤلاء إذا اعتقدوا العصمة في بعض العوام كيف لا يعتقدون ذلك في الأنبياء؟
 فإن كان من المسلمين من اعتقد أن الأنبياء أفضل من شيخه وإمامه، وهو يعتقد
 عصمة شيخه، فهو يعتقد عصمتهم بطريق الأولى (١) هـ.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

(وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية، فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان.

والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه، ولهذا قال يوم حنين: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦] وقال تعالى: ﴿ثَاقِبَ آنْتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب وصفة منه، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه، واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم، والريب المنافي لليقين يكون ريباً في العلم، وريباً في طمأنينة القلب ولهذا جاء في الدعاء المأثور: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا»^(١) ١. هـ.^(٢)

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾، ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة؛ ولكن الله يجعل ذلك في قلبه فضلاً منه وجزاء على عمل سابق) ١. هـ.^(٣)

وقال رحمه الله: (وأما «المطلق» ففي مواضع منها: ما ذكره من إنزال السكينة بقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦] وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى غير ذلك.

ومن ذلك «إنزال الميزان» ذكره مع الكتاب في موضعين وجمهور المفسرين على أن المراد به العدل وعن مجاهد رحمته الله هو ما يوزن به، ولا منافاة بين القولين وكذلك العدل وما يعرف به العدل منزل في القلوب والملائكة قد تنزل على قلوب المؤمنين كقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَيَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] فذلك

(١) الترمذي (٣٥٠٢) والحديث حسن. (٢) مجموع الفتاوى (٢٢٩/٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٣٩/٧).

الثبات نزل في القلوب بواسطة الملائكة وهو السكينة قال النبي ﷺ: «من طلب القضاء واستعان عليه وكل إليه ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده»^(١) فالله ينزل عليه ملكاً وذلك الملك يلهمه السداد وهو ينزل في قلبه ا. هـ^(٢).

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٣).

(وهو قد فرق بين غضبه وعقابه بقوله: ﴿فَجَزَّأُوهُمُ جَهَنَّمَ خَلِيلًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُمُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٤) ا. هـ^(٥).

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٦).

(وقال بين الله على لسانه ما يستحقه الله من الحقوق التي لا تصلح إلا لله وما يستحقه الرسول من الحقوق فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٧) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٨) فالإيمان بالله والرسول والتعزيز والتوقير للرسول والتسبيح بكرة وأصيلًا لله وحده) ا. هـ^(٩).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١٠) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ فهذا في حق الرسول ثم قال في حق الله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(١١) ا. هـ^(١٢).

وقال رحمه الله: (أن الله أمر بتعزيزه وتوقيره فقال: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ والتعزيز: اسم جامع لنصره وتأيدته ومنعه من كل ما يؤذيه والتوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرج به عن حد الوقار) ا. هـ^(١٣).

(١) أبو داود (٣٥٧٨) ابن ماجه (٢٣٠٩) أحمد (٢٢٠/٣) والحاكم (٩٢/٤) والحديث ضعيف.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٤٩/١٢). (٣) مجموع الفتاوى (٢٦١/٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧٢/٣)، منهاج السنة (٢/٤٤٥ - ٤٤٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٦٧/٢١). (٦) الصارم المسلول (٤٢٧).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي الرسول خاصة ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي تسبحوا الله تعالى فالإيمان بالله والرسول والتعزير والتوقير للرسول والتسبيح لله وحده وهذا الأصل مبسوط في غير هذا الموضع) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» (٢) وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩)، فالإيمان بالله والرسول، والتعزير والتوقير للرسول، وتعزيره نصره ومنعه، والتسبيح بكرة وأصيلًا لله وحده، فإن ذلك من العبادة لله والعبادة هي لله وحده: فلا يصلي إلا لله ولا يصام إلا لله ولا يحج إلا إلى بيت الله) ا.هـ (٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّدٌ آجَرًا عَظِيمًا﴾ (١٧).

(قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، فالنكث: نقض المبايعة وإن لم يكن فيها قسم بالله بصيغة القسم وإنما قالوا: بايعناك على أن لا نفر أو على الموت وكذلك المعاهدة مع المشركين لم يكن فيها قسم باسم الله بصيغة القسم.

يبين ذلك: أن النبي ﷺ لما صالح المشركين يوم الحديبية كان لفظ الصلح: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهل بن عمرو، قاضاه على وضع الحرب عشر سنين» إلى آخره.

فكان عقدًا كعقد البيع والنكاح، وكذلك سائر عهوده ﷺ مع أهل الكتاب والمشركين كانت من هذا الجنس لم يكن فيها اللفظ المشهور للقسم باسم الله) ا.هـ (٤).

- (١) اقتضاء الصراط (٨٢٩/٢) بغية المرتاد (٥٠٤)، جامع المسائل (٢٩٧/٤).
- (٢) البخاري (٢١)، ومسلم (٦٨).
- (٣) مجموع الفتاوى (٣٠٧/١).
- (٤) نظرية العقد (٦٤ - ٦٥).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ فإنهم عاقبوه على أن يطيعوه في الجهاد ولا يفروا وإن ماتوا وهذه الطاعة له هي طاعة الله) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لم يرد به أنك أنت الله وإنما أراد أنك أنت رسول الله ومبلغ أمره ونهيه، فمن بايعك فقد بايع الله، كما أن من أطاعك فقد أطاع الله، ولم يرد بذلك أن الرسول هو الله؛ ولكن الرسول أمر بما أمر الله به.

فمن أطاعه فقد أطاع الله كما قال النبي ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني»^(٢) ومعلوم أن أميره ليس هو إياه.

ومن ظن في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أن المراد به أن فعلك هو فعل الله أو المراد أن الله حالٌ فيك ونحو ذلك فهو مع جهله وضلاله بل كفره وإلحاده قد سلب الرسول خاصيته وجعله مثل غيره، وذلك أنه لو كان المراد به كون الله فاعلاً لفعلك: لكان هذا قدراً مشتركاً بينه وبين سائر الخلق وكان من بايع أبا جهل فقد بايع الله ومن بايع مسيلمة الكذاب فقد بايع الله ومن بايع قادة الأحزاب فقد بايع الله.

وعلى هذا التقدير فالمبايع هو الله أيضاً، فيكون الله قد بايع الله؛ إذ الله خالق لهذا ولهذا، وكذلك إذا قيل بمذهب أهل الحلول والوحدة والاتحاد فإنه عام عندهم في هذا وهذا، فيكون الله قد بايع الله.

وهذا يقوله كثير من شيوخ هؤلاء الحلولية الاتحادية حتى إن أحدهم إذا أمر بقتال العدو يقول: أقاتل الله؟ ما أقدر أن أقاتل الله، ونحو هذا الكلام الذي سمعناه من شيوخهم، وبيننا فسادهم لهم وضلالهم فيه غير مرة.

وأما الحلول الخاص فليس هو قول هؤلاء؛ بل هو قول النصاري ومن وافقهم من الغالية، وهو باطل أيضاً، فإن الله سبحانه قال له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] وقال: ﴿وَأَنْتَ لَمَّا كَانَتْ عِدَّةُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الحج: ١٩] وقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وقال: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ فِي رَبِّ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وقال:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح]،
 فقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ بين قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾ ولهذا قال: ﴿يُدُّ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ومعلوم أن يد النبي ﷺ كانت مع أيديهم كانوا يصافحونه ويصفقون على يده في البيعة فعلم أن يد الله فوق أيديهم ليست هي يد النبي ﷺ ولكن الرسول عبد الله ورسوله فبايعهم عن الله وعاهدهم وعاقدهم عن الله فالذين بايعوه بايعوا الله الذي أرسله وأمره ببيعتهم.

ألا ترى أن كل من وكل شخصاً يعقد مع الوكيل: كان ذلك عقداً مع الموكل؟ ومن وكل نائباً له في معاهدة قوم فعاهدهم عن مستنييه: كانوا معاهدين لمستنييه؟ ومن وكل رجلاً في إنكاح أو تزويج: كان الموكل هو الزوج الذي وقع له العقد؟ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمْ الْكَفَّةُ﴾ الآية [التوبة: ١١١]، ولهذا قال في تمام الآية: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَمُوتْ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١) هـ.

وقال رحمه الله: (أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ يَدُّ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُتْ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَمُوتْ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٩) فليس فيها أن نفس الفعل القائم بالرسول ومخاطبته لهم ومدّ يده لمبايعتهم هو نفس فعل الله ومخاطبته ومبايعته بل فيها أن من بايع الرسول فقد بايع الله كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وكما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني» (٢) فطاعة أميره طاعته ومعصية أميره معصيته لأنه أمر بطاعته فمن أطاعه فقد أطاع الله لأن الله أمر بامتثال ما أمر به لأن أمره من أمر الله لا أن نفس الفعل القائم بأميره نفس فعله ولا نفس فعله هو نفس فعل الرب تعالى (٣) هـ.

وقال رحمه الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾ وقوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فإذا قال بعض ملاحدة المسلمين من الشيعة أو المتصوفة أو غيرهم: إن الله اتحد بمحمد لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ﴾ كان هذا من جنس قول النصاري.

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٣٣ - ٣٣٥).

(٢) مر تخريجه.

(٣) الاستقامة (١/ ١٥٨ - ١٥٩).

والآية لم تدل على ذلك بل مبايعة الرسول مبايعة لله، لأن الرسول أمر بما أمر الله ونهى عما نهى الله عنه) ١. هـ^(١).

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ١١.

قال رحمه الله: (فهم الذين عنى الله بقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي ادع الله أن يغفر لنا تخلفنا عنك ﴿يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي ما يبالون استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم وهذا حال الفاسق الذي لا يبالي بالذنوب والمنافقون قال فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَلَوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ١٢ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون] ولم يقل مثل هذا في هؤلاء الأعراب، بل الآية دليل على أنهم لو صدقوا في طلب الاستغفار نفعهم استغفار الرسول لهم ثم قال: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ يَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦] فوعدهم الله بالشواب على طاعة الداعي إلى الجهاد وتوعدهم بالتولي عن طاعته) ١. هـ^(٢).

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلْفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَوَاقِدِ لِقَاتِكُمْ فِي الْأَرْضِ أَغْنَىٰ عَنْكُمْ رِجَالُكُمْ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَغْيِرُونَهَا كَذَلِكَ قَالَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَصَّدَدُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١٣.

(وكذلك الكلام يراد به الكلام الذي هو الصفة كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله راداً على الرافضي:

﴿قُلِ الْمُخَلْفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ يَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ١٤.

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٢٦٥ - ٢٦٦). (٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٥٠).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٢٦٢).

(قال الرافضي: وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ فإنه أراد الذين تخلفوا عن الحديبية والتمس هؤلاء أن يخرجوا إلى غنيمة خيبر فمنعهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ لَنْ تَنفَعُونَا﴾ لأنه تعالى جعل غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ثم قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، وقد دعاهم رسول الله ﷺ إلى غزوات كثيرة كمؤتة وحنين وتبوك وغيرها وكان الداعي رسول الله ﷺ وأيضاً جاز أن يكون علياً حيث قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين وكان رجوعهم إلى طاعته إسلاماً لقوله ﷺ: «يا علي حربك حربي» وحرب رسول الله ﷺ كفر.

فالجواب: أما الاستدلال بهذه الآية على خلافة الصديق ووجوب طاعته فقد استدلل بها طائفة من أهل العلم منهم الشافعي والأشعري وابن حزم وغيرهم واحتجوا بأن الله تعالى قال: ﴿إِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْوْكَ لِلخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣] قالوا: فقد أمر الله رسوله أن يقول لهؤلاء: لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً فعلم أن الداعي لهم إلى القتال ليس رسول الله ﷺ فوجب أن يكون من بعده وليس إلا أبا بكر ثم عمر ثم عثمان الذين دعوا الناس إلى قتال فارس والروم وغيرهم أو يسلمون حيث قال: ﴿نُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَهُمْ﴾.

وهؤلاء جعلوا المذكورين في «سورة الفتح» هم المخاطبين في «سورة براءة» ومن هنا صار في الحجة نظر؛ فإن الذين في «سورة الفتح» هم الذين دُعُوا زمن الحديبية ليخرجوا مع النبي ﷺ لما أراد أن يذهب إلى مكة وصدده المشركون وصالحهم عام حَيْثُذَ بِالْحَدِيبَةِ، وبايعه المسلمون تحت الشجرة.

وسورة الفتح نزلت في هذه القصة وكان ذلك العام عام ست من الهجرة بالاتفاق وفي ذلك نزل قوله: ﴿وَأَتَيْنَا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وفيها نزلت فدية الأذى في كعب بن عجرة وهي قوله: ﴿فَقَدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة خرج إلى خيبر ففتحها الله على المسلمين في أول سنة سبع وفيها أسلم أبو هريرة وقدم جعفر وغيره من مهاجرة الحبشة ولم يسهم النبي ﷺ لأحد ممن شهد خيبر إلا لأهل الحديبية الذي بايعوا تحت الشجرة إلا أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر وفي ذلك نزل قوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِرٍ لِنَأْخُذْهَا دَرُونَا نَنْتَقِمَ كَيْدِيَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَنفَعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُدْرِكُونَ﴾ إلى قوله: ﴿نُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَهُمْ﴾ وقد دعا الناس بعد ذلك

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ عَامَ ثَمَانٍ مِنَ الْهَجْرَةِ وَكَانَتْ خَيْرَ سَنَةٍ سَبْعَ وَدَعَاهُمْ عَقِبَ الْفَتْحِ إِلَى قِتَالِ هَوَازِنَ بَحْنِينَ ثُمَّ حَاصَرَ الطَّائِفَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَكَانَتْ هِيَ آخِرَ الْغَزَوَاتِ الَّتِي قَاتَلَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَغَزَا تَبُوكَ سَنَةَ تِسْعٍ لَكِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا قِتَالٌ: غَزَا فِيهَا النَّصَارَى بِالشَّامِ وَفِيهَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ بَرَاءَةِ وَذَكَرَ فِيهَا الْمُخَلْفِينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَكِنْ لُقِّنَلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣].

وَأَمَّا مَوْتُهُ فَكَانَتْ سَرِيَّةً قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَمِيرُكُمْ زَيْدٌ فَإِنْ قُتِلَ فَجَعْفَرُ، فَإِنْ قُتِلَ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ» وَكَانَتْ بَعْدَ عَمْرَةِ الْقُضَيْبَةِ وَقَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ فَإِنْ جَعْفَرًا حَضَرَ عَمْرَةَ الْقُضَيْبَةِ وَتَنَازَعَ هُوَ وَعَلِيٌّ وَزَيْدٌ فِي بِنْتِ حَمْزَةَ وَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِأَسْمَاءَ امْرَأَةَ جَعْفَرِ خَالَةِ الْبِنْتِ وَقَالَ: «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ» وَلَمْ يَشْهَدْ زَيْدٌ وَلَا جَعْفَرُ وَلَا ابْنُ رَوَاحَةَ فَتَحَ مَكَّةَ لِأَنَّهُمْ اسْتَشْهَدُوا قَبْلَ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ مَوْتِهِ.

وَإِذَا عُرِفَ هَذَا فُوجِهَ الِاسْتِدْلَالُ مِنَ الْآيَةِ أَنْ يُقَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَدُّعُونَ إِلَيَّ قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ نَقُتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ﴾، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَصَفُّونَ بِأَنَّهُمْ أُولَوُ بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَبِأَنَّهُمْ يِقَاتِلُونَ أَوْ يُسْلَمُونَ قَالُوا: فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ دَعَاهُمْ إِلَى قِتَالِ أَهْلِ مَكَّةَ وَهَوَازِنَ عَقِيبَ عَامِ الْفَتْحِ، لِأَنَّهُ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ دَعَا إِلَيْهِمْ عَامَ الْحَدِيبَةِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ فَهُوَ مِنْ جَنْسِهِمْ لَيْسَ هُوَ أَشَدَّ بِأَسَاءَ مِنْهُمْ، كُلُّهُمْ عَرَبٌ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ وَقَاتَلَهُمْ مِنْ جَنْسٍ وَاحِدٍ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَمَنْ حَوْلَهَا كَانُوا أَشَدَّ بِأَسَاءَ وَقِتَالًا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ وَوَاحِدٍ وَالْخَنْدَقِ مِنْ أَوْلَئِكَ وَكَذَلِكَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ السَّرَايَا.

فَلَا يَدُّ أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَقَعُ الدَّعْوَةُ إِلَى قِتَالِهِمْ لَهُمْ اخْتِصَاصٌ بِشَدَةِ الْبَأْسِ مِمَّنْ دَعَا إِلَيْهِ عَامَ الْحَدِيبَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وَهَذَا صَنْفَانِ: أَحَدُهُمَا: بَنُو الْأَصْفَرِ الَّذِينَ دَعَا إِلَى قِتَالِهِمْ عَامَ تَبُوكَ سَنَةَ تِسْعٍ فَإِنَّهُمْ أُولَوُ بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَهُمْ أَحَقُّ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَأَوَّلُ قِتَالٍ كَانَ مَعَهُمْ عَامَ مَوْتِهِ عَامَ ثَمَانٍ قَبْلَ تَبُوكَ فَقُتِلَ فِيهَا أَمْرَاءُ الْمُسْلِمِينَ: زَيْدٌ وَجَعْفَرُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ كَالْمَنْهَزِمِينَ.

وَلِهَذَا قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ لَمَّا رَجَعُوا: نَحْنُ الْفَرَارُونَ فَقَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ أَنَا فَتَتَكُمُ وَفِئَةُ كُلِّ مُسْلِمٍ».

وَلَكِنْ قَدْ عَارَضَ بَعْضُهُمْ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿نَقُتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ﴾ وَأَهْلُ الْكِتَابِ يِقَاتِلُونَ حَتَّى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ فَتَأُولُ الْآيَةُ طَائِفَةٌ أُخْرَى فِي الْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ الصَّدِيقُ أَصْحَابُ مَسِيلِمَةَ الْكَذَابِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ وَلَقِيَ الْمُسْلِمُونَ فِي قِتَالِهِمْ شَدَّةَ عَظِيمَةٍ

واستحرق القتل يومئذ بالقراء وكانت من أعظم الملاحم التي بين المسلمين وعدوهم والمرتدون يقاتلون أو يسلمون لا يقبل منهم جزية وأول من قاتلهم الصديق وأصحابه فدل على وجوب طاعته في الدعاء إلى قتالهم.

والقرآن يدل - والله أعلم - على أنهم يدعون إلى قوم موصوفين بأحد الأمرين: إما مقاتلتهم لهم وإما إسلامهم لا بد من أحدهما وهم أولو بأس شديد، وهذا بخلاف من دعوا إليه عام الحديبية فإنهم لم يوجد منهم لا هذا ولا هذا ولا أسلموا بل صالحهم الرسول بلا إسلام ولا قتال فبين القرآن الفرق بين من دُعوا إليه عام الحديبية وبين من يُدعون إليه بعد ذلك.

ثم إذا فرض عليهم الإجابة والطاعة إذا دعوا إلى قوم أولي بأس شديد فلا ينبغي عليهم الطاعة إذا دعوا إلى من ليس بذئ بأس شديد بطريق الأولى والأحرى فتكون الطاعة واجبة عليهم في دعاء النبي ﷺ إلى مكة وهوازن وثقيف.

ثم لما دعاهم بعد هؤلاء إلى بني الأصفر كانوا أولي بأس شديد، والقرآن قد وكد الأمر في عام تبوك وذم المتخلفين عن الجهاد ذمّاً عظيماً كما تدل عليه سورة براءة وهؤلاء وجد فيهم أحد الأمرين: القتال أو الإسلام وهو سبحانه لم يقل: ﴿تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا﴾^(١)، أي إلى أن يسلموا ولا قال: قاتلوهم حتى يسلموا بل وصفهم بأنهم يقاتلون أو يسلمون ثم إذا قوتلوا فإنهم يقاتلون كما أمر الله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

فليس في قوله: ﴿نُقَاتِلُونَهُمْ﴾ ما يمنع أن يكون القتال إلى الإسلام وأداء الجزية لكن يقال: قوله: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ كلام حذف فاعله فلم يعين الفاعل الداعي لهم إلى القتال فدل القرآن على وجوب الطاعة لكل من دعاهم إلى قتال قوم أولي بأس شديد يقاتلونهم أو يسلمون.

ولا ريب أن أبا بكر دعاهم إلى قتال المرتدين ثم قتال فارس والروم وكذلك عمر دعاهم إلى قتال فارس والروم وعثمان دعاهم إلى قتال البربر ونحوهم والآية تتناول هذا الدعاء كله.

أما تخصيصها بمن دعاهم بعد النبي ﷺ كما قاله طائفة من المحتجين بها على

خلافه أبي بكر فخطأ بل إذا قيل: تناول هذا وهذا كان هذا مما يسوغ ويمكن أن يراد بالآية ويتسدل عليه بها ولهذا وجب قتال الكفار مع كل أمير دعا إلى قتالهم.

وهذا أظهر الأقوال في الآية وهو أن المراد: تدعون إلى قتال أولي بأس شديد أعظم من العرب لا بد فيهم من أحد أمرين: إما أن يسلموا وإما أن يقاتلوا بخلاف من دعوا إليه عام الحديبية فإن بأسهم لم يكن شديداً مثل هؤلاء ودعوا إليهم ففي ذلك لم يسلموا ولم يقاتلوا.

وكذلك عام الفتح في أول الأمر لم يسلموا ولم يقاتلوا لكن بعد ذلك أسلموا.

وهؤلاء هم الروم والفرس ونحوهم فإنه لا بد من قتالهم إذا لم يسلموا وأول الدعوة إلى قتال هؤلاء عام مؤتة وتبوك وعام تبوك لم يقاتلوا النبي ﷺ ولم يسلموا لكن في زمن الصديق والفاروق كان لا بد من أحد الأمرين: إما الإسلام وإما القتل وبعد القتال، أدوا الجزية، لم يصلحوا ابتداء كما صالح المشركون عام الحديبية فتكون دعوة أبي بكر وعمر إلى قتال هؤلاء داخلة في الآية وهو المطلوب.

والآية تدل على أن قتال علي لم تناوله الآية فإن الذين قاتلهم لم يكونوا أولي بأس شديد أعظم من بأس أصحابه بل كانوا من جنسهم وأصحابه كانوا أشد بأساً.

وأيضاً فهم لم يكونوا يقاتلون أو يسلمون فإنهم كانوا مسلمين وما ذكره في الحديث من قوله: «حربك حربي» لم يذكر له إسناداً فلا يقوم به حجة فكيف وهو كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث.

ومما يوضح الأمر أن النبي ﷺ قبل نزول «براءة» وآية الجزية كان الكفار من المشركين وأهل الكتاب تارة يقاتلهم وتارة يعاهدهم فلا يقاتلهم ولا يسلمون، فلما أنزل الله براءة وأمره فيها بنبد العهد إلى الكفار وأمره أن يقاتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون صار حينئذ مأموراً بأن يدعو الناس إلى قتال من لا بد من قتالهم أو إسلامهم وإذا قاتلهم قاتلهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية لم يكن له حينئذ أن يعاهدهم بلا جزية كما [كان] يعاهد الكفار من المشركين وأهل الكتاب كما عاهد أهل مكة عام الحديبية.

وفيها دعا الأعراب إلى قتالهم، وأنزل فيها سورة الفتح وكذلك دعا المسلمين وقال فيها: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَتَدَعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ بخلاف هؤلاء الذين دعاهم إليهم عام الحديبية.

والفرق بينهما من وجهين: أحدهما: أن الذين يدعون إلى قتالهم في المستقبل أولو بأس شديد بخلاف أهل مكة وغيرهم من العرب.

والثاني: أنكم تقتالونهم أو يسلمون لكم أن تصالحوهم ولا تعاهدوهم بدون أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون كما قاتل أهل مكة وغيرهم والقتال إلى أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وهذا يبين أن هؤلاء أولي البأس لم يكونوا ممن يعاهدون بلا جزية فإنهم يقاتلون أو يسلمون ومن يعاهد بلا جزية له حال ثالث: لا يقاتل فيها ولا يسلم، وليسوا أيضاً من جنس العرب الذين قوتلوا قبل ذلك.

فتبين أن الوصف لا يتناول الذين قاتلوهم بحثين وغيرهم فإن هؤلاء بأسهم من جنس بأس أمثالهم من العرب الذين قوتلوا قبل ذلك.

فتبين أن الوصف يتناول فارس والروم الذين أمر الله بقتالهم أو يسلمون وإذا قوتلوا قبل ذلك فإنهم يقاتلون حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وإذا قيل: إنه دخل ذلك في قتال المرتدين، لأنهم يقاتلون أو يسلمون، كان أوجه من أن يقال: المراد قتال أهل مكة وأهل حنين الذين قوتلوا في حال كان يجوز فيها مهادنة الكفار فلا يسلمون ولا يقاتلون، والنبي ﷺ عام الفتح وحنين كان بينه وبين كثير من الكفار عهود بلا جزية فأمضاها لهم، ولكن لما أنزل الله [براءة] بعد ذلك عام تسع سنة غزوة تبوك بعث أبا بكر بعد تبوك أميراً على الموسم، فأمره أن ينادي: أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وأن من كان بينه وبين رسول الله عهد فعهد إلى مدته وأردفه بعلي يأمره بنبد العهود المطلقة، وتأجيل من لا عهد له أربعة أشهر وكان آخرها شهر ربيع سنة عشر.

وهذه الحرم المذكورة في قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ليس المراد الحرم المذكورة في قوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] ومن قال ذلك فقد غلط غلطاً معروفاً عند أهل العلم كما هو مبسوط في موضعه.

ولما أمر الله بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، أخذ النبي ﷺ الجزية من المجوس، واتفق المسلمون على أخذها من أهل الكتاب والمجوس.

وتنازع العلماء في سائر الكفار على ثلاثة أقوال: فقليل: جميعهم يقاتلون بعد ذلك حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون إذا لم يسلموا وهذا قول مالك. وقيل: يستثنى من ذلك مشركو العرب وهو قول أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين عنه.

وقيل: ذلك مخصوص بأهل الكتاب، ومن له شبهة كتاب، وهو قول الشافعي وأحمد في رواية أخرى عنه.

والقول الأول والثاني متفقان في المعنى، فإن آية الجزية لم تنزل إلا بعد فراغ النبي ﷺ من قتال مشركي العرب، فإن آخر غزواته للعرب كانت غزوة الطائف وكانت بعد حنين، وحينئذ فتح مكة، وكل ذلك سنة ثمان، وفي السنة التاسعة غزا النصارى عام تبوك، وفيها نزلت سورة براءة، وفيها أمر بالقتال حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وكان النبي ﷺ إذا بعث أميراً على جيش أو سرية أمره أن يقاتلهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، كما رواه مسلم في صحيحه وصالح النبي ﷺ نصارى نجران على الجزية، وهم أول من أدى الجزية وفيهم أنزل الله صدر سورة آل عمران. ولما كانت سنة تسع نفى المشركين عن الحرم ونبذ العهود إليهم وأمره الله تعالى أن يقاتلهم، وأسلم المشركون من العرب كلهم، فلم يبق مشرك معاهد لا بجزية ولا بغيرها وقبل ذلك كان يعاهدهم بلا جزية، فعدم أخذ الجزية منهم هل كان لأنه لم يبق فيهم من يقاتل حتى يعطوا الجزية بل أسلموا كلهم لما رأوا من حسن الإسلام وظهوره وقبح ما كانوا عليه من الشرك، وأنفتهم من أن يؤتوا الجزية عن يد وهم صاغرون؟

أو لأن الجزية لا يجوز أخذها منهم بل يجب قتالهم إلى الإسلام؟

فعلى الأول تؤخذ من سائر الكفار كما قاله أكثر الفقهاء وهؤلاء يقولون: لما أمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ونهى عن معاهدتهم بلا جزية كما كان الأمر أولاً وكان هذا تنبيهاً على أن من هو دونهم من المشركين أولى أن لا يهادن بغير جزية بل يقاتل حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ولهذا قال النبي ﷺ في المجوس: «سئوا بهم سنة أهل الكتاب» وصالح أهل البحرين على الجزية وفيهم مجوس واتفق على ذلك خلفاؤه وسائر علماء المسلمين وكان الأمر في أول الإسلام أنه يقاتل الكفار ويهادنهم بلا جزية كما كان النبي ﷺ

يفعله قبل نزول «براءة»، فلما نزلت «براءة» أمره فيها بتبذ هذه العهود المطلقة وأمره أن يقاتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية فغيرهم أولى أن يقاتلوا ولا يعاهدوا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ وقال: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ [التوبة: ٥] ولم يقل: قاتلوهم حتى يتوبوا.

وقوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» حق؛ فإن من قال: لا إله إلا الله لم يقاتل بحال ومن لم يقلها قاتل حتى يعطي الجزية وهذا القول هو المنصوص صريحاً عن أحمد والقول الآخر الذي قاله الشافعي ذكره الخرقى في «مختصره» ووافقه عليه طائفة من أصحاب أحمد.

ومما يبين ذلك أن آية براءة لفظها يخص النصارى وقد اتفق المسلمون على أن حكمها يتناول اليهود والمجوس.

والمقصود أنه لم يكن الأمر في أول الإسلام منحصراً بين أن يقاتلهم المسلمون وبين إسلامهم إذ كان هنا قسم ثالث وهو معاهدتهم، فلما نزلت آية الجزية لم يكن بد من القتال أو الإسلام، والقتال إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية فصار هؤلاء إما مقاتلين وإما مسلمين ولم يقل: تقاتلونهم أو يسلمون ولو كان كذلك لوجب قتالهم إلى أن يسلموا وليس الأمر كذلك بل إذا أدوا الجزية لم يقاتلوا ولكن مقاتلين أو مسلمين فإنهم لا يؤدون الجزية بغير القتال لأنهم أولو بأس شديد ولا يجوز مهادنتهم بغير جزية.

ومعلوم أن أبا بكر وعمر بل وعثمان في خلافتهم قاتل هؤلاء وضربت الجزية على أهل الشام والعراق والمغرب فأعظم قتال هؤلاء القوم وأشدّه كان في خلافة هؤلاء.

والنبي ﷺ لم يقاتلهم في غزوة تبوك وفي غزوة مؤتة استظهروا على المسلمين وقتل زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة وأخذ الراية خالد وغايتهم أن نجوا.

والله أخبر أننا نقاتلهم أو يسلمون فهذه صفة الخلفاء الراشدين الثلاثة فيمتنع أن تكون الآية مختصة بغزوة مؤتة ولا يدخل فيها قتال المسلمين في فتوح الشام والعراق والمغرب ومصر وخراسان وهي الغزوات التي أظهر الله فيها الإسلام وظهر الهدى ودين الحق في مشارق الأرض ومغاربها.

لكن قد يقال: مذهب أهل السنة أنه يغزى مع كل أمير دعا، برأ كان أو فاجراً، فهذه الآية تدل على وجوب الجهاد، مع كل أمير دعا الناس إليه، لأنه ليس فيها ما يدل على أن الداعي إمام عدل.

فيقال: هذا ينفع أهل السنة، فإن الرافضة لا ترى الجهاد إلا مع إمام معصوم ولا معصوم عندهم من الصحابة إلا علي فهذه الآية حجة عليهم في وجوب غزو الكفار مع جميع الأمراء وإذا ثبت هذا فأبو بكر وعمر وعثمان أفضل من غزا الكفار من الأمراء بعد النبي ﷺ.

ثم من المحال أن يكون كل من أمر الله المسلمين أن يجاهدوا معه الكفار بعد النبي ﷺ لا يكون إلا ظالماً فاجراً معتدياً لا تجب طاعته في شيء من الأشياء فإن هذا خلاف القرآن حيث وعد على طاعته بأن يؤتي أجراً حسناً ووعد على التولي عن طاعته بالعذاب الأليم.

وقد يستدل بالآية على عدل الخلفاء لأنه وعد بالأجر الحسن على مجرد الطاعة إذا دعوا إلى القتال وجعل المتولي عن ذلك كما تولى من قبل معذباً عذاباً أليماً.

ومعلوم أن الأمير الغازي إذا كان فاجراً لا تجب طاعته في القتال مطلقاً بل فيما أمر الله به ورسوله والمتولي عن طاعته لا يتولى كما تولى عن طاعة الرسول بخلاف المتولي عن طاعة الخلفاء الراشدين فإنه قد يقال: إنه تولى كما تولى من قبل إذا كان أمر الخلفاء الراشدين مطابقاً لأمر الرسول ﷺ.

وفي الجملة فهذا الموضع في الاستدلال به نظر ودقة، ولا حاجة بنا إليه ففي غيره ما يغني عنه) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (ولفظ «التولي» بمعنى التولي عن الطاعة مذكور في مواضع من القرآن، كقوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ يَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وذمه في غير موضع من القرآن من تولى، دليل على وجوب طاعة الله ورسوله وأن الأمر المطلق يقتضي وجوب الطاعة وذم المتولي عن الطاعة، كما علق الذم بمطلق المعصية في مثل قوله: ﴿فَقَصَّ نَبَهُنَّ وَطَرَ الْخَسْفِ﴾ [المزمل: ١٦] وقد قيل: إن «التأييد» لم

يذكر في القرآن إلا في وعيد الكفار ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدًّا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء) [١] هـ.

وقال رحمه الله: (أن الآية لا تتناول القتال مع علي قطعاً لأنه قال: ﴿نُقَاتِلُوهُمْ أَوْ تُبَلِّغُوهُمْ﴾ فوصفهم بأنهم لا يد فيهم من أحد الأمرين: المقاتلة أو الإسلام. ومعلوم أن الذين دعا إليهم علي فيهم خلق لم يقاتلوه ألبتة بل تركوا قتاله فلم يقاتلوه ولم يقاتلوا معه فكانوا صنفاً ثالثاً: لا قاتلوه ولا قاتلوا معه ولا أطاعوه وكلهم مسلمون وقد دل على إسلامهم القرآن والسنة وإجماع الصحابة: علي وغيره) [٢] هـ.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٨) هـ.

قال رحمه الله: (بإيعه تحت الشجرة ألف وأربعمائة وهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [٣] هـ).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وقد ثبت أن النبي ﷺ توفي وهو عنهم راض ومن رضي الله عنه ورسوله لا يضره غضب أحد من الخلق عليه كائناً من كان، بل من رضي الله عنه ورضي عن الله، يكون رضاه موافقاً لرضا الله، فإن الله راض عنه، فهو موافق لما يرضى الله، وهو راض عن الله، فحكم الله موافق لرضاه، وإذا رضوا بحكمه غضبوا لغضبه، فإن من رضي بغضب غيره لزم أن يغضب لغضبه فإن الغضب إذا كان مرضياً لك فعلت ما هو مرض لك، وكذلك الرب [تعالى وله المثل الأعلى] إذا رضي عنهم غضب لغضبهم، إذ هو راض بغضبهم) [٤] هـ.

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [٥] هـ) فقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ بين أنه رضي عنهم هذا الوقت فإن حرف (إذ) ظرف لما مضى من الزمان فعلم أنه ذاك الوقت رضي عنهم بسبب ذلك العمل وأثابهم عليه والمسبب لا يكون قبل سببه والموقت بوقت لا يكون قبل وقته وإذا كان راضياً عنهم من جهة فهذا

(٢) منهاج السنة (٨/٥٢٨ - ٥٢٩).

(١) مجموع الفتاوى (٧/٥٩ - ٦٠).

(٤) منهاج السنة (٤/٢٤٩ - ٢٥٠).

(٣) الجواب الصحيح (٦/٣٧٤).

الرضى الخاص الحاصل بالبيعة لم يكن إلا حينئذ كما ثبت في الصحيح أنه يقول لأهل الجنة: «يا أهل الجنة هل رضيتم فيقولون: يا ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول: ألا أعطيكم ما هو أفضل من ذلك فيقولون: يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١) وهذا يدل على أنه في ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان الذي لا يتعبه سخط أبداً ودل على أن غيره من الرضوان قد يتعبه سخط) ١. هـ^(٢).

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ لِّقَتْلِهِمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ تَطَبَّعُوا يَوْمَئِذٍ بِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٧﴾﴾. إلى قوله:

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ آيِدَى النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٨﴾﴾.

(وقال في سورة الفتح: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ آيِدَى النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿لِتَدْخُلْنَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَعَجَّلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا﴾ [الشورى: ٢٧]، وقال: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ لِّقَتْلِهِمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ تَطَبَّعُوا يَوْمَئِذٍ بِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٧﴾﴾، وهذا كله وقع كما أخبر فحصلت لهم الغنائم الكثيرة ودخلوا المسجد الحرام آمنين ودعيت الأعراب إلى قتال الروم والفرس يقاتلونهم أو يسلمون فلا بد من القتال أو الإسلام ليس هناك هدنة بلا قتال كما كان يكون قبل نزول الآية) ١. هـ^(٣).

(وقوله: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدْكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٧] ونحو ذلك وعد مجرد) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (فمثل قوله: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ - إلى قوله: -

(١) البخاري (٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩). (٢) مجموع الفتاوى (٤٤٤/٧).

(٣) الجواب الصحيح (٧٧/٦). (٤) مجموع الفتاوى (٥٢٦/١٧).

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴿١١﴾ إِلَى ﴿قَدِيرًا﴾ فدل على أنهم قدروا على الأول وهذه يمكن أن يقدروا عليها وقتاً آخر وهذه قدرة على الأعيان) ١. هـ^(١).

﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوثَ وَلِيَّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٢﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوثَ وَلِيَّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٣﴾، وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المتقدمين) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوثَ وَلِيَّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٣﴾، وتولينهم الأدبار: ليس مما نهوا عنه ولكن هو من جزاء أعمالهم) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ﴾، وقال: ﴿قَتَلْتُمُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، وقال: وكان كذلك فلم يقاتلوهم بعد نزول الآية إلا انتصر عليهم المسلمون، وما زال الإسلام في عز وظهور حتى ظهر على أهل المشرق والمغرب) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوثَ وَلِيَّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٣﴾، فأخبر أن سنة الله التي لا تبدل لها نصر المؤمنين على الكافرين) ١. هـ^(٥).

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿١٣﴾.

(ولكن العادة التي لا تنتقض بحال ما أخبر الله أنها لا تنتقض كقوله تعالى: ﴿لَنْ يَنْفَكُوا وَلِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِزُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُفِيقُوا أَخِذُوا وَفُتِلُوا فَتَبِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ [الأحزاب] وقال: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوثَ وَلِيَّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٣﴾، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَعْيُنِهِمْ لَنْ يَجَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿١٤﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١٤/٢٤٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٢٦).

(٥) الجواب الصحيح (٦/٧٥).

يَحْيِي الْمَكْرَ السَّيِّئَ إِلَّا بِأَمْرِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ [فاطر]، فهذه سنة الله وعادته في نصر عباده المؤمنين إذا قاموا بالواجب على الكافرين وانتقامه وعقوبته للكافرين الذين بلغتهم الرسل بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين هي سنة الله التي لا توجد منتقضة قط وكما قال قبل هذا: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ ﴿٣٨﴾ [الأحزاب] لم يقل هنا ولن تجد لأن هذه سنة شرعية لا ترى بالمشاهدة بل تعلم بالوحي بخلاف نصره للمؤمنين وعقوبته للمنذرين فإنه أمر مشاهد فلن يوجد منتقضا.

وقد أراد بعض الملاحدة كالسهروردي المقتول في كتابه «المبدأ والمعاد» الذي سماه «الألواح العمدانية» أن يجعل له دليلاً من القرآن والسنة على إلحاده فاستدل بهذه الآية على أن العالم لا يتغير، بل لا تزال الشمس تطلع وتغرب لأنها عادة الله.

فيقال له: انخراق العادات أمر معلوم بالحس والمشاهدة بالجملة وقد أخبر في غير موضع أنه سبحانه لم يخلق العالم عبثاً وباطلاً بل لأجل الجزاء فكان هذا من سنته الجميلة، وهو جزاؤه الناس بأعمالهم في الدار الآخرة كما أخبر به من نصر أوليائه وعقوبة أعدائه فبعث الناس للجزاء هو من هذه السنة وهو لم يخبر بأن كل عادة لا تنتقض بل أخبر عن السنة التي هي عواقب أفعال العباد بإثابته أوليائه ونصرهم على الأعداء فهذه هي التي أخبر أنه لن يوجد لها تبديل ولا تحويل كما قال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وذلك لأن العادة تتبع إرادة الفاعل، وإرادة الفاعل الحكيم هي إرادة حكيمة فتسوى بين المماثلات ولا يوجد لهذه السنة تبديل ولا تحويل وهو إكرام أهل ولايته وطاعته ونصر رسله والذين آمنوا على المكذبين فهذه السنة تقتضيها حكمته سبحانه، فلا انتقاض لها بخلاف ما اقتضت حكمته تغييره فذاك تغييره من الحكمة أيضاً ومن سنته التي لا يوجد لها تبديل ولا تحويل لكن في هذه الآيات رد على من يجعله يفعل ولا حكمة تقصد وهذا خلاف النصوص والعقول فإن السنة تقتضي تماثل الأحاد وأن حكم الشيء حكم نظيره فيقتضي التسوية بين المتماثلات وهذا خلاف قولهم (١).

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٢٤).

(ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاء أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه [منه] فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال النبي ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير ﷺ فقال: يا نبي الله قد وفى الله بدمتك، فلقد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل ﷺ فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة. قال: فو الله ما يسمعون بغير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ ﴿حِمَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦] وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه نبي الله ولم يقرؤا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت رواه البخاري^(١) عن عبد الله بن محمد المسندي عن عبد الرزاق، ورواه أحمد عن عبد الرزاق وهو أجل قدراً من المسندي شيخ البخاري، فما فيه من زيادة هي أثبت مما في البخاري^(٢) ١. هـ.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَنَى مَعَكُوا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢٥).

(يقول: لولا أن تطأوا أولئك المؤمنين والمؤمنات الذين لم تعلموهم إذا دخلتم

مكة بالسيف، لسلطكم على أهل مكة، ولو تميز المؤمنون من الكفار لعذبنا الكفار عذاباً أليماً، فهذا ونحوه مما يوافق دين المسلمين) ا.هـ^(١).

(ويستعمل متعدياً أيضاً، فيقال: عكفه يعكفه ويعكفه عكفاً: إذا حبسه ووقفه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْهَىٰ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَجَلَّةً﴾ ويقال ما عكفك عن كذا؟ أي ما حبسك عنه، وعكف الجوهر في النظم) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُّؤْمِنَاتٌ - إلى قوله: - لَو تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٣)، فلولا الضعفاء المؤمنون الذين كانوا بمكة بين ظهرائي الكفار عذب الله الكفار: وكذلك قال النبي ﷺ: «لولا ما في البيوت من النساء والذراري لأمرت بالصلاة فتقام ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة معنا فأحرق عليهم بيوتهم» وكذلك ترك رجم الحامل حتى تضع جنينها) ا.هـ^(٤).

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَإِنَّزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّاهِمِينَ كَلِمَةً تَقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ﴾ فإن الغضب والحمية تحمل المرء على فعل ما يضره، وترك ما ينفعه، وهذا من الجهل الذي هو عمل بخلاف العلم حتى يقدم المرء على فعل ما يعلم أنه يضره، وترك ما يعلم أنه ينفعه، لما في نفسه من البغض والمعاداة لأشخاص وأفعال وهو في هذه الحال ليس عديم العلم والتصديق بالكلية، لكنه لما في نفسه من بغض وحسد غلب موجب ذلك لموجب العلم فدل على ضعف العلم لعدم موجبه ومقتضاه، ولكن ذلك الموجب والنتيجة لا توجد عنه وحده بل عنه وعما في النفس من حب ما ينفعها وبغض ما يضرها، فإذا حصل لها مرض ففسدت به أحبت ما يضرها وأبغضت ما ينفعها، فتصير النفس كالمريض الذي يتناول ما يضره لشهوة نفسه له، مع علمه أنه يضره) ا.هـ^(٥).

قال ابن القيم:

﴿فَإِنَّزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ عليه قال: على أبي بكر وكان النبي ﷺ قد أنزلت عليه

(٢) شرح العمدة - الصيام (٢/٧٠٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/٥٤٠).

(١) جامع المسائل (٢/٧٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/١١٤).

السكينة قلت وكان شيخنا أبو العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - يذهب إلى خلاف هذا ويقول: الضمير عائد إلى النبي ﷺ أصلاً وإلى صاحبه تبعاً له، فهو الذي أنزل عليه السكينة وهو الذي أيده الله بالجنود وسرى ذلك إلى صاحبه انتهى (١) هـ. ١.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

(فإذا كان هذا قوله سبحانه فيمن ينكر الرحمن فما الظن بمن ينكر جميع معاني أسمائه وصفاته؟ وحمية هذا الملحد وأمثاله أن يكون له صفات حمية جاهلية شر من حمية الذين قال الله فيهم: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ لِيَْلَهُنَّ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه قد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ لما اصطاح هو والمشركون عام الحديبية أمر علياً أن يكتب في أول كتاب الصلح: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو وكان إذ ذاك مشركاً: لا نعرف الرحمن ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم فأمر علياً فكتب باسمك اللهم ثم قال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقالوا: لو علمنا أنك رسول الله ما قاتلناك ولكن اكتب: محمد بن عبد الله (٢)، فهؤلاء أخذتهم حمية جاهلية في إثبات أسماء الله ونبوة رسوله) هـ. ١ (٣).

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَآمِنِينَ مُحْلِفِينَ رُهُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَبَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحاً قَرِيباً﴾ (٤).

(وراجعه عمر بقوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَآمِنِينَ﴾ عام الحديبية لما صالح المشركين على الرجوع ذلك العام حتى قال له أبو بكر كما قال له النبي ﷺ: أقال لك أن تدخله هذا العام؟ قال: لا قال: فإنك داخله ومطوف به) هـ. ١ (٤).

وقال رحمه الله: (وأيضاً: فإنه سبحانه قال: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَآمِنِينَ مُحْلِفِينَ رُهُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ فجعل الحلق والتقصير شعار النسك وعلامته وعبر عن النسك بالحلق والتقصير وذلك يقتضي كونه جزء منه وبعضاً له لوجوه أحدها: أن العبادة إذا سميت بما يفعل فيها دل على أنه واجب فيها كقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وقوله: ﴿فَرَأَى إِلَهَ الْوَالِدِينَ﴾ [المزمل: ٢] و﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي إِلِيلٍ﴾ [المزمل: ٢٠]

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٨٩).

(٢) هذا في قصة الحديبية في البخاري.

(٣) درء تعارض العقل (٥/ ٥٣ - ٥٤).

(٤) الصنفية (١/ ١٤٠).

﴿وَأَرْكَبِي مَعَ الرُّكُوبِ﴾ [آل عمران: ٤٣] ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٨] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠].

ويقال: صليت ركعتين وسجدين وكذلك في الأعيان يعبر عن الشيء ببعض أجزائه كما قال: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٩٢] ويقال: عنده عشرة رؤوس وعشر رقاب.

الثاني: أن الحلق والتقصير إذا كان من لوازم النسك وهو أمر ظاهر باق أثره في المناسك: كان وجود النسك وجوداً له فجاز أن يقصد النسك بلفظه للزومه إياه أما إذا وجد معه تارة وفارقه تارة أخرى بحسب اختيار الإنسان: كان بمنزلة الركوب والمشى لا يحسن التعبير به عنه ولا يفهم منه.

الثالث...

ويشبه - والله أعلم - إنما ذكر الحلاق والتقصير دون الطواف والسعي: لأنهما صفتان لبدن الإنسان يتقلان بانتقاله.

والمراد بالدخول: الكون فكأنه قال: لتكونن بالمسجد الحرام ولتمكثن به حالقين ومقصرين وفيه أيضاً تنبيه على تمام النسك لأن الحلق والتقصير إنما يكون بعد التمام لثلا يخافوا أن يصدوا عن إتمام العمرة كما صدوا عن إتمامها عام أول) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فقوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لا يتصور فيه شك من الله بل ولا من رسوله المخاطب والمؤمنين ولهذا قال ثعلب: هذا استثناء من الله وقد علمه، والخلق يستثنون فيما لا يعلمون، وقال أبو عبيدة وابن قتيبة: (إن) بمعنى (إذ)^(٢) أي إذ شاء الله، ومقصوده بهذا تحقيق الفعل (إن) كما يتحقق مع (إذ) وإلا فإذا ظرف توقيت و(إن) حرف تعليق^(٣).

فإن قيل: فالعرب تقول: إذا احمر البسر فأتني ولا تقول: إن احمر البسر، قيل: لأن المقصود هنا توقيت الاتيان بحين احمراره فأتوا بالظرف المحقق ولفظ: (إن) لا يدل على توقيت بل هي تعليق محض تقتضي ارتباط الفعل الثاني بالأول ونظير ما نحن فيه أن يقولوا: يحمر ويطيب إن شاء الله وهذا حق فهذا نظير ذلك.

فإن قيل: طائفة من الناس فروا من هذا المعنى وجعلوا الاستثناء لأمر مشكوك فيه

(١) شرح العمدة - الحج (٢/ ٥٤٢ - ٥٤٣).

(٢) كذا في الأصل، والصواب: إذا، ومثله الموضعان بعده.

(٣) زاد المسير (٧/ ٤٤٣).

فقال الزجاج^(١): ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ أي أمركم الله به وقيل: الاستثناء يعود إلى الأمن والخوف أي لتدخلنه آمنين فأما الدخول فلا شك فيه، وقيل: لتدخلن جميعكم أو بعضكم لأنه علم أن بعضهم يموت فلا استثناء لأنهم لم يدخلوا جميعهم قيل: كل هذه الأقوال وقع أصحابها فيما فروا منه مع خروجهم عن مدلول القرآن فحرفوه تحريفاً لم ينتفعوا به فإن قول من قال: أي أمركم الله به، هو سبحانه قد علم هل يأمرهم أو لا يأمرهم فعلمه بأنه سيأمرهم بدخوله كعلمه بأن سيدخلوا فعلقوا الاستثناء بما لم يدل عليه اللفظ وعلم الله متعلق بالمظهر والمضمر جميعاً وكذلك أمنهم وخوفهم هو يعلم أنهم يدخلون آمنين أو خائفين وقد أخبر أنهم يدخلون آمنين مع علمه بأنهم يدخلون آمنين فكلاهما لم يكن فيه شك عند الله يل ولا عند رسوله وقول من قال: جميعهم أو بعضهم يقال: المعلق بالمشيئة دخول من أريد باللفظ فإن كان أراد الجميع فالجميع لا بد أن يدخلوه وإن أريد الأكثر كان دخولهم هو المعلق بالمشيئة، وما لم يرد لا يجوز أن يعلق بـ (إن) وإنما علق بـ (إن) ما سيكون وكان هذا وعداً مجزوماً به ولهذا لما قال عمر للنبي ﷺ عام الحديبية: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، قلت لك: إنك تأتيه هذا العام» قال: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به».

فإن قيل: لم لم يعلق غير هذا من مواعيد القرآن؟

قيل: لأن هذه الآية نزلت بعد مرجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية وكانوا قد اعتمدوا ذلك العام واجتهدوا في الدخول فصدتهم المشركون فرجعوا وبهم من الألم ما لا يعلمه إلا الله فكانوا منتظرين لتحقيق هذا الوعد ذلك العام إذ كان النبي ﷺ وعدهم وعداً مطلقاً.

وقد روي أنه رأى في المنام قائلاً يقول: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فأصبح فحدث الناس برؤياه وأمرهم بالخروج إلى العمرة فلم تحصل لهم العمرة ذلك العام فنزلت هذه الآية واعدة لهم بما وعدهم به الرسول من الأمر الذي كانوا يظنون حصوله ذلك العام.

وكان قوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هنا تحقيقاً لدخوله وأن الله يحقق ذلك لكم كما يقول الرجل فيما عزم على أن يفعله لا محالة: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لا يقولها لشك

في إرادته وعزمه بل تحقيقاً لعزمه وإرادته فإنه يخاف إذا لم يقل: إن شاء الله أن ينقض الله عزمه ولا يحصل ما طلبه كما في الصحيحين^(١) أن سليمان عليه السلام قال: والله لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل منهن تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله فلم يقل فلم تحمل منهن إلا امرأة جاءت بشق رجل قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون» فهو إذا قال: إن شاء الله لم يكن لشك في طلبه وإرادته بل لتحقيق الله ذلك له إذ الأمور لا تحصل إلا بمشيئة الله فإذا تألى العبد من غير تعليق بمشيئته لم يحصل مراده فإنه من يتألى على الله يكذبه، ولهذا يروى: «لا أتممت لمقدر امرأة».

وقيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم ونقض الهمم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۖ ﴿٣٦﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف] فإن قوله: لأفعلن، فيه معنى الطلب والخبر، وطلبه جازم، وأما كون مطلوبه يقع فهذا يكون إن شاء الله، وطلبه للفعل يجب أن يكون من الله بحوله وقوته ففي الطلب عليه أن يطلب من الله، وفي الخبر لا يخبر إلا بما علمه الله، فإذا جزم بلا تعليق كان كالتألي على الله فيكذبه الله، فالمسلم في الأمر الذي هو عازم عليه ومريد له وطالب له طلباً لا تردد فيه يقول: إن شاء الله لتحقيق مطلوبه وحصول ما أقسم عليه لكونه لا يكون إلا بمشيئة الله لا لتردد في إرادته والرب تعالى مريد لانجاز ما وعدهم به إرادة جازمة لا مثنوية فيها، وما شاء فعل؛ فإنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ليس كالعبد الذي يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد.

فقوله سبحانه: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تحقيق أن ما وعدتكم به يكون لا محالة بمشيئتي وإرادتي فإن ما شئت كان وما لم أشأ لم يكن فكان الاستثناء هنا لقصد التحقيق لكونهم لم يحصل لهم مطلوبهم الذي وعدوا به ذلك العام وأما سائر ما وعدوا به فلم يكن كذلك.

ولهذا تنازع الفقهاء فيمن أراد باستثنائه في اليمين هذا المعنى وهو التحقيق في استثنائه لا التعليق هل يكون مستثنياً به أم تلزمه الكفارة إذا حث بخلاف من ترددت إرادته فإنه يكون مستثنياً بلا نزاع، والصحيح أنه يكون في الجميع مستثنياً لعموم المشيئة ولأن الرجل وإن كانت إرادته للمحلف به جازمة، فقد علقه بمشيئة الله فهو يجزم

بإرادته له لا يجزم بحصول مراده ولا هو أيضاً مريد له بتقدير أن لا يكون فإن هذا تمييز لا إرادة فهو إنما التزمه إذا شاء الله فإذا لم يشأه لم يلتزمه بيمينه ولا حلف أنه يكون: وإن كانت إرادته له جازمة فليس كل ما أريد التزم باليمين فلا كفارة عليه.

وقد تبين بما ذكرناه أن قول القائل: (إن شاء الله) يكون مع كمال إرادته في حصول المطلوب وهو يقولها لتحقيق المطلوب لاستعانته بالله في ذلك لا لشك في الإرادة هذا فيما يحلف عليه ويريده كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فإنه خبر عما أراد الله كونه وهو عالم بأن سيكون وقد علقه بقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فكذلك ما يخبر به الإنسان عن مستقبل أمره مما هو جازم بإرادته وجازم بوقوعه فيقول فيه: إن شاء الله، لتحقيق وقوعه، لا للشك لا في إرادته ولا في العلم بوقوعه.

ولهذا يذكر الاستثناء عند كمال الرغبة في المعلق وقوة إرادة الإنسان له فتبقى خواطر الخوف تعارض الرجاء فيقول: إن شاء الله لتحقيق رجائه مع علمه بأن سيكون كما يسأل الله ويدعوه في الأمر الذي قد علم أنه يكون، كما كان النبي ﷺ يوم بدر قد أخبرهم بمصارع المشركين، ثم هو بعد هذا يدخل إلى العريش يستغيث ربه ويقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني»^(١) لأن العلم بما يقدره لا ينافي أن يكون قدره بأسباب والدعاء من أعظم أسبابه، كذلك رجاء رحمة الله وخوف عذابه من أعظم الأسباب في النجاة من عذابه وحصول رحمته.

والاستثناء بالمشيئة يحصل في الخبر المحض وفي الخبر الذي معه طلب فالأول إذا حلف على جملة خبرية لا يقصد به حضاً ولا منعاً بل تصديقاً أو تكذيباً كقوله: والله ليكونن كذا إن شاء الله أو لا يكون كذا والمستثنى قد يكون عالماً بأن هذا يكون أو لا يكون كما في قوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ﴾ فإن هذا جواب غير محذوف.

والثاني: ما فيه معنى الطلب كقوله والله لأفعلن كذا أو لا أفعله إن شاء الله فالصيغة صيغة خبر ضمنها الطلب ولم يقل: والله إنني لمريد هذا ولا عازم عليه بل قال: والله ليكونن، فإذا لم يكن فقد حث لوقوع الأمر بخلاف ما حلف عليه فحث فإذا قال: إن شاء الله فإنما حلف عليه بتقدير إن شاء الله لا مطلقاً.

ولهذا ذهب كثير من الفقهاء إلى أنه متى لم يوجد المحلوف عليه حث أو متى

وجد المحلوف عليه أنه لا يفعله حث سواء كان ناسياً أو مخطئاً أو جاهلاً فإنهم لاحظوا أن هذا في معنى الخبر فإذا وجد بخلاف مخبره فقد حث وقال الآخرون: بل هذا مقصوده الحض والمنع كالأمر والنهي ومتى نهى الإنسان عن شيء ففعله ناسياً أو مخطئاً لم يكن مخالفاً فكذلك هذا.

قال الأولون: فقد يكون في معنى التصديق والتكذيب، كقوله: والله ليقعن المطر، أو لا يقع، وهذا خبر محض ليس فيه حض ولا منع ولو حلف على اعتقاده فكان الأمر بخلاف ما حلف عليه، حث، وبهذا يظهر الفرق بين الحلف على الماضي والحلف على المستقبل فإن اليمين على الماضي غير منعقدة فإذا أخطأ فيها لم يلزمه كفارة كالغموس بخلاف المستقبل وليس عليه أن يستثنى في المستقبل إذا كان فعله قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغَيَّرَ قُلُّ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَغَيِّرَهُ ثُمَّ لَنَنْبُوْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن] فأمره أن يقسم على ما سيكون وكذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣] كما أمره أن يقسم على الحاضر في قوله: ﴿وَيَسْتَبِشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّمَا لِحَقِّ﴾ [يونس: ٥٣] وقد قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً»^(١) وقال: «والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيما قتل ولا المقتول فيما قتل»^(٢) وقال: «إذا هلك كسرى أو ليهلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»^(٣) وكلاهما في الصحيح.

فأقسم صلوات الله وسلامه عليه على المستقبل في مواضع كثيرة بلا استثناء والله ﷻ أعلم) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ يدل على أنه يشاء ذلك فيما بعد) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال أبو عبد الله: قال الله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي أن هذا استثناء بغير شك) ا. هـ^(٦).

(١) مر تخريجه. (٢) مسلم (٢٩٠٨).

(٣) البخاري (٣٦١٨)، ومسلم (٢٩١٨). (٤) مجموع الفتاوى (٤٥٤/٧ - ٤٦٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٤٤٦/٧).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٥٥/٧) (٦٦٨/٧) وأبو عبد الله الإمام أحمد.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١).

(قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ فيظهره بالدلائل والآيات العلمية التي تبين أنه حق ويظهره أيضاً بنصره وتأييده على مخالفيه ويكون منصوراً كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] فهذه شهادة حكم) ١. هـ (١).

وقال رحمه الله: (كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله: ﴿أَوَّلِي الْأَيْدَىٰ وَالْأَبْصَرِ﴾ [ص: ٤٥] وقوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقوله: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٦] وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وفي خطبة النبي ﷺ: «إن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد» (٢) ١. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، وظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان إنما هو بما يظهره من آياته وبراهينه وذلك إنما يتم بالعلم بما ينقل عن محمد من آياته التي هي الأدلة وشرائعه التي هي المدلول: المقصود بالأدلة فهذا قد أظهره الله علماً وحجة وبياناً على كل دين كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً على كل دين والحمد لله رب العالمين) ١. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ والهدى هنا هو الإيمان ودين الحق هو الإسلام وإذا أطلق الهدى كان كالإيمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا) ١. هـ (٥).

وقال رحمه الله: (والله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ بالحجة والبيان وباليد واللسان هذا إلى يوم القيامة لكن الجهاد المكي بالعلم والبيان والجهاد المدني مع المكي باليد والحديد) ١. هـ (٦).

(١) مجموع الفتاوى (١٤/١٩٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/٥٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/١٦٦).

(٤) هذا في خطبة الحاجة المشهورة الصحيحة.

(٥) الجواب الصحيح (٦/٣٦١).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/٣٨).

وقال رحمه الله: (الفرقان والسلطان يكون بالحجة والعلم ويكون بالنصر والتأييد كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (١) هـ.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢) هـ. وكان كما أخبر ووعد) (٣) هـ.

وقال رحمه الله: (﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢) هـ، فالهدى يتضمن العلم النافع ودين الحق يتضمن العمل الصالح ومبناه على العدل كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وأصل العدل: العدل في حق الله تعالى: وهو عبادته وحده لا شريك له فإن الشرك ظلم عظيم كما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الآية [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم» (٣) هـ.

وقال رحمه الله: (والرسول - صلوات الله عليه وسلامه - قد أرسل بالبينات والهدى بين الأحكام الخبرية والطلبية وأدلتها الدالة عليها، بين المسائل والوسائل، بين الدين ما يقال وما يعمل، وبين أصوله التي بها يعلم أنه دين حق، وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في غير موضع، وبين أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ذكر هذا في سورة التوبة والفتح والصف. والهدى هو هدى الخلق إلى الحق وتعريفهم ذلك وإرشادهم إليه، وهذا لا يكون إلا بذكر الأدلة والآيات الدالة على أن هذا هدى، وإلا فمجرد خبر لم يعلم أنه حق ولم يقم دليل على أنه حق ليس بهدى، وهو سبحانه إذا ذكر الأنبياء نبينا وغيره ذكر أنه أرسلهم بالآيات البينات وهي الأدلة والبراهين البينة المعلومة علماً يقينياً؛ إذ كان كل دليل لا بد أن ينتهي إلى مقدمات بينة بنفسها قد تسمى بديهيات وقد تسمى ضروريات وقد تسمى أوليات وقد يقال: هي معلومة بأنفسها، فالرسل صلوات الله عليهم بعثوا بالآيات البينات. وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي

(٢) الجواب الصحيح (٦/ ٧١ - ٧٢).

(١) طريق الوصول (١٦٢).

(٣) الجواب الصحيح (١/ ١٠٦ - ١٠٧).

أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(١) ا.هـ^(٢).

وقال القاسمي رحمه الله:

(وقال ابن تيمية: قد أظهره الله علماً وحجة وبياناً على كل دين كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً وقد امتلأت الأرض منه ومن أمته في مشارق الأرض ومغاربها وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله كما زال ملك اليهود وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها. انتهى) ا.هـ^(٣).

﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُبْتِغِينَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٤).

(والاسم يراد به من الكلام المؤلف المسمى فإذا قال: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ فالمراد أن المسمى الذي اسمه محمد هو رسول الله، ليس المراد أن نفس اللفظ والخط هو رسول الله) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُبْتِغِينَ﴾ فهذا اثناء عليهم بهما) ا.هـ^(٥).
وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُبْتِغِينَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٦) فهذا يتناول الذين آمنوا مع الرسول مطلقاً) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي على الإيمان لا أن ذاته في ذاتهم بل هم مصاحبون له) ا.هـ^(٧).

وقال رحمه الله: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا

(١) البخاري (٣٦٨/١ - ٣٧١)، ومسلم (٥٢١). (٢) النبوات (١٥٤ - ١٥٥).

(٣) ذكره القاسمي في تفسيره (٩٩/١٥). (٤) مجموع الفتاوى (١٦٩/١٢).

(٥) المستدرک على المجموع الفتاوى (المخطوط تحت الطبع).

(٦) مجموع الفتاوى (٤٦٣/٤).

(٧) مجموع الفتاوى (١٢٧/٥) (٢٣١/٥)، منهاج السنة (٣٧٥/٨).

سُجْدًا يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴿١﴾ فوصفهم بالشدة على الكفار والضلال (١) هـ.

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى فيهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وكل من المهاجرين المجاهدين كان سيفاً على أعداء الله ورحمة لأولياء الله) (٢) هـ.

وقال رحمه الله: (إلى قوله سبحانه: ﴿سِيمَاءُ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ فهذه السیما في وجوه المؤمنين، والسیما: العلامة، وأصلها من الوسم، وكثيراً ما يستعمل في الحسن، كما جاء في صفة النبي ﷺ: وسیم قسیم. وقال الشاعر:

غلام رماه الله بالحسن يافعاً له سیماء لا تشق على البصر

وقال الله تعالى في صفة المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَقَرْنَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد: ٣٠] فجعل للمنافقين سیماء أيضاً.

وقال: ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ [الحج: ٧٢] فهذه السیما وهذا المنكر قد [يوجد] في وجه من صورته المخلوقة وضيئة كما يوجد مثل ذلك في الرجال والنساء والولدان لكن بالنفاق قبح وجهه فلم يكن فيه الجمال الذي يحبه الله وأساس [ذلك] النفاق والكذب.

ولهذا يوصف الكذاب بسواد الوجه كما يوصف الصادق ببياض الوجه كما أخبر الله بذلك ولهذا روي عن عمر بن الخطاب أنه أمر بتعزير شاهد الزور بأن يسود وجهه ويركب مقلوباً على الدابة؛ فإن العقوبة من جنس الذنب فلما اسود وجهه بالكذب وقلب الحديث سود وجهه وقلب في ركوبه، وهذا أمر محسوس لمن له قلب فإن ما في القلب من النور والظلمة والخير والشر يسري كثيراً إلى الوجه والعين وهما أعظم الأشياء ارتباطاً بالقلب.

ولهذا يروى عن عثمان - أو غيره - أنه قال: «ما أسر أحد بسريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه» والله قد أخبر في القرآن أن ذلك قد يظهر في الوجه فقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَقَرْنَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فهذا تحت المشيئة ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] فهذا مقسم عليه محقق لا شرط فيه، وذلك أن ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه لكنه يبدو في الوجه بدواً خفياً

يعلمه الله، فإذا صار خلقاً ظهر لكثير من الناس، وقد يقوى السواد والقسمة حتى يظهر لجمهور الناس، وربما مسح قرداً أو خنزيراً كما في الأمم قبلنا وكما في هذه الأمة أيضاً وهذا كالصوت المطرب إذا كان مشتملاً على كذب وفجور فإنه موصوف بالقبح والسوء الغالب على ما فيه من حلاوة الصوت) ١.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فإن الوسم علامة مقصودة للواسم وأما السيمما فهي علامة بنفسها لم يقصدها مثل سيمما المؤمنين وسيمما المنافقين قال تعالى في المؤمنين: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ وقال في المنافقين: ﴿لَقَدْ عَرُفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد: ٣٠] وقال: ﴿عَتَلِ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ [القلم: ١٣] قيل: له زئمة من الشر يعرف بها، ومنه سيمما المؤمنين يوم القيامة التي بها يعرفهم نبيهم وهو أنهم غر محجلون من آثار الوضوء) ١.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأما الأنبياء: فإنهم يتلون كثيراً ليمحصوا بالبلاء؛ فإن الله إنما يمكن العبد إذا ابتلاه ويظهر أمرهم شيئاً فشيئاً كالزروع قال تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ تَقْفِرَهُ وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾) ١.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ - إلى قوله: - لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ فلا بد أن يغيب بهم الكفار، وإذا كان الكفار يغازون بهم فمن غيب بهم فقد شارك الكفار فيما أذلهم الله به وأخزاهم وكبتهم على كفرهم ولا يشارك الكفار في غيظهم الذي كبتوا به جزاء لكفرهم إلا كافر لأن المؤمن لا يكبت جزاء للكفر.

يوضح ذلك أن قوله تعالى: ﴿لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ تعليق للحكم بوصف مشتق مناسب لأن الكفر مناسب لأن يغاظ صاحبه فإذا كان هو الموجب لأن يغيب الله صاحبه بأصحاب محمد فمن غاظه الله بأصحاب محمد فقد وجد في حقه موجب ذلك وهو الكفر.

قال عبد الله بن إدريس الأودي الإمام: ما آمن أن يكونوا قد ضارعوا الكفار - يعني الرافضة - لأن الله تعالى يقول: ﴿لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ وهذا معنى قول الإمام أحمد: ما أراه على الإسلام) ١.هـ^(٤).

(١) الاستقامة (١/ ٣٥٣ - ٣٥٥).

(٢) النبوات (١٨٦).

(٣) الجواب الصحيح (٦/ ٤٢٣ - ٤٢٤).

(٤)

الصارم المسلول (٥٨١ - ٥٨٢).

سورة الحجرات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلِيمٌ﴾.

(أمر الله المؤمنين أن يكونوا مع الله ورسوله كذلك، فإن البشر لم يسمعوا كلام الله منه، بل بينهم وبينه رسول من البشر، فعليهم أن لا يقولوا حتى يقول الرسول ما بلغهم عن الله، ولا يعملون إلا بما أمرهم به كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلِيمٌ﴾).

قال مجاهد^(١): لا تفتاتوا عليه بشيء حتى يقضيه الله على لسانه «تقدموا» معناه تتقدموا وهو فعل لازم وقد قرئ «يقدموا»^(٢) يقال: قدم وتقدم، كما يقال: بين وتبين، وقد يستعمل قدم متعدياً أي قدم غيره، لكن هنا هو فعل لازم، فلا تقدموا معناه لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (فإنه قد قال: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله ففيه نوع من التقدم بين يدي الله ورسوله) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (و«التثبت» هو التثبت كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ [النساء: ٦٦] كقوله: ﴿وَيَبْتَغِلْ إِلَيْهِ تَتَبِلًا﴾ [المزمل: ٨] ويشبهه - والله أعلم - أن يكون هذا من باب قدم وتقدم كقوله: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فتثبت وتثبت لازم بمعنى ثبت لأن التثبت هو القوة والمكنة وضده الزلزلة) ١. هـ^(٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

(١) ابن جرير (١١٦/٢٦).

(٢) كذا في الأصل، ويظهر أنه تحريف من الناسخ بدليل ما بعده من التعليل، وقد قرأ يعقوب بفتح التاء والذال وقرأ الباقون بضم التاء وكسر الذال. النشر (٣٧٥/٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٦٢/١٣). (٤) مجموع الفتاوى (١٣٤/٢٨).

(٥) مجموع الفتاوى (٩٤/١٤ - ٩٥).

(وفي البخاري عن ابن الزبير أنه لما قدم على النبي ﷺ وفد تميم، قال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد. وقال عمر: أمر الأقرع بن حابس فقال: ما أردت إلا خلافي فقال: ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ فكان عمر بعد ذلك لا يحدثه إلا كأخي السرار^(١) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لأن ذلك قد يتضمن الكفر فيقتضي الجبوت وصاحبه لا يدري كراهية أن يحبط أو خشية أن يحبط، فنهاهم عن ذلك لأنه يفضي إلى الكفر المقتضي للجبوت) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قوله سبحانه: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي حذر أن تحبط أعمالكم، أو خشية أن تحبط أعمالكم، أو كراهية أن تحبط، أو منع أن تحبط، هذا تقدير البصريين وتقدير الكوفيين لثلاث تحبط.

فوجه الدلالة أن الله سبحانه نهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن الجهر له كجهر بعضهم لبعض؛ لأن هذا الرفع والجهر قد يفضي إلى جبوت العمل وصاحبه لا يشعر؛ فإنه علل نهيمهم عن الجهر وتركهم له بطلب سلامة العمل عن الجبوت، وبيّن أن فيه المفسدة جواز جبوت العمل وانعقاد سبب ذلك وما قد يفضي إلى جبوت العمل يجب تركه غاية الوجوب، والعمل يحبط بالكفر قال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم مِّنْ دِينِهِ فَمَا يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] وقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد] وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد] كما أن الكفر إذا قارنه عمل لم يقبل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد]، وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤] وهذا ظاهر ولا يحبط الأعمال غير الكفر؛ لأن من

(٢) منهاج السنة (٦/٣١٣).

(١) البخاري (٤٨٤٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٤٩٤).

مات على الإيمان فإنه لا بد أن يدخل الجنة ويخرج من النار إن دخلها ولو حبط عمله كله لم يدخل الجنة قط ولأن الأعمال إنما يحبطها ما ينافيها ولا ينافي الأعمال مطلقاً إلا الكفر وهذا معروف من أصول أهل السنة، نعم قد يبطل بعض الأعمال بوجود ما يفسده، كما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] ولهذا لم يحبط الله الأعمال في كتابه إلا بالكفر.

فإذا ثبت أن رفع الصوت فوق صوت النبي والجهر له بالقول يخاف منه أن يكفر صاحبه وهو لا يشعر ويحبط عمله بذلك، وأنه مظنة لذلك وسبب فيه؛ فمن المعلوم أن ذلك لما ينبغي له من التعزير والتوقير والتشريف والتعظيم والإكرام والإجلال، ولما أن رفع الصوت قد يشمل على أذى له، واستخفاف به، وإن لم يقصد الرفع ذلك فإذا كان الأذى والاستخفاف الذي يحصل في سوء الأدب من غير قصد صاحبه يكون كفراً؛ فالأذى والاستخفاف المقصود المتعمد كفر بطريق الأولى) ١. هـ^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفْيِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

(وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ الآية فإنه مدحهم على غض الصوت عند رسوله مطلقاً فهم مأمورون بذلك في مثل ذلك ينهون عن رفع الصوت عنده ﷺ وأما غض الصوت مطلقاً عند رسول الله ﷺ فهو غض خاص ممدوح ويمكن العبد أن يغض صوته مطلقاً في كل حال ولم يؤمر العبد به؛ بل يؤمر برفع الصوت في مواضع: إما أمر إيجاب أو استحباب فلهذا قال: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩] فإن الغض في الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه فبالسمع يدخل القلب، وبالصوت يخرج منه، كما جمع العضوين في قوله: ﴿أَلَّا تَجْعَلَ لَهُ عِثْنَ﴾ ٨ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ٩ [البلد] فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور، واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور، هذا رائد القلب وصاحب خبره وجاسوسه وهذا ترجمانه) ١. هـ^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهْلِكِهِمْ فَيَضْئِبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَذْمِينَ﴾ ١١.

(وهذا الوليد بن عقبة الذي أنكر عليه ولايته قد اشتهر في التفسير والحديث [السير] أن النبي ﷺ ولّاه على صدقات ناس من العرب فلما قرب منهم خرجوا إليه، فظن أنهم يحاربونه، فأرسل إلى النبي ﷺ يذكر محاربتهم [له] فأراد النبي ﷺ أن يرسل إليهم جيشاً، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِمْ فَتَصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ يتناول خبر كل فاسق - وإن كان كافراً - لا يجوز تكذيبه إلا بيينة، كما لا يجوز تصديقه إلا بيينة) هـ. ١. (٢).

وقال رحمه الله: (وقد نهى سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية، لكن هذا نص في أن الفاسق الواحد يجب التبين في خبره) هـ. ١. (٣).

وقال رحمه الله: (ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِمْ﴾ ففي الآية دلالات:

أحدهما قوله: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ فأمر بالتبين عند مجيء كل فاسق بكل نبأ؛ بل من الأنباء ما ينهى فيه عن التبين، ومنها ما يباح فيه ترك التبين، ومن الأنباء ما يتضمن العقوبة لبعض الناس؛ لأنه علل الأمر بأنه إذا جاءنا فاسق بنبأ^(٤) خشية أن نصيب قوماً بجهالة فلو كان كل من أصيب بنبأ كذلك لم يحصل الفرق بين العدل والفاسق بل هذه دلالة واضحة على أن الإصابة بنبأ العدل الواحد لا ينهى عنها مطلقاً وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات فإن سبب نزول الآية يدل على ذلك فإنها نزلت في إخبار واحد بأن قوماً قد حاربوا بالردة أو نقض العهد.

وفيه أيضاً أنه متى اقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه فقد استبان الأمر وزال الأمر بالتثبت فتجوز إصابة القوم وعقوبتهم بخبر الفاسق مع قرينة إذا تبين بهما الأمور فكيف خبر الواحد العدل مع دلالة أخرى ولهذا كان أصح القولين أن مثل هذا لوث في باب القسامة فإذا انضاف إيمان المقسمين صار ذلك بيينة تبيح دم المقسم عليه. وقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِمْ﴾ فجعل المحذور هو الإصابة لقوم بلا علم فمتى أصيبوا بعلم زال المحذور وهذا هو المناط الذي دل عليه القرآن كما قال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾

(١) منهاج السنة (٣/٣٩٩) (٦/١٩٣، ١٤٠، ٢٣٩ - ٢٤٠) (٧/٣٤٧)، مجموع الفتاوى (١٥/١٨٧).

(٢) الجواب الصحيح (٦/٤٦١). (٣) مجموع الفتاوى (١٥/٣٥٢).

(٤) كذا في الأصل، ولعل العبارة تستقيم إذا زيد: «أن تبين».

وَهُمْ يَقْلُوبُونَ ﴿[الزحرف: ٨٦] وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] هـ. ١^(١).

وقال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ فَبَيِّنْهُ﴾ وفي القراءة الأخرى ﴿فَتَّبِعُوا﴾، فأمر بالتبين والتثبت إذا أخبر الفاسق بخبر، ولم يأمر بتكذيبه بمجرد إخباره، لأنه ثقة يصدق أحياناً.

فلما أمر سبحانه بالتبين والتثبت في خبر الفاسق: دل ذلك على أنه لا يجوز تصديقه بمجرد إخباره، إذ كان فاسقاً، قد يكذب، ولا يجوز - أيضاً - تكذيبه قبل أن يعرف أنه قد - كذب - وإن كان فاسقاً؛ لأن الفاسق قد يصدق، وهذا كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَّبِعُوا﴾ وفي القراءة الأخرى: (فتثبتوا)، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَسَدَ اللَّهُ مَفَاتِدُ كَثِيرَةٍ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمُرَّكٌ عَلَيْكُمْ فَتَّبِعُوا﴾ [النساء: ٩٤]، فأمرهم بالتبين والتثبت في الجهاد وأن لا يقولوا للمجهول حاله: لست مؤمناً يبتغون عرض الحياة الدنيا فيكون إخبارهم عن كونه ليس مؤمناً خبراً بلا دليل بل لهوى أنفسهم ليأخذوا ماله وإن كان ذلك في دار الحرب إذا ألقى (السلام) وفي القراءة الأخرى: (السلام)^(٢) فقد يكون مؤمناً يكتم إيمانه كما كنتم أنتم من قبل مؤمنين تكتُمون إيمانكم فإذا ألقى المسلم السلام فذكر أنه مسالم لكم لا محارب، فتثبتوا وتبينوا لا تقتلوه ولا تأخذوا ماله حتى تكشفوا أمره، هل هو صادق أو كاذب؟ وهذا خبر يتضمن دعوى له فإن المدعي مخبر، والمنكر مخبر، والشاهد مخبر والمقر مخبر هـ. ١^(٣).

وقال رحمه الله: (ونبأ الفاسق ليس بمردود، بل هو موجب للتبين والتثبت، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ فَبَيِّنْهُ﴾ أن تُبَيِّنُوا قَوْمًا مِجْهَلَةً فَتُصِحُّوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَدْرِيبِينَ ﴿١﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿فَتَّبِعُوا﴾^(٤) فعلياً التبين والتثبت عند خبر الفاسق الواحد، ولم نؤمر به عند خبر الفاسقين، وذلك أن خبر الاثنين يوجب من الاعتقاد ما لا

(١) مجموع الفتاوى (٣٠٦/١٥ - ٣٠٧).

(٢) قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر وحمزة وخلف بحذف ألف (السلام)، وقرأ الباقر بإثباتها. النشر (٢/٢٥١) وتبين من بعض المواضع أن شيخ الإسلام يقرأ بقراءة أبي عمرو.

(٣) الجواب الصحيح (٦/٤٥٥ - ٤٥٧).

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف (فتثبتوا) من التثبت، وقرأ الباقر (فتبينوا) من التبين. النشر (٢/٢٥١).

يوجه خبر الواحد. أما إذا علم أنهما لم يتواطأ فهذا قد يحصل به العلم) ا.هـ^(١).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧).

(وكذلك قوله: ﴿وَكَّرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ جعل ذلك ثلاث مراتب) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فقد عطف المعصية على الكفر والفسوق في قوله: ﴿وَكَّرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ ومعلوم أن الفاسق عاص أيضاً) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾، قال محمد بن نصر المروزي: لما كانت المعاصي بعضها كفر، وبعضها ليس بكفر فرق بينها فجعلها ثلاثة أنواع: نوع منها كفر، ونوع منها فسوق وليس بكفر، ونوع عصيان وليس بكفر ولا فسوق وأخبر أنه كرهها كلها إلى المؤمنين ولما كانت الطاعات كلها داخلة في الإيمان وليس فيها شيء خارج عنه لم يفرق بينها فيقول: حبيب إليكم الإيمان والفرائض وسائر الطاعات بل أجمل ذلك فقال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ فدخل في ذلك جميع الطاعات لأنه قد حبيب إلى المؤمنين الصلاة والزكاة وسائر الطاعات حب تدين، لأن الله أخبر: أنه حبيب ذلك إليهم وزينه في قلوبهم لقوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ ويكرهون جميع المعاصي؛ الكفر فيها والفسوق وسائر المعاصي كراهة تدين لأن الله أخبر: أنه كره ذلك إليهم، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «من سرته حسنته وساءته سيئته: فهو مؤمن»^(٤)؛ لأن الله حبيب إلى المؤمنين الحسنات وكره إليهم السيئات.

«قلت»: وتكرهيه جميع المعاصي إليهم يستلزم حب جميع الطاعات لأن ترك الطاعات معصية ولأنه لا يترك المعاصي كلها إن لم يتلبس بضدها فيكون محباً لضدها وهو الطاعة إذ القلب لا بد له من إرادة فإذا كان يكره الشر كله؛ فلا بد أن يريد الخير) ا.هـ^(٥).

(١) المستدرك (٢٠٤/٥) نقلاً عن الإنصاف. (٢) مجموع الفتاوى (٦١/٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٦١/٧).

(٤) الترمذي (٢١٦٥)، والنسائي في «عشرة النساء» (٣٤٣)، وابن ماجه (٢٣٦٣)، وأحمد (١٨/١) وغيرهم والحديث صحيح.

(٥) مجموع الفتاوى (٤٢/٧ - ٤٣).

وقال رحمه الله: (وأيضاً فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبِّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ فبين أنه حبيب الإيمان إلى المؤمنين وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

والقدرية من المعتزلة والشيعة تتأول ذلك بأنه حبيب الإيمان إلى كل مكلف وزينه بما أظهره من دلائل حسنة، وكره الكفر بما أظهره من دلائل قبحه.

فيقال لهم: أول الآية وآخرها خطاب للمؤمنين بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ وقال في آخرها: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرُّشِدُونَ﴾ فبين أن الذين حبيب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر هم الراشدون والكفار ليسوا براشدين ولو كان قد فعل بالكفار كما فعل بهم لم يصح أن يمتن عليهم بما يشعر اختصاصهم به.

كما قال في أثناء السورة: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ آسَلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمْتُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، فلو كان المراد بالهداية الهداية التي يشترك فيها المؤمن والكافر لم يقل: إن كنتم صادقين فإن تلك حاصلة سواء كانوا صادقين في قولهم أمناً^(١) أو لم يكونوا صادقين.

وهذا كقوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] وأمثال ذلك مما يبين اختصاص المؤمنين بهدى ليس للكفار.

كقوله: ﴿مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَئِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا لَّهْدَىٰ بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ومثل هذا في القرآن كثير) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال سبحانه في حال المؤمنين: ﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبِّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ فأخبر أنه فعل ذلك بهم بعد ما خلقهم ولم يقل: خلقهم مؤمنين وكره إليكم الكفر فدل على أنه لم يفعل بالكافر ما فعل بالمؤمن، وذلك أبلغ دليل على أنهم لم يخلقوا صبغة: كافرين ولا مؤمنين) ١. هـ^(٣).

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «آمنة» لأن الكلام عن الأعراب الذين قالوا آمنا.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/٢٦ - ٢٧).

(٣) درء تعارض العقل (٨/٤٩٦).

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَهُمْ فَإِن بُعِثَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ فَمَا تَقُولُونَ ۖ
فَقِيلُوا إِنَّا نَجِدُهُم بِآيَاتِهِ يَكْفُرُونَ ۚ

(قال تعالى: ﴿وَلَيْتَافَتَانٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْبَلْتُمَا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فبين أن هؤلاء لم يخرجوا من الإيمان بالكلية، ولكن فيهم ما هو كفر وهي هذه الخصلة كما قال بعض الصحابة كفر دون كفر. وكذلك قوله: «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما» فقد سماه أخاه حين القول وقد أخبر أن أحدهما باء بها، فلو خرج أحدهما عن الإسلام بالكلية لم يكن أخاه بل فيه كفر) ١ هـ.

وقال رحمه الله: (وأيضاً فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فقد جعلهم مؤمنين إخوة مع الاقتتال والبغي) ١. هـ (٢).

وقال رحمه الله في سياق كلامه عن الحرب التي جرت بين بعض الصحابة :
(والكتاب - والسنة - قد دل على أن الطائفتين مسلمون ، وأن ترك القتال كان خيراً من
وجوده قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى
الْأُخْرَىٰ فَفْتِنُوا إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٩) فسماهم مؤمنين إخوة مع وجود الاقتتال والبغى (١) هـ .^(٣)

وقال رحمه الله: (فإنه قد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا إِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْضُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٩١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٩٢﴾ فقد جعلهم مع وجود الاقتتال والبغي مؤمنين إخوان؛ بل مع أمره بقتال الفئة الباغية جعلهم مؤمنين وليس كل ما كان بغياً وظلماً أو عدواناً يخرج عموم الناس عن الإيمان ولا يوجب لعنتهم؛ فكيف يخرج ذلك من كان من خير القرون) ١. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ

(۱) مجموع الفتاوى (۷/۳۵۵).

(٢) منهاج السنة (٤/٤٩٨) ومنهاج السنة (٣/٣٩٦)، جامع المسائل (٣/٧٣) قريباً منه.

(٣) منهاج السنة (٤/٤٤٩ - ٤٥٠). (٤) مجموع الفتاوى (٣٥/٧٤ - ٧٥).

وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴿٥﴾ فَأَخْبِرْ سَبْحَانَهُ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ مُقْتَلُونَ وَأَمْرٌ إِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى أَنْ تَقَاتِلَ الَّتِي تَبْغِي فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَمْرٌ بِقِتَالِ أَحَدِهِمَا ^(١) ابْتِدَاءً ثُمَّ أَمْرٌ إِذَا فَاءَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦﴾﴾ فدل القرآن على إيمانهم وأخوتهم مع وجود الاقتتال والبغي وأنه يأمر بقتال الباغية حيث أمر الله به (١) هـ.

وقال رحمه الله: (فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضاً من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلهم مسلمون مؤمنون كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَيْكَ أَمْرٌ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤﴾﴾ فقد بين الله تعالى أنهم مع اقتتالهم، وبغي بعضهم على بعض إخوة مؤمنون وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل.

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضاً موالاة الدين، لا يعادون كمعاداة الكفار فيقبل بعضهم شهادة بعض ويأخذ بعضهم العلم عن بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض؛ مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك) (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقالوا لهم وللمعتزلة: قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَيْكَ أَمْرٌ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤﴾﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦﴾﴾ قالوا: فقد سماهم مؤمنين مع الاقتتال والبغي وقد أمر الله تعالى بالإصلاح بينهم، وجعلهم إخوة المصلح بينهم الذي لم يقاتل فعلم أن البغي لا يخرج عن الإيمان ولا عن أخوة الإيمان) (١) هـ.

وقال رحمه الله: (فإنها ^(٥) لم تخرج لقصد القتال، ولا كان أيضاً طلحة والزبير قصدهما قتال علي، ولو قدر أنهم قصدوا القتال فهذا هو القتال المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا

(١) كذا في الأصل، والجمادة: «إحداهما» كما في التي بعدها بقليل.

(٢) مجموع الفتاوى (٩٠/١٩). (٣) مجموع الفتاوى (٣/٢٨٤ - ٢٨٥).

(٤) منهاج السنة (٥/٢٩٣). (٥) أي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَقَىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْضُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴿٤٢﴾ فجعلهم مؤمنين إخوة مع الاقتتال وإذا كان هذا ثابتاً لمن هو دون أولئك المؤمنين فهم به أولى وأحرى (١) هـ.

وقال رحمه الله: (ولفظ البغي إذا أطلق فهو الظلم، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى﴾ وقال: ﴿فَمَنْ أَضَلُّ عَنِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣] ١ هـ. (٢)

وقال رحمه الله: (وقتال البغاة لم يأمر الله به ابتداء ولم يأمر بقتال كل باغ بل قال [تعالى]: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَقَىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ فأمر إذا اقتتل المؤمنون بالإصلاح بينهم فإن بغت إحداهما [على الأخرى] قوتلت) ١ هـ. (٣)

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى﴾ يعود الضمير فيه إلى الطائفتين المقتلتين من المؤمنين لا يعود إلى طائفة مؤمنة لم تقاتل فالتقدير: فإن بغت إحدى الطائفتين المؤمنتين المقتلتين على الأخرى فقاتلوا الباغية حتى تفيء إلى أمر الله فمتى كانت طائفة باغية ولم تُقاتل لم يكن في الآية أمر بقتالها. ثم إن كان قوله: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ بعد الإصلاح فهو أوكد، وإن كان بعد الاقتتال حصل المقصود.

وحينئذ فأصحاب معاوية إن كانوا قد بغوا قبل القتال لكونهم لم يبايعوا علياً، فليس في الآية الأمر بقتال من بغى ولم يقاتل، وإن كان بغيهم بعد الاقتتال والإصلاح وجب قتالهم، لكن هذا لم يوجد؛ فإن أحداً لم يصلح بينهما.

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «هذه الآية ترك الناس العمل بها» يعني إذ ذاك.

وإن كان بغيهم بعد الاقتتال وقبل الإصلاح، فهنا إذا قيل بجواز القتال، فهذا القدر إنما حصل في أثناء القتال، وحينئذ فشل أصحاب علي ونكلوا عن القتال لما رفعوا المصاحف، ففي الحال التي أُمر بقتالهم فيها لم يقاتلوهم وفي الحال التي قاتلوهم لم يكن قتالهم مأموراً به، فإن كان أولئك بغاة معتدين فهؤلاء مفرطون مقصرون، ولهذا ذلوا وعجزوا وتفرقوا، وليس الإمام مأموراً بأن يقاتل بمثل هؤلاء) ١ هـ. (٤)

(١) منهاج السنة (٤/ ٣٢١ - ٣٢٢). (٢) منهاج السنة (٤/ ٤١٨).
(٣) منهاج السنة (١/ ٥٤٠). (٤) منهاج السنة (٤/ ٥٠٣ - ٥٠٤).

وقال رحمه الله: (قالوا: وكذلك نحن لم نكن متعمدين للبغي، بل مجتهدين في العدل له وعليه، وإذا كنا بغاة كنا بغاة بالتأويل. والله تعالى لم يأمر بقتال الباغي ابتداء، وليس مجرد البغي مبيحاً للقتال، بل قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْفُتُوا الْبَغِيَّةَ﴾. فأمروا بالعدل ولا تلبسوا بالبغية. فأمروا بالإصلاح عند الاقتتال ثم قال: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الْأُتْرَاقَ﴾. وهذا بغي بعد الاقتتال، فإنه بغي إحدى الطائفتين المقتلتين لا بغي بدون الاقتتال، فالبغي المجرد لا يبيح القتال) ١. هـ.

وقال رحمه الله: (ولكن يقال: ليس في مجرد كونهم بغاة ما يوجب الأمر بقتالهم؛ فإن الله لم يأمر بقتال كل باغ، بل ولا أمر بقتال البغاة ابتداء، ولكن قال: ﴿وَلَا تَلْفُتُوا الْبَغِيَّةَ﴾. فأمروا بالعدل ولا تلبسوا بالبغية. فأمروا بالإصلاح عند الاقتتال ثم قال: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الْأُتْرَاقَ﴾. وهذا بغي بعد الاقتتال، فإنه بغي إحدى الطائفتين المقتلتين لا بغي بدون الاقتتال، فالبغي المجرد لا يبيح القتال) ١. هـ.

ثم قال: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الْأُتْرَاقَ﴾. فأمروا بالعدل ولا تلبسوا بالبغية. فأمروا بالإصلاح عند الاقتتال ثم قال: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الْأُتْرَاقَ﴾. وهذا بغي بعد الاقتتال، فإنه بغي إحدى الطائفتين المقتلتين لا بغي بدون الاقتتال، فالبغي المجرد لا يبيح القتال) ١. هـ.

وقال الفتنة لا يقع فيه هذا، وذلك قد يكون لأن الله لم يأمر بالقتال ابتداء ولكن أمر إذا اقتتلوا وبغت إحداهما على الأخرى بقتال الفتنة الباغية، وقد تكون الآية أمراً

بالإصلاح وقتال الباغية جميعاً لم يأمر بأحدهما وقد تكون الطائفة باغية ابتداءً لكن لما بغت أمر بقتالها، وحينئذ لم يكن المقاتل لها قادراً لعدم الأعوان أو لغير ذلك، وقد يكون عاجزاً ابتداءً عن قتال الفئة الباغية، أو عاجزاً عن قتال تفيء فيه إلى أمر الله، فليس كل من كان قادراً على القتال كان قادراً على قتال يفيء فيه إلى أمر الله، وإذا كان عاجزاً عن قتالها حتى تفيء إلى أمر الله لم يكن مأموراً بقتالها: لا أمر بإيجاب ولا أمر استحباب، ولكن قد يظن أنه قادراً^(١) على ذلك، فتبين له في آخر الأمر أنه لم يكن قادراً، فهذا من الاجتهاد الذي يثاب صاحبه على حسن القصد وفعل ما أمر وإن أخطأ فيكون له فيه أجر، ليس من الاجتهاد الذي يكون له فيه أجران، فإن هذا إنما يكون إذا وافق حكم الله في الباطن. كما قال النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر وإذا اجتهد فأصاب فله أجران»^(٢) ومن الاجتهاد أن يكون ولي الأمر - أو نائبه - مخيراً بين أمرين فأكثر، تخيير تحرٍ للأصلح، لا تخيير شهوة، كما يخير الإمام في الأسرى بين القتل والاسترقاق والمن والفداء عند أكثر العلماء.

فإن قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِتْنَةٌ﴾ [محمد: ٤] ليس بمنسوخ. وكذلك تخيير من نزل العدو على حكمه، كما نزل بنو قريظة على حكم النبي ﷺ فسأله حلفاؤهم من الأوس أن يمن عليهم كما من على بني النضير حلفاء الخزرج فقال النبي ﷺ: «ألا ترضون أن أحكم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس؟» فرضيت الأوس بذلك فأرسل النبي ﷺ خلف سعد بن معاذ فجاء وهو راكب وكان ممرضاً من أثر جرح به في المسجد وبنو قريظة شرقي المدينة بينهم نصف نهار أو نحو ذلك، فلما أقبل سعد ﷺ قال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فقاموا وأقاربه في الطريق يسألونه أن يمن عليهم ويذكرونه بمعاونتهم ونصرهم له في الجاهلية فلما دنا قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم» فأمره النبي ﷺ أن يحكم فيهم فحكم بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتغنم أموالهم فقال النبي ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات» والحديث ثابت في الصحيحين^(٣).

وفي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن بريدة عن النبي ﷺ قال: «إذا

(١) كذا في الأصل بالنصب، والجاذة الرفع.

(٢) البخاري (١٠٨/٩)، ومسلم (١٣١/٥ - ١٣٢).

(٣) البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨).

حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله؛ فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك»^(١).

فدل هذان الحديثان الصحيحان على أن الله حكماً معيناً فيما يكون ولي الأمر مخيراً فيه تخيير مصلحة وإن كان لو حكم بغير ذلك نفذ حكمه [في الظاهر]، فما كان من باب القتال فهو أولى أن يكون أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله: إما فعله وإما تركه، ويتبين ذلك بالمصلحة و[المفسدة] فما كان وجوده خيراً من عدمه لما حصل فيه من المصلحة الراجحة في الدين فهذا مما يأمر الله به أمر إيجاب أو استحباب، وما كان عدمه خيراً من وجوده فليس بواجب ولا مستحب وإن كان فاعله مجتهداً مأجوراً على اجتهاده.

والقتال إنما يكون لطائفة ممتنعة فلو بغت ثم أجابت إلى الصلح بالعدل لم تكن ممتنعة فلم يجز قتالها ولو كانت باغية وقد أمر بقتال الباغية إلى أن تفيء إلى أمر الله أي ترجع ثم قال: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ فأمر بالإصلاح بعد قتال الفئة [الباغية] كما أمر بالإصلاح إذا اقتتلتا ابتداءً، وقد قالت عائشة رضي الله عنها لما وقعت الفتنة: «ترك الناس العمل بهذه الآية» وهو كما قالت؛ فإنهما لما اقتتلتا لم يصلح بينهما ولو قدر أنه قوتلت الباغية فلم تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله ثم أصلح بينهما بالعدل والله تعالى أمر بالقتال إلى الفيء ثم الإصلاح، لم يأمر بقتال مجرد بل قال: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي حَنْظَلَةَ نَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ وما حصل قتال حتى تفيء إلى أمر الله، فإن كان ذلك مقدوراً فما وقع وإن كان معجزاً عنه لم يكن مأموراً به) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والله سبحانه أوجب على عباده العدل في الصلح كما أوجبه في الحكم فقال تعالى: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وقيد الإصلاح الذي يشب عليه بالإخلاص، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ آتَيْنَاهُ مَرْضَاتٍ اللَّهُ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤] إذ كثير من الناس يقصدون الإصلاح: إما لسمعة وإما لرياء) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (بل قال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي حَنْظَلَةَ نَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا

(١) مسلم (٣/ ١٣٥٦ - ١٣٥٨).

(٢) منهاج السنة (٤/ ٤٢٠ - ٤٢٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٤٩ - ٥٥٠).

بِالْعَدْلِ وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١﴾ قالوا: والافتتال الأول لم يأمر الله به؛ ولا أمر كل من بُغِيَ عليه أن يقاتل من بُغِيَ عليه؛ فإنه إذا قتل كل باغ كفر^(١)؛ بل غالب المؤمنين، بل غالب الناس: لا يخلو من ظلم وبغي، ولكن إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين فالواجب الإصلاح بينهما وإن لم تكن واحدة منهما مأمورة بالقتال فإذا بغت الواحدة بعد ذلك قوتلت؛ لأنها لم تترك القتال ولم تُجِبْ إلى الصلح فلم يندفع شرها إلا بالقتال فصار قتالها بمنزلة قتال الصائل الذي لا يندفع ظلمه عن غيره إلا بالقتال كما قال النبي ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون حرمة فهو شهيد» قالوا: فبتقدير أن جميع العسكر بغاة فلم نؤمر بقتالهم ابتداء؛ بل أمرنا بالإصلاح بينهم و«أيضاً» فلا يجوز قتالهم إذا كان الذين مع عن^(٢) ناكليين عن القتال فإنهم كانوا كثيرين الخلاف ضعيفي الطاعة له) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْفَنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَلِّلُوا إِلَيَّ تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَيَّ أَمْرُ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢﴾﴾ فهذا حكم الله بين المقتتلين من المؤمنين أخبر أنهم إخوة وأمر أولاً بالإصلاح بينهم إذا اقتتلوا: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ ولم يقبلوا الإصلاح ﴿فَفَلِّلُوا إِلَيَّ تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَيَّ أَمْرُ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ فأمر بالإصلاح بينهم بالعدل بعد أن ﴿تَفِيءَ إِلَيَّ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي ترجع إلى أمر الله فمن رجع إلى أمر الله وجب أن يعدل بينه وبين خصمه ويقسط بينهما فقبل أن نقاتل الطائفة الباغية وبعد اقتتالهما أمرنا بالإصلاح بينهما مطلقاً: لأنه لم تقهر إحدى الطائفتين بقتال.

وإذا كان كذلك فالواجب أن يسعى بين هاتين الطائفتين بالصلح الذي أمر الله به ورسوله ويقال لهذه: ما تنقم من هذه؟ ولهذه: ما تنقم من هذه؟ فإن ثبت على إحدى الطائفتين أنها اعتدت على الأخرى: بإتلاف شيء من الأنفس والأموال: كان عليها ضمان ما أتلفته) ا. هـ^(٤).

(١) كذا في الأصل، ولم يتضح المقصود.

(٢) هكذا ورد في المطبوع ولعل الصواب (علي).

(٣) مجموع الفتاوى (٧٨/٣٥ - ٧٩). (٤) مجموع الفتاوى (٨٠/٣٥ - ٨١).

وقال رحمه الله: (ومثل هذا النزاع^(١) قد كان يقع في صحته^(٢) ما هو أعظم منه. والذي وقع بين أهل قباء وغيرهم كان أعظم من هذا بكثير حتى أنزل فيه: ﴿وَلَا تَلْفَنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ لكن روي أنه كان بينهم قتال بالجريد والنعال) ١. هـ^(٣).
وقال رحمه الله: (لكن نازعه أكثر العلماء، كما نازع عثمان أكثرهم وقالوا إن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَلْفَنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ الآية، قالوا: فلم يأمر الله بقتال البغاة ابتداءً، بل إذا وقع قتال بين طائفتين من المؤمنين فقد أمر الله بالإصلاح بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى، قوتلت ولم يقع الأمر كذلك.
ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «ترك الناس العمل بهذه الآية» رواه مالك بإسناده المعروف عنها) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «ترك الناس العمل بهذه الآية» تعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْفَنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فإن المسلمين لما اختلفوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْفَنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فلم يأمر بالقتال ابتداءً مع واحد من الطائفتين، لكن أمر بالإصلاح وبقاتل الباغية. و«إن قيل» الباغية يعم الابتداء والبغي بعد الاقتتال.

قيل: فليس في الآية أمر لأحدهما بأن تقاتل الأخرى وإنما هو أمر لسائر المؤمنين بقتال الباغية والكلام هنا: إنما هو في أن فعل القتال من علي لم يكن مأموراً به بل كان تركه أفضل، وأما إذا قاتل لكون القتال جائزاً وإن كان تركه أفضل أو لكونه مجتهداً فيه وليس بجائز في الباطن: فهنا الكلام في وجوب القتال معه للطائفة الباغية أو الإمساك عن القتال في الفتنة وهو موضع تعارض الأدلة واجتهاد العلماء والمجاهدين

(١) يتعلق بطلب الرسول ﷺ كتاباً حتى لا يختلف الناس مع أبي بكر، ثم تركه بعد النزاع.

(٢) أي قبل أن ينزل مرض الموت بالنبي ﷺ.

(٣) منهاج السنة (٦/٣١٧) وأسباب النزول عند ابن جرير (٢٦/١٢٨).

(٤) منهاج السنة (٨/٢٣٢). (٥) مجموع الفتاوى (١٧/٣١١).

من المؤمنين بعد الجزم بأنه وشيعته أولى الطائفتين بالحق فيمكن وجهان:

«أحدهما»: أن الأمر بقتال الطائفة الباغية مشروط بالقدرة والإمكان إذ ليس قتالهم بأولى من قتال المشركين والكفار ومعلوم أن ذلك مشروط بالقدرة والإمكان فقد تكون المصلحة المشروعة أحياناً هي التآلف بالمال والمسالمة والمعاهدة كما فعله النبي ﷺ غير مرة، والإمام إذا اعتقد وجود القدرة ولم تكن حاصلة كان الترك في نفس الأمر أصح.

ومن رأى أن هذا القتال مفسدته أكثر من مصلحته: علم أنه قتال فتنة، فلا تجب طاعة الإمام فيه إذ طاعته إنما تجب في ما لم يعلم المأمور أنه معصية بالنص فمن علم أن هذا هو قتال الفتنة - الذي تركه خير من فعله - لم يجب عليه أن يعدل عن نص معين خاص إلى نص عام مطلق في طاعة أولي الأمر ولا سيما وقد أمر الله تعالى عند التنازع بالرد إلى الله والرسول.

ويشهد لذلك أن الرسول أخبر بظلم الأمراء بعده وبغيهم ونهى عن قتالهم لأن ذلك غير مقدور؛ إذ مفسدته أعظم من مصلحته، كما نهى المسلمون في أول الإسلام عن القتال كما ذكره بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧] وكما كان النبي ﷺ وأصحابه مأمورين بالصبر على أذى المشركين والمنافقين والعفو والصفح عنهم حتى يأتي الله بأمره.

«الوجه الثاني»: أنها صارت باغية في أثناء الحال بما ظهر منها من نصب إمام وتسميته أمير المؤمنين ومن لعن إمام الحق ونحو ذلك فإن هذا بغي بخلاف الاقتتال قبل ذلك فإنه كان قتال فتنة؛ وهو سبحانه قد ذكر اقتتال الطائفتين من المؤمنين ثم قال: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ فلما أمر بالقتال إذا بغت إحدى الطائفتين المقتلتين دل على أن الطائفتين المقتلتين قد تكون إحداهما باغية في حال دون حال.

فما ورد من النصوص بترك القتال في الفتنة: يكون قبل البغي، وما ورد من الوصف بالبغي يكون بعد ذلك، وحينئذ يكون القتال مع علي واجباً لما حصل البغي، وعلى هذا يتأول ما روى ابن عمر إذا حُوِّلَ على القتال في ذلك، وحينئذ فبعد التحكيم والتشيع وظهور البغي لم يقاتلهم علي ولم تطعه الشيعة في القتال ومن حينئذ ذمت الشيعة بتركهم النصر مع وجوبه وفي ذلك الوقت سموا شيعة وحينئذ صاروا مذمومين بمعصية الإمام الواجب الطاعة وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولما تركوا ما يجب من نصره صاروا أهل باطل

وظلم إذ ذاك يكون تارة لترك الحق وتارة لتعدي الحق) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (والله تعالى لم يأمر بقتال كل ظالم وكل باغ كيفما كان ولا أمر بقتال الباغيين ابتداء بل قال: ﴿وَلَا طَافَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتُلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ فلم يأمر بقتال الباغية ابتداء فكيف يأمر بقتال ولادة الأمر ابتداء) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأما قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ﴾ فهو سبحانه قد بين مراده ولكن من الناس من يضع الآية على غير موضعها فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَا طَافَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتُلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، فهو لم يأذن ابتداء في قتال بين المؤمنين بل إذا اقتتلوا فأصلحوا بينهما والاقتيال هو فتنة وقد تكون إحداهما أقرب إلى الحق فأمر سبحانه في ذلك بالإصلاح.

وكذلك فعل النبي ﷺ لما اقتتل بنو عمرو بن عوف فخرج ليصلح بينهم وقال لبلال: «إن حضرت الصلاة فقدم أبا بكر».

ثم قال سبحانه: ﴿فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ فهو بعد اقتتالهم إذا أصلح بينهم بالقسط فلم تقبل إحداهما القسط بل بغت، فإنها تقاتل، لأن قتالها هنا يدفع به القتال الذي هو أعظم منه؛ فإنها إذا لم تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله بل تركت حتى تقتل هي والأخرى كان الفساد في ذلك أعظم.

والشريعة ميناها على دفع الفسادين بالتزام أدناهما، وفي مثل هذا يقاتلون حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله؛ لأنه إذا أمروا بالصلاح والكف عن الفتنة فبغت إحداهما قوتلت حتى لا تكون فتنة، والمأمور بالقتال هو غير المبغي عليه، أمر بأن يقاتل الباغية حتى ترجع إلى الدين، فقتالها من باب الجهاد وإعانة المظلوم المبغي عليه.

أما إذا وقع بغى ابتداء بغير قتال مثل أخذ مال أو مثل رئاسة بظلم فلم يأذن الله في اقتتال طائفتين من المؤمنين على مجرد ذلك لأن الفساد في الاقتتال في مجرد رئاسة أو أخذ مال، فيه نوع ظلم) ١. هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٤٢ - ٤٤٤).

(٢) منهاج السنة (٣/ ٣٩١).

(٣) الاستقامة (١/ ٣٢ - ٣٤).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠﴾) فيجب الإصلاح بين هاتين الطائفتين كما أمر الله تعالى والإصلاح له طرق.

«منها» أن تجمع أموال الزكوات وغيرها حتى يدفع في مثل ذلك فإن الغرم لإصلاح ذات البين يبيح لصاحبه أن يأخذ من الزكاة بقدر ما غرم كما ذكره الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما كما قال النبي ﷺ لقبیصة بن مخارق: «إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة: لرجل تحمل حمالة فيسأل حتى يجد حمالته ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فيسأل حتى يجد سداداً من عيش ثم يمسك، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجى من قومه فيقولون: قد أصابت فلاناً فاقة فيسأل حتى يجد قواماً من عيش وسداداً من عيش ثم يمسك وما سوى ذلك من المسألة فإنه يأكله صاحبه سحتاً»^(١)، ومن طرق الصلح أن تعفو إحدى الطائفتين أو كلاهما عن بعض ما لها عند الأخرى من الدماء والأموال ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

ومن طرق الصلح أن يحكم بينهما بالعدل فينظر ما أتلفته كل طائفة من الأخرى من النفوس والأموال فيتقاصان ﴿الْكُفْرُ بِالْكُفْرِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨] وإذا فضل لإحدهما على الأخرى شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان فإن كان يجهل عدد القتلى أو مقدار المال: جعل المجهول كالمعدوم وإذا ادعت إحدهما على الأخرى بزيادة: فإما أن تحلفها على نفي ذلك وإما أن تقيم البينة وإما تمتنع عن اليمين فيقضى برد اليمين أو النكول) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فإن الله تعالى قال فيهم: ﴿وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ١) فلم يأمر بقتال الباغية ابتداءً فالأقتال ابتداءً ليس مأموراً به ولكن إذا اقتتلوا أمر بالإصلاح بينهم؛ ثم إن بغت

الواحدة قوتلت؛ ولهذا قال من قال من الفقهاء: إن البغاة لا يبتدون بقتالهم حتى يقاتلوا وأما الخوارج فقد قال النبي ﷺ: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة» وقال: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد^(١)» ا. هـ^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَصَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَصَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يلزم بعضهم بعضاً فيطعن عليه ويعيبه وهذا نهى لجميع المؤمنين أن لا يفعل بعضهم ببعض هذا الطعن والعيب مع أنهم غير متساوين لا في الأحكام ولا في الفضيلة ولا الظالم كالمظلوم ولا الإمام كالمأموم) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾).

فحصر الظلم فيمن لم يتب، فمن تاب فليس بظالم فلا يجعل متعدياً لحدود الله بل وجود قوله كعدمه، ومن لم يتب فهو محل اجتهد) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (ففي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(٥)) وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَصَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَصَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فقد نهى عن السخرية واللمز والتنازع بالألقاب.

واللمز: العيب والطعن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨] أي يعيبك ويطعن عليك وقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٧٩] وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يلزم بعضهم بعضاً كقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَعَيْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

(١) مرّ تخريج أحاديث الخوارج وهي ثابتة صحيحة.

(٢) مجموع الفتاوى (٥٦/٣٥ - ٥٧).

(٣) منهاج السنة (١٢٤/٧)، مجموع الفتاوى (٢٢٥/٢٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٢٢/٢٩). (٥) البخاري (٦٠٤٤)، ومسلم (٦٤).

وقوله: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْكُلُ هُمَزٌ لَّهُمْزٍ ۚ لَمَّا خُرَ ۝﴾ [الهمزة]، والهمز: العيب والطعن بشدة وعنف ومنه همز الأرض بعقبه ومنه الهمزة وهي نبرة من الصدر) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (خص لفظ (القوم) بالرجال دون النساء، فلا تسمى النساء بانفرادهن قوماً ولكن قد يدخلن في اللفظ تبعاً، قال تعالى: ﴿لَا يَخْرُ قَوْمٌ ۖ بَيْنَ قَوْمٍ... وَلَا يَسَاءُ مِنْ نِسَاءٍ﴾) ا.هـ^(٢).

﴿يَتَابُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتَنُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾ (وقد قال سبحانه لما قال: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ - والاغتياب من ظلم الأعراس - قال: ﴿يَغْتَبِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ فقد نبههم على التوبة من الاغتياب وهو من الظلم) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (أما الأول فلأن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ وأدنى أحوال الساب لهم أن يكون مغتاباً) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (والمقصود هنا: أن النبي ﷺ فرق بين الاغتياب وبين البهتان وأخبر أن المخبر بما يكره أخوه المؤمن عنه إذا كان صادقاً فهو المغتاب وفي قوله ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره»^(٥) موافقة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ۚ يَغْتَبِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فجعل جهة التحريم كونه أخاً أخوة الإيمان، ولذلك تغلظت الغيبة بحسب حال المؤمن فكلما كان أعظم إيماناً كان اغتيابه أشد) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى لما ذكر الغيبة: ﴿يَغْتَبِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فجعل الغيبة التي هي كلام صحيح بمنزلة أكل لحم المغتاب ميتاً، كيف بهتان؟ وسب النبي ﷺ لا يكون إلا بهتاناً) ا.هـ^(٧).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى لما نهى عن الغيبة: ﴿يَغْتَبِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾، فعلم أن المغتاب له سبيل إلى التوبة

(٢) تفسير آيات أشكلت (١/٤٢٩).

(٤) الصارم المسلول (٥٧٤).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٢٤ - ٢٢٥).

(١) منهاج السنة (٥/٢٣٤ - ٢٣٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٨/١٨٨).

(٥) مسلم (٢٥٨٩).

(٧) الصارم المسلول (٢٩٩ - ٣٠٠).

بكل حال، وإن كان الذي اغتیب ميتاً أو غائباً بل أصح الروایتین ليس عليه أن يستحلّه في الدنيا إذا لم يكن عَلِمَ؛ فإن فساد ذلك أكثر من صلاحه، وفي الأثر: «كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتیبته»^(١) وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ﴾ [هود: ١١٤] هـ. ١. هـ.^(٢)

وقال رحمه الله: (كقوله: ﴿أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾ هو حال من الأخ لأنه واللحم شيء واحد) هـ. ١. هـ.^(٣)

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْآ خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٤)

(فإن الله تعالى قال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْآ خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ وقال النبي ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب» ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحداً بنسبه، ولا يذم أحداً بنسبه، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى ويذم بالكفر والفسوق والعصيان، وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: «أربع من أمر الجاهلية في أمتي لن يدعوهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم»^(٥) هـ. ١. هـ.

وقال رحمه الله: (فإن الله في القرآن لم يفضل أحداً بفقر، ولا غنى، كما لم يفضل أحداً بصحة ولا مرض ولا إقامة ولا سفر، ولا إمارة ولا ائتمار، ولا إمامة، ولا ائتمام، بل قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ وفضلهم بالأعمال الصالحة: من الإيمان ودعائمه وشعبه كاليقين والمعرفة ومحبة الله والإنابة إليه والتوكل عليه ورجائه، وخشيته وشكره والصبر له) هـ. ١. هـ.^(٦)

وقال رحمه الله: (وأما نفس ترتيب الثواب والعقاب على القرابة ومدح الله ﷻ للشخص المعين، وكرامته عند الله تعالى فهذا لا يؤثر فيه النسب وإنما يؤثر فيه الإيمان

(١) وقد تكلم بذلك النووي في الأذكار في باب كفارة الغيبة والتوبة منها.

(٢) الصارم المسلول (٤٩٤). (٣) تفسير آيات أشكلت (٤٠٨/١).

(٤) مر تخريجه.

(٥) مجموع الفتاوى (٧/٦٨٥ - ٦٨٦) (١١/٥١٢) (٢٨/٥٤٣) (٣٥/٢٣٠).

(٦) مجموع الفتاوى (١١/١٢٥).

والعمل الصالح وهو التقوى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾، وقد [ثبت] في الصحيح أن النبي ﷺ سئل: أي الناس أكرم؟ فقال: أتقاهم. فقالوا: ليس عن هذا نسألك قال: «فيوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: «أفعلن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(١) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ وقد ثبت أن الصديق كان أتقى بالكتاب والسنة وتواتر عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»^(٣) وهذا مبسوط في موضعه) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وأفضل الخلق النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون وأفضل كل صنف أتقاهم وأفضل الخلق في الطبقات القرن الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وتنازعوا في الفقير الصابر والغني الشاكر أيهما أفضل؟ والصواب أن أفضلهما أتقاهما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال الله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه سئل: أي الناس أكرم؟ فقال: «أتقاهم لله». قيل: ليس عن هذا نسألك قال: «يوسف نبي الله بن يعقوب نبي الله بن إسحاق نبي الله بن إبراهيم خليل الله».

قيل: ليس عن هذا نسألك قال: «أفعلن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

بيّن أولاً: أن أكرم الخلق عند الله أتقاهم وإن لم يكن ابن نبي ولا أبا نبي فإبراهيم ﷺ أكرم على الله من يوسف وإن كان أبوه آزر وهذا أبوه يعقوب وكذلك نوح أكرم على الله من إسرائيل وإن كان هذا أولاده أنبياء وهذا أولاده ليسوا بأنبياء.

فلما ذكروا أنه ليس مقصودهم إلا الأنساب قال لهم: فأكرم أهل الأنساب من انتسب إلى الأنبياء وليس في ولد آدم مثل يوسف؛ فإنه نبي ابن نبي ابن نبي.

فلما أشاروا إلى أنه ليس مقصودهم إلا ما يتعلق بهم قال: «أفعلن معادن العرب

(٢) منهاج السنة (٦/٦٠٠ - ٦٠١).

(٤) منهاج السنة (٤/٢٨).

(١) البخاري (٣٣٧٤).

(٣) البخاري (٤٦٧).

(٥) طريق الوصول (١٨٩).

تسألوني؟ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» بين أن الأنساب كالمعادن فإن الرجل يتولد منه كما يتولد من المعدن الذهب والفضة، ولا ريب أن الأرض التي تنبت الذهب أفضل من الأرض التي تنبت الفضة، فهكذا من عرف أنه يلد الأفاضل كان أولاده أفضل ممن عرف أنه يلد المفضول، لكن هذا سبب ومظنة، وليس هو لازماً، فربما تعطلت أرض الذهب، وربما قل نبتها، فحينئذ تكون أرض الفضة أحب إلى الإنسان من أرض معطلة، والفضة الكثيرة أحب إليهم من ذهب قليل لا يماثلها في القدر.

فلهذا كانت أهل الأنساب الفاضلة يُظنُّ بهم الخير ويكرمون لأجل ذلك، فإذا تحقق من أحدهم خلاف ذلك كانت الحقيقة مقدمة على المظنة. وأما [ما] عند الله فلا يثبت على المظان ولا على الدلائل إنما يثبت على ما يعلمه هو من الأعمال الصالحة فلا يحتاج إلى دليل ولا يجتزئ بالمظنة.

فلهذا كان أكرم الخلق عنده أتقاهم. فإذا قدر تماثل اثنين عنده في التقوى تماثلاً في الدرجة وإن كان أبو أحدهما أو ابنه أفضل من أبي الآخر أو ابنه لكن إن حصل له بسبب نسبه زيادة في التقوى كان أفضل لزيادة تقواه.

ولهذا حصل لأزواج النبي ﷺ - إذا قنتن لله ورسوله وعملن صالحاً - لا لمجرد المصاهرة بل لكمال الطاعة كما أنهن لو أتين بفاحشة مبينة لضوعف لهن العذاب ضعفين لقبح المعصية، فإن ذا الشرف إذا ألزم نفسه التقوى كان تقواه أكمل من تقوى غيره كما أن الملك إذا عدل كان عدله أعظم من عدل الرجل في أهله ثم إن الرجل إذا قصد الخير قصداً جازماً وعمل منه ما يقدر عليه كان له أجر كامل.

كما قال النبي ﷺ في الصحيح: «إن بالمدينة رجالاً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا: وهم في المدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر»^(١).

ولهذا قال النبي ﷺ في الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»^(٢) وهذا مبسوط في موضع آخر) ١. هـ^(٣).

(٢) مسلم (٢٦٧٤).

(١) البخاري (٢٨٣٩).

(٣) منهاج السنة (٢١٤/٨ - ٢١٧).

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧).

(فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ (١ هـ).^(١)

وقال رحمه الله: (وعلى هذا فقوله للأعراب: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ نفي حقيقة دخول الإيمان في قلوبهم وذلك لا يمنع أن يكون معهم شعبة منه كما نفاه عن الزاني والسارق ومن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ومن لا يأمن جاره بوائقه وغير ذلك كما تقدم ذكره فإن في القرآن والحديث ممن نفي عنه الإيمان لترك بعض الواجبات شيء كثير) ١ هـ.^(٢)

وقال رحمه الله: (وقال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ قال: وحماد بن زيد يفرق بين الإسلام والإيمان قال: وحدثنا أبو سلمة الخزازي قال: قال مالك وشريك وذكر قولهم وقول حماد بن زيد: فرق بين الإسلام والإيمان) ١ هـ.^(٣)

وقال رحمه الله: (وهنا «أصل آخر» وهو أنه قد جاء في الكتاب والسنة وصف أقوام بالإسلام دون الإيمان فقال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) وقال تعالى في قصة قوم لوط: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) فَمَا وَحَدَّا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٢٦) [الذاريات] وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الآية تقتضي أن مسمى الإيمان والإسلام واحد وعارضوا بين الآيتين، وليس كذلك بل هذه الآية توافق الآية الأولى لأن الله أخبر أنه أخرج من كان فيها مؤمناً وأنه لم يجد إلا أهل بيت من المسلمين.

وذلك لأن امرأة لوط كانت في أهل البيت الموجودين ولم تكن من المخرجين الذين نجوا بل كانت من الغابرين الباقين في العذاب وكانت في الظاهر مع زوجها على دينه وفي الباطن مع قومها على دينهم خاتنة لزوجها تدل قومها على أضيافه كما قال الله

(٢) مجموع الفتاوى (٧/٣٠٥).

(١) مجموع الفتاوى (١٩/١٧١).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٣٧٢).

تعالى فيها: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠].

وكانت خيانتهما لهما في الدين لا في الفراش فإنه ما بغت امرأة نبي قط؛ إذ «نكاح الكافرة» قد يجوز في بعض الشرائع ويجوز في شريعتنا نكاح بعض الأنواع ومن الكتابيات وأما «نكاح البغي» فهو: ديانة وقد صان الله النبي عن أن يكون ديوثاً ولهذا كان الصواب قول من قال من الفقهاء: بتحريم نكاح البغي حتى تتوب.

و(المقصود) أن امرأة لوط لم تكن مؤمنة ولم تكن من الناجين المخرجين فلم تدخل في قوله: ﴿فَأَفْرَجْنَا مِنْهَا كَانَتْ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٥] وكانت من أهل البيت المسلمين وممن وجد فيه ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهَا أَنَّهَا فِيهَا عَزَىٰ يَتِيٍّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات] وبهذا تظهر حكمة القرآن حيث ذكر الإيمان لما أخبر بالإخراج وذكر الإسلام لما أخبر بالوجود وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] ففرق بين هذا وهذا، فهذه ثلاثة مواضع في القرآن (١) هـ.

وقال رحمه الله: (ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا: (آمنّا) فقليل لهم: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقاً؛ فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ٢٥] فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب، والريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم، ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علماً وعملاً وإلا فإذا كان عالماً بالحق ولكن المصيبة أو الخوف أورثه جزءاً عظيماً لم يكن صاحب يقين قال تعالى: ﴿هَٰذَا لَكَ آيَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠] هـ (٢).

وقال رحمه الله: (ويدل على ذلك قوله تعالى في آخر الآية: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فقوله: صدقوا أي في قولهم: آمنوا كقوله: ﴿قَالَتْ

الْأَعْرَابَ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿١٥﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي هم الصادقون في قولهم: آمنا بالله) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ودليل ذلك أن الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَعْمَلُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾).

فقد قال تعالى: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا الحرف أي لما ينفي به ما قرب وجوده وانتظر وجوده ولم يوجد بعد فيقول لمن ينتظر غائبا أي لما ويقول قد جاء لما يجيء بعد فلما قالوا: ﴿ءَمَنَّا﴾ قيل: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ بعد، بل الإيمان مرجو منتظر منهم ثم قال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ﴾ أي لا ينقصكم من أعمالكم المثبتة شيئا، أي في هذه الحال فإنه لو أرادوا طاعة الله ورسوله بعد دخول الإيمان في قلوبهم لم يكن في ذلك فائدة لهم ولا لغيرهم إذ كان من المعلوم أن المؤمنين يثابون على طاعة الله ورسوله وهم كانوا مقرين به فإذا قيل لهم المطاع يثاب والمراد به المؤمن الذي يعرف أنه مؤمن لم يكن فيه فائدة جديدة.

وأيضاً فالخطاب لهؤلاء المخاطبين قد أخبر عنهم لما يدخل في قلوبهم وقيل لهم: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ فلو لم يكونوا في هذه الحال مثابين على طاعة الله ورسوله لكان خلاف مدلول الخطاب فينبى ذلك أنه وصف المؤمنين الذين أخرج هؤلاء منهم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ وهذا نعت محقق الإيمان لا نعت من معه مثقال ذرة من إيمان كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٨﴾﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿١٩﴾﴾ وقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النور: ٦٢] ومنه قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(١) وأمثال ذلك.

فدل البيان على أن الإيمان المنفي عن هؤلاء الأعراب: هو هذا الإيمان الذي نقي عن فساق أهل القبلة الذين لا يخلدون في النار، بل قد يكون مع أحدهم مثقال ذرة من إيمان ونقي هذا الإيمان لا يقتضي ثبوت الكفر الذي يخلد صاحبه في النار) هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد أثبت الله في القرآن إسلاماً بلا إيمان في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِفَكُمْ مِنْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئاً﴾ وقد ثبت في «الصحاحين» عن سعد بن أبي وقاص قال: أعطى النبي ﷺ رهطاً وفي رواية قسم قسماً وترك فيهم من لم يعطه وهو أعجبهم إلي فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان فو الله إني لأراه مؤمناً فقال رسول الله ﷺ: «أو مسلماً» أقولها ثلاثاً ويردها علي رسول الله ﷺ ثلاثاً ثم قال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه مخافة أن يكبه الله على وجهه في النار»^(٣) وفي رواية: فضرب بين عتي وكتي وقال: «أقتال أي سعد؟!».

فهذا الإسلام الذي نفى الله عن أهله دخول الإيمان في قلوبهم هل هو إسلام يثابون عليه؟ أم هو من جنس إسلام المنافقين؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف: أحدهما: أنه إسلام يثابون عليه ويخرجهم من الكفر والتناق وهو مروي عن الحسن، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وأبي جعفر الباقر، وهو قول حماد بن زيد، وأحمد بن حنبل، وسهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكي، وكثير من أهل الحديث والسنة والحقق.

قال أحمد بن حنبل: حدثنا مؤمل بن إسحاق، عن عمار بن زيد قال: سمعت هشاماً يقول: كان الحسن ومحمد يقولان: مسلم، ويهابان: مؤمن، وقال أحمد بن حنبل: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، قال: قال مالك، وشريك، وأبو بكر بن عياش، وعبد العزيز بن أبي سلمة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد: «الإيمان» المعرفة والإقرار والعمل إلا أن حماد بن زيد يفرق بين الإسلام والإيمان يجعل الإيمان خاصاً والإسلام عاماً.

(١) البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧). (٢) مجموع الفتاوى (٤٧٦/٧ - ٤٧٨).

(٣) مر تخريجه.

والقول الثاني: أن هذا الإسلام: هو الاستسلام خوف السبي والقتل مثل إسلام المنافقين قالوا: وهؤلاء كفار فإن الإيمان لم يدخل في قلوبهم، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فهو كافر، وهذا اختيار البخاري ومحمد بن نصر المروزي، والسلف مختلفون في ذلك.

قال محمد بن نصر: حدثنا إسحاق، أنبأنا جرير، عن مغيرة قال: أتيت إبراهيم النخعي فقلت: إن رجلاً خاصمني يقال له: سعيد العنبري فقال إبراهيم: ليس بالعنبري ولكنه زيبيدي قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فقال: هو الاستسلام فقال إبراهيم: لا هو الإسلام.

وقال: حدثنا محمد بن يحيى حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان عن مجاهد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ قال: استسلمنا خوف السبي والقتل. ولكن هذا منقطع. سفيان لم يدرك مجاهداً. والذين قالوا: إن هذا الإسلام هو كإسلام المنافقين لا يثابون عليه قالوا: لأن الله نفى عنهم الإيمان، ومن نفى عنه الإيمان فهو كافر وقال هؤلاء: الإسلام هو الإيمان، وكل مسلم مؤمن وكل مؤمن مسلم، ومن جعل الفساق مسلمين غير مؤمنين لزمه أن لا يجعلهم داخلين في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأَمَّنُوا إِذَا قُتِلُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦] وفي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأَمَّنُوا إِذَا تَوَدَّى لِّلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩] وأمثال ذلك فإنهم إنما دعوا باسم الإيمان لا باسم الإسلام فمن لم يكن مؤمناً لم يدخل في ذلك.

وجواب هذا أن يقال: الذين قالوا من السلف: إنهم خرجوا من الإيمان إلى الإسلام لم يقولوا: إنه لم يبق معهم من الإيمان شيء، بل هذا قول الخوارج والمعتزلة. وأهل السنة الذين قالوا هذا يقولون: الفساق يخرجون من النار بالشفاعة وإن معهم إيمان يخرجون به من النار لكن لا يطلق عليهم اسم الإيمان لأن الإيمان المطلق هو الذي يستحق صاحبه الثواب ودخول الجنة وهؤلاء ليسوا من أهله وهم يدخلون في الخطاب بالإيمان، لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل في الإيمان وإن لم يستكمل به فإنه إنما خوطب ليفعل تمام الإيمان فكيف يكون قد أتمه قبل الخطاب وإلا كنا قد تبينا أن هذا المأمور من الإيمان قبل الخطاب؟! وإنما صار من الإيمان بعد أن أمروا به فالخطاب بـ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأَمَّنُوا﴾ غير قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ونظائرها؛ فإن الخطاب بـ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأَمَّنُوا﴾

أولاً: يدخل فيه من أظهر الإيمان وإن كان منافقاً في الباطن يدخل فيه في الظاهر فكيف لا يدخل فيه من لم يكن منافقاً وإن لم يكن من المؤمنين حقاً.

وحقيقته أن من لم يكن من المؤمنين حقاً يقال فيه: إنه مسلم ومعه إيمان يمنعه الخلود في النار، وهذا متفق عليه بين أهل السنة، لكن هل يطلق عليه اسم الإيمان؟ هذا هو الذي تنازعوا فيه فقيل: يقال: مسلم ولا يقال: مؤمن، وقيل: بل يقال: مؤمن.

والتحقيق أن يقال: إنه مؤمن ناقص الإيمان مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ولا يعطى اسم الإيمان المطلق فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق، واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله لأن ذلك إيجاب عليه وتحريم عليه وهو لازم له كما يلزمه غيره وإنما الكلام في اسم المدح المطلق، وعلى هذا فالخطاب بالإيمان يدخل فيه «ثلاث طوائف»: يدخل فيه المؤمن حقاً ويدخل فيه المنافق في أحكامه الظاهرة وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار وهو في الباطن ينفي عنه الإسلام والإيمان وفي الظاهر يثبت له الإسلام والإيمان الظاهر ودخل فيه الذين أسلموا وإن لم تدخل حقيقة الإيمان في قلوبهم لكن معهم جزء من الإيمان والإسلام يثابون عليه.

ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون عليه كأهل الكبائر لكن يعاقبون على ترك المفروضات وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم فإنهم قالوا: آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطناً وظاهراً فلا دخلت حقيقة الإيمان في قلوبهم، ولا جاهدوا في سبيل الله، وقد كان دعاهم النبي ﷺ إلى الجهاد، وقد يكونون من أهل الكبائر المعرضين للوعيد كالذين يصلون ويزكون ويجاهدون ويأتون الكبائر وهؤلاء لا يخرجون من الإسلام بل هم مسلمون ولكن بينهم نزاع لفظي هل يقال: إنهم مؤمنون كما سنذكره إن شاء الله.

وأما «الخوارج» و«المعتزلة» فيخرجونهم من اسم الإيمان والإسلام فإن الإيمان والإسلام عندهم واحد فإذا خرجوا عندهم من الإيمان خرجوا من الإسلام لكن الخوارج تقول: هم كفار، والمعتزلة تقول: لا مسلمون ولا كفار ينزلونهم منزلة بين المنزلتين، والدليل على أن الإسلام المذكور في الآية هو إسلام يثابون عليه وأنهم ليسوا منافقين أنه قال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تَزِمُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِفَكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

فدل على أنهم إذا أطاعوا الله ورسوله مع هذا الإسلام آجرهم الله على الطاعة والمنافق عمله حابط في الآخرة.

وأيضاً فإنه وصفهم بخلاف صفات المنافقين فإن المنافقين وصفهم بكفر في قلوبهم وإنهم يبطنون خلاف ما يظهرون كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة] وقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠) [المنافقون] فالمنافقون يصفهم في القرآن بالكذب وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ويأن في قلوبهم من الكفر ما يعاقبون عليه وهؤلاء لم يصفهم بشيء من ذلك لكن لما ادعوا الإيمان قال للرسول: ﴿قُلْ لَمْ تَوَسُّوْا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ ونفي الإيمان المطلق لا يستلزم أن يكونوا منافقين كما في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١) ثم قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال] ومعلوم أنه ليس من لم يكن كذلك يكون منافقاً من أهل الدرك الأسفل من النار بل لا يكون قد أتى بالإيمان الواجب فنفي عنه كما ينفي سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب عليه فكذلك الأعراب لم يأتوا بالإيمان الواجب فنفي عنهم لذلك وإن كانوا مسلمين معهم من الإيمان ما يثابون عليه.

وهذا حال أكثر الداخلين في الإسلام ابتداء بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الإيمان فإن الرجل إذا قاتل حتى أسلم كما كان الكفار يقاتلون حتى يسلموا أو أسلم بعد الأسر أو سمع بالإسلام فجاء فأسلم فإنه مسلم ملتزم طاعة الرسول ولم تدخل إلى قلبه المعرفة بحقائق الإيمان فإن هذا إنما يحصل لمن تيسرت له أسباب ذلك إما بفهم القرآن وإما بمباشرة أهل الإيمان والافتداء بما يصدر عنهم من الأقوال والأعمال وإما بهداية خاصة من الله يهديه بها والإنسان قد يظهر له من محاسن الإسلام ما يدعو إلى الدخول فيه وإن كان قد ولد عليه وتربي بين أهله فإنه يحبه، فقد ظهر له بعض محاسن وبعض مساوئ الكفار.

وكثير من هؤلاء قد يرتاب إذا سمع الشبه القادحة فيه ولا يجاهد في سبيل الله فليس هو داخلاً في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وليس هو منافقاً في الباطن مضمراً للكفر، فلا هو من المؤمنين حقاً ولا هو من المنافقين، ولا هو أيضاً من أصحاب الكبائر، بل يأتي بالطاعات الظاهرة ولا يأتي بحقائق الإيمان التي يكون بها من المؤمنين حقاً فهذا معه إيمان وليس هو من المؤمنين حقاً ويثاب على ما فعل من الطاعات ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ولهذا قال: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَعْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾ يعني في قولكم: ﴿ءَامَنَّا﴾.

يقول: إن كنتم صادقين فالله يمن عليكم أن هداكم للإيمان وهذا يقتضي أنهم قد يكونون صادقين في قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ ثم صدقهم إما أن يراد به اتصافهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون وإما أن يراد به أنهم لم يكونوا كالمنافقين بل معهم إيمان وإن لم يكن لهم أن يدعوا مطلق الإيمان وهذا أشبه - والله أعلم - لأن النسوة الممتحنات قال فيهن: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا يَحِفُّهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] ولا يمكن نفي الريب عنهن في المستقبل ولأن الله إنما كذب المنافقين ولم يكذب غيرهم وهؤلاء لم يكذبهم ولكن قال: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ كما قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١) وقوله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(٢) و«لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»^(٣) وهؤلاء ليسوا منافقين.

وسياق الآية يدل على أن الله ذمهم لكونهم منوا بإسلامهم لجهلهم وجفائهم وأظهروا ما في أنفسهم مع علم الله به فإن الله تعالى قال: ﴿قُلْ أَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فلو لم يكن في قلوبهم شيء من الدين لم يكونوا يعلمون الله بدينهم؛ فإن الإسلام الظاهر يعرفه كل أحد ودخلت الباء في قوله: ﴿أَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ لأنه ضمن معنى يخبرون ويحدثون كأنه قال: أتخبرونه وتحدثونه بدينكم وهو يعلم ما في السماوات وما في الأرض وسياق الآية يدل على أن الذي أخبروا به الله هو ما ذكره الله عنهم من قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ فإنهم أخبروا عما في قلوبهم.

وقد ذكر المفسرون أنه لما نزلت هاتان الآيتان أتوا رسول الله ﷺ يحلفون أنهم

(١) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥). (٢) مر تخريجه.

(٣) البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٤٦).

مؤمنون صادقون فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَصْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ وهذا يدل على أنهم كانوا صادقين أولاً في دخولهم في الدين لأنه لم يتجدد لهم بعد نزول الآية جهاد حتى يدخلوا به في الآية إنما هو كلام قالوه وهو سبحانه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِنْسُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولفظ: ﴿وَلَمَّا﴾ ينفي به ما يقرب حصوله ويحصل غالباً كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقد قال السدي: نزلت هذه الآية في أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وهم الذين ذكرهم الله في سورة الفتح وكانوا يقولون: آمنا بالله ليأمنوا على أنفسهم فلما استنفروا إلى الحديبية تخلفوا فنزلت فيهم هذه الآية.

وعن مقاتل: كانت منازلهم بين مكة والمدينة وكانوا إذا مرت بهم سرية من سرايا رسول الله ﷺ قالوا: آمنا ليأمنوا على دمائهم وأموالهم فلما سار رسول الله ﷺ إلى الحديبية استنفرهم فلم ينفروا معه^(١).

وقال مجاهد^(٢): نزلت في أعراب بني أسد بن خزيمة ووصف غيره حالهم فقال: قدموا المدينة في سنة مجدية فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين وأفسدوا طرق المدينة بالعدرات وأغلوا أسعارهم وكانوا يمتنون على رسول الله ﷺ يقولون: أتيناك بالأنثقال والعيال فنزلت فيهم هذه الآية وقد قال قتادة^(٣) في قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧﴾﴾ قال: منوا على النبي ﷺ حين جاءوا فقالوا: إنا أسلمنا بغير قتال لم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان فقال الله لنبيه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

وقال مقاتل بن حيان: هم أعراب بني أسد بن خزيمة قالوا: يا رسول الله أتيناك بغير قتال وتركنا العشائر والأموال، وكل قبيلة من العرب قاتلتك حتى دخلوا كرهاً في الإسلام فلنا بذلك عليك حق: فأنزل الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧﴾﴾ فله بذلك المن عليكم وفيهم أنزل الله: ﴿وَلَا تَبْلُغُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، ويقال: من الكبائر التي ختمت بنار كل موجبة من ركبها ومات عليها لم يتب منها.

(١) قول السدي ومقاتل نقله شيخ الإسلام من زاد المسير (٤٧٦/٧).

(٢) ابن جرير (١٤١/٢٦). (٣) ابن جرير (١٤٢/٢٦).

وهذا كله يبين أنهم لم يكونوا كفاراً في الباطن؛ ولا كانوا قد دخلوا فيما يجب من الإيمان، وسورة الحجرات قد ذكرت هذه الأصناف فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ١] ولم يصفهم بكفر ولا نفاق؛ لكن هؤلاء يخشى عليهم الكفر والنفاق، ولهذا ارتد بعضهم؛ لأنهم لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، وقال بعد ذلك: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ يَنْبِئُ فَتَيْنُوا﴾ [الحجرات: ٦] وهذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة، وكان قد كذب فيما أخبر.

قال المفسرون^(١): نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق ليقبض صدقاتهم وقد كانت بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فسار بعض الطريق ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال: إنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتلي فضرب رسول الله ﷺ البعث إليهم فنزلت هذه الآية. وهذه القصة معروفة من وجوه كثيرة. ثم قال تعالى في تمامها: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧] وقال تعالى: ﴿وَلِإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى﴾ [الحجرات: ٩]. ثم نهاهم عن أن يسخر بعضهم ببعض وعن اللمز والتنازع بالألقاب وقال: ﴿يَسَّ الْأَتَمُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١] وقد قيل: معناه: لا تسميه فاسقاً ولا كافراً بعد إيمانه، وهذا ضعيف، بل المراد: بس الاسم أن تكونوا فاسقاً بعد إيمانكم كما قال تعالى في الذي كذب: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ يَنْبِئُ فَتَيْنُوا﴾ فسماه فاسقاً.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(٢) يقول: فإذا ساءبتم المسلم وسخرتم منه ولمزتموه استحققتم أن تسموا فاسقاً، وقد قال في آية القذف: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤] يقول: فإذا أتيتهم بهذه الأمور التي تستحقون بها أن تسموا فاسقاً كنتم قد استحققتم اسم الفسوق بعد الإيمان وإلا فهم في تنازعهم ما كانوا يقولون: فاسق كافر؛ فإن النبي ﷺ قدم المدينة وبعضهم يلقب بعضاً.

وقد قال طائفة من المفسرين في هذه الآية: لا تسميه بعد الإسلام بدينه قبل الإسلام كقوله لليهودي إذا أسلم: يا يهودي وهذا مروي عن ابن عباس وطائفة من التابعين كالحسن وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني والقرظي وقال عكرمة: هو قول

الرجل: يا كافر يا منافق! وقال عبد الرحمن بن زيد: هو تسمية الرجل بالأعمال كقوله: يا زاني يا سارق يا فاسق. وفي تفسير العوفي عن ابن عباس قال: هو تعبير الثائب بسيئات كان قد عملها، ومعلوم أن اسم الكفر واليهودية والزاني والسارق وغير ذلك من السيئات ليست هي اسم الفاسق فعلم أن قوله: ﴿يَسْأَلُ الْإِسْمَ الْفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١] لم يرد به تسمية المسبوب باسم الفاسق فإن تسميته كافراً أعظم، بل إن الساب يصير فاسقاً لقوله: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ثم قال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَنْتَبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] فجعلهم ظالمين إذا لم يتوبوا من ذلك وإن كانوا يدخلون في اسم المؤمنين ثم ذكر النهي عن الغيبة ثم ذكر النهي عن التفاخر بالأحساب وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣] ثم ذكر قول الأعراب: (آمنا).

فالسورة تنهى عن هذه المعاصي والذنوب التي فيها تعد على الرسول وعلى المؤمنين، فالأعراب المذكورون فيها من جنس المنافقين وأهل السباب والفسوق والمنادين من وراء الحجرات وأمثالهم ليسوا من المنافقين، ولهذا قال المفسرون: إنهم الذين استنفروا عام الحديبية وأولئك وإن كانوا من أهل الكبائر فلم يكونوا في الباطن كفاراً منافقين.

قال ابن إسحاق^(١): لما أراد رسول الله ﷺ العمرة - عمرة الحديبية - استنفر من حول المدينة من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه خوفاً من قومه أن يعرضوا له بحرب أو بصد فتناقل عنه كثير منهم فهم الذين عنى الله بقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ يَا أَعْرَابٍ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَعْلَوْنَا فَاستَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١] أي ادع الله أن يغفر لنا تخلفنا عنك ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١] أي ما يبالون استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم وهذا حال الفاسق الذي لا يبالي بالذنب، والمنافقون قال فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّازٍ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْنَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون] ولم يقل مثل هذا في هؤلاء الأعراب، بل الآية دليل على أنهم لو صدقوا في طلب الاستغفار نفعهم استغفار الرسول لهم ثم قال: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمٌ أُولَىٰ بِأَنْ يَشْدِبَ يُقْبِلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦] فوعدهم الله بالثواب على طاعة الداعي إلى الجهاد وتوعدهم بالتولي عن طاعته.

وهذا كخطاب أمثالهم من أهل الذنوب والكبائر بخلاف من هو كافر في الباطن فإنه لا يستحق الثواب بمجرد طاعة الأمر حتى يؤمن أولاً ووعيده ليس على مجرد توليه عن الطاعة في الجهاد فإن كفره أعظم من هذا.

فهذا كله يدل على أن هؤلاء من فساق الملة فإن الفسق يكون تارة بترك الفرائض وتارة بفعل المحرمات، وهؤلاء لما تركوا ما فرض الله عليهم من الجهاد وحصل عندهم نوع من الريب الذي أضعف إيمانهم لم يكونوا من الصادقين الذين وصفهم وإن كانوا صادقين في أنهم في الباطن متدينون بدين الإسلام.

وقول المفسرين: (لم يكونوا مؤمنين) نفى لما نفاه الله عنهم من الإيمان كما نفاه عن الزاني والسارق والشارب وعمن لا يأمن جاره بوائقه وعمن لا يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه وعمن لا يجيب إلى حكم الله ورسوله وأمثال هؤلاء وقد يحتج على ذلك بقوله: ﴿يَسْ أَلَا تَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١] كما قال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» فذم من استبدل اسم الفسوق بعد الإيمان، فدل على أن الفاسق لا يسمى مؤمناً، فدل ذلك على أن هؤلاء الأعراب من جنس أهل الكبائر لا من جنس المنافقين.

وأما ما نقل من أنهم أسلموا خوف القتل والسبي، فهكذا كان إسلام غير المهاجرين والأنصار، أسلموا رغبة ورهبة كإسلام الطلقاء من قريش بعد أن قهرهم النبي ﷺ وإسلام المؤلفة قلوبهم من هؤلاء ومن أهل نجد وليس كل من أسلم لرغبة أو رهبة كان من المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار بل يدخلون في الإسلام والطاعة وليس في قلوبهم تكذيب ومعادة للرسول ولا استنارت قلوبهم بنور الإيمان ولا استبصروا فيه، وهؤلاء قد يحسن إسلام أحدهم فيصير من المؤمنين كأكثر الطلقاء، وقد يبقى من فساق الملة، ومنهم من يصير منافقاً مرتباً إذا قال له متكر ونكير: ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه! هاه! لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته^(١).

وقد تقدم قول من قال: إنهم أسلموا بغير قتال، فهؤلاء كانوا أحسن إسلاماً من غيرهم، وإن الله إنما ذمهم لكونهم منوا بالإسلام وأنزل فيهم ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] وأنهم من جنس أهل الكبائر.

وأيضاً قوله: ﴿وَلَكِنَّ قَوْلُوا اسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (ولما) إنما ينفي بها ما يُنتظرُ ويكون حصوله مترقباً كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤] فقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يدل على أن دخول الإيمان منتظر منهم فإن الذي يدخل في الإسلام ابتداء لا يكون قد حصل في قلبه الإيمان لكنه يحصل فيما بعد كما في الحديث: «كان الرجل يسلم أول النهار رغبة في الدنيا فلا يجيء آخر النهار إلا والإسلام أحب إليه مما طلعت عليه الشمس» ولهذا كان عامة الذين أسلموا رغبة ورهبة دخل الإيمان في قلوبهم بعد ذلك. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ قَوْلُوا اسْلَمْنَا﴾ أمر لهم بأن يقولوا ذلك، والمنافق لا يؤمر بشيء، ثم قال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ والمنافق لا تنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولاً.

وهذه الآية مما احتج بها أحمد بن حنبل وغيره على أنه يستثنى في الإيمان دون الإسلام، وأن أصحاب الكبائر يخرجون من الإيمان إلى الإسلام. قال الميموني: سألت أحمد بن حنبل عن رأيه في: أنا مؤمن إن شاء الله، فقال: أقول: مؤمن إن شاء الله، وأقول: مسلم ولا استثنى. قال قلت لأحمد: تفرق بين الإسلام والإيمان؟ فقال لي: نعم فقلت له: بأي شيء تحتج؟ قال لي: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا اسْلَمْنَا﴾ وذكر أشياء. وقال الشالنجي: سألت أحمد عن من قال: أنا مؤمن عند نفسي من طريق الأحكام والمواريث ولا أعلم ما أنا عند الله قال: ليس بمرجئ) ١. هـ (١).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٢).

(ويقتضي الأصل الثاني: وهو أن يكون الجهاد في سبيله أحب إليهم من الأهل والمال؛ فإن ذلك هو تمام الإيمان الذي ثوابه حب الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إيماناً لا يكون بعده ريب ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾) ١. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥) فأخبر تعالى أن هؤلاء هم الصادقون في قولهم: آمنا ودل ذلك على أن الناس في قولهم: آمنا صادق وكاذب والكاذب فيه نفاق بحسب كذبه) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥) يبين أن الجهاد واجب وترك الارتياب واجب) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥) وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) [الحشر]، فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم ريبة وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ فالإيمان المطلق يدخل فيه الإسلام) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥) فالصادق في قوله: ﴿آمَنُوا﴾ هو الذي لم يحصل له ريب فيما جاء به الرسول ومن جوز أن يكون فيما أخبر به ما يعارضه صريح المعقول لم يزل في ريب من ثبوت ما أخبر به ولكن غايته أن يعلم أن الرسول صادق فيما أخبر به على طريق الجملة فإذا نظر فيما أخبر به لم يعلم ثبوت شيء مما أخبر به) ا.هـ (٥).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١٥) فبين ^{بأن} أن المؤمن لا بد له من ثلاثة أمور:

- (١) مجموع الفتاوى (٥٤٢/٧). (٢) مجموع الفتاوى (١٥/٧).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/١٠). (٤) مختصر الفتاوى المصرية (١٣١ - ١٣٢).
(٥) درء تعارض العقل (٣٣٧/٥ - ٣٣٨).

أولها: أن يؤمن بالله ورسوله.

وثانيها: لا يرتاب بعد ذلك. أن يكون موقناً ثابتاً، واليقين يخالف الريب، والريب نوعان: نوع يكون شكاً لنقص العلم ونوع يكون اضطراباً في القلب وكلاهما لنقص الحال الإيماني فإن الإيمان لا بد فيه من علم القلب، وليس كل مكان يكون له علم يعلمه وعمل القلب أو بصيرته وثباته وطمأنينته وسكينته وتوكله وإخلاصه وإنابته إلى الله تعالى، وهذه الأمور كلها في القرآن يقال: رابني كذا وكذا يريني أي حرك قلبي، ومنه الحديث عن رسول الله ﷺ: أنه مر بظبي حاقف فقال: «لا يريبه أحد»^(١) أي لا يحركه أحد، ومنه قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما يريك»^(٢) فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة؛ فإن الصادق من لا يقلق قلبه، والكاذب يقلق قلبه، وليس هناك شك، بل يعلم أن الريب أعم من الشك.

ولهذا في الدعاء المأثور: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك»^(٣) الحديث إلى آخره. وفي المسند والترمذي عن أبي بكره ﷺ أنه قال: «سلوا الله اليقين والعافية؛ فإنه لم يعط خير من اليقين والعافية فاسألوها الله ﷻ»^(٤) والعرب تقول: ماء يقن إذا كان ساكناً لا يتحرك فقلب المؤمن مطمئن لا يكون فيه ريب هذا معنى قوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٥) هـ.

﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَعْتُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦) هـ.

(فاحتج بقوله في قصة الأعراب: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: فدل ذلك على أن الإسلام هو الإيمان فيقال: بل يدل على تقيض ذلك لأن القوم لم يقولوا: (أسلمنا) بل قالوا: آمنا والله أمرهم أن يقولوا أسلمنا ثم ذكر تسميتهم بالإسلام فقال: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم: آمنا ولو كان الإسلام هو الإيمان لم يحتج أن يقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإنهم صادقون في قولهم: أسلمنا مع أنهم لم يقولوا ولكن الله قال: ﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَعْتُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦) هـ.

(٢) البخاري (٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩).

(٤) البخاري (٦٢/٤).

(١) مر تخريجه.

(٣) مر تخريجه.

(٥) مجموع الفتاوى (٤٢/٢٨ - ٤٣).

لَا تَتَّبِعُوا عَلَىٰ إِيْتَانِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ۖ أَيُّ يَمْنُونِ عَلَيْكَ مَا فَعَلُوهُ مِنَ الْإِسْلَامِ فَاللَّهُ تَعَالَى سَمَىٰ فَعَلَهُمْ إِسْلَامًا وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ سَمَوْهُ إِسْلَامًا وَإِنَّمَا قَالُوا: آمَنَّا ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الْمَنَّةَ تَقَعُ بِالْهُدَايَةِ إِلَى الْإِيمَانِ فَأَمَّا الْإِسْلَامُ الَّذِي لَا إِيمَانَ مَعَهُ فَكَانَ النَّاسُ يَفْعَلُونَهُ خَوْفًا مِنَ السَّيْفِ فَلَا مَنَّةَ لَهُمْ يَفْعَلُهُ، وَإِذَا لَمْ يَمْنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ كَانَ ذَلِكَ كَالْإِسْلَامِ الْمُنَافِقِينَ فَلَا يَقْبَلُهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَأَمَّا إِذَا كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ: آمَنَّا فَاللَّهُ هُوَ الْمَانُّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْإِيمَانِ وَمَا يَدْخُلُ فِيهِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ نَفَىٰ عَنْهُمْ الْإِيمَانَ أَوَّلًا، وَهَذَا عُلِقَ مَنَّةُ اللَّهِ بِهِ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ، فَدَلَّ عَلَىٰ جَوَازِ صِدْقِهِمْ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُمْ صَارُوا صَادِقِينَ بَعْدَ ذَلِكَ وَيُقَالُ: الْمَعْلُقُ بِشَرْطٍ لَا يَسْتَلْزِمُ وَجُودَ ذَلِكَ الشَّرْطِ وَيُقَالُ: لِأَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ إِيمَانٌ مَّا لَكِنِ مَا هُوَ الْإِيمَانُ الَّذِي وَصَفَهُ ثَانِيًا، بَلِ مَعَهُمْ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ (١) هـ.

سورة ق

وقال في عموم سورة ق:

(وكذلك سورة «ق» هي في ذكر وعيد القيامة، ومع هذا قال فيها: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق] ثم قال بعد ذلك: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ﴾ [ق] فذكر القيامتين: الصغرى والكبرى، وقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي أخبرت به الرسل، ليس مراده أنها جاءت بالحق الذي هو الموت؛ فإن هذا مشهور لم ينزع فيه ولم يقل أحد: إن الموت باطل حتى يقال: جاءت بالحق.

وقوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، فالإنسان وإن كره الموت فهو يعلم أنه تلاقيه ملائكته، وهذا كقوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر] واليقين ما بعد الموت كما قال النبي ﷺ: «أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه»^(١) وإلا فنفس الموت - مجرد عما بعده - أمر مشهور لم ينزع فيه أحد حتى يسمى يقيناً) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (كان النبي ﷺ يقرأ في صلاة العيد بـ(قاف) و﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ﴾ [القمر: ١] لما فيهما من بيان ذلك، وسورة قاف كان يقرأ بها في الجمعة فإنها جامعة لإثبات النبوات والمعاد وبيان حال متبعي الأنبياء ومخالفهم في الدنيا كما قال - تعالى -: ﴿كَذَّبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمٌ نُوْحٍ وَأَصْحَبَ الْأَرْضِ وَقَوْمُ ۖ وَكَادَ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۖ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [ق: ١٧] [ق: ١٨] ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك في سورة «ق» ذكر حال المخالفين للرسل؛ وذكر الوعد والوعيد في الآخرة) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقد ذكر طعنهم في الرسالة والمعاد جميعاً في قوله: ﴿قَفْ﴾

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٥ - ٢٦٦).

(١) مر تخريجه.

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٤١).

(٣) الجواب الصحيح (٦/ ٤٢٧ - ٤٢٨).

وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَلَمْ يَسْمَعُوا كَلِمَ رَبِّهِمْ فِي ذَلِكَ يَخْبَرُهُمْ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾، ثم ذكر الأدلة عليهم إلى قوله: ﴿أَفَعِيبَانِ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿٥﴾، وهذه السورة قد تضمنت من أصول الإيمان ما أوجبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في المجامع العظام فيقرأ بها في خطبة الجمعة وفي صلاة العيد وكان من كثرة قراءته لها يقرأ بها في صلاة الصبح، وكل ذلك ثابت في الصحيح) ١. هـ^(١).

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَلَيْنَاهَا وَرَازَنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿٦﴾ ... بَصَرَةٍ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُثِيبٍ ﴿٨﴾.

(وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَلَيْنَاهَا وَرَازَنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَنَّا فِيهَا كُلَّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ بَصَرَةٍ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُثِيبٍ ﴿٨﴾) فالآيات المخلوقة والملتوة فيها تبصرة وفيها تذكرة، تبصرة من العمى وتذكرة من الغفلة فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف، ويذكر من عرف ونسي، والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر، بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه، ثم كلما فعل شيئاً مما أمر به استحضر أنه أمر به فصدق الأمر فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلاً عنه وإن لم يكن مكذباً منكراً) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والعلم يحصل بالعلم بالدليل لمن لم يكن عالماً به قط ولمن يذكره بعد النسيان إذا كان قد علمه ثم نسيه ولهذا قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَلَيْنَاهَا وَرَازَنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ بَصَرَةٍ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُثِيبٍ ﴿٨﴾) فبين سبحانه أن آياته تبصرة وتذكرة. فالتبصرة بعد العمى وهو الجهل، والتذكرة بعد النسيان وهو ضد العلم) ١. هـ^(٣).

﴿كَذَّبَ قَوْمُ بِلْعَمَزٍ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرِّيسِ وَنُوحٌ وَصَادُوقُونَ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوسُفَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ ﴿٩﴾.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٣٦ - ٢٣٧).

(١) دره تعارض العقل (٧/ ٦٤ - ٦٥).

(٣) الرد على المنطقيين (٣٤١).

(وقد قال ﷺ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَنُوحٌ ﴿١٦﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٧﴾ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٨﴾﴾ فأخبر سبحانه أن كل واحد من هؤلاء المذكورين فرعون وغيره كذب الرسل كلهم إذ لم يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض كاليهود والنصارى، بل كذبوا الجميع، وهذا أعظم أنواع الكفر، فكل من كذب رسولاً فقد كفر، ومن لم يصدقه ولم يكذبه فقد كفر فكل مكذب للرسول كافر به، وليس كل كافر مكذباً به، إذ قد يكون شاكاً في رسالته أو عالماً بصدقه لكنه يحمله الحسد أو الكبر على ألا يصدق، وقد يكون مشغولاً بهواه عن استماع رسالته والإصغاء إليه؛ فمن وصف بالكفر الخاص الأشد كيف لا يدخل في الكفر) ١. هـ^(١).

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾

(فأما الآية التي ذكرها القائل المتقدم وهي قوله: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ فإن العرب تقول: عي وعيي بأمره إذا لم يهتد لوجهه ويقول الرجل: عييت بأمرى إذا لم يهتد لوجهه وأعياني هو، وقال الشاعر:

عيوا بأمرهم كما عييت ببيضتها الحمامة

فالعي بالأمر يكون عاجزاً عنه مثل أن لا يدري ما يفعل فيه.

فقال سبحانه باستفهام الإنكار المتضمن نفي ما استفهم عنه وأن ذلك معلوم عند المخاطب: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ فلم تكن عالمة بما نضع فيه ولا قادرين عليه؟ أم خلقناه بعلمنا وقدرتنا، وأتينا فيه من الأحكام والإتقان بما دل على كمال علمنا وحكمتنا وقدرتنا؟

وهذا نظير قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ شُرَكَاءَ مِنْ دُونِهِ يُغْنِي عَنْهُمْ الْيَوْمَ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف].

ومن المستقر في بدائه العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق آدميين، فإذا كان فيها من الدلالة على علم خالقها وقدرته وحكمته ما بهر العقل أفلا يكون ذلك دالاً على أنه قادر على إحياء الموتى لا يعيى بذلك كما لم يعيى بالأول بطريق الأولى والأخرى؟.

ولعل هذا الجاهل لم يفهم هذه الآية فظن أن قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ شُرَكَاءَ مِنْ دُونِهِ يُغْنِي عَنْهُمْ الْيَوْمَ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف]: هو من الإعياء: الذي هو النصب واللغوب، وأن المعنى إذا كنا ما تعبنا في الخلق

الأول، فكيف نتعب في الثاني؟ فإن كان هذا هو الذي فهمه من الآية كما يفهم ذلك جهال العامة الذين لا يعرفون لغة العرب ولا تفسير القرآن، ولا يفرقون بين عبي وأعياء فقد أوتي من جهة جهله بالعقل والسمع.

وهؤلاء المبتدعون يجهلون حقائق ما جاء به الرسول، ويعرضون عنه، ثم يحكمون بموجب جهلهم أن ليس في ذلك من البراهين من جنس ما في كلامهم ولو أوتوا العقل والفهم لما جاء به الرسول ﷺ لتبينوا أنه الجامع لكل خير.

وأما فساد طرقهم المخالفة للنصوص، فهو بين لكل ذكي فاضل منهم ومن غيرهم ويكفيك أن عمدتهم في أصول الدين إما دليل الإعراض وقد علم ما فيه من الاعتراض وإما دليل الوجوب المستلزم للواجب.

وقد بينا في غير هذا الموضع أن تلك الطريقة لا تدل على وجود واجب فإن ذلك إنما يدل إذا ثبت وجود الممكن الذي يستلزم الواجب، والممكن عندهم هو متناول القديم والحادث، فجعلوا القديم الأزلي داخلياً في مسمى الممكن وخالفوا بذلك قول سائر العقلاء من سلفهم وغيرهم، مع تناقضهم في ذلك.

ولهذا التقدير لا يمكنهم أن يقيموا دليلاً على أن الممكن بهذا الاعتبار يحتاج إلى فاعل وقد أوردوا على هذه الطريقة من الاعتراضات ما أوردوه، ولم يمكنهم أن يجيبوا عنه بجواب صحيح كما قد بسط في موضعه، ثم غايته إثبات وجود واجب لا يتميز عن المخلوقات، ولهذا صار كثير منهم إلى أن الوجود الواجب^(١) لا يتميز عن المخلوقات ولهذا صار كثير منهم إلى أن الوجود الواجب^(٢) هو وجود المخلوقات، فكثير من نظارهم يطعن في دليل إثبات واجب الوجود وكثير من محققهم وعارفيهم يقول: إن الوجود الواجب هو وجود المخلوقات.

ومآل القولين واحد وهو قول فرعون الذي أنكر رب العالمين فإن فرعون وغيره لم ينكروا وجود هذا العالم المشهود، فمن جعله هو الوجود الواجب، أو كان قوله لا يدل إلا على ذلك، كان منكراً للصانع ثم إذا كان هذا هو الوجود الواجب، كان ما يلزمهم على ذلك من المحالات أضعاف ما فروا منه، كما بينا ذلك في غير هذا الموضع.

فمن جعله وجود كل موجود كان فيه الشهادة على نفس الوجود المحدث الكائن

(١) أشار المحقق إلى أن هذا سقط من إحدى النسخ، ولعل حذفها أولى.

بعد أن لم يكن بأنه واجب، ومن جعله وجود الفلك كان فيه من افتقار واجب الوجود إلى غيره، ومن حدوث الحوادث بلا سبب فاعل ومن غير ذلك ما يناقض أصولهم وأصول غيرهم المتفق على صحتها ويوقعهم في شر مما منه فروا.

والمقصود هنا أنه سبحانه لما قال: ﴿أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ لم يرد الإعياء الذي هو التعب وإنما أراد العي كما تقول العرب: عيي بأمره إذا لم يهتد لوجهه، وحينئذ فيكون في الآية من الدلالة على علم الخالق وحكمته ما يبين أنه خلقه بمشيئته وقدرته وحكمته وعلمه، ومن كان خالقاً لهذا العالم بمشيئته وقدرته وحكمته وعلمه، كان بأن يقدر على إحياء الموتى أولى وأحرى (١) هـ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦).

(وأيضاً فالنفس لها وسوسة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦) فهذا توسوس به نفسه لنفسه كما يقال حديث النفس قال النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به» (٢) أخرجاه في الصحيحين) هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ فإنه سبحانه يعلم ذلك، وملائكته يعلمون ذلك كما ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا هم العبد بحسنة كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر حسنات وإذا هم بسيئة لم تكتب عليه فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة وإن تركها لله كتبت حسنة» (٤).

فالمَلَكُ يعلم ما يَهْمُّ به العبد من حسنة وسيئة، وليس ذلك من علمهم بالغيب الذي اختص الله به، وقد روي عن ابن عيينة: أنهم يشمون رائحة طيبة فيعلمون أنه هَمٌّ بحسنة، ويشمون رائحة خبيثة فيعلمون أنه هَمٌّ بسيئة، وهم وإن شموا رائحة طيبة ورائحة خبيثة فعلمهم لا يفتقر إلى ذلك بل ما في قلب ابن آدم يعلمونه بل ويصرونه ويسمعون وسوسة نفسه، بل الشيطان يلتقم قلبه، فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل قلبه عن ذكره وسوس، ويعلم هل ذكر الله أم غفل عن ذكره؟ ويعلم ما تهواه نفسه من شهوات الغي فيزينها له) هـ (٥).

(١) درء تعارض العقل (٧/ ٣٨٠ - ٣٨٣). (٢) البخاري (٥٢٦٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥١٠) (١٧/ ٥١٩). (٤) مر تخريجه.

(٥) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٠٧ - ٥٠٨).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَنَعْلُهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يقتضي أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك يعلمون ما يوسوس به العبد نفسه كما قال: ﴿أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف] فهو يسمع، ومن يشاء من الملائكة يسمعون ومن شاء من الملائكة.

وأما الكتابة فرسله يكتبون كما قال ههنا: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ [ق] وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَحْيُ الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] فأخبر بالكتابة بقوله نحن، لأن جنده يكتبون بأمره وفصل في تلك الآية بين السماع والكتابة لأنه يسمع بنفسه، وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره والملائكة يكتبون.

فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ مثل قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] لما كانت ملائكته متقربين إلى العبد بأمره، كما كانوا يكتبون عمله بأمره، قال ذلك، وقربه من كل أحد بتوسط الملائكة كتكليمه كل أحد بتوسط الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِإِبْرَٰهِيمَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فهذه تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل وذاك قربه إليهم عند الاحتضار وعند الأقوال الباطنة في النفس والظاهرة على اللسان وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَثِيرِينَ ۝ يَكْلُمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠١ هـ^(١)].

وقال رحمه الله: (وقد ذكره ابن أبي حاتم بإسناده عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه] يعلم وهو كذلك ما توسوس به أنفسنا منا وهو بذلك أقرب إلينا من حبل الوريد وكيف لا يكون كذلك وهو أعلم بما توسوس به أنفسنا منا فكيف بحبل الوريد؟! وكذلك قال أبو عمرو الطلمنكي، قال: ومن سأل عن قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فاعلم أن ذلك كله على معنى العلم به والقدرة عليه والدليل من ذلك صدر الآية فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [الرحمن: ١٦] لأن الله لما كان عالماً بوسوسته؛ كان أقرب إليه من حبل الوريد، وحبل الوريد لا يعلم ما توسوس به النفس) ١ هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١) إِذْ بَلَغَى الْتَلْقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدًا (٢)، وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٣) وَأُنْتَبِهَتْ جُنْدٌ نَظَرُونَ (٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٥)﴾ [الواقعة].

قالمراد به قربه إليه بالملائكة وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف، قالوا: ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة. وقد قال طائفة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ بالعلم، وقال بعضهم: بالعلم والقدرة ولفظ بعضهم بالقدرة والرؤية.

وهذه الأقوال ضعيفة، فإنه ليس في الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود، حتى يحتاجوا أن يقولوا بالعلم والقدرة والرؤية، ولكن بعض الناس لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء قادر على كل شيء.

وكانهم ظنوا أن لفظ «القرب» مثل لفظ «المعية» فإن لفظ المعية في سورة الحديد والمجادلة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١) [الحديد]، وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [المجادلة: ٧].

وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا: هو معهم بعلمه، وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله، وهو مأثور عن ابن عباس، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، وغيرهم.

قال ابن أبي حاتم في «تفسيره» حدثنا أبي، ثنا إسماعيل بن إبراهيم بن معمر، عن نوح بن ميمون المضروب، عن بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ قال هو على العرش وعلمه معهم قال: وروي عن سفيان الثوري أنه قال: علمه معهم وقال: حدثنا أبي قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا نوح بن ميمون المضروب ثنا بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ﴾ إلى قوله:

﴿إِنَّ مَا كَانُوا﴾ قال: هو على العرش وعلمه معهم، ورواه بإسناد آخر عن مقاتل بن حيان هذا، وهو ثقة في التفسير، ليس بمجروح كما جرح مقاتل بن سليمان.

وقال عبد الله بن أحمد ثنا نوح بن ميمون المضروب عن بكير بن معروف ثنا أبو معاوية عن مقاتل بن حيان عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] قال: هو على العرش وعلمه معهم. وقال علي بن الحسن بن شقيق: حدثنا عبد الله بن موسى صاحب عبادة ثنا معدان قال ابن المبارك: إن كان أحد بخراسان من الأبدال فمعدان قال: سألت سفيان الثوري عن قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ إِنْ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] قال: علمه.

وقال حنبل بن إسحاق في كتاب السنة: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ إِنْ مَا كُنْتُمْ﴾ و﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا﴾ قال: علمه عالم الغيب والشهادة محيط بكل شيء شاهد علام الغيوب يعلم الغيب ربنا على العرش بلا حد ولا صفة وسع كرسيه السموات والأرض) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فإنه تعالى هو وملائكته يعلمون ما توسوس به نفس العبد من حسنة وسيئة، والهم في النفس قبل العمل فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هو قرب ذوات الملائكة وقرب علم الله، فذاتهم أقرب إلى قلب العبد من حبل الوريد فيجوز أن يكون بعضهم أقرب إلى بعضه من بعض، ولهذا قال في تمام الآية: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] فقوله: ﴿إِذْ﴾ ظرف فأخبر أنهم أقرب إليه من حبل الوريد حين يتلقى المتلقيان ما يقول. فهذا كله خبر عن الملائكة) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك ذوات الملائكة تقرب من ذات المحتضر وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فإنه سبحانه هو وملائكته يعلمون ما توسوس به نفس العبد كما ثبت في الصحيحين: «إذا هم العبد بحسنة فلم يعملها قال الله لملائكته: اكتبوها له حسنة فإن عملها قال: اكتبوها له عشر حسنات وإذا هم بسيئة إلى آخر الحديث فالملائكة يعلمون ما يهم به من حسنة وسيئة والهم» إنما يكون في النفس قبل العمل

(١) مجموع الفتاوى (٥/٤٩٤ - ٤٩٦) وجميع الآثار فيه ستخرج فيما بعد.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/١٢٨ - ١٢٩).

وقد صالحوا المشركين، لما أن في ظاهره غضاضة عليهم، حتى كرهه كثير منهم، وجرت فيه فصول، فأنزل الله سورة الفتح بنصرته من الحديدية، وهو في الطريق قبل وصوله إلى المدينة، ثم إنه تجهز من المدينة لفتح خيبر، وفي أواخر غزاة خيبر قدم عليه أبو موسى والأشعريون، وفي تلك المدة أسلم أبو هريرة، ولما أنزل الله عليه هذه الآية: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال له الناس: يا رسول الله! هذا لك. فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] (١).

وفي هذا رد على طائفة - من الناس - كيعض المصنِّفين في السير وفي مسألة العصمة. يقولون في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾: وهو ذنب آدم، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ذنب أمته، فإن هذا القول وإن كان لم يقله أحد من الصحابة والتابعين ولا أئمة المسلمين ولا يقوله من يعقل ما يقول فقد قاله طائفة من المتأخرين، ويظن بعض الجهال أن هذا معنى شريف، وهو كذب على الله وتحريف الكلم عن مواضعه، فإنه قد ثبت في الصحاح (٢) في أحاديث الشفاعة: أن الناس يوم القيامة يأتون آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر إليهم ويقول: إني نهيت عن الشجرة فأكلت منها، نفسي نفسي، ويأتون نبياً بعد نبي إلى أن يأتوا المسيح، فيقول: اتنوا محمداً فإنه عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلو كانت ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو ذنب آدم لم يعتذر آدم.

وأيضاً فلما نزلت الآية قالت الصحابة: هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] فلو كان «ما تأخر» مغفرة ذنوبهم لقال: هذه لكم (٣) ١. هـ.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾).

وهذه الهداية الخاصة التي أعطاها إياها بعد فتح الحديدية أخص مما تقدم فإن السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيء بعد شيء ويزيده الله هدى بعد هدى وأقوم

(١) مسلم (١٧٨٦).

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٩٤) عن عدد من الصحابة.

(٣) جامع المسائل (٢٨/٤ - ٣٠).

وأبلغ من ذلك أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وهو يوسوس له بما يهواه فيعلم ما تهواه نفسه.

فقلوه: ﴿وَعَنْ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هو قرب ذوات الملائكة وقرب علم الله منه وهو رب الملائكة والروح وهم لا يعلمون شيئاً إلا بأمره، فذاتهم أقرب إلى قلب العبد من حبل الوريد فيجوز أن يكون بعضهم أقرب إليه من بعض ولهذا قال في تمام الآية: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۖ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۗ﴾ وهذا كقلوه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۗ﴾ [الزخرف] فقلوه: (إذ) ظرف فأخبر أنهم ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ حين يتلقى المتلقيان ما يقول: ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ قعيد ﴿وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ثم قال: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۗ﴾: أي شاهد لا يغيب.

فهذا كله خبر عن الملائكة فقلوه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] وهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته فهذا إنما جاء في الدعاء لم يذكر أنه قريب من العباد في كل حال وإنما ذكر ذلك في بعض الأحوال وقد قال في الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» (١) ١. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (قلت: وهكذا ذكر غير واحد من المفسرين مثل الثعلبي، وأبي الفرج ابن الجوزي، وغيرهما في قوله: ﴿وَعَنْ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وأما في قوله: ﴿وَعَنْ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥] فذكر أبو الفرج القولين: إنهم الملائكة. وذكره عن أبي صالح عن ابن عباس وأنه (٣) القرب بالعلم.

وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات الباري جل وعلا قريبة من وريد العبد ومن الميت ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون قرب الملائكة فسروا ذلك بالعلم والقدرة كما في لفظ المعية، ولا حاجة إلى هذا فإن المراد بقوله: ﴿وَعَنْ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي بملائكتنا في الآيتين وهذا بخلاف لفظ المعية فإنه لم يقل: ونحن معه بل جعل نفسه هو الذي مع العباد وأخبر أنه ينبتهم يوم القيامة بما عملوا وهو نفسه الذي خلق السماوات والأرض وهو نفسه الذي استوى على العرش فلا يجعل لفظ مثل لفظ مع تفريق القرآن بينهما) ١. هـ (٤).

(١) مر تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣٥/٥ - ٢٣٦).

(٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «وذكر عن أبي صالح عن ابن عباس أنه».

(٤) مجموع الفتاوى (٥٠٢/٥).

وقال رحمه الله: (قلت: فالفوقية التي ذكرها في القدرة والاستيلاء «فوقية القدرة» وهو أنه أفضل المخلوقات و«القرب» الذي ذكره هو العلم أو هو العلم والقدرة وثبوت علمه وقدرته واستيلائه على كل شيء هو مما اتفق عليه المسلمون وتفسير قربه بهذا قاله جماعة من العلماء لظنهم أن القرب في الآية هو قربه وحده: ففسروها بالعلم لما رأوا ذلك عاماً قالوا: هو قريب من كل موجود بمعنى العلم وهذا لا يحتاج إليه كما تقدم وقوله: ﴿وَمَنْ أَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ لا يجوز أن يراد به مجرد العلم فإن من كان بالشيء أعلم من غيره لا يقال: إنه أقرب إليه من غيره لمجرد علمه به، ولا لمجرد قدرته عليه.

ثم إنه عليه السلام عالم بما يسر من القول وما يجهر به، وعالم بأعماله فلا معنى لتخصيص حبل الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه فإن حبل الوريد قريب إلى القلب ليس قريباً إلى قوله الظاهر وهو يعلم ظاهر الإنسان وباطنه.

قال تعالى: ﴿وَأَيِّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [١٢] أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٣﴾ [الملك] وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾ [التوبة: ٧٨] وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

ومما يدل على أن القرب ليس المراد به العلم؛ أنه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِ نَفْسَهُ وَمَنْ أَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [١١] إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ﴿١٢﴾ فأخبر أنه يعلم ما توسوس به نفسه، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فأثبت العلم وأثبت القرب وجعلهما شيئين فلا يجعل أحدهما هو الآخر وقيد القرب بقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ﴾ [١٢] مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ ﴿١٣﴾.

وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد أو أن ذاته أقرب إلى الميت من أهله فهذا في غاية الضعف، وذلك أن الذين يقولون: إنه في كل مكان، أو أنه قريب من كل شيء بذاته لا يخصون بذلك شيئاً دون شيء ولا يمكن مسلماً أن

يقول: إن الله قريب من الميت دون أهله ولا أنه قريب من حبل الوريد دون سائر الأعضاء.

وكيف يصح هذا الكلام على أصلهم وهو عندهم في جميع بدن الإنسان، أو قريب من جميع بدن الإنسان أو هو في أهل الميت كما هو في الميت فكيف يقول: ونحن أقرب إليه منكم إذا كان معه ومعهم على وجه واحد؟! وهل يكون أقرب إلى نفسه من نفسه؟!

وسياق الآيتين يدل على أن المراد الملائكة؛ فإنه قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ﴿٢﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٣﴾ فقيد القرب بهذا الزمان وهو زمان تلقي المتلقيين قعيد عن اليمين وقعيد عن الشمال وهما الملكان الحافظان للذات يكتبان كما قال: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (٢)، ومعلوم أنه لو كان المراد قرب ذات الرب لم يختص ذلك بهذه الحال، ولم يكن لذكر القعيدين والرقيب والعتيد معنى مناسب (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أن المراد الملائكة والله قد جعل الملائكة تلقي في نفس العبد الخواطر، كما قال عبد الله بن مسعود: «إن للملك لمة وللشيطان لمة، فلمة الملك تصديق بالحق ووعد بالخير، ولمة الشيطان تكذيب بالحق وإيعاد بالشر»، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله قد أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير» (٢) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (فقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْا بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٣) من الناس طوائف عندهم لا يحتاج إلى تأويل، ومنهم من يحوجها إلى التأويل ثم أقول هذه الآية لا تخلو إما أن يراد بها قرينه سبحانه أو قرب ملائكته كما قد اختلف الناس في ذلك فإن أريد بها قرب الملائكة فقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ﴾ (٤) فيكون الله ﷻ قد أخبر بعلمه هو سبحانه بما في نفس الإنسان وأخبر بقرب الملائكة الكرام الكائنين منه.

(١) مجموع الفتاوى (٥/٥٠٣ - ٥٠٥). (٢) مر تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٤/٢٥٣ - ٢٥٤).

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى﴾ ففسر ذلك بالقرب الذي هو حين يتلقى المتلقيان وبأي معنى فسر فإن علمه وقدرته عام التعلق وكذلك نفسه سبحانه لا يختص بهذا الوقت وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف] ومنه قوله في أول السورة: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيزٌ﴾ [ق].

وعلى هذا فالقرب لا مجاز فيه وإنما الكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَأَقْرَبُ﴾ حيث عبر بها عن ملائكته ورسله أو عبر بها عن نفسه أو عن ملائكته ولكن قرب كل بحسبه، فقرب الملائكة منه تلك الساعة وقرب الله تعالى منه مطلق كالوجه الثاني إذا أريد به الله تعالى أي نحن أقرب إليه من حبل الوريد فيرجع هذا إلى القرب الذاتي اللازم وفيه القولان. «أحدهما»: إثبات ذلك وهو قول طائفة من المتكلمين والصوفية.

«والثاني»: أن القرب هنا بعلمه لأنه قد قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ مَا نَوَسَّوْهُ بِهِ فَسَمَّ وَحَنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فذكر لفظ العلم هنا دل على القرب بالعلم. ومثل هذه الآية حديث أبي موسى: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً قريباً إن الذين تدعونهم أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» فالآية لا تحتاج إلى تأويل القرب في حق الله تعالى إلا على هذا القول، وحيث أن السياق دل عليه، وما دل عليه السياق هو ظاهر الخطاب فلا يكون من موارد النزاع، وقد تقدم أنا لا ندم كل ما يسمى تأويلاً مما فيه كفاية، وإنما ندم تحريف الكلم عن مواضعه ومخالفة الكتاب والسنة والقول في القرآن بالرأي.

(وتحقيق الجواب) هو أن يقال: إما أن يكون قربه بنفسه القرب اللازم ممكناً أو لا يكون، فإن كان ممكناً لم تحتاج الآية إلى تأويل، وإن لم يكن ممكناً حملت الآية على ما دل عليه سياقها، وهو قربه بعلمه، وعلى هذا القول فإما أن يكون هذا هو ظاهر الخطاب الذي دل عليه السياق أو لا يكون، فإن كان هو ظاهر الخطاب فلا كلام إذ لا تأويل حيثنذ، وإن لم يكن ظاهر الخطاب، فإنما حمل على ذلك لأن الله تعالى قد بين في غير موضع من كتابه أنه على العرش وأنه فوق فكان ما ذكره في كتابه في غير موضع أنه فوق العرش مع ما قرنه بهذه الآية من العلم دليلاً على أنه أراد قرب العلم: إذ مقتضى تلك الآيات ينافي ظاهر هذه الآية على هذا التقدير، والصريح يقضي على الظاهر ويبين معناه.

ويجوز باتفاق المسلمين أن تفسر إحدى الآيتين بظاهر الأخرى ويصرف الكلام

عن ظاهره إذ لا محذور في ذلك عند أحد من أهل السنة وإن سمي تأويلاً وصرفاً عن الظاهر فذلك لدلالة القرآن عليه ولموافقة السنة والسلف عليه: لأنه تفسير للقرآن بالقرآن ليس تفسيراً له بالرأي، والمحذور إنما هو صرف القرآن عن فحواه بغير دلالة من الله ورسوله والسابقين كما تقدم) ١. هـ^(١).

قال ابن القيم:

(والقول الثاني: أنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلى قلبه فيكون أقرب إليه من ذلك العرق، اختاره شيخنا) ١. هـ^(٢).

قال ابن القيم:

(وقال شيخنا: المراد بقوله: (نحن) أي ملائكتنا كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْبَرْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة] أي إذا قرأه عليك رسولنا جبريل، قال: ويدل عليه قوله: ﴿إِذْ يُلْقَى الْفَاتِحِينَ﴾ فقيد القرب المذكور بتلقي الملكين، فلا حجة في الآية لحلولي ولا معطل) ١. هـ^(٣).

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

(قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، وقد اختلف «أهل التفسير» هل يكتب جميع أقواله فقال مجاهد وغيره: يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه. وقال عكرمة: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر، والقرآن يدل على أنهما يكتبان الجميع فإنه قال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ نكرة في الشرط مؤكدة بحرف «من» فهذا يعم كل قوله) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ يراد باللفظ نفس الفعل وقد يراد به نفس القول الذي لفظه الالفاظ) ١. هـ^(٥).

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ غَيْرٍ﴾.

(قال لي: فقد أوقعوا الاثنين موقع الواحد في قوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ وإنما هو خطاب للواحد.

(١) مجموع الفتاوى (٦/١٩ - ٢١).

(٢) مدارج السالكين (٢/٢٩٠).

(٣) الفوائد (١١).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/٤٩).

(٥) مجموع الفتاوى (١٢/١٩٧ - ١٩٨).

قلت له: هذا ممنوع بل قوله: (ألقيا) قد قيل: تثنية الفاعل لتثنية الفعل، والمعنى: ألق ألقى، وقد قيل: إنه خطاب للسائق والشهيد. ومن قال: إنه خطاب للواحد قال: إن الإنسان يكون معه اثنان: أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله فيقول: خليلي! خليلي! ثم أنه يوقع هذا الخطاب وإن لم يكونا موجودين كأنه يخاطب موجودين فقولته: (ألقيا) عند هذا القائل إنما هو خطاب لاثنين يقدر وجودهما فلا حجة فيه البتة) ١. هـ^(١).

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ ١٨ ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ١٩ ﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ ١٨ ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ١٩﴾ وإنما نزه نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن الممتنع لنفسه) ١. هـ^(٢).

قال رحمه الله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] وكذلك قوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ ١٨ ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ١٩ ﴿فَبَيْنَ سَبْحَانِهِ أَنَّهُ قَدِمَ بِالْوَعِيدِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ١. هـ^(٣).

سئل رحمه الله:

فصل

عن قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ٢٠ ﴿ما المزيد.

فأجاب:

قد قيل: إنها تقول: ﴿وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أي ليس في محتمل للزيادة، والصحيح أنها تقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ على سبيل الطلب أي هل من زيادة تزداد في المزيد ما يزيده الله فيها من الجن والإنس كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه» ويروى عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط.

فإذا قالت: حسبي حسبي كانت قد اكتفت بما ألقى فيها، ولم تنقل بعد ذلك هل

(١) مجموع الفتاوى (٦/٣٦٦ - ٣٦٧). (٢) منهاج السنة (١/١٣٦).

(٣) منهاج السنة (٥/١٠٣ - ١٠٤).

من مزيد بل تمتلئ بما فيها لا نزواء بعضها إلى بعض فإن الله يضيقها على من فيها لسعتها فإنه قد وعدّها ليملائها من الجنة والناس أجمعين وهي واسعة فلا تمتلئ حتى يضيقها على من فيها.

قال: «وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً فيدخلهم الجنة» فيبين أن الجنة لا يضيقها سبحانه بل ينشئ لها خلقاً فيدخلهم الجنة لأن الله يدخل الجنة من لم يعمل خيراً لأن ذلك من باب الإحسان وأما العذاب بالنار فلا يكون إلا لمن عصى، فلا يعذب أحداً بغير ذنب، والله أعلم^(١).

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٢٥)

قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٢٥) وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] ففيها كل ما يشتهونه.

وفيهما مزيد على ذلك، وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه كما قال ﷺ: «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(٢) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وروى «ابن بطة» بإسناد صحيح عن الأسود بن عامر قال: ذكر لي عن شريك عن أبي اليقظان عن أنس ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: يتجلى لهم كل جمعة) ا.هـ^(٤).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٢٦)

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قالوا: وهو حاضر القلب ليس يغائبه، ووصف الله الكفار بأنهم صم بكم عمي لا يسمعون ولا يعقلون وأن في آذانهم وقراً، وأنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٢٦).

فقد بين القرآن أن من كان يعقل أو كان يسمع، فإنه يكون ناجياً وسعيداً، ويكون مؤمناً بما جاءت به الرسل وقد بسطت هذه الأمور في غير موضع، والله أعلم) ا.هـ^(٦).

- | | | | |
|-----|-----------------------------|-----|------------------------|
| (١) | مجموع الفتاوى (٤٦/١٦ - ٤٧). | (٢) | مر تخريجه. |
| (٣) | الاستقامة (١١٦/٢). | (٤) | مجموع الفتاوى (٤١٥/٦). |
| (٥) | الاستقامة (٤٢٠/١). | (٦) | جامع الرسائل (٤٠/٢). |

وقال رحمه الله: (وثبتين حقيقة الأمر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن يَتَذَكَّرُ﴾، فإن من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين إما رجل رأى الحق بنفسه فقبله فاتبعه ولم يحتج إلى من يدعو إليه فذلك صاحب القلب أو رجل لم يعقله بنفسه بل هو محتاج إلى من يعلمه ويبينه له ويعظه ويؤديه فهذا أصغى ف﴿أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي حاضر القلب ليس بغائبه كما قال مجاهد: أوتي العلم وكان له ذكرى) ١. هـ^(١).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٢٨). (وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٢٨) فنزه نفسه عن مس اللغوب قال أهل اللغة: اللغوب: الإعياء والتعب) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال في الكتاب: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٢٨) واللغوب الإعياء وإنما يستريح من إعياء ومنه قول أبي قتادة في حديث حمار الوحش: «فسعى القوم حتى لغبوا» وقال أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا لَحَمْدُ اللَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤) الَّذِي أَطْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (٣٥) [فاطر] ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٢٨) فإن نفي مس اللغوب الذي هو التعب والإعياء دل على كمال القدرة ونهاية القوة) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٢٨)، فنفي عنه اللغوب الذي يظن في لفظ الاستراحة الذي في التوراة فإن فيها أن الله خلق العالم في ستة أيام ثم استراح في يوم السبت فظن بعض الناس أنه تعب فاستراح.

ثم من علماء المسلمين من قال: إن هذا اللفظ حرفوا معناه دون لفظه وهذا لفظ التوراة المنزلة قاله ابن قتيبة وغيره وقالوا: معناه ثم ترك الخلق فعبّر عن ذلك بلفظ

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/١١٠ - ١١١).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/٣٦).

(١) مجموع الفتاوى (٩/٣١١).

(٣) بيان تلبس الجهمية (١/٣٠٩).

استراح، ومنهم من قال: بل حرفوا لفظه كما قال أبو بكر الأنباري وغيره) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٢٨)، بين بذلك كمال قدرته وأنه لا يلحقه اللغوب في الأعمال العظيمة مثل خلقه السماوات والأرض كما يلحق المخلوق اللغوب إذا عمل عملاً عظيماً. واللغوب: الانقطاع والإعياء، وهذا باب واسع مبسوط في موضع آخر) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٢٨) فتزنيه لنفسه عن مس اللغوب يقتضي كمال قدرته والقدرة من صفات الكمال فتزنيه يتضمن كمال حياته قيامه وعلمه وقدرته، وهكذا نظائر ذلك) ا.هـ^(٣).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَأَذْبَرَ النُّجُومَ﴾ (٤٩).

وقال رحمه الله: ﴿وَأَذْبَرَ النُّجُومَ﴾ [الطور: ٤٩] فسرهما طائفة بركتي الفجر، وروى ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿وَأَذْبَرَ النُّجُومَ﴾ قال ابن عباس: هو التسبيح أديار السجود.

قلت: لعل هذا تفسير لقوله: ﴿وَأَذْبَرَ النُّجُومَ﴾، فإنه أنسب. وقد روي عن طائفة من السلف أن أديار السجود الركعتان بعد المغرب، وأديار النجوم ركعتا الفجر، فإحداهما تشبه بالأخرى.

فقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَأَذْبَرَ النُّجُومَ﴾ [الطور: ٤٩] إذا فُسِّرَ هذا بالتسبيح دُبر الصلاة كان اللفظ دالاً على هذا. والسلف الذين فسروها بهذا كأنهم - والله أعلم - أرادوا أن أول ما يكتب في صحيفة النهار ركعتا الفجر، وآخر ما يرفع ركعتا المغرب، فقد روي أنهما ترفعان مع عمل النهار) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وأما من يقول بوجوب التسبيح فيستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وهذا أمر بالصلاة كلها كما ثبت في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر

(١) الجواب الصحيح (٤١٨/٤ - ٤١٩).

(٢) الجواب الصحيح (٢١١/٣).

(٣) منهاج السنة (١٨٣/٢).

(٤) جامع المسائل (٢٩٣/٣).

إلى القمر ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضارون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، وإذا كان الله يَعْلَمُ قد سمى الصلاة تسبيحاً فقد دل ذلك على وجوب التسبيح) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وقد فسرهما النبي ﷺ: «بصلاتي الفجر والعصر» في حديث جرير حديث الرؤية) ا. هـ (٢).

﴿نَحْنُ أَكْبَرُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِحَبِيرٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾

(وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١]، وهو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه لم يكن وعيد قبل سماع القرآن وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ وهو إنما اتبع الذكر وخشي الرحمن بعد أن أنذره الرسول) ا. هـ (٣).

(٢) شرح العمدة - الصلاة (١٦٧).

(١) القواعد النورانية (٦٢ - ٦٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦ / ١٧١).

سورة الذاريات

﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَلَمْ يَلْبِتُوا ﴿٢﴾ وَلَمْ يَلْبِتُوا ﴿٣﴾ فَلَمْ يَلْبِتُوا ﴿٤﴾﴾

(قوله: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَلَمْ يَلْبِتُوا ﴿٢﴾ وَلَمْ يَلْبِتُوا ﴿٣﴾ فَلَمْ يَلْبِتُوا ﴿٤﴾﴾

فأقسم بطبقات المخلوقات، طبقة بعد طبقة فأقسم بالرياح الذاريات، ثم بالسحاب الحاملات للمطر فإنها فوق الرياح ثم بالجاريات يسراً وقد قيل: إنها السفن ولكن الأنسب أن تكون هي الكواكب المذكورة في قوله: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخَنَازِيرِ ﴿٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿٦﴾﴾ [التكوير].

فسماها جوارى، كما سمي الفلك جوارى في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَافِ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى] والكواكب فوق السحاب ثم قال: ﴿فَالْمَقَسَمَاتِ أَمْراً ﴿١﴾﴾ وهي الملائكة التي هي أعلا درجة من هذا كله) ١. هـ^(١).

قال ابن القيم ناقلاً قول شيخ الإسلام:

﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَلَمْ يَلْبِتُوا ﴿٢﴾ وَلَمْ يَلْبِتُوا ﴿٣﴾ فَلَمْ يَلْبِتُوا ﴿٤﴾﴾

(و﴿يُتْرَكُ﴾، أي مسخرة مذللة متفاداة وقال جماعة من المفسرين: إنها السفن تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً ومنهم من لم يذكر غيره.

واختار شيخنا رحمه الله القول الأول وقال: هو أحسن في الترتيب، والانتقال من السافل إلى العالي، فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذي أمرت به بين خلقه والصحيح أن (المقسمات أَمْراً) لا تختص بأربعة وقيل: هم جبريل يقسم الوحي والعذاب وأنواع العقوبة على من خالف الرسل، وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات، يقسمها بأمر الله، وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله، وإسرافيل يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور وهم المدبرات أَمْراً وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم والله أعلم) ١. هـ^(٢).

﴿فَالْمُتَسِّتِ أَمْرًا﴾ (٤).

(قال تعالى فيهم: ﴿فَالْمُدْرِيَّتِ أَمْرًا﴾ (٥) وقال: ﴿فَالْمُتَسِّتِ أَمْرًا﴾ (٤) وهم الملائكة باتفاق السلف وغيرهم من علماء المسلمين) ١. هـ^(١).

﴿إِنَّا لَنَرِي قَوْلَ خُلَيْفٍ﴾ (٨) يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ (٩).

(فيجب أن يعلم أن الحق لا ينقض بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً،

بخلاف الباطل، فإنه مختلف متناقض، كما قال تعالى في المخالفين للرسول:

﴿وَاللَّيْلَ ذَاتَ الْمُبَكِّ﴾ (٧) إِنَّا لَنَرِي قَوْلَ خُلَيْفٍ (٨) يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ (٩) (١. هـ^(٢)).

وقال رحمه الله: (وهذا التناقض العام هو الاختلاف الذي نفاه الله تعالى عن كتابه

بقوله ﴿يَكُنْ﴾: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَاتُ الْمُبَكِّ﴾ (٧) وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٧) ﴿

[النساء] وهو الاختلاف الذي وصف الله به قول الكفار في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرِي قَوْلَ

خُلَيْفٍ (٨) يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ (٩) (١. هـ^(٣)).

وقال رحمه الله: (أن المسلمين وكل عاقل، يمنع - بعد النظر التام - أن يقر بنبوة

موسى وعيسى دون محمد ﷺ إذ كانت نبوته أكمل، وطرق معرفتها أتم وأكثر وما من

دليل يستدل به على نبوة غيره إلا وهو على نبوته أدل فإن جحد نبوته يستلزم جحد نبوة

غيره بطريق الأولى ولكن من قال ذلك هو متناقض كما يتناقض سائر أهل الباطل ولهذا

قال تعالى في الكفار: ﴿إِنَّا لَنَرِي قَوْلَ خُلَيْفٍ (٨) يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ (٩) (١. هـ^(٤)).

﴿قُلِ الْمَرْصُورَ﴾ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرٍ سَاهُونَ (١١).

(وقال تعالى: ﴿قُلِ الْمَرْصُورَ﴾ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرٍ سَاهُونَ (١١) الآيات: أي

ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا

ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له.

وهذا يشبه قوله: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:

٢٨] فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة، ولهذا قال من قال: «السهو»

الغفلة عن الشيء، وذهاب القلب عنه وهذا جماع الشر «الغفلة» و«الشهوة».

(١) الرد على المنطقيين (٤٧١)، مجموع الفتاوى (٣٢٠/١٣).

(٢) الجواب الصحيح (٣٩٥/٤). (٣) درء تعارض العقل (٢٧٤/١).

(٤) الجواب الصحيح (١١٦/٥).

«فالعقلة»: عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة) ا. هـ^(١).

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ مَا يَجْعَلُونَ﴾

(قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْقَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونُ﴾ ٥٨) ﴿لَا يَدِينُ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا ذَلِكَ مُحْسِنٌ﴾ ٥٩) ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ مَا يَجْعَلُونَ﴾ ٦٠) ﴿وَالْأَسْوَاحُ هُمْ يَسْتَفِرُّونَ﴾ ٦١) وقال: ﴿الْفَكِيدُونَ وَالْفَكِيدُونَ وَالْفَكِيدُونَ وَالْمُسْتَفِيدُونَ بِالْأَسْوَاحِ﴾ ٦٢) [آل عمران] وهذا على أصح الأقوال: معناه كانوا يهجعون قليلاً ف(قليلاً) منصوب ب(يهجعون) و(ما) مؤكدة وهذا مثل قوله: ﴿بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] وقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ مَا يَجْعَلُونَ﴾ ٦٠) هو مفسر في سورة المزمل بقوله: ﴿قُرْ آلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٦١) يَصِفُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ٦٢) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَبِّلَ الْفَرْقَانَ تَرْيَلًا ٦٣) [المزمل] فهذا المستثنى من الأمر هو القليل المذكور في تلك السورة وهو قليل بالنسبة إلى مجموع الليل والنهار فإنهم إذا هجعوا ثلثه أو نصفه أو ثلثاه، فهذا قليل بالنسبة إلى ما لم يهجعوه من الليل والنهار، وسواء ناموا بالنهار أو لم يناموا) ا. هـ^(٢).

﴿وَقَدْ أَنْفَسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

(وفي هذا كله دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام، وأن له صانعاً حكيماً تام القدرة بالغ الحكمة، وقد نبه كتاب الله ﷻ على هذا النوع من الاستدلال فقال تعالى: ﴿وَقَدْ أَنْفَسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ٦٤) إشارة إلى إثارة الصنعة الموجودة في الإنسان من يدين يبطش بهما ورجلين يمشي بهما، وعين مبصرة، وأذن يسمع، ولسان يتكلم به وأضراس نحدث له عنه غناه عن الرضاع وحاجته إلى الغذاء ومعدة أعدت لطبخ الغذاء وكبد يسلك إليها صفوه وعروق ومعاير يتفد منها إلى الأطراف وأمعاء يرسب إليها ثقل الغذاء ويبرز عن أسفل البدن) ا. هـ^(٣).

﴿قَوَّيْتُ لَكُمُ الْكَيْدَ وَالْأَرْضُ لِلَّهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾

(قال تعالى: ﴿قَوَّيْتُ لَكُمُ الْكَيْدَ وَالْأَرْضُ لِلَّهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ ٦٥) والنطق إما إخبار وإما إنشاء، والإخبار أصل، فالقول بوجود أمة لا تقر بشيء من المخبرات إلا أن تحس المخبر بعينه ينافي ذلك) ا. هـ^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٥٩٦ - ٥٩٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/٨٥).

(٣) بيان تلبس الجهمية (١/١٨٠).

(٤) الفتاوى (التسعينية) (١/١٨٠).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قَوِّبَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ إِنَّهُ لَحَقٌّ نِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ فهم نطقوا، وهو أنطقهم وهو الذي أنطق كل شيء) ١. هـ.

وفي قصة إبراهيم قال:

(أخبر الله تعالى عن الملائكة أنهم أتوا إبراهيم الخليل عليه السلام ثم ذهبوا منه إلى لوط، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَلَّ مِنْكُمْ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرُمِينَ﴾ ٢) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ٣) قَرَأَ لَيْلَ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ٤) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٥) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَنَبَشِّرُوكَ بِعِلْمٍ غَلِيظٍ ٦) فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ٧) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ٨) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ٩) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ١٠) لَنُرِيَنَّكَ عَلَيْهِمْ حِسَارَةً مِنْ طِينٍ ١١) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ١٢) ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِفِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ١٣) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ١٤) وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ١٥) قَالَتْ يَوْنِيْلَتِي أَلِدْتُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ١٦) قَالُوا أَنْتَجِعِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ حِمْدٌ مَجِيدٌ ١٧) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى مُجْتَمِعَةً فِي قَوْمِ لُوطٍ ١٨) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ١٩) بَنَاتُ إِبْرَاهِيمَ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَابْتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ٢٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا يَوْمَ ضَارِقٍ يَوْمَ ذَرَعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ٢١) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّرُونَ هَلْولَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُوا فِي ضَلْفِ الْبَاسِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ٢٢) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَلَئِنْ لَنَعْلَمَنَّ مَا نُرِيدُ ٢٣) قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ٢٤) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا إِنَّهُمْ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الضُّعْفُ الْبَاسُ الضُّعْفُ يَقْرَبُ ٢٥) [هود].

وهذه القصة مذكورة في التوراة وغيرها من كتب أهل الكتاب كما هي مذكورة في القرآن مع العلم بأن كلا من النبيين موسى ومحمد لم يأخذها عن الآخر وهذا مما يوجب العلم بصحتها قبل ثبوت نبوتها، فإن الاتفاق على مثل هذه الحكاية من غير

تواطؤ يمتنع في العادة، فإذا اتفق إخبار المخبرين يمثل هذه القصة الطويلة التي يمتنع في العادة اتفاق الاثنين فيها على الكذب من غير تواطؤ علم أنها حق فكان إخبار كل منهما بها دليلاً على نبوته.

وقال: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ٥٢ قَالُوا لَا نَزَلُكَ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ٥٣ قَالَ أَبَشِّرُنِي بِمِثْلِ مَا بَشَّرْتُنِي بِهِ قَالُوا بَشِّرْكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَنَاطِينِ ٥٤ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ٥٥ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ٥٦ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ٥٧ إِلَّا آءَالَ لُوطُ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٨ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْقُدِيرُ ٥٩ فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطُ الْمُرْسَلُونَ ٦٠ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ٦١ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ٦٢ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٦٣ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَذْرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ٦٤ [الحجر]، فهذه القصة فيها إثبات الملائكة وأنهم أحياء ناطقون منفصلون عن الآدميين يخاطبونهم ويرونهم في صور الآدميين: الأنبياء وغير الأنبياء كما رأتهم سارة امرأة الخليل عليه السلام وكما كان الصحابة يرون جبريل إذا جاء لما جاء في صورة أعرابي وتارة في صورة دحية الكلبي ومن هذا الباب قوله في قصة مريم: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ٨ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ٩ [مريم]، وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَتَقَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ١٢﴾ فهذا الروح تصور بصورة بشر سوي وخاطب مريم ونفخ فيها) ا. هـ^(١).

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٥﴾ فَأَمْحَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٢٦﴾.

(فاحتج بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٥﴾ فَأَمْحَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٢٦﴾ قال الخطابي: وقد تكلم رجلان من أهل العلم وصار كل واحد منهما إلى قول واحد من هذين ورد الآخر منهما على المتقدم، وصنف عليه كتاباً يبلغ عدد أوراقه المائتين، قال الخطابي: والصحيح من ذلك أن يفيد الكلام في هذا، ولا يطلق، وذلك أن المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الأحوال ولا يكون مؤمناً في بعضها، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً وإذا حملت

الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات واعتدل القول فيها ولم يختلف شيء منها.

«قلت»: الرجلان اللذان أشار إليهما الخطابي، أظن أحدهما وهو السابق محمد بن نصر، فإنه الذي علمته بسط الكلام في أن الإسلام والإيمان شيء واحد من أهل السنة والحديث وما علمت لغيره قبله بسطاً في هذا. والآخر الذي رد عليه أظنه^(١) لكن لم أقف على رده والذي اختاره الخطابي هو قول من فرق بينهما، كأبي جعفر، وحماد بن زيد، وعبد الرحمن بن مهدي، وهو قول أحمد بن حنبل وغيره، ولا علمت أحداً من المتقدمين خالف هؤلاء، فجعل نفس الإسلام نفس الإيمان، ولهذا كان عامة أهل السنة على هذا الذي قاله هؤلاء كما ذكره الخطابي ١. هـ^(٢).

وفي قصة إبراهيم قال:

(وقد أخبر الله في القرآن أن الملائكة أتوا إلى إبراهيم، ثم لوطاً، في صورة رجال فقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ١٢) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ١٣) فَرَأَى إِلَهُه فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ١٤) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ١٥) فَأَجَسَ بَيْنَهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بَعْلَهمْ عَليمٍ ١٦) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ١٧) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ١٨) * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ أَتَيْتِ الْمُرْسَلُونَ ١٩) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٢٠) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ٢١) مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ٢٢) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٣) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٢٤) وَرَكَّبْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٢٥) [الذاريات].

فأخبر أنهم دخلوا على إبراهيم وسلموا عليه فرد عليهم وأنكرهم لما رأى من صورهم العجيبة، وأتاهم بالعجل السمين ضيافة لهم فلما رآهم لا يأكلون أوجس منهم خيفة فقالوا له لا تخف وأخبروه أنهم رسل الله وبشروه بالغلام العليم إسحاق بعد كبره وكبر امرأته وذلك من خوارق العادات وقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ٢٠) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ٢١) [الذاريات] والملائكة أرسلوا الحجارة من السماء على قري قوم لوط وقد ذكر الله قصتهم في مواضع من القرآن في سورة هود والحجر والعنكبوت وفي كل موضع يذكر نوعاً مما جرى ١. هـ^(٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٨ - ٣٥٩).

(١) بياض في الأصل.

(٣) الرد على المنطقيين (٤٩٣ - ٤٩٤).

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (١٧).

(وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي بقوة) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله فيما نقله عن أبي الحسن الأشعري: (وقد اعتل معتل بقول الله ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ قال: الأيدي القوة، فوجب أن يكون معنى قوله (بيدي) أي بقدرتي. قيل لهم: هذا التأويل فاسد من وجوه:

«أحدهما»: أن الأيد ليس بجمع اليد؛ لأن جمع يد أيدي وجمع اليد التي هي نعمة أيادي والله ﷻ لم يقل «بأيدي» ولا قال «بأيادي» وإنما قال: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] فبطل أن يكون معنى قوله: ﴿يَدَيَّ﴾ معنى قوله: ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾.

وأيضاً فلو أراد القوة لكان معنى ذلك بقدرتي، وهذا ناقض لقول مخالفينا ومجانِب لمذاهبهم؛ لأنهم لا يثبتون قدرة الله ﷻ فكيف يثبتون قدرتين؟! ا. هـ (٢).

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢١).

(قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال مجاهد وغيره: تذكرون فتعلمون أن خالق الأرواح واحد) ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقد قال سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ والزوج يراد به النظير المماثل والضد المخالف وهو الند فما من مخلوق إلا له شريك وند) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال غير واحد من المفسرين: صنفين ونوعين مختلفين: السماء والأرض، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، والبر، والبحر، والسهل، والجبال، والشتاء، والصيف، والجن، والإنس، والكفر، والإيمان، والسعادة، والشقاوة، والحق، والباطل، والذكر، والأنثى، والنور، والظلمة، والحلو، والمر، وأشياء ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن خالق الأزواج واحد وليس المراد أنه يحشر معهم زوجاتهم مطلقاً، فإن المرأة الصالحة قد يكون زوجها فاجراً؛ بل كافراً كامراً فرعون، وكذلك الرجل الصالح قد تكون امرأته فاجرة، بل كافرة، كامراً نوح ولوط لكن إذا كانت المرأة على دين زوجها،

(١) درء تعارض العقل (٤٩٣ - ٤٩٤)، مجموع الفتاوى (١٩٥/٥).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢٣/٢).

(٣) الرد على المنطقيين (٢١٨)، الصفدية (٢١٦/١)، مجموع الفتاوى (٤٣٩/٢) (١١٣/٣) وأثر مجاهد لم أجده ولعله عند ابن أبي حاتم وهو مفقود.

(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/٢) (١٨١/٢٠).

دخلت في عموم الأزواج، ولهذا قال الحسن البصري: وأزواجهم
المشركات^(١) ا.هـ^(٢).

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّنٌ﴾.

(فإنه ما جاء نبي صادق قط إلا قيل فيه إنه ساحر أو مجنون كما قال تعالى:
﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّنٌ﴾ ا.هـ^(٣) أنصأوا ياء بل هم قوم
طاغوت^(٤) وذلك أن الرسول يأتي بما يخالف عاداتهم يفعل ما يرونه غير نافع ويترك
ما يرونه نافعاً وهذا فعل المجنون فإن المجنون فاسد العلم والقصد، ومن كان مبلغه من
العلم إرادة الحياة الدنيا كان عنده من ترك ذلك وطلب ما لا يعلمه مجنوناً، ثم النبي مع
هذا يأتي بأمور خارجة عن قدرة الناس من إعلام بالغيوب وأمور خارقة لعاداتهم
فيقولون هو ساحر، وهذا موجود في المنافقين الملحدين المتظاهرين بالإسلام من
الفلاسفة ونحوهم) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (كذلك الساحر لما كان يتصرف في العقول والنفوس بما يغيرها
وكان من سمع القرآن، وكلام الرسول خضع له عقله ولبه وانقادت له نفسه وقلبه،
صاروا يقولون ساحر وشتان وكذلك مجنون لما كان المجنون يخالف عادات الكفار
وغيرهم لكن بما فيه فساد لا صلاح والأنبياء جاءوا بما يخالف عادات الكفار لكن بما
فيه صلاح، لا فساد قالوا مجنون قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّنٌ﴾ ا.هـ^(٥) أنصأوا ياء بل هم قوم طاغوت^(٦) فتارة يصفونه بغاية الحذق
والخبرة والمعرفة فيقولون ساحر وتارة بغاية الجهل والغباء والحمق فيقولون مجنون
وقد ضلوا في هذا وهذا كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا﴾ [الإسراء] فهم بمنزلة السائر في الطريق وقد ضل عنها يأخذ يميناً وشمالاً
ولا يهتدى إلى السبيل التي تسلك، والسبيل التي يجب سلوكها) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ
مُجُنُّنٌ﴾ وهذا لحيرتهم وضلالتهم تارة ينسبون إلى الجنون وعدم العقل وتارة إلى
الحذق والخبرة التي ينال به السحر فإن السحر لا يقدر عليه ولا يحسنه كل
أحد) ا.هـ^(٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٦٣/٧ - ٦٤).

(٤) النبوات (٢٠٩).

(١) مر الكلام عليه.

(٣) النبوات (٢٧٠).

(٥) النبوات (٢٠٦).

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١).

(وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١)، فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم، عبادة الله وحده، وهي حقيقة قول القائل (لا إله إلا الله) ولهذا بعث الله جميع الرسل، وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا كما قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (١) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿فصلت﴾ أي لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص لم يكن من أهل النجاة والسعادة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَعْرِفُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] هـ. ١ (١).

وقال رحمه الله: (فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) وإنما تعبدتهم بطاعته وطاعة رسوله فلا عبادة إلا ما هو واجب أو مستحب في دين الله، وما سوى ذلك فضلال عن سبيله) هـ. ١ (٢).

وقال رحمه الله: (فاللام في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) وإن كانت هي اللام في هذه الآية فإن مدلولها لام إرادة الفاعل ومقصوده ولهذا تنقسم في كتاب الله إلى إرادة دينية وإرادة كونية كما تنقسم في كتاب الله تعالى الكلمات والأمر والحكم والقضاء، والتحريم والأذن وغير ذلك) هـ. ١ (٣).

وقال رحمه الله: (وقد قال سبحانه: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَلَقُوا الْفِتْنَةَ وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٣٩] وذلك أن هذا هو المقصود الذي خلق [الله] الخلق له كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) فكل ما كان لأجل الغاية التي خلق لها الخلق كان محموداً عند الله، وهو الذي يبقى لصاحبه [وينفعه الله به] وهذه الأعمال هي الباقيات الصالحات) هـ. ١ (٤).

وقال رحمه الله: (وأما «المسألة الثانية» فقول السائل: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) إن كانت هذه اللام للصيرورة في عاقبة الأمر فما صار ذلك؟ وإن كانت اللام للغرض لزم أن لا يتخلف أحد من المخلوقين عن عبادته؟ وليس الأمر كذلك فما التخلص من هذا المضيق؟!.

فيقال: هذه اللام ليست هي اللام التي يسميها النحاة لام العاقبة والصيرورة ولم

(٢) مجموع الفتاوى (٤/١).

(٤) الاستقامة (٢/٢٨٤ - ٢٨٥).

(١) الجواب الصحيح (٦/٢٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/٢٣٦).

يقول ذلك أحد هنا، كما ذكره السائل من أن ذلك لم يصر إلا على قول من يفسر (يعبدون) بمعنى يعرفون يعني المعرفة التي أمر بها المؤمن والكافر؛ لكن هذا قول ضعيف وإنما زعم بعض الناس ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَلْقُهُمْ﴾ [هود: ١١٩] التي في آخر سورة هود فإن بعض القدرية زعم أن تلك اللام لام العاقبة والصيرورة أي صارت عاقبتهم إلى الرحمة وإلى الاختلاف وإن لم يقصد ذلك الخالق وجعلوا ذلك كقوله: ﴿فَاللَّفْطَةُ ۖ ءَالٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [الفصص: ٨].

وقول الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب

وهذا أيضاً ضعيف هنا لأن لام العاقبة إنما تجيء في حق من لا يكون عالماً بعواقب الأمور ومصايرها، فيفعل الفعل الذي له عاقبة لا يعلمها كآل فرعون، فأما من يكون عالماً بعواقب الأفعال ومصايرها فلا يتصور منه أن يفعل فعلاً له عاقبة لا يعلم عاقبته وإذا علم أن فعله له عاقبة فلا يقصد بفعله ما يعلم أنه لا يكون فإن ذلك تمن وليس بإرادة.

وأما اللام فهي اللام المعروفة وهي لام كي ولام التعليل التي إذا حذفت انتصب المصدر المجرور بها على المفعول له وتسمى العلة الغائية، وهي متقدمة في العلم والإرادة، متأخرة في الوجود والحصول، وهذه العلة هي المراد المطلوب المقصود من الفعل، لكن ينبغي أن يعرف أن الإرادة في كتاب الله على نوعين:

«أحدهما» الإرادة الكونية وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة في مثل قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقوله: ﴿وَلَا يَفْعَلُكُمْ نَجْمًا إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] وأمثال ذلك، وهذه الإرادة هي مدلول اللام في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ﴾ [١٧] إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِلَّهِ خَلْقُهُمْ﴾ [هود] قال السلف: خلق فريقاً للاختلاف وفريقاً للرحمة، ولما كانت الرحمة هنا الإرادة وهناك كونية وقع المراد بها، فقوم اختلفوا، وقوم رحموا.

وأما «النوع الثاني» فهو الإرادة الدينية الشرعية وهي محبة المراد ورضاه ومحبة

أهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٣] وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا [٧] يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا [٧٨] [النساء]، فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة ولهذا كانت الأقسام أربعة:

«أحدها»: ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراد إرادة دين وشرع، فأمر به وأحبه ورضيه وأراد إرادة كون فوقه، ولولا ذلك لما كان.

و«الثاني»: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع.

و«الثالث»: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره وشاء من الحوادث التي لم يأمر بها: كالمباحات والمعاصي فإنه لم يأمر بها ولم يرضاها ولم يحبها إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

و«الرابع»: ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي، وإذا كان كذلك فمقتضى اللام في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [٥١] هذه الإرادة الدينية الشرعية، وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع، والمعنى أن الغاية التي يحب لهم ويرضى لهم والتي أمروا بفعلها هي العبادة، فهو العمل الذي خلق العباد له: أي هو الذي يحصل كمالهم وصلاحهم الذي به يكونون مرضيين محبوبين، فمن لم تحصل منه هذه الغاية كان عادماً لما يحب ويرضى ويراد له الإرادة الدينية التي فيها سعادته ونجاته وعادماً لكماله وصلاحه العدم المستلزم فساد عذابه. وقول من قال: العبادة هي العزيمة أو الفطرية فقولان ضعيفان فاسدان يظهر فسادهما من وجوه متعددة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٥٦) وللناس في هذه العبادة التي خلقوا لها قولان:

أحدهما: أنها وقعت منهم ثم هؤلاء منهم من يقول: جميعهم خلقوا لها ومنهم من يقول: إنما خلق لها بعضهم.

والقول الثاني: أنهم كلهم خلقوا لها ومع ذلك فلم تقع إلا من بعضهم وهؤلاء حزبان:

حزب يقولون: إن شاء الله لم يشأ إلا العبادة لكنهم فعلوا ما لا يشاؤه بغير قدرته ولا مشيئته، وهم القدرية المنكرون لعموم قدرته ومشيئته وخلقته.

والثاني يقولون: بل كل ما وقع فهو بمشيئته وقدرته وخلقته لكن هو لا يحب إلا العبادة التي خلقهم لها ولا يأمر إلا بذلك، فمنهم من أعانه ففعل المأمور به، ومنهم من لم يفعله.

واللام عند هؤلاء كاللام في قوله: ﴿وَلِتُذَكِّرُوا الْغَدَّةَ لِتُذَكِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وفي قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْتَمِزُوا إِلَهُهُ وَحْدًا فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج]، وقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:

٢١] على قول الأكثرين الذين يجعلون «لعل» متعلقة بقوله: «خلقكم» كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٥٦) وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٧]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَتْلُوْنَ نَزْلَ الْأَمْرِ بَيْنَهُنَّ لِنُعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٥٧) [الطلاق]، وقوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآيَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَ الَّذِي يَتَعَلَّمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٥٨)

[المائدة]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦] وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشُّهُوتَ أَنْ يَقْبَلُوا رَبًّا عَظِيمًا﴾^(٥٩) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا^(٦٠) [النساء]، ونحو ذلك مما فيه: أن الله يفعل فعلاً لغاية يحبها ويرضاها ويأمر بها عباده

وإذا حصلت لهم كان فيها نجاتهم وسعادتهم ثم منهم من يعينه على فعلها ومنهم من لا يفعلها فإن هذا قد أشكل على طائفة من الناس وقالوا: كيف يفعل فعلاً لغاية مع علمه أنها لا تحصل.

فيقال: الغاية التي يراد الفعل لها هي غاية مرادة للفاعل، ومراد الفاعل نوعان: فإنه تارة يفعل فعلاً ليحصل بفعله مراده فهذا لا يفعله وهو يعلم أنه لا يكون والله تعالى يفعل ما يريد فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولكن الله يفعل ما يريد.

وتارة يريد من غيره أن يفعل فعلاً باختياره ليتنفع ذلك الفاعل بفعله، ويكون ذلك محبوباً للفاعل الأول، كمن يبني مسجداً ليصلي فيه الناس ويعطيهم مالاً ليحجوا به ويجاهدوا به وسلاحاً ليجاهدوا به ويأمرهم بالمعروف ليفعلوه وينهاهم عن المنكر ليتركوه وهم إذا فعلوا ما أراده لهم ومنهم كان صلاحاً لهم وكان ذلك محبوباً له، وإن لم يفعلوا ذلك لم يكن صلاحاً لهم ولا حصل محبوبه منهم ثم هذا قد لا يكون قادراً على فعل ما أمروا به اختياراً.

ولهذا زعمت القدرية النافية أن الرب ليس قادراً على هدى العباد وهو خطأ عند أهل السنة وقد يكون قادراً، فإنه سبحانه لو شاء لآتى كل نفس هداها: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

لكن المخلوق قد يعين بعض من أمره لمصلحة له في إعانته ولا يعين آخر والرب تعالى قد يعين المؤمنين فيفعلوا ما أمروا به، وأحبه الله منهم، ولا يعين آخرين لما له في ذلك من الحكمة فإن الفعل لا يوجد إلا بلوازمه وانتفاء أضراده.

وقد يكون في وجود ذلك فوات حكمة له هي أحب إليه من طاعة أولئك أو وجود شيء دفعه أحب إليه من حصول معصية أولئك وحينئذ فإذا أمر العباد ونهاهم ليطيعوه ويعبدوه ويفعلوا ما أحبه وينالوا كمالهم الذي هو غايتهم التي خلقوا لها، جاز أن يقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وأن يقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وأن يقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُم دِينَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦].

وأن يقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَئِنْ يُرِيدَ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُثَبِّتَ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] ونحو ذلك.

وإن كان هو لم يخلق ما أمر به وإذا خلقهم وخلق لهم ما ينتفعون به ليعبدوه ويطيعوه ويشكروه ويذكروه ويبلغوا الغاية المحمودة في حقهم التي يحبها ويرضاها لهم صح أن يقال: إنما خلقهم ليعبدوه، وإن كان هو لم يخلق لكل منهم ما به يصير عابداً له كما جاز أن يقال: إنما بنيت المسجد ليصلوا فيه وإنما أعطيتهم المال ليحجوا ويجاهدوا ونحو ذلك فإنه ليس من شرط من فعل فعلاً لغاية يفعلها غيره، أن يكون هو فاعلاً لتلك الغاية.

ثم إذا علم أن كثيراً من هؤلاء لا يصلي ولا يحج ولا يجاهد، وإن من يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر لا يطيعه لم يمنع ذلك أن يفعل ما يفعل، ويأمر بما يأمر به، لأن نفس ذلك الفعل وذلك الأمر مصلحة له، وهذا موجود في المخلوق والمخالق فإن المخلوق كالرسول وغيره يأمر وينهى، وإن كان يعلم أنه لا يطاع لأن نفس أمره لهم له فيه مصلحة ومنفعة وثواب وفيه حكمة في حق المأمور والمنهى.

وكذلك يفعل ما يفعل لمصالح الناس وإن علم أنهم لا يفعلون ذلك إذا كان له في ذلك أجر ومثوبة ومصالح أخرى فإنه إذا كان بعض الناس يصلي في المسجد وبعضهم لا يصلي فيه، قامت حجته على من لم يصل واستحق العقوبة، وكان قد أزاح عن نفسه العلة، بأن يقال: لم يبين لهم مسجداً يصلون فيه.

والخالق تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب وأنذر العباد وأزاح عنهم وفعل بهم من الأسباب التي بها يتمكنون من الطاعة، أعظم مما يفعله كل أمر غيره بالمأمورين، فليس أحد أزاح علل المؤمنين أعظم من الله، فلا تقوم حجة أمر على مأمور إلا وحجة الله على عباده أقوم ولا يستحق مأمور من أمره ذمّاً ولا عقاباً لمعصيته إلا واستحقاق عصاة الله لأمره أعظم استحقاقاً وذمّاً ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا ييسر أمر على مأموريه ويرفع عنهم ما لا يطيقونه إلا والله تعالى أعظم تيسيراً على مأموريه وأعظم رفعاً لما لا يطيقونه عنهم، وكل من تدبر الشرائع لا سيما شريعة محمد ﷺ، وجد هذا فيها أظهر من الشمس ولهذا قال في آية الصيام: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال في آية الطهارة: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»^(١).

وهو سبحانه يسقط الواجبات إذا خشي المريض زيادة في المرض أو تأخر البرء فيسقط القيام في الصلاة، والصيام في شهره والطهارة بالماء كذلك، بل المسافر مع تمكنه من الصيام أسقطه عنه في شهره وقال: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَنْبَاءٍ أُخْرَى يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والشريعة طافحة بهذا وأمثاله وهو سبحانه مع ذلك هو رب كل شيء ومليكه وخالقه فلا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته وهو سبحانه محسن متفضل إلى من أمرهم ونهاهم بقدر زائد [لا يقدر] عليه، ولا يفعله غيره وهو أن جعلهم مؤمنين مسلمين مطيعين وهذا لا يقدر عليه غيره من الآمرين الناهين وهو في ذلك محسن إليهم منعم عليهم نعمة ثانية غير نعمته بالإرسال والبيان والإنذار فهذه نعمة يختصون بها غير النعمة المشتركة.

وأما الكفار فلم ينعم عليهم بمثل ما أنعم به على المؤمنين ومن لم ينعم ويحسن بمثل ذلك لم يكن قد أساء وظلم مع الإقدار والتمكين وإزاحة العلل، إذا كان له في ترك ذلك حكمة بالغة لو فعل بهم مثلما فعل بالأولين بطلت تلك الحكمة التي هي أعظم من طاعتهم وحصلت مفسدة أعظم من مفسدة معصيتهم فمن وجه ليس ذلك بواجب عليه لهم ومن وجه له في ذلك حكمة بالغة لا تجتمع هي ومساواتهم بأولئك فتقتضي الحكمة ترجيح خير الخيرين بتفويت أدناهما ودفع شر الشرين بالتزام أدناهما.

وقول القائل: كيف يفعل فعلاً لغاية مع علمه أنها لا تحصل؟

جوابه: أن ذلك إنما يمتنع إذا كان ليس مراده إلا تلك الغاية فقط، فإذا لم تحصل لم يحصل ما أَراده ومن فعل شيئاً لأجل مراد يعلم أنه لا يحصل كان ممتنعاً.

وبهذا يبطل قول القدرية الذين يقولون: لم يرد إلا المأمور وما سواه واقع بغير مراده، وقد خلق الخلق لذلك المراد بعينه مع علمه أنه لا يكون وهذا تناقض ويقولون: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء.

وأما أهل السنة الذين يقولون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا يقع

(١) البخاري (١/٥٠)، ومسلم (١/٢٣٦ - ٢٣٧) قريباً منه.

إلا ما شاءه وإن وقع ما لم يحبه ويأمر به فله حكمته له في ذلك باعتبارها خلقه ولولا الغاية التي يريد بها لم يخلقها فلا إشكال على قولهم.

وإذا علم أن الرَّبَّ له مراد بما أمره، وله مراد بما خلقه، فإذا لم يحصل ما أمر به فقد حصل ما خلقه. فما حصل إلا مراده وهو لم يخلق ذلك المعين الذي أمر به، لئلا يستلزم عدم مراد أحب إليه منه وهو ما خلقه وقد يكون ذلك المأمور يستلزم تفويت مأمور آخر هو أحب إليه منه.

مثاله أن فرعون لو أطاع لم يحصل من الآيات العظيمة التي حصل بها من المأمور ما هو أعظم من إيمان فرعون وصناديد قريش لو أطاعوا لم يحصل ما حصل من ظهور آيات الرسول ومعجزة القرآن وجهاد المؤمنين الذي حصل به من طاعة الله ومحبيه ما هو أعظم عنده من إيمان صناديد قريش.

وعلى هذا فيجوز أن يقال: إن الله إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه فإن هذا هو الغاية التي أرادها منهم بأمره وبها يحصل محبوه وبها تحصل سعادتهم ونجاتهم وإن كان منهم من لم يعبد له ولم يجعله عابداً [له] إذ كان في ذلك الجعل تفويت محبوبات أخرى أحب إليه من عبادة أولئك وحصول مفسد أخرى هي أبغض إليه من معصية أولئك.

ويجوز أيضاً أن يقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفُونَ﴾ (١٨) ﴿إِلَّا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود] فإنه أراد بخلقهم ما هم صائرون إليه من الرحمة والاختلاف، ففي تلك الآية ذكر الغاية التي أمروا بها، وهنا ذكر الغاية التي إليها يصيرون وكلاهما مراد له، تلك مرادة بأمره والموجود منها مراد بخلقه وأمره وهذه مرادة بخلقه والمأمور منها مراد بخلقه وأمره.

وهذا معنى ما يروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: معناه إلا لأمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي. واعتمد الزجاج هذا القول ^(١) فرواه ابن أبي نجيع عن مجاهد ^(٢): ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) قال: لأمرهم وأنهاهم وروى سليمان بن عامر عن الربيع بن أنس قال: ما خلقتهم إلا للعبادة ^(٣).

(١) نقله صاحب زاد المسير (٤٢/٨) والبيهقي (٢١٣/٤) ولم أجد قول الزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» إلا بالمعنى ولم ينسبه إليه.

(٢) هو عند ابن أبي حاتم وليس عندي ولم ينقله صاحب الدر.

(٣) هو عند ابن أبي حاتم وليس عندي ولم ينقله صاحب الدر. ونقله ابن كثير (٢٣٨/٤) وأبو الليث السمرقندي في بحر العلوم (٢٨٠/٣).

وأما من قال: المراد: المؤمنون، فروى ابن مصلح عن الضحاك^(١) في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: هي خاص للمؤمنين.

وأما من قال: كلهم وقعت منهم العبادة التي خلقوا لها فروى الوالبي عن ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، إلا ليقروا لي بالعبودية طوعاً وكرهاً^(٢).

وقال السدي^(٣): خلقهم للعبادة، فمن العبادة عبادة تنفع، ومن العبادة عبادة لا تنفع: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] هذا منهم عبادة وليس تنفعهم مع شركهم.

وروى ابن أبي زائدة عن ابن جريج في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: إلا ليعرفون^(٤).

روى هذه الأقوال ابن أبي حاتم بأسانيده إلا قول علي.

وذكر الثعلبي عن مجاهد: إلا ليعرفون^(٥) قال: ولقد أحسن في هذا القول لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده ودليل هذا التأويل قوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ الآيات [الزخرف: ٨٧] قال: وروى حبان عن الكلبي: إلا ليوحدون فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء وأما الكافر [فيوحده] في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء بيانه: قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فعلى هذه الأقوال أن جميع الإنس والجن عبده وعرفوه ووحدوه وأقروا له بالعبودية طوعاً وكرهاً.

والأولون لا ينكرون ما أثبتته هؤلاء لكن يقولون: ليست هذه هي العبادة التي خلقوا لها، وإن كان قد وجد من جميعهم معرفة به، وإقرار به، وعبودية له طوعاً وكرهاً.

وهذا يبين أن جميع الإنس والجن مقرون بالخالق معترفون به مقرون بعبوديته طوعاً وكرهاً وذلك يقتضي أن هذه المعرفة من لوازم نشأتهم وأنه لم ينفك عنها أحد منهم مع العلم بأن النظر المعين الذي يوجب الجهمية والمعتزلة لا يعرفه أكثرهم فعلم بذلك ثبوت المعرفة والإقرار بدون هذا النظر.

(١) نقله ابن الجوزي في زاد المسير (٤٢/٨) وابن كثير.

(٢) ابن جرير (١٢/٢٧).

(٣) ابن كثير (٢٣٨/٤)، تفسير السدي (ص ٤٤٥).

(٤) ابن كثير (٢٣٨/٤).

(٥) الثعلبي مخطوط ووجدته عند البغوي (٢١٣/٤).

وقد روى ابن جريج عن زيد بن أسلم: ﴿إِلَّا لِعَبْدُونِ﴾ قال: جبلهم على الشقاء والسعادة^(١).

وكذلك عن وهب بن منبه^(٢): ﴿إِلَّا لِعَبْدُونِ﴾ قال: جبلهم على الطاعة وجبلهم على المعصية، ذكرهما ابن أبي حاتم.

وعلى هذا فيكون المراد بالعبادة دخولهم تحت قضائه وقدره ونفوذ مشيئته فيهم وقد فسر بهذا ما رواه الوالي عن ابن عباس حيث قال: إلا ليقروا لي بالعبودية طوعاً وكرهاً.

قال الثعلبي: «فإن قيل: كيف كفروا، وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته؟ قيل: إنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم لأن قضاءه جار عليهم لا يقدرون على الامتناع منه إذا نزل بهم وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمر به فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه».

قلت: وهذا المعنى - وإن كان في نفسه صحيحاً، وقد نازعت القدرية في بعضه - فليس هو المراد بالآية فإن جميع المخلوقات - حتى البهائم والجمادات - بهذه المنزلة.

وأيضاً فالعبادة المذكورة في عامة المواضع في القرآن لا يراد بها هذا المعنى. وأيضاً فإن قوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَمَّيْنِ (٥٨) دليل على أنه خلقهم ليعبدوه، لا ليرزقوا ويطعموا بل هو المطعم الرازق، وإطعامهم لهم ورزقهم إياهم، هو من جملة تدبيرهم وتصريفهم، الذي قد جعله أهل هذا القول عبادة له فتكون العبادة التي خلقوا لها كونهم مرزوقين مدبرين، وهذا باطل.

وأيضاً: فقوله: ﴿لِعَبْدُونِ﴾ يقتضي فعلاً يفعلونه هم وكونه يربهم ويخلقهم، ليس فيه إلا فعله فقط ليس في ذلك فعل لهم.

ويلي هذا القول في الضعف قول من يقول: إنهم كلهم عبدوه أو إن الآلة خاصة، فإن هذه أقوال ضعيفة كما أن قول القدرية الذين يقولون: إنه ما كان منهم كان بغير مشيئته وقدرته وإنه لم يشأ إلا العبادة فقط، وما كان غير ذلك فإنه حاصل بغير مشيئته وقدرته قول ضعيف.

(١) ابن جريج (٢٧/١١).

(٢) لم أجده حتى في الدر وهو عند ابن أبي حاتم.

والناس لما خاضوا في القدر صارت الأقوال المتقابلة تكثر فيه، وفي تفسير القرآن بغير المراد وهو مما نهى عنه النبي ﷺ حيث خرج عليهم وهم يتنازعون في القدر: هذا يقول: ألم يقل الله كذا؟ وهذا يقول: ألم يقل الله كذا؟ فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم إلى هذا دعيتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض»^(١).

والمقصود هنا أنه من المعروف عند السلف والخلف أن جميع الجن والإنس معترفون بالخالق مقرون به مع أن جمهور الخلق لا يعرفون النظر الذي يذكره هؤلاء فعلم أن أصل الإقرار بالصانع والاعتراف به مستقر في قلوب جميع الإنس والجن، وأنه من لوازم خلقهم، ضروري فيهم، وإن قدر أنه حصل بسبب، كما أن اغتذاءهم بالطعام والشراب هو من لوازم خلقهم وذلك ضروري فيهم) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ثم قال أبو القاسم رحمه الله: «سمعت أبا حاتم يقول: سمعت أبا نصر السراج رحمه الله يقول: سئل رويم عن أول فرض افترضه الله على خلقه ما هو؟ قال: المعرفة يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾ قال ابن عباس: ليعرفون».

قلت: هذا الكلام [صحيح] فإن أول ما أوجبه الله على لسان رسوله هو: الإقرار بالشهادتين كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب [فليكن] أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» أخرجاه في الصحيحين^(٣).

وكذلك قال المشايخ المعتمدون - مثل الشيخ عبد القادر وغيره -: «والإقرار بالشهادتين يتضمن المعرفة» لكن ذهب طائفة من أهل الكلام وممن اتبعهم من الفقهاء والصوفية إلى أنه يجب على العبد المعرفة أولاً قبل وجوب الشهادتين. ومنهم من قال: يجب على العبد النظر قبل المعرفة ومنهم من قال: يجب القصد إلى النظر ومن غالبيتهم من أوجب الشك وقد بسطنا القول في هذه المسألة في غير هذا الموضع.

فهذا القول يوافق هؤلاء لكن في صحة الحكاية بهذا اللفظ عن رويم نظر فإن

(١) الترمذي (٢٩٤/٨ - الأحوذى)، وابن ماجه (٨٥)، وأحمد (٦٦٦٨، ٦٧٠٢، ٦٧٤١، ٦٨٠١) ط أحمد شاعر، وهو صحيح.

(٢) درة تعارض العقل (٤٦٨/٨ - ٤٨٢). وانظر أيضاً مجموع الفتاوى (٣٩/٨ - ٥٧).

(٣) البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

روياً من أهل العلم والمعرفة وما ذكره من الحجة لا يدل على هذا الجواب فليس في قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ما يدل على أن المعرفة أول الواجبات سواء فسر: يعبدون: يعرفون أو فسر بغير ذلك فإن خلقهم لشيء لا يدل على أنه أول واجب إن لم يبين ذلك بشيء آخر.

وأما التفسير المذكور عن ابن عباس فالذين ذكروه عنه جعلوا هذه المعرفة هي المعرفة الفطرية التي يقر بها المؤمن والكافر ومقصودهم بذلك أن جميع الإنس والجن قد وجد منهم ما خلقوا له من العبادة، التي هي مجرد الإقرار الفطري وجعلوا ذلك فراراً من احتجاج القدرية بهذه الآية.

ولا ريب أن هذا ضعيف، ليس المراد أن الله خلقهم لمجرد الإقرار الفطري، وقد تكلمنا على الآية في غير هذا الموضع.

ولعل السائل سأل عن أعظم واجب فقال: المعرفة لقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي يعرفون واعتقد رويم أن هذه المعرفة هي المعرفة التي يشير إليها مشايخ الطريق، وهي معرفة الخواص فيكون جوابه عن أعظم واجب لا عن أول واجب فهذا كما ترى (١) هـ.

سورة الطور

﴿يَوْمَ نَمُورُ السَّمَاءَ مَوْرًا﴾ (١).

(فإذا قال القائل: ﴿يَوْمَ نَمُورُ السَّمَاءَ مَوْرًا﴾ (١) إن المور هو الحركة كان تقريباً إذ المور حركة خفيفة سريعة) ا.هـ (١).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ لَحْنَانَا يَوْمَ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢).

(وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ لَحْنَانَا يَوْمَ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إنما معناه اتبع كل واحد ذريته؛ ليس معناه أن كل واحد من الذرية اتبع كل واحد من الآباء) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (فإن أطفال المؤمنين مع آبائهم في الجنة، كما دل عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ الآية) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (غير المكلف قد يرحم، فإن أطفال المؤمنين مع آبائهم في الجنة كما دل عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (ولهذا تدخل «من» هذه في النفي لتحقيق نفي الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾) ا.هـ (٥).

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٣).

(وأما قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٣) فهذا دعاء العبادة المتضمن للسلوك رغبة ورهبة، والمعنى: إنا كنا نخلص له العبادة، وبهذا استحقوا أن وقاهم الله عذاب السموم، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره؛ فإنه سبحانه يسأله من في السموات) ا.هـ (٦).

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٤١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣١/١٣٠).

(٣) مختصر الفتاوى المصرية (٦٤٦).

(٤) المستدرک على مجموع الفتاوى (المخطوط تحت الطبع).

(٥) مجموع الفتاوى (١٥/١٤ - ١٥).

(٦) منهاج السنة (٢/٤٠).

﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِنَعِيٍّ رَبِّكَ يُكَاهِنُ وَلَا يُجْنُونَ﴾ (١٩).

(وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِنَعِيٍّ رَبِّكَ يُكَاهِنُ وَلَا يُجْنُونَ﴾ (١٩) إلى قوله: ﴿إِنْ كَانُوا صَدِيقِينَ﴾ (٢٠)، فنزه ﷺ نبينا محمد ﷺ عن تقترن به الشياطين؛ من الكهان والشعراء والمجانين، وبين أن الذي جاءه بالقرآن ملك كريم اصطفاه) ا. هـ (١).

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمَنُونِ﴾ (٢١).

(وأن في القرآن آيات التحدي والتعجيز كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمَنُونِ﴾ (٢١) قُلْ تَرِيسُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرِيسِينَ (٢٢) أَمْ نَأْمُرُهُمْ أَخْلُسُوا بِئِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٤) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَدِيقِينَ (٢٥) فتحداهم هنا أن يأتوا بمثله وقال في موضع آخر ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُقْتَرِنَاتٍ﴾ [هود: ١٣] وقال في موضع آخر: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وأخبر مع ذلك أنهم لن يفعلوا فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٦) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ﴾ [البقرة] بل أخبر أن جميع الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يأتون بمثله فقال: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٢٧) [الإسراء] ا. هـ (٢).

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٨).

(وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوى النبوة، ولكنه أصله الأول، قال تعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٨) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَدِيقِينَ﴾ (٢٥)، فهنا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَدِيقِينَ﴾ (٢٥)، في أنه نقوله، فإنه إذا كان محمد قادراً على أن يتقوله، كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر، كان هذا ممكناً للناس الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله) ا. هـ (٣).

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٩).

(وعلى هذا جاء قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٩) قال جبير بن مطعم: لما سمعتها أحسست بفؤادي قد تصدع (٤) وهو استفهام إنكار، يقول: أوجدوا

(١) مجموع الفتاوى (٢٧٣/١١). (٢) الفتاوى (التسعينية) (١٤٥/٥).

(٣) الجواب الصحيح (٤٢٣/٥).

(٤) البخاري (٤٨٥٤) وهو في مسلم (٤٦٢) دون قوله: كاد قلبي،

من غير مبدع؟ فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مُكوّن ويعلمون أنهم لم يَكُونوا نفوسهم وعلمهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة بنفسه لا يحتاج أن يستدل عليه: بأن كل كائن محدث أو كل ممكن لا يوجد بنفسه ولا يوجد من غير موجد، وإن كانت هذه القضية العامة النوعية صادقة لكن العلم بتلك المعينة الخاصة؛ إن لم يكن سابقاً لها فليس متأخراً عنها ولا دونها في الجلاء) ١.١ هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وفي الصحيحين) عن جبير بن مطعم أنه لما قدم في فداء أسارى بدر قال: «وجدت النبي ﷺ يقرأ في المغرب «بالطور» قال: فلما سمعت هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) أحسست بفؤادي قد انصدع.

وذلك أن هذا تقسيم حاصر ذكره الله بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جردها، يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي من غير خالق خلقهم أم هم خلقوا أنفسهم، وهم يعلمون أن كلا التقيضين باطل فتعين أن لهم خالقاً خلقهم ﷻ) ١.١ هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكما يعلم أن المحدث لا بد له من محدث كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم أنه لما قدم في فداء الأسرى عام بدر سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب «بالطور» قال: «فلما سمعت قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) أحسست بفؤادي قد انصدع».

فإن هذا تقسيم حاصر يقول: أخلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا ممتنع في بداية العقول أم هم خلقوا أنفسهم؟ فهذا أشد امتناعاً فعلم أن لهم خالقاً خلقهم وهو ﷻ ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه القضية التي استدل بها فطرية بديهية مستقرة في النفوس لا يمكن أحداً إنكارها فلا يمكن صحيح الفطرة أن يدعي وجود حادث بدون مُحدث أحدثه ولا يمكنه أن يقول هو أحدث نفسه) ١.١ هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) يقول سبحانه أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم) ١.١ هـ^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (١١/٢) (١٩٠/٢)، درء تعارض العقل (١١٣/٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥٩/٥) (٢٥/١٤). (٣) الرد على المنطقيين (٢٥٢ - ٢٥٣).

(٤) الفتاوى الأصفهانية (١٥١/١٥).

وقال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) وقد قيل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ من غير رب خلقهم وقيل: من غير مادة وقيل: من غير عاقبة وجزاء، والأول مراد قطعاً فإن كل ما خلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) فيها قولان: فالأكثر على أن المراد أم خلقوا من غير خالق بل من العدم المحض؟ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وكما قال تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَزُوَّجْنَاهُ﴾ [النساء: ١٧١] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ قَعَمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٥٣].

وقيل: أم خلقوا من غير مادة وهذا ضعيف لقوله بعد ذلك: ﴿أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ فدل ذلك على أن التقسيم أم خلقوا من غير خالق أم هم الخالقون؟ ولو كان المراد من غير مادة لقال: أم خلقوا من غير شيء أم من ماء مهين؟ فدل على أن المراد أنا خالقهم لا مادتهم.

ولأن كونهم خلقوا من غير مادة ليس فيه تعطيل وجود الخالق فلو ظنوا ذلك لم يقدح في إيمانهم بالخالق بل دل على جهلهم ولأنهم لم يظنوا ذلك ولا يوسوس الشيطان لابن آدم بذلك بل كلهم يعرفون أنهم خلقوا من آبائهم وأمهاتهم ولأن اعترافهم بذلك لا يوجب إيمانهم ولا يمنع كفرهم والاستفهام استفهام إنكار مقصوده تقريرهم أنهم لم يخلقوا من غير شيء، فإذا أقروا بأن خالقاً خلقهم نفعتهم ذلك وأما إذا أقروا بأنهم خلقوا من مادة لم يغن ذلك عنهم من الله شيئاً) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد ذكروا في قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) ثلاثة أمور: قال ابن عباس^(٣) والأكثر أم خلقوا من غير خالق وهو الذي ذكره الخطابي. وقال الزجاج^(٤) وابن كيسان^(٥) أم خلقوا عبثاً وسدى فلا يبعثون ولا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون كما يقول: فعلت هذا من غير شيء أي لغير علة. وقيل أم خلقوا من غير مادة أي من غير أب وأم) ١. هـ^(٦).

(١) مجموع الفتاوى (١٣/١٥١). (٢) مجموع الفتاوى (١٨/٢٣٦ - ٢٣٧).

(٣) البغوي (٤/٢١٩).

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٥/٦٥) البغوي (٤/٢١٩).

(٥) البغوي (٤/٢١٩). (٦) النبوات (٥٥).

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٨٨)

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٨٨) وقال تعالى في سورة (ن): ﴿أَمْ سَتُلْقَوْنَ أَعْرَافَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مَّتَّغِلُونَ﴾ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُتُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٨٨﴾ [القلم].

وقد قيل في معناه: اصبر لما يحكم به عليك، وقيل اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آت، والأول أصح.

وحكم الله نوعان: خلق وأمر.

فالأول: ما يقدره من المصائب.

والثاني: ما يأمر به وينهى عنه، والعبد مأمور بالصبر على هذا، وعلى هذا، فعليه أن يصبر لما أمر به، ولما نهى عنه، فيفعل المأمور ويترك المحظور وعليه أن يصبر لما قدره الله عليه.

وبعض المفسرين يقول: هذه الآية منسوخة بآية السيف وهذا يتوجه إن كان في الآية النهي عن القتال فيكون هذا النهي منسوخاً ليس جميع أنواع الصبر منسوخة كيف والآية لم تتعرض لذلك هنا لا بنفي ولا إثبات؟! بل الصبر واجب لحكم الله ما زال واجباً، وإذا أمر بالجهاد فعليه أيضاً: أن يصبر لحكم الله فإنه يبتلى من قتالهم بما هو أعظم من كلامهم، كما ابتلى به يوم أحد والخندق وعليه حيثئذ أن يصبر ويفعل ما أمر به من الجهاد.

و«المقصود هنا» قوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فإن ما فعلوه من الأذى هو مما حكم به عليك قدراً، فاصبر لحكمه وإن كانوا ظالمين في ذلك، وهذا الصبر أعظم من الصبر على ما جرى وفعل بالأنبياء وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُتُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (٨٨) [القلم] وقال: ﴿وَدَا الْتُونِ إِذْ دَهَبَ مُغْنَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وسواء كان مغاضباً لقومه أو لربه، فكانت مغاضبته من أمر قدر عليه، وبصبره صبر لحكم ربه الذي قدره وقضاه، وإن كان إنما تأذى من تكذيب الناس له) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأيضاً فالله قد أمر بالتسبيح بحمده وعبر بذلك عن الصلاة بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ فكان ابتداء الامتثال بهذا الذكر أولى. وقد قال طائفة

من المفسرين كالضحاك^(١) في تفسير هذه الآية: هو قول المصلي: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، وقد بسطت الكلام على معنى هذه الكلمة في غير هذا الموضع^(٢) وبينت أنها تشتمل على التنزيه والتحميد والتعظيم بصفات البقاء والإثبات وأفعاله كلها، سبحانه وبحمده) ١. هـ^(٣).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ ﴿٦٠﴾

(وقد فسر طائفة من السلف قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ بالتسبيح بالكلام^(٤)، وذكروا أنواعاً: التسبيح عند افتتاح الصلاة، والتسبيح عند القيام من المجلس، فروى ابن أبي حاتم^(٥) عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: إذا أراد أن يقوم الرجل من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك. هكذا رواه وكيع، ورواه أبو نعيم وقبيصة فقالا: يقول سبحان الله وبحمده. وعن ابن أبي نجيج عن مجاهد: «حين تقوم» قال: من كل مجلس. وعن طلحة عن عطاء: حين تقوم من كل مجلس، إن كنت أحسنت ازددت خيراً، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارة له.

وقال طائفة: حين تقوم إلى الصلاة، وكذلك قال الضحاك: حين تقوم إلى الصلاة المفروضة، وكذلك قال ابن زيد: إذا قام إلى الصلاة من ليل أو نهار، وفي رواية جوير عن الضحاك قال: هو قول الرجل إذا استفتح الصلاة «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك». وقال أبو الجوزاء: حين تقوم من منامك من فراشك. وعلى هذا فهو أمرٌ بالصلاة إذا قام من فراشه من قائلة النهار، فهو أمرٌ بالصلاة الظهر والعصر.

﴿وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ فسرّها طائفة بركعتي الفجر، وروى ابن عيينة عن ابن أبي نجيج عن مجاهد: ﴿وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ قال ابن عباس: هو التسبيح أديار الصلاة.

قلت: لعلّ هذا تفسير لقوله: ﴿وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ [ق: ٤٠]، فإنه أنسب. وقد روي عن طائفة من السلف أن ﴿وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ الركعتان بعد المغرب، ﴿وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ ركعتا

(١) زاد المسير (٦٠/٨).

(٢) لشيخ الإسلام رسالة مستقلة بشرح دعوة ذو النون في المجلد العاشر من مجموع الفتاوى وطبعت مستقلة في الهند.

(٣) مجموع الفتاوى (٣٩٧/٢٢). (٤) انظر تفسير الطبري (٢٢/٢٧، ٢٣).

(٥) لا يوجد النص في النسخة المطبوعة. ورواه أيضاً الطبري (٢٢/٢٧).

الفجر، فأحدهما تشبه بالأخرى. فقلوه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ (١)، إذا فُسر هذا بالتسبيح دُبِّر الصلاة كان اللفظ دالاً على هذا. والسلف الذين فسروها بهذا كأنهم - والله أعلم - أرادوا أن أول ما يكتب في صحيفة النهار ركعتا الفجر، وآخر ما يرفع ركعتا المغرب، فقد رُوي أنهما ترفعان مع عمل النهار) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ مصدر أدبر يدبر إدباراً) ا. هـ (٢).

(٢) (٢) الصفدية (١/٢٣٩).

(١) (١) جامع المسائل (٣/٢٩٣، ٢٩٤).

سورة النجم

وقال رحمه الله في نزول سورة النجم:

(وسورة النجم باتفاق الناس من أول ما نزل بمكة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتِ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَفْتُمُونَنِي عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝٥ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝٦ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝٧﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝٨﴾ وهذا كله نزل بمكة بإجماع الناس) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (بل ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ لما قرأ «سورة النجم» سجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس) ١. هـ^(٣).

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

(كما أن الضال الذي لا يعلم مصلحته هو خلاف المهتدي قال الله ﷻ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتِ ۝٣) ١. هـ^(٤).

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾.

(وقد نزه الله نبيه عن الضلال والغى فقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتِ ۝٣) فالضال الذي لا يعرف الحق، والغاوي الذي يتبع هواه) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال في حق نبيه ﷺ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتِ ۝٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤، فنزله عن الضلال والغواية اللذين هما الجهل والظلم، فالضال هو الذي لا يعلم الحق، والغاوي الذي يتبع هواه.

(٢) منهاج السنة (٦٧/٥).

(١) منهاج السنة (٦٦/٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩٥/٢٦) والحديث في الصحيحين رواه البخاري (١٠٧٠)، ومسلم (٥٧٦).

(٥) منهاج السنة (١٣/٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٦٣/٢٨).

وأخبر أنه ما ينطق عن هوى النفس؛ بل هو وحي أوحاه الله إليه، فوصفه بالعلم ونزّهه عن الهوى) ١. هـ^(١).

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿١﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾﴾

(والكمال في عدم الهوى وفي العلم هو لخاتم الرسل ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَالنَّبِيُّ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَحْمَةٌ يُّوحِي ﴿٤﴾﴾ فنفى عنه الضلال والغى ووصفه بأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل وهو الوحي، فهذا كمال العلم وذاك كمال القصد ﷺ.

ووصف أعداءه بضد هذين فقال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣] فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علماً وقصداً) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (لأن الذي لم يكن صادقاً؛ إما أن يكون متعمداً للكذب أو مخطئاً، والأول: يوجب أنه كان ظالماً غاوياً، والثاني: يقتضي أنه كان جاهلاً ضالاً. وكمال علمه ينافي جهله، وكمال دينه ينافي تعمد الكذب، فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمداً للكذب، ولم يكن جاهلاً يكذب بلا علم، وإذا انتفى هذا وذاك، تعين أنه كان صادقاً عالماً بأنه صادق، ولهذا نزّهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى: ﴿وَالنَّبِيُّ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَحْمَةٌ يُّوحِي ﴿٤﴾﴾) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَالنَّبِيُّ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَحْمَةٌ يُّوحِي ﴿٤﴾﴾، فبين ﷺ أنه ليس ضالاً جاهلاً، ولا غاوياً متبعاً هواه، ولا ينطق عن هواه، إنما نطقه وحي أوحاه الله ﷻ) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وولي الأمر سلطان المسلمين أيده الله وسدده هو أحق الناس بنصر دين الإسلام، وما جاء به الرسول ﷺ، وزجر من يخالف ذلك ويتكلم في الدين بلا علم، ويأمر بما نهى عنه رسول الله ﷺ ومن يسعى في إطفاء دينه إما جهلاً وإما هوى. وقد نزّهه الله رسوله ﷺ عن هذين الوصفين فقال تعالى: ﴿وَالنَّبِيُّ إِذَا

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٨٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٥٤٥).

(٣) الجواب الصحيح (٥/٤٤٦).

(٤) الجواب الصحيح (١/١٠٥ - ١٠٦).

هَوًى ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوًى ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ وقال تعالى عن الذين يخالفونه: ﴿إِنْ يَلْمِزُوكَ إِلَّا الظَّلَمَ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣] ويخالفون شريعته وما كان عليه الصحابة والتابعون وأئمة المسلمين الذين يعرفون سنته ومقاصده، ويتحرون متابعتة ﷺ، بحسب جهدهم، رضي الله عنهم أجمعين) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله) (ولهذا نزه الله نبيه عن هذين، فقال تعالى: ﴿وَالنَّجْوَىٰ إِذَا هَوًى ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوًى ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾، فالضال الذي لا يعلم الحق، بل يظن أنه على الحق وهو جاهل به، كما عليه النصاري قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، والغاوي الذي يتبع هواه وشهواته مع علمه بأن ذلك خلاف الحق، كما عليه اليهود قال تعالى: ﴿سَاصِرُونَ عَنِ الْبَيْنِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا عَبْدًا لَا يُؤْمِنُوا بِهِ وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا أَرشِدَ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا أَلْفًا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [١٧٥] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَلَاهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٥] وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن»^(٢).

فإن الغي والضلال يجمع جميع سيئات بني آدم، فإن الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَمَحَلًّا لِلْإِنْسَانِ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فبظلمه يكون غاوياً، وبجهله يكون ضالاً، وكثيراً ما يجمع بين الأمرين فيكون ضالاً في شيء غاوياً في شيء آخر، إذ هو ظلوم جهول، ويعاقب على كل من اللذين بالآخر، كما قال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وكما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ١. هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٣١٧/٢٧).

(٢) أحمد (٤٢٠/٤، ٤٢٣) وأبو نعيم في الحلية (٣٢/٢) والدولابي في الكنى والأسماء (١٥٤/١) وهو حسن.

(٣) جامع الرسائل (١/٢٢٨ - ٢٢٩).

وقال القاسمي:

(قال الإمام ابن تيمية: الدنو والتدلي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه - كما قالت عائشة وابن مسعود - والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥) وهو جبريل، ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوي، وهو ذو المِرَّة أي القوة، وهو الذي استوى بالأفق الأعلى، وهو الذي دنا فتدلى، فكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى، وهو الذي رآه نزلة أخرى، عند سدره المنتهى، رآه على صورته مرتين، مرة في الأرض، ومرة عند سدره المنتهى. انتهى) ا. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن مسعود قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى: وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي به من فوقها، فقبض منها قال: ﴿إِذَا يَنْشَأُ النُّجُودُ مَا يَنْشَأُ﴾ (١١) [النجم]، (قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله شيئاً من أمته المقحّمات) (٢) وعنه في قوله ﷺ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩) [النجم] ا. هـ (٣).

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتَمْنُونُ (١٢) عَلَى مَا بَرَأَ (١٣) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٤) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٥) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٦) إِذَا يَنْشَأُ النُّجُودُ مَا يَنْشَأُ (١٧) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٨) لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٩).

(وقد وصف الله تعالى جبريل ﷺ بأنه ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وأن محمداً ﷺ رآه بالأفق المبين ووصفه بأنه ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتَمْنُونُ (١٢) عَلَى مَا بَرَأَ (١٣) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٤) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٥) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٦) إِذَا يَنْشَأُ النُّجُودُ مَا يَنْشَأُ (١٧) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٨) لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٩).

(١) تفسير القاسمي (١٥/٢٣٣).

(٢) الحديث في مسلم (٢٧٩)، والمقحّمات هي الذنوب العظام الكبائر.

(٣) الجواب الصحيح (٦/١٧٦)، وقوله عنه أي عن ابن مسعود.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «أنه لم ير جبريل في صورته التي خلق عليها غير مرتين»^(١) يعني المرة الأولى بالأفق الأعلى، والنزلة الأخرى عند سدره المنتهى، ووصف جبريل عليه السلام في موضع آخر بأنه الروح الأمين، وأنه روح القدس ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ٥ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ ٦ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ٨ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ٩ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ١٠ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ١١ ﴿أَتَسْتَبْشِرُونَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ ١٢ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ١٣ ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ١٤ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ ١٥ ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ١٦ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ١٧ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ ١٨)، فأخبر أن معلمه معلم شديد القوى، وأنه ذو مرة. والناس قد تنازعوا في المرئي مرتين فقال ابن مسعود وعائشة وغيرهما: هو جبريل، رآه على صورته التي خلق عليها مرتين، كما ثبت ذلك في الصحيح عنه ﷺ.
وقال ابن عباس وغيره: رأى ربه بفؤاده مرتين^(٣).

ومن المعلوم أنه إذا كان المرئي جبريل، وأنه الذي رآه عند سدره المنتهى، عندها جنة المأوى، وأنه استوى وهو بالأفق الأعلى - امتنع أن يكون جبريل ما في نفسه - وإن كان المرئي هو الله، فهو أعظم.

ومن هؤلاء من يقول: جبريل هو العقل الفعال، ويقول: ليس بضنين: أي ببخيل، لأنه فياض. وهذا جهل، لأن قراءة الأكثرين: بظنين، أي بمتهم وهو المناسب، أي ما هو بمتهم على ما غاب عنا، بل هو أمين في إخباره بالغيب، وإذا قيل: ضنين، بمعنى بخيل، كان ذلك وصفاً له بأنه لا يبخل بعلم الغيب، بل يبين الحق ولهذا قال: على الغيب بظنين) ا.هـ^(٤).

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ١١.

وقال القاسمي رحمه الله:

(قال الإمام ابن تيمية: وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا، ولا قوله رآه بفؤاده. وقد صح عنه أنه قال: رأيت ربي تبارك وتعالى، لكن لم يكن هذا في الإسراء،

(١) البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧). (٢) مجموع الفتاوى (٢٣٤/١١ - ٢٣٥).

(٣) مسلم (١٧٥). (٤) درء تعارض العقل (٢١٧/١٠ - ٢١٨).

ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه. وعلى هذا بنى الإمام أحمد وقال: نعم رآه حقاً، فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد. وأما قول ابن عباس: «رآه بفؤاده مرتين» فإن كان استناده إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١) ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (٢) والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه عليه السلام أن هذا المرئي جبريل، رآه مرتين في صورته التي خلق عليها. انتهى (١هـ).^(١)

نقل ابن القيم عنه:

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (٣)

(وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه عليه السلام حين أراه ما أراه ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (٤) وأبو القاسم القشيري صدر باب الأدب بهذه الآية. وكذلك غيره.

وكانهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه عليه السلام في ذلك المقام. إذ لم يلتفت جانباً. ولا تجاوز ما رآه. وهذا كمال الأدب. والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور، فالالتفات زيغ. والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة. فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره عنه يمناً ولا يسرة ولا يتجاوزة.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه (١هـ).^(٢)

وقال رحمه الله: (قال الإمام أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنة حدثنا فضيل بن سهل، حدثنا عمرو بن طلحة القناد، حدثنا أسباط بن نصر، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (٥) [النجم] قال إن النبي عليه السلام رأى ربه فقال له رجل: أليس قد قال لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار فقال له عكرمة: أليس ترى السماء قال بلى: قال فكلها ترى (١هـ).^(٣)

(١) ذكره القاسمي في تفسيره (٢٣٥/١٥).

(٢) مدارج السالكين (٣٨٢/٢).

(٣) الفتاوى (٧٣/٥) والأثر رواه ابن أبي عاصم في السنة (٤٣٤) ورجاله ثقات غير أسباط بن نصر.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿١٦﴾

(ولهذا أمر النبي ﷺ أَنْ يتخذَ المساجدَ مواضعَ معابدَ الكفار كما كان لثقيف أهل الطائف معبد يعبدون فيه اللات، التي قال الله فيها: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿١٦﴾ ا.هـ^(١). وقال رحمه الله: (وقرأ جماعة من السلف: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾ بتشديد التاء، وكانت اللات لأهل الطائف، والعزى لأهل مكة، ومناة لأهل المدينة. ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد لما جعل يرتجز فقال: اعل هبل، فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». فقال أبو سفيان: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»^(٢) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿١٦﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿١٧﴾ وهذه هي الأصنام الكبرى التي كانت بمدائن الحجاز، فإنه كانت اللات لأهل المدينة، والعزى لأهل مكة ومناة الثالثة الأخرى لأهل الطائف.

وهذه كلها مؤنثة كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ ﴿١٧﴾ [النساء]، وهذه جعلوها شركاء له تعبد من دونه، وسموها بأسمائه مع التأنيث كما قيل: إن اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من منى يماني إذا قدر، وكانوا يسمونها الربة، وهم سموها بهذه الأسماء التي فيها وصفها لها بالإلهية والعزة والتقدير والربوبية، وهي أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، أي من كتاب وحجة، فإن الله تعالى لم يأمر أحداً بأن يعبد أحداً غيره، ولم يجعل لغيره شركاء في إلهيته) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وثقيف كان فيهم اللات المذكورة في القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿١٦﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿١٧﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿١٨﴾ وقد ذكروا أنها مكان رجل كان يلت السويق ويسقيه للحجاج، فلما مات عكفوا على قبره، وصار ذلك وثناً عظيماً يعبد، والسفر إليه كانوا يسمونه حجاً كما تقدم، فدل ذلك على أن السفر إلى المشاهد حج إليها، كما يقول من يقول من العامة: وحق النبي الذي تحج المطايا إليه.

(٢) البخاري (٣٠٣٩).

(١) الجواب الصحيح (٢/٢١٨).

(٤) دره تعارض العقل (٧/٣٦٥ - ٣٦٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/٣٥٣ - ٣٥٤).

قال عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا قبيصة، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد^(١): ﴿أَفَرَمَيْتُمْ أَلَّتْ وَالْعِزَّى﴾ قال: كان رجل يلت السوق فمات، فاتخذ قبره مصلى، وقال: حدثنا سليمان بن داود، عن أبي الأشهب، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس^(٢) قال: «اللات» رجل يلت السوق للحجاج. وكذلك رواه ابن أبي حاتم عن أبي الجوزاء عن ابن عباس^(٣) قال: كان يلت السوق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه. وروى عن الأعمش قال: كان مجاهد يقرأ «اللات» مثقلة، ويقول: كان رجل يلت السوق على صخرة في طريق الطائف ويطعمه الناس فمات، فقبر، فعكفوا على قبره^(٤). وقال سليمان بن حرب: حدثنا حماد بن زيد، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء قال: «اللات» حجر كان يلت السوق عليه فسمي اللات^(٥). وقال: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن السدي عن أبي صالح قال: «اللات» الذي كان يقوم على آلهتهم وكان يلت لهم السوق. (والعزى) نخلة كانوا يعلقون عليها الستور والعهن، «ومناة» حجر بقديد^(٦) وقد قرأ طائفة من السلف اللات بتشديد التاء وقيل إنها اسم معدول عن اسم الله. قال الخطابي^(٧): المشركون يتعاطون الله اسماً لبعض أصنامهم فصرفه الله إلى اللات صيانة لهذا الاسم وذباً عنه.

قلت: ولا منافاة بين القولين والقراءتين، فإنه كان رجل يلت السوق على حجر، وعكفوا على قبره، وسموه بهذا الاسم، وخففوه، وقصدوا أن يقولوا هو الإله، كما كانوا يسمون الأصنام آلهة فاجتمع في الاسم هذا وهذا. وكان «اللات» لأهل الطائف، وكانوا يسمونها «الربة» و«العزى» لأهل مكة. ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد: «إن لنا العزى ولا عزى لكم». فقال النبي ﷺ: ألا تجيبوه؟ فقالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»^(٨) الحديث وقد تقدم وكانت مناة لأهل المدينة. فكل مدينة من مدائن أهل الحجاز كان لها طاغوت تحج إليه وتتخذة شفيعاً وتعبدته.

- (١) البخاري (٤٨٥٩) عن ابن عباس والطبري (٥٨/٢٧) عن مجاهد وعزاه في الدر (١١٦/٦) مرة لابن عباس ومرة لمجاهد.
- (٢) الدر (١١٦/٦) وعزاه لعبد بن حميد.
- (٣) الدر (١١٦/٦) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.
- (٤) زاد المسير (٧٢/٨) وعزاه صاحب الدر (١١٦/٦). لسعيد بن منصور والفاكهي قريباً منه.
- (٥) عزاه صاحب الدر (١٢٧/٦) لعبد بن حميد.
- (٦) ابن جرير (٥٩/٢٧) وعزاه صاحب الدر (١٢٧/٦) لعبد بن حميد كذلك.
- (٧) زاد المسير (٧١/٨).
- (٨) مر تخريجه.

قال عبد بن حميد في تفسيره: حدثنا قبيصة، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد^(١): ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعِزَّى﴾ قال: كان رجل يلت السوق فمات، فاتخذ قبره مصلى، وقال: حدثنا سليمان بن داود، عن أبي الأشهب، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس^(٢) قال: «اللات» رجل يلت السوق للحجاج. وكذلك رواه ابن أبي حاتم عن أبي الجوزاء عن ابن عباس^(٣) قال: كان يلت السوق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه. وروى عن الأعمش قال: كان مجاهد يقرأ «اللات» مثقلة، ويقول: كان رجل يلت السوق على صخرة في طريق الطائف ويطعمه الناس فمات، فقبر، فعكفوا على قبره^(٤). وقال سليمان بن حرب: حدثنا حماد بن زيد، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء قال: «اللات» حجر كان يلت السوق عليه فسمي اللات^(٥). وقال: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن السدي عن أبي صالح قال: «اللات» الذي كان يقوم على آلهتهم وكان يلت لهم السوق. (والعزى) نخلة كانوا يعلقون عليها الستور والعهن، «ومناة» حجر بقديد^(٦) وقد قرأ طائفة من السلف اللات بتشديد الناء وقيل إنها اسم معدول عن اسم الله. قال الخطابي^(٧): المشركون يتعاطون الله اسماً لبعض أصنامهم فصرفه الله إلى اللات صيانة لهذا الاسم وذباً عنه.

قلت: ولا منافاة بين القولين والقراءتين، فإنه كان رجل يلت السوق على حجر، وعكفوا على قبره، وسموه بهذا الاسم، وخففوه، وقصدوا أن يقولوا هو الإله، كما كانوا يسمون الأصنام آلهة فاجتمع في الاسم هذا وهذا. وكان «اللات» لأهل الطائف، وكانوا يسمونها «الربة» و«العزى» لأهل مكة. ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد: «إن لنا العزى ولا عزى لكم». فقال النبي ﷺ: ألا تجيبوه؟ فقالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»^(٨) الحديث وقد تقدم وكانت مناة لأهل المدينة. فكل مدينة من مدائن أهل الحجاز كان لها طاغوت تحج إليه وتتخذة شقيقاً وتعبده.

- (١) البخاري (٤٨٥٩) عن ابن عباس والطبري (٥٨/٢٧) عن مجاهد وعزاه في الدر (١١٦/٦) مرة لابن عباس ومرة لمجاهد.
- (٢) الدر (١١٦/٦) وعزاه لعبد بن حميد.
- (٣) الدر (١١٦/٦) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.
- (٤) زاد المسير (٧٢/٨) وعزاه صاحب الدر (١١٦/٦). لسعيد بن منصور والفاكهي قريباً منه.
- (٥) عزاه صاحب الدر (١٢٧/٦) لعبد بن حميد.
- (٦) ابن جرير (٥٩/٢٧) وعزاه صاحب الدر (١٢٧/٦) لعبد بن حميد كذلك.
- (٧) زاد المسير (٧١/٨).
- (٨) مر تخريجه.

وما ذكره بعض المفسرين من أن «العزى» كانت لغطفان^(١) فذلك لأن غطفان كانت تعبد لها وهي في جهتها. وأهل مكة يحجون إليها فإن العزى كانت ببطن نخلة من ناحية عرفات. ومعلوم بالنقول الصحيحة أن أهل مكة كانوا يعبدون العزى كما علم بالتواتر أن أهل الطائف كان لهم اللات، ومناة^(٢) كانت حذو قديد، وكان أهل المدينة يهلون لها، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها.

وأما ما ذكره معمر بن المثنى^(٣) من أن هذه الثلاثة كانت أصناماً في جوف الكعبة من حجارة فهو باطل باتفاق أهل العلم بهذا الشأن، وإنما كان في الكعبة «هبل» الذي ارتجز له أبو سفيان يوم أحد وقال: اعل هبل اعل هبل. فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبوه؟ قالوا: وما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل». كما تقدم ذكره. هذا وكان إساف ونائلة على الصفا والمروة، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً وهذه الاسماء الثلاثة مؤنثة: اللات، والعزى، ومناة ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وكانت الطواغيت الكبار التي تشد إليها الرحال ثلاثة: اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى. كما ذكر الله ذلك في كتابه حيث يقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۚ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۚ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۚ﴾ كل واحد من هذه الثلاثة لمصر من أمصار العرب. والأمصار التي كانت من ناحية الحرم، ومواقيت الحج ثلاثة مكة، والمدينة، والطائف. فكانت اللات، لأهل الطائف، ذكروا أنه كان في الأصل رجلاً صالحاً، يلت السوق للحجيج، فلما مات عكفوا على قبره مدة، ثم اتخذوا تمثاله، ثم بنوا عليه بنية سموها: بيت الربة. وقصتها معروفة، لما بعث النبي ﷺ لهدمها لما افتتحت الطائف بعد فتح مكة، سنة تسع من الهجرة.

وأما العزى: فكانت لأهل مكة قريباً من عرفات، وكانت هناك شجرة يذبحون عندها ويدعون. فبعث النبي ﷺ إليها خالد بن الوليد، عقب فتح مكة فأزالها، وقسم النبي ﷺ مالها، وخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها، فيئست العزى أن تعبد.

وأما مناة: فكانت لأهل المدينة، يهلون لها شركاً بالله تعالى، وكانت حذو قديد

(٢) زاد المسير (٧٢/٨).

(١) زاد المسير (٧٢/٨).

(٣) زاد المسير (٧٢/٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٥٧/٢٧ - ٣٥٩)، جامع المسائل (١٠٥/٣) فقط قول ابن عباس في معنى اللات.

الجبل الذي بين مكة والمدينة من ناحية الساحل) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ٦٣]) قال ابن عباس: كان في كل صنم شيطان يتراءى للسندنة فيكلمهم، وقال أبي بن كعب: مع كل صنم جنية.

ولهذا لما أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى - وكانت العزى عند عرفات - خرجت منها عجوز ناشرة شعرها، وقال النبي ﷺ: «هذه شيطانة العزى، وقد يئست العزى أن تعبد بأرض العرب»^(٢) وكان خالد يقول:

يا عزى! كفرانك، لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

وأما اللات فكانت عند الطائف. ومناة الثالثة الأخرى كانت حذو قديد بالساحل. فإن المدائن التي للمشركين بأرض الحجاز كانت ثلاثة مكة، والمدينة، والطائف. وكان لكل أهل مدينة طاغوت من هذه الثلاثة. ولهذا خصصها سبحانه بالذكر في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۚ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۚ تِلْكَ إِذَا قُسِمَةُ ضِرَازٍ ۚ﴾ - أي قسمة جائزة - ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ فإنهم كانوا يجعلون لله أولاداً إناثاً وشركاء إناثاً فقال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۚ تِلْكَ إِذَا قُسِمَةُ ضِرَازٍ ۚ﴾ ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهَدَىٰ﴾ ا.هـ^(٤)، وهذه الثلاثة المذكورة في هذه السورة: هي الأوثان العظام الكبار، التي كان المشركون ينتابونها من أمصارهم؛ فاللات كانت حذو قديد بالساحل لأهل المدينة، والعزى: كانت قريبة من عرفات لأهل مكة، ومناة: كانت بالطائف لثقيف، وهذه الثلاث هي أمصار أرض الحجاز.

أخبر - سبحانه - أن الاسماء التي سماها المشركون أسماء ابتدعوها: لا حقيقة لها، فهم إنما يعبدون أسماء لا مسميات لها؛ لأنه ليس في المسمى من الألوهية، ولا العزة، ولا التقدير شيء، ولم ينزل الله سلطاناً بهذه الأسماء، إن يتبع المشركون إلا ظناً لا يغني من الحق شيئاً في أنها آلهة تنفع وتضر، ويتبعوا أهواء أنفسهم) ا.هـ^(٥).

(١) اقتضاء الصراط (٢/٦٤٢ - ٦٤٣).

(٢) زاد المعاد (٣/٤١٤) نقلاً عن ابن سعد.

(٣) الرد على المنطقيين: ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٤) مجموع الفتاوى (٢/٢٥٨ - ٢٥٩).

وقال رحمه الله: (وأما اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فلما قال تعالى: ﴿الْكُمْ الذَّكْرَ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ فسرهما طائفة منهم الكلبي^(١) بأنهم كانوا يقولون: هذه الأصنام بنات الله، وهذا هو الذي ذكره طائفة من المتأخرين وليس كذلك؛ فإنهم لم يكونوا يقولون عن هذه الأصنام إنها بنات الله وإنما قالوا ذلك عن الملائكة، كما ذكر الله عنهم في قوله تعالى بعد هذا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئُونَ لِلْمَلَائِكَةِ سِئَةً الْأُنْثَى﴾ [النجم] ا. هـ^(٢).

﴿الْكُمْ الذَّكْرَ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ تِلْكَ إِذَا فِئْتُهُ ضَيْرَى ﴿٣٣﴾

(وأما قوله تعالى: ﴿الْكُمْ الذَّكْرَ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ تِلْكَ إِذَا فِئْتُهُ ضَيْرَى ﴿٣٣﴾ أي قسمة جائرة عرجاء، إذ تجعلون لكم ما تحبون وهم الذكور وتجعلون لي الإناث! وهذا من قولهم: الملائكة بنات الله، حيث جعلوا له أولاداً إناثاً وهم يكرهون أن يكون ولد أحدهم أنثى) ا. هـ^(٣).

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ ﴿٣٤﴾

(﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ و«السلطان» هو الكتاب المنزل من عند الله وهو الهدى الذي جاءهم من عند الله) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، فإنهم سموها آلهة فآبَتُوا لها صفة الإلهية التي توجب استحقاقها أن تعبد، وهذا المعنى لا يجوز إثباته إلا بسلطان - وهو الحجة - وكون الشيء معبوداً تارة يراد به أن الله أمر بعبادته، فهذا لا يثبت إلا بكتاب منزل وتارة يراد به أنه متصف بالربوبية والخلق المقتضي لاستحقاق العبودية؛ فهذا يعرف بالعقل ثبوته وانتفاؤه) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال سبحانه: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ وإذا كان الإنسان مأموراً بطلب العلم الذي يحتاج إليه بحسب إمكانه،

(١) زاد المسير (٧٣/٨) وهو مال لهذا الرأي. (٢) مجموع الفتاوى (٣٦٣/٢٧ - ٣٦٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٦٣/٢٧). (٤) مجموع الفتاوى (١٩٩/٤).

(٥) مجموع الفتاوى (٤٢٥/٢٠).

وهو إذا لم يجد العلم اليقيني يعلم أنه لم يجد العلم فهو مأمور بالطلب والاجتهاد، فإن ترك ما أمر به كان مستحقاً للذم والعقاب على ذلك، وقال أيضاً: فإذا تبين له الحق وعلمه، وعلم أنه كان جاهلاً به معتقداً غير الحق كان تائباً، بمعنى أنه رجع من الباطل إلى الحق وإن كان الله قد عفى عنه ما رجع عنه لعجزه إذ ذاك وكان أيضاً تائباً مما حصل فيه أولاً من تفريط في طلب الحق، فكثير من خطأ بني آدم من تفريطهم في طلب الحق لا من العجز التام. وكان أيضاً تائباً من اتباع هواه أولاً بغير هدى من الله، فإن أكثر ما يحمل الإنسان على اتباع الظن المخطئ هو هواه، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ في سورة الأعراف ويوسف والنجم، فمن عارض آيات الله المنزلة برأيه وعقله من غير سلطان أتاه دخل في معنى هذه الآية) (٢) هـ.

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضًى﴾ (٣) هـ.

(وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضًى﴾ يقتضي إذناً مستقبلاً! فإن «أن» تخلص الفعل المضارع للاستقبال) (٤) هـ.

وقال رحمه الله: (ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمِزَّيَّ (١) وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةَ الْآخِرَى (٢) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٣) تِلْكَ إِذَا قُسِمُوا ضَرْبًا (٤) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٥) أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٦) فَلِللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٧) وَكَرَّمُوا مَلَائِكَةً فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضًى (٨)﴾ [النجم] فنفي سبحانه أن تغني شفاعة الملائكة الذين في السماء إلا من بعد إذنه تنبيهاً بذلك على أن من دونهم أولى أن لا تغني شفاعتهم، فإن المشركين كانوا يقولون عن الأصنام إنها تشفع لهم قال تعالى: ﴿وَيَسْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمْ أَنْتُمُ الْمُشْرِكُونَ وَمَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٩) هـ.

(١) جامع الرسائل (١/٢٤١).

(٢) درء تعارض العقل (٥/٢٠٧ - ٢٠٨).

(٣) الصلفية (١/٢١٤).

[يونس] ولا يجوز أن يكون الكلام تنقيصاً بالملائكة ولذلك قال تعالى: ﴿يَا هَلْ أَكْتَبَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خيراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٧٦﴾ لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهُهُ جَمِيعاً ﴿٧٧﴾﴾ [النساء] فإنه لما كان الكلام في إثبات توحيد الله تعالى والنهي عن الغلو في الدين الذي فيه تشبيه المخلوق بالخالق قال: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ بعد أن قال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ﴾ [المائدة: ٧٥] فنسبه إلى أمه وهذا قد جرى في القرآن في غير موضع فنسبه إلى أمه، لينفي نسبته إلى غيرها فلا ينسب إلى الله تعالى أنه ابنه ولا إلى أب من البشر، كما زعمت النصارى الغالية فيه، ولا كما زعمت اليهود الكافرة به، وأبلغ من هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ١٧] فذكر أهل الأرض جميعاً، وخص المسيح وأمه بالذكر من أنه إن أراد أهلاكهم لن يملك أحد لهم منه شيئاً، لأن المسيح وأمه اتخذوا إلهين كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَأَنتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيمَى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فكان التخصيص بالذكر لينفي هذا الشرك والغلو الذي وقع في المسيح وأمه ولم يكن ذلك من باب التنقيص بالمسيح وأمه بل كان التخصيص لأجل أن الكلام وقع في ذلك المعين.

فالتخصيص للحاجة إلى ذكر المخصوص والعلم به، أو لأجل التنبيه به على ما سواه، ولهذا لا يكون التخصيص في هذا مفهومه مخالفة بنفي نقيض الحكم عن ما سواه، وحتى الذي يسمى دليل الخطاب للتخصيص لم يكن للاختصاص بالحكم) ا. هـ^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى﴾ (٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾

(وقال في الذين يخبرون عن الملائكة أنهم إناث: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى﴾ (٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾) ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: ١٩] وفي القراءة الأخرى: ﴿عند الرحمن إنانا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ وهؤلاء قال عنهم: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ لأنه خبر محض ليس فيه عمل، وهناك: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها ويدعونها، فهناك عبادة وعمل بهوى أنفسهم فقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ والذي جاء به الرسول كما قال: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)﴾ [النجم] وكل من خالف الرسول لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس، فإن كان ممن يعتقد ما قاله وله فيه حجة يستدل بها، كان غايته الظن الذي لا يغني معه الحق شيئاً، كاحتجاجهم بقياس فاسد أو نقل كاذب أو خطاب أُلقي إليهم اعتقدوا أنه من الله وكان من إلقاء الشيطان) ا.هـ (١).

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (٣٠). ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فأمر نبيه بأن يعرض عما كان معرضاً عن ذكر الله، ولم يكن له مراد إلا ما يكون في الدنيا.

وهذه حال من فسد قلبه، ولم يذكر ربه، ولم ينب إليه فيريد وجهه ويخلص له الدين ثم قال: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فأخبر أنهم لم يحصل لهم علم فوق ما يكون في الدنيا، فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم. وأما المؤمن فأكبر همه هو الله، وإليه انتهى علمه وذكره. وهذا الآن باب واسع عظيم قد تكلمنا عليه في مواضعه) ا.هـ (٢).

قال رحمه الله: (وقد روي أن الله سبحانه يقول: «إن أدنى ما أنا صانع بالعالم إذا

أحب الدنيا أن أمنع قلبه حلاوة ذكرى^(١)، وتصديق ذلك في القرآن: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ۗ﴾ وقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ۗ﴾ [الروم] ١٠١ هـ^(٢).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَلَيْهِمْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ۖ﴾ (٣١).

(وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَلَيْهِمْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ۖ﴾ (٣١) ومعلوم أن في ملك الله حكماً أخرى غير جزاء المحسن والمسيء) ١٠١ هـ^(٣).

﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْآثِرِ ۖ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنَاكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ بِآخِنَةٍ ۖ فَلَئِمَّ بِكُمْ أَنفُسُكُمْ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِمِمَّنْ أَتَىٰ ۖ﴾ (٣٢).

(قال تعالى: وكذلك قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْآثِرِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ فقد فسر اللمم: بأنه غير الوطء: من النظر واللمس والسمع والمشي ونحوه كما ثبت في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان، وزناهما النظر، والأذنان تزنيان، وزناهما السمع، واليدان تزنيان، وزناهما البطش، والرجلان تزنيان، وزناهما المشي. والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»^(٤) وسماء الله (لماً) لأن العبد المؤمن يلم بالكبيرة ولا يأتيها، قال:

متى تأتينا تلمم بنا في ديارنا تجد حطباً جزلاً وناراً تأججاً
قال:

متى تأتاه تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد
فإن الطارق يلم بأهل المنزل قبل أن يدخل إلى منزلهم، ويقال: «اللمم» أن يلم بالذنب الصغير مرة من غير إصرار) ١٠١ هـ^(٥).

(١) قريباً منه في جامع بيان العلم وفضله (١/١٩٣)، وقال العراقي في تخريج الإحياء: «غريب لم أجده».

(٢) تفسير آيات أشكلت (١/٤١٣ - ٤١٤). (٣) الجواب الصحيح (١/٤٣٠).

(٤) البخاري (١١/٢٢ - الفتح)، ومسلم (٤/٢٠٤٦).

(٥) مختصر الفتاوى المصرية (٥٧٦).

وقال رحمه الله: (وعن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا اللَّسَمُ﴾ قال رسول الله ﷺ:

«إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلْمَا» ١. هـ^(١)

وقال رحمه الله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تخبروا بزكاتها ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ دليل على أن

الزكاة هي التقوى والتقوى تنتظم الأمرين جميعاً، بل ترك السيئات مستلزم لفعل الحسنات، إذ الإنسان حارث همام، ولا يدع إرادة السيئات وفعلها إلا بإرادة الحسنات وفعلها إذ النفس لا تخلو عن الإرادتين جميعاً، بل الإنسان بالطبع مريد فعال ١. هـ^(٣).

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾.

(وهذا كقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَى﴾ وَإِذْ هَبَّ الَّتِي وَفَى ٣٧) أَلَا نُرِىْ

وَزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى ٣٨) وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ٣٩) فأخبر أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء وأنه لا يستحق إلا ما سعا، وكلا القولين حق على ظاهره، وإن ظن بعض الناس أن تعذيب الميت بيبكاء أهله عليه ينافي الأول فليس كذلك إذ ذلك النائح يعذب بنوحه لا يحمل الميت وزره ولكن الميت يناله ألم من فعل هذا، كما يتألم الإنسان من أمور خارجة عن كسبه وإن لم يكن جزاء الكسب ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وهذا كقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَى﴾ وَإِذْ هَبَّ الَّتِي وَفَى ٣٧) أَلَا نُرِىْ

وَزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى ٣٨) فليس على أحد وزر غيره، ولا يستحق أحد إلا ما سعا وكلا القولين حق على ظاهره ١. هـ^(٥).

(قوله: ﴿وَلَا نُرِىْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] إنما فيه أن المذنب لا يحمل

ذنب غيره) ١. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (وكذلك ظن قوم أن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي

ينافي قوله: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ فليس كذلك، فإن انتفاع الميت

(١) جامع الرسائل (١/٢٦٦) وبيت الشعر كان يقوله أمية بن أبي الصلت ونسبه آخرون لغيره، وقول النبي ﷺ صحيح ثابت عنه.

(٢) مجموع الفتاوى (٩٨/١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/٣٩١).

(٤) مجموع الفتاوى (١٨/١٤٢).

(٥) مختصر الفتاوى المصرية (١١٩).

(٦) جامع المسائل (٣/١٣٨).

بالعبادات البدنية من الحي بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية، ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقله ظاهر الفساد، بل ذلك بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة.

وقد بينا في غير هذا الموضع نحواً من ثلاثين دليلاً شرعياً يبين انتفاع الإنسان بسعي غيره، إذ الآية إنما نفت استحقاق السعي وملكه، وليس كل ما لا يستحقه الإنسان ولا يملكه لا يجوز أن يحسن إليه مالكة ومستحقه بما ينتفع به منه، فهذا نوع وهذا نوع، وكذلك ليس كل ما لا يملكه الإنسان لا يحصل له من جهته منفعة، فإن هذا كذب في الأمور الدينية والدنيوية) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وبعض الناس يحتج على أن إهداء ثواب القرب لا يصل إلى الميت بقوله: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾. واحتجاً به هذه الآية حجة باطلة بكتاب الله وسنة رسوله وإجماع المسلمين، فإن القرآن قد دل على الاستغفار للمؤمنين، كما في استغفار الملائكة والأنبياء لهم، وذلك ليس من سعيهم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر] الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى عن نوح: ﴿رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وقال عن إبراهيم: ﴿رَبَّنَا آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقد اتفق المسلمون على سنة رسول الله ﷺ، وهو الصلاة على الميت والدعاء له والشفاعة فيه، واتفقت الأمة على أن الصدقة تنفع الميت كما ثبت في الصحيحين^(٢): أن سعداً قال: يا رسول الله! إن أمتي أفتلثت نفسها، وأراها لو تكلمت لتصدق، فهل ينفعها إن أتصدق عنها؟ قال: «نعم». فما كان جواب هذا المحتج عن الدعاء والصدقة عن الميت كان جواباً لغيره عن الصيام عنه ونحو ذلك من العبادات.

وقد ذكر الناس عن الآية أجوبة متعددة، على أنها منسوخة، وقيل: مخصوصة، وقيل: مختصة بشرع من قبلنا، وقيل: سببه الإيمان الذي هو شرط وصول الثواب من سعيه.

والآية لا تحتاج إلى شيء من هذا، فإن الله أخبر عما في الصحف أنه ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، ولم يقل: لا يَنْتَفِعُ إلا بما سعى، وأنَّ الإنسان فيما يَنْتَفِعُ به في الدنيا قد يَنْتَفِعُ بما يَمْلِكُهُ وبما لا يَمْلِكُهُ، فلا يلزم من نَفْيِ المَلِكِ نَفْيِ الانتفاع، لكن هو يستحقُّ الثواب على سَعْيِهِ لأنه حَقُّهُ، فلا يخاف منه ظُلماً ولا هَضْماً، وأما سَعْيُ غيره فهو لذلك الغير، فإن سَعَى له ذلك الغير أثاب الله ذلك الساعي على سَعْيِهِ، ونفع هذا من سَعْيِ ذلك بما شاء، كما يُثِيبُ الداعي على دعائه لغيره ويَنْتَفِعُ المدعوُّ له) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وكذلك ظن قوم أن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحي ينافي قوله: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» فليس كذلك، فإن انتفاع الميت بالعبادات بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية، ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقله ظاهر الفساد، بل ذلك بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة.

وقال رحمه الله: (وأما احتجاج بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ فيقال له قد ثبت بالسنة المتواترة وإجماع الأمة: أنه يصلى عليه، ويدعى له ويستغفر له وهذا من سعي غيره. وكذلك قد ثبت ما سلف من أنه يَنْتَفِعُ بالصدقة عنه، والعَتَق، وهو من سعي غيره. وما كان من جوابهم في موارد الإجماع فهو جواب الباقيين في مواقع النزاع. وللناس في ذلك أجوبة متعددة.

لكن الجواب المحقق في ذلك أن الله تعالى لم يقل: إن الإنسان لا يَنْتَفِعُ إلا بسعي نفسه، وإنما قال: ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ فهو لا يملك إلا سعيه ولا يستحق غير ذلك. وأما سعي غيره فهو له، كما أن الإنسان لا يملك إلا مال نفسه، ونفع نفسه فمال غيره ونفع غيره هو كذلك للغير، لكن إذا تبرع له الغير بذلك جاز) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وفيه أيضاً أن نفساً لا تعذب باكتساب غيرها، ولا تثاب بكسبه ففيه معنى قوله: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ و﴿أَلَا نَزِدُّهُ ذَرْبًا وَلَدًّا﴾ و﴿وَلَدًّا لِّأُخْرَى﴾) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، لا يملك الإنسان غير سعيه، ولا يستحق غيره، وإن كان قد يحصل له نفع بفضل الله وبرحمته وبدعاء

(١) جامع الرسائل (٤/٢٤٨، ٢٤٩). (٢) مجموع الفتاوى (٢٤/٣٦٦ - ٣٦٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/١٣٨).

غيره، فإنه قد عرف أن الله يرحم كثيراً من الناس من غير جهة عمله، لكنه ليس له إلا ما سعى.

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ يَمَّا فِي سُحُفِ مُوسَىٰ ۖ وَإِٰرْهِيْمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ ۖ ۭ﴾ (٢٧) ﴿أَلَا نُرِٰى وِزْرَهُ ۖ وَزَرَ ۭ﴾ (٢٨) ﴿وَإِن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۖ ۭ﴾ (٢٩) ﴿وَأَن سَعِيْهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۖ ۭ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءُ ٱلْأَوَّلُ ۖ﴾ (٣١)، فقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ يَمَّا فِي سُحُفِ مُوسَىٰ ۖ﴾ (٢٧) يقتضي أن المنبأ بذلك يجب عليه تصديق ذلك والإيمان به؛ لأنه مما أخبر به محمد ﷺ مصداقاً لإبراهيم وموسى، كما ذكر ذلك في [آخر] سورة سَبْحُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلسُّحُفِ ٱلْأَوَّلِ ۖ﴾ (٣١) ﴿سُحُفِ إِبْرَٰهِيْمَ وَمُوسَىٰ ۖ﴾ (٣١) [الأعلى]، وهذا يقتضي ثلاثة أصول:

الأول: ألا تزر وازرة وزر أخرى.

الثاني: أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

الثالث: أن سعيه سوف يُرى، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى.

فالأصل الأول: أن ذنب الإنسان لا يحمله غيره، وهو قوله: ﴿أَلَا نُرِٰى وِزْرَهُ ۖ وَزَرَ ۭ﴾ (٢٨) ﴿أَي لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِّنْ ذَنْبِهِ شَيْئًا ۖ﴾ (٢٨).

الثاني: أنه ليس [للإنسان] إلا سعيه، وفي قوله: ﴿وَإِن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۖ﴾ (٢٩).

الثالث: أنه يجزاه الجزاء الأوفى.

وهذه أصول الإيمان بالوعد والوعيد، والثواب والعقاب، وهي نتيجة الإيمان بالأمر والنهي والمعاد. [بل نتيجة الجزاء في الدنيا والآخرة.

وقد غلط في هذه الأصول من غلط]، فأخفهم غلطاً من غلط في الأصل الأول من السلف والخلف، فأنكروا قول النبي ﷺ: «إن الميت ليُعذب ببكاء الحي عليه».

وقد سمعه من النبي ﷺ [عمر]، وابن عمر، وأبو موسى، والمغيرة بن شعبة، وغيرهم، وظنوا أنه مخالف للقرآن لتوهمهم أن الميت يحمل وزر النائحة، وهو غلط؛ فإن النائحة تعذب على نياحتها، ولا يحمل الميت شيئاً من وزرها، ولكن هو يعذب بنياحتها فيصل إليه ألم بسبب نياحتها، كما قد يعذب الإنسان في الدنيا بأمور من غير عمله: كالروائح المؤذية، والأصوات المنكرة، والأمور المفزعة، وهذا مما يتعذب به الميت، والحكم فيه كحكم سائر ما يتعذب [به] بعد الموت، مثل: مساءلة منكر ونكير وتقريعهما وغير ذلك.

وليس يحمل الميت من وزر الحي شيئاً.

وأعظمهم غلطاً الذين غلطوا في الأصل الثالث، وهو جزاء الإنسان بعمله: فمنهم من أحبط حسناته بالكبيرة الواحدة، وخلده في النار أبداً. ومنهم من قال إذا ترجحت سيئاته على حسناته خلد في النار أبداً.

وأوسطهم غلطاً الذين غلطوا في الأصل الأوسط، وهو قوله: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩)، فظنوا [أن المراد] أن الإنسان لا ينتفع إلا بسعيه فقط.

فإذا قيل: ليس لزيد مال إلا كذا، ولا يملك إلا كذا، لم يكن نفيّاً لانتفاعه؛ فإن انتفاع الإنسان بإحسان غيره إليه، وإحسان إليه ابتداءً إليه، كثير في الدنيا والآخرة.

ومن المعلوم بالتواتر أن الميت ينتفع بصلاة المسلمين عليه، وبدعائهم، وبشفاعة الرسول.

والحي أيضاً: ينتفع بالدعاء، والصدقة، وغير ذلك مما جاءت به الأحاديث الصحيحة وأجمع السلف على أكثرها.

وليس هذا مناقضاً للآية ولا مخصصاً لعمومها، ولا هي مختصة بشرع من قبلنا، بل حكمها شامل للأمة التي بعث إليها محمد [ﷺ]، كما شمل من قبلهم.

فهو ثابت في حق من أرسل إليه، ولو لم يكن [ثابتاً لم يكن] في قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ يَمَّا فِي صُحُفٍ مُّؤَمَّنٍ﴾ (٣٩) فائدة، فإنه إنما قال ذلك إنباء لهذا المنبأ وغيره، فهو شامل له ولغيره. وأيضاً: فإن هذا خبر من الرسولين الكريمين إبراهيم وموسى، وهما خبران عامان، والأخبار لا تنسخ، ولا تختلف شرائع الأنبياء في الأخبار المجردة.

فالآية على ظاهرها الحق، ومفهومها الصدق لا على [المعنى] الفاسد.

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي فيهما ثمانية أقوال^(١):

أحدها: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَالْبَعْثُ دُرَيْتُهُمْ بِإِسْنِ الْحَقِّانِ بِهِمْ دُرَيْتُهُمْ﴾ [الطور: ٢١]، «فأدخل الأبناء الجنة بعمل الآباء وصلاحهم» قاله ابن عباس، ولا يصح؛ لأن لفظ الآيتين لفظ خبر، والأخبار لا تنسخ.

قلت: اللفظ المنقول عن ابن عباس رواه علي بن أبي طلحة الوالبي عنه، وقد قيل إنه لم يسمعه منه، بل من أصحاب ابن عباس، قال: «فأدخل الله الأبناء

بصلاح الآباء الجنة»، ولم يذكر نسخاً، ولو ذكره فمراد الصحابة بالنسخ: المذكور في قوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٢]، وهو فهم معنى الآية على غير الصواب والمراد بها.

فقد بين ابن عباس أنه لم يرد بهذه الآية أن الإنسان لا ينتفع بعمل غيره، فإن الأبناء انتفعوا بعمل آبائهم، فهذا نسخ لما فهم منها، لا لما دلت عليه، وهذا القول المنقول عن ابن عباس أحسن ما قيل فيها، وقد ضعفه من لم يفهمه.

وسائر الأقوال فيها ضعيفة جداً، وقد نقل البغوي هذا عن ابن عباس، وقال: «هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة لهذه الأمة»، ولم يقل ابن عباس هذا، وما أكثر ما يحرف قول ابن عباس ويغلط عليه.

والقول الثاني: قاله عكرمة: «أن المراد به قوم إبراهيم وموسى، وأما هذه الأمة فلمهم ما سعوا وسُعي لهم» وهذا ضعيف؛ لأن الله إنما ذكر هذا ليختبر به [هذه] الأمة كما تقدم، وليعلموا أن هذا حكم شامل، ولو كان هذا مخصوصاً بالأمتين لم تقم به حجة على أمة محمد ﷺ.

وجميع المسلمين يحتاجون بما في هذا، فمن أين لهم أن تلك الأمم لم تكن تنفعهم الصدقة [عنهم] بعد الموت؟!

وقد بين النبي ﷺ أنا إذا قلنا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، أصابت كل عبد صالح لله في السماء والأرض والأنبياء يُصلى عليهم فتصيبهم الصلاة، ونحن إذا ذكرنا الصالحين [قلنا] ترحمنا عليهم، وذلك واصل إليهم، وليس من سعيهم، وما زال الدعاء والشفاعة نافعين لجميع الأمم، فإبراهيم وموسى [والأنبياء] قد دعوا للصالحين من قومهم، وهو نافع لهم، وليس من سعيهم، والملائكة يستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين ممن مضى ومن بقي.

قال:

والقول الثالث: «أن المراد بالإنسان ها هنا: الكافر، وأما المؤمن فله ما سعى وسعي له» قاله الربيع بن أنس.

[قلت]: وهذا أيضاً ضعيف جداً، فإن الذي في صحف إبراهيم وموسى لا يختص به الكافر، وقوله بعده: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [الآيات]، يتناول المؤمن قطعاً، وهو ضمير الإنسان، بل لو قيل: إنه يتناول المؤمن دون الكافر لكان أرجح من

العكس، مع أن حكم العدل لا فرق فيه بين مؤمن وكافر، وما استحققه المؤمن بخصوصه فهو بإيمانه ومن سعيه.

والقول الرابع: «ليس للإنسان إلا ما سعى من طريق العدل، وأما من باب الفضل ففجائر أن يزيد الله ما شاء» قاله الحسين بن الفضل^(١)، وهو أمثل من غيره من الأقوال، ومعناه صحيح، لكنه لم يفسر الآية، فإن قوله: ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ نفي عام، فليس له إلا ذلك، وهذا هو العدل، ثم إن الله قد ينفعه ويرحمه بغير سعيه من جهة فضله.

والقول الخامس: «أن ما سعى، بمعنى: ما نوى».

قلت: هذا ليس قولاً في محل الاشتباه، وإنما هو تفسير للفظ السعي، والسعي هو: العمل ونية الخير، يثاب عليها وإن [لم] يعملها، وأما إذا هم بالشرف فلا يعاقب عليه إلا أن يعمل. والإنسان قد ينتفع بما لم ينو كانتفاع الميت بالصدقة [عنه]، بعد موته، والحج، وغير ذلك.

والقول السادس: ذكره الثعلبي: في الآخرة، فإنها خير للمؤمن.

قلت: وهذا لا يدل عليه قوله: ﴿لِلْإِنْسَانِ﴾، فليس في هذا اللفظ تخصيص [الكافر]، ولا تخصيص الجزء بالدنيا، ولو سكت من لا يدري قلّ الخلاف.

قال: والسابع: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٢) بمعنى: «وأن ليس عليه إلا ما سعى» قاله ابن الزاغوني.

قلت: وهذا [القول] من أرذل الأقوال؛ فإنه قلب لمعنى الآية.

القول الثامن: أنه ليس له إلا سعيه، غير أن الأسباب مختلفة، فتارة يكون سعيه في تحصيل قرابة، وولد يترحم [عليه]، وصديق [يدعو له]، وتارة يسعى في خدمة [أهل] الدين والعبادة فيكسب محبة أهل الدين، فيكون ذلك سبباً حصل بسعيه، حكاة والذي قبله أبو الحسن بن الزاغوني.

قلت: وهذا أمثل من غيره، وقد استحسنته ورجحته جدّي أبو البركات.

وهو أيضاً: ضعيف، فإنه قد ينتفع بعمل غيره من لم يحصل سبباً كأولاد المؤمنين.

(١) هو الحسين بن الفضل بن عمير، العلامة، المفسر، الإمام، اللغوي، المحدث، أبو علي البجلي الكوفي، ثم النيسابوري، عالم عصره وإمامه في معاني القرآن، أقام بنيسابور يعلم الناس ويؤتي من سنة (٢١٧هـ) إلى أن توفي سنة (٢٨٢هـ).

وابن عباس كان أعلم من هؤلاء كلهم؛ ذكر أن آية الأولاد تبين المراد، وتنسخ ما ألقاه الشيطان إلى هؤلاء الذين قهموها من القرآن ما لم يدل، وإذا كانت الجنة يبقى فيها فضل؛ يدخلها من لم يوحد في الدنيا ولا عمل في الآخرة، فكيف يظن أن الله لا يرحم أحداً إلا بسعيه؟ بل الله يرحم العباد بغير سعيهم أعظم مما يرحمهم بسعيهم. وسعي العبد الذي هو له أيضاً من فضل الله ورحمته، فإنه سبحانه هو الذي من عليه به.

وكل من احتج بهذه الآية على نفي الحج؛ انتقض قوله بالصدقة، ولفظها يتناولهما معاً؟ ومن احتج على نفي الصيام انتقض عليه بالحج والصدقة. وحقيقة الأمر: أن الآية لم تكن عمدتهم فيما قالوه، لكن ذكروها احتجاجاً واعتضاداً، لا اعتماداً عليها.

وإذا قال قائل [منهم]: هي عامة في موارد الاجتماع والنزاع، فإذا خصت صورة بقيت دالة على غيرها.

قيل: وحينئذ فتخص أيضاً موارد النزاع بدليله، فإنه لا يقال بانتفاع الميت بعمل إلا بدليل، ويسط هذا له موضع آخر، والله سبحانه أعلم) ١. هـ^(١).

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْسِنَةٌ ۝٤٢﴾.

(وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْسِنَةٌ ۝٤٢﴾ وفي الدعاء المأثور الذي ذكره مالك في «الموطأ»: حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، ليس وراء الله مرمى^(٢) وفي رواية: ليس وراء الله منتهى) ١. هـ^(٣).

﴿قَبَائِلُ آلَ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٤٣﴾.

(وقالوا في قوله: ﴿قَبَائِلُ آلَ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٤٣﴾ فبأي نعم ربك التي تدل على وحدانيته تشكك وقيل تشك وتجادل وقال ابن عباس: تكذب.

قلت: ضمن تمارى معنى تكذب، ولهذا عده بالتاء فإنه تفاعل من المراء، يقال: تمارينا في الهلال ومراء في القرآن كفر، وهو يكون لتكذيب وتشكيك ويقال: لما كان

(١) تفسير آيات أشكلت (١/٤٥١ - ٤٦٨).

(٢) رواية يحيى (٥٦٢) ورواية مصعب (١٨٧٩) بلاغاً.

(٣) درء تعارض العقل (٣/٣١٤).

الخطاب لهم قال: تتماهى، أي يتمازجون، ولم يقل: تمترى لأن التفاعل يكون بين اثنين. قالوا: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم] قيل: الوليد بن المغيرة. فإنه قال: ﴿أَمْ لَمْ يَلْبَسْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ [النجم] ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم] ﴿أَلَا نُرِثُ وَرَثَةً وَرَثَتُنَا﴾ [النجم] ثم التفت إليه فقال: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم]. كما قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [النجم] ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [النجم] ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ أَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن].

ففي كل ما خلقه إحسان إلى عباده يشكر عليه وله فيه حكمة تعود إليه يستحق أن يحمد عليها لذاته، فجميع المخلوقات فيها إنعام إلى عباده كالثقلين المخاطبين بقوله: ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ أَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن] من جهة أنها آيات يحصل بها هدايتهم، وتدل على وحدانيته، وصدق أنبيائه، ولهذا قال عقيبه: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ﴾ [النجم] قيل: محمد وقيل: القرآن وهما متلازمان، يقول: هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل، والكتب الأولى. وقوله: من النذر الأولى أي من جنسها، فأفضل النعم نعمة الإيمان وكل مخلوق فهو من الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] وقال: ﴿بَصِيرَةً وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [النجم] [ق] ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ولما ذكر ما ذكره في سورة النجم وذكر إهلاك مكذبي الرسل قال: ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ أَكْذِبَانِ﴾ [النجم] فإهلاكهم من آلاء ربنا. وآلاؤه نعمه التي تدل على رحمته، وعلى حكمته، وعلى مشيئته، وقدرته وربوبيته - ﷻ) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد ذكرنا في غير هذا أن ما خلقه فهو نعمة يستحق عليها الشكر، وهو من آلائه ولهذا قال في آخر سورة النجم: ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ أَكْذِبَانِ﴾ [النجم] ١. هـ^(٣)).

﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾ [النجم].

(وقال تعالى: ﴿أَفَإِنْ هَذَا فَلْيَخْرُجُوا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [النجم] ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ فِيهَا كَاثِرِينَ﴾ [النجم] ﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾ [النجم].

قال غير واحد من السلف: هو الغناء. فقال: اسمد لنا، أي غن لنا فذم المعرض عما

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٨/٨ - ٢٠٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/١٧٠). وانظر أيضاً: مجموع الفتاوى (١٤/٣٠٢ - ٣٠٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/٢٠٧).

يجب من استماع المشتغل عنه باستماع الغناء، كما هو فعل كثير من الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وحال كثير من المثنسكة في اعتياضهم بسماع المكاء والتصدية عن سماع قول الله تعالى (١) هـ.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (١٧)

(القوم إنما سجدوا لما قرأ النبي ﷺ: ﴿أَفِئَّةً هَذَا الْحَدِيثِ تَعْبُونَ﴾ (٥٩) وَنَضَحُونَ وَلَا يَكُونُ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَاجِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) فمسجد النبي ﷺ ومن معه امتثالاً لهذا الأمر، وهو السجود لله والمشركون تابعوه في السجود لله) (١) هـ. (٢).

سورة القمر

وقال في عموم سورة القمر:

(وقال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۚ﴾ [القمر]، أخبر باقتراب الساعة وانشقاق القمر، وانشقاق القمر قد عاينوه وشاهدوه وتواترت به الأخبار، وكان النبي ﷺ يقرأ هذه السورة في المجامع الكبار مثل الجمع والأعياد؛ لسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار وكل الناس يقر ذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوماً عند الناس عامة. ثم ذكر حال الأنبياء ومكذبيهم، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرٌ ۚ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۚ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ ۚ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۚ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِرَ ۚ فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِّمَن كَانَ كُفْرٌ ۚ وَلَقَدْ رَكَنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۚ﴾ [القمر].

فأخبر أنه أبقى السفن آية على قدرة الرب وعلى ما جرى لنوح مع قومه ثم قال: فكيف كان عذابي لمن كذب ونذري؟ وكذلك ذكر قصة عاد وثمود ولوط وغيرهم، يقول في عقب كل قصة: فكيف كان عذابي ونذري؟ ونذره إنذاره وهو ما بلغته عنه الرسل من الإنذار وكيف كانت عقوبته للمنذرين.

والإنذار: هو الإعلام بالمخوف، فتبين بذلك صدق ما أخبرت به الرسل من الإنذار وشدة عذابه لمن كذب رسله، وذكر قصة فرعون، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُ آلُ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقَدِّرٌ ۚ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۚ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۚ سَيَهْمُ الْجَمْعُ وَيَوَلُونَ الدُّبُرَ ۚ﴾ [القمر] ا. هـ. (١).

وقال رحمه الله: (وكذلك في سورة «القمر» ذكر هذا وهذا) ١. هـ^(١).

﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعَرَّبٌ ۚ﴾
 وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ
 مُرْدَجَرٌ ۚ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۚ ﴿١﴾

(فقد ذكر الله انشقاق القمر، وبين أن الله فعله، وأخبر به لحكمتين عظيمتين:

أحدهما: كونه من آيات النبوة لما سأله المشركون آية، فأراهم انشقاق القمر.

والثانية: أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك، وأن ذلك دليل على ما أخبرت به
 الأنبياء، من انشقاق السماوات، ولهذا قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ﴾ وَإِن
 يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعَرَّبٌ ۚ ﴿١﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ ﴿٢﴾
 وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ۚ ﴿٣﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۚ ﴿٤﴾ قَوْلٌ عَنْهُمْ
 يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۚ ﴿٥﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَبِرٌ ۚ ﴿٦﴾
 فذكر اقتراب الساعة وانشقاق القمر، وجعل الآية في انشقاق القمر دون الشمس وسائر
 الكواكب، لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم، وكان الانشقاق فيه دون سائر
 أجزاء الفلك، إذ هو الجسم المستنير الذي يظهر فيه الانشقاق لكل من يراه، ظهوراً لا
 يتمارى فيه، وأنه - نفسه - إذا قبل الانشقاق فقبول محله أولى بذلك، وقد عاينه الناس
 وشاهدوه. وكان النبي ﷺ يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار، مثل صلاة الجمعة
 والعيدين، لسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها، والاعتبار بما فيها، وكل
 الناس يقر بذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوماً عند الناس عامة.

وفي صحيح مسلم^(٢): أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: «ما كان يقرأ به
 رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟» فقال: «كان يقرأ بهما ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدُ﴾ وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ ﴿١﴾»
 [ق] و﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ﴾، ومعلوم بالضرورة في مُطَرِدِ العادة، أنه لو لم
 يكن انشقاق القمر لأسرع المؤمنون به إلى تكذيب ذلك، فضلاً عن أعدائه الكفار والمنافقين.
 ومعلوم أنه كان من أحرص الناس على تصديق الخلق له، واتباعهم إياه. فلو لم يكن
 انشقاق القمر لما كان يخبر به ويقرؤه على جميع الناس، ويستدل به، ويجعله آية له.

(١) الاستقامة (٢/ ٢٣٩) ومعنى هذا وهذا (المبدأ والمعاد).

(٢) مسلم (٨٩١).

وفي الصحيحين^(١) عن أنس بن مالك قال: «إن أهل مكة سألوا نبي الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين».

وعنه قال: «إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فانشق القمر فرقتين». ورواه الترمذي، وزاد فيه: فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۖ﴾... إلى قوله تعالى: ﴿... سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، يقول: ذاهب.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شِقَّتَيْنِ، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وعن ابن مسعود أيضاً قال: «رأيت القمر مشقاً شقتين بمكة، قبل مخرج النبي ﷺ شِقَّةً على جبل أبي قُبَيْس، وشقة على السَّوْدَاءِ، فقال كفار قريش - أهل مكة - هذا سحر، سحرهم به ابن أبي كبشة، انظروا السُّفَّارَ فَإِنْ كَانُوا رَأَوْا مِثْلَ مَا رَأَيْتُمْ، فَقَدْ صَدَقَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا رَأَوْا مِثْلَ مَا رَأَيْتُمْ، فَهُوَ سَحَرٌ. قال: فسئل السفار، وقَدِّمُوا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فقالوا: (رأينا). رواه البخاري ومسلم^(٢).

وروى البخاري عن ابن عباس أنه قال: «انشق القمر على زمان رسول الله ﷺ». وروى مسلم عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۖ﴾، قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق القمر فلقتين، فلقه من دون الجبل، وفلقه من خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد»^(٣).

وعن جبير بن مطعم قال: «انشق القمر ونحن بمكة، حتى صار فرقتين على هذا الجبل، وعلى هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد! قال رجل: إن كان سحرهم فلم يسحر الناس كلهم». رواه الترمذي^(٤) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (فمعه من الدلائل الدالة على كذبه ما يبين أن ما معه ليس آية على صدقه، بخلاف معجزات الأنبياء، فإنه لا يمكن أحد من الإنس والجن أن يأتي بنظيرها ولا يبطلها مثل قلب العصا حية لموسى، وإخراج ناقة لصالح من الأرض، وإحياء الموتى للمسيح، وانشقاق القمر وإنزال القرآن وغير ذلك لمحمد ﷺ،

(١) البخاري (٤٨٦٧)، ومسلم (٢٨٠٢). (٢) البخاري (٤٨٦٤)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٣) البخاري (٤٨٦٤)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٤) الترمذي (٣٢٨٩) أحمد (٨١/٤ - ٨٢) والحديث حسن.

(٥) الجواب الصحيح (١٥٩/٦ - ١٦٤).

فإن المشركين لما سألوا النبي ﷺ آية واقترحوا عليه انشقاق القمر فأراهم ذلك .

وقد أخبر الله - تعالى - بذلك في القرآن، فقال - تعالى - : ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعَرَّبٌ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حُكْمُهُ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذَارُ ۚ فَبَدَّلَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ مَعَىٰ نُكْرٍ ۚ خُشْعًا أَيْصَرُّهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَعْدَاتِ ۚ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُّنتَبِرٌ ۚ ۝٧﴾ ، ثم ذكر تعالى ما جرى قبله للمكذبين فذكر قصة قوم نوح وهود وصالح ولوط ثم فرعون وهذه السورة كان النبي ﷺ يقرأ بها في أعظم اجتماعات الناس عنده وهي الأعياد، والناس كلهم يسمعون ما يذكره من انشقاق القمر . وقول المكذبين إنه سحر والناس كلهم المؤمن به، والمنافق، والكافر، يقرون على هذا، لم يقل أحد منهم إن القمر لم ينشق ولا أنكره أحد .

وفي صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، سأل أبا واقد الليثي ما يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر، فقال : « كان يقرأ فيهما بقاف والقرآن المجيد . واقتربت الساعة وانشق القمر »^(١) .

ومعلوم بالضرورة في مطرد العادة أنه لو لم يكن انشقاق القمر لأسرع الناس المؤمنون به إلى تكذيب ذلك فضلاً عن أعدائه من الكفار والمنافقين، لا سيما وهو يقرأ عليهم ذلك في أعظم مجامعهم .

وأيضاً فمعلوم أن محمداً ﷺ كان من أحرص الخلق على تصديق الناس له واتباعهم إياه مع أنه كان أخبر الناس بسياسة الخلق، فلو لم يكن القمر انشق لما كان يخبر بهذا ويقرأه على جميع الخلق ويستدل به ويجعله آية له، فإن من يكون من أقل الناس خبرة بالسياسة لا يتعمد إلى ما يعلم جميع الناس أنه كاذب به فيجعله من أعظم آياته الدالة على صدقه ويقرؤه على الناس في أعظم المجاميع .

وقال : ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ ﴾ بصيغة الفعل الماضي، ولم يقل قامت الساعة ولا ستقوم بل قال اقتربت - أي دنت - وقرئت وانشق القمر الذي هو دليل على نبوة محمد وعلى إمكان انخراق الفلك الذي هو قيام القيامة، وهو سبحانه - قرن بين خبره باقتراب الساعة وخبره بانشقاق القمر، فإن مبعث محمد ﷺ هو من أشراط الساعة

وهو دليل على قربها كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع بين أصبعيه السبابة والوسطى^(١)» وقد قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨].

وعلم الساعة أخفاها الله عن جميع خلقه، كما يذكر ذلك المسيح في الإنجيل أنه لما سئل عنها فقال: إنها لا يعلمها أحد من الناس ولا الملائكة ولا الابن وإنما يعلمها الآب وحده^(٢). وهذا مما يدل على أنه ليس هو رب العالم وكذلك محمد ﷺ أخبر بذلك لما سئل عنها.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُفِذَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي خفيت على أهل السماوات والأرض: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله»^(٣)، فانشقاق القمر كان آية على شيئين: على صدق الرسول، وعلى مجيء الساعة وإمكان انشقاق الفلك؛ فإن المنكرين لقيام القيامة الكبرى قيام الناس من قبورهم لرب العالمين وانشقاق السماوات وانفطارها سواء أقرروا بالقيامة الصغرى وأن الأرواح بعد الموت تنعم أو تعذب، كما هو قول الفلاسفة اللاهيين، أو أنكروا المعاد مطلقاً كما أنكروا ذلك من أنكره من مشركي العرب والفلاسفة الطبيعيين، وغيرهم ينكرون انشقاق السماوات ويزعم هؤلاء الدهرية أن الأفلاك لا يجوز عليها الانشقاق، كما ذكر ذلك أرسطو وأتباعه وزعموا أن الانشقاق يقتضي حركة مستقيمة وهي ممتنعة بزعمهم في الفلك المحدد إذ لا خلاء وراءه عندهم، وهذا لو دل فإنما يدل على ذلك في الفلك الأطلس لا فيما دونه فكيف وهو باطل، فإن الحركة المستقيمة هناك بمنزلة جعل الأفلاك ابتداء في هذه الأحياز التي هي فيها سواء سمي خلاء أو لم يسم كما هو مذكور في غير هذا الموضع.

(١) البخاري (٦٥٠٥) مسلم (٨٦٧).

(٢) في المطبوع من إنجيل متى، الإصحاح (٢٤)، فقرة (٣٦) ما نصه: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلم بهما ولا ملائكة إلا أبي وحده»

(٣) مسلم (٢٥٣٨).

والمقصود هنا أنه تعالى أخبر بانشقاق القمر مع اقتراب الساعة؛ لأنه دليل على إمكان انشقاق الأفلاك وانفطارها الذي هو قيام الساعة الكبرى، وهو آية على نبوة محمد ﷺ الذي هو من أشراط الساعة، والله - تعالى - في كتابه يجمع بين ذكر القيامة الكبرى والصغرى كما في سورة الواقعة ذكر في أولها القيامة الكبرى وفي آخرها القيامة الصغرى، وذلك كثير في سور القرآن مثل سورة ق، وسورة القيامة، وسورة التكاثر، وسورة الفجر، وغير ذلك.

وقد استفاضت الأحاديث بانشقاق القمر ففي الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» وفي لفظ: «ونحن معه يميني»، فقال كفار قريش: سحركم ابن أبي كبشة، فقال رجل منهم: إن محمداً إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا؟ فأتوا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.

وعن أنس بن مالك أنه قال: (سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما، فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ أَتَشَقَّقُ الْقَمَرُ ۖ﴾ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾)، وهذا حديث صحيح مستفيض، رواه ابن مسعود وأنس بن مالك وابن عباس، وهو أيضاً معروف، عن حذيفة قال أبو الفرج بن الجوزي: والروايات في الصحيح بانشقاق القمر، عن ابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنس بن مالك (١) هـ. ١. (٢).

﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۖ﴾ (٧)

(ومنه خشوع البصر وخفضه وسكونه عند تقلبيه في الجهات، كقوله تعالى: ﴿قَتَلُوا مِنْهُمْ يَوْمَ يَلْعَقُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ (١) خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ ﴿٨﴾) هـ. ١. (٣).

قال رحمه الله في معرض كلامه عن السنة الكونية وأنها لا بد لها من أسباب وموانع كسائر ما يحدثه الله من الخوارق: (فإنه لا يحدث شيئاً إلا بإحداث أسباب ودفع موانع.

(٢) (الجواب الصحيح (١/٤١٨ - ٤٢٥).

(١) زاد المسير (٨/٨٨).

(٣) القواعد النورانية (٦٦).

مثال ذلك: غرق قوم نوح، لم يكن ماء وجد بلا سبب، بل أنزل الله ماء السماء، وأنبع الأرض، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ۚ﴾ (١) فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ۖ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَلْجِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ (١٠١ هـ).^(١)

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ (١٤)

(في قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي تجري السفينة بمراى منا، وقيل: بحفظنا) ١٠١ هـ.^(٢)

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٥)

(وقال في سفينة نوح: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١٥) فأخبر أنه أبقى آيات، وهي العلامات والدلالات، فدل ذلك على أن ما يخصه من أخبار المؤمنين وحسن عاقبتهم في الدنيا وأخبار الكفار وسوء عاقبتهم في الدنيا هو من باب الآيات والدلالات التي يستدل بها ويعتبر بها علماً ووعظاً، فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل، ويفيد الترغيب والترهيب، ويدل ذلك على أن الله يرضى عن أهل طاعته ويكرمهم، ويغضب على أهل معصيته ويعاقبهم، كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته، فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل [ويستدل] بأحكام الأفعال على علمه؛ لأن الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل، وبالتخصيص على مشيئته؛ لأن التخصيص مستلزم لإرادته، فكذلك يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على حكمته: لأن تخصيص الفعل بما هو محمود في العاقبة مستلزم للحكمة، ويستدل بتخصيص الأنبياء واتباعهم بالنصر وحسن العاقبة وتخصيص مكذبيهم بالخزي وسوء العاقبة على أنه يأمر ويحب ويرضى ما جاءت به الأنبياء، ويكره ويسخط ما كان عليه مكذبوهم؛ لأن تخصيص أحد النوعين بالإكرام والنجاة والذكر الحسن والدعاء، وتخصيص الآخر بالعذاب والهلاك وقبح الذكر واللعنة: يستلزم محبة ما فعله الصنف الأول، وبغض ما فعله الصنف الثاني) ١٠١ هـ.^(٣)

وقال رحمه الله: (وإذا قص قصصهم قال: (إن في ذلك لآيات) وكان إهلاكهم خرقاً للعادة دل بها على أنه عاقبهم بذنوبهم وتكذيبهم للرسول وأن ما فعلوه من الذنوب مما ينهى عنه ويعاقب فاعله بمثل تلك العقوبة، فهذه خرق عادات لإهانة قوم وعقوبتهم

(٢) بيان تليس الجهمية (١/٨٢).

(١) الجواب الصحيح (٦/٤٠٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/١١٩).

لما فعلوه من الذنوب تجري مجرى قوله عاقبتهم لأنهم كذبوا رسولي وعصوه، ولهذا يقول سبحانه كلما قص قصة من كذب رسله وعقوبته إياهم يقول: ﴿فَكَيفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ كما يقول في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١٤) ﴿١٥﴾ [المؤمنون] و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٦) [الشعراء] و﴿وَنَزَّلْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (١٧) [الذاريات] وإذا كانت تلك العلامات مما جرت عادته أنه يفعلها مع من أرسله ويهلك بها من كذب رسله كانت أبلغ في الدلالة وكانت معتادة في هذا النوع) ا. هـ (١).

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَامِيًا إِلَّا آتَالَ لُوطٌ نِّجْمَتَهُمْ يَسْخَرُ﴾ (٢١).

(قوله تعالى: ﴿إِلَّا آتَالَ لُوطٌ نِّجْمَتَهُمْ﴾، فإن لوطاً دخل فيهم) ا. هـ (٢).

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَلَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾ (٢٢).

(وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ (٢٣) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَلَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿٢٤﴾ أَكْفَرْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٢٥﴾، وقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٢٦) [الدخان]. فهذا يبين أن أولئك إذا كانوا كفاراً وقد عذبناهم، والكفار الذين كذبوا محمداً ليسوا خيراً من أولئك بل هم مثلهم - استحقوا من العقوبة ما استحقه أولئك، ولو كانوا خيراً منهم لم يستحقوا ذلك. فعلم أنه سبحانه يسوي بين المتماثلين، ويفضل صاحب الخير، فلا يسوي بينه وبين من هو دونه) ا. هـ (٣).

﴿أَكْفَرْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٢٦).

(ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته وسنته وأنه لا ينقضها ولا يبدلها ﴿أَكْفَرْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٢٦) يقول فإذا لم يكونوا خيراً منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم هذا بطريق الاعتبار والقياس ثم قال: ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي معكم خبر من الله بأنه لا يعذبكم فنفي الدليلين العقلي والسمعي ثم ذكر قولهم نحن جميع منتصر وأنا نغلب من يغالبنا فقال تعالى: ﴿سَيَبْرَزُ الْجَمْعُ وَيُولَوْنَ أَلْبَرُّ﴾ (٢٧) وهذا مما أنبأه من الغيب في حال ضعف الإسلام واستبعاد عامة الناس ذلك ثم كان كما أخبر) ا. هـ (٤).

(٢) منهاج السنة (٧/ ٢٤١).

(٤) النبوات (٤٢٩).

(١) النبوات (١٣٨ - ١٣٩).

(٣) منهاج السنة (٥/ ١٠٨).

﴿ أَكْفَارًا خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (١٦) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿١٧﴾ سَيَرْجِعُ الْجَمْعُ وَيَقُولُونَ الذُّبُرُ ﴿١٨﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَآمُرُ ﴿١٩﴾

(وقال تعالى: ﴿ أَكْفَارًا خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (١٦) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿١٧﴾ سَيَرْجِعُ الْجَمْعُ وَيَقُولُونَ الذُّبُرُ ﴿١٨﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَآمُرُ ﴿١٩﴾، ذكر هذا في سورة (اقتربت)، التي ذكر فيها انشقاق القمر، وإعراضهم عن الآيات، وقولهم: هذا سحر مستمر، وتكذيبهم واتباعهم أهواءهم، فقال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعْتَبٌ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّنتَقَرٌ ﴿٣﴾ [القمر]، ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ (٤) [القمر].

أي من أنباء الغيب وما أخبر به، ما فيه، مزدجر. أي ما يزرهم عن الكفر، إذ كان في تلك الإنبيات بيان صدق الرسول، والإنذار لمن كذبه بالعذاب، كما عذب المتقدمون ولهذا يقول عقيب القصة: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ [القمر]. أي كيف كان عذابي لمن كذب رسلي، وإنذاري بذلك قبل مجيئه يبين صدق قوله الذي أخبر به الرسل وعقوبته لمن كذبهم.

ثم ذكر قصة المكذبين، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، إلى قوله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ فرعون النذر ﴾ (١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْدِرٌ ﴿٢﴾، فإن قوم فرعون كذبوا بجميع آيات موسى، وجميع آيات الأنبياء قبله، وكذبوا بالآيات الدالة على وجود الرب، وقدرته ومشيبته، إذ كانوا جاحدين للخالق، منكرين له فكذبوا بآياته كلها، ثم قال: ﴿ أَكْفَارًا ﴾ أيها الأمة التي أرسل محمد إليها: ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ ﴾ الذين كذبوا نوحاً وهوداً، وصالحاً، ولوطاً، وموسى: ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (٢) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٣﴾، وذلك أن كونكم لا تعذبون مثل ما عذبوا إذ كذبتم، إما أن يكون لكونكم خيراً منهم، فلا تستحقون مثل ما استحقوا، أو لكون الله أخبر أنه لا يعذبكم، فتكون لكم براءة في الزبر، فتعلمون ذلك بخبره، فإن ما يفعله الله تارة يعلم بخبره، وتارة يعلم بسنته وحكمته وعدله. فإما أن تكونوا علمتم هذا من هذا الوجه، أو من هذا الوجه، هذا إن نظر إلى ما فعل الله الذي لا طاقة للبشر به، وإن نظر إلى قوة الرسول واتباعه فيقولون: ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾، فإنهم أكثر وأقوى. كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِآيَاتِنَا كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًا ﴾ (٧) وَكَذَلِكَ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن

قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَنتَنَا وَرَبِّيَا ﴿٧٦﴾ [مریم]، أي أموالاً ومنظراً، فقال تعالى: ﴿سَمِعْتُمْ لَبْسَهُمْ وَيَبُولُونَ الذُّبُرَ﴾ ﴿٧٧﴾ .

أخبر بهزيمتهم وهو بمكة في قلة من الأتباع وضعف منهم، ولا يظن أحد بالعادة المعروفة أن أمره يظهر ويعلو قبل أن يهاجر إلى المدينة، وقبل أن يقاتلهم.

وكان كما أخبر، فإنهم يوم بدر وغيرها هزم جمعهم ولولوا الأدبار، وتلك سنة الله في المؤمنين والكافرين. قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْيَرُ ثُمَّ لَا جِدُّونَ إِلَيْنَا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٧٨﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٧٩﴾ [الفتح]، وحيث ظهر الكفار، فإنما ذاك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿... أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فإذا كان من تمام الحكمة والرحمة أن لا يهلكهم هلاك استئصال كما أهلك المكذبين، وكانت الآيات التي اقترحوها موجبة لعذاب الاستئصال، كما أهلك الأمم قبلهم، كما قال: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ...﴾ .

كان أن لا يأتي بموجب عذاب الاستئصال، مع إتيانه - سبحانه - بما يقيم الحجة، ويوضح المحجة، أكمل في الحكمة والرحمة، إذ كان ما أتى به من الآيات حصل به كمال الخير، والمنفعة، والهدى، والبيان، والحجة على من كفر، وما امتنع منه دفع من عذاب الاستئصال، والهلاك والعذاب العام ما أوجب بقاء جمهور الأمة حتى يتوبوا، ويؤمنوا، ويهتدوا، وكان في إرسال محمد ﷺ لما كان خاتم الرسل من الحكمة البالغة، والمنن السابغة، ما لم يكن في رسالة رسول غيره صلوات الله عليهم أجمعين) ١. هـ^(١).

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ ﴿٨١﴾ .

(وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ ﴿٨١﴾ و«السعر» من أعظم الشقاء) ١. هـ^(٢).

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿٨٢﴾ .

(وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿٨٢﴾ وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق

الأشياء كل ما سيكون، وهو يخلق بمشيئة فهو يعلمه ويريده، وعلمه وإرادته قائم بنفسه) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (روى ابن أبي حاتم^(٢) عن الضحاك أنه سئل عن قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فقال، قال ابن عباس: إن الله قدر المقادير بقدرته ودبر الأمور بحكمته، وعلم ما العباد صاثرون إليه، ما هو خالق وكائن من خلقه، فخلق الله لذلك جنة وناراً، فجعل الجنة لأوليائه وعرفهم وأحبهم وتولاهم ووفقهم وعصمهم، وترك أهل النار استحوذ عليهم إبليس وأضلهم وأزلهم.

فخلق لكل شيء ما يشاكله في خلقه ما يصلحه من رزقه في بر أو في بحر. فجعل للبعير خلقاً لا يصلح شيء من خلقه على غيره من الدواب. وكذلك كل دابة خلق الله له منها ما يشاكلها في خلقها، فخلقه مؤتلف لما خلقه له غير مختلف.

قال ابن أبي حاتم: ثنا أبي، ثنا يحيى بن زكريا بن مهران المقزاز نا حبان بن عبيد الله قال: سألت الضحاك عن هذه الآية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٣)، قال الضحاك: قال ابن عباس، فذكره.

وقال: حدثنا أبو سعيد الأشج، ثنا طلحة بن سنان، عن عاصم، عن الحسن قال: من كذب بالقدر فقد كذب بالحق. خلق الله خلقاً، وأجل أجلاً، وقدر رزقاً، وقدر مصيبة، وقدر بلاء، وقدر عافية، فمن كفر بالقدر فقد كفر بالقرآن^(٤).

وقال حدثنا الحسن بن عرفة، ثنا مروان بن شجاع الجزري، عن عبد الملك بن جريج، عن عطاء بن أبي رباح قال: أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تكلم في القدر. فقال: أو [قد] فعلوها؟ قلت: نعم. قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾^(٥) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ^(٦) أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم. إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين^(٧) ١. هـ^(٨).

(١) مجموع الفتاوى (٧/٣٨١).

(٢) ابن أبي حاتم غير موجود ولم ينقله لا ابن كثير ولا صاحب الدر.

(٣) لم نجده.

(٤) ابن كثير (٤/٢٦٧) الدر (٦/١٣٧) وعزاه لابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه.

(٥) مجموع الفتاوى (١٦/١٣٧ - ١٣٨).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٧﴾

(قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٧﴾ وفي قوله: ﴿وَلَيْتُمْ لَوِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ٥٨﴾ [الشعراء] فإن المراد بذلك ذكره وكتابتته. و«الزبر» جمع زبور، والزبور فعول بمعنى مفعول أي مزبور أي مكتوب فلفظ الزبور يدل على الكتابة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿كل شيء فعلوه في الزبر﴾ فقد علم أن الذي في الزبر إنما هو الخط المطابق للعلم فبين الأعيان وبين المصحف مرتبتان وهي اللفظ والخط وأما الكلام نفسه فليس بينه وبين الصحيفة مرتبة، بل نفس الكلام يجعل في الكتاب وإن كان بين الحرف الملفوظ والحرف المكتوب فرق من وجه آخر إلا إذا أريد أن الذي في المصحف هو ذكره والخبر عنه مثل قوله تعالى: ﴿وَلَيْتُمْ لَوِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ٥٨﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ٥٩﴾ [الشعراء] إلى قوله: ﴿وَلَيْتُمْ لَوِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ٥٨﴾ أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنُو إِسْرَءِيلَ ٦٠﴾ [الشعراء] فالذي في زبر الأولين ليس هو نفس القرآن المنزل على محمد ﷺ؛ فإن هذا القرآن لم ينزل على أحد قبله ﷺ ولكن في زبر الأولين ذكر القرآن وخبره كما فيها ذكر محمد ﷺ وخبره، كما أن أفعال العباد في الزبر كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٧﴾ فيجب الفرق بين كون هذه الأشياء في الزبر وبين كون الكلام نفسه في الزبر كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْمٌ كَرِيمٌ ٦١﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ٦٢﴾ [الواقعة] وقال تعالى: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ٦٣﴾ فِيهَا كُتِبَ قِسْمَةٌ ٦٤﴾ [البينة] ١. هـ^(٢).

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ٥٥﴾

(وكذا اسم «التقوى» إذا أفرّد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور. قال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله، وهذا كما في قوله: ﴿إِنَّ الْتَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ٥٥﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ٥٥﴾ ١. هـ^(٣).

وقد ذكر من ترجم لشيخ الإسلام أن الختمة الأخيرة لشيخ الإسلام عندما سجن في قلعة دمشق انتهت بنهاية سورة القمر وكأنها خاتمة رحمه الله، والله أعلم.

(٢) الفتاوى (التسعينية) (٥/١١٩).

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٣٨٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/١٦٣).

سورة الرحمن

سبب تكرار قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ آءَالَءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ (١٣):

(وقال شيخ الإسلام في (متشابه القرآن): ذُكِرتْ هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعته، ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها، بعدد أبواب جهنم، وحسن ذكر الآلاء عقبها، لأن من جملة الآلاء، رفع البلاء، وتأخير العقاب. وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلها، بعدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها في الجنتين اللتين هما دون الجنتين الأوليين، أخذاً من قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (١٦) [الرحمن]. فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين من الله، ووقاه السبعة السابقة) ١. هـ (١).

وقال في معنى البيان:

﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (١١)

(قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥) [العلق] والبيان: بيان القلب واللسان، كما أن العمي والبكم يكون في القلب واللسان كما قال تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَهْتَمُونَ﴾ (٦) [البقرة: ١٧١] وقال النبي ﷺ: «هلا سألوا إذا لم يعلموا؟ إنما شفاء العي السؤال» (٢) وفي الأثر: «العي عي القلب لا عي اللسان» أو قال: «شر العي عي القلب» وكان ابن مسعود يقول: «إنكم في زمان كثير فقهاؤه، قليل خطباؤه. وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه» (٣).

(١) ذكره القاسمي في تفسيره (٣٠٥/١٥). (٢) مرّ الكلام عليه.

(٣) مرّ الكلام عليه.

وتبين الأشياء للقلب ضد اشتباهها عليه، كما قال ﷺ: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشبهات - الحديث» وقد قرئ قوله تعالى: ﴿وَلَسْتَينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] بالرفع والنصب، أي ولستين أنت سبيلهم.

فالإنسان يستبين الأشياء، وهم يقولون: قد بان الشيء، وبينته، وتبين الشيء وتبينته، واستبان الشيء واستتبته، كل هذا يستعمل لازماً ومتعدياً. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِبَلَىٰ فَتَبَيَّنْهُ﴾ [الحجرات: ٦] هو هنا متعد، ومنه قوله: ﴿يَفْلَحْشَ مَبِينَهُ﴾ [النساء: ١٩] أي متبينه، فهذا هو لازم والبيان كالكلام، يكون مصدر بان الشيء بياناً، ويكون اسم مصدر لبيّن، كالكلام والسلام لسلم وبين^(١) فيكون البيان بمعنى تبين الشيء. ويكون بمعنى بينت الشيء: أي أوضحتها، وهذا هو الغالب عليه، ومنه قوله ﷺ: «إن من البيان لسحراً»^(٢)، والمقصود ببيان الكلام حصول البيان لقلب المستمع، حتى يتبين له الشيء ويستبين؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَّانٌ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١٣٨] هـ.^(٣)

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ٥٠

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ٥١ مثل حسان الرحا هـ.^(٤)

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ٥٠ فقد قيل: هو من الحساب. وقيل: بحسبان كحسبان الرحا. وهو دوران الفلك. فإن هذا مما لا خلاف فيه، بل قد دل الكتاب والسنة وأجمع علماء الأمة على مثل ما عليه أهل المعرفة من أهل الحساب من أن الأفلاك مستديرة لا مسطحة) هـ.^(٥)

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ٥٢

(وكذلك قالوا في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ٥٢ الأمثال المضروبة والأقيسة العقلية التي تجمع بين التماثلات وتفرق بين المختلفات) هـ.^(٦)

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ٥٣ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٥٤

(وهذا من وضعه تعالى الميزان. قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ٥٣

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب: «الكلام لكلم، والسلام لسلم».

(٢) البخاري (٥١٤٦). (٣) مجموع الفتاوى (٦٣/٩ - ٦٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١٩٤/٢٥). (٥) مجموع الفتاوى (١٤٢/٢٥).

(٦) الرد على المنطقيين (٣٣٣).

أَلَّا تَقْلَقُوا فِي الْيَمِينِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وقال كثير من المفسرين: هو (العدل) وقال بعضهم: (ما يوزن به ويعرف العدل) ا.هـ^(١).

﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٠﴾

(ثم لما سمعت الجن القرآن أتوا إلى النبي ﷺ وآمنوا به وهم جن نصيبين، كما ثبت ذلك في الصحيح من حديث ابن مسعود، وروي أنه قرأ عليهم سورة الرحمن، وكان إذا قال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٠﴾ قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد^(٢)) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وهو سبحانه في سورة الرحمن يقول في عقب كل آية ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٠﴾ وهو يذكر فيها ما يدل على خلقه وعلمه وقدرته ومشيتته وما يدل على إنعامه ورحمته وحكمته) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٠﴾ وآلاؤه هي نعمه، وهي متضمنة لقدرته ومشيتته، كما هي مستلزمة لرحمته وحكمته) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (فإنه سبحانه يقول: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٠﴾ لما يذكر ما يذكره من الآية وقال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ ﴿٥٥﴾ [النجم] والآء: هي النعم؛ والنعم كلها من آياته الدالة على نفسه المقدسة ووحدانيته ونعوته ومعاني أسمائه، فهي آلاء آيات، وكل ما كان من آلائه، فهو من آياته، وهذا ظاهر، وكذلك كل ما كان من آياته فهو من آلائه، فإنه يتضمن التعريف والهداية والدلالة على الرب تعالى، وقدرته وحكمته ورحمته ودينه، والهدى أفضل النعم) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (كل ما خلقه الله فهو نعمة على عباده المؤمنين. يستحق أن يحمده ويشكروه عليه. وهو من آلائه. ولهذا قال في آخر سورة النجم ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ ﴿٥٥﴾ [النجم] وفي سورة الرحمن يذكر ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا قَانٍ﴾ ﴿٦١﴾ [الرحمن] ونحو ذلك. ثم يقول عقب ذلك: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٠﴾؟، وقال آخرون منهم: الزجاج، وأبو الفرج بن الجوزي: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٠﴾ أي من هذه الأشياء المذكورة.

(١) الرد على المنطقيين (٣٨٤).

(٢) الترمذي (٣٢٩١) الحاكم (٤٧٣/٢) ابن جرير (٧٢/٢٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٠٦/١١) (٣٨/١٩). (٤) الفتاوى الأصفهانية (١٣٩/٥).

(٥) تفسير آيات أشكلت (٤٢٢/١). (٦) مجموع الفتاوى (٣١/٨).

لأنها كلها ينعم بها عليكم في دلالتها إياكم على وحدانيته، وفي رزقه إياكم ما به قوامكم.

وهذا قالوه في سورة الرحمن. وقالوا في قوله: ﴿فَإِنِّي ءَالَهُ رَبِّكَ نَسَمَائِي﴾ (٥٥) [النجم] فبأي نعم ربك التي تدل على وحدانيته تتشكك؟ وقيل: تشك وتجادل؟ قال ابن عباس: تكذب؟.

قلت: قد ضمن «تتماري» معنى تكذب، ولهذا عداه بالتاء. فإن التماري: تفاعل من المراء. يقال: تمارينا في الهلال. والمراء في القرآن كفر. وهو يكون لتكذيب وتشكيك.

وقد يقال: لما كان الخطاب لهم. (تتماري) أي يتمارون. ولم يقل: تميراً^(١). فإن التفاعل يكون بين اثنين تماريا. قالوا: والخطاب للإنسان. قيل للوليد بن المغيرة. فإنه قال: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ يَمَّا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ (٣٦) ﴿وَلِيُزْهِمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (١٧) ﴿أَلَا نَزَرُ وَزَرُهُ وَزَرَ نُفْرِي﴾ (٢٨) [النجم] ثم التفت إليه فقال: ﴿فَإِنِّي ءَالَهُ رَبِّكَ نَسَمَائِي﴾ (٥٥) تكذب. كما قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (٧) ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (١٥) ﴿فَإِنِّي ءَالَهُ رَبِّكُمْ نَكْذِبَانِ﴾ (٦٦) [الرحمن]، ففي كل ما خلقه الله إحسان إلى عباده، يحمد عليه حمد شكر. وله فيه حكمة تعود إليه. يستحق لأجلها أن يحمد عليه حمداً يستحقه لذاته.

فجميع المخلوقات: فيها إنعام على العباد، كالثقلين المخاطبين بقوله: ﴿فَإِنِّي ءَالَهُ رَبِّكُمْ نَكْذِبَانِ﴾ (٦٦) من جهة أنها آيات للرب. يحصل بها هدايتهم وإيمانهم الذي يسعدون به في الدنيا والآخرة. فيدلهم عليه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته.

وما يصيب الإنسان، إن كان يسره، فهو نعمة بينة، وإن كان يسوءه، فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياهم، ويثاب بالصبر عليه، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقد قال في الحديث: «والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر. فكان خيراً له» وإذا كان هذا وهذا: فكلاهما من نعم الله عليه.

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «تمتري» كما يستفاد من مجموع الفتاوى (٢٠٨/٨).

وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر.

أما نعمة الضراء: فاحتياجها إلى الصبر ظاهر. وأما نعمة السراء: فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها، فإن فتنه السراء أعظم من فتنه الضراء. كما قال بعض السلف: ابتلينا بالضراء فصبرنا. وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

وفي الحديث: «أعوذ بك من فتنه الفقر، وشر فتنه الغنى»^(١).

والفقر: يصلح عليه خلق كثير. والغنى: لا يصلح عليه إلا أقل منهم.

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنه الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر. لكن لما كان في السراء: اللذة. وفي الضراء: الألم. اشتهر ذكر الشكر في السراء، والصبر في الضراء. قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ۝٩ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود] ولأن صاحب السراء: أحوج إلى الشكر، وصاحب الضراء: أحوج إلى الصبر، فإن صبر هذا وشكر هذا: واجب. إذا تركه استحق العقاب.

وأما صبر صاحب السراء: فقد يكون مستحباً، إذا كان عن فضول الشهوات. وقد يكون واجباً. ولكن لإتيانه بالشكر الذي هو حسنات يغفر له ما يغفر من سيئاته.

وكذلك صاحب الضراء: لا يكون الشكر في حقه مستحباً إذا كان شكراً يصير به من السابقين المقربين. وقد يكون تقصيره في الشكر: مما يغفر له، لما يأتي به من الصبر، فإن اجتماع الشكر والصبر جميعاً: يكون مع تألم النفس وتلذذها، يصبر على الألم. ويشكر على النعم. وهذا حال يعسر على كثير من الناس. ولبسط هذا موضع آخر.

والمقصود هنا: أن الله تعالى منعم بهذا كله، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الابتداء لأكثر الناس. فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه.

وأما ذنوب الإنسان: فهي من نفسه. ومع هذا فهي - مع حسن العاقبة - نعمة، وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان، ولهذا كان من أحسن

الدعاء قوله: «اللهم لا تجعلني عبدة لغيري، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتني مني»^(١). وفي دعاء القرآن ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المتحنة: ٥] كما فيه ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] أي فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم. ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى. و«الآلاء» في اللغة: هي النعم، وهي تتضمن القدرة.

قال ابن قتيبة: لما عدد الله في هذه السورة - سورة الرحمن - نعماءه، وذكر عباده آلاء ونبهم على قدرته. جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين، ليفهم النعم ويقرهم بها.

وقد روى الحاكم في صحيحه والترمذي عن جابر عن النبي ﷺ قال: «قرأ علينا رسول الله ﷺ الرحمن حتى ختمها، ثم قال: ما لي أراكم سكوتاً؟ لَلْجَنُّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدًّا. ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن] إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب. فلك الحمد»^(٢).

والله تعالى يذكر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته ويذكر بآياته التي فيها نعمة وإحسانه إلى عباده. ويذكر بآياته المبينة لحكمته تعالى. وهي كلها متلازمة. فكل ما خلق: فهو نعمة، ودليل على قدرته وعلى حكمته.

لكن نعمة الرزق، والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس ظاهرة لكل أحد، فلهذا يستدل بها، كما في سورة النحل، وتسمى سورة النعم، كما قاله قتادة وغيره.

وعلى هذا: فكثير من الناس يقول: الحمد أعم من الشكر. من جهة أسبابه. فإنه يكون على نعمة وعلى غيره نعمة، والشكر أعم من جهة أنواعه. فإنه يكون بالقلب واللسان واليد.

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة: لم يكن الحمد إلا على نعمة، والحمد لله على كل حال. لأنه ما من حال يقضيها إلا وهي نعمة على عباده.

(١) هذا الدعاء مأثور عن حسان بن عطية رضي الله عنه ذكره أبو نعيم في الحلية (٦/٧٣)، وتهذيب الكمال (٣٩/٦).

(٢) مر تخريجها.

لكن هذا فهم من عرف ما في المخلوقات من النعم. والجهمية والجبرية بمعزل عن هذا.

وكذلك كل ما يخلقه: ففيه له حكمة. فهو محمود عليه باعتبار تلك الحكمة. والجهمية أيضاً بمعزل عن هذا.

وكذلك القدرة الذين يقولون: لا تعود الحكمة إليه. بل ما ثم إلا نفع الخلق. فما عندهم إلا شكر. كما ليس عند الجهمية إلا قدرة.

والقدرة المجردة عن نعمة وحكمة: لا يظهر فيها وصف حمد، كالقادر الذي يفعل ما لا يتفعل به، ولا ينفع به أحداً. فهذا لا يحمد.

فحقيقة قول الجهمية أتباع جهم: أنه لا يستحق الحمد. فله عندهم ملك بلا حمد مع تقصيرهم في معرفة ملكه.

كما أن المعتزلة له عندهم نوع من الحمد بلا ملك تام. إذ كان عندهم يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، وتحدث حوادث بلا قدرته.

وعلى مذهب السلف: له الملك وله الحمد تامين. وهو محمود على حكمته، كما هو محمود على قدرته ورحمته (١) هـ.

وقال شيخ الإسلام:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٧﴾ يَنْتَهَمَا بِرَّحٍ لَا يَتَغَيَّرُ ﴿١٨﴾﴾.

(وهذا من التفسير الذي في تفسير الثعلبي، وذكره بإسناد رواه مجهولون لا يُعرفون، عن سفيان الثوري. وهو كذب على سفيان. قال الثعلبي: أخبرني الحسن بن محمد الدينوري، حدثنا موسى بن محمد بن علي بن عبد الله، قال: قرأ أبي على أبي محمد بن الحسن بن علوية القطان من كتابه وأنا أسمع، حدثنا بعض أصحابنا، حدثنا رجل من أهل مصر يقال له: طسم، حدثنا أبو حذيفة، عن أبيه، عن سفيان الثوري في قوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٧﴾ يَنْتَهَمَا بِرَّحٍ لَا يَتَغَيَّرُ ﴿١٨﴾﴾ قال: فاطمة وعلي، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان: الحسن والحسين.

وهذا الإسناد ظلمات بعضها فوق بعض، لا يثبت بمثله شيء.

ومما يبين كذب ذلك وجوه: أحدهما: أن هذا في سورة الرحمن، وهي مكية بإجماع المسلمين، والحسن والحسين إنما ولدا بالمدينة.

الثاني: أن تسمية هذين بحرين، وهذا لؤلؤاً، وهذا مرجاناً، وجعل النكاح مرجاً - أمر لا تحتمله لغة العرب بوجه، لا حقيقة ولا مجازاً، بل كما أنه كذب على الله وعلى القرآن، فهو كذب على اللغة.

الثالث: أنه ليس في هذا شيء زائد على ما يوجد في سائر بني آدم، فإن كل من تزوج امرأة وولد لهما ولدان فهما من هذا الجنس، فليس في ذكر هذا ما يستعظم من قدرة الله وآياته، إلا ما في نظائره من خلق الآدميين. فلا موجب للتخصيص، وإن كان ذلك لفضيلة الزوجين والولدين، فإبراهيم وإسحاق ويعقوب أفضل من علي.

وفي الصحيح أن النبي ﷺ سئل: أي الناس أكرم؟ فقال: (أتقاهم) فقالوا: ليس عن هذا نسألك. فقال: (يوسف نبي الله. ابن يعقوب نبي الله. ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله)^(١).

وآل إبراهيم الذين أمرنا أن نسأل لمحمد وأهل بيته من الصلاة مثل ما صلى الله عليهم، ونحن - وكل مسلم - نعلم أن آل إبراهيم أفضل من آل علي، لكن محمد أفضل من إبراهيم، ولهذا ورد هنا سؤال مشهور، وهو أنه إذا كان محمد أفضل، فلم قيل: كما صليت على إبراهيم، والمشبه دون المشبه به.

وقد أجيب عن ذلك بأجوبة منها أن يقال: إن آل إبراهيم فيهم الأنبياء، ومحمد فيهم، قال ابن عباس: محمد من آل إبراهيم، فمجموع آل إبراهيم بمحمد أفضل من آل محمد، ومحمد قد دخل في الصلاة على آل إبراهيم، ثم طلبنا له من الله ولأهل بيته مثل ما صلى على آل إبراهيم، فيأخذ أهل بيته ما يليق بهم، ويبقى سائر ذلك لمحمد ﷺ، فيكون قد طلب له من الصلاة ما جعل للأنبياء من آل إبراهيم، والذي يأخذه القاضل من أهل بيته دونه لا يكون مثل ما يحصل لنبي، فتعظم الصلاة عليه بهذا الاعتبار ﷺ. وقيل: إن التشبيه في الأصل لا في القدر.

الرابع: أن الله ذكر أنه مرج البحرين في آية أخرى، فقال في الفرقان: ﴿الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، فلو أريد بذلك علي وفاطمة لكان ذلك ذمّاً لأحدهما، وهذا باطل بإجماع أهل السنة والشيعة.

الخامس: أنه قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (١٣) ﴿فَلَوْ أَرِيدَ بِذَلِكَ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ، كَانَ الْبَرْزَخُ الَّذِي هُوَ النَّبِيُّ ﷺ - بِزَعْمِهِمْ - أَوْ غَيْرِهِ هُوَ الْمَانِعُ لِأَحَدِهِمَا أَنْ يَبْغِيَ عَلَى الْآخَرِ. وَهَذَا بِالذَّمِّ أَشْبَهَ مِنْهُ بِالْمَدْحِ.

السادس: أن أئمة التفسير متفقون على خلاف هذا، كما ذكره ابن جرير وغيره، فقال ابن عباس: بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كل عام، وقال الحسن: مرج البحرين، يعني بحر فارس والروم، بينهما برزخ: هو الجزائر^(١).

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (١٤) قال الزجاج^(٢): إنما يخرج من البحر الملح، وإنما جمعهما لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما، مثل: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وقال الفارسي^(٣): أراد من أحدهما فحذف المضاف، وقال ابن جرير: إنما قال منهما، لأنه يخرج من أصداف البحر عن قطر السماء.

وأما اللؤلؤ والمرجان ففيهما قولان: أحدهما: أن المرجان ما صغر من اللؤلؤ، واللؤلؤ: العظام. قاله الأكثرون، منهم ابن عباس وقتادة والفراء والضحاك. وقال الزجاج: اللؤلؤ اسم جامع للحب الذي يخرج من البحر، والمرجان صغاره، الثاني: أن اللؤلؤ: الصغار، والمرجان: الكبار، قاله مجاهد والسدي ومقاتل. قال ابن عباس: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف أفواهاها، فما وقع فيها من المطر فهو لؤلؤ. وقال ابن جرير: حيث وقعت قطرة كانت لؤلؤة، وقال ابن مسعود: المرجان الخرز الأحمر. وقال الزجاج: المرجان أبيض شديد البياض. وحكى عن أبي يعلى أن المرجان ضرب من اللؤلؤ كالقضب^(٤) ١. هـ^(٥).

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْتَثَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (١٥).

(ولهذا سماها الله أعلاماً في قوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْتَثَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (١٥) قَائِلًا: وَلَهُ رَيْكًا تَكْذِبَانِ﴾ (١٦) أي كالجبال) ١. هـ^(٦).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (١٧).

(لكن إذا انقضى أجلها، وقنيت كما تفتنى الدنيا، لم يبق فيها عذاب، وذلك أن

(١) جمع جزيرة وهي الأرض اليابسة. (٢) زاد المسير (١١٣/٨).

(٣) أي أبو علي الفارسي كما في زاد المسير (١١٣/٨).

(٤) هذا نص في زاد المسير (١١٣/٨). (٥) منهاج السنة (٢٤٦/٧ - ٢٥٠).

(٦) النبوات (١٧٩) والآية كتبت خطأ في الكتاب.

العالم لا يعدم، وجهنم في الأرض، والأرض لا تعدم بالكلية، ولكن فناؤها بتغير حالها، واستحالتها من حال إلى حال كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (١١) هـ. وقال رحمه الله: (وهذا بخلاف قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (١٢) وبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام (١٣)، فإنه حصر كل من عليها، ولم يستثن مع أن هذا المعنى تدل عليه، فإن جميع الأعمال تفنى ولا يبقى منها شيء ينفع صاحبه إلا ما كان لوجه ذي الجلال والإكرام، كما قال مالك: «[١٣]» (١٤) وما كان لله فهو يبقى، وما كان لغير الله لا يدوم ولا يبقى» (١٥) هـ.

وقال رحمه الله: (العالم يستحيل من حال إلى حال فتشقق فتصير وردة كالدهان، وتسير الجبال وتبس بساً، وتلك الأرض، وتسجر البحار، وتنكدر النجوم وتتناثر، وغير ذلك مما أخبر الله به في القرآن، لم يخبر بأنه يعدم كل شيء، بل أخباره المستفيضة بأنه لا يعدم الموجودات.

فقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (١٦) أخبر به بفناء من على الأرض فقط، والفناء يراد به الموت ولا يراد به عدم ذواتهم، فإن الناس إذا ماتوا صارت أرواحهم إلى حيث شاء الله من نعيم وعذاب، وأبدانهم في القبور وغيرها، منها البالي وهو الأكثر، ومنها ما لا يبلى كأبدان الأنبياء، والذي يبلى يبقى منه عجب الذنب، منه بدأ الخلق ومنه يركب) (١٧) هـ.

﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (١٨)

(وقوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فيه ثلاثة أقوال قيل: أهل أن يجل وأن يكرم كما يقال إنه ﴿أَهْلُ الْقَوَى﴾ [المدثر: ٥٦] أي المستحق لأن يتقى. وقيل: أهل أن يُجَلَّ في نفسه [و] أن يكرم أهل ولايته وطاعته، وقيل: أهل أن يجل في نفسه وأهل أن يكرم.

ذكر الخطابي الاحتمالات الثلاثة، ونقل ابن الجوزي (١٩) كلامه فقال: قال أبو سليمان الخطابي: الجلال مصدر الجليل، يقال: جليل بين الجلالة والجلال، والإكرام مصدر أكرم - يكرم - إكراماً، والمعنى أنه يكرم أهل ولايته وطاعته، وأن الله يستحق أن

(١) الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٥٦). (٢) عبارة غير واضحة.

(٣) كلام مالك قريباً منه ذكره السيوطي في تدريب الراوي (٨٩) وعنه الكنتاني في الرسالة المستطرفة (٩).

(٤) تفسير آيات أشكلت (٤١١/١ - ٤١٢). (٥) تفسير آيات أشكلت (٣٤١/١ - ٣٤٢).

(٦) زاد المسير (١١٤/٨).

يجل ويكرم - ولا يجحد ولا يكفر به، قال: ويحتمل أن يكون المعنى: يكرم أهل ولايته ويرفع درجاتهم.

(قلت): وهذا الذي ذكره البغوي^(١) فقال: (ذو الجلال) العظمة والكبرياء (والإكرام) يكرم^(٢) أنبياءه وأوليائه بلطفه مع جلاله وعظمته^(٣)

قال الخطابي: وقد يحتمل أن يكون أحد الأمرين - وهو الجلال - مضافاً إلى الله بمعنى الصفة له، والآخر مضافاً إلى العبد بمعنى الفعل، كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدر: ٥٦] فانصرف أحد الأمرين إلى الله وهو المغفرة، والآخر إلى العباد وهي التقوى^(٤).

قلت: القول الأول هو أقربها إلى المراد، مع أن الجلال هنا ليس جل جلالاً، بل هو اسم مصدر أجل إجلالاً. كقول النبي ﷺ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشبهة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام» ذي السلطان المقسط^(٥)، فجعل إكرام هؤلاء من جلال الله، أي من إجلال الله، كما قال: ﴿وَاللَّهُ أَنْتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاً﴾ [نوح]، وكما يقال: كلمه كلاماً، وأعطاه عطاء، والكلام والعطاء اسم مصدر التكليم والإعطاء.

والجلال قرن بالإكرام، وهو مصدر المتعدي، فكذاك الإكرام.

ومن كلام السلف: (أجلوا الله أن تقولوا كذا) وفي حديث موسى: يا رب، إني أكون على الحال التي أجلك أن أذكرك عليها، قال: (اذكرني على كل حال)^(٦).

وإذا كان مستحقاً للإجلال والإكرام لزم أن يكون متصفاً في نفسه بما يوجب ذلك، كما إذا قال: الإله هو المستحق لأن يؤله، أي يعبد، كان هو في نفسه مستحقاً لما يوجب ذلك. وإذا قيل (هو أهل التقوى) كان هو في نفسه متصفاً بما يوجب أن يكون هو المتقي.

(١) البغوي (٤/٢٤٦).

(٢) البغوي (٤/٢٤٦).

(٣) هذا في زاد المسير (٨/١١٤).

(٥) أبو داود (٤٨٤٣)، البخاري في الأدب المفرد (٣٥٧)، وابن المبارك في الزهد (٣٨٨)،

والشاشي في مسنده (٢٠)، والبيهقي في الشعب (٢٦٨٥)، والبغوي في السنة بدون سند (١٣/

٤٢) والحديث حسنه النووي والذهبي والعراقي وابن حجر.

(٦) الأثر رواه أحمد في الزهد (٦٨)، وابن أبي شيبه (١٢٢٤)، والبيهقي في الشعب (٦٨٠)،

وأبو نعيم في الحلية (٦/٣٧، ٤٢).

ومنه قول النبي ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع بعد ما يقول (ربنا ولك الحمد): «ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(١)، أي هو مستحق لأن يشني عليه وتمجد نفسه.

والعباد لا يحصون ثناء عليه، وهو كما أثنى على نفسه، كذلك هو أهل أن يجل وأن يكرم. وهو سبحانه يجل نفسه ويكرم نفسه، والعباد لا يحصون إجلاله وإكرامه. والإجلال من جنس التعظيم، والإكرام من جنس الحب والحمد وهذا كقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَكْمُ﴾ [التغابن: ١٦]. فله الإجلال والملك، وله الإكرام والحمد.

والصلاة مبناها على التسبيح في الركوع والسجود، والتحميد والتوحيد في القيام والقعود، والتكبير في الانتقالات، كما قال جابر: «كنا مع رسول الله ﷺ، فكنا إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا، فوضعت الصلاة على ذلك»^(٢) رواه أبو داود.

وفي الركوع يقول: «سبحان ربي العظيم» وقال النبي ﷺ: «إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً. أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم»^(٣).

وإذا رفع رأسه حمد فقال: «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» فيحمده في هذا القيام كما يحمده في القيام الأول إذا قرأ أم القرآن.

فالتحميد والتوحيد مقدم على مجرد التعظيم، ولهذا اشتملت الفاتحة على هذا - أولها تحميد، وأوسطها تمجيد، ثم في الركوع تعظيم الرب، وفي القيام يحمده ويشني عليه ويمجده.

فدل على أن التعظيم المجرد تابع لكونه محموداً وكونه معبوداً، فإنه يحب أن يحمد ويعبد، ولا بد مع ذلك من التعظيم، فإن التعظيم لازم لذلك.

وأما التعظيم فقد يتجرد عن الحمد والعبادة على أصل الجهمية. فليس ذلك بمأمور به، ولا يصير العبد به لا مؤمناً، ولا عابداً ولا مطيعاً.

(٢) مر تخريجه.

(١) مسلم (٤٧٧).

(٣) مسلم (٤٧٩).

وأبو عبد الله بن الخطيب الرازي يجعل الجلال للصفات السلبية، والإكرام للصفات الثبوتية، فيسمي هذه «صفات الجلال» وهذه «صفات الإكرام» وهذا اصطلاح له، وليس المراد هذا في قوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٧) وقوله: ﴿بِزَكَّ اسْمُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨) [الرحمن]، وهو في مصحف أهل الشام «تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام». وهي قراءة ابن عامر، فالاسم نفسه يذو بالجلال والإكرام. وفي سائر المصاحف - وفي قراءة الجمهور - (ذي الجلال) فيكون المسمى نفسه.

وفي الأولى ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٧). فالمدوى وجهه سبحانه، وذلك يستلزم أنه هو ذو الجلال والإكرام. فإنه إذا كان وجهه ذا الجلال والإكرام كان هذا تنبيهاً، كما أن اسمه إذا كان ذا الجلال والإكرام كان تنبيهاً على المسمى. وهذا يبين أن المراد أنه يستحق أن يجل ويكرم.

فإن الاسم نفسه يسبح ويذكر ويراد بذلك المسمى. والاسم نفسه لا يفعل شيئاً - لا إكراماً ولا غيره. ولهذا ليس في القرآن إضافة شيء من الأفعال والنعم إلى الاسم. ولكن يقال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) [الأعلى]، ﴿بِزَكَّ اسْمُ رَبِّكَ﴾ ونحو ذلك. فإن اسم الله مبارك تنال معه البركة، والعبد يسبح اسم ربه الأعلى فيقول: (سبحان ربي الأعلى) ولما نزل قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) قال: «اجعلوها في سجودكم» فقالوا: «سبحان ربي الأعلى» (١).

فكذلك كان النبي ﷺ لا يقول: «سبحان اسم ربي الأعلى»، لكن قوله: «سبحان ربي الأعلى» هو تسبيح لاسمه يراد به تسبيح المسمى، لا يراد به تسبيح مجرد الاسم، كقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] فالداعي يقول: (يا الله) (يا رحمن) ومراده المسمى. وقوله: (أَيًّا مَا) أيّ الاسمين تدعو، ودعاء الاسم هو دعاء مسماه.

وهذا هو الذي أراده من قال من أهل السنة: إن الاسم هو المسمى. أرادوا به أن الاسم إذا دعي وذكر يراد به المسمى. فإذا قال المصلي: (الله أكبر) فقد ذكر اسم ربه، ومراده المسمى.

لم يريدوا به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة في الخارج، فإن فساد هذا لا

يخفى على من تصوره، ولو كان كذلك كان من قال (ناراً) احترق لسانه، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود أن الجلال والإكرام مثل الملك والحمد، كالمحبة والتعظيم، وهذا يكون في الصفات الثبوتية والسلبية، فإن كل سلب فهو متضمن للثبوت، وأما السلب المحض فلا مدح فيه.

وهذا مما يظهر به فساد قول من جعل أحدهما للسلب والآخر للإثبات، لا سيما إذا كان من الجهمية الذين ينكرون محبته، ولا يثبتون له صفات توجب المحبة والحمد، بل إنما يثبتون ما يوجب القهر، كالقدرة، فهؤلاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وألحدوا في أسمائه وآياته بقدر ما كذبوا به من الحق، كما بسط هذا في غير هذا الموضع) ١. هـ^(١).

﴿يَسْتَلْهُم مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

(قال تعالى: ﴿يَسْتَلْهُم مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾) فكل أهل السموات والأرض يسألونه، فصارت الدرجات أربعة:

«قوم» لم يعبدوه ولم يستعينوه، وقد خلقهم ورزقهم وعافاهم و«قوم» استعانوه فأعانهم ولم يعبدوه.

و«قوم» طلبوا عبادته وطاعته ولم يستعينوه ولم يتوكلوا عليه.

و«الصف الرابع» الذين عبدوه واستعانوه فأعانهم على عبادته وطاعته، وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقد بين سبحانه ما خص به المؤمنين في قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ١٧] ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ثم قال^(٣) بعد أبواب: باب قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾) و(ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقوله (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وإن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وقال ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إن الله يحدث من أمره ما يشاء وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة». وروى أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب

(١) مجموع الفتاوى (٣١٧/١٦ - ٣٢٤). (٢) مجموع الفتاوى (٣٦/١٤).

(٣) أي البخاري وكل الذي سرده هو في كتاب التوحيد من صحيح البخاري باب (٤٢).

عن كتبهم وعندكم كتاب الله أقرب الكتب عهداً بالله تقرؤونه محضاً لم يشب. وروى
الزهري أخبرني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن عباس قال: يا معشر المسلمين كيف
تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم أحدث الأخبار بالله
محضاً لم يشب وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا فكتبوا
بأيديهم الكتب وقالوا هو من الله ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً أو لا ينهاكم ما جاءكم من
العلم عن مسائلهم فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم) ١. هـ^(١).

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ﴾

(قال مجاهد^(٢) وإبراهيم^(٣): هو الرجل يريد أن يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع
الذنب، رواه ابن أبي الدنيا عن ابن الجعد، عن شعبة، عن منصور، عنهما في قوله
تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ﴾، وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون في قوله
تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۖ﴾ [البقرة] وهم (المؤمنون)
وهم (المتقون) المذكورون في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا ۚ أُولَئِكَ هُمُ السَّادِقُونَ ۖ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۖ﴾ [طه: ١٢٣] وإذا لم يضل فهو متبع مهتد، وإذا لم يشق فهو مرحوم،
وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فإن أهل الرحمة ليسوا مغضوباً عليهم،
وأهل الهدى ليسوا ضالين، فتبين أن أهل رهبة الله يكونون متقين لله، مستحقين لجنته
بلا عذاب، وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب) ١. هـ^(٤).

﴿فَمِنْهُمْ قَصِيرٌ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا ۚ أُولَئِكَ هُمُ السَّادِقُونَ ۖ﴾

(وقد احتج الجمهور بقوله: ﴿لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا ۚ﴾ قالوا: فدل ذلك
على تأتي الطمث منهم لأن طمث الحور العين إنما يكون في الجنة) ١. هـ^(٥).

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ۖ﴾

(وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك رضي الله عنه)

(١) الفتاوى (٨٤/٥). (٢) رواه أحمد في الورع (٤١٩) عن مجاهد.

(٣) في الزهد لأحمد (٣٤٧) عن إبراهيم، والورع له أيضاً (٤١٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٠/٧ - ٢١). (٥) مجموع الفتاوى (٣٩/١٩).

قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (١٠) ثم قال: «هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» (١) ١. هـ (٢).

﴿تَبَارَكَ أَنتُمْ رَبُّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

(وأما قوله: ﴿تَبَارَكَ أَنتُمْ رَبُّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨) ففيها قراءتان: الأكثرون يقرءون (ذو الجلال) فالرب المسمى: هو ذو الجلال والإكرام.

وقرأ ابن عامر: (ذو الجلال والإكرام)، وكذلك هي في المصحف الشامي؛ وفي مصاحف أهل الحجاز والعراق هي بالياء.

وأما قوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٩) [الرحمن] فهي بالواو باتفاقهم، قال ابن الأنباري وغيره (تبارك) تفاعل من البركة، والمعنى أن البركة تكتسب وتنال بذكر اسمه، فلو كان لفظ الاسم معناه المسمى لكان يكفي قوله: ﴿تبارك ربك﴾ فإن نفس الاسم عندهم هو نفس الرب؛ فكان هذا تكريراً.

وقد قال بعض الناس: إن ذكر الاسم هنا صلة، والمراد تبارك ربك؛ ليس المراد الإخبار عن اسمه بأنه تبارك؛ وهذا غلط، فإنه على هذا يكون قول المصلي: تبارك اسمك أي تباركت أنت، ونفس أسماء الرب لا بركة فيها، ومعلوم أن نفس أسمائه مباركة وبركتها من جهة دلالتها على المسمى) ١. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (واحتج أصحابنا في ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ أَنتُمْ رَبُّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨) وهذا هو صفة للمسمى لا صفة لما هو قول وكلام) ١. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وأما احتجاجهم بقوله: ﴿سَبِّحْ أَنتَ رَبُّكَ الْأَعْلَى﴾ (٨٠) [الأعلى] وأن المراد سبح ربك الأعلى وكذلك قوله: ﴿تَبَارَكَ أَنتُمْ رَبُّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨) وما أشبه ذلك فهذا للناس فيه قولان معروفان، وكلاهما حجة عليهم.

منهم من قال: (الاسم) هنا صلة والمراد سبح ربك، وتبارك ربك، وإذا قيل: هو صلة فهو زائد لا معنى له؛ فيبطل قولهم إن مدلول لفظ اسم (ألف سين ميم) هو

(١) البهقي في الشعب (٤٢٧) وضعفه، وعزاه صاحب الدر لابن أبي حاتم وابن مردويه (٦/١٤٩)، والبلغوي (٤/٢٥١)، والواحدي (٤/٢٢٧) وسنده ضعيف.

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/٢٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/١٩٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٦/١٩٠).

المسمى، فإنه لو كان له مدلول مراد لم يكن صلة. ومن قال إنه هو المسمى وأنه صلة، كما قاله ابن عطية؛ فقد تناقض؛ فإن الذي يقول هو صلة لا يجعل له معنى؛ كما يقوله من يقول ذلك في الحروف الزائدة التي تجيء للتوكيد، كقوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] و﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَةً﴾ [المؤمنون: ٤٠] ونحو ذلك.

ومن قال: إنه ليس بصلة، بل المراد تسبيح الاسم نفسه، فهذا مناقض لقولهم مناقضة ظاهرة.

و(التحقيق) أنه ليس بصلة، بل أمر الله بتسبيح اسمه، كما أمر بذكر اسمه، والمقصود بتسبيحه وذكره هو تسبيح المسمى وذكره، فإن للمسيح والذاكر إنما يسبح اسمه ويذكر اسمه، فيقول: سبحان ربي الأعلى، فهو نطق بلفظ ربي الأعلى، والمراد هو المسمى بهذا اللفظ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى، ومن جعله تسبيحاً للاسم يقول المعنى إنك لا تسم به غير الله، ولا تلحد في أسمائه فهذا مما يستحقه اسم الله، لكن هذا تابع للمراد بالآية ليس هو المقصود بها القصد الأول.

وقد ذكر (الأقوال الثلاثة) غير واحد من المفسرين، كالبنغوي قال قوله: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى]، أي قل سبحان ربي الأعلى، وإلى هذا ذهب جماعة من الصحابة، وذكر حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ: «سبح اسم ربك الأعلى» فقال: «سبحان ربي الأعلى».

قلت: في ذلك حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه لما نزل ﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة] قال: (اجعلوها في ركوعكم) ولما نزل: (سبح اسم ربك الأعلى) قال: «اجعلوها في سجودكم» والمراد بذلك أن يقولوا في الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي السجود سبحان ربي الأعلى، كما ثبت في الصحيح عن حذيفة عن النبي ﷺ أنه قام بالبقرة والنساء وآل عمران، ثم ركع نحواً من قيامه يقول: «سبحان ربي العظيم» وسجد نحواً من ركوعه يقول: «سبحان ربي الأعلى».

وفي السنن عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إذا قال العبد في ركوعه: سبحان ربي العظيم ثلاثاً فقد تم ركوعه، وذلك أدناه، وإذا قال في سجوده: سبحان ربي الأعلى ثلاثاً فقد تم سجوده وذلك أدناه»^(١) وقد أخذ بهذا جمهور العلماء.

(١) أبو داود (٨٨٦)، الترمذي (٢٦١)، ابن ماجه (٨٩٠) وهو صحيح.

قال البغوي^(١): وقال قوم: معناه: نزه ربك الأعلى عما يصفه به الملحدون، وجعلوا الاسم صلة، قال ويحتج بهذا من يجعل الاسم والمسمى واحداً؛ لأن أحداً لا يقول سبحان اسم الله وسبحان اسم ربنا إنما يقولون: سبحان الله وسبحان ربنا، وكان معنى ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١] سبِّح ربك (١.هـ)^(٢).

سورة الواقعة

وقال في عموم سورة الواقعة:

(ولهذا يذكر الله في كثير من السور أمر القيّامتين، القيامة الصغرى بالموت، والقيامة الكبرى حين يقوم الناس من قبورهم وتعاد أرواحهم إلى أبدانهم، كما ذكر الله القيّامتين في سورة الواقعة، حيث قال في أولها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَنَسَّ ۖ لَوْعَهَا كَاذِبَةٌ ۖ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ وَسُتِيَ الْجِبَالُ بُسًا ۚ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةٌ ۚ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۚ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۚ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ [الواقعة] ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى لما ذكر أحوال الموتى عند الموت: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۖ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ۚ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۚ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۖ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ۚ وَنَصْلَةٌ بِجَهِيمٍ ۚ﴾ [الواقعة] وهذا غير ما ذكره في أول السورة من انقسامهم يوم القيامة الكبرى إلى سابقين وأصحاب يمين ومكذبين فإنه سبحانه ذكر في أول السورة انقسامهم في القيامة الكبرى وذكر في آخرها انقسامهم عند الموت وهو القيامة الصغرى كما قال المغيرة بن شعبه: من مات فقد قامت قيامته^(٢) وكذلك قال علقمة^(٣) وسعيد بن جبيرة عن ميت: أما هذا فقد قامت قيامته، أي صار إلى الجنة أو النار وإن كان بعد هذا تعاد الروح إلى البدن ويقعد بقبوره ومقصودهم أن الشخص لا يستبطئ الثواب والعقاب فهو إذا مات يكون في الجنة أو في النار قال تعالى عن قوم نوح: ﴿يَمَّا خَطِبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] وقال عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ

(١) الجواب الصحيح (٦/٧ - ٨).

(٢) الطبري في تفسيره (٢٩/١٧٤)، والدولابي أيضاً عن علقمة وعزاه صاحب «المقاصد الحسنة» (ص ٤٢٨) للطبراني ولم أجده في الكبير فلعله في غيره، أما عن سعيد فلم أجده، والله أعلم.

الْقَائِمَةُ أَذِلُّوْا ۖ أَلْ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٦﴾ [غافر] ويسط هذا له موضع آخر (أ. هـ^(١)).

وقال رحمه الله: (وهو سورة الواقعة في السورة الواحدة يذكر «القيامة الكبرى» و«الصغرى» كما في سورة الواقعة، فإنه ذكر في أولها القيامة الكبرى، وأن الناس يكونون أزواجاً ثلاثة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَافٍ ﴿٢﴾ خَافِضَةً رَّافِعَةً ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَسُتِ الْجِبَالُ سُيًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾﴾ [الواقعة]، ثم إنه في آخرها ذكر القيامة الصغرى بالموت، وأنهم ثلاث أصناف بعد الموت، فقال: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٩﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُعْثُورَ ﴿١٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿١٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّاتٌ نَعِيمٌ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٢٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٢٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الواقعة]، فهذا فيه أن النفس تبلغ الحلقوم، وأنهم لا يمكنهم رجوعها، وبين حال المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين حينئذ.

وفي سورة القيامة: ذكر أيضاً القيامة (أ. هـ^(٢)).

وقال رحمه الله: (فإنه سورة الواقعة ذكر في الواقعة القيامة الكبرى في أولها، وذكر القيامة الصغرى في آخرها، فقال في أولها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَافٍ ﴿٢﴾ خَافِضَةً رَّافِعَةً ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَسُتِ الْجِبَالُ سُيًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾﴾ فَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة] فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين كما وصف الله سبحانه ذلك في كتابه في غير موضع.

ثم قال تعالى في آخر السورة: ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلا ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٩﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُعْثُورَ ﴿١٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿١٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّاتٌ نَعِيمٌ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٢١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٢٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٢٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الواقعة].

فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض، يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات؛ ولا الكف عن فضول المباحات.

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حباً تاماً كما قال تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» يعني الحب المطلق، كقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٢﴾ [الفتح] أي أنعم عليهم الأنعام المطلق التام المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ٣﴾ [النساء] فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات، يتقربون بها إلى الله ﷻ فكانت أعمالهم كلها عبادات لله فشربوا صرفاً كما عملوا له صرفاً، والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه، فلم يشربوا صرفاً؛ بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا) ١. هـ^(١).

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ١﴾

قال رحمه الله: (من جملة معاني قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ١﴾، قال بعضهم: السابقون في الدنيا إلى الجمعات هم السابقون في يوم الميز في الآخرة أو كما قال؛ فإنه لم يحضرني لفظه: وتأيد ذلك بقول النبي ﷺ المخرج في الصحيحين: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً والنصارى بعد غداً»^(٢)، فإنه جعل سَبَقَنَا لهم في الآخرة لأجل أنا أوتينا الكتاب من بعدهم فهدينا لما اختلفوا فيه من الحق حتى صرنا سابقين لهم إلى التعبد، فكما سبقناهم إلى التعبد في الدنيا نسبقهم إلى كرامته في الآخرة) ١. هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (١١/١٧٦ - ١٨٠). (٢) البخاري (٦٦٢٤)، مسلم (٨٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٤٠٦).

قال رحمه الله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١١)، أي إلى الأعمال الصالحة في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات في الجنة) ا. هـ (١).

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٢) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٣).

(وقول الشخص: «اللهم صل على محمد في الأولين» ليس هو مأثوراً والمراد بالأولين من قبل محمد ﷺ وبآخرين أمته. قاله الجمهور، وقيل: الأولين والآخرين أمته، والأول أصح.

وقيل ذلك في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٢) وَقِيلَ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٣). ولفظ «الأول» إضافي، فلا شخص إلا وقبله أول وبعده آخر) ا. هـ (٢).

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ (١٤).

(وكذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ (١٤) بِأَكْرَابٍ وَأَكْرَابٍ وَكَلْبٍ مِّنْ سَعِيرٍ﴾ (١٥) إلى قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (١٦) [الواقعة]. والحوار العين لا يطاف بهن، ولكن المعنى: يؤتى بهذا وبهذا، وهم قد يحذفون ما يدل الظاهر على جنسه لا على نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧) [الإنسان]. والمعنى: يعذب الظالمين) ا. هـ (٣).

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (١٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (١٩).

(وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (١٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (١٩) إذ كان كل من القسمين: وهو كونهم خلقوا من غير خالق، وكونهم خلقوا أنفسهم معلوم الانتفاء بالضرورة، فإن الإنسان يعلم بالضرورة أنه لم يحدث من غير محدث وأنه لم يحدث نفسه، فلما كان العلم بأنه لا بد له من محدث، وأن محدثه ليس هو إياه علماً ضرورياً ثبت بالضرورة أن له محدثاً خالقاً غيره، وكل ما يقدر فيه أنه مخلوق فهو كذلك.

والخلق يتضمن الحدوث والتقدير، ففيه معنى الإبداع والتقدير، وإذا علمت أن الممكن لا بد له من مرجح يجب به، وإلا لم يكن موجوداً بل يبقى معدوماً على أصح القولين، أو متردداً بين الوجود والعدم على الآخر، فالمحدث لا بد له من فاعل يستغني به المفعول فيكون به، وإلا بقي مفتقراً إلى غيره، وإذا قدر محدثه أيضاً فهو أيضاً

(٢) مختصر الفتاوى المصرية (١٧٨).

(١) شرح العمدة - الصلاة (١٩٠).

(٣) منهاج السنة (١٧٥/٤).

محدث لم يستغن به، لأن ذلك المحدث مفتقر إلى غيره، فالمفتقر إليه مفتقر إلى ذلك الغير، الذي [هو] الأول مفتقراً إليه بطريق الأولى، فلا توجد الحوادث إلا بفاعل غني عن غيره، وكل محدث مفتقر إلى غيره فلا توجد الحوادث إلا بفاعل قديم غير محدث، فهذه طرق متعددة يثبت بها الموجود الواجب بنفسه القديم) ١. هـ^(١).

﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْنَلَكُمْ وَنُسَيْتَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ١١.

(ولهذا قال: ﴿عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْنَلَكُمْ وَنُسَيْتَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ١١) قال الحسن بن الفضل البجلي^(٢): الذي عندي في هذه الآية ﴿وَنُسَيْتَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ١١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ أي أخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون، كيف شئت، وذلك أنكم علمتم النشأة الأولى، كيف كانت في بطون الأمهات، وليست الأخرى كذلك، ومعلوم أن النشأة الأولى كان الإنسان نطفة، ثم علقه، ثم مضغه مخلقة، ثم ينفخ فيه الروح، وتلك النطفة من مني الرجل والمرأة، وهو يغذيه بدم الطمث الذي يربي الله به الجنين في ظلمات ثلاث: ظلمة المشيمة، وظلمة الرحم، وظلمة البطن، والنشأة الثانية لا يكونون في بطن امرأة، ولا يغذون بدم، ولا يكون أحدهم نطفة رجل وامرأة، ثم يصير علقه بل ينشئون نشأة أخرى، وتكون المادة من التراب، كما قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ٣٥ [طه] وقال تعالى: ﴿فِيهَا نَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٥] وقال: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ ٧٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ٧٨ [نوح] وفي الحديث: «إن الأرض تمطر مطراً كمني الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات» كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] ﴿كَذَٰلِكَ الْشُّورُ﴾ [فاطر: ٩] ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس، يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ، وجعل مثله أيضاً. فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله. وهكذا كل ما أعيد. فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ والمعاد، سواء في ذلك إعادة الأجسام والأعراض كإعادة الصلاة وغيرها، فإن النبي ﷺ مر برجل يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة^(٣). ويقال للرجل: أعد كلامك، وفلان قد أعاد كلام فلان بعينه،

(١) درء تعارض العقل (٣/ ١١٣ - ١١٤). (٢) كذا في الأصل، ولعله الحسين بن الفضل.

(٣) وهو حديث: «لا صلاة لمنفرد خلف الصف»، والحديث صحيح.

ويعيد الدرس فالكلام هو الكلام وإن كان صوت الثاني غير صوت الأول وحركته، ولا يطلق القول عليه إنه مثله، بل قد قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِبَيِّنٍ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] وكان رسول الله ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً.

وإن كان يسمى مثلاً مقيداً حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان، أي مثل هذا قال، ويقال فعل هذا عوداً على بدء، إذا فعله مرة ثانية بعد أولى، ومنه البش البدي، والبش العادي، فالبدي التي ابتدئت، والعادي التي أعيدت، وليست بنسبة إلى عاد. كما قيل ويقال استعدته الشيء فأعاده إذا سأله أن يفعله مرة ثانية، ومنه سميت العادة، يقال: عادته واعتاده وتعوده أي صار عادة له وعود كلبه الصيد فتعوده، وهو من المعاودة، والمعاودة الرجوع إلى الأمر الأول، ويقال الشجاع معاود؛ لأنه لا يمل المراس. وعادته الحمى وعادوه بالمسألة إن سأله مرة بعد مرة، وتعاود القوم في الحرب وغيرها إذا عاد كل فريق إلى صاحبه، والعواد بالضم ما أعيد من الطعام، بعد ما أكل مرة أخرى، وعَوَادٍ بمعنى عُدْ مثل نَزَالٍ بمعنى انزَلْ.

ففي جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة باعتبار الحقيقة؛ فإن الحقيقة الموجودة في المرة الثانية هي الأولى، وإن تعدَّد الشخص، ولهذا يقال: هو مثله، ويقال: هذا هو هذا، وكلاهما صحيح، وأعني بالحقيقة الأمر الذي يختص بذلك الشخص، ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين، فإن من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده، وإنما يقال: حاكاه وشابهه، بخلاف ما إذا أعاد فعلاً ثانياً مثل ما فعل أولاً فإنه يقال: أعاد فعله، وكذلك يقال لمن أعاد كلام غيره: قد أعاده، ولا يقال لمن أنشأ مثله: قد أعاده، ويقال: قرئ على هذا، وأعاده على هذا، وهذا يقرأ أي يدرس، وهذا يعيد، ولو كان كلاماً آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد، وكذلك من كسر خاتماً أو غيره من المصوغ يقال: أعده كما كان ويقال: من هدم داراً أعادها كما كانت، بخلاف من أنشأ أخرى مثلها، فإن هذا لا يسمى معيداً، والمعاد يقال فيه: هذا هو الأول بعينه، ويقال هذا مثل الأول من كل وجه، ونحو ذلك من العبارات الدالة على أنه هو هو من وجه وهو مثله من وجه.

وبهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضع، كقول من قال: الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان ونحو ذلك مما يمنع إعادته في صريح العقل، وإنما يعاد

بالإتيان بمثله، وإن قال بعض المتكلمين إنه لا مغايرة أصلاً بوجه من الوجوه.

والإعادة التي أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب، وهي الإعادة التي فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله ﷺ، وهي التي يدل عليها لفظ الإعادة، والمعاد هو الأول بعينه وإن كان بين لوازم الإعادة، ولوازم البدأة فرق، فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول ليس الجسد الثاني مبيناً للأول من كل وجه، كما زعم بعضهم، ولا أن النشأة الثانية كالأولى من كل وجه، كما ظن بعضهم، وكما أنه سبحانه خلق الإنسان، ولم يكن شيئاً، كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئاً، وعلى هذا فالإنسان الذي صار تراباً ونبت من ذلك التراب نبات آخر أكله إنسان آخر، وهلم جرأً، والإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان، وأكل ذلك الحيوان إنساناً^(١) آخر، ففي هذا كله قد عُدِمَ هذا الإنسان وهذا الإنسان، وصار كل منهما تراباً كما كان قبل أن يخلق، ثم يعاد هذا ويعاد هذا من التراب، وإنما يبقى عجز الذنب، منه خلق ومنه يركب.

وأما سائرته فعدم، فيعاد من المادة التي استحال إليها، فإذا استحال في القبر الواحد ألف ميت، وصاروا كلهم تراباً، فإنهم يعادون ويقومون من ذلك القبر، وينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدماً محضاً كما أنشأهم أولاً بعد أن كانوا عدماً محضاً، وإذا صار ألف إنسان تراباً في قبر، أنشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التي خلقهم منها من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، وجعل نشأتهم بما يستحيل إلى أبدانهم من الطعام والشراب، كما يستحيل إلى بدن أحدهم ما يأكله من نبات وحيوان، وكذلك لو أكل إنساناً، أو أكل حيواناً قد أكل إنساناً: فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الاستحالة، بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة إلى علقه إلى مضغة، ومن غير أن يغذوها بدم الطمث ومن غير أن يغذوها بلبن الأم ويسائر ما يأكله من الطعام والشراب، فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التي استحالت إلى أبدانهم فقد غلط.

وحيتئذ إذا أكل إنسان إنساناً فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية وهو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية، ومعلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاماً وشراباً، ثم يصير كلوساً كالثرثرة ثم كيموساً كالحريرة، ثم ينطبخ دماً فيقسمه الله تعالى في البدن كله، ويأخذ كل

جزء من البدن نصيبه، فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظيم عظماً، واللحم لحماً، والعرق عرقاً، وهذا في الرزق كاستحالتهم في مبدأ الخلق نقطة ثم علقه، ثم مضغة. وكما أنه سبحانه لا يحتاج في الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نقطة، ثم علقه، ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها خبزاً وفاكهة ولحماً ثم يجعلها كلوساً وكيموساً، ثم دماً، ثم عظماً ولحماً وعروفاً، بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى، لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة، كما قال: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذا الاستحالات التي كانت في النشأة الأولى (١) هـ.

﴿عَآئِمْ أَنزَلْنَاهُ مِنَ الْمَزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٦٩).

(لكن قد صرح في موضع آخر بنزوله من السحاب، كما في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٦٩) والمزن: السحاب) (٢) هـ.

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٠).

(وقد احتج كثير من أصحابنا على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٠) كما ذكرنا عن سلمان، وبنوا ذلك على أن الكتاب هو المصحف بعينه وأن قوله لا يمسه صيغة خبر في معنى الأمر لئلا يقع الخبر بخلاف مخبره وردوا قول من حمله على الملائكة فإنهم جميعهم مطهرون وإنما يمسه ويطلع عليه بعضهم.

والصحيح اللوح المحفوظ الذي في السماء مراد من هذه الآية، وكذلك الملائكة مرادون من قوله المطهرون لوجوه:

أحدها: إن هذا تفسير جماهير السلف من الصحابة ومن بعدهم حتى الفقهاء الذين قالوا: لا يمس القرآن إلا طاهر من أئمة المذاهب صرحوا بذلك وشبهوا هذه الآية بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) [عبس].

وثانيها: أنه أخبر أن القرآن جميعه في كتاب، وحين نزلت هذه الآية لم يكن نزل إلا بعض المكي منه ولم يجمع جميعه في المصحف إلا بعد وفاة النبي ﷺ.

وثالثها: أنه قال في كتاب مكنون، والمكنون المصون المحرر^(٣) الذي لا تناله أيدي المضلين فهذه صفة اللوح المحفوظ.

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٢٥٢ - ٢٥٧).

(٢)

منهاج السنة (٤/١٧٥).

(٣) لعلها: المحرز.

ورابعها: أن قوله: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٦) صفة للكتاب ولو كان معناها الأمر لم يصح الوصف بها وإنما يوصف بالجملة الخبرية.

وخامسها: أنه لو كان معنى الكلام الأمر، لقليل فلا يمسّه لتوسط الأمر بما قبله.

وسادسها: أنه لو قال المطهرون وهذا يقتضي أن يكون تطهيرهم من غيرهم ولو أريد طهارة بني آدم فقط لقليل المطهرون.

كما قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [التوبة:

١٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وسابعها: أن هذا مسوق لبيان شرف القرآن وعلوه وحفظه، وذلك بالأمر الذي قد ثبت واستقر أبلغ منه بما يحدث ويكون. نعم الوجه في هذا والله أعلم أن القرآن الذي في اللوح المحفوظ هو القرآن الذي في المصحف كما أن الذي في هذا المصحف هو الذي في هذا المصحف بعينه سواء كان المحل ورقاً أو أديماً أو حجراً أو لحافاً، فإذا كان من حكم الكتاب الذي في السماء أن لا يمسّه إلا المطهرون وجب أن يكون الذي في الأرض كذلك لأن حرمة كحرمة أو يكون الكتاب اسم جنس يعم كل ما فيه القرآن سواء كان في السماء أو الأرض وقد أوحى إلى ذلك قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (٢) ﴿فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ﴾ (٣) [البينة] وكذلك قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ (٧٢) ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ (٧٣) [عبس] فوصفها أنها مطهرة فلا يصلح للمحدث مسها وكذلك لا يجوز أن يمس بعضو عليه نجاسة ولو غسل المتوضئ بعض أعضائه لم يجز له مسها حتى يكمل طهارته ولو كانت النجاسة على عضو جاز مسه بغيره لأن حكم النجاسة لا يتعدى محلها، ويجوز بالتيمم حيث يشرع كما يجوز بالتوضؤ. فأما إن حمله بعلاقته أو بحائل له منفصل منه لا يتبعه في الوصية والإقرار وغيرهما كغلافه أو حائل مانع للحامل كحمله في كفه من غير مس أو على رأسه أو في ثوبه أو تصفحه بعود أو مسه به جاز في ظاهر المذهب. وعنه لا يجوز لأنه إنما منع من مسه تعظيماً لحرمة وإذا تمكن من ذلك بحائل زال التعظيم، وحكى بعض أصحابنا رواية أنه إنما يحرم مسه بكفه وما يتصل به لأن كفه وثيابه متصلة به عادة فأشبهت أعضائه بخلاف العود والغلاف، وحكى الآمدي رواية يجوز حمله بعلاقته وفي غلافه دون تصفحه بكفه أو عود. ولنا أنه لم يمسّه فيبقى على أصل الإباحة لا سيما ومفهوم قوله ﷺ: «لا يمس

القرآن إلا طاهر»^(١) جواز ما سوى المباشرة وليس المس من وراء حائل كالمباشرة بدليل نقض الوضوء وانتشار حرمة المصاهرة به والفدية في الحج وغير ذلك، والعلاقة وإن اتصلت به فليست منه إنما يراد لتعليقه وهو مقصود زائد على مقصود المصحف بخلاف الجلد فإنه يراد لحفظ ورق المصحف وصونه، وتجوز كتابته من غير مس الصحيفة كتصفحه بعود ولأن الصحابة استكتبوا أهل الحيرة المصاحف وقيل: لا يجوز الكتابة وإن أجزنا تقليبه بالعود، وقيل: يجوز للمحدث دون الجنب كالتلاوة.

وما فيه شيء من القرآن حكمه حكم المصحف إن كان مفرداً، فإن كتب مع القرآن غيره فالحكم للأغلب فيجوز مس كتب التفسير والحديث والفقه والرسائل التي فيها شيء من القرآن في المشهور عنه؛ لأنها ليست مصحفاً، وقد كتب النبي ﷺ إلى أهل الكتاب بكتاب فيه قرآن، وكان يكتب في صدر كتبه إلى أهل النواحي بسم الله الرحمن الرحيم، ولأن ما فيها من القرآن لا يثبت لها حرمة المصحف بدليل جواز بيعها وشرائها وعموم الحاجة إلى مسها. ويجوز مس ما كتب فيه المنسوخ والتوراة والإنجيل في المشهور من الوجهين، وكذلك مس ما فيه الأحاديث المأثورة عن الله تعالى لأن ذلك ليس هو القرآن، وفي مس الدراهم المكتوب عليها القرآن روايتان. وفي مس الصبيان ألواحهم المكتوب فيها القرآن وجهان وقيل: روايتان. ووجه الرخصة عموم الحاجة إلى ذلك، ولا يجوز تمليكه من كافر ولا السفر به إلى بلادهم. لما روى عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو»^(٢) رواه أحمد ومسلم ولو ملك الذمي مصحفاً بالإرث ألزم بإزالة ملكه عنه لأنهم يتدينون بانتهاكه وانتقاص حرمة) ١. هـ^(٣).

قال ابن القيم:

(فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: لكن تدل الآية بإشارتها على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر. لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلا المطهرون، لكرامتها على الله. فهذه الصحف أولى أن لا يمسها إلا طاهر. وسمعتة يقول في قول النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة»^(٤)

(١) حديث عمرو بن حزم مشهور ضعفه بعض أهل العلم، والصحيح أنه ثابت صحيح وقد تكلم محقق الإحسان لابن حبان بنفس طويل لإثبات صحته.

(٢) مسلم (١٨٦٩). (٣) شرح العمدة - الطهارة (٣٨٣ - ٣٨٦).

(٤) البخاري (٣٢٨/١٠ - الفتح)، مسلم (٢٦٠٦).

إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت. فكيف تلج معرفة الله ﷻ، ومحبه وحلاوة ذكره، والأنس بقربه، في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها؟ فهذا من إشارة اللفظ الصحيحة.

ومن هذا: أن طهارة الثوب الطاهر والبدن إذا كانت شرطاً في صحة الصلاة والاعتداد بها، فإذا أخل بها كانت فاسدة. فكيف إذا كان القلب نجساً، ولم يطهره صاحبه؟ فكيف يعتد له بصلاته، وإن أسقطت القضاء؟ وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن؟.

ومن هذا: أن استقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها. وهي بيت الرب، فتوجه المصلي إليها بيدنه وقلبه شرط، فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة والبدن؟ بل وجه بدنه إلى البيت. ووجه قلبه إلى غير رب البيت، وأمثال ذلك من الإشارات الصحيحة التي لا تنال إلا بصفاء الباطن، وصحة البصيرة، وحسن التأمل، والله أعلم) ١. هـ^(١).

قال ابن القيم:

(وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر، فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، إذا كان المصحف التي في السماء لا يمسه إلا المطهرون، فكذلك المصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسه إلا طاهر. والحديث مشتق من هذه الآية) ١. هـ^(٢).

﴿وَيَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٧)

(وفيه عن ابن عباس^(٣) عن النبي ﷺ: ﴿وَيَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٧) قال: هو الاستسقاء بالأنواء؛ أو كما قال) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (أي تجعلون شكركم على نعمة الله أنكم تضيفونها إلى غيره بقولكم: «مطرنا بنوء كذا وكذا») ١. هـ^(٥).

(١) مدارج السالكين (٢/٤١٧ - ٤١٨).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (٢٢٧)، ويقصد بالحديث حديث «لا يمسه القرآن إلا طاهر».

(٣) ابن جرير (٢٧/٢٠٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/١٩٤).

(٥) جامع المسائل (٣/٢٨٥).

وقال رحمه الله: (وفي النعم قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي شكركم، وشكر ما رزقكم الله، ونصيبكم تجعلونه تكديباً وهو الاستقساء بالأنواء، كما ثبت في حديث ابن عباس الصحيح قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَا أَقْسِدُ بَمَوْقِعِ الْجُبُورِ﴾ (٧٥) [الواقعة] - حتى بلغ - ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٧) رواه مسلم (١) ١. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وهذا المعنى قد روي في قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي تجعلون شكركم وشكر ربكم التكذيب بإنعام الله، وإضافة الرزق إلى غيره كالأنواء، كما ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر - قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَا أَقْسِدُ بَمَوْقِعِ الْجُبُورِ﴾ (٧٥) [الواقعة] - حتى بلغ - ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٧).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين - ينزل الله الغيث فيقولون: الكواكب كذا وكذا - وفي رواية «بكوكب كذا وكذا».

وروى ابن المنذر في تفسيره: ثنا محمد بن علي - يعني الصائغ، ثنا سعيد هو ابن منصور، ثنا هشيم، أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه كان يقرأ (وتجعلون) شكركم أنكم تكذبون يعني الأنواء. وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً، وكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٧) (٣).

وروى ابن أبي حاتم، عن عطاء الخرساني، عن عكرمة، في قول الله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (٨٧) قال: تجعلون رزقكم من عند غير الله تكديباً، وشكراً [لغيره] (٤) ١. هـ (٥).

(١) رواه البخاري (٤١٤٧) ومسلم (٧١). (٢) مجموع الفتاوى (٣٢/٨ - ٣٣).

(٣) قال صاحب الدر (١٦٢/٦). أخرج أبو عبيدة في فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وذكره.

(٤) لم أجده في الدر المنثور ولا ابن كثير. (٥) مجموع الفتاوى (١٥٠/١٦ - ١٥١).

﴿قُلْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٧).

(وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿قُلْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٧) وَأَنْتُمْ حَبِيلٌ نَّظُرُونَ (٨٨) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٩) فلو أراد قرب ذاته لم يخص ذلك بهذه الحال. ولا قال: (ولكن لا تبصرون)؛ فإن هذا إنما يقال إذا كان هناك من يجوز أن يبصر في بعض الأحوال ولكن نحن لا نبصره، والرب تعالى لا يراه في هذه الحال؛ لا الملائكة ولا البشر.

وأيضاً فإنه قال: ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾؛ فأخبر عمن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده في هذه الحال. وذات الرب عز وجل إذا قيل: هي في مكان، أو قيل: قريبة من كل موجود؛ لا يختص بهذا الزمان والمكان والأحوال؛ ولا يكون أقرب إلى شيء من شيء.

ولا يجوز أن يراد به قرب الرب الخاص كما في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فإن ذاك إنما هو قربه إلى من دعاه أو عبده، وهذا المحتضر قد يكون كافراً أو فاجراً أو مؤمناً أو مقرباً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمَكِيدِينَ الْفَضَالِينَ (٩٢) فَزَلٌّ مِنَ جَحِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ (٩٤)﴾ [الواقعة] ومعلوم أن مثل هذا المكذب لا يخصصه الرب بقربه منه دون من حوله، وقد يكون حوله قوم مؤمنون، وإنما هم الملائكة الذين يحضرون عند المؤمن والكافر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَيَّ رَجِعُكُمْ تَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال: ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْآوْدِيِّ﴾ [ق: ١٦] وهذا كقوله سبحانه: ﴿تَتَلَوَّا عَلَيْهِكَ مِنْ بَنِي مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٢٨] وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا

أَرْجَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴿يوسف: ٣﴾ وقال: ﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغَ قُرْآنُهُ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٩﴾﴾ [القيامة].

فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره الله تعالى في كتابه دل على أن المراد أنه سبحانه يفعل ذلك بجنوده وأعوانه من الملائكة؛ فإن صيغة (نحن) يقولها المتبوع المطاع العظيم الذي له جنود يتبعون أمره، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم، وهو خالقهم وربهم، فهو سبحانه العالم بما توسوس به نفسه، وملائكته تعلم؛ فكان لفظ (نحن) هنا هو المناسب) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال في آخر السورة: ﴿قُلْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾﴾ فهذا تفصيل لحال الموت. كما أن أول السورة لذكر القيامة) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال^(٣)): وكذلك الجواب في قوله فيمن يحضره الموت ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي بالعلم به والقدرة عليه، إذ لا يقدرُونَ له على حيلة ولا يدفعون عند الموت وقد قال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] وقال تعالى: ﴿قُلْ بِتَوَفَّيْكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

قلت: وهكذا ذكر غير واحد من المفسرين مثل الثعلبي وأبي الفرج بن الجوزي^(٤) وغيرهما في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وأما في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ فذكر أبو الفرج القولين: أنهم الملائكة، وذكره عن أبي صالح عن ابن عباس، وأنه القرب بالعلم.

وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات الباري جل وعلا قريبة من وريد العبد ومن الميت، ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون قرب الملائكة فسروا ذلك بالعلم والقدرة كما في لفظ المعية، ولا حاجة إلى هذا؛ فإن المراد بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي بملائكتنا في الآيتين، وهذا بخلاف لفظ المعية؛ فإنه لم يقل: ونحن معه، بل جعل نفسه هو الذي مع العباد وأخبر أنه ينبتهم يوم القيامة بما عملوا، وهو نفسه الذي خلق السموات والأرض، وهو نفسه الذي استوى على العرش، فلا يجعل لفظ مثل لفظ مع تفريق القرآن بينهما) ا.هـ^(٥).

(١) مجموع الفتاوى (٥٠٥/٥ - ٥٠٧). (٢) مختصر الفتاوى المصرية (١٨٤).

(٣) أي أبو عمرو الطلمنكي وكتابه في السنة مفقود.

(٤) زاد المسير (١٥٥/٨). (٥) مجموع الفتاوى (٥٠١/٥ - ٥٠٢).

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٨٥).

(وكل إنسان معه قرينه من الملائكة، وقرينه من الجن، وهو - نفسه - لا يرى ذلك، ولا يراه من حوله.

وتحضره الملائكة وقت الموت، ولا يراهم من حوله، مع أنه هو يراهم، قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُومَ (٨٦) وَأَنْتُمْ حِلِيلٌ تَنْظُرُونَ (٨٥) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٤) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٨٧).

فإذا كانت هذه المخلوقات، التي اتفق أهل الملل على اقترانها بالإنسان واتصالها بهم، وأن رؤيتها ممكنة، لا يراها الناس، فكيف يقال: إن المسيح الذي لم ير الناس منه إلا ما رأوه من أمثاله من الرسل كإبراهيم، وموسى، ولم يكن له قط شيء يتميز به عن جنس الرسل، فكيف يقال: إن الذين رأوه، رأوا الله عياناً بأبصارهم؟) ١. هـ^(١).

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦).

(وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٨٧)، أي مقهورين، ومدبرين، ومجزيين) ١. هـ^(٢).

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٩٦).

(وأيضاً: فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٩٦) قال رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم ولما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (٩٦) [الأعلى] قال: اجعلوها في سجودكم». رواه أبو داود، وابن ماجه^(٣).

فأمر النبي ﷺ بجعل هذين التسيحين في الركوع والسجود، وأمره على الوجوب. وذلك يقتضي وجوب ركوع وسجود تبعاً لهذا التسيح. وذلك هو الطمأنينة) ١. هـ^(٤).

(٢) جامع الرسائل (٢/ ٢٢٠).

(٤) القواعد النورانية (٦٢).

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٢٨٨).

(٣) مَرّ تخريجه وهو حديث حسن.

سورة الحديد

وفي أوائل سورة الحديد قال:

كذلك أول سورة الحديد إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] هي من آيات الصفات) ١. هـ^(١).

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

(وقوله [سبحانه]: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وسبِّح إخبار عن ماضٍ وآتٍ، وإعلام لنا أن كل شيء يسبح بحمده، ويسجد لعظمته، ويعترف بألوهيته ووحدانيته، ولا يجوز أن تسجد الأشياء وتسبح لمجهول. وكذلك اعترافها بفضائل رسله، وما واستفاض^(٢) من مخاطبات الجمادات له صلى الله عليه وسلم، وسلامها عليه، وحنينها إليه، ومخاطبة الأنعام والوحوش، والطير، والصغار في المهود، وغير ذلك) ١. هـ^(٣).

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

(وقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فبين أن الملك له، ثم قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣). وفي الصحيح: «أنت الأول فليس قبلك شيء... إلخ»^(٤).

فإذا كان هو الأول: كان هناك ما يكون بعده، وإذا كان آخراً كان هناك ما الرب بعده، وإذا كان ظاهراً ليس فوقه شيء كان هناك ما الرب ظاهر عليه، وإذا كان باطناً ليس دونه شيء كان هناك أشياء نفى عنها أن تكون دونه) ١. هـ^(٥).

(وقال الله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) فجميع ما

(١) الفتاوى التسعينية (٦/٥).

(٢) هكذا بالأصل ولعل الواو زائدة والصحيح وما استفاض.

(٣) درء تعارض العقل (٨/٥٠٥ - ٥٠٦). (٤) مسلم (٢٧١٣).

(٥) مجموع الفتاوى (١٢٣/٥).

في السموات والأرض يسبح الله؛ ليس هو الله، ثم قال تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ بِحَيْثُ وَهَيْبَتِهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ يَكُلُّ
شَيْءٌ عَالِمٌ (٢)، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللهم
رب السموات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى،
منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت
الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك
شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر» (٣) ثم
قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ (٤) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ
السَّمَاءِ وَمَا يَصْعَدُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٥) فذكر أن
السموات والأرض - وفي موضع آخر - (وما بينهما) مخلوق مسبح له، وأخبر سبحانه
أنه يعلم كل شيء.

وأما قوله (وهو معكم) فلفظ (مع) لا تقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيتين
مختلطاً بالآخر كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وقوله تعالى:
﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ
بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ولفظ (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة، ف(العامة) في هذه الآية وفي آية
المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ
رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ
يَلْبِسُهُمْ بِيَا عَيْلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ (٦) [المجادلة] فافتتح الكلام بالعلم وختمه
بالعلم؛ ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل: هو معهم
بعلمه.

وأما (المعية الخاصة) ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
يُحْسِنُونَ﴾ (٧) [النحل] وقوله تعالى لموسى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]
وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] يعني النبي ﷺ

وأيا بكر ﷺ، فهو مع موسى وهارون دون قرعون، ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه. ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين.

فلو كان معنى (المعينة) أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام؛ بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأنيده دون أولئك، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزخرف: ٨٤] أي هو إله من في السموات وإله من في الأرض كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] كما فسرهُ أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره: أنه المعبود في السموات والأرض) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فإنه قد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»، وهذا موافق ومفسر لقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر» فأخبر أنه الظاهر الذي ليس فوقه شيء، وأنه الباطن الذي ليس دونه شيء، فهذا خبر بأنه ليس فوقه شيء في ظهوره وعلوه على الأشياء، وأنه ليس دونه شيء فلا يكون أعظم بطوناً منه حيث بطن من الجهة الأخرى من العباد، جمع فيها لفظ (البطون) ولفظ (الدون) - وليس هو لفظ الدون^(٣) - بقوله: وأنت الباطن فليس دونك شيء، فعلم أن بطونه أوجب أن لا يكون شيء دونه، فلا شيء دونه باعتبار بطونه، والبطون يكون باعتبار الجهة التي ليست ظاهرة.

ولهذا لم يقل: أنت السافل، ولهذا لم يجيء هذا الاسم الباطن كقوله: «وأنت الباطن فليس دونك شيء» إلا مقروناً بالاسم «الظاهر» الذي فيه ظهوره وعلوه فلا يكون

(١) مجموع الفتاوى (٢٤٨/١١ - ٢٥٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢١٦/١٨)، بيان تليس الجهمية (٥٥١/١).

(٣) الذي هو بمعنى الناقص.

شيء فوقه؛ لأن مجموع الاسمين يدلان على الإحاطة والسعة، وأنه الظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه.

ولم يقل أنت السافل، ولا وصف الله قط بالسفول لا حقيقة ولا مجازاً؛ بل قال: «ليس دونك شيء» فأخبر أنه لا يكون شيء دونه هناك، كما جاء في الأثر الذي ذكره مالك في (الموطأ) أنه يقال: «حسبنا الله وكفى» سمع الله لمن دعا، ليس وراء الله منتهى^(١) فالأمر متناه مداه، ولا شيء دونه في معنى اسمه الباطن ليبين أنه ليس يخرج عنه من الوجهين جميعاً؛ وذلك لأن ما في هذا المعنى من نفي الجهة شيء دونه هو بالنسبة والإضافة التقديرية، وإلا ففي الحقيقة هو عال أيضاً من هناك، والأشياء كلها تحته) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ضمن معنى العالي، كما قال: ﴿فَمَا أَطْنَعُوا أَنْ يُظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، ويقال: ظهر الخطيب على المنبر، وظاهر الثوب أعلاه، بخلاف بطانته. وكذلك ظاهر البيت أعلاه، وظاهر القول ما ظهر منه وبان، وظاهر الإنسان خلاف باطنه، فكلما علا الشيء ظهر؛ ولهذا قال: «أنت الظاهر فليس فوقك شيء»، فأثبت الظهور وجعل موجب الظهور أنه ليس فوقه شيء، ولم يقل ليس شيء أبين منك ولا أعرف.

وبهذا تبين خطأ من فسر (الظاهر) بأنه المعروف كما يقوله من يقول الظاهر بالدليل، الباطن بالحجاب، كما في كلام أبي الفرج وغيره، فلم يذكر مراد الله ورسوله وإن كان الذي ذكره له معنى صحيح، وقال: «أنت الباطن فليس دونك شيء» فيهما معنى الإضافة لا بد أن يكون البطون والظهور لمن يظهر ويبطن، وإن كان فيهما معنى التجلي، والخفاء، ومعنى آخر كالعلو في الظهور فإنه سبحانه لا يوصف بالسفول) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وبهذا الإسناد عن مقاتل بن سليمان قال: بلغنا والله أعلم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ قال قبل كل شيء ﴿وَالْآخِرُ﴾ قال: بعد كل شيء ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ قال: فوق كل شيء ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ قال: أقرب من كل شيء؛ وإنما نعني بالقرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم نجواهم ويسمع كلامهم، ثم ينبئهم يوم القيامة بكل شيء نطقوا به، سيء أو حسن.

(١) مَرَّ تَخْرِيجُهُ. (٢) بيان تلبس الجهمية (٢/ ٢٢٠ - ٢٢١).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٤٤ - ٢٤٥)، بيان تلبس الجهمية (١/ ٥٥١).

وهذا ليس مشهوراً عن مقاتل كشهرة الأول الذي روى عنه من وجوه لم يجزم بما قاله، بل قال: بلغنا، وهو الذي فسر الباطن بالقريب، ثم فسر القرب بالعلم والقدرة، ولا حاجة إلى هذا، وقد ثبت في (الصحيح) عن النبي ﷺ أنه قال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء» وجاء عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما في تفسير هذه الأسماء، وحديث (الأدلاء)^(١) ما قد بسطنا القول عليه في (مسألة الإحاطة).

وكذلك هذا الحديث ذكره قتادة في تفسيره؛ وهو يبين أنه ليس معنى الباطن أنه القرب، ولا لفظ الباطن يدل على ذلك، ولا بلفظ القرب في الكتاب والسنة على جهة العموم كلفظ المعية، ولا لفظ القرب في اللغة والقرآن كلفظ المعية، فإنه إذا قال: هذا مع هذا؛ فإنه يعني به المجامعة والمقارنة والمصاحبة، ولا يدل على قرب إحدى الذاتين من الأخرى، ولا اختلاطها بها؛ فلهذا كان إذا قيل: هو معهم؛ دل على أن علمه وقدرته وسلطانه محيط بهم؛ وهو مع ذلك فوق عرشه؛ كما أخبر القرآن والسنة بهذا، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ فأخبر سبحانه أنه مع علوه على عرشه يعلم كل شيء، فلا يمنعه علوه عن العلم بجميع الأشياء) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ خبر بعد خبر، لكن بالعطف بكل من الصفات) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (والرسل - صلوات الله عليهم - أخبروا بأن الله فوق العالم بعبارات متنوعة، تارة يقولون: هو العلي وهو الأعلى، وتارة يقولون: هو في السماء كقوله: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٧].

وليس مرادهم بذلك أن الله في جوف السموات، أو أن الله يحصره شيء من المخلوقات، بل كلام الرسل كله يصدق بعضه بعضاً، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [٣٠] وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ [٣١] وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٣٢] [الصفافات]، وقد قال

(١) الترمذي (٣٢٩٨)، وأحمد (٣٧٠/٢) وفيه ضعف ولفظه: (بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ مرت سحابة... إلى قوله وايم الله لو دليتكم أحدكم بحبل إلى الأرض، السفلى لهبط...).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٩٨/٥ - ٤٩٩). (٣) مجموع الفتاوى (١٢٨/١٦).

تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١)، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء» فأخبر أنه لا يكون شيء فوقه.

ولهذا قال غير واحد من أئمة السلف: إنه ينزل إلى السماء الدنيا، ولا يخلو العرش منه، فلا يصير تحت المخلوقات وفي جوفها قط، بل العلو عليها صفة لازمة له حيث وجد مخلوق، فلا يكون الرب إلا عالياً عليه.

وقول الرسل «في السماء» أي في العلو، ليس مرادهم أنه في جوف الأفلاك بل السماء العلو، وهو إذا كان فوق العرش، فهو العلي الأعلى وليس هناك مخلوق، حتى يكون الرب محصوراً في شيء من المخلوقات ولا هو في جهة موجودة، بل ليس موجوداً إلا الخالق والمخلوق، والخالق بائن عن مخلوقاته، عال عليها، فليس هو في مخلوق أصلاً، سواء سمي ذلك المخلوق جهة أو لم يسم جهة (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقد نقل عن أبي سعيد الخراز أنه قيل له: بماذا عرفت ربك؟ قال: بجمعه بين الأضداد وقرأ قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢).

أراد بذلك أنه مجتمع، في حقه سبحانه، ما يتضاد في حق غيره، فإن المخلوق لا يكون أولاً آخرأ، باطناً ظاهراً.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء» (١) هـ.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيغُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢).

(قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيغُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١)، فبين أن المراد بذكر المعية أنه عالم بهم، كما افتتح الآية بالعلم

وختمها بالعلم، وبين سبحانه أنه مع علوه على العرش يعلم ما الخلق عاملون، كما في حديث العباس بن عبد المطلب الذي رواه أبو داود وغيره عن النبي ﷺ قال فيه: «والله فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه»^(١) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وفي آية الحديد قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثَىٰ يُعَلِّمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فختمها أيضاً بالعلم، وأخبر أنه مع استوائه على العرش يعلم هذا كله) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر أينما كان) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثَىٰ﴾ تضمن فعلين: أولهما متعد إلى المفعول به، والثاني مقتصر لا يتعدى، فإذا كان الثاني - وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ - فعلاً متعلقاً بالفاعل، فقوله: ﴿خَلَقَ﴾ كذلك بلا نزاع بين أهل العربية.

ولو قال قائل: «خلق» لم يتعلق بالفاعل، بل نصب المفعول به ابتداءً. لكان جاهلاً، بل في (خلق) ضمير يعود إلى الفاعل كما في (استوى) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثَىٰ يُعَلِّمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ١. هـ. وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾: أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر أينما كان، وغير المسافر؛ وهو سبحانه فوق العرش، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع إليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته، وكل هذا الكلام الذي

(١) أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣١٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وأحمد (٢٠٦/١)، والحديث فيه ضعف، وهو الحديث المعروف بحديث الأوعال.

(٢) درء تعارض العقل (١/٢٣٧). (٣) منهاج السنة (٨/٣٧٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/٢٠٠). (٥) درء تعارض العقل (٢/٥).

ذكره الله تعالى من أنه فوق العرش، وأنه معنا حق على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف؛ ولكن يسان على الظنون الكاذبة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله نقلاً عن أبي عمر الطلمنكي: (وأجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه وأن الله فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، كما قال النبي ﷺ في حديث الأوعال: «الله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه».

وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة؛ من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال؛ فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى. فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو النجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي لمجاعته وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة.

ثم هذه (المعية) تختلف أحكامها بحسب الموارد فلما قال: ﴿مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم؛ شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم. وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته. وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاعِيَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] إلى قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ الآية.

ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] كان هذا أيضاً حقاً على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع، والنصر والتأييد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [النحل]

وكذلك قوله لموسى وهارون ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] هنا المعية على ظاهرها، وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد.

وقد يدخل على صبي من يخيفه فيبكي فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول: لا تخف؛ أنا معك أو أنا هنا؛ أو أنا حاضر ونحو ذلك، ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه؛ ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها؛ وربما صار مقتضاها من معناها؛ فيختلف باختلاف المواضع.

فلفظ «المعية» قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع، يقتضي في كل موضع أموراً لا يقتضيها في الموضع الآخر، فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردنا - وإن امتاز كل موضع بخاصية - فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب **وَكَلَّ** مختلطة بالخلق، حتى يقال قد صرفت عن ظاهرها) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال ابن أبي حاتم: قرأت على محمد بن الفضل. حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، ثنا محمد بن مزاحم، ثنا بكير بن معروف: عن مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من المطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات ﴿وَمَا يَزِلُّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من القطر ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ما يصعد إلى السماء من الملائكة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ يعني بقدرته وسلطانه، وعلمه معكم أينما كنتم) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله نقلاً عن البيهقي: (فيما كتبنا من الآيات دلالة على إبطال قول من زعم من الجهمية بأن الله بذاته في كل مكان. وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ إنما أراد بعلمه لا بذاته) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال الإمام أحمد: بيان ما ذكر الله في القرآن: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ وهذا على وجوه: قول الله تعالى لموسى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] يقول في الدفع عنكما. وقال تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا﴾ [التوبة: ٤٠] يعني في الدفع عنا. وقال: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] يعني في النصرة لهم على عدوهم. وقوله: ﴿وَأَنشُرُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٩]

(١) مجموع الفتاوى (١٠٣/٥ - ١٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٩٧/٥ - ٤٩٨).

(٣) بيان تلبس الجهمية (٥٣٠/٢)، مجموع الفتاوى (١٩٣/٥).

في النصره لكم على عدوكم، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] يقول بعلمه فيهم. وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] يقول في العون على فرعون) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال يحيى بن عثمان في (رسالته): لا نقول كما قالت الجهمية إنه بداخل الأمكنة، ومما زج كل شيء ولا نعلم أين هو؛ بل نقول هو بذاته على عرشه وعلمه محيط بكل شيء، وسمعه وبصره وقدرته مدركة لكل شيء، وهو معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾) ا.هـ^(٢).

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّلِينَ فِيهِ فَأَلْزَمَ الْإِيمَانُ الْمَالَ وَأَنْفُسَكُمْ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يَبْغُضُوا إِلَيْكُمْ أَوْ يَذَّابِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُوا أَوْ يُقْتَلُوا أَوْ لُغِمُوا أَوْ لَحِقُوا بِخُلُوفِهِمْ أَوْ يَكُونُوا لِغَنَمِهِمْ أُولَٰئِكَ أَلَسُوا بِالَّذِينَ أَوْفَوْا بِعَهْدِهِمْ رَبَّهُمْ ثُمَّ قَلَّ لَهُمُ الْخَالُصَاتُ مِنْهُمْ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْمَآءِ فَلْيَقُولُوا إِلَيْنَا تُجْرِبُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]

(وكذلك إذا قيل: ﴿وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] وإذا قيل: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّلِينَ فِيهِ﴾ دخل في الإيمان بالله ورسوله الإيمان بذلك كله، والإنفاق يدخل في قوله في الآية الأخرى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ كما يدخل القول السديد في مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [النساء: ١٣١] ا.هـ^(٣) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّلِينَ فِيهِ فَأَلْزَمَ الْإِيمَانُ الْمَالَ وَأَنْفُسَكُمْ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يَبْغُضُوا إِلَيْكُمْ أَوْ يَذَّابِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُوا أَوْ يُقْتَلُوا أَوْ لُغِمُوا أَوْ لَحِقُوا بِخُلُوفِهِمْ أَوْ يَكُونُوا لِغَنَمِهِمْ أُولَٰئِكَ أَلَسُوا بِالَّذِينَ أَوْفَوْا بِعَهْدِهِمْ رَبَّهُمْ ثُمَّ قَلَّ لَهُمُ الْخَالُصَاتُ مِنْهُمْ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْمَآءِ فَلْيَقُولُوا إِلَيْنَا تُجْرِبُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقد أخذ يستفكر إن كنتم مؤمنين ﴿٨﴾ هو الذي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ ءَاتِيَةً يَبْتَلِي لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وقال تعالى في آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٩] وقد قال بعض المفسرين في الآية الأولى: إنها خطاب لقريش؛ وفي الثانية إنها خطاب لليهود والنصارى، وليس كذلك؛ فإن الله لم يقل قط للكفار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا يَمْلِكُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩] وهذه السورة مدنية باتفاق، لم يخاطب بها المشركين بمكة، وقد قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾

(١) بيان تلبس الجهمية (٢/٥٥١).

(٢) تنمة الآية: ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِنَّا كُنَّا مِنْ أَتَقُوا اللَّهَ﴾ ويقصد شيخ الإسلام أن القول السديد داخل في التقوى الموصى بها.

(٣) مجموع الفتاوى (٧/١٦٥).

وهذا لا يخاطب به كافر، وكفار مكة لم يكن أحد ميثاقهم، وإنما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعته لهم؛ فإن كل من كان مسلماً مهاجراً، كان يبايع النبي ﷺ كما يبايعه الأنصار ليلة العقبة وإنما دعاهم إلى تحقيق الإيمان وتكميله، بأداء ما يجب من تمامه باطناً وظاهراً كما نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم في كل صلاة، وإن كان قد هدى المؤمنين للإقرار بما جاء به الرسول جملة، لكن الهداية المفصلة في جميع ما يقولونه ويفعلونه في جميع أمورهم لم تحصل، وجميع هذه الهداية الخاصة المفصلة هي من الإيمان المأمور به، وبذلك يخرجهم الله من الظلمات إلى النور) ١. هـ^(١).

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنُ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٠﴾﴾.

(وهؤلاء الذين أسلموا بعد الحديبية دخلوا في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنُ﴾ بهذه المنزلة) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنُ﴾، فأثبت الإيمان للفاضل والمفضول، وهذا متفق عليه بين المسلمين، وقد قال النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»^(٣) وقال لسعد بن معاذ لما حكم في بني قريظة: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة»^(٤) وكان يقول لمن يرسله في جيش أو سرية: «إذا حاصرت أهل حصن فسألك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك» وهذه الأحاديث الثلاثة في (الصحيح) وفي حديث سليمان عليه السلام: وأسألك حكماً يوافق حكمك) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وهؤلاء المذكورون دخلوا في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٣٠ - ٢٣١).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٦٤).

(٣) متفق عليه.

(٤) مر بلفظ آخر.

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٤٥).

الْحَسَنُ ﴿ فَإِنْ هَؤُلَاءِ الطُّلُقَاءُ مَسَلَمَةُ الْفَتْحِ: هُمْ مِمَّنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ، وَقَدْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ الْحَسَنَ، فَإِنَّهُمْ أَنْفَقُوا بِحَتْنٍ وَالطَّائِفَ، وَقَاتَلُوا فِيهِمَا ۖ ﴾ (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وقد أخبر سبحانه أنه رضي عنهم، وأنه علم ما في قلوبهم، وأنه أثابهم فتحاً قريباً. وهؤلاء هم أعيان من بايع أبا بكر وعمر وعثمان بعد موت النبي ﷺ، لم يكن في المسلمين من يتقدم عليهم، بل كان المسلمون (كلهم) يعرفون فضلهم عليهم، لأن الله تعالى بين فضلهم في القرآن بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مَنكَرٌ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلاَّ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنُ﴾ فضل المنفقين المقاتلين قبل الفتح، والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية، ولهذا سئل النبي ﷺ أَوْفَتْحَ هُو؟ فقال: (نعم).

وأهل العلم يعلمون أن فيه أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَفِرَّ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنْزِلْ يُعْطِمُ عَلَيْكَ وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ ﴾ (٢) وَنُصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ [الفتح]. فقال بعض المسلمين: يا رسول الله هذا لك فما لنا (يا رسول الله)؟ فأنزل الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وهذه الآية نص في تفضيل المنفقين المقاتلين قبل الفتح على المنفقين المقاتلين بعده، ولهذا ذهب جمهور العلماء إلى أن السابقين في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ مِنَ الْمُهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ [التوبة: ١٠٠] هم هؤلاء الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة) هـ. ١ (٢).

وقال رحمه الله: (إن هذه الآية فضلت السابقين الأولين، ولم تدل على أن كل من كان أسبق إلى الإسلام كان أفضل من غيره، وإنما يدل على أن السابقين أفضل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مَنكَرٌ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلاَّ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنُ﴾ فالذين سبقوا إلى الإنفاق والقتال قبل الحديبية، أفضل ممن بعدهم، فإن الفتح فسرهُ النبي ﷺ بالحديبية.

وإذا كان أولئك السابقون قد سبق بعضهم بعضاً إلى الإسلام، فليس في الآيتين ما يقتضي أن يكون أفضل مطلقاً، بل قد يسبق إلى الإسلام من سبقه غيره إلى الإنفاق والقتال.

ولهذا كان عمر رضي الله عنه ممن أسلم بعد تسعة وثلاثين، وهو أفضل من أكثرهم بالنصوص الصحيحة، وإجماع الصحابة والتابعين، وما علمت أحداً قط قال: إن الزبير ونحوه أفضل من عمر، والزبير أسلم قبل عمر، ولا قال من يعرف من أهل (العلم): إن عثمان أفضل من عمر، وعثمان أسلم قبل عمر.

وإن كان الفضل بالسبق إلى الإنفاق والقتال، فمعلوم أن أبا بكر أخص بهذا، فإنه لم يجاهد قبله أحد: لا بيده ولا بلسانه، بل هو من حين آمن بالرسول ينفق ماله ويجاهد بحسب الإمكان، فاشتري من المعذبين في الله غير واحد، وكان يجاهد مع الرسول قبل الأمر بالقتال وبعد الأمر بالقتال. كما قال تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] فكان أبو بكر أسبق الناس وأكملهم في أنواع الجهاد بالنفس والمال. ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إن أمن الناس علي في صحبته وذات يده أبو بكر»^(١) والصحبة بالنفس، وذات اليد هو المال، فأخبر النبي ﷺ أنه أمن الناس عليه في النفس والمال) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مَنكَرٌ مِّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَ﴾ والمراد «بالفتح» فتح الحديبية لما بايع النبي ﷺ أصحابه تحت الشجرة، وكان الذين بايعوه أكثر من ألف وأربعمائة، وهم الذين فتحوا خيبر، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»^(٣) ١. هـ^(٤)).

وقال رحمه الله: (وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضل الله السابقين فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مَنكَرٌ مِّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَ﴾) ١. هـ^(٥)).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مَنكَرٌ مِّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَ﴾ فكذلك الإنفاق الذي صدر في أول الإسلام في إقامة الدين ما بقي له نظير يساويه) ١. هـ^(٦)).

وقال رحمه الله: (وأما الصديق رضي الله عنه فكل آية نزلت في مدح المنفقين في سبيل الله

(١) البخاري (٤٦٦). (٢) منهاج السنة (٧/ ١٥٥ - ١٥٦).

(٣) مسلم (٢٤٩٦). (٤) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٥٩ - ٦٠).

(٥) الاستقامة (٢/ ٢٧٠). (٦) منهاج السنة (٧/ ٢٣).

فهو أول المرادين بها من الأمة، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ﴾ وأبو بكر أفضل هؤلاء وأولهم) ١. هـ (١).

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ يَنْتَهُمْ سُورٌ لَمْ يَأْتِ بِاطْمِنٍ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (١٦).

(وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضَرَبَ يَنْتَهُمْ سُورٌ لَمْ يَأْتِ بِاطْمِنٍ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (١٦) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانَةُ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَكَمُ بِاللَّهِ الْقُرْآنُ﴾ (١٧) قَالَتِمْ لَا يَأْخُذُ مِنْكُمْ قَدِيرٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذا لأن الجزاء في الحقيقة إنما هو في الدار الآخرة، التي هي دار الثواب والعقاب، وأما الدنيا فإنما يشرع فيها من العقاب ما يدفع به الظلم والعدوان، كما قال تعالى: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) [البقرة] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢] وهذا لأن المقصود بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، هو إقامة القسط، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَبْصُرُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١٩) [الحديد] ١. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فدل هذا على أن المنافقين لم يكونوا داخلين في الذين آمنوا معه، والذين كانوا منافقين منهم من تاب عن نفاقه وانتهى عنه؛ وهم الغالب، بدليل قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُونَ فِي الْمَدِينَةِ تَغْرِيكَ بِهِمْ تُعَرِّضُ لَمْ يَحْكَرُوا فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾ [الأحزاب]، فلما لم يغر الله بهم ولم يقتلهم تقتيلاً، بل كانوا يجاورونه بالمدينة، دل ذلك على أنهم انتهوا.

والذين كانوا معه بالحديبية كلهم بايعه تحت الشجرة إلا الجد بن قيس، فإنه اختبأ تحت جمل أحمر، وكذا جاء في الحديث: «كلهم يدخل الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر»^(١) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ بَاطِنَةٍ فِيهِ الرِّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٢﴾ يَنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ وقد قال غير واحد من السلف، أن المنافق يعطى يوم القيامة نوراً ثم يطفأ، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمَ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرَ لَنَا﴾ [التحریم: ٨].

قال المفسرون: إذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ، سألوا الله أن يتم لهم نورهم ويلغهم به الجنة.

قال ابن عباس^(٣): ليس أحد من المسلمين، إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره، وأما المؤمن فيشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق، فهو يقول: ﴿رَبَّنَا أَتَيْمَ لَنَا نُورَنَا﴾، وهو كما قال: فقد ثبت في (الصحيحين) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد - وهو ثابت من وجوه آخر - عن النبي ﷺ ورواه مسلم من حديث جابر وهو معروف من حديث ابن مسعود وهو أطولها - ومن حديث أبي موسى في الحديث الطويل الذي يذكر فيه أنه ينادى يوم القيامة: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد؛ فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، وهذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه» وفي رواية: (فيكشف عن ساقه): وفي رواية فيقول: (هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها، فيقولون: نعم. فيكشف عن ساقه فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، فتبقى ظهورهم مثل صياصي البقر فيرفعون

(١) مرّ تخريجه.

(٢) منهاج السنة (٢/٤٣ - ٤٤).

(٣) ابن جرير (٢٨/١٦٨).

رؤوسهم فإذا نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ويطلقاً نور المنافقين فيقولون ذرونا نقتبس من نوركم»^(١) ا.هـ^(٢).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۖ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ أَذْهَبَتْ عَنْهُمْ أَسْبَابُ الْغَمِّ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۖ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ أَذْهَبَتْ عَنْهُمْ أَسْبَابُ الْغَمِّ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤).

والخشوع يتضمن معنيين: «أحدهما»: التواضع والذل، و«الثاني»: السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة، فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله وطمأنينته أيضاً، ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمن هذا، وهذا: التواضع، والسكون. وعن ابن عباس في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^(٥) [المؤمنون]^(٦) قال: مخبتون أذلاء. وعن الحسن وقتادة: خائفون. وعن مقاتل: متواضعون. وعن علي: الخشوع في القلب. وأن ثلثين للمرء المسلم كفكف، ولا تلتفت يمينا ولا شمالاً: وقال مجاهد: غص البصر وخفض الجناح، وكان الرجل من العلماء إذ قام إلى الصلاة يهاب الرحمن أن يشد^(٧) بصره، أو أن يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا.

وعن عمرو بن دينار: ليس الخشوع الركوع والسجود؛ ولكنه السكون وحب حسن الهيئة في الصلاة. وعن ابن سيرين وغيره: كان النبي ﷺ وأصحابه يرفعون أبصارهم في الصلاة إلى السماء، وينظرون يمينا وشمالاً حتى نزلت هذه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٨) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ^(٩) الآية [المؤمنون]. فجعلوا بعد ذلك أبصارهم حيث يسجدون، وما روي أحد منهم بعد ذلك ينظر إلا إلى الأرض. وعن عطاء: هو أن لا تعبت بشيء من جسدك وأنت في الصلاة، وأبصر النبي ﷺ رجلاً يعبت بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»^(١٠) ولفظ «الخشوع» - إن شاء الله بسيط - في موضع آخر.

و(خشوع الجسد) تبع لخشوع القلب، إذا لم يكن الرجل مرآئياً يظهر ما ليس في

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مر في سورة المؤمنون تخريج هذه الأقوال.

(٣) أي يمتدّه ويرفعه.

(٤) الحديث رواه الحكيم الترمذي وهو حديث موضوع، والمعروف من قول السلف وعزاه شيخ الإسلام في موطن آخر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وأعلم.

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧٤ - ٢٧٥).

قلبه كما روي: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق»^(١) وهو أن يرى الجسد خاشعاً والقلب خالياً لاهياً، فهو سبحانه استبطاً المؤمنين بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ فدعاهم إلى خشوع القلب لذكره وما نزل من كتابه، ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وهؤلاء هم الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فأنتى على أهل السماع والوجد للحديث الذي نزل، وهو أحسن الحديث، ولم يشن على مطلق الحديث ومستمعه، بل تضمن السياق الثناء على أهل ذكره والاستماع لحديثه، كما جمع بينهما في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ وفي قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فقوله: ولا يكونوا مثلهم، نهى مطلق عن مشابهتهم. وهو خاص - أيضاً في النهي عن مشابهتهم، في قسوة قلوبهم. وقسوة القلوب من ثمرات المعاصي. وقد وصف الله سبحانه بها اليهود في غير موضع، فقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِغَضَبٍ كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُزَكِّيهِمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) [البقرة] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إلى قوله: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ فَيُنْقَظُ عَنْهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣) [المائدة]، وإن قوماً من هذه الأمة، ممن ينسب إلى علم أو دين، قد أخذوا من هذه الصفات بنصيب، يرى ذلك من له بصيرة، فتعوذ بالله من كل ما يكرهه الله ورسوله، ولهذا، كان السلف يحذرونهم هذا.

فروى البخاري - في صحيحه - عن أبي الأسود^(١) قال: «بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل، قد قرؤوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراءهم، فأتولوه. ولا يطولن عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب من كان قبلكم، وأنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة، فأنسيتها، غير أنني حفظت منها: (لو كان لابن آدم واديان من مال، لا يتغنى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب) وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيتها، غير أنني حفظت منها: يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون؟ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة).

فحذر أبو موسى القراء عن أن يطول عليهم الأمد، فتقسو قلوبهم.

ثم لما كان نقض الميثاق يدخل فيه نقض ما عهد الله إليهم من الأمر والنهي، وتحريف الكلم عن مواضعه، بتبديل وتأويل كتاب الله - أخبر ابن مسعود بما يشبه ذلك.

فروى الأعمش، عن عمارة بن عمير، عن الربيع بن عميلة الفزاري حدثنا عبد الله حديثاً ما سمعت حديثاً هو أحسن منه إلا كتاب الله، أو رواية عن رسول الله ﷺ أن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم، اشتتهه قلوبهم، واستحلته أنفسهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، كأنهم لا يعلمون، فقالوا: اعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل فإن تابعوكم فاتركوهم، وإن خالفوكم فاقتلوه، ثم قالوا: لا بل أرسلوا إلى فلان رجل من علمائهم، فاعرضوا عليه هذا الكتاب، فإن تابعكم فلن يخالفكم أحد بعده، وإن خالفكم فاقتلوه، فلن يختلف عليكم بعده أحد، فأرسلوا إليه. فأخذ ورقة فكتب فيها كتاب الله، ثم جعلها في قرن، ثم علقها في عنقه، ثم لبس عليها الثياب، ثم أتاهم، فعرضوا عليه الكتاب، فقالوا: أتؤمن بهذا؟ فأوماً إلى صدره فقال: آمنت بهذا، ومالي لا أؤمن بهذا؟ - يعني الكتاب الذي في القرن - فخلوا سبيله، وكان له أصحاب يغشونه، فلما مات نبشوه، فوجدوا القرن، فوجدوا فيه الكتاب، فقالوا: ألا ترون قوله: آمنت بهذا ومالي لا أؤمن بهذا؟ إنما عنى هذا الكتاب فاختلف بنو إسرائيل، على بضع وسبعين ملة، وخير مللهم: أصحاب ذي القرن، قال عبد الله: وإن

(١) هو في مسلم (١٠٥٠) والبخاري أخرج جزءً منه (٦٤٣٦).

من بقي منكم سيرى منكراً، وبحسب امرئ يرى منكراً لا يستطيع أن يغيره، أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره^(١).

ولما نهى الله عن التشبه بهؤلاء الذين قست قلوبهم، وذكر أيضاً في آخر السورة حال الذين ابتدعوا الرهبانية، فما رعوها حق رعيته، فعقبها بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّا يَلْمِزُ أَهْلَ الْكِتَابِ الْآلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد] - فإن الإيمان بالرسول تصديقه وطاعته واتباع شريعته، وفي ذلك مخالفة للرهبانية، لأنه لم يبعث بها، بل نهى عنها، وأخبر أن من اتبعه: كان له أجران. وبذلك جاءت الأحاديث الصحيحة، من طريق ابن عمر وغيره، في مثلنا ومثل أهل الكتاب.

وقد صرح ﷺ بذلك - فيما رواه أبو داود في سننه، من حديث ابن وهب، أخبرني سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء: أن سهل بن أبي أمامة حدثه: (أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم، فشد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات، رهبانية ابتدعوها ما كتبها عليهم»^(٢)) ١. هـ^(٣).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

(أن الله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يقتضي أن كل مؤمن آمن بالله ورسوله فهو صديق) ١. هـ^(٤).

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

- (١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥٠٤/٧) مقتصرأ على ما يتعلق بإنكار المنكر، وأخرجه البخاري كذلك في التاريخ الكبير (٢٧٨/٣) والأوسط (١١٧/٢) مرفوعاً، وصوب الدارقطني وقفه. انظر العلل (٥٣/٥) وسلسلة الأحاديث الضعيفة (١٦٦٩) وذكره ابن كثير وعزاه إلى ابن أبي حاتم بالفاظ قريبة.
- (٢) أبو داود (٤٩٠٤). (٣) اقتضاء الصراط (٢٥٥/١ - ٢٦٠).
- (٤) منهاج السنة (٢٢٧/٧).

(وأخبر أن الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسوله وأن من أطاع الرسل فهو سعيد.
فقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء) ١. هـ^(١).

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ إِنَّ
ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٣٣﴾.

(حدثنا^(٢) علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا سهل الخياط، ثنا أبو صالح
الحداني، نا حبان بن عبيد الله قال: سألت الضحاك عن قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾. قال ابن عباس، إن الله
خلق العرش فاستوى عليه، ثم خلق القلم فأمره ليجري بإذنه^(٣) - وعظم القلم كقدر
ما بين السماء والأرض - فقال القلم: بما، يا رب، أجري؟ فقال: (بما أنا خالق
وكائن في خلقي من قطر أو نبات أو نفس أو أثر - يعني به العمل - أو رزق أو
أجل) فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة. فأثبته الله في الكتاب المكنون عنده
تحت العرش) ١. هـ^(٤).

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ
فَخُورٍ﴾ ﴿٣٤﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ﴾ فقد دعا
الناس إلى أن لا يأسوا على ما فاتهم من الدنيا، ومعلوم أن الحزن على الدنيا أولى بأن
ينهى عنه من الحزن على الدين) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ﴾،
وبهذا وصف كعب بن زهير من وصفه من الصحابة (المهاجرين) حيث قال:
ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم كثيراً^(٦) وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

(١) نظرية العقد (٦). (٢) القائل هو ابن أبي حاتم في تفسيره.

(٣) الجزء الأول من الأثر نقله القرطبي (١٧/٢٥٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/١٣٨ - ١٣٩). (٥) منهاج السنة (٨/٤٦٠).

(٦) رواية الديوان: قوماً.

وكذلك قال حسان بن ثابت في صفة الأنصار:

لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع
وقال بعض العرب في صفة النبي ﷺ: (يَغْلِبُ فَلََّا يَبْطُرُ وَيُغْلِبُ فَلََّا
يَضْجُرُ) ١. هـ.

﴿الَّذِينَ يَبْطُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَبُولَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ١٦.

(قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ١٧) الآية يعم البخل كل ما ينفع في الدين والدنيا من مال وعلم وغير ذلك، فالبخيل بالعلم الذي يمتعه والمختال إما يختال فلا يطلبه، وإما يختال على بعض الناس فلا يبذله، وهذا كثيراً ما يقع، وضده التواضع في طلبه، والكرم ببذله) ١. هـ.

وقال رحمه الله: (وفي (الحديد) أنه ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ١٧) الَّذِينَ يَبْطُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ قد تؤولت في البخل بالمال والمنع، والبخل بالعلم ونحوه، وهي تعم البخل بكل ما ينفع في الدين والدنيا من علم ومال وغير ذلك، كما تأولوا قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] النفقة من المال، والنفقة من العلم، وقال معاذ في العلم: تعلمه لمن لا يعلمه صدقة) ١. هـ.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصْرِفُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ١٥.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات البينات) ١. هـ.

وقال رحمه الله: (وقد أنزل مع رسله الكتاب والميزان، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصْرِفُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ١٥).

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

و«الميزان» قال كثير من المفسرين: هو (العدل) وقال بعضهم هو ما به توزن الأمور، وهو ما به يعرف العدل وكذلك قالوا في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ

(١) الاستقامة (٢/ ٢٧٤ - ٢٧٥).

(٢) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٩/ ٣٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٢١٢/ ١٤) وأثر معاذ مرّ تخريجه.

(٤) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٨٨).

الْمِيزَانُ ﴿٧﴾ [الرحمن]. الأمثال المضروبة والأقيسة العقلية التي تجمع بين التمثيلات وتفرق بين المختلفات، وإذا أطلق لفظ (الكتاب) كما في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، دخل فيه الميزان؛ لأن الله تعالى بين في كتابه من الأمثال المضروبة والمقاييس العقلية ما يعرف به الحق والباطل.

وهذا كلفظ (الحكمة) تارة يقرن بـ(الكتاب) كما في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وتارة يفرد الكتاب كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وإذا أفرد دخلت (الحكمة) في معناه وكذلك في لفظ «القرآن» و«الإيمان» قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٧﴾ [الشورى]، وإذا أفرد لفظ القرآن فهو يدل على «الإيمان»، كما أن «الإيمان» يدل على القرآن فهما متلازمان وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذا) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٦٠﴾) فذكر تعالى أنه أنزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط، وليعلم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي، وسيف ينصر، وكفى بربك هادياً ونصيراً، والكتاب والحديد وإن اشتركا في الإنزال فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر، حيث نزل الكتاب من الله، كما قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ [الزمر] وقال تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ﴿١﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿وَلَنْكَ لَلْفَلَقِ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿١﴾ [النمل] والحديد أنزل من الجبال التي يخلق فيها) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فالدين الحق لا بد فيه من الكتاب الهادي والسيف الناصر كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٦٠﴾) فالكتاب يبين ما أمر الله به وما نهى عنه، والسيف ينصر ذلك ويؤيده) ١. هـ^(٣).

(١) الرد على المنطقيين (٣٣٣ - ٣٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/١٢ - ١٣).

(٣) منهاج السنة (١/٥٣١ - ٥٣٢).

وقال رحمه الله: (فإن الله يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. وقد بسطنا القول في ذلك، وبيننا أن العدل جماع الدين والحق والخير كله في غير موضع، والعدل الحقيقي قد يكون متعذراً أو متعسراً، إما علمه، وإما العمل به، لكون التماثل من كل وجه غير متمكن، أو غير معلوم، فيكون الواجب في مثل ذلك ما كان أشبه بالعدل، وأقرب إليه، وهي الطريقة المثلى؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكْفِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وهكذا قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. فالمقصود من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله، وحقوق خلقه ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْقِيَمِ﴾. فمن عدل عن الكتاب قُوم بالحديد؛ ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف. وقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا - يعني السيف - من عدل عن هذا - يعني المصحف) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (كتاب يهدي به، وحديد ينصره، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾. فالكتاب به يقوم العلم والدين، والميزان به تقوم الحقوق في العقود المالية والقبوض. والحديد به تقوم الحدود على الكافرين والمنافقين) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْقِيَمِ﴾. فأخبر أنه أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنه أنزل الحديد، كما ذكره، فقوام الدين بالكتاب الهادي، والسيف الناصر (وكفى بربك هادياً ونصيراً).

والكتاب هو الأصل؛ ولهذا أول ما بعث الله رسوله أنزل عليه الكتاب، ومكث بمكة لم يأمره بالسيف حتى هاجر وصار له أعوان على الجهاد) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (والميزان التي أنزلها الله مع الكتاب حيث قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٦٣ - ٢٦٤).

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/١٣٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٣٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/٣٦).

الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴿الشورى: ١٧﴾، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾، هي ميزان عادلة تتضمن اعتبار الشيء بمثله وخلافه، فيسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين بما جعله الله في فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف.

فإن قيل: إذا كان هذا مما يعرف بالعقل فكيف جعله الله تعالى مما أرسلت به الرسل؟ قيل: لأن الرسل ضربت للناس الأمثال العقلية التي يعرفون بها التماثل والاختلاف. فإن الرسل دلت الناس وأرشدتهم إلى ما به يعرفون العدل، ويعرفون الأقيسة العقلية الصحيحة التي يستدل بها على المطالب الدينية، فليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام، ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيماً للعلوم النبوية، بل الرسل - صلوات الله عليهم - بينت العلوم العقلية التي بها يتم دين الناس علماً وعملاً، وضربت الأمثال. فكملت الفطرة بما نهتها عليه وأرشدتها بما كانت الفطرة معرضة عنه، أو كانت الفطرة قد فسدت بما حصل لها من الآراء والأهواء الفاسدة فأزالت ذلك الفساد وبينت ما كانت الفطرة معرضة عنه، حتى صار عند الفطرة معرفة الميزان التي أنزلها الله وبينها رسله.

والقرآن والحديث مملوء من هذا، يبين الله الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثال المضروبة، ويبين طرق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين، وينكر على من يخرج عن ذلك، كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا الشَّيْءَ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الجاثية] وقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم] أي، هذا حكم جائر، لا عادل، فإن فيه تسوية بين المختلفين وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿١٨﴾﴾ [ص] ومن التسوية بين المتماثلين قوله: ﴿أَكْفَرُكُمْ حَبْرٌ مِّنْ أَوْلَادِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤].

والقرآن مملوء من ذلك، لكن ليس هذا موضعه، وإنما المقصود التنبيه على جنس الميزان العقلي، وأنها حق كما ذكر الله في كتابه، وليست هي مختصة بمنطق اليونان وإن كان فيه قسط منها، بل هي الأقيسة الصحيحة المتضمنة التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين، سواء صيغ ذلك بصيغة (قياس الشمول) أو بصيغة (قياس

(التمثيل)، وصيغ «التمثيل» هي الأصل وهي أكمل، والميزان: القدر المشترك، وهو الجامع، وهو الحد الأوسط.

وإنزاله تعالى الميزان مع الرسل كإنزاله الإيمان. وهو الأمانة - معهم. والإيمان لم يحصل إلا بهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥١﴾ [الشورى] وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة» وحدثنا عن رفع الأمانة، قال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل (أثر) الوكت، ثم ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل (أثر) المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبراً وليس فيه شيء» فقد بين في هذا الحديث أن الأمانة، التي هي الإيمان، أنزلها في أصل القلوب، فإن الجذر هو الأصل، وهذا إنما كان بواسطة الرسل لما أخبروا بما أخبروا به، فسمع ذلك، [ف] ألهم الله القلوب الإيمان وأنزله في القلوب.

وكذلك أنزل الله سبحانه الميزان في القلوب لما بنيت الرسل العدل وما يوزن به عرفت القلوب ذلك. فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل والاختلاف، وتضع من الآلات الحسية ما يحتاج إليه في ذلك، كما وضعت موازين النقيدين، وغير ذلك، وهذا من وضعه تعالى الميزان، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩﴾ [الرحمن] وقال كثير من المفسرين: هو «العدل»، وقال بعضهم: «ما يوزن به ويعرف العدل» وهما متلازمان) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فما أنزل عليه والقسط متلازمان، فليس فيما أنزل الله عليه ظلم قط؛ بل قد قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْقِيَمِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢٥﴾ والله أعلم) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرِفُ وَرُسُلُكُمْ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٢٥]) فبين ﷺ أنه أنزل الكتاب وأنزل العدل وما به يعرف العدل ليقوم الناس بالقسط، وأنزل الحديد، فمن خرج عن الكتاب والميزان قوتل بالحديد، فالكتاب والعدل متلازمان، والكتاب هو المبين للشرع؛ فالشرع هو العدل، والعدل هو الشرع، ومن حكم بالعدل فقد حكم بالشرع، ولكن كثيراً من الناس ينسبون ما يقولونه إلى الشرع وليس من الشرع؛ بل يقولون ذلك إما جهلاً وإما غلطاً وإما عمداً وافتراءً، وهذا هو الشرع المبدل الذي يستحق أصحابه العقوبة؛ ليس هو الشرع المنزل الذي جاء به جبريل من عند الله إلى خاتم المرسلين، فإن هذا الشرع المنزل كله عدل ليس فيه ظلم ولا جهل، قال تعالى: ﴿وَإِن حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢] قال تعالى: ﴿وَإِن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] فالذي أنزل الله هو القسط، والقسط هو الذي أنزل الله، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] فالذي أراه الله في كتابه هو العدل) ١ هـ.

وقال في القاسمي في تفسيره:

(لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في معنى نزول القرآن ولفظ النزول، حيث ذكر في كتاب الله تعالى، بين فيها أن كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن بغير ما هو معناه المعروف لاشتباه المعنى في تلك المواضع، وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع وحقق ﷺ أن ليس في القرآن ولا في السنة لفظ (نزول) إلا فيه معنى النزول المعروف، قال: وهو اللائق بالقرآن، فإنه نزل بلغة العرب، ولا تعرف العرب منزولاً إلا بهذا المعنى، ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها. ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى، في معنى آخر بلا بيان، وهذا لا يجوز بما ذكرنا. قال: وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد، والحديد يخلق في المعادن. وما يذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان

والكلبتان والميقعة والمطرقة والإبرة - فهو كذب لا يثبت مثله، وكذلك الحديث الذي رواه الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ؛ أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض، فأنزل الحديد والماء والنار والملح - حديث موضوع مكذوب، والناس يشهدون أن هذه الأمة تصنع من حديد المعادن ما يريدون.

فإن قيل: إن آدم ﷺ نزل معه جميع الآلات، فهذه مكابرة للبيان.

وإن قيل: بل نزل معه آلة واحدة، وتلك لا تعرف، فأى فائدة في هذا لسائر الناس؟ ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات؟ وإذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات.

ثم أخبر أنه أنزل الحديد، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه، الذي به ينصر الله ورسوله ﷺ. وهذا لم ينزل من السماء.

فإن قيل: نزلت الآلة التي يطبع بها، قيل: فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعاني المتقدمة، والآلة وحدها لا تكفي، بل لا بد من مادة يصنع بها آلات الجهاد.

ثم قال: وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق، لأنه أخرجه من المعادن، وعلمهم صنعته، فإن الحديد إنما يخلق في المعادن، والمعادن إنما تكون في الجبال، فالحديد ينزله الله من معادنه التي في الجبال، ليستفيع به بنو آدم. انتهى كلامه ﷺ اهـ^(١).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصُرُّ وَرُسُلُهُ بِالْقَبِإِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٥٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْنَهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٦﴾.

قال رحمه الله ردًا على النصارى في استدلالهم بهذه الآية على أن المقصود الحواريون: (أن الله قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصُرُّ وَرُسُلُهُ بِالْقَبِإِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٥٥)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾، اسم جمع مضاف، يعم جميع من أرسله الله تعالى.

(١) ذكره القاسمي في تفسيره (٥٥/١٦ - ٥٦)، وأصل هذا الكلام موجود في مجموع الفتاوى (٢٤٦/١٢ - وما بعدها) ولكنه كلام طويل وقد لخصه القاسمي بشكل مختصر.

الثاني: أن أحق الرسل بهذا الحكم الذين سماهم في القرآن كما قال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْثِ بْنِ بِعْدَى وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۚ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۚ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾ [النساء]، وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [١٣١] إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْقِوُ ۝﴾ [١٣٢] إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ۝﴾ [١٣٥] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝﴾ [١٣٦] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [١٣٦] إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نُنْقِوُ ۝﴾ [١٣٧] إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ۝﴾ [١٣٧] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝﴾ [١٣٨] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [١٣٩] إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا نُنْقِوُ ۝﴾ [١٤٠] إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ۝﴾ [١٤٠] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝﴾ [١٤١] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [١٤١] إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقِوُ ۝﴾ [١٤٢] إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ۝﴾ [١٤٢] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝﴾ [١٤٣] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [١٤٣] إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقِوُ ۝﴾ [١٤٤] إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ۝﴾ [١٤٤] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝﴾ [١٤٥] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَفَصَّىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا ۖ﴾ [المزمل]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝﴾ [١٣١] فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝﴾ [المؤمنون]، ثم لما قضى قصته قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ۝﴾ [١٣٢] فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝﴾ [١٣٣] وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَآتَرَفْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝﴾ [١٣٤] وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ۝﴾ [١٣٥] أَعِدُّوا أَنْكُمْ إِنْ لَا لَكُمْ عَزْماً وَإِنْ يَأْتِ

وَعِظْنَا أَنْكُرُ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَبَاتَ هَبَاتٍ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَتَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصِصْحُنَّ لِلْيَمِينِ ﴿٤٠﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا مَّالِكِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا تَذَكَّرُ كُلَّ مَا جَاءَهُ أُمَّةٌ رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَاهُ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَيْنَا فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ [المؤمنون].

فذكر إرسال رسله تترى - أي متواترة - ثم ذكر إرسال موسى، وهارون، وإرسال موسى وهارون قبل المسيح بمدة طويلة.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل].

فهذا إخبار منه ﷺ بأنه بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وقال تعالى في المسيح صلوات الله عليه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، فأخبر أن المسيح رسول من هؤلاء الرسل: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقبله قد بعث في كل أمة رسولا: وقد روي في حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: «أن الأنبياء مائة ألف نبي، وأن الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر»^(١) وبعض الناس يصحح هذا الحديث وبعضهم يضعفه، فإن كان صحيحاً، فالرسل ثلثمائة وثلاثة عشر، وإن لم تعرف صحته أمكن أن يكونوا بقدر ذلك وأن يكونوا أكثر، كما يمكن أن يكونوا أقل، فإن الله - تعالى - أخبر أنه بعث في كل أمة رسولا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر]، وروى أن النبي ﷺ قال: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم أكرمها وأفضلها على الله»^(٢) وهو حديث جيد.

(١) ابن حبان (٩٤ - موارد)، الحاكم (٢٦٢/٢) عن أبي أمامة والحديث ضعيف لا يصح.

(٢) الترمذي (٣٠٠١)، ابن ماجه (٤٢٨٨)، أحمد (٥/٥) والحديث صحيح.

وقد قال تعالى في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا ۖ إِذَا جَاءَهُمْ فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [الزمر، وقال تعالى في سورة تبارك: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك]، فهذا إخبار منه بأن كل فوج يلقي في النار، وقد جاءهم نذير كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقد قال تعالى: ﴿وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى: ﴿يَمْعَشِرَ لَيْلِي وَالْأَيْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لُحْيُهُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام].

فقد أرسل الله قبل المسيح رسلاً كثيرين إلى جميع الأمم، فكيف يجوز أن يدعي أن المراد بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هم الحواريون فقط، الذين أرسلهم المسيح، مع أن الحواريين رسل المسيح بمنزلة رسل موسى، وإبراهيم، ورسل محمد ﷺ.

ومن أرسله رسول الله ﷺ وجبت طاعته على الناس فيما يبلغه عن رسول الله ﷺ كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني»^(١).

فبين أن أميره إنما تجب طاعته في المعروف الذي أمر الله به ورسوله لا في كل ما يأمر به، ففي الصحيحين عن علي: «أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً، وأمرهم أن يسمعوا ويطيعوا، فأغضبوه، فقال: اجمعوا لي حطباً فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا ناراً فأوقدوا ناراً، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله من النار، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه، فلما رجعوا ذكروا في ذلك لرسول الله ﷺ وقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً»، وقال: «لا طاعة في معصية الله، إنما

الطاعة: المعروف»^(١) وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية لا سمع وطاعة»^(٢).

وفي مسلم عن أم الحصين سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول: «ولو استعمل عليكم عبد أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا وأطيعوا»^(٣).

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «يلبغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى له من سامع»^(٤).

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٥).

وفي السنن عنه أنه قال: «نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»^(٦).

فالحواريون في تبليغهم عن المسيح كسائر أصحاب الأنبياء في تبليغهم عنهم وقال الله تعالى في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء].

وأولو الأمر هم العلماء والأمراء، فإذا أمروا بما أمر الله به ورسوله، وجب طاعتهم، وإن تنازع الناس في شيء وجب رده إلى الله والرسول، لا يرد إلى أحد دون الرسل الذين أرسلهم الله، كما قال في الآية الأخرى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة]، والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله ليس المراد به كتاباً معيناً، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ

(١) البخاري (١٠٦/٨)، ومسلم (١٤٦٩/٣). (٢) البخاري (١٠٥/٨)، ومسلم (١٤٦٩/٣).

(٣) مسلم (٩٤٤/٢). (٤) البخاري (٢٤/١)، ومسلم (٩٨٦/٢).

(٥) البخاري (١٤٥/٤). (٦) مَرَّ تَخْرِيجِهِ.

وَالنَّبِيِّينَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾، ولم يرد بهذا أن يؤمن بكتاب معين واحد، بل وهذا يتضمن الإيمان بالتوراة، والإنجيل، والقرآن، وكل ما أنزله الله من كتاب، كما قال في سورة الشورى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، فأمره الله تعالى أن يؤمن بكل ما أنزله الله من كتاب، وأن يعدل بين من بلغتهم رسالتهم، كما قال: ﴿... لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...﴾ [الأنعام: ١٩].

فكل من بلغه القرآن فهو مخاطب به يتناوله خطاب القرآن وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «بلغوا عني ولو آية»، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وفي القراءة الأخرى وكتابه ورسله وكلا القرائتين موافقة للأخرى وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ [البقرة: ٢١٣]، أي فاختلّفوا بعد ذلك، كما قال في السورة الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ الْكَاشِ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا...﴾ [يونس: ١٩]، فلما اختلف بنو آدم بعث النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب.

وذلك يتناول كل كتاب أنزله الله ليحكم الله، ويحكم كتابه بين الناس بالحق فالحاكم بين الناس هو الله تعالى، وحكمه في كتبه المنزلة، فلهذا أمر الله المؤمنين إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول.

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، فأمره بالرد إلى كتابه ورسوله، وقد ذم تعالى من لم يتحاكم إلى كتابه ورسوله فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿١٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١٥﴾﴾

فقد تبين أن الرسل الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ...﴾ يتناول الرسل الذين أرسلهم الله تعالى كلهم؛ ومن أحقهم بذلك الرسل الذين أخبر في القرآن أنه أرسلهم إلى عباده، فظهر بطلان قولهم إنهم الحواريون.

الوجه الثالث: أنه قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُتَمَّزَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصُرُّ وَرُسُلُهُمُ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾، فذكر أنه أنزل الحديد أيضاً؛ ليتبين من يجاهد في سبيل الله بالحديد.

والنصارى يزعمون أن الحواريين والنصارى لم يؤمروا بقتال أحد بالحديد.

الوجه الرابع: أنه قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْلَهُمُ مِّثْلُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ ثُمَّ فَقَّيْنَا عَلَىٰ عَائِلَتِهِمُ رُسُلَنَا وَفَقَّيْنَا يَعْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً... ﴿٣٢﴾﴾ [الحديد]، وإخباره بإرسال نوح وإبراهيم بعد قوله: لقد أرسلنا رسلنا بالبينات من باب ذكر الخاص بعد العام، وبيان ما اختص به الخاص من الأحكام التي امتاز بها عن غيره، مما دخل في العام كما يأمر السلطان العسكر بالجهاد، ويأمر فلاناً وفلاناً بأن يفعلوا كذا وكذا، ومثل أن يقال: أرسل رسلك إلى فلان، وأرسل إليهم فلاناً، وأمره بكذا وكذا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾، فنوح هو أبو آدميين الذين حدثوا بعد الطوفان، فإن الله أغرق ولد آدم إلا أهل السفينة، وقال في نوح: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات].

وإبراهيم جعل الأنبياء بعده من ذريته، كما قال تعالى في إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ إِجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت]، ثم قال بعد أن ذكر إرسال نوح وإبراهيم وأنه جعل في ذريتهما النبوة والكتاب: ﴿ثُمَّ فَقَّيْنَا عَلَىٰ عَائِلَتِهِمُ رُسُلَنَا وَفَقَّيْنَا يَعْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ...﴾ ﴿٣٨﴾﴾.

فأخبر أنه قفى على آثارهم برسلكه وقفى بعيسى بن مريم، وآتاه الإنجيل، وهؤلاء رسل قبل المسيح، وآخرهم المسيح، ولم يذكر أنه أرسل أحداً من أتباع المسيح، بل أخبر أنه جعل في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة، فكيف يجوز أن يقال: إن مراده بالرسول الذين أرسلهم بالبينات، وأنزل معهم الكتاب، والميزان، هم الحواريون، دون

الرسول الذين ذكرهم وأرسلهم قبل المسيح) ١. هـ^(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٣) هـ^(٢).

(وما ذكر أنه ﷺ بغضت إليه الأوثان لا يجب أن يكون لكل نبي، فإنه سيد ولد آدم، والرسول الذين ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره، من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى، وبالنصر والقهر، كما كان نوح وإبراهيم.

ولهذا يضيف الله الأمر إليهما في مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [آل عمران: ٣٣]، وذلك أن نوحاً أول رسول بعث إلى المشركين، وكان مبدأ شركهم من تعظيم الموتى الصالحين، وقوم إبراهيم مبدؤه من عبادة الكواكب، ذاك الشرك الأرضي، وهذا السماوي: ولهذا سد ﷺ ذريعة هذا وهذا) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وهذا هو كما امتن الله على نوح وإبراهيم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾، وقال في الخليل: ﴿... وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾...، فعلم بذلك أن في إسماعيل وذريته معظمون^(٤) عند الله ممدوحون، وأن إسماعيل معظم جداً جداً، كما عظم الله نوحاً وإبراهيم، وإن كان إبراهيم أفضل من إسماعيل، لكن المقصود أن هذا التعظيم له ولذريته: إنما يكون إذا كانت ذريته معظمة على دين حق، وهؤلاء يحجون إلى هذا البيت، ولا يحج إليه بعد مجيء محمد غيرهم) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وهذا الغلو الذي في النصارى حتى اتخذوا المسيح وأمه إلهين من دون الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله - قد ذكروا أن أول من ابتدعه لهم بولس الذي كان يهودياً فأسلم واتبع المسيح نفاقاً ليلبس على النصارى دينهم، فأحدث لهم مقالات غالية، وكثرت البدع في النصارى: في اعتقاداتهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا فَقَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَجْرُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾) ١. هـ^(٦).

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٢٢٧ - ٢٤٣).

(٢) كذا في الأصل، والجماعة: معظمين.

(٣) مجمع الفتاوى (١٥/ ٣١).

(٤) الجواب الصحيح (٥/ ٢٢٠).

(٥) جامع الرسائل (١/ ٢٦٠).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، أي لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، لم نكتب عليهم الرهبانية، بل هم ابتدعوها ومع ابتداعهم إياها فما رعوها حق رعايتها، وكل بدعة ضلالة، فهم مذمومون على ابتداع الرهبانية وعلى أنهم لم يرعوها حق رعايتها.

وأما ما كتب عليهم من ابتغاء رضوان الله فيحصل بفعل ما شرعه الله لهم من واجب ومستحب، فإن ذلك هو الذي يرضاه، ومن فعل ما يرضاه الله فقد فعل ما كتب عليه، ويحصل رضوان الله أيضاً بمجرد فعل الواجبات، وهذا هو الذي كتب على العباد، فإذا لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله كان ابتغاء رضوانه واجباً، فما ليس بواجب لا يشترط في حصول ما كتب عليهم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصُدُّهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ٢٥ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْنَهُمُ مَّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ٢٦ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آدَمَ وَنُوحٍ وَابْرَاهِيمَ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ٢٧).

فهو حق كما قال تعالى وليس في ذلك مدح للرهبانية ولا لمن بدل دين المسيح، وإنما فيه مدح لمن اتبعه بما جعل الله في قلوبهم من الرحمة والرأفة حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ ثم قال: ﴿... وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ...﴾.

أي وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم وهذه الرهبانية لم يشرعها الله ولم يجعلها مشروعة لهم، بل نفى جعله عنها كما نفى ذلك عما ابتدعه المشركون بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَدِيعَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وهذا الجعل المنفي عن البدع هو الجعل الذي أثبتته للمشروع بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧]، فالرهبانية ابتدعوها لم يشرعها الله، وللناس في قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ قولان:

أحدهما: أنها متصوبة: يعني ابتدعوها إما بفعل مضمر يفسره ما بعده، أو يقال هذا الفعل عمل في المضمر والمظهر كما هو قول الكوفيين. حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغيرهما، ونظيره قوله: ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان]، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَذَيْنِ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ...﴾ [الأعراف: ٣٠].

وعلى هذا القول، فلا تكون الرهبانية معطوفة على الرأفة، والرحمة.

والقول الثاني: أنها معطوفة عليها فيكون الله قد جعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية المبتدعة، ويكون هذا جعلاً خلقياً كونياً، والجعل الكوني يتناول الخير والشر كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَذُوقُونَ إِلَى الْثَّكَارِ﴾ [الفصص: ٤١].

وعلى هذا القول: فلا مدح للرهبانية بجعلها في القلوب، فثبت على التقديرين أنه ليس في القرآن مدح للرهبانية، ثم قال: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾.

أي لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يتدع، وهذا يسمى استثناء منقطعاً.

كما في قوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَخِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَلِيلُ الَّذِينَ يَبِينُونَ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ...﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى...﴾ [الدخان: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٠] وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ [١١] بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ [١٢] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ [١٣] فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [١٤] إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ [١٥]﴾ [الانشقاق]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [١٥] إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا [١٦]﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء: ٩٢]، وهذا أصح الأقوال في هذه الآية كما هو مبسوط في موضع آخر.

ولا يجوز أن يكون المعنى أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله، فإن الله لا يفعل شيئاً ابتغاء رضوان نفسه، ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين، كما قد بسط في موضع آخر.

وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية، وما رعوها حق رعايتها، وليس في ذلك مدح لهم بل هو ذم، ثم قال تعالى: ﴿فَتَأْتِيَنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ...﴾.

وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ وكثير منهم فاسقون، ولو أريد الذين آمنوا بالمسيح

ايضاً فالمراد من اتبعه على دينه الذي لم يبدل وإلا فكلهم يقولون إنهم مؤمنون بالمسيح، وبكل حال فلم يمدح سبحانه إلا من اتبع المسيح على دينه الذي لم يبدل، ومن آمن بمحمد ﷺ. لم يمدح النصارى الذين بدلوا دين المسيح ولا اللذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

فإن قيل: قد قال بعض الناس: إن قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ عطف على ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، وأن المعنى أن الله جعل في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ايضاً ابتدعوها وجعلوا الجعل شرعياً ممدوحاً، قيل: هذا غلط لوجوه:

منها: أن الرهبانية لم تكن في كل من اتبعه، بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهب، وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك بخلاف الرأفة والرحمة فإنها جعلت في قلب كل من اتبعه.

ومنها: أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية بخلاف الرأفة والرحمة، فإنهم لم يبتدعوها، وإذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم، فإن كان المراد هو الجعل الشرعي الديني لا الجعل الكوني القدري فلم تدخل الرهبانية في ذلك، وإن كان المراد الجعل الخلقي الكوني فلا مدح للرهبانية في ذلك.

ومنها: أن الرأفة والرحمة جعلها في القلوب، والرهبانية لا تختص بالقلوب بل الرهبانية ترك المباحات من النكاح واللحم وغير ذلك، وقد كان طائفة من الصحابة - رضوان الله عليهم - هموا بالرهبانية، فأنزل الله تعالى نهيمهم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة].

وثبت في الصحيحين: أن نفرأ من أصحاب النبي ﷺ قال أحدهم: أما أنا فأصوم لا أفطر، وقال آخر: أما أنا فأقوم لا أنام. وقال آخر: أما أنا فلا أنزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فلا أكل اللحم.

فقام النبي ﷺ خطيباً فقال: «ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا، لكنني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنزوج النساء، وأكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١).

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال: ما هذا؟

قالوا: هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال: «مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه».

وثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته «خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

وفي السنن عن العرياض بن سارية أن النبي ﷺ قال: «عليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقد بينت النصوص الصحيحة أن الرهبانية بدعة وضلالة، وما كان بدعة وضلالة لم يكن هدي، ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شرعها، كما لم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام.

فإن قيل: قد قال طائفة: معناها: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ما كتبها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله.

وقالت طائفة: ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله.

قيل: كلا القولين خطأ، والأول أظهر خطأ؛ فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم، بل لم يشرعها لا إيجاباً ولا استيجاباً، ولكن ذهبت طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها كتب عليهم إتمامها وليس في الآية ما يدل على ذلك فإنه قال: ﴿... مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا...﴾.

فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية ولا إتمامها ولا رعايتها، بل أخبر أنهم ابتدعوها بدعة، وأن تلك البدعة لم يرعوها حق رعايتها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، يدل على أنهم لو رعوها حق رعايتها لكانوا ممدوحين.

قيل: ليس في الكلام ما يدل على ذلك، بل يدل على أنهم - مع عدم الرعاية - يستحقون من الذم ما لا يستحقونه بدون ذلك، فيكون ذم من ابتدع البدعة ولم يرعها حق رعايتها أعظم من ذم من رعاها، وإن لم يكن واحد منهما محموداً، بل مذموماً مثل نصارى بني تغلب ونحوهم ممن دخل في النصرانية ولم يقوموا بواجباتها، بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم، فكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شراً منهم والنار دركات كما أن الجنة درجات.

وأيضاً: فالله تعالى إذا كتب شيئاً على عباده لم يكتب ابتغاء رضوانه، بل العباد يفعلون ما يفعلون ابتغاء رضوان الله.

وأيضاً: فتخصيص الرهبانية بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيص بغير موجب، فإن ما كتبه ابتداء لم يذكر أنه كتبه ابتغاء رضوانه فكيف بالرهبانية؟

وأما قول من قال: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، فهذا المعنى لو دل عليه الكلام لم يكن في ذلك مدح للرهبانية، فإن من فعل ما لم يأمر الله به، بل نهاه عنه مع حسن مقصده، غايته أن يثاب على قصده، لا يثاب على ما نهى عنه، ولا على ما ليس بواجب، ولا مستحب، فكيف والكلام لا يدل عليه فإن الله قال: ﴿... مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ...﴾.

ولم يقل: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله، ولا قال: ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله، ولو كان المراد ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله، لكان منصوباً على المفعولية، ولم يتقدم لفظ الفعل ليعمل فيه، ولا نفى الابتداع بل أثبت له، وإنما تقدم لفظ الكتابة فعلم أن القول الذي ذكرناه هو الصواب، وأنها استثناء منقطع فتقديره: وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم، لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، فإن إرضاء الله واجب مكتوب على الخلق، وذلك يكون بفعل المأمور وترك المحذور، لا بفعل ما لم يأمر بفعله وترك ما لم ينه عن تركه، والرهبانية فيها فعل ما لم يؤمر به وترك ما لم ينه عنه) ١. هـ^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْخَذْ مِنْكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْخَذْ مِنْكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ لَيْلًا يَمْشَوْنَ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾﴾، وفي الصحيحين عن ابن عمر، وأبي موسى، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟

فعملت اليهود إلى نصف النهار، ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟

فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، ثم قال: من يعمل من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس، ألا لكم الأجر مرتين.

فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء! فقال الله تعالى فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: (لا) قال الله تعالى: فإنه فضلي أعطيه من شئت^(١) . ا. هـ^(٢) .

سورة المجادلة

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١).

وكذلك ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أخبر أنه يسمع تحاورهما حين كانت تجادل وتشتكي إلى الله (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقد دلّ الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ودلائل العقل على أنه سميع بصير، والسمع والبصر لا يتعلق بالمعدوم. فإذا خلق الأشياء رآها سبحانه، وإذا دعاه عباده سمع دعاءهم وسمع نجواهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ - أي تشتكي إليه وهو يسمع التحاور والتحاور تراجع الكلام - بينها وبين الرسول. قالت عائشة: سبحانه الذي وسع سمعه الأصوات! لقد كانت المجادلة تشتكي إلى النبي ﷺ في جانب البيت وإنه ليخفي علي بعض كلامها فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ (٢). وكما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُفُونَ﴾ [الزخرف: ١-٣] هـ.

وقال رحمه الله: (لا ريب أنه ﷺ كما قالت عائشة رضي الله عنها في الحديث الصحيح: «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كانت المجادلة تناجي رسول الله ﷺ في جانب البيت وإنه ليخفي علي بعض كلامها، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾» (٤) هـ.

(١) مجموع الفتاوى (٦/٢٢٧).

(٢) النسائي (٦/١٦٨)، ابن ماجه (١٨٨)، أحمد (٦/٤٦)، الطبري (٢٨/٥)، الحاكم (٢/٤٨١)، وإسناده صحيح.

(٣) الرد على المنطقيين (٤٦٥).

(٤) بيان تلبس الجهمية (١/٣١٠ - ٣١١).

قال رحمه الله: (وقد كانوا في أول الإسلام يرون لفظ «الظهار» صريحاً في الطلاق وهو قوله: أنت علي كظهر أمي، حتى تظاهر أوس بن الصامت من امرأته المجادلة، التي ثبت حكمها فيما أنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ وأفناها النبي ﷺ أولاً بالطلاق، حتى نسخ الله ذلك، وجعل الظهار موجباً للكفارة، ولو نوى به الطلاق) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَوَائِكُمْ﴾ فهي تجادل وتشتكي حال سماع الله تحاورهما وهذا يدل على أن سمعه كرؤيته المذكورة في قوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا يَسِيرُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٠٥] فهذه رؤية مستقبلية ونظر مستقبل. وقد تقدم أن المعدوم لا يرى ولا يسمع منفصلاً عن المرئي السامع باتفاق العقلاء، فإذا وجدت الأقوال والأعمال سمعها ورآها) ١. هـ^(٢).

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ﴾

(وقوله: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ إنما أريد به الممهورات دون المملوكات) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (فإن الله قد حرم عقد الظهار في نفس كتابه، وسماه ﴿مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (رواه مالك في الموطأ: أخبرنا يحيى بن سعيد سمعت القاسم بن محمد يقول: «أتت امرأة إلى عبد الله بن عباس، فقالت: إني نذرت أن أنحر ابني. فقال ابن عباس: لا تنحري ابنك، وكفري عن يمينك، فقال شيخ عند ابن عباس جالس: وكيف يكون في هذا كفارة؟ - وفي لفظ - أفيكون كفارة في طاعة الشيطان؟ فقال ابن عباس: إن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ ثم جعل فيه من الكفارة ما قد رأيت») ١. هـ^(٥).

- | | |
|------------------------------|-----------------------------|
| (١) مجموع الفتاوى (١٦٧/٣٣). | (٢) جامع الرسائل (٥٤/٢). |
| (٣) مجموع الفتاوى (٤٤٨/١٥). | (٤) مجموع الفتاوى (١٦١/٢٩). |
| (٥) نظرية العقد (١٠٨ - ١٠٩). | |

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ بَنَاتِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ ذَلِكَ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣).

(قال القاضي: «ثم» للفصل مع الترتيب، فإذا قال: «رأيت فلاناً ثم فلاناً» اقتضى أن يكون الثاني متأخراً عن الأول في الرؤية، ولهذا يحتاج أصحابنا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ بَنَاتِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أن ذلك للمهلة؛ فيقتضي أن يكون العود العزم على الوطء) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (مثل قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فإنه اسم مطلق يدخل فيه المؤمنة، والكافرة، فإذا غني به المؤمنة جاز لأنها رقة وزيادة) ١. هـ^(٢).

﴿فَمَنْ لَمْ يَحِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِيْنًا ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤).

(وقوله في الكفارة: ﴿فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِيْنًا﴾، فإن هذا نفي لاستطاعة من لم يفعل، فلا يكون مع الفعل) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَحِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَأَ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِيْنًا﴾، والمراد به الاستطاعة المتقدمة؛ وإلا كان المعنى فمن لم يفعل الصيام فإطعام ستين، فيجوز حينئذ الإطعام لكل من لم يصم، ولا يكون الصوم واجباً على أحد حتى يفعله) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِيْنًا﴾، فإن هذه الاستطاعة لو لم تكن [إلا] مقارنة للفعل، لم يجب الحج على من لم يحج، ولا وجب على من لم يتق الله أن يتقي الله، ولكان كل من لم يصم الشهرين المتتابعين غير مستطيع للصيام، وهذا كله خلاف هذه النصوص وخلاف إجماع المسلمين) ١. هـ^(٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَرْلَنَا آيَاتٍ يَبْنَتُ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٥).

(قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ والكبْتُ:

(٢) شرح العمدة - الحج (٣٥/٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٧٢/٨).

(١) المسودة (٥٦٤).

(٣) منهاج السنة (٤٨/٣).

(٥) منهاج السنة (٤٠٨/١).

الإذلال والخزي والصرع، قال الخليل: الكبث هو الصرع على الوجه، وقال النضر بن شميل وابن قتيبة: هو الغيظ والحزن، وهو في الاشتقاق الأكبر من كبده، كأن الغيظ والحزن أصاب كبده، كما يقال: أحرق الحزن والعداوة كبده، وقال أهل التفسير: كتبوا أهلكوا وأحزوا وحزنوا، فثبت أن المحاد مكبوت مخزى ممتلئ غيظاً وحزناً هالك، وهذا إنما يتم إذا خاف أن أظهر المحادة أن يقتل، وإلا فمن أمكنه إظهار المحادة وهو آمن على دمه وماله فليس بمكبوت بل مسرور مجذلان، ولأنه قال: ﴿كُنُوا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ والذين من قبلهم ممن حاد الرسل وحاد رسول الله إنما كبته الله بأن أهلكه بعداب من عنده أو بأيدي المؤمنين، والكبت وإن كان يحصل منه نصيب لكل من لم ينل عرضه كما قال سبحانه: ﴿لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٧] لكن قوله تعالى: ﴿كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني محادي الرسل دليل على الهلاك أو كتم الأذى، يبين ذلك أن المنافقين هم من المحادين، فهم مكبوتون بموتهم بغيظهم لخوفهم أنهم إن أظهروا ما في قلوبهم قُتلوا، فيجب أن يكون كل محاد كذلك) ١. هـ^(١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِبُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ يَعْلَمُهُمْ إِنَّ مَا كَانُوا يَكُونُونَ يَتَّبِعُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧).

قال رحمه الله: (وذكر عن الضحاك بن مزاحم أنه قال في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ قال: هو على عرشه، وعلمه معهم أينما كانوا. وعن سفيان الثوري مثل ذلك. وعن ابن مسعود قال: الله فوق العرش، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله ردّاً على استدالات نفاة العلو نقلاً عن ابن عبد البر: (وأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِبُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ فلا حجة فيه لهم؛ لأن علماء الصحابة، والتابعين قالوا في تأويل هذه الآية: هو على العرش، وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (أما قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] فلفظ (مع) لا تقتضي في لغة

العرب أن يكون أحد الشيتين مختلطاً بالآخر كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَابِجُوا وَجَّهُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ يَنْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ولفظ (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة، فالعامة في هذه الآية وفي آية المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُوثُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم؛ ولهذا قال ابن عباس والضحاك^(١) وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل: هو معهم بعلمه^(٢) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال الإمام أحمد: ومما تأول الجهمية من قول الله تعالى: ﴿مَا يَكُوثُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ الآية، قالوا: إن الله ﷻ معنا وفينا، فقلنا: لم قطعتم الخبر من أوله؟ إن الله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُوثُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعني أن الله بعلمه رابعهم: ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعني بعلمه فيهم: ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يفتح الخبر بعلمه ويختم الخبر بعلمه ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وذكر شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري الهروي في كتاب «ذم الكلام» بإسناده ما ذكره حرب بن إسماعيل الكرمانى صاحب أحمد وإسحاق في مسائله عنهما وعن غيرهما، قال: قلت لإسحاق بن إبراهيم: ما تقول في قوله: ﴿مَا يَكُوثُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ الآية: قال: حيث ما كنت هو أقرب إليك من حبل الوريد، وهو بائن من خلقه) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال تعالى في آية المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُوثُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

(١) قول الضحاك عند ابن جرير (١٢/٢٨)، وعند السنة لعبد الله بن أحمد (٥٩٢) وغيرهم.

(٢) أحمد بن حنبل عند ابن كثير (٣٢٢/٤). (٣) مجموع الفتاوى (٢٤٩/١١).

(٤) بيان تلبس الجهمية (٥٤٨/٢). (٥) بيان تلبس الجهمية (١٦٠/٢).

عَلِيمٌ ﴿٧﴾، فافتتحها بالعلم، وختمها بالعلم، فعلم أنه أراد: عالم بهم لا يخفى عليه منهم خافية.

وهكذا فسرها السلف: الإمام أحمد ومن قبله من العلماء، كابن عباس، والضحاك، وسفيان الثوري (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وسئل علي بن المديني عن قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية؟ قال: اقرأ ما قبله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية) هـ. ١ (٢).

وقال رحمه الله: (وروى شيخ الإسلام (٣) في (ذم الكلام) ما ذكره حرب بن إسماعيل الكرماني في مسائله قال لإسحاق بن إبراهيم - وهو الإمام المشهور المعروف بابن راهويه -: ما تقول في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ الآية؟ قال: حيث ما كنت هو أقرب إليك من حبل الوريد، وهو بائن من خلقه. قلت لإسحاق: على العرش بحد؟ قال: نعم بحد، وذكره عن ابن المبارك قال: هو على عرشه بائن من خلقه بحد) هـ. ١ (٤).

وقال رحمه الله: (قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في «كتاب مختلف الحديث» له: نحن نقول في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إنه معهم يعلم ما هم عليه، كما تقول لرجل وجهته إلى بلد شاسع: احذر التقصير فإنني معك. تريد أنه لا يخفى علي تقصيرك) هـ. ١ (٥).

وقال رحمه الله: (قالوا: حديث في التشبيه يكذبه القرآن والإجماع. قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله - تبارك وتعالى - إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من داع؟ فاستجيب له. أو مستغفر؟ فأغفر له»، و«ينزل عشية عرفة إلى أهل عرفة». و«ينزل ليلة النصف من شعبان». وهذا خلاف لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، فقد أجمع الناس أنه يكون بكل مكان؛ ولا يشغله شأن عن شأن.

ونحن نقول في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: أنه معهم

(١) منهاج السنة (٣٧٨/٨). (٢) مجموع الفتاوى (١٣٩/٥ - ١٤٠).

(٣) المراد به أبو إسماعيل الأنصاري الهروي. (٤) بيان تلييس الجهمية (٤٣٨/١).

(٥) بيان تلييس الجهمية (٤٣٥/٢).

بالعلم بما هم عليه، كما تقول لرجل وجهته إلى بلد شامع، ووكلته بأمر من أمرك: احذر التقصير والإغفال لشيء مما تقدمت فيه إليك؛ فإني معك يريد أنه لا يخفى عليّ تقصيرك أو جدك بالإشراف عليك؛ والبحث عن أمورك؛ فإذا جاء هذا في المخلوق والذي لا يعلم الغيب: فهو في الخالق الذي يعلم الغيب أجوز.

وكذلك هو بكل مكان يراك، لا يخفى عليه شيء مما في الأماكن، هو فيها بالعلم بها والإحاطة، فكيف يسوغ لأحد أن يقول: إنه بكل مكان على الحلول، مع قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه] أي استقر؟ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَاحِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] أي استقررت، ومع قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]؟

وكيف يصعد إليه شيء هو معه أو يرتفع إليه عمل هو عنده؟ وكيف تعرج الملائكة والروح يوم القيامة؟ وتعرج بمعنى تصعد، يقال: عرج إلى السماء إذا صعد، والله ذو المعارج والمعارج الدرج. فما هذه الدرج؟ فإلى من تؤدي الملائكة الأعمال إذا كان بالمحل الأعلى مثله بالمحل الأدنى؟!

ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم، وما ركبت عليه خلقتهم، من معرفة الخالق: لعلموا أن الله هو العلي وهو الأعلى، وبالمكان الرفيع، وأن القلوب عند الذكر تسمو نحوه، والأيدي ترتفع بالدعاء إليه. ومن العلو يرجى الفرج ويَتَوَقَّعُ النصرُ (والرزق) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [١١] إِذْ يَتَلَقَّى التَّتْلِيحَاتِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَيْدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴿١٨﴾ [ق] وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة]؛ فالمراد به قرب به إليه بالملائكة، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف، قالوا: ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة، وقد قال طائفة: (ونحن أقرب إليه) بالعلم، وقال بعضهم: بالعلم والقدرة، ولفظ بعضهم بالقدرة والرؤية.

وهذه الأقوال ضعيفة، فإنه ليس في الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل

موجود، حتى يحتاجوا أن يقولوا بالعلم والقدرة والرؤية؛ ولكن بعض الناس لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء.

وكانهم ظنوا أن لفظ «القرب» مثل لفظ «المعية» فإن لفظ المعية في سورة الحديد والمجادلة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ [الحديد] وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ۖ﴾، وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا: هو معهم بعلمه. وقد ذكر ابن عبد البر وغيره أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله، وهو مأثور عن ابن عباس، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل وغيرهم.

قال ابن أبي حاتم^(١) في «تفسيره» حدثنا أبي، ثنا إسماعيل بن إبراهيم بن معمر عن نوح بن ميمون المضروب، عن بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ قال هو على العرش وعلمه معهم. قال: وروى عن سفيان الثوري أنه قال: علمه معهم. وقال: حدثنا أبي. قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا نوح بن ميمون المضروب، ثنا بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان، عن الضحاك بن مزاحم، في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ قال: هو على العرش وعلمه معهم. ورواه بإسناد آخر عن مقاتل بن حيان هذا وهو ثقة في التفسير ليس بمجروح كما جرح مقاتل بن سليمان.

وقال عبد الله بن أحمد: ثنا أبي، ثنا نوح بن ميمون المضروب، عن بكير بن معروف ثنا أبو معاوية، عن مقاتل بن حيان، عن الضحاك^(٢) في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ قال: هو على العرش وعلمه معهم. وقال علي بن الحسن بن شقيق: حدثنا عبد الله بن موسى صاحب عبادة، ثنا معدان - قال ابن المبارك: إن كان أحد بخراسان من الأبدال فمعدان - قال: سألت سفيان الثوري عن قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾؛ قال: علمه.

(١) تفسير ابن أبي حاتم مفقود في هذه الآية ولم ينقلها السيوطي في الدر المنثور ولا ابن كثير عنه.

(٢) مر الكلام عنه.

وقال حنبل بن إسحاق في كتاب «السنة»: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] و﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾؟ قال: علمه، عالم الغيب والشهادة محيط بكل شيء شاهد. علام الغيوب، يعلم الغيب، ربنا على العرش بلا حد ولا صفة وسع كرسيه السموات والأرض) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله فيما نقله عن أبي الحسن الأشعري: (فإن قال قائل: أي شيء معنى قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٌ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ الآية؟ قيل له: علمه، والله على عرشه وعلمه محيط بهم؛ كذا فسرهم أهل العلم. والآية يدل أولها وآخرها أنه العلم، وهو على عرشه هذا قول المسلمين) ١. هـ^(٢).

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنَسُوهُمْ لِيَا هُمْ عَنْهُ وَيَنْجُوْنَ بِالْآثِرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيُتْسِلَ الْمُعْصِرُ ﴿٨﴾ .

(ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فإن القائلين بأن الكلام المطلق كلام النفس استدلووا بهذه الآية، وأجاب عنها أصحابنا وغيرهم بجوابين:

«أحدهما»: أنهم قالوا بالسنتهم قولاً خفياً.

و«الثاني»: أنه قيده بالنفس، وإذا قيد القول بالنفس فإن دلالة المقيد خلاف دلالة المطلق. وهذا كقوله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»^(٣) فقوله (حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به) دليل على أن حديث النفس ليس هو الكلام المطلق، وأنه ليس باللسان) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (فإن قالوا: فقد قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وقال: ﴿وَأَذْكُرْ نَتِكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] ونحو ذلك.

قيل: إن كان المراد أنهم قالوه بالسنتهم سرّاً، فلا حجة فيه. وهذا هو الذي ذكره المفسرون. قالوا: كانوا يقولون: سام عليك، فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم أي يقول

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٩٤ - ٤٩٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٨٨ - ١٨٩).

(٣) مَرَّ تَخْرِيجِهِ.

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٥).

بعضهم لبعض: لو كان نبياً عذبنا بقولنا له ما نقول. وإن قدر أنه أريد بذلك أنهم قالوه في قلوبهم، فهذا قول مقيد بالنفس، مثل قوله: «عما حدثت به أنفسها» ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَا يَعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ فاطلقوا لفظ القول هنا، والمراد به ما قالوه بألسنتهم، لأنه النجوى والتحية (التي نهوا عنها) كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَيَنْتَجِبُونَ بِالْأَثَرِ وَالْفِتْنَةِ وَمَعْصِبَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَبَّوْكَ بِمَا لَوْ يَجْحَدُ بِهِنَّ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾. مع أن الأول هو الذي عليه أكثر المفسرين، وعليه تدل نظائره؛ فإن النبي ﷺ قال: «يقول الله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملاء خير منه»^(١)، ليس المراد أنه لا يتكلم به بلسانه، بل المراد أنه ذكر الله بلسانه) ١. هـ^(٢).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(وأما «النشوز» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾ فهو النهوض والقيام والارتفاع. وأصل هذه المادة هو الارتفاع والغلط، ومنه النشز من الأرض، وهو المكان المرتفع الغليظ) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين أوتوا العلم؛ فإنهم خيارهم) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ قال ابن عباس: «للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة») ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. قال ابن عباس: يرفع الله^(٦) ...) ١. هـ^(٧).

(١) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥). (٢) مجموع الفتاوى (١٣٤/٧ - ١٣٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧٨/٣٢). (٤) مجموع الفتاوى (١٣/٧).

(٥) مختصر الفتاوى المصرية (٥٥٩) والأثر لم أجده.

(٦) بياض في الأصل وتكملت (يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات) والتكملة من الحاكم والبيهقي في المدخل والأثر رواه ابن المنذر كما في الدر المنثور (١٨٥/٦).

(٧) مجموع الفتاوى (٩/١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

فصل

(قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ خص سبحانه رفعه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان، وهم الذين استشهد بهم في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأخبر أنهم هي الذين يرون ما أنزل إلى الرسول، هو الحق بقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبا: ٦]، فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها، كما قال تعالى: ﴿رَفَعُ دَرَجَاتٍ مَن شَاءَ﴾ [يوسف: ٧٦].

قال زيد بن أسلم: بالعلم، فرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا ينام الليل، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم، وأرفع قدراً في قلوب الأمة، فهذا كرز بن وبرة، وكهمس، وابن طارق، يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة، وحال ابن المسيب وابن سيرين والحسن وغيرهم في القلوب أرفع.

وكذلك ترى كثيراً ممن لبس الصوف، ويهجر الشهوات، ويتشف، وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب، وأحلى عند النفوس، وما ذاك إلا لقوة المعاملة الباطنة وصفائها، وخلوصها من شهوات النفوس وأكدار البشرية وطهارتها من القلوب التي تكدر معاملة أولئك، وإنما ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول وكمال تصديقه في قلوبهم، ووده ومحبه، وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ، وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكَتَبَ يَقْرُوءُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦] وقال تعالى: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ قَدْ ذَلِكُمْ فَيَفْرَحُوا﴾ الآية [يونس: ٥٨]. ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه.

فإذا استقر في القلب، وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده، وبره به، وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه، فلا يزال مترقياً في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف.

هذا في «باب معرفة الأسماء والصفات» وأما في «باب فهم القرآن» فهو دائم التفكير في معانيه، والتدبر لألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئاً من كلام الناس وعلوهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده وإن لم يشهد له بقبول ولا رده وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه.

ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط، وغير ذلك، فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل النطق بـ ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٦]، وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم، وتحسين الصوت. وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان. وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس، ونتائج أفكارهم.

وكذلك تأويل القرآن على قول من قلده دينه أو مذهبه فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره.

وكذلك يظن من لم يقدر القرآن قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد، والأسماء والصفات، وما يجب لله وينزه عنه، بل الكافي في ذلك عقول الحيارى والمنهوكين الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة، وهؤلاء أغلظ الناس حجاباً عن فهم كتاب الله تعالى، والله ﷻ أعلم^(١).

قال ابن القيم ناقلاً عن شيخه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَفَعَلُوا بِبَيْنِ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧).

(ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ لم يبطل حكمه بالكلية، بل نسخ وجوبه وبقي استحبابه والندب إليه، وما علم عن تنبيهه وإشارته وهو

أنه إذا استحبت الصدقة بين يدي مناجاة المخلوق فاستحبها بين يدي مناجاة الله عند الصلوات والدعاء أولى، فكان بعض السلف الصالح يتصدق بين يدي الصلاة والدعاء إذا أمكنه، ويتأول هذه الأولوية، ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية يفعله ويتحراه ما أمكنه، وفافضته فيه فذكر لي هذا التنبيه والإشارة) ١. هـ^(١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ١٤. هـ.

(وقال تعالى في حقهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ١٤. هـ. فهؤلاء المنافقون الذين يتولون اليهود الذين غضب الله عليهم، ما هم من اليهود، ولا هم منا، مثل من أظهر الإسلام من اليهود والنصارى والتمر، وغيرهم، وقلبه مع طائفته) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ نزلت فيمن تولى اليهود من المنافقين وقال: ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ ولا من اليهود ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ١٤. هـ. أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿أَعْتَدُوا لِمَنْهُمْ جُزَاءً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ١٥. هـ. إلى قوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ١٦. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ وهم المنافقون الذين تولوا اليهود، باتفاق أهل التفسير، وسياق الآية يدل عليه) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقوله سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَلَّيْتُمْ لَهُمْ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ١٥. هـ. يحلفون لكم ليرضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإنك الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ ١٦. هـ. [التوبة] وكذلك قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كُفَّةً الْكُفْرَ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقوله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٢٥٠).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٦٦).

(١) مفتاح دار السعادة (٤٢١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/١٩٣).

لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ [المنافقون]، وقوله تعالى: ﴿٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْلًا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ - إلى قوله - ﴿٦﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٧﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿٨﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿٩﴾ .

دلَّت هذه الآيات كلها على أن المنافقين كانوا يُرضون المؤمنين بالآيمان الكاذبة، وينكرون أنهم كفروا، ويحلفون أنهم لم يتكلموا كلمة الكفر.

وذلك دليل على أنهم يقتلون إذا ثبت ذلك عليهم بالبيّنة لوجوه:

أحدها: أنهم لو كانوا إذا أظهروا التوبة قبل ذلك منهم لم يحتاجوا إلى الحلف والإنكار، ولكانوا يقولون: قلنا وقد تبنا، فعلم أنهم كانوا يخافون إذا ظهر ذلك عليهم أنهم يُعاقبون من غير استتابة.

الثاني: أنه قال تعالى: ﴿١٠﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً واليمين إنما يكون جُنَّةً إذا لم نأت ببيّنة عادلة تكذبها؛ فإذا كذبتها بيّنة عادلة انخرقت الجُنَّة، فجاز قتلهم، ولا يمكنه أن يجتنب بعد ذلك إلا بجُنَّةٍ من جنس الأولى، وتلك جُنَّةٌ مخروقة.

الثالث: أن الآيات دليل على أن المنافقين إنما عَصَمَ دماءهم الكذب والإنكار، ومعلوم أن ذلك إنما يعصم إذا لم تقم بيّنة بخلافه، ولذلك لم يقتلهم النبي ﷺ ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿١١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ لَنْ نَقِيَّ عَنْهُمْ أَنُوفَهُمْ وَلَا أُولَدَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَحَبُّ النَّاسِ لَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٦﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ أُولَئِكَ فِي الْآذَانِ ﴿١٨﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلُكَ إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٩﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ

أَنكَاهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَمِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَنَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧﴾، فهذه الآيات نزلت في المنافقين، وليس المنافقون في طائفة أكثر منهم في الرافضة، حتى إنه ليس في الروافض إلا من فيه شعبة من شعب النفاق) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا حال الرافضة وكذلك: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية وكثير منهم يواد الكفار من وسط قلبه أكثر من موادته للمسلمين) ١. هـ^(٢).

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَصْبِرُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ آلَا إِنَّمَا هُمْ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

(رواه أبو مسعود بن الفرات. رواه الحاكم^(٣) في صحيحه، وقال: فأنزل الله تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ﴾ الآية) ١. هـ^(٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿١٩﴾﴾.

(قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿١٩﴾﴾ كُتِبَ اللَّهُ لِأَغْلِبِكَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيَّ عَزِيزٌ ﴿٢٠﴾﴾ والأذل: أبلغ من الذليل، ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله إن أظهر المحادّة؛ لأنه إن كان دمه وماله معصوماً لا يستباح فليس بأذل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ضُرِيتَ عَلَيْهِمُ الدُّلَّةُ إِنَّ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [آل عمران: ١١٢] فبين سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الدُّلَّةُ إلا مع العهد، فعلم أن من له عهدٌ وحبلٌ لا دُلَّةُ عليه وإن كانت عليه المسكنة فإن المسكنة قد

(١) منهاج السنة (٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥). (٢) منهاج السنة (٣/ ٣٧٧).

(٣) الحديث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: يدخل عليكم رجل ينظر بعين شيطان... فدخل رجل أزرق... وجعل يحلف قال فنزلت الآية.

رواه أحمد (١/ ٢٤٠، ٢٦٧، ٣٥٠)، والحاكم (٣٧٩٥)، والطبري في تفسيره (١٠/ ١٨٥) (٢٨/ ٢٣، ٢٥)، وذكره ابن كثير (٤/ ٣٢٩) وعزاه لابن أبي حاتم وساق سنده، وعزاه صاحب مجمع الزوائد (٧/ ١٢٢) لأحمد والبخاري، وعزاه السيوطي في الدرر (٦/ ١٨٦) للطبراني وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، والحديث صحيح.

(٤) الصارم المسلول (٣٥١).

تكون مع عدم الذلة وقد جعل المخادعين في الأذلين، فلا يكون لهم عهد، إذ العهد ينافي الذلة كما دلّت عليه الآية، وهذا ظاهر، فإن الأذل هو الذي ليس له قوة يمتنع بها ممن أراد به بسوء، فإذا كان له من المسلمين عهدٌ يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذلّ، فثبت أن المحادّ لله ولرسوله لا يكون له عهد يعصمه، والمؤذي للنبي ﷺ محاد، فالمؤذي للنبي ليس له عهد يعصم دمه، وهو المقصود.

وأيضاً؛ فإنه قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥] والكبت: الإذلال والخزي والصّرع، قال الخليل: الكبت هو الصرع على الوجه، وقال النضر بن شميل وابن قتيبة: هو الغيظ والحزن، وهو في الاشتقاق الأكبر من كبده، كأن الغيظ والحزن أصاب كبده، كما يقال: أحرق الحزن والعداوة كبده، وقال أهل التفسير: كُتِبُوا أهلكوا وأخزوا وحزنوا، فثبت أن المحادّ مكبوت مُخْزَى ممتلٍ غيظاً وحزناً هالِك، وهذا إنما يتم إذا خاف إن أظهر المحادة أن يقتل، وإلا فمن أمكنه إظهار المحادة وهو آمن على دمه وماله فليس بمكبوت بل مسرورٌ جذلان، ولأنه قال: ﴿كُنُوتًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ والذين من قبلهم ممن حاد الرسل وحادّ رسول الله إنما كبته الله بأن أهلكه بعذابٍ من عنده أو بأيدي المؤمنين، والكبت وإن كان يحصل منه نصيب لكل من لم ينل غرضه كما قال سبحانه: ﴿لَيَقَطَّعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٧] لكن قال سبحانه: ﴿كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني محادّي الرسل دليل على الهلاك أو كتم الأذى، يبين ذلك أن المنافقين هم من المحادّين، فهم مكبوتون بموتهم بغيظهم لخوفهم أنهم إن أظهروا ما في قلوبهم قُتلوا، فيجب أن يكون كل محادّ كذلك.

وأيضاً، فقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ عقب قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْآذِلِينَ﴾ (١٢٨) دليل على أن المحادة مغالبة ومعاداة، حتى يكون أحد المتحادين غالباً والآخر مغلوباً، وإنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحادّ ليس بمسالّم، والغلبة للرسل بالحجة والقهر، فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه، ومن لم يؤمر بالحرب ملكٌ عدوه، وهذا أحسن من قول من قال: «إن الغلبة للمحارب بالنصر، ولغير المحارب بالحجة، فعلم أن هؤلاء المحادّين محاربون مغلوبون».

وأيضاً، فإن المحادة من المشاقّة؛ لأن المحادة من الحدّ والفصل والبيئونة، وكذلك المشاقّة من الشّق وهو لهذا المعنى، فهما جميعاً بمعنى المقاطعة والمفاصلة،

ولهذا يقال: إنما سميت بذلك لأن كل واحد من المحاذين والمشاقين في حد وشق من الآخر، وذلك يقتضي انقطاع الحبل الذي بين أهل العهد إذا حاد بعضهم بعضاً، فلا حبل لمحاذ لله ولرسوله.

وأيضاً، فإنها إذا كانت بمعنى المشاقّة فإن الله سبحانه قال: ﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصِرُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [١٧] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ عَذَابًا لَظِيمًا [١٨] اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ [١٩] [الأنفال] فأمر بقتلهم لأجل مشاققتهم ومحادثتهم، فكل من حاد وشاق يجب أن يفعل به ذلك، لوجود العلة وأيضاً، فإنه تعالى قال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [٢٠] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ [الحشر] والتعذيب هنا - والله أعلم - القتل؛ لأنهم قد عذبوا بما دون ذلك من الإجلاء وأخذ الأموال، فيجب تعذيب من شاق الله تعالى ورسوله، ومن أظهر المحادة فقد شاق الله ورسوله، بخلاف من كتمها، فإنه ليس بمحاذ ولا مشاق [١] هـ.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٢١]

(وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٢١] وهذا وعد مؤكد بالقسم بخلاف قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١] فإن هذا وعد وخبر ليس فيه قسم، لكنه مؤكد باللام التي يمكن أن تكون جواب قسم وقوله: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَفَارِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠] وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٧] ونحو ذلك وعد مجرد) [٢] هـ.

وقال رحمه الله: (قال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٢١] وقوله: «الأغلبين» قسم أقسم الله عليه فهو جواب قسم تقديره والله لأغلبن أنا ورسلي وهذا يتضمن إخباره بوقوع ذلك وأنه كتب على نفسه ذلك وأمر به نفسه وأوجبه على نفسه فإن صيغة القسم يتضمن التزام ما حلف عليه إما حضاً عليه وأمرأ به وإما منعاً منه ونهياً عنه ولهذا كان في شرع من قبلنا يجب الوفاء بذلك ولا كفارة فيه، وكذلك كان في أول الإسلام ولهذا كان أبو بكر لا يحنت في يمين حتى أنزل الله كفارة اليمين كما ذكرت ذلك عائشة ولهذا أمر أيوب أن يأخذ بيده ضغثاً فيضرب به ولا يحنت فإن ذلك صار واجباً باليمين كوجوب المنذور الواجب بالنذر يحتذى به حذو الواجب بالشرع

والضرب بالضغث يجوز في الحدود إذا كان المضروب لا يحتمل التفريق كما جاء في الحديث، ولو كان في شرعهم كفارة لأغنت عن الضرب مطلقاً لكن الإنسان قد يلتزم ما لا يعلم عاقبته ثم يندم عليه، والرب تعالى عالم بعواقب الأمور فلا يحلف على أمر ليفعله إلا وهو يعلم عاقبته واليمين موجبة، ولهذا قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ وكتب مثل كتب في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] فهي كتابة تتضمن خبراً وإيجاباً ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [مود: ٦] وفي الحديث الصحيح الإلهي «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(١) وقد بسط هذا لأصل في مواضع) ١. هـ^(٢).

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(وأما مادة عدوه فإنها تنافي المحبة، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾، فأخبر أن المؤمن - الذي لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، كما في الحديث المتفق عليه: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(٣) - لا تجده مواداً لمن حاد الله ورسوله، فإن هذا جمع بين الضدين لا يجتمعان. ومحبوب الله ومحبوب معاديه لا يجتمعان.

فالمحب له لو كان مواداً لمحاده لكان محباً لاجتماع مراد المتحادين المتعاضدين وذلك ممتنع، ولهذا لم تصلح هذه الحالة إلا لله ورسوله، فإنه يجب على العبد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ولا يكون مؤمناً إلا بذلك. ولا تكون هذه المحبة مع محبة من يحاد الله ورسوله ويعاديه أبداً، فلا ولاء لله إلا بالبراءة من عدو الله ورسوله) ١. هـ^(٤).

(١) مَرَّ تَخْرِيجِهِ. (٢) النبوات (٢٣٠ - ٢٣١).
(٣) مَرَّ تَخْرِيجِهِ. (٤) جامع الرسائل (٢٧٥/٢ - ٢٧٦).

وقال رحمه الله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مِنْ نَشَأِهِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ١٠١] وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، فهذه الروح التي أوحاها، والتي تنزل بها الملائكة على من يشاء من عباده غير الروح الأمين التي تنزل بالكتاب، وكلاهما يسمى روحاً، وهما متلازمان، فالروح التي ينزل بها الملك مع الروح الأمين التي ينزل بها روح القدس، يراد بها هذا وهذا) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد احتجوا على قولهم بقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ الآية. قالوا: ومفهوم هذا أن من لم يعمل بمقتضاه لم يكتب في قلوبهم الإيمان).

قالوا: فإن قيل: معناه لا يؤمنون إيماناً مجزئاً معتداً به، أو يكون المعنى: لا يؤدون حقوق الإيمان، ولا يعملون بمقتضاه. قلنا: هذا عام لا يخصص إلا بدليل.

فيقال لهم: هذه الآية فيها نفي الإيمان عمن يواد المحادين لله ورسوله، وفيها أن من لا يواد المحادين لله ورسوله فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، وهذا يدل على مذهب السلف أنه لا بد في الإيمان من محبة القلب لله ولرسوله، ومن بغض من يحاد الله ورسوله، ثم لم تدل الآية على أن العلم الذي في قلوبهم بأن محمداً رسول الله يرتفع لا يبقى منه شيء، والإيمان الذي كتب في القلب ليس هو مجرد العلم والتصديق، بل هو تصديق القلب وعمل القلب، ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيَذِّلُّهُمْ حَتَّى يَتَمَيَّزَ مِنْ تَحْتِهَا الْآتِنَةُ خَلِيلِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فقد وعدهم بالجنة. وقد اتفق الجميع على أن الوعد بالجنة لا يكون إلا مع الإتيان بالمأمور به وترك المحذور؛ فعلم أن هؤلاء الذين كتب

في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، قد أدوا الواجبات التي بها يستحقون ما وعد الله به الأبرار المتقين، ودل هذا على أن الفساق لم يدخلوا في هذا الوعد، ودلت هذه الآية على أنه لا يوجد مؤمن يواد الكفار، ومعلوم أن خلقاً كثيراً من الناس يعرف من نفسه أن التصديق في قلبه لم يكذب الرسول، وهو مع هذا يواد بعض الكفار، فالسلف يقولون: ترك الواجبات الظاهرة دليل على انتفاء الإيمان الواجب من القلب، لكن قد يكون ذلك بزوال عمل القلب - الذي هو حب الله ورسوله وخشيته الله، ونحو ذلك - لا يستلزم أن لا يكون في القلب من التصديق شيء، وعند هؤلاء كل من نفى الشرع إيمانه دل على أنه ليس في قلبه شيء من التصديق أصلاً، وهذا سفسطة عند جماهير العقلاء^(١) هـ.

وقال رحمه الله: (إن روح القدس ما زال تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، وهذا مما اتفق عليه أهل الكتاب: أن روح القدس نزلت على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، وليست موصوفة بهذه الصفات وقد قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنَّا﴾، وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت لما كان يهجو المشركين - قال: «اللهم أیده بروح القدس»^(٢)، وقال: «إن روح القدس معك ما زلت تنافع عن نبيه»^(٣) هـ.

وقال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ والمادة من أعمال القلوب.

فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله، وذلك يناقض مادة من حاد الله ورسوله، وما ناقض الإيمان فإنه يستلزم العزم^(٤) والعقاب؛ لأجل عدم الإيمان^(٥) هـ.

وقال رحمه الله: (في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»^(٦)، وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمن رآه يعث في الصلاة: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه». ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) مجموع الفتاوى (١٤٧/٧ - ١٤٨).

(٢) مَرَّ تَخْرِيجِهِ.

(٣) الجواب الصحيح (٢٩/٥).

(٤) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «الذم».

(٥) مجموع الفتاوى (٥٧٢/١٠ - ٥٧٣).

(٦) مَرَّ تَخْرِيجِهِ.

الْآخِرِ يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أَتَاكَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١]، وقوله: ﴿... وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُمْ عُدَّةً...﴾ [التوبة: ٤٦]، فإن الإرادة التي في القلب مع القدرة توجب فعل المراد. والسفر في غزوة بعيدة لا يكون إلا بعُدَّة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوْلِيَاءَكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾. فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاته أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه؛ كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوْلِيَاءَكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ فأخبر أن من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله. بل نفس الإيمان ينافي مودتهم فإذا حصلت المادة دل ذلك على خلل الإيمان وكذلك قوله: ﴿كَرِهَ كَثِيرًا مِنْهُمْ أَنْ يَبَئِثُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِئِنْ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿٨١﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أَتَاكَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٨١] هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال سبحانه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوْلِيَاءَكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾، فأخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يواد كافراً، ممن واد الكفار فليس بمؤمن. والمشابهة الظاهرة مظنة المادة، فتكون محرمة، كما تقدم تقرير مثل ذلك، واعلم أن وجوه الفساد في مشابھتهم كثيرة، فلنقتصر على ما نهينا عليه) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وكذلك إذا قال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، فإذا كان بمادة المحاد لا يكون مؤمناً فإن لا يكون

(١) الجواب الصحيح (٦/ ٤٨٧ - ٤٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧).

(٤) اقتضاء الصراط (١/ ٤٩٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٢).

مؤمناً إذا حاد بطريق الأولى والأخرى) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فإن قيل: فقد روى نعيم بن حماد [قال] حدثنا محمد بن ثور عن يونس عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تجعل لفاجر ولفاسق عندي يداً ولا نعمةً فإنني وجدت فيما أوحيت: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾»، قال سفيان: يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان، رواه أبو أحمد العسكري^(٢)، وظاهر هذا أن كل فاسق لا ينبغي مودته فهو محاد لله ورسوله، مع أن هؤلاء ليسوا منافقين النفاق المبيح للدم) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ولأنه قد قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية، فإذا كان من يواد المحاد ليس بمؤمن فكيف بالمحاد نفسه؟ وقد قيل: إن من سبب نزولها أن أبا قحافة شتم النبي ﷺ فأراد الصديق قتله. أو أن ابن أبي تنقص النبي ﷺ، فاستأذن ابنه النبي ﷺ في قتله لذلك، فثبت أن المحاد كافر حلال الدم) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (يقال: هو محادٌ، وإن لم يكن مشاقاً، ولهذا جعل جزاء المحاد مطلقاً أن يكون مكبوتاً كما كبّت من قبله، وأن يكون في الأذلين، وجعل جزاء المشاق القتل والتعذيب في الدنيا، ولن يكون مكبوتاً كما كبّت من قبله في الأذلين إلا إذا لم يمكنه إظهار محادثته، فعلى هذا تكون المحادة أعم، ولهذا ذكر أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. أنها نزلت فيمن قتل [من] المسلمين أقاربه في الجهاد، وفيمن أراد أن يقتل [من] تعرض لرسول الله ﷺ بالأذى من كافر أو منافق قريب له فعلم أن المحاد يعم المشاق وغيره.

ويدل على ذلك أنه قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وإنما نزلت في المنافقين الذين تولَّوا اليهود المغضوب عليهم، وكان أولئك

(١) مجموع الفتاوى (٢١/٢٠٨).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٣٣١)، والحديث أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل، وعزه العراقي في تخريج الإحياء إلى ابن مردويه في تفسيره، راجع الدر المنثور والحديث ضعيف لا يثبت والله أعلم.

(٣) الصارم المسلول (٣٥). (٤) الصارم المسلول (٣٣).

اليهود أهل عهد من النبي ﷺ، ثم إن الله سبحانه بين أن المؤمنين لا يوادُّون من حاد الله ورسوله، ولا بدُّ أن يدخل في ذلك عدم المودة لليهود، وإن كانوا أهل دُمة؛ لأنه سبب النزول، وذلك يقتضي أنَّ أهل الكتاب محادُّون لله ولرسوله، وإن كانوا معاهدين.

ويدلُّ على ذلك أن الله قطع المُوالاتة بين المسلم والكافر وإن كان له عهد ودُمة، وعلى هذا التقدير يقال: عُاهدوا على أن لا يُظهروا المحادَّة ولا يُعلنوا بها بالإجماع كما تقدم وكما سيأتي، فإذا أظهروا صاروا محادِّين لا عهد لهم، مُظهرين للمحادَّة، وهؤلاء مشاقُّون، فيستحقون خِزْي الدنيا من القتل ونحوه وعذاب الآخرة.

فإن قيل: إذا كان كل يهودي محادًّا لله ولرسوله فمن المعلوم أن العهد يثبت لهم مع التهود، وذلك يَنقُضُ ما قدمتم من أن المحادَّ لا عهد له.

قيل: من سلك هذه الطريقة قال: المحادُّ لا عهد له مع إظهار المحادَّة، فأما إذا لم يظهر لنا المحادَّة فقد أعطيناه العهد وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] يقتضي أن الدلَّة تلزمه، فلا تزول إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وحبل المسلمين معه على أن لا يُظهر المحادَّة بالاتفاق؛ فليس معه حبل مطلق، بل حبل مقيد، فهذا الحبل لا يمنعه أن يكون أذلَّ إذا فعل ما لم يُعاهد عليه، أو يقول صاحبُ هذا المسلك: الدلَّة لازمة بكل حال، كما أطلقت في سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ﴾ يجوز أن يكون تفسيراً للدلَّة، أي ضربت عليهم أنهم أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا إلا بحبل من الناس، فالحبل لا يرفع الدلَّة، وإنما يرفع بعض موجباتها وهو القتل، فإن من كان لا يُعصم دمه إلا بعهد فهو ذليل وإن عُصم دمه بالعهد، لكن على هذا التقدير تضعف الدلالة الأولى من المحادَّة، والطريقة الأولى أجود كما تقدم، وفي زيادة تقريرها (طول) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله في تلازم الظاهر والباطن: (إذا تحقق ما في القلب أثر في الظاهر ضرورة، لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر. فالإرادة الجازمة مع القدرة التامة، توجب وقوع المقدور، فإذا كان في القلب حب الله ورسوله ثابتاً استلزم موالاته وأوليائه، ومعاداة أعدائه ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية فهذا التلازم أمر ضروري) ا. هـ^(٢).

سورة الحشر

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

(فإنه قال: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)، فكل من في السموات والأرض يسبح، والمسبح غير المسبح) ا.هـ (١).

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يُؤْتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَّى الْآبَصِرُ﴾ (٢).

(وقال تعالى في محاصرته لبني النضير: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يُؤْتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَّى الْآبَصِرُ﴾ (٢) فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة، وممن قبلها من الأمم) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿لَأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾) نبه على الحشر الثاني) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾) مكربهم ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يُؤْتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم بنو النضير، فتفسير الإتيان مقرون بهما، فخرور السقف والرعب، وتفسير إتيان الله يوم القيامة منصوص في الكتاب مفسر) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (ثم إن النبي ﷺ أجلاهم إجلاء لم يقتلهم فيه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَتَّوَلَّى الْآبَصِرُ﴾) ا.هـ (٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٢٦/٢٨).

(٤) درء تعارض العقل (٦٨/٢).

(١) مجموع الفتاوى (١٢٣/٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٠٧/٢٧).

(٥) منهاج السنة (١١١/٨).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَّأُولِ الْآبَسِرِ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال]، والاعتبار أن يعبر منهم إلى أمثالهم، فيعرف أن من فعل كما فعلوا استحق كما استحقوا، ولو كان تعالى قد يسوي بين المتماثلين وقد لا يسوي، لم يمكن الاعتبار حتى يعلم أن هذا المعين مما يسوى بينه وبين نظيره، وحينئذ فلا يمكن الاعتبار إلا بعد معرفة حكم ذلك المعين، وحينئذ فلا يحتاج إلى الاعتبار.

ومن العجب أن أكثر أهل الكلام احتجوا بهذه الآية على القياس، وإنما تدل عليه لكون الاعتبار يتضمن التسوية بين المتماثلين، فعلم أن الرب يفعل هذا في حكمه، فإذا اعتبروا بها في أمره الشرعي لدلالة الاعتبار على ذلك، فهلا استدلوا بها على حكمه الخلقي الكوني في الثواب والعقاب، وهو الذي قصد بالآية، فدالته عليها (أولى؟) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَتَّأُولِ الْآبَسِرِ﴾، يتناول الأمرين، فيعتبر العاقل بتعذيب الله لمن كذب رسله، كما فعل ببني النضير، حتى يرغب في نقيض ذلك، ويرهب من نظير ذلك، فيستعمل قياس الطرد في الهبة، وقياس العكس في الرغبة) ١. هـ^(٢).

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ والتعذيب هنا - والله أعلم - القتل، لأنهم قد عذبوا بما دون ذلك من الإجلاء وأخذ الأموال، فيجب تعذيب من شاق الله تعالى ورسوله، ومن أظهر المحادة فقد شاق الله ورسوله، بخلاف من كتمها، فإنه ليس بمحاد ولا مشاق) ١. هـ^(٣).

(٢) درء تعارض العقل (٥/٢٥٩).

(١) منهاج السنة (٥/١٠٩).

(٣) الصارم المسلول (٢٩).

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيُخْرِىَ الْفَلْسَفِينَ﴾ (١).

(وكان النبي ﷺ والمسلمون في غزوة بني النضير، قد حاصروهم حصاراً شديداً، وقطعوا نخيلهم، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيُخْرِىَ الْفَلْسَفِينَ﴾ (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ فإن هذا يتضمن إباحته لذلك، وإجازته له ورفع الجناح والحرج عن فاعله، مع كونه بمشيئته وقضائه) هـ. ١. (٢).

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

(و«الثاني الفيء» وهو الذي ذكره الله تعالى في «سورة الحشر» حيث قال: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ ومعنى قوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ﴾ أي ما حركتم، ولا أعملتم ولا سقتم، يقال وجف البعير، يجف وجوفاً وأوجفته: إذا سار نوعاً من السير. فهذا هو الفيء الذي أفاء الله على رسوله، وهو ما صار للمسلمين بغير إيجاب خيل ولا ركاب، وذلك عبارة عن القتال، أي ما قاتلتم عليه، فما قاتلوا عليه كان للمقاتلة، وما لم يقاتلوا عليه فهو فيء؛ لأن الله أفاءه على المسلمين؛ فإنه خلق الخلق لعبادته، وأحل لهم الطيبات، ليأكلوا طيباً، ويعملوا صالحاً، والكفار عبدوا غيره، فصاروا غير مستحقين للمال، فأباح للمؤمنين أن يعبدوه، وأن يسترقوا أنفسهم، وأن يسترجعوا الأموال منهم، فإذا أعادها الله إلى المؤمنين منهم فقد فاءت: أي رجعت إلى مستحقيها.

وهذا الفيء يدخل فيه جزية الرؤوس التي تؤخذ من أهل الذمة، ويدخل فيه ما يؤخذ منهم من العشور، وأنصاف العشور، وما يُصالحُ عليه الكفار من المال، كالذي يحملونه، وغير ذلك. ويدخل فيه ما جَلَوْا عنه وتركوه خوفاً من المسلمين كأموال بني النضير، التي أنزل الله فيها «سورة الحشر» وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (١) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ

النَّارِ ﴿٢﴾ [الحشر] وهؤلاء أجلاهم النبي ﷺ وكانوا يسكنون شرقي المدينة النبوية، فأجلاهم بعد أن حاصروهم، وكانت أموالهم مما أفاء الله على رسوله) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ولهذا سمى الله ما عاد من أموالهم إلى المسلمين «فيئاً»: لأن الله أفاءه إلى مستحقه، أي رده إلى المؤمنين به الذين يعبدونه، ويستعينون برزقه على عبادته، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه، وإنما خلق الرزق لهم ليستعينوا به على عبادته، ولفظ «الفيء» قد يتناول «الغنيمة» كقول النبي ﷺ في غنائم حنين: «ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم» لكنه لما قال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ صار لفظ «الفيء» إذا أطلق في عرف الفقهاء: فهو ما أخذ من مال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب، والإيجاف نوع من التحريك) ا. هـ^(٢).

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْقُرَى وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبُرْجِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْوُحُوشِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ﴾
السَّيْلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا مَلَائِكُ الرُّسُولِ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾.

(والذي تنازع فيه أهل العلم فيه مأخذ، فتنازعوا في الخمس، لأن الله تعالى قال في القرآن: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْقُرَى وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبُرْجِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْوُحُوشِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ﴾
الْحَمَّانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ [الأنفال]، وقال في الفيء: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْقُرَى وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبُرْجِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْوُحُوشِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْبَنَاتِ﴾
بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ، وقد قال قبل ذلك: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾، وأصل الفيء الرجوع، والله خلق وعبدوا غيره لم يبقوا مستحقين للأموال، فأباح الله لعباده قتلهم وأخذ أموالهم، فصارت فيئاً أعاده الله على عباده المؤمنين، لأنهم هم المستحقون له، وكل مال أخذ من الكفار قد يسمى فيئاً حتى الغنيمة.

كما قال النبي ﷺ في غنائم حنين: «ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم».

لكن لما قال تعالى: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ وقال: ﴿تَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ صار اسم الفيء عند الإطلاق لما أخذ من الكفار بغير قتال.

وجمهور العلماء على أن الفيء لا يخمس، كقول مالك وأبي حنيفة وأحمد، وهذا قول السلف قاطبة، وقال الشافعي والخرقي ومن وافقه من أصحاب أحمد: يخمس، والصواب قول الجمهور. فإن السنن الثابتة عن النبي ﷺ وخلفائه تقتضي أنهم لم يخمسوا شيئاً قط، بل أموال بني النضير كانت أول الفيء، ولم يخمسها النبي ﷺ بل خمس غنيمة بدر، وخمس خيبر وغنائم حنين.

وكذلك الخلفاء بعده، لم يكونوا يخمسون الجزية والخراج.

ومنشأ الخلاف أنه لما كان لفظ آية الفيء واحداً، اختلف فهم الناس للقرآن، فرأت طائفة أن آية الخمس تقتضي أن يقسم الخمس بين الخمسة بالسوية، وهذا قول الشافعي وأحمد وداود الظاهري، لأنهم ظنوا أن هذا ظاهر القرآن، ثم إن آية الفيء لفظها كلفظ آية الخمس، فرأى بعضهم أن الفيء كله يصرف أيضاً مصرف الخمس إلى هؤلاء الخمسة، وهذا قول داود بن علي وأتباعه، وما علمت أحداً من المسلمين قال هذا القول قبله.

وهو قول يقتضي فساد الإسلام إذا دفع الفيء كله إلى هذه الأصناف، وهؤلاء يتكلمون أحياناً بما يظنونه ظاهر اللفظ، ولا يتدبرون عواقب قولهم، ورأى بعضهم أن قوله في آية الفيء: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ المراد بذلك: خمس الفيء، فرأوا أن الفيء يخمس، وهذا قول الشافعي ومن وافقه من أصحاب أحمد.

وقال الجمهور: هذا ضعيف جداً، لأنه قال: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، لم يقل: خمس لهؤلاء. ثم قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ٧ - ١٠] وهؤلاء هم المستحقون للفيء كله، فكيف يقول: المراد خمسة.

وقد ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما قرأ هذه الآية قال: «هذه عمت المسلمين كلهم»^(١).

وأما أبو حنيفة ومن وافقه فوافقوا هؤلاء على أن الخمس يستحقه هؤلاء، لكن قالوا: إن سهم الرسول كان يستحقه في حياته، وذوو قريبه كانوا يستحقونه لنصرهم له، وهذا قد سقط بموته فسقط سهمهم، كما سقط سهمه.

والشافعي وأحمد قالوا: بل يقسم سهمه بعد موته في مصرف الفيء. إما في الكراع والسلاح، وإما في المصالح مطلقاً، واختلف هؤلاء: هل كان الفيء ملكاً للنبي ﷺ في حياته؟ على قولين: أحدهما: نعم، كما قاله الشافعي وبعض أصحاب أحمد، لأنه أضيف إليه. والثاني: لم يكن ملكاً له، لأنه لم يكن يتصرف فيه تصرف المالك.

وقالت طائفة: ذوو القربى هم ذوو قربي القاسم المتولي، وهو الرسول في حياته، ومن يتولى الأمر بعده، واحتجوا بما روى عنه ﷺ أنه قال: «ما أطعم الله نبياً طعمة إلا كانت لمن يتولى الأمر بعده»^(١).

والقول الخامس قول مالك وأهل المدينة وأكثر السلف: أن مصرف الخمس والفيء واحد، وأن الجميع لله والرسول، بمعنى أنه يصرف فيما أمر الله به، والرسول هو المبلغ عن الله: «وَمَا ءَاتَكُمْ الرَّسُولُ فَاْخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهَوْا».

وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «إني والله لا أعطي أحداً ولا أ منع أحداً، وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت»^(٢). فدل على أنه يعطي المال لمن أمره الله به لا لمن يريد هو، ودل على أنه أضافه إليه لكونه رسول الله لا لكونه مالكاً له.

وهذا بخلاف نصيبه من المغنم وما وصى له به، فإنه كان ملكه، ولهذا سمي الفيء مال الله، بمعنى أنه المال الذي يجب صرفه فيما أمر الله به ورسوله، أي في طاعة الله، أي لا يصرفه أحد فيما يريد وإن كان مباحاً، بخلاف الأموال المملوكة.

وهذا بخلاف قوله: «وَعَاوَهُمْ مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ» [النور: ٣٣]، فإنه لم يصفه إلى الرسول بل جعله مما آتاهم الله. قالوا: وقوله تعالى: «وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ بْنِ السَّبِيلِ» تخصيص هؤلاء بالذكر للاعتناء بهم، لا لاختصاصهم بالمال. ولهذا قال: «كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» أي لا تتداولونه وتحرمون الفقراء. ولو كان مختصاً بالفقراء لم يكن للأغنياء فضلاً عن أن يكون دولة.

(١) أبو داود (٢٩٧٣) وأحمد (٤/١)، والبخاري (٥٤) وأبو يعلى (٣٧) وهو حديث حسن له شواهد.

(٢) مَرَّ تَخْرِيجُهُ.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ فدل على أن الرسول هو القاسم للقيء والمغانم، ولو كانت مقسومة محدودة كالقراض، لم يكن للرسول أمر فيها ولا نهى.

وأيضاً فالأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ وخلفائه تدل على هذا القول؛ فإن النبي ﷺ لم ي خمس قط خُمساً خمسة أجزاء ولا خلفاؤه، ولا كانوا يعطون اليتامى مثل ما يعطون المساكين، بل يعطون أهل الحاجة من هؤلاء وهؤلاء، وقد يكون المساكين أكثر من اليتامى الأغنياء، وقد كان بالمدينة يتامى أغنياء فلم يكونوا يسوون بينهم وبين الفقراء، بل ولا عرف أنهم أعطوهم، بخلاف ذوي الحاجة، والأحاديث في هذا كثيرة ليس هذا موضع ذكرها) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال ﷺ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ فهذا وأمثاله يبين أن الله ﷻ شأنه أوجب اتباعه فيما يقوله وإن لم يكن من القرآن، وأيضاً فرسالته اقتضت صدقه فيما يخبر به عن الله تعالى من القرآن وغير القرآن فوجب بذلك تصديقه فيما أخبر به وإن لم يكن ذلك من القرآن، والله ﷻ أعلم) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ لأن الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، وأما الحسب فهو لله وحده، كما قال: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [التوبة: ٥٩]، ولم يقل: حسبنا الله ورسوله وقال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ هُمْ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٤]، أي يكفيك الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين، وهذا هو الصواب المقطوع به في هذه الآية؛ ولهذا كانت كلمة إبراهيم ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - حسبنا الله ونعم الوكيل، والله ﷻ أعلم وأحكم، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال ﷺ: لما قال له اتق الله: «أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله»، وذلك لأن الله تعالى قال فيما بلغه إليهم الرسول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ بعد قوله: ﴿مَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية فبين سبحانه أن ما نهى عنه من مال الفبي فعلينا أن ننتهي عنه، فيجب أن يكون أحق أهل الأرض أن يتقي الله، إذ لولا ذلك لكانت الطاعة له ولغيره إن تساويا

(٢) الفتاوى (١٥١/٥) (الأصفهانية).

(١) منهاج السنة (١٠٦/٦ - ١١١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠٥/٢٧).

أو لغيره دونه إن كان دونه، وهذا كفر بما جاء به، وهذا ظاهر) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿كَى لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ فإذا جعل الفيء متداولاً بين الأغنياء فهذا الذي حرمة الله ورسوله، وهذه الآية في نفس الأمر) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ولأن الله تعالى قال في مال الفيء: ﴿كَى لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ فعلم أن الله يكره أن يكون المال دولة بين الأغنياء) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ فالله قد جعل الرسول مبلغاً لكلامه الذي هو أمره ونهيه ووعدته ووعيده) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (لأن الله سبحانه قال في مال الفيء: ﴿كَى لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ فأخبر سبحانه أنه شرع ما ذكره، لئلا يكون الفيء متداولاً بين الأغنياء، دون الفقراء، فعلم أنه سبحانه يكره هذا وينهى عنه ويذمه، فمن جعل الوقف للأغنياء فقط جعل المال دولة بين الأغنياء، فيتداولونه بطناً بعد بطن دون الفقراء، وهذا مضاد لله في أمره ودينه، فلا يجوز ذلك) ١. هـ^(٥).

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ﴾ ١. هـ^(٦).

(واعلم أنه ليس في المهاجرين منافق، وإنما كان النفاق في قبائل الأنصار، لأن أحداً لم يهاجر إلا باختياره، والكافر بمكة لم يكن يختار الهجرة، ومفارقة وطنه وأهله لنصر عدوه، وإنما يختاره الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ﴾) ١. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (وقال في أهل الفيء: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ﴾) ١. هـ^(٧).

(﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ

(١) الصارم المسلول (١٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣١).

(٣) مجموع الفتاوى (٣١/٣١ - ٣٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٤/١١).

(٥) مجموع الفتاوى (٥٨٥/٢٨).

(٦) الاستغاثة (٣٢٧).

(٧) منهاج السنة (٤٤٩/٨ - ٤٥٠).

رُسُلُهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا تَأْتِيكُمُ الرُّسُلُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ بَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴿٩﴾

(وَأَمَّا الْفِيءُ، فَأُصْلَحَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَشْرِ، الَّتِي أُنْزِلَهَا اللَّهُ فِي غَزْوَةِ بَنِي النُّضَيْرِ، بَعْدَ بَدْرٍ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا آفَاءُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٦١) مَا آفَاءُ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَالْمَسْكِينِ وَالْيَتَامَى وَالسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٦٢) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُّونَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ٦٣) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحْتَوُنَ مِنْ حَاجِرِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٦٤) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ٦٥) ﴿٦٥﴾

فذكر ﷺ المهاجرين والأنصار، والذين جاءوا من بعدهم على ما وصف، فدخل في الصنف الثالث كل من جاء على هذا الوجه إلى يوم القيامة؛ كما دخلوا في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥] وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَفْضَحْنَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠] وفي قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٢] ومعنى قوله: ﴿فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦] أي ما حركتم ولا سقتم خيلاً ولا إبلاً، ولهذا قال الفقهاء: إن الفيل هو ما أخذ من الكفار بغير قتال؛ لأن إيجاف الخيل والركاب هو معنى القتال. وسمي فيثاً؛ لأن الله أقامه على المسلمين أي رده عليهم من الكفار؛ فإن الأصل أن الله تعالى، إنما خلق

الأموال إعانة على عبادته؛ لأنه إنما خلق الخلق لعبادته، فالكافرون به أباح أنفسهم التي لم يعبدوه بها، وأموالهم التي لم يستعينوا بها على عبادته؛ لعباده المؤمنين الذين يعبدونه، وأفاء إليهم ما يستحقونه، كما يعاد على الرجل ما غصب من ميراثه، وإن لم يكن قبضه قبل ذلك؛ وهذا مثل الجزية التي على اليهود والنصارى، والمال الذي يصلح عليه العدو، أو يهدونه إلى سلطان المسلمين، كالحمل الذي يحمل من بلاد النصارى ونحوهم؛ وما يؤخذ من تجار أهل الحرب، وهو العشر، ومن تجار أهل الذمة إذا اتجروا في غير بلادهم، وهو نصف العشر، هكذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ، وما يؤخذ من أموال من ينقض العهد، منهم، والخراج الذي كان مضروباً في الأصل عليهم، وإن كان قد صار بعضه على بعض المسلمين) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وذكر مصارف الفيء بقوله: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ بَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ فَهَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ولهذا قال مالك^(٢) وأبو عبيد وأبو حكيم النهرواني من أصحاب أحمد وغيرهم: أن من سب الصحابة لم يكن له في الفيء نصيب) ١. هـ^(٣).

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ بَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٧٤ - ٢٧٦). (٢) قول مالك في زاد المسير (٨/ ٢١٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٦٤).

(وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِآلِيَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ٧٥﴾ [الأنفال: ٧٢ - ٧٥]، فهذه عامة. وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ٨﴾ وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١٠﴾.

فهذه الآية والتي قبلها: تتناول من دخل فيها بعد السابقين الأولين إلى يوم القيامة؛ فكيف لا يدخل فيها أصحاب رسول الله ﷺ الذين آمنوا به وجاهدوا معه؟ ١. هـ^(١).

﴿وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٩﴾.

(وقوله ﷺ في حديث الأنصاري الذي أضاف رجلاً وآثره على نفسه وأهله، فلما أصبح الرجل غدا على رسول الله ﷺ فقال: «لقد ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما»^(٢)) وأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وهذه الأحاديث كلها في الصحيحين) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (إنه قد ثبت في الصحيح عن بعض الأنصار أنه أثر ضيفه بعشائهم، ونوم الصبية، وبات هو وامراته طاويين، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وهذا المدح أعظم من المدح بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّلَعَ عَلَىٰ حَبْوَةٍ مَشِيئًا﴾ [الإنسان: ٨] فإن هذا كقوله: ﴿وَعَاقَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَلِإِيتَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ [البقرة: ١٧٧] ١. هـ^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (٤/٤٦٢ - ٤٦٣).

(٢) البخاري (٥/٣٤)، ومسلم (٣/١٦٢٤ - ١٦٢٥).

(٣) درء تعارض العقل (٢/١٢٧ - ١٢٨). (٤) منهاج السنة (٧/١٨٣ - ١٨٤).

وقال رحمه الله: (وقد أنزل الله في بعض الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نساؤه، فقالت: والذي بعثك بالحق نبياً ما عندي إلا ماء. ثم إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال: «من يضيفه هذه الليلة رحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله وانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ فقالت: لا إلا قوت صبياننا، فقال: فعلليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئي. قال: فقعدوا [أفأكل الضيف] فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فقال: «قد عجب الله من صنعكما بضيفكما الليلة» وفي رواية فتزلت هذه الآية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا» (٢) وكان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء في طوافه يقول: اللهم قني شح نفسي فقال له رجل: ما أكثر ما تدعو بهذا؟ فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة، والحسد يوجب الظلم (٣) هـ. ١ (٤).

وقال رحمه الله: (وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي مما أوتي إخوانهم المهاجرون، قال المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة أي حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون، ثم قال بعضهم من مال الفتي، وقيل من الفضل والتقدم، فهم لا يجدون حاجة مما أوتوا من المال ولا من الجاه، والحسد يقع على هذا) هـ. ١ (٥).

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فحصر المفلحين فيمن يوق شح نفسه، والشح الذي لا يحب فعل الخير، والذي يضر نفسه، ويكره النعمة على غيره) هـ. ١ (٦).

- | | |
|------------------------------------|------------------------------|
| (١) منهاج السنة (٧/ ١٦٥ - ١٦٦). | (٢) مَرَّ تَخْرِيجِهِ. |
| (٣) مَرَّ الْكَلَامِ عَلَيْهِ. | (٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٢٩). |
| (٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ١١٩ - ١٢٠). | (٦) مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٣٥). |

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿وَلَا يَحْدُونِ فِي سُذُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فأخبر عنهم بأنهم يبذلون ما عندهم من الخير مع الحاجة، وأنهم لا يكرهون ما أنعم به على إخوانهم، وضد الأول البخل، وضد الثاني الحسد، ولهذا كان البخل والحسد من نوع واحد، فإن الحاسد يكره عطاء غيره، والباخل لا يحب عطاء نفسه، ثم قال: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فإن الشح أصل للبخل، وأصل للحسد، وهو ضيق النفس وعدم إرادتها وكرهاتها للخير على الغير، فيتولد عن ذلك امتناعه من النفع، وهو البخل وإضرار المنعم عليه وهو الظلم، وإذا كان في الأقارب كان قطيعة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ولهذا قال الله تعالى في وصف الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل المهاجرين: ﴿وَلَا يَحْدُونِ فِي سُذُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾؛ أي لا يجدون الحسد مما أوتي إخوانهم من المهاجرين؛ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ثم قال: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. ورؤي عبد الرحمن بن عوف يطوف بالبيت ويقول: رب قني شح نفسي! رب قني شح نفسي! فقيل له في ذلك فقال: إذا وقيت شح نفسي فقد وقيت البخل والظلم والقطيعة، أو كما قال.

فهذا الشح الذي هو شدة حرص النفس بوجب البخل يمنع ما هو عليه: والظلم بأخذ مال الغير. ويوجب قطيعة الرحم، ويوجب الحسد، وهو كراهة ما اختص به الغير، والحسد فيه بخل وظلم؛ فإنه بخل بما أعطيه غيره؛ وظلمه بطلب زوال ذلك عنه) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ﴾: هو أن لا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه، ولا يمنع شيئاً أمره الله بأدائه «فالشح» يأمر بخلاف أمر الله ورسوله، فإن الله ينهى عن الظلم ويأمر بالإحسان، والشح يأمر بالظلم وينهى عن الإحسان.

وقد كان عبد الرحمن بن عوف يكثر في طوافه بالبيت وبالوقوف بعرفة أن يقول: اللهم قني شح نفسي، فسئل عن ذلك فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الظلم والبخل والقطيعة، وفي رواية عنه قال: إني أخاف أن أكون قد هلكت قال: وما ذاك؟ قال:

اسمع الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال: ليس ذاك بالشح الذي ذكره الله في القرآن، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً، وإنما يكن^(١) بالبخل، وبش الشيء البخل.

وقد ذكر تعالى «الشح» في سياق ذكر الحسد والإيثار في قوله: ﴿وَلَا يَحْدُونِ فِي سُودِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ - ثم قال - ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فمن وقى شح نفسه لم يكن حسوداً باغياً على المحسود، و«الحسد» أصله بغض المحسود.

و«الشح» يكون في الرجل مع الحرص وقوة الرغبة في المال وبغض للغير وظلم له، كما قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّنِينَ مِنكُمُ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ ﴿ الآيات - إلى قوله - ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَخَبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٨، ١٩] فشحهم على المؤمنين وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه، وبغض الخير يأمر بالشر وبغض الإنسان يأمر بظلمه وقطيعة كالحسد؛ فإن الحاسد يأمر حاسده بظلم المحسود وقطيعة، كابني آدم وإخوة يوسف.

«فالحسد والشح» يتضمنان بغضاً وكراهية فيأمران بمنع الواجب وبظلم ذلك الشخص، فإن الفعل صدر فيه عن بغض، بخلاف الهوى فإن الفعل صدر فيه عن حب أحب شيئاً فاتبعه ففعله، وذلك مقصوده أمر عديمي والعدم لا ينفع، ولكن ذاك القصد أمر بأمر وجودي، فأطيع أمره.

وابن مسعود جعل البخل خارجاً عن الشح والنيي ﷺ جعل الشح يأمر بالبخل. ومن الناس من يقول: «الشح، والبخل» سواء، كما قال ابن جرير: الشح في كلام العرب هو «البخل» ومنع الفضل من المال، وليس كما قال، بل ما قاله النبي ﷺ وابن مسعود أحق أن يتبع؛ فإن «البخل» قد يبخل بالمال محبة لما يحصل له به من اللذة والتنعيم وقد لا يكون متلذذاً به ولا متنعماً بل نفسه تضيق عن إنفاقه وتكره ذلك حتى يكون يكره أن ينفع نفسه منه مع كثرة ماله، وهذا قد يكون مع التذاهد بجمع المال ومحبة لرؤيته، وقد لا يكون هناك لذة أصلاً؛ بل يكره أن يفعل إحساناً إلى أحد حتى لو أراد غيره أن يعطي كره ذلك منه بغضاً للخير لا للمعطي ولا للمعطى، بل بغضاً منه

للخير وقد يكون بغضاً وحسداً للمعطي أو للمعطي وهذا هو «الشح» وهذا هو الذي يأمر بالبخل قطعاً، ولكن كل بخل يكون عن شح، فكل شحيح بخيل وليس كل بخيل شحيحاً.

قال الخطابي: «الشح» أبلغ في المنع من البخل والبخل إنما هو من أفراد الأمور وخواص الأشياء والشح عام فهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والجملة.

وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال: «البخل» أن يظن^(١) الإنسان بماله و«الشح» أن يظن^(٢) بماله ومعروفه وقيل «الشح» أن يشح بمعروف غيره على غيره و«البخل» أن يبخل بمعروفه على غيره والذين يتبعون الشهوات ويتبعون أهواءهم يحبون ذلك ويريدونه فاتبعوا محبتهم وإرادتهم من غير علم، فلم ينظروا هل ذلك نافع لهم في العاقبة أو ضار^(٣) ا. هـ.

وقال رحمه الله: (في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»).

ولهذا قال (الله تعالى) في وصف الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل المهاجرين: ﴿وَلَا يَحْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي لا يجدون الحسد مما أوتي إخوانهم من المهاجرين: ﴿وَيُؤْفِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ثم قال: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وروى عبد الرحمن بن عوف يطوف بالبيت ويقول: رب قني شح نفسي، رب قني شح نفسي، رب قني شح نفسي، فقبل له في ذلك، فقال: إذا وقيت شح نفسي فقد وقيت البخل والظلم والقطيعة، أو كما قال.

فهذا الشح، الذي هو شدة حرص النفس، يوجب البخل بمنع ما هو عليه، والظلم بأخذ مال الغير ويوجب قطيعة الرحم، ويوجب الحسد، وهو كراهة ما اختص به الغير وتمني زواله. والحسد فيه بخل وظلم، فإنه بخل بما أعطيه عن غيره. وظلمه بطلب زوال ذلك عنه^(٤) ا. هـ.

(١)، (٢) كذا في الأصل، والصواب: يظن أي يبخل.

(٣) مجموع الفتاوى (٥٨٩/١٠ - ٥٩٢). (٤) الاستقامة (٢/٢٤٣ - ٢٤٥).

عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ
جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا
غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ ، وهذه الآيات تتضمن الشاء على المهاجرين
والأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله أن لا يجعل في
قلوبهم غلا لهم ، وتضمن أن هؤلاء الأصناف هم المستحقون للفيء) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فأجاب الآخرون عن هذا بأن الله قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ قالوا: فهذا عطف مفرد على مفرد، والفعل حال من المعطوف فقط، وهو نظير قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧٠] هـ^(٢).

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾

(ونستغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، فنقول: **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ**، وهذا أمر واجب على المسلمين في كل ما كان يشبه هذا من الأمور) ١. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾)، فجعل سبحانه ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى للمهاجرين والأنصار والذين جاءوا من بعدهم مستغفرين للسابقين وداعين الله أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم، فعلم أن الاستغفار لهم وطهارة القلب من الغل لهم أمر يحبه الله، ويرضاه، ويشي على فاعله، كما أنه قد أمر بذلك رسوله في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] وقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ومحبة الشيء كراهته لخصه، فيكون الله يكره السب لهم الذي هو ضد

(۲) مجموع الفتاوى (۱۷/۳۹۲ - ۳۹۳).

(١) منهاج السنة (٢/١٨).

(۳) مجموع الفتاوی (۳۲/۲۳۹).

الاستغفار والبغض لهم الذي هو ضد الطهارة، وهذا معنى قول عائشة رضي الله عنها: «أمروا بالاستغفار لأصحاب محمد فسبواهم»^(١) رواه مسلم.

وعن مجاهد عن ابن عباس قال: «لا تسبوا أصحاب محمد إن الله قد أمر بالاستغفار لهم، وقد علم أنهم سيقتلون» رواه الإمام أحمد.

وعن سعد بن أبي وقاص قال: «الناس على ثلاث منازل، فمضت منزلتان وبقيت واحدة، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزل التي بقيت، قال: ثم قرأ: ﴿لِلْفَقْرَةِ الْمُهَاجِرَةِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَرَضُونَا﴾ فهؤلاء المهاجرون، وهذه منزلة قد مضت: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله ﴿وَلَوْ كَانَ يَهُمْ خَصَاصَةً﴾ قال: هؤلاء الأنصار، وهذه منزلة قد مضت، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ إلى قوله ﴿رَحِيمٌ﴾ قد مضت هاتان، وبقيت هذه المنزل، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزل التي بقيت، يقول: أن تستغفروا لهم» ولأن من جاز سبه بعينه أو بغيره لم يجز الاستغفار له) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (من خرج عن القانون النبوي الشرعي المحمدي الذي دل عليه الكتاب والسنة احتاج أن يضع قانوناً آخر متناقضاً برده العقل والدين، لكن من كان مجتهداً في طاعة الله ورسوله، فإن الله يثيبه على اجتهاده ويغفر له خطأه ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد قال كثير من السلف: إن الرافضة لا حق لهم من الفيء؛ لأن الله إنما جعل الفيء للمهاجرين والأنصار، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾) ٢. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ أي قائلين، وكلا القولين حق باعتبار) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وإذا قال المؤمن: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا

(٢) الصارم المسلول (٥٧٥ - ٥٧٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٠٥/٢٨).

(١) مسلم (٣٠٢٢).

(٣) طريق الوصول (٧٢/٤).

(٥) الجواب الصحيح (٤٧٢).

بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ يَقْصِدُ كُلٌّ مِنْ سَبْقِهِ مِنْ قُرُونِ الْأُمَّةِ، بِالْإِيمَانِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَخْطَأَ فِي تَأْوِيلِ تَأْوِيلِهِ فَخَالَفَ السَّنَةَ، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَإِنَّهُ مِنْ إِخْوَانِهِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ بِالْإِيمَانِ، فَيَدْخُلُ فِي الْعُمُومِ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الثَّانِيَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فَرَقَهُ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ فَرَقَةٍ إِلَّا وَفِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ لَيْسُوا كُفَرَاءً، بَلْ مُؤْمِنِينَ فِيهِمْ ضَلَالٌ وَذَنْبٌ يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْوَعِيدَ، كَمَا يَسْتَحِقُّهُ عَصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ ١. هـ^(١).

﴿١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِيَنَّ الْأَذُنُ شَرَّ لَآ يَنْصُرُونَ ﴿٣﴾﴾

(وقال تعالى عن المنافقين:

﴿١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِيَنَّ الْأَذُنُ شَرَّ لَآ يَنْصُرُونَ ﴿٣﴾﴾

وكذلك كان، فروى أهل التفسير والمغازي والسير: أن هذه الآية نزلت في المنافقين، كعبد الله بن أبي^(٢) وعبد الله...، بن نبيل، ورفاعة بن تابوت ونحوهم، كانوا يقولون لبني النضير، - وهم اليهود حلفاؤهم -: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ...﴾ الآية.

فأخبر الله عنهم أنهم لن يفعلوا ذلك. وكذلك كان، وضرب الله لهم مثلاً بالشيطان: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، كذلك المنافقون وبنو النضير ١. هـ^(٣).

﴿١﴾ لَا يَنْفُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍ جَدِّمٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَرِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾

(ولم يخرجوا لقتال حتى ينهزم أحد منهم، وإنما كانوا في حصن يقاتلون من

(١) منهاج السنة (٥/ ٢٤٠ - ٢٤١).

(٢) زاد المسير (٨/ ٢١٧).

(٣) الجواب الصحيح (٦/ ٧٨ - ٧٩).

ورائه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَنْفِلُوكُمْ حِيبًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَدَاءِ جَدْرٍ بِأَسْهُمٍ بِتَنَاهٍ شَدِيدٌ تَحَصَّهُمْ جِيْعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى﴾ (١) هـ. (١).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢).

(قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ وفي الحديث الصحيح، يقول الله للكاfer: فاليوم أنساك كما نسيتني) (٢) هـ. (٢).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ يقتضي أن نسيان الله كان سبباً لنسيانهم أنفسهم، وأنهم لما نسوا الله عاقبهم بأن أنساهم أنفسهم.

ونسيانهم أنفسهم يتضمن إعراضهم وغفلتهم وعدم معرفتهم بما كانوا عارفين به قبل ذلك من حال أنفسهم، كما أنه يقتضي تركهم لمصالح أنفسهم، فهو يقتضي أنهم لا يذكرون أنفسهم ذكراً يتفعلا ويصلحها، وأنهم لو ذكروا الله لذكروا أنفسهم.

وهذا عكس ما يقال: «من عرف نفسه عرف ربه» وبعض الناس يروي هذا عن النبي ﷺ وليس هذا من كلام النبي ﷺ، ولا هو في شيء من كتب الحديث، ولا يعرف له إسناد.

ولكن يروى في بعض الكتب المتقدمة - إن صح - «يا إنسان إعرف نفسك تعرف ربك». وهذا الكلام سواء كان معناه صحيحاً أو فاسداً لا يمكن الاحتجاج بلفظه، فإنه لم يثبت عن قائل معصوم، لكن إن فسر بمعنى صحيح عرف صحة ذلك المعنى، سواء دل عليه هذا اللفظ أو لم يدل.

وإنما القول الثابت ما في القرآن، وهو قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾. فهو يدل على أن نسيان الرب موجب لنسيان النفس.

وحينئذ، فمن ذكر الله ولم ينسه يكون ذاكراً لنفسه، فإنه لو كان ناسياً لها - سواء ذكر الله أو نسيه - لم يكن نسيانها مسبباً عن نسيان الرب، فلما دلت الآية على أن نسيان الإنسان نفسه مسبب عن نسيانه لربه دل على أن الذاكر لربه لا يحصل له هذا النسيان لنفسه.

والذكر يتضمن ذكر ما قد علمه، فمن ذكر ما يعلمه من ربه ذكر ما يعلمه من نفسه، وهو قد ولد على الفطرة التي تقتضي أنه يعرف ربه ويحبه ويوحده، فإذا لم ينس ربه الذي عرفه، بل ذكره على الوجه الذي يقتضي محبته ومعرفته وتوحيده، ذكر نفسه، فأبصر ما كان فيها قبل من معرفة الله ومحبه وتوحيده.

وأهل البدع - الجهمية ونحوهم - لما أعرضوا عن ذكر الله - الذكر المشروع الذي كان في الفطرة وجاءت به الشريعة، الذي يتضمن معرفته ومحبته وتوحيده - نسوا الله من هذا الوجه. فأنساهم أنفسهم من هذا الوجه، فنسوا ما كان في أنفسهم من العلم الفطري، والمحبة الفطرية، والتوحيد الفطري.

وقد قال طائفة من المفسرين: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي تركوا أمر الله ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي حفظوا أنفسهم حيث لم يقدموا لها خيراً، هذا لفظ طائفة منهم البغوي^(١)، ولفظ آخرون منهم ابن الجوزي^(٢): حين لم يعملوا بطاعته، وكلاهما قال: (نسوا الله) أي تركوا أمر الله، ومثل هذا التفسير يقع كثيراً في كلام من يأتي بمجمل من القول يبين معنى دلت عليه الآية ولا يفسرها بما يستحقه من التفسير. فإن قولهم «تركوا أمر الله» هو تركهم للعمل بطاعته، فصار الأول هو الثاني، والله سبحانه قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾. فهنا شيان: نسيانهم لله، ثم نسيانهم لأنفسهم الذي عوقبوا به، فإن قيل: هذا الثاني هو الأول لكنه تفصيل مجمل، كقوله: ﴿وَكَمْ مِّن قَرَبٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَّتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف] وهذا هو هذا؛ قيل: هو لم يقل «نسوا الله فنسوا حظ أنفسهم» حتى يقال: هذا هو هذا، بل قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، فثم إنساء منه لهم أنفسهم، ولو كان هذا هو الأول لكان قد ذكر ما يعذرهم به، لا ما يعاقبهم به.

فلو كان الثاني هو الأول لكان: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي تركوا العمل بطاعته، فهو الذي أنساهم ذلك، ومعلوم فساد هذا الكلام لفظاً ومعنى، ولو قيل: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي نسوا أمره ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾ العمل بطاعته، أي تذكرها، لكان أقرب، ويكون النسيان الأول على بابه، فإن من نسي نفس أمر الله لم يطعه، ولكن هم فسروا نسيان الله بترك أمره. وأمره الذي هو كلامه ليس مقدوراً لهم حتى يتركوه، إنما يتركون العمل به، فالأمر بمعنى المأمور به.

إلا أن يقال: مرادهم بترك أمره هو ترك الإيمان به، فلما تركوا الإيمان أعقبهم بترك العمل. وهذا أيضاً ضعيف، فإن الإيمان الذي تركوه إن كان هو ترك التصديق فقط فكفى بهذا كفراً وذنباً، فلا تجعل العقوبة ترك العمل به، بل هذا أشد. وإن كان المراد بترك الإيمان ترك الإيمان تصديقاً وعملاً فهذا هو ترك الطاعة كما تقدم.

وهؤلاء أتوا من حيث أرادوا أن يفسروا نسيان العبد بما قيل في نسيان الرب، وذلك قد فسر بالترك، ففسروا هذا بالترك. وهذا ليس بجيد، فإن النسيان المناقض للذكر جائز على العبد بلا ريب، والإنسان يعرض عما أمر به حتى ينساه، فلا يذكره، فلا يحتاج أن يجعل نسيانه تركاً مع استحضار وعلم.

وأما الرب تعالى فلا يجوز عليه ما يناقض صفات كماله ﷻ، وفي تفسير نسيانه الكفار بمجرد الترك نظر.

ثم هذا قيل في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَمَا فَصِيتَ﴾ [طه: ١٢٦]، أي تركت العمل بها، وهنا قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾، ولا يقال في حق الله «تركوه» (١) هـ.

﴿وَنَلِكُ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢) هـ.

وقال رحمه الله: (فحضر على تدبره وفقهه وعقله والتذكر به والتفكير فيه ولم يستثن من ذلك شيئاً؛ بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أمر على قلوب أقفالها (٣) [محمد]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء]، ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله، وإلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفته (٤) ما لم يتدبر لما تدبر (١) هـ.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٥) هـ.

(قال سبحانه) ﴿الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ والقدوس مأخوذ من التقديس وهو التطهير، ومنه سمي القدوس قدوساً (٦) هـ.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٧) هـ. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٨) هـ.

(قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٩) هـ. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ

(١) مجموع الفتاوى (٣٤٨/١٦ - ٣٥٣).

(٢) كذا في الأصل، والصواب: مخالفة.

(٣) بيان تلبس الجهمية (٥٣٧/٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٠٧/١٣).

(٥)

الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، فذكر نفسه بأنه الخالق البارئ المصور، ولم يصف قط شيئاً من المخلوقات بهذا لا ملكاً ولا نبياً (١) هـ.

وقال في أواخر الحشر:

(كذلك آخر سورة الحشر هي من أعظم آيات الصفات) (٢) هـ.

(١) الجواب الصحيح (٤/٤٥).

(٢) الفتاوى التسعينية (٥/٦).

سورة الممتحنة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِهِ مَرْضًا قَاتِلُونَهُمْ أَلَيْسَ الْأَمْرُ بِنَا عَلَيَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فَقَدْ تَكُنَّ مِثْلُ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۚ﴾ (١)

(وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنباً ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافراً كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة، لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ وأنزل الله فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ (١) هـ. ا.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ وثبت في الصحاح أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين بمكة، فأرسل النبي ﷺ علياً والزبير ليأتيا بالمرأة التي كان معها الكتاب وعلي كان بريئاً من ذنب حاطب، فكيف يجعل رأس المخاطبين الملامين على هذا الذنب؟) هـ. ا. (٢)

وقال رحمه الله: (وفي الصحيح أن غلام حاطب بن أبي بلتعة قال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار. فقال: «كذبت، إنه شهد بدرأ والحديبية» (٣)، وحاطب هذا هو الذي كاتب المشركين بخبر النبي ﷺ، وبسبب ذلك نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ الآية، وكان مسيئاً إلى ممالكه، ولهذا قال مملوكه هذا القول، وكذبه النبي ﷺ وقال: «إنه شهد بدرأ والحديبية» وفي الصحيح «لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة» (٤) هـ. ا. (٥)

وقال رحمه الله: (كما [ثبت] في الصحيحين عن علي وغيره في قصة حاطب بن أبي بلتعة، وكان من أهل بدر والحديبية، وقد ثبت في الصحيح أن غلامه قال: يا

- (١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٢ - ٥٢٣).
- (٢) منهاج السنة (٧/ ٢٣٣ - ٢٣٤)، جامع المسائل (٣/ ٧٩) قريباً منه.
- (٣) البخاري (٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤). (٤) مَرَّ تَحْرِيجِهِ.
- (٥) منهاج السنة (٧/ ٥٦).

رسول الله، والله ليدخلن حاطب النار. فقال له النبي ﷺ: «كذبت إنه شهد بدرًا والحديبية» وفي حديث علي أن حاطبًا كتب إلى المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ لما أراد غزوة الفتح فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال لعلي والزبير «اذهبا حتى تأتيا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب» فلما أتيا بالكتاب، قال: «ما هذا يا حاطب؟» فقال: والله يا رسول الله ما فعلت هذا ارتداداً ولا رضاء بالكفر، ولكن كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم بمكة قرابات يحمون بها أهلهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، فقال عمر رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه شهد بدرًا، وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال: إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وأنزل الله تعالى أول سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّيْكُمْ وَلَكُمْ أُولِيَاءَ تَتَّقُونَ﴾ الآية وهذه القصة مما اتفق أهل العلم على صحتها وهي متواترة عندهم، معروفة عند علماء التفسير، وعلماء الحديث، وعلماء المغازي والسير والتواريخ، وعلماء الفقه، وغير هؤلاء وكان علي رضي الله عنه يحدث بهذا الحديث في خلافته بعد الفتنة، وروى ذلك عنه كاتبه عبد الله بن أبي رافع ليبين [لهم] أن السابقين مغفور لهم، ولو جرى منهم ما جرى) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فكذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّيْكُمْ وَلَكُمْ أُولِيَاءَ تَتَّقُونَ﴾ إليهم بِالْمُؤَدَّةِ وعلى زعمهم ما لله عدو أصلاً، وأنه ما ثم غير، ولا سوى، بحيث يتصور أن يكون عدو نفسه، أو عدو الذوات التي لا يظهر إلا بها) ١. هـ^(٢).

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَنُؤْمِنُكَ إِنَّا تَرَاءُوا مِنْكُمْ وَمَا ظَنُّوا أَنْ يَكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرًا يُكُفِّرُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا﴾.

(قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّيْكُمْ وَلَكُمْ أُولِيَاءَ تَتَّقُونَ﴾ إليهم بِالْمُؤَدَّةِ) إلى قوله: ﴿حَتَّى تَقُومُوا لِلَّهِ وَحَدًّا﴾ فأمر بالتأسي بإبراهيم ومن معه لما تبرأوا من المشركين وما يعبد المشركون، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء حتى يؤمنوا بالله وحده، فالمشرك والآمر بالشرك والراضي به معاد لله، ومن عادى الله فقد عادى أنبياءه وأوليائه) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ

(١) منهاج السنة (٤/ ٣٣٠ - ٣٣١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥). والشيخ يرّد على أهل الاتحاد من طائفة ابن عربي.

(٣) الرد على الأختائي (٢١٥).

قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴿١﴾ ، فأمر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم ومن معه حيث أبدوا العداوة والبغضاء لمن أشرك حتى يؤمنوا بالله وحده، فأين هذا من حال من لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة؟ ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (أن الله تعالى قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿لَا سَتْفِيرَ لَكَ وَمَا أَمَلُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْغَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، فأمر بالتأسي بإبراهيم والذين معه، إلا في وعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار، وأخبر أنه لما تبين أنه عدو لله تبرأ منه، والله أعلم) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ وهذا يناسب مقصود الخطيب.

فإن مقصوده أن يتبرأ مما سوى الله ليس مقصوده أن يتبرأ إليه، لكن الخطيب قصد البراءة من الالتجاء إلا إليه، والالتجاء إليه داخل في عبادته، فهو بعض ما دل عليه قول إبراهيم، فإن الواجب أن يتبرؤوا من أن يعبدوا إلا الله أو يتوكلوا إلا عليه، وهذا تحقيق التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب، لكن الإنسان قد يكون مقصوده إخلاص العبادة في مسألته ودعائه والتوكل عليه والالتجاء إليه؛ وهذا هو المعنى الذي قصده الخطيب، وهو معنى صحيح يدل عليه لفظه بحقائق دلالات الألفاظ، والمنكر قصد معنى صحيحاً؛ والمستدل قصد معنى صحيحاً؛ لكن الإنسان لا ينوي كثيراً من نفي ما لا يعلم إلا من إثبات ما يعلم، والله ﷻ أعلم) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقولهم: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ومن عبادتهم ومن كونهم معبودين، كما قال الخليل ﷺ: ﴿يَقُولُوا إِنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]. فهو بريء من كل شريك لله من جهة كونه جعل شريكاً ونداً لله، ولم يبرأ منه من جهات أخرى فإبراهيم لم يبرأ من الشمس والقمر والكواكب من جهة كونها مسخرة لمنافع العباد، وكونها تسجد لله وتسبحه، وكونها من آياته العظيمة، بل من جهة

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٣٢٧).

(١) مجموع الفتاوى (٨/٣٦١).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/٥٥٣ - ٥٥٤).

كونها شركاء لله وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨] وإن كان يقال: ما مصدرية، أي من شرككم فقد صرح في قوله: ﴿إِنَّا بَرِيءُونَ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي برآء من المعبودين من دون الله، وكذلك قوله: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥] ﴿أَنْتُمْ وَمَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ﴿فَأْتِهِمْ عَذَابٌ لَيْسَ إِلَّا رَجَبُ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٦] أما الأوثان ونحوها فتعادي مطلقاً، والشمس والقمر والملائكة والكواكب تعادي عبادتها وكونها آلهة معبودة، فتبغض من هذه الجهات وتعادي، مع وجوب الإيمان بالملائكة، وإذا قيل للنصارى: نحن برآء من شرككم ومما تعبدون من دون الله وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦] [المائدة] هذا بعد قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] فقد عبد المسيح وغيره، فالبراءة من كل معبود سوى الله كالبراءة من كل إله سوى الله، وذلك براءة من الشرك ومن كون ما سوى الله معبوداً، وليس هو براءة من المسيح من جهة كونه رسولاً كريماً وجيهاً عند الله، بل براءة مما قيل فيه من الباطل لا من الحق، والمسيح والملائكة وغيرهم يتبرؤون ممن عبدوهم ويعادونهم ولا يوالونهم، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لِي إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَكَ﴾ [إلى قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤٠، ٤١] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الفرقان: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الفصص: ١٧] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الكهف: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿أَبَرِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُوا وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤] وهو سبحانه لم ينه عن موالاتهم دونه، فمن أحبهم ووالاهم لله فهو موحد ومن جعلهم أنداداً وأحبهم كما يحب الله فهو مشرك، فالحب لله توحيد وإيمان، والحب كما يحب الله شرك وكفر، وكذلك الشفاعة قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ١٤] وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٧٠] وقال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣] وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] فتبين أنه لا تنفع شفاعة الملائكة والأنبياء ولا غيرهم إلا لمن أذن له حتى إذا قضى الأمر ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله تعالى كأنه

سلسلة على صفوان، وصعقوا فلا يعلمون ما قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣] فحيث يعلمون ما قضى به، فكيف يشفعون يدون إذنه؟ قال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْقُونَهُ إِلَّا أَلْقَابٌ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَتَمَتَّلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء] وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ [الزمر: ٤٣] ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله رداً على القائلين باتحاد الخالق بالمخلوق: (وكذلك أيضاً قول الخليل لقومه: ﴿إِنَّا بَرَاءُؤُكُمْ وَإِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تبرأ عندهم من الحق الذي ظهر فيهم وفي آلهتهم، وكذلك كفره به ومعاداته لهم كفر بالحق عندهم ومعادة له، ثم قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَيَّتُوا عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ﴾ كلام لا معنى له عندهم، فإنهم كانوا مؤمنين بالله وحده، إذ لا يتصور عندهم غيره، وإنما غايتهم أنهم عبدوه في بعض المظاهر، وتركوا بعضها من غير كفر به فيها.

وكذلك سائر ما قصه عن إبراهيم من معاداته لما عبده أولئك هو عندهم معادة الله لأنه ما عبد غير الله كما زعم الملحدون محتجين بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] قالوا: وما قضى الله شيئاً إلا وقع.

وهذا هو الإلحاد في آيات الله، وتحريف الكلم عن مواضعه، والكذب على الله، فإن «قضى» هنا ليست بمعنى القدر والتكوين بإجماع المسلمين، بل وإجماع العقلاء، حتى يقال: ما قدر الله شيئاً إلا وقع، وإنما هي بمعنى أمر، وما أمر الله به فقد يكون وقد لا يكون؛ فتدبر هذا التحريف) ١. هـ^(٢).

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) كما قال تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) فجعل بين أولئك وبين النبي ﷺ مودة تجب تلك العداوة، والله قدير على قلب القلوب، وهو غفور رحيم، غفر الله ما كان من السيئات بما بدلوه من الحسنات، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وأما معاوية رضي الله عنه فكان أبوه شديد العداوة للنبي ﷺ وكذلك أمه

(١) الرد على الأخناتي (٢١٦ - ٢١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٦٣/٢).

(٣) منهاج السنة (٣٥٩/٦).

حتى أسلمت، فقالت: «والله يا رسول الله ما كان على وجه الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خباثك، وما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خباثك»^(١) أخرجه البخاري.

وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) فإن الله جعل بين النبي ﷺ وبين الذي عادوه، كأبي سفيان وهند وغيرهما مودة والله قدير على تبديل العداوة بالمودة، وهو غفور لهم بتوبتهم من الشرك، رحيم بالمؤمنين، وقد صاروا من المؤمنين) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكما فعل سبحانه بقيادة الأحزاب الذين كانوا عدواً لله وللمؤمنين وقال فيهم ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] ثم قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) وفي هذا ما دل على أن الشخص قد يكون عدواً لله ثم يصير ولياً لله موالياً لله ورسوله والمؤمنين) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) نزلت في المشركين الذين عادوا الله ورسوله مثل «أهل الأحزاب» كأبي سفيان بن حرب، وأبي سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة ابن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وغيرهم فإنهم بعد معاداتهم لله ورسوله جعل الله بينهم وبين الرسل والمؤمنين مودة، وكانوا في ذلك متفاضلين وكان عكرمة وسهيل والحارث بن هشام أعظم مودة من أبي سفيان بن حرب ونحوه، وقد ثبت في الصحيح أن هند امرأة أبي سفيان أم معاوية قالت: والله يا رسول الله! ما كان على وجه الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خباثك، وقد أصبحت وما على وجه الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خباثك فذكر النبي ﷺ لها نحو ذلك) ا.هـ^(٤).

﴿لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨)

(ومثل حديث أسماء بنت أبي بكر لما قدمت أمها وكانت مشركة، فقالت: يا

(١) البخاري (٨/١٣١)، ومسلم (٣/١٣٣٩). (٢) منهاج السنة (٤/٤٣٠).

(٣) النبوات (٨٧). (٤) مجموع الفتاوى (١٠/٣٠٥ - ٣٠٦).

رسول الله: إن أمي قدمت، وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «صلي أمك»^(١) والحديث في الصحيحين. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿لَا يَتَنَكَّرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُّوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوهُ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(٣) [البقرة] ا. هـ^(٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُسْلِمَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَحِلُّ لَهُنَّ وَأَمَّاوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَاسْتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُخَكِّمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٥).

(فقد قال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ قال: هذا نزل عام الحديبية، والمراد به المشركات، فإن سبب النزول يدل على أنهن مرادات قطعاً، وسورة المائدة بعد ذلك، فهي خاص متأخر وذاك عام متقدم، والخاص المتأخر أرجح من العام المتقدم.

ولهذا لما نزل قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ فارق عمر امرأة مشركة^(٦)، وكذلك غيره، فدل على أنهم كانوا ينكحون المشركات إلى حين نزول هذه الآية، ولو كانت آية البقرة قد نزلت قبل هذه لم يكن كذلك؛ فدل على أن آية البقرة بعد آية الممتحنة، وآية المائدة بعد آية البقرة. فهذا النظر وأمثاله هو نظر الفقيه العالم برجحان دليل وظن على دليل، وهذا علم لا ظن) ا. هـ^(٧).

وقال رحمه الله: (ثبت التحريم بعد الحديبية لما أنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ وطلق عمر امرأته كانت بمكة، وأما الآية التي في البقرة فلا يعلم تاريخ نزولها وفي البقرة ما نزل متأخراً كآيات الزنا^(٨)، وفيها ما نزل متقدماً: كآيات الصيام ومثل ما روي أن النبي ﷺ لما أراد غزوة تبوك قال للجعد بن قيس: «هل لك في نساء بني الأصفر؟» فقال: ﴿أَشَدَّنَّ لِي وَلَا تَفْتِنَنِي﴾ [التوبة: ٤٩] ومثل فتحه لخبير، وقسمه للرفيق، ولم ينه المسلمين عن وطنهن حتى يسلمن كما أمرهم بالاستبراء) ا. هـ^(٩).

- | | |
|-----------------------------------|----------------------------------|
| (١) البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣). | (٢) مجموع الفتاوى (٣١/ ٣٠ - ٣١). |
| (٣) هذا في البخاري معروف. | (٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٢٠). |
| (٥) كذا في الأصل، والصواب: الربا. | (٦) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٨٦). |

وقال رحمه الله: (وأما قوله: ﴿وَلَا تُنْكِرُوا بِعِصْمِ الْكُوفَرِ﴾ فإنها نزلت بعد صلح الحديبية لما هاجر من مكة إلى المدينة، وأنزل الله «سورة الممتحنة» وأمر بامتحان المهاجرين. وهو خطاب لمن كان في عصمته كافرة. و«اللام» لتعريف العهد، والكوافر المعهودات هن المشركات، مع أن الكفار قد يميزوا^(١) من أهل الكتاب أيضاً في بعض المواضع كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۖ﴾ [النساء: ٥١] فإن أصل دينهم هو الإيمان؛ ولكن هم كفروا مبتدعين الكفر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ﴾ [٥٦] أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۖ﴾ [النساء: ١٠٦] هـ. (٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنَّ عَلَيْهِنَّ مُؤْمِنًا فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فدل ذلك على أن مجرد إظهار الإسلام لا يكون دليلاً على الإيمان في الباطن، إذ لو كان كذلك لم تحتج المهاجرات اللاتي جئن مسلمات إلى الامتحان، ودل ذلك على أنه بالامتحان والاختبار يتبين باطن الإنسان فيعلم أهو مؤمن أم ليس بمؤمن؛ كما في الحديث المرفوع: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْزَّمُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الآية [التوبة: ١٨]]»^(٣) هـ. (٤).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَلَا تُنْكِرُوا بِعِصْمِ الْكُوفَرِ﴾ إنما يتناول النكاح، لا يتناول الوطء بملك اليمين) هـ. (٥).

وقال رحمه الله: (كتقديم المرأة المهاجرة لسفر الهجرة بلا محرم على بقائها بدار الحرب، كما فعلت أم كلثوم التي أنزل الله فيها آية الامتحان: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾) هـ. (٦).

وقال رحمه الله: (وأيضاً (فالمهاجرة) من دار الكفر كالممتحنة التي أنزل الله فيها:

- | | |
|------------------------------|------------------------------------|
| (١) كذا في الأصل. | (٢) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٨٠ - ١٨١). |
| (٣) مرّ تخريجه وفيه ضعف. | (٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨١). |
| (٥) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٨٣). | (٦) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٥١ - ٥٢). |

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ الآية. قد ذكرنا في غير هذا الموضع الحديث المأثور فيها، وأن ذلك كان يكون بعد استبرائها بحيضة، مع أنها كانت مزوجة، لكن حصلت الفرقة بإسلامها واختيارها فراقه؛ لا بطلاق منه) ١. هـ.

وقال رحمه الله: (وقال ابن جريح: قلت لعطاء: امرأة من المشركين جاءت إلى المسلمين أيعاض زوجها منها لقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُم مَّا أَفْتَوْا﴾ قال: لا. إنما كان ذلك بين النبي ﷺ وبين أهل العهد. قال مجاهد: هذا كله في صلح بين النبي ﷺ وبين قريش. قلت: حديث ابن عباس فيه فصول:

«أحدها» أن المهاجرة من أهل الحرب ليس عليها عدة؛ إنما عليها استبراء بحيضة؛ وهذا أحد قولي العلماء في هذه المسألة؛ لأن العدة فيها حق للزوج كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩] ولهذا قلنا: لا تتداخل. وهذه ملكت نفسها بالإسلام والهجرة، كما يملك العبد نفسه بالإسلام والهجرة، فلم يكن للزوج عليها حق؛ لكن الاستبراء فيها كالأمة المعتقة، وقد يقوي هذا قول من يقول: المختلة يكفيها حيضة؛ لأن كلاهما متخلصة.

«الثاني» أن زوجها إذا هاجر قبل النكاح ردت إليه وإن كانت قد حاضت، ومع هذا فقد روى البخاري بعد هذا عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس: إذا أسلمت النصرانية قبل زوجها بساعة حرمت عليه. وما ذكره ابن عباس في المهاجرة يوافق المشهور من «أن زينب بنت الرسول ﷺ ردت على أبي العاص بن الربيع بالنكاح الأول» ٢) وقد كتبت في الفقه في هذا أثاراً ونصوصاً عن الإمام أحمد وغيره.

«الثالث» قوله: إن المهاجر من عبيدهم يكون حراً له ما للمهاجرين، كما في قصة أبي بكر ومن هاجر معه من عبيد أهل الطائف، وهذا لا ريب فيه؛ فإنه بالإسلام والهجرة ملك نفسه، لأن مال أهل الحرب مال إباحة، فمن غلب على شيء ملكه؛ فإذا غلب على نفسه فهو أولى أن يملكها، والإسلام يعصم ذلك.

«الرابع» أن المهاجر من رقيق المعاهدين: يرد عليهم ثمنه دون عينه؛ لأن مالهم معصوم: فهو كما لو أسلم عبد الذمي يؤمر بإزالة ملكه عنه ببيع أو هبة أو عتق، فإن فعل وإلا بيع عليه، ولا يرد عينه عليهم، لأنهم يسترقون المسلم؛ وذلك لا يجوز.

(١) مجموع الفتاوى (١١١/٣٢).

(٢) أبو داود (٢٢٤٠)، والترمذي (١١٤٣)، وأحمد (٢٦١/١)، والحديث يقرب من الحسن في المعنى وإن كان فيه مقال.

يخلاف رد الحر إليهم فإنهم لا يسترقونه، ولهذا لما شرط النبي ﷺ رد النساء مع الرجال فسخ الله ذلك، وأمره أن لا يرد النساء المسلمات فقال: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾ لأنه يستباح في دار الكفر من المرأة المسلمة ما لا يستباح من الرجل، لأن المرأة الأسيرة كالرجل الأسير، وأمره برد المهر عوضاً) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ الْكُوفَرِ﴾ هو تعريف الكوافر المعروفات اللاتي كن في عصم المسلمين، وأولئك كن مشركات؛ لا كتابيات من أهل مكة، ونحوها) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا﴾ - إلى قوله - ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ الْكُوفَرِ وَتَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهَا بِشَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ نزلت باتفاق المسلمين في قضية الصلح الذي كان بين النبي ﷺ وبين أهل مكة، صلح الحديبية، لما شرط عليهم أن يرد المسلمون من جاءهم مسلماً، وأن لا يرد أهل مكة من ذهب إليهم مرتداً. فهاجر نسوة، كأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

فنسخ الله تعالى الرد في النساء، وأمر برد المهر عوضاً عن رد المرأة. فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا﴾ فأمر أن يؤتى الأزواج الكفار ما أنفقوا على المرأة الممتحنة التي لا ترد، والذي أنفقوا هو المسمى ﴿وَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ فشرع للمؤمنين أن يسألوا الكفار ما أنفقوا على النسوة اللاتي ارتددن إليهم، وأن يسأل الكفار ما أنفقوا على النساء المهاجرات، فلما حكم الله ﷻ بذلك دل على أن خروج البضع متقوم، وأنه بالمهر المسمى، ودلت الآية على أن المرأة إذا أفسدت نكاحها رجع عليها زوجها بالمهر) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد روي عن ابن عمر^(٤): أنه كره نكاح النصرانية، وقال: لا أعلم شركاً أعظم ممن تقول: إن ربها عيسى ابن مريم.

وهو اليوم مذهب طائفة من أهل البدع^(٥)، وقد احتجوا بالآية التي في سورة البقرة ويقولون: ﴿وَلَا تُنكِحُوا بِعِصْمِ الْكُوفَرِ﴾ والجواب عن آية البقرة من ثلاثة أوجه:

«أحدها» أن أهل الكتاب لم يدخلوا في المشركين، فجعل أهل الكتاب غير

(١) مجموع الفتاوى (١٧٦/٣٢ - ١٧٧). (٢) مجموع الفتاوى (٢١٤/٣٥).

(٣) مختصر الفتاوى المصرية (٥٤٠ - ٥٤١). (٤) مَرَّ الكَلَامُ عَلَيْهِ.

(٥) مذهب الروافض.

المشركين بدليل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَتَوْا بِكُفْرٍ﴾ [الحج: ١٧]، فإن قيل: فقد وصفهم بالشرك بقوله: ﴿اتَّخَذُوا آبَاءَهُمْ رُفَقَاءَ يُزَكُّونَ آبَاءَهُمْ دُونَ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة] قيل أهل الكتاب ليس في أصل دينهم شرك؛ فإن الله إنما بعث الرسل بالتوحيد، فكل من آمن بالرسول والكتب لم يكن في أصل دينهم شرك، ولكن النصارى ابتدعوا الشرك، كما قال: ﴿سُبْحَنَهُ وَقَوْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] فحيث وصفهم بأنهم أشركوا فلاجل ما ابتدعوه من الشرك الذي لم يأمر الله به، وحيث ميزهم عن المشركين فلأن أصل دينهم اتباع الكتب المنزلة التي جاءت بالتوحيد لا بالشرك.

فإذا قيل: أهل الكتاب لم يكونوا من هذه الجهة مشركين؛ فإن الكتاب الذي أضيفوا إليه لا شرك فيه، كما إذا قيل: المسلمون وأمة محمد لم يكن فيهم من هذه الجهة لا إتحاد، ولا رفض، ولا تكذيب بالقدر، ولا غير ذلك من البدع، وإن كان بعض الداخلين في الأمة قد ابتدع هذه البدع؛ لكن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلالة. فلا يزال فيها من هو متبع لشريعة التوحيد، بخلاف أهل الكتاب. ولم يخبر الله ﷻ عن أهل الكتاب أنهم مشركون بالاسم؛ بل قال: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالفعل. وآية البقرة قال فيها: ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٠٥] و﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ٢٢١] بالاسم، والاسم أوكد من الفعل.

«الوجه الثاني» أن يقال: إن شملهم لفظ ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ في سورة البقرة كما وصفهم بالشرك فهذا متوجه بأن يفرق بين دلالة اللفظ مفرداً ومقروناً، فإذا أفردوا دخل فيهم أهل الكتاب، وإذا قرنوا بأهل الكتاب لم يدخلوا فيهم، كما قيل مثل هذا في اسم الفقير والمسكين ونحو ذلك، فعلى هذا يقال: آية البقرة عامة. وتلك خاصة، والخاص يقدم على العام.

«الوجه الثالث» أن يقال: آية المائدة ناسخة لآية البقرة، لأن المائدة نزلت بعد البقرة باتفاق العلماء) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»^(٢)) قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يبق أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك، اخرج ولا تكلم أحداً

منهم، حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك (فيحلقك)، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، فنحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فتحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاء نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا بِعِصْمِ الْكُفَّارِ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانت له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاء أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، قدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه [منه]، فضربه حتى برد، وفر الآخر، حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال النبي ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرا» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير ﷺ، فقال: يا نبي الله، قد وفى الله بدمتك، فلقد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل ﷺ، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، قال: فوالله ما يسمعون بغير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنْ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤] حتى بلغ: ﴿حِجَّةَ الْبَهَائَةِ﴾ [الفتح: ٢٦] وكانت حميتهم أنهم لم يقرأوا أنه نبي الله، ولم يقرأوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت» رواه البخاري عن عبد الله بن محمد المسندي عن عبد الرزاق ورواه أحمد عن عبد الرزاق، وهو أجل قدراً من المسندي شيخ البخاري، فما فيه من زيادة هي أثبت مما في البخاري (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وما في هذا الحديث من رد إناث عبيد المعاهدين: فهو نظير رد مهور النساء المهاجرات من أهل الهدنة، وهن الممتحنات اللاتي قال الله فيهن: ﴿إِذَا

جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاسْتَحْضَوْهُنَّ ﴿١﴾ هـ. (١).

﴿وَإِنْ فَانَكُوهُنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَقَاتُوا الذِّبَاقَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ نِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَانْفَقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

(قوله: ﴿وَإِنْ فَانَكُوهُنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَقَاتُوا الذِّبَاقَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ نِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ فإن أولئك الكفار كان عليهم مثل صداق هذه المرأة التي ذهبت إليهم فإذا لم يؤدوه أخذ من أموالهم التي يقدر المسلمون عليها. مثل امرأة جاءت منهم يستحقون صداقها، فيعطي المسلم زوج تلك المرتدة صداقها من صداق هذه المسلمة المهاجرة التي يستحقه الكفار لكونها أسلمت وهاجرت وفوتت زوجها بضعها كما فوتت المرتدة بضعها لزوجها وإن كان زوج المهاجرة ليس هو الذي تزوج بالمرتدة. لأن الطائفة لما كانت ممتنعة يمنع بعضها بعضاً صارت كالشخص الواحد) هـ. (٢).

﴿يَبَايَأُ الَّذِينَ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بِيَاغِكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِنِهَاجٍ يَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

وقال رحمه الله: (وقد فسر النبي ﷺ قوله: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ بأنها النياحة) هـ. (٣).

(وقد قال: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقيد المعصية، ولهذا فسرت بالنياحة، قاله ابن عباس^(٤) وروى ذلك مرفوعاً، وكذلك قال زيد بن أسلم^(٥) لا يدعن وياً ولا يخذشن وجهاً ولا ينشرن شعراً، ولا يشقن ثوباً. وقد قال بعضهم: هو جميع ما يأمرهم به الرسول من شرائع الإسلام وأدلت كما قاله أبو سليمان الدمشقي ولفظ الآية عام أنهم لا يعصينه في معروف، ومعصيته لا تكون إلا في معروف. فإنه لا يأمر بمنكر، لكن هذا قيل: فيه دلالة على أن طاعة أولي الأمر، إنما تلزم في المعروف كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الطاعة في المعروف»^(٦) ونظير هذا قوله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] وهو لا يدعو إلا إلى ذلك) هـ. (٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٨٣/١٤).

(٤) ابن جرير (٧٨/٢٨).

(٦) مرّ تخريجه.

(١) مجموع الفتاوى (٣٣٧/٣٢).

(٣) جامع المسائل (٩٤/٣).

(٥) ابن جرير (٧٨/٢٨).

(٧) مجموع الفتاوى (٦٠/٧ - ٦١).

سورة الصف

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ ۝٢﴾ (قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ ۝٢﴾ نزلت هذه الآية لما قالوا: لو علمنا أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله ﷻ آية الجهاد فكرهه من كرهه) ا.هـ^(١).

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝١﴾

(والمقت يراد به نفس المقت، ويراد به الممقوت، كما في الخلق ونظائره، ومثله قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝١﴾ أي كبر ممقوتاً، أي كبر مقته مقتاً.

والمقت البغض الشديد، وهو من جنس الغضب المناسب لحال هؤلاء، كما قال في اليهود، ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْنَا يَكْفُرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] ا.هـ^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقْوِمُوا لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾

(وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعاً لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقْوِمُوا لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ فكان بنو إسرائيل يؤذون موسى في حياته بما لو قاله باليوم أحد من

(١) مجموع الفتاوى (٣٧/١٠ - ٣٨). (٢) الاستقامة (١/١٨ - ١٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/١٠).

المسلمين وجب قتله، ولم يقتلهم موسى عليه السلام، وكان نبينا ﷺ يقتدي به في ذلك، فربما سمع أذاه أو بلغه فلا يعاقب المؤذي على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذْنٌ﴾ [التوبة: ٦١] وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨] هـ (١).

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [٣١].

(وبكل حال، فلا ريب عند علماء المسلمين أن المسيح عليه السلام بشر بمحمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْعُرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] هـ (٢).

وقال رحمه الله: (فبين أنه أخبرهم به ليؤمنوا به إذا جاء ولا يشكوا فيه، وأنه يشهد له، وهذه صفة من بشر به المسيح، ويشهد للمسيح كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾) هـ (٣).

وقال رحمه الله: (ومن الناس من يقول: أحمد، أي أكثر حمداً من غيره. فعلى هذا يكون بمعنى الحامد والحمداد: في معنى كلمة الفارقليط التي وردت في إنجيل يوحنا وقال من رجع إن معنى الفارقليط في لغتهم هو الحمد - كما تقدم - فإذا كان كذلك فهو ما جاء في القرآن: ﴿... وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾) هـ (٤).

وقال رحمه الله: (معلوم أن الله وعد بإظهاره على الدين كله ظهور علم وبيان وظهور سيف وسمان، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقد فسر العلماء ظهوره بهذا وهذا، ولفظ الظهور يتناولهما؛ فإن ظهور الهدى بالعلم والبيان وظهور الدين باليد والعمل، والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

(١) الصارم المسلول (٢٣٣ - ٢٣٤).

(٢) الجواب الصحيح (١٤٧/٥).

(٣) الجواب الصحيح (٢٩٨/٥).

(٤)

الجواب الصحيح (٣٠٣/٥).

ومعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال، فإن النبي ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة، يظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين، فأمنت به المهاجرون والأنصار طوعاً واختياراً بغير سيف؛ لما بان لهم من الآيات البينات والبراهين والمعجزات، ثم أظهره بالسيف، فإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداء ودفعاً، فلأن يجب علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداء ودفعاً لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأحرى) ١. هـ^(١).

﴿وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرَ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبٍ وَيُخْرِجَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٣.

(كقوله في الجهاد: ﴿يَقِفَرُ لَكُمْ دُونَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرَ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبٍ﴾، فبين ما فيه من دفع مفسدة الذنوب ومن حصول مصلحة الرحمة بالجنة، فهذا في الآخرة، وفي الدنيا النصر والفتح، وهما أيضاً دفع المضرة وحصول المنفعة، ونظائره كثيرة) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله في فضل الجهاد:

(وكذلك تعظيمه وتعظيم أهله في «سورة الصف» التي يقول فيها: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَغْرَرٍ يُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ﴾ ١١ ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُكْفِرُونَ﴾ ١٢ ﴿يَقِفَرُ لَكُمْ دُونَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيَسْكَنُونَ ظِلًّا فِي جَنَّاتٍ عِدْنٍ ذَلِكَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾ ١٣ ﴿وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرَ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبٍ وَيُخْرِجَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٤) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَغْرَرٍ يُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ﴾ ١١ ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُكْفِرُونَ﴾ ١٢ ﴿يَقِفَرُ لَكُمْ دُونَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيَسْكَنُونَ ظِلًّا فِي جَنَّاتٍ عِدْنٍ ذَلِكَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾ ١٣ ﴿وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرَ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبٍ وَيُخْرِجَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٤، ففي الجهاد عاقبة محمودة للناس في الدنيا يحبونها؛ وهي النصر والفتح، وفي الآخرة الجنة؛ وفيه النجاة من النار؛ وقد قال في أول السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَّرْصُومٌ﴾ ١٥ [الصف] فهو يحب ذلك؛ ففيه حكمة عائدة إلى الله تعالى وفيه رحمة للعباد؛ وهي ما يصل إليهم من النعمة في الدنيا والآخرة؛ هكذا سائر ما أمر

(١) الجواب الصحيح (١/٢٣٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/١٩٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٣٥١) وقوله تعظيمه أي الجهاد.

به؛ وكذلك ما خلقه خلقه لحكمة تعود إليه يحبها، وخلقه لرحمة بالعباد يتفعلون بها) ا. هـ^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَمَنَّتُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ
فَأَنصَبُوا عَلَيْهِمْ﴾ (١٤)

(وَمَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟) أي مع الله) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ثم قالوا عن القرآن إنه يشهد لهم أنهم أنصار الله حيث يقول
كما قال عيسى بن مريم: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَمَنَّتُ طَائِفَةٌ مِنْ
بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَنصَبُوا عَلَيْهِمْ﴾).

فيقال: هذا حق، الحواريون مؤمنون مسلمون وهم أنصار الله، لكن ليس في هذا
أنهم رسل الله، ولا في هذا أن كل ما أنتم عليه من الدين مأخوذ عنهم، ولا في هذا
أن الواحد من الحواريين معصوم من الغلط، بل أمر الله المؤمنين من أمة محمد ﷺ أن
يكونوا أنصار الله كما طلب المسيح ذلك بقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟﴾.

وقد وصف الله المؤمنين أصحاب النبي ﷺ من أهل المدينة النبوية بأنهم أنصار الله
بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...﴾ [التوبة: ١٠٠].

والمهاجرون أفضل من الأنصار، وهم أيضاً من أنصار الله نصره كما نصره
الأنصار، لكن لما كان لهم اسم يخصهم وهو المهاجرون، وهو أفضل الاسمين، خص
الأنصار بهذا الاسم، والمهاجرون والأنصار أفضل ممن آمن بموسى ومن آمن بعيسى
عند المسلمين، ومع هذا فليس فيهم عندهم نبي ولا رسول الله، ولكن فيهم رسل
رسول الله ﷺ (تسليماً) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (والرسول ﷺ قد أرسل بالبينات والهدى، بين الأحكام الخيرية
والطلبية وأدلتها الدالة عليها، بين المسائل والوسائل، بين الدين ما يقال وما يعمل وبين
أصوله التي بها يعلم أنه دين حق، وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في غير موضع،
وبين أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ذكر هذا في سورة

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٤٢).

(١) مجموع الفتاوى (٨/٣٦ - ٣٧).

(٣) الجواب الصحيح (٢/٢٦٦ - ٢٦٧).

التوبة والفتح، والصف، والهدى هو هدى الخلق إلى الحق وتعريفهم ذلك وإرشادهم إليه، وهذا لا يكون إلا بذكر الأدلة والآيات الدالة على أن هذا هدى وإلا فمجرد خبر لم يعلم أنه حق ولم يقم دليل على أنه حق ليس بهدى، وهو سبحانه إذا ذكر الأنبياء نبينا وغيره ذكر أنه أرسلهم بالآيات البينات وهي الأدلة والبراهين البينة المعلومة علماً يقيناً إذ كان كل دليل لا بد أن ينتهي إلى مقدمات بينة بنفسها قد تسمى بديهيات وقد تسمى ضروريات وقد تسمى أوليات وقد يقال هي معلومة بأنفسها، فالرسل صلوات الله عليهم بعثوا بالآيات البينات، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(١) ١. هـ^(٢).

سورة الجمعة

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١﴾ .

(قال فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١﴾ فكانوا أميين من كل وجه، فلما علمهم الكتاب والحكمة قال فيهم: ﴿ثُمَّ أَوْفَيْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ﴾ [فاطر: ٣٢] ١ هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وأسوأ أحوال العامة أن يكونوا أميين فهل يجوز أن ينهى أن يتلى على الأميين آيات الله أو عن أن يعلم الكتاب والحكمة، ومعلوم أن جميع من أرسل إليه الرسول من العرب كانوا قبل معرفة الرسالة أجهل من عامة المؤمنين اليوم فهل كان النبي ﷺ ممنوعاً من تلاوة ذلك عليهم وتعليمهم إياه أو مأموراً به، أو ليس هذا من أعظم الصد عن سبيل الله وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَمْ يَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَمْنٍ﴾ [آل عمران: ٩٩] ١ هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والله سبحانه بعث محمداً بالكتاب والسنة، وبهما أتم على أمته المنة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِمَ بِعَمَلِكُمْ لَكُمْ تَهْدُوتُ ١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا وَنُكِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَمَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ١٥١﴾ فَأَذْكُرُوا أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَرْزَلْ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ بِكُمْ ٢٣١﴾ [البقرة: ٢٣١]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ

رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ. وقال تعالى عن الخليل: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. وقد قال غير واحد من العلماء، منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم (الحكمة): هي السنة؛ لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكروا ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة، والكتاب: القرآن، وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة: (١) هـ.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢)

(وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة: أنه لما أنزل الله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَیْ ضَلَّالٍ مُبِينٍ﴾ (٢) وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣)، سئل النبي ﷺ عن هؤلاء الآخرين، فقال: «لو كان الدين معلقاً بالشريا، لئله رجال من أبناء فارس». وفي لفظ: «لو كان الإيمان». وفي لفظ (العلم) وكان كما أخبر، فإنه حصل في التابعين وتابعيهم وهلم جرا، من أبناء فارس، مثل الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبیر، وعكرمة مولى ابن عباس، ومجاهد بن جبر وأضعاف هؤلاء، من نالوا ذلك) (١) هـ.

وقال رحمه الله: (ثم قال: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ فهذا يتناول كل من دخل في الإسلام بعد دخول العرب فيه إلى يوم القيامة، كما قال ذلك مقاتل بن حيان (٣)، وعبد الرحمن بن زيد (٤)، وغيرهما.

فإن قوله (وأخرجهم منهم)، أي في الدين دون النسب، إذ لو كانوا منهم في النسب لكانوا من الأميين.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقد ثبت في الصحيح أن هذه الآية لما نزلت سئل النبي ﷺ عنهم،

(١) مجموع الفتاوى (٦/١).

(٢) الجواب الصحيح (٦/١٠٦ - ١٠٧) وقد مر هذا المقطع مع تخريج آياته وآثاره.

(٣) مقاتل قال أنهم التابعون كما في زاد المسير (٨/٢٥٩).

(٤) قال ما قاله شيخ الإسلام كما في زاد المسير (٨/٢٥٩).

فقال: «لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس»^(١). فهذا يدل على دخول هؤلاء - لا يمنع دخول غيرهم من الأمم.

وإذا كانوا منهم فقد دخلوا في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فالمنة على جميع المؤمنين - عربهم وعجمهم سابقهم ولاحقهم. والرسول منهم لأنه إنسي مؤمن. وهو من العرب أخص لكونه عربياً جاء بلسانهم، وهو من قريش أخص، والخصوص يوجب قيام الحجة، لا يوجب الفضل، إلا بالإيمان والتقوى لقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: ١٣] هـ. ١^(٢).

وقال رحمه الله: (ثم قد جاء الكتاب والسنة بمدح بعض الأعاجم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَيَ ضَلَّالٍ مُبِينٍ﴾ [١] وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٢]، وفي الصحيحين، عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه: «قال كنا جلوساً عند النبي ﷺ فانزلت عليه سورة الجمعة، ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال قائل منهم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً، وفيما سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء».

وفي صحيح مسلم، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس، أو قال من أبناء فارس، حتى يتناوله»، وفي رواية ثالثة: «لو كان العلم عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس» هـ. ١^(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّى لَصَلَاةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١] فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا تَلْحَقُونَ [٢] وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ [٣].

(سئل رحمه الله: عن رجل مشى إلى صلاة الجمعة مستعجلاً، فأنكر ذلك عليه بعض الناس، وقال: امش على رسلك. فرد ذلك الرجل، وقال: قد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

(١) مرّ تخريجه. (٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٠ - ١٩١).

(٣) اقتضاء الصراط (١/ ٣٦٤ - ٣٦٥) وقد مر هذا المقطع مع تخريجه.

الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ثُوبُوا لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿١٠٠﴾ فما الصواب؟

فأجاب: ليس المراد بالسعي المأمور به العدو، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا - وروي فاقضوا».

ولكن قال الأئمة: السعي في كتاب الله هو العمل والفعل، كما قال تعالى: ﴿إِذَا سَعَيْكُمْ لُتًى﴾ [البلل]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَأُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣]، وقال عن فرعون: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ [النازعات] وقد قرأ عمر بن الخطاب «فامضوا إلى ذكر الله»^(١) فالسعي المأمور به إلى الجمعة هو المضي إليها، والذهاب إليها.

ولفظ «السعي» في الأصل اسم جنس، ومن شأن أهل العرف إذا كان الاسم عاماً لنوعين، فإنهم يفردون أحد نوعيه باسم، ويبقى الاسم العام مختصاً بالنوع الآخر، كما في لفظ «ذوي الأرحام» فإنه يعم جميع الأقارب، من يرث بفرض وتعصيب، ومن لا فرض له ولا تعصيب، فلما ميز ذو الفرض والعصبة، صار في عرف الفقهاء ذوو الأرحام مختصاً بمن لا فرض له ولا تعصيب.

وكذلك لفظ «الجائز» يعم ما وجب ولزم من الأفعال والعقود وما لم يلزم، فلما خص بعض الأعمال بالوجوب، وبعض العقود باللزم بقي اسم الجائز في عرفهم مختصاً بالنوع الآخر.

وكذلك اسم «الخمر» هو عام لكل شراب، لكن لما أفرد ما يصنع من غير العنب باسم النبيذ صار اسم الخمر في العرف مختصاً بعصير العنب، حتى ظن طائفة من العلماء أن اسم الخمر في الكتاب والسنة مختص بذلك، وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ بعمومه، ونظائر هذا كثيرة.

ويسبب هذا الاشتراك الحادث غلط كثير من الناس في فهم الخطاب بلفظ السعي

(١) في زاد المسير (٢٦٤/٨)، قراءة ابن مسعود وفي ابن جرير (١٠٠/٢٨) عن عمر وكلاهما ثابت عنه.

من هذا الباب، فإنه في الأصل عام في كل ذهاب ومضى، وهو السعي المأمور به في القرآن، وقد يخص أحد النوعين باسم المشي، فيبقى لفظ السعي مختصاً بالنوع الآخر، وهذا هو السعي الذي نهى عنه النبي ﷺ حيث قال: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون»^(١) وقد روي أن عمر كان يقرأ: (فامضوا) ويقول: لو قرأتها (فاسعوا) لَعَدَوْتُ حتى يكون كذا، وهذا إن صح عنه فيكون قد اعتقد أن لفظ السعي هو الخاص.

ومما يشبه هذا: السعي بين الصفا والمروة، فإنه يهرول في بطن الوادي بين الميلين، ثم لفظ السعي يخص بهذا، وقد يجعل لفظ السعي عاماً لجميع الطواف بين الصفا والمروة، لكن هذا كأنه باعتبار أن بعضه سعي خاص، والله أعلم) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّى لِّلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ وأريد الخطبة والصلاة) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد بين في غير هذا الموضع أنه ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله إلا مقيم ومسافر، والمقيم هو المستوطن، ومن سوى هؤلاء فهو مسافر يقصر الصلاة، وهؤلاء تجب عليهم الجمعة لأن قوله: ﴿إِذَا تَوَدَّى لِّلصَّلَاةِ﴾ ونحوها يتناولهم، وليس لهم عذر، ولا ينبغي أن يكون في مصر المسلمين من لا يصلي الجمعة إلا من هو عاجز عنها كالمريض، والمحبوس، وهؤلاء قادرون عليها؛ لكن المسافرون لا يعقدون جمعة، لكن إذا عقدها أهل المصر صلوا معهم، وهذا أولى من إتمام الصلاة خلف الإمام المقيم) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (والتفضيل لا يدل على أن المفضل جائر، فقد قال تعالى: ﴿إِذَا تَوَدَّى لِّلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فجعل السعي إلى الجمعة خيراً من البيع، والسعي واجب والبيع حرام، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَّهُمْ﴾ [النور: ٣٠] ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿إِذَا تَوَدَّى لِّلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ

(١) البخاري (٦٣٨)، ومسلم (٦٠٣).
 (٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٢٥٩ - ٢٦١).
 (٣) مجموع الفتاوى (٢٤/٢٢٤).
 (٤) مجموع الفتاوى (٢٤/١٨٤).
 (٥) مجموع الفتاوى (٢٣/٢٣٢).

فَاسْعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴿١﴾ قلنا: السعي في كتاب الله بمعنى الفعل والعمل دون العدو، قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل]، وقال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى عن فرعون: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ بِتَعْنٍ﴾ [النازعات]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ [عبر]، وقال: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣]، ومنه يقال: الساعي على الصدقات كما يقال العامل عليها، وقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «فامضوا إلى ذكر الله وذروا البيع» ويقول: «لو قرأناها فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي»^(١) فقد اتفقوا على أنه ليس المراد بالعدو، ولكن من فهم من السعي أنه العدو كما في الحديث اختار الحرف الآخر، وأما حرف العامة فقد تبين معناه) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمٍ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧] فما كان ملهياً وشاغلاً عما أمر الله تعالى به من ذكره والعمل في التجارة، وغير ذلك) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ونظير هذا لفظ «القضاء» فإنه في كلام الله وكلام الرسول المراد به إتمام العبادة وإن كان ذلك في وقتها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتُمْ مُسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ثم اصطلح طائفة من الفقهاء فجعلوا لفظ «القضاء» مختصاً بفعلها في غير وقتها، ولفظ «الأداء» مختصاً بما يفعل في الوقت، وهذا التفريق لا يعرف قط في كلام الرسول، ثم يقولون قد يستعمل لفظ القضاء في الأداء، فيجعلون اللغة التي نزل القرآن بها من النادر) ا.هـ^(٤).

(١) أخرجه عيد الرزاق في مصنفه (٥٣٥٠) وابن أبي شيبه (١٥٧/٢)، وابن جرير (٩٤/١٢)، بلفظ: «أن عمر كان يقرؤها فامضوا إلى ذكر الله». واللفظ الذي أورده الشيخ وارد عن ابن مسعود رضي الله عنه كما في المصادر السابقة.

(٢) شرح العمدة - الصلاة (٥٩٩ - ٦٠٠). (٣) مجموع الفتاوى (٢٣٥/٣٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠٦/١٢).

وقال رحمه الله: (ولفظ الانقضاء والقضاء قد يعنى به الكمال والتمام كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿فَإِذَا قُضِيَتُمْ شَأْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. ويقال: قد انقضت هذه السنة، وانقضى شهر رمضان، ونحو ذلك، فعلى هذا لا يكون المنقضي الذي كمل وتم إلا ما له ابتداء، إذ ما لا أول له لا يعقل كماله وتمامه. وقد يعنى بلفظ الانقضاء: الانتهاء والمضي والزوال. فمعلوم أن الحوادث التي كانت قبلها قد انقضت ومضت وانتهت، بمعنى أنها لم يبق منها شيء) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فإن الله تعالى سمى فعل العبادة في وقتها قضاء كما قال في الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتُمْ شَأْنَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ مع أن هذين يفعلان في الوقت، والقضاء في لغة العرب: هو إكمال الشيء وإتمامه، كما قال تعالى: ﴿فَقَضَّيْنَهُنَّ سَبْعَ مَسَوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي أكملهن وأتمهن، فمن فعل العبادة كاملة فقد قضاها، وإن فعلها في وقتها) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ المراد به العلم والثواب، وقيل: بل هو رخصة إذ هو أمر وارد بعد الحظر، فيكون بمعنى الإباحة؛ لا بمعنى الإيجاب والإلزام) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وهذا وإن كان في الجمعة فمعناه قائم في جميع الصلوات. ولهذا والله أعلم أمر النبي ﷺ الذي يدخل المسجد أن يقول: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» وإذا خرج أن يقول: «اللهم إني أسألك من فضلك»^(٤)) ا.هـ^(٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٧/٢٢).

(٤) مسلم (٧١٣).

(١) درء تعارض العقل (٩١/٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٢٤/٨).

(٥) مجموع الفتاوى (٦٦٢/١٠).

سورة المنافقون

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

(وقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾) فالمنافقون يصفهم في القرآن بالكذب؛ وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم وبأن في قلوبهم من الكفر ما يعاقبون عليه) ١. هـ.

وقال رحمه الله: (وقوله سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّبُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ إلى قوله ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] وقوله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أَخَذُوا آيَتَهُمْ حُجَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٤] إلى قوله تعالى: ﴿أَتُخَذُوا آيَتُهُمْ حُجَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [١١] إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

دلّت هذه الآيات كلها على أَنَّ المنافقين كانوا يُرْضَوْنَ المؤمنين بالأيمن الكاذبة، وينكرون أنهم كفروا، ويحلفون أنهم لم يتكلموا بكلمة الكفر.

وذلك دليل على أنهم يقتلون إذا ثبت ذلك عليهم بالبينة لوجوه:

أحدها: أنهم لو كانوا إذا أظهروا التوبة قبل ذلك منهم لم يحتاجوا إلى الحلف والإنكار، ولكانوا يقولون: قلنا وقد تبنا، فعلم أنهم كانوا يخافون إذا ظهر ذلك عليهم أنهم يعاقبون من غير استتابة.

الثاني: أنه قال تعالى: ﴿أَعْدَوْا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢] واليمين إنما تكون جُنَّةً إذا لم نأت بيينة عادلة تكذبها؛ فإذا كذبتها بيينة عادلة انخرقت الجُنَّة فجاز قتلهم، ولا يمكنه أن يجتن بعد ذلك إلا بجُنَّة من جنس الأول وتلك جُنَّة مخروقة.

الثالث: أن الآيات دليل على أن المنافقين إنما عَصَمَ دماءهم الكذب والإنكار، ومعلوم أن ذلك إنما يعصم إذا لم تقم بيينة بخلافه، ولذلك لم يقتلهم النبي ﷺ.

ويدل على ذلك قوله سبحانه: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٧٦﴾ بِحَقِّكَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة] وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التحریم: ٩] قال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود عليهم وقال ابن مسعود: «بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»^(١) وعن ابن عباس وابن جريح: «باللسان وتغليظ الكلام وترك الرفق»^(٢) ١. هـ.^(٣)

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مَسْنَدٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ فَنُفِّلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُؤَفَّكُونَ﴾ ﴿١﴾.

(وقال تعالى [عن المنافقين]: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مَسْنَدٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ فَنُفِّلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُؤَفَّكُونَ﴾ ﴿١﴾). فبين أن لهم أجساماً ومناظر، قال ابن عباس: كان ابن أبي جسيماً فصيحاً طلق^(٤) اللسان، قال المفسرون: وصفهم الله بحسن الصورة وإيالة المنطق ثم أبان أنهم في عدم الفهم والاستغفار بمنزلة الخشب المسندة الممالاة إلى الجدار، والمراد أنها ليست بأشجار تثمر [بل هي خشب مسندة إلى حائط] ثم عابهم بالجبن فقال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ فَنُفِّلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُؤَفَّكُونَ﴾ أي لا يسمعون صوتاً إلا ظنوا أنهم قد أتوا، لما في قلوبهم من الرعب أن يكشف الله أسرارهم) ١. هـ.^(٥)

وقال رحمه الله: (قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾،

(١) مَرَّ تَخْرِيجِهِ.

(٢) قال صاحب الدر (٢٥٨/٦) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه.

(٣) الصارم المسلول (٣٥٤ - ٣٥٥).

(٤) وفي زاد المسير (٢٧٥/٨): «ذلق» بدل «طلق».

(٥) منهاج السنة (٣١٦/٥ - ٣١٧).

وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢٠٤]، فهؤلاء إنما أعجبه صورهم الظاهرة للبصر، وأقوالهم الظاهرة للسمع، لما فيه من الأمر المعجب، لكن لما كانت حقائق أخلاقهم - التي هي أملك بهم - مشتملة على ما هو من أبغض الأشياء وأمقتها إليه، لم ينفعهم حسن الصورة والكلام.

وقال النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي صورهم القائمة بأبدانهم، كما تقول: أعجبنى حسنه وجماله ولونه وبهاؤه فقد يراد صفة الأبدان، وقد يراد نفس الأبدان وهم إذا قالوا: هذا أجسم من هذا أرادوا أنه أغلظ وأعظم منه أما كونهم يريدون بذلك أن ذلك العظم والغلظ كان لزيادة الأجزاء، فهذا مما يعلم قطعاً أنه لم يخطر ببال أهل اللغة إلا من أخذ ذلك عن اعتقده من أهل الكلام المحدث الذي أحدث في الإسلام بعد انقراض عصر الصحابة وأكثر التابعين فإن هذا لم يعرف في الإسلام من تكلم به أو بمعناه إلا في أواخر الدولة الأموية، لما ظهر جهم بن صفوان والجعد بن درهم، ثم ظهر في المعتزلة) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وفي قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمُ ثَفَعْتُمْ تَحْتَهُمْ أَجْسَامَهُمْ﴾ وقد قال أهل اللغة: إن الجسم هو البدن قال الجوهري في صحاحه: قال أبو زيد: الجسم الجسد، وكذلك الجسمان والجثمان قال: وقال الأصمعي: الجسم والجسمان: الجسد.

ومعلوم أن أهل الاصطلاح نقلوا لفظ «الجسم» من هذا المعنى الخاص إلى ما هو أعم منه، فسموا الهواء ولهيب النار وغير ذلك جسماً، وهذا لا تسميه العرب جسماً كما لا تسميه جسداً ولا بدنأ، ثم قد يراد بالجسم نفس الجسد القائم بنفسه، وقد يراد به غلظه كما يقال: لهذا الثوب جسم.

وكذلك أهل العرف الاصطلاحي يريدون بالجسم تارة هذا، وتارة هذا، ويفرقون بين الجسم التعليمي المجرد عن المحل الذي يسمى المادة والهيولي، وبين الجسم الطبيعي الموجود، وهذا مبسوط في موضع آخر) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: («والجسم» في لغة العرب هو البدن وهو الجسد كما قال غير

(٢) الاستقامة (١/ ٤٤٥).

(١) مرّ تخريجه.

(٤) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١١٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٢٣ - ٣٢٤).

واحد من أهل اللغة منهم الأصمعي وأبو عمرو، فلفظ الجسم يشبه لفظ الجسد وهو الغليظ الكثيف والعرب تقول هذا جسيم وهذا أجسم من هذا أي أغلظ منه قال تعالى: ﴿وَرَادُّهُ بَسْطَةٌ فِي الْوَلِيمِ وَالْجَسْرِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ ثم قد يراد بالجسم نفس الغلظ، والكثافة، ويراد به الغليظ الكثيف) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (إن الجسم عند أهل اللغة كما ذكره الأصمعي وأبو عبيد وغيرهما هو الجسد والبدن. قال تعالى: ﴿وَرَادُّهُ بَسْطَةٌ فِي الْوَلِيمِ وَالْجَسْرِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فهو يدل في اللغة على معنى الكثافة والغلظ، كغلظ الجسد ثم يراد به نفس الغليظ، وقد يراد به غلظه، فيقال: لهذا الثوب جسم أي غلظ وكثافة، ويقال: هذا أجسم من هذا أي أغلظ وأكثف) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد تقدم أن الجسم يراد به نفس الجسد، ويراد به قدر الجسد وغلظه، قال تعالى: ﴿وَرَادُّهُ بَسْطَةٌ فِي الْوَلِيمِ وَالْجَسْرِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقد يراد به هذا وهذا) ١. هـ^(٣).

﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٨.

(وزيد بن أرقم من صغار الأنصار وهو صاحب الأذن الذي وفي الله بأذنه لما بلغ النبي ﷺ قول ابن أبي من المنافقين: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وكذبه من كذبه ولا مه من لاه من المؤمنين حتى أنزل الله قوله: ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ فقال النبي ﷺ: «هذا الذي وفي الله بأذنه» وهو لم يصل مع النبي ﷺ إلا بعد الهجرة فعلم أنهم كانوا يتكلمون بعد الهجرة، وذكر أن النسخ حصل بآية المحافظة وهي مدنية بالاتفاق، بل قد يقال: إنها إنما نزلت عام الخندق لما شغله المشركون عن صلاة العصر حتى قال: «ملا الله قبورهم وبيوتهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى العصر»^(٤) كما ثبت ذلك في الصحيح) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وفي الصحيحين^(٦) عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع النبي ﷺ

- | | |
|-----------------------------------|-----------------------------------|
| (١) مجموع الفتاوى (١٢/٣١٦). | (٢) بيان تليس الجهمية (١٠/٥٥٥). |
| (٣) الجواب الصحيح (٤/٤٢٩). | (٤) مرّ تخريجه. |
| (٥) مجموع الفتاوى (٢١/١٤٩ - ١٥٠). | (٦) البخاري (٤٩٠٢)، ومسلم (٢٧٧٢). |

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ومن ألهاه ماله وولده عن فعل المكتوبة في وقتها دخل في ذلك، فيكون خاسراً) ١. هـ^(١).

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَيَّ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠﴾.

(ولهذا يسأل المفطر في ماله الرجعة وقت الموت كما قال ابن عباس رضي الله عنه: من اعطي مالا فلم يحج منه ولم يزك سأل الرجعة وقت الموت، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَيَّ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠﴾) ١. هـ^(٢).

سورة التغابن

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرٌ وَنُكِرَ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١﴾.

(وأما قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرٌ وَنُكِرَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني: أنه خلق الكل وقد اعترفوا له بذلك، فمنهم من شكر خالقه واعترف له بالنعمة، وبالإخراج من العدم إلى الوجود، فحقق فعله، قَبِلَ من رسله ووَحَّدَ ربه. ومنهم من كفر ولم يشكر خالقه، وأشرك به ما لا يجوز له وكذب برسله، فصار كافراً بفعله) ١ هـ^(١).

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبَغْيِهِمْ وَلَا يُرْسِلَ إِلَيْهِمُ رَسُولًا قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا ٢﴾.

(قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبَغْيِهِمْ وَلَا يُرْسِلَ إِلَيْهِمُ رَسُولًا قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ فأمره أن يقسم على ما سيكون) ١ هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبَغْيِهِمْ وَلَا يُرْسِلَ إِلَيْهِمُ رَسُولًا قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ فأمره أن يحلف على وقوع إتيان الساعة وبعث الناس من قبورهم، وهما مستقلان^(٣) من فعل غيره، وهذا كقول النبي ﷺ لعمر: «لَأَتِينَهُ، ولأطوفن به»^(٤) فهنا إذا قال: إن شاء الله فقد لا يكون غرضه تعليق الإخبار وإنما غرضه تحقيقه كقوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧] فإن هذا كلام صحيح؛ إذ الحوادث كلها لا تكون إلا بمشيئة الله مثل ما لو قال: ليكونن إن اتفقت أسباب كونه. والناس يعلمون أنه إن شاء الله وإن اتفقت أسباب كونه كان، فإن لم يكن هو مخبراً لهم بذلك كان متكلماً بما لا يفيد) ١ هـ^(٥).

﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٣﴾.

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾)

- (١) درء تعارض العقل (٨/ ٤٩٥ - ٤٩٦). (٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٦٠).
(٣) كذا في الأصل، والصواب: مستقبلان. (٤) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣١٠).
(٥) ابن جرير (٢٨/ ١٢٣).

بِاللَّهِ يَدِّ قَلْبُهُ ﴿١﴾ قال علقمة: ويروى عن ابن مسعود^(١): هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. وقوله تعالى: ﴿يَدِّ قَلْبُهُ﴾ هذاه لقلبه هو زيادة في إيمانه؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وقال: ﴿إِنَّهُمْ قِتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَدِّ قَلْبُهُ﴾ قال ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة مثل المرض والفقر والذل صبروا لحكم الله وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم، كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي فافتقر أولاده لذلك فعليهم أن يصبروا لما أصابهم، وإذا لاموا الأب لحظوظهم ذكر لهم القدر) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَدِّ قَلْبُهُ﴾ قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وروى الوالبي عن ابن عباس^(٤): يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه وقال ابن السائب وابن قتيبة^(٥): إنه إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر) ١. هـ^(٦).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٧﴾

(وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٧﴾ ثم قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٣﴾ فأمر بطاعته وطاعة رسوله؛ لأن طاعته طاعة الله وأمرهم بالتوكل عليه وحده، وطاعة الرسول هي عبادة الله وحده والأمر والمعنى المتقدم من أن الرسول ليس عليه إلا ما أمر به من البلاغ والبيان والجهاد وليس عليه جزاء العباد ولا حسابهم ولا هدايتهم قد كرر في القرآن في مواضع) ١. هـ^(٧).

(١) أخرجه سعيد بن منصور كما في الدر (٢٢٧/٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣٠/٧). (٣) مجموع الفتاوى (٢٥٩/١١ - ٢٦٠).

(٤) ابن جرير (١٢٣/٢٨). (٥) زاد المسير (٢٨٣/٨).

(٦) منهاج السنة (٢٦/٣)، (١٣٦/٥).

(٧) الاستغاثة (١١٠ - ١١١).

﴿يَأْتِيهَا الْبَيِّنَاتُ آمَنُوا بِهَا مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا
وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧).

وقال رحمه الله: (مسألة: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا
لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾، هل «من» هاهنا للتبويض؟ فيكون الحكم بالعداوة على البعض؛ أو
تكون «من» زائدة؟ فيحكم على كل واحد ولِدٍ وكل زوج بالعداوة.

فإن قلت: إنها للتبويض فما حكمكم على من يعتقد زيادتها؟ ويزعم أنه يستدل
على الحديث والقرآن بكلام العرب، وهل من دليل على ذلك فيما ذكر من القرآن
والحديث وكلام العرب؟ فيثبته، أم ليس الأمر كذلك؟

الجواب:

الحمد لله. بل «من» هنا للتبويض باتفاق الناس، والمعنى أن من الأزواج
والأولاد عدوًّا، وليس المراد أن كل زوج وولِدٍ عدوٌّ. فإن هذا ليس هو مدلول اللفظ،
وهو باطل في نفسه، فإنه^(١) سبحانه قد قال عن عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ
لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، فسألوا الله أن يهبَ لهم من
أزواجهم وأولادهم قرَّةَ أعين، فلو كان كل زوج وولِدٍ عدوًّا لم يكن فيهم قرَّةُ أعين،
فإن العدوَّ لا يكون قرَّةَ عين بل سُخْتَةً عَيْنٍ، وأيضاً فإنه من المعلوم أن مثل إسماعيل
وإسحاق ابني إبراهيم، ومثل يحيى بن زكريا وأمثالهم ليسوا أعداءً.
وقول من قال: إنها هنا زائدة، غلطٌ لوجوه:

أحدها: أن مذهب سيويه وجمهور أئمة النحاة أنها لا تُزاد في الإثبات، وإنما
تُزاد في النفي تحقيقاً لعموم النفي كقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]،
وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ونحو ذلك، فإنه لولا «من»
لكان الكلام ظاهراً في العموم، فإنه يجوز أن تقول: ما رأيت رجلاً بل رجلين، فإذا
أدخلت «من» فقلت: ما رأيت من رجلٍ كان نصّاً في العموم، فلا يجوز أن يقال: ما
رأيت من رجلٍ بل رجلين، مع أن النكرة في سياق النفي للعموم مطلقاً، لكن قد يكون
نصّاً وقد يكون ظاهراً، فإذا كانت ظاهراً احتملت نفي الواحد من الجنس بخلاف
النص، وهذا الموضع إثباتٌ لا نفي، فلا تُزاد فيه.

(١) كذا في الأصل، ولعله سقط لفظ الجلالة أو ضميرها.

استطاعتكم؛ فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فإن مدار الشريعة على قوله تعالى: ﴿فَأَنفِقُوا آلَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ المفسر لقوله: ﴿أَنفِقُوا آلَهُ حَقَّ تَقَاتِلِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك قال تعالى: ﴿فَأَنفِقُوا آلَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى، ولا يعاقب من لم يتق، وهذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَأَنفِقُوا آلَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فمن اجتهد بطاعة الله ورسوله بحسب الاستطاعة كان من أهل الجنة، والله يرفع درجات المتقين المؤمنين بعضهم على بعض بحسب إيمانهم وتقواهم) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال: ﴿فَأَنفِقُوا آلَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقال: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢]، ومعلوم أنه ليس المنفي هنا استطاعة لا تكون إلا مع الفعل، فإنه قد يكون حيثئذ معنى الكلام: فمن لم يفعل فعله صيام شهرين متتابعين.

وكذلك يكون الأمر بالتقوى لمن اتقى لا لمن لم يتق، وإيجاب الحج على من حج دون من لم يحج وهذا باطل.

فعلم أن المراد استطاعة توجد بدون الفعل، وما كانت موجودة بدون الفعل أمكن وجودها قبله بطريق الأولى) ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (في قوله تعالى: ﴿فَأَنفِقُوا آلَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [المجادلة: ٤] فإن هذه الاستطاعة لو لم تكن [إلا] مقارنة للفعل لم يجب الحج على من لم يحج، ولا وجب على من لم يتق الله أن يتقي الله ولكان كل من لم يصم الشهرين المتتابعين غير مستطيع للصيام وهذا كله خلاف هذه النصوص وخلاف إجماع المسلمين) ا.هـ^(٦).

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٨/١١). (٢) مجموع الفتاوى (٢٨٤/١٨).

(٣) منهاج السنة (٤٢/٣). (٤) طريق الوصول (٢٠٣).

(٥) درء تعارض العقل (٤٤٢/٩). (٦) منهاج السنة (٤٠٨/١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَالْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فأمر بالتقوى بمقدار الاستطاعة ولو أراد الاستطاعة المقارنة لما وجب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط إذ هو الذي قارنته الإستطاعة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿فَالْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وهي مفسرة لتلك^(٢)، ومن قال من السلف، ناسخة، فمعناه رافعة لما يظن أن المراد يعجز عنه؛ فإن الله لم يأمر بهذا قط، ومن قال إن الله أمر به فقد غلط، والنسخ في عرف السلف يدخل فيه كل ما فيه نوع رفع لحكم، أو ظاهر، أو ظن دلالة، حتى إنهم يسمون تخصيص العام نسخاً، ومنهم من يسمي الاستثناء نسخاً إذا تأخر نزوله، وقد قال تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٢] فهذا رفع لما ألقاه الشيطان، ولم ينزله الله، لكن غايته أن يظن أن الله أنزله) ١. هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٣٧٢/٨).

(٢) يعني قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

(٣) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٣٨/٩).

سورة الطلاق

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَبِئَظْمُ الْخُذُولِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾

(وفي الصحيحين والسنن والمسانيد عن عبد الله بن عمر: أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر عمر للنبي ﷺ فتغيض^(١) عليه النبي ﷺ وقال: «مره فليراجعها حتى تحيض ثم تطهر ثم إن شاء بعد أمسكها. وإن شاء طلقها قبل أن يجامعها. فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء»^(٢)) وفي رواية في الصحيح: «أنه أمره أن يطلقها طاهراً أو حاملاً» وفي رواية في الصحيح «قرأ النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وعن ابن عباس وغيره من الصحابة: «الطلاق على أربعة أوجه»: وجهان حلال. ووجهان حرام. فأما اللذان هما حلال فأن يطلق امرأته طاهراً في غير جماع. أو يطلقها حاملاً قد استبان حملها، وأما اللذان هما حرام فأن يطلقها حائضاً أو يطلقها بعد الجماع لا يدري اشتمل الرحم على ولد أم لا» رواه الدارقطني وغيره) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ولهذا لما رأى عمر رضي الله عنه: أن المبتوتة لها السكنى والنفقة فظن أن القرآن يدل عليه نازعه أكثر الصحابة فمنهم من قال: لها السكنى فقط، ومنهم من قال: لا نفقة لها ولا سكنى، وكان من هؤلاء ابن عباس وجابر وفاطمة بنت قيس، وهي التي روت عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس لك نفقة ولا سكنى»^(٤)) فلما احتجوا عليها بحجة عمر وهي قوله تعالى: ﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ قالت هي وغيرها من الصحابة (كابن عباس وجابر وغيرهما): هذا في الرجعية

(١) كذا في الأصل، والصواب: فتغيض. (٢) البخاري (٥٣٣٢)، ومسلم (١٤٧١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/٣٣) والأثر عن ابن عباس رواه الدارقطني (٥/٤، ٣٧).

(٤) مسلم (١٤٨٠).

لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ فأي أمر يحدث بعد الثلاث؟!
وفقهاء الحديث كأحمد بن حنبل في ظاهر مذهبه وغيره من فقهاء الحديث مع فاطمة
بنت قيس رضي الله عنها.

وكذلك أيضاً في «الطلاق» لما قال تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ قال غير
واحد من الصحابة والتابعين والعلماء: هذا يدل على أن الطلاق الذي ذكره الله هو الطلاق
الرجعي، فإنه لو شرع إيقاع الثلاث عليه لكان المطلق يندم إذا فعل ذلك، ولا سبيل إلى
رجعتها: فيحصل له ضرر بذلك، والله أمر العباد بما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم، ولهذا
قال تعالى أيضاً بعد ذلك: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأُولَىٰ فَاتَّسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢].
وهذا إنما يكون في الطلاق الرجعي؛ لا يكون في الثلاث ولا في البائن وقال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢] فأمر بالإشهاد على الرجعة،
والإشهاد عليها مأمور به باتفاق الأمة قيل: أمر بإيجاب وقيل أمر استحباب) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد قال ابن عباس وفاطمة بنت قيس وجابر: إن المطلقة في
القرآن هي الرجعية بدليل قوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ وأي أمر يحدثه
بعد الثلاثة؟) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال في سورة الطلاق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ
لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ
بِفَتْحَةٍ مُّبِينَةٍ وَكَانَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ
بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ ١) فَإِذَا بَلَغَ الْأُولَىٰ فَاتَّسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ
مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ لَكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ٢) وَزَوْجُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ٣) إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ
قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ٤) فهو سبحانه بين في هذه السورة حكم الطلاق، وبين
في تلك حكم أيمان المسلمين، وعلى المسلمين أن يعرفوا حدود ما أنزل الله على
رسوله فيعرفوا ما يدخل في الطلاق وما يدخل في أيمان المسلمين ويحكموا في هذا بما
حكم الله ورسوله ولا يتعدوا حدود الله فيجعلوا حكم أيمان المسلمين، وحكم طلاقهم
حكم إيمانهم، فإن هذا مخالف لكتاب الله وسنة رسوله) ١. هـ^(٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/١٩٨).

(١) مجموع الفتاوى (٣٣/٣٢ - ٣٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٣/٦٢ - ٦٣).

وقال رحمه الله: (واستدل الأكثرون بأن القرآن العظيم يدل على أن الله لم يبح إلا الطلاق الرجعي، وإلا الطلاق للعدة، كما في قوله تعالى: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنِّسَاءِ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ فإذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وهذا إنما يكون في الرجعي وقوله: ﴿طَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ يدل على أنه لا يجوز إرداف الطلاق للطلاق حتى تنقضي العدة أو يراجعها: لأنه إنما أباح الطلاق للعدة، أي لاستقبال العدة، فمتى طلقها الثانية والثالثة قبل الرجعة بنت على العدة ولم تستأنفها باتفاق جماهير المسلمين. فإن كان فيه خلاف شاذ عن خلاص وابن حزم فقد بينا فسادَه في موضع آخر، فإن هذا قول ضعيف لأنهم كانوا في أول الإسلام إذا أراد الرجل إضرار امرأته طلقها حتى إذا شارفت انقضاء العدة راجعها ثم طلقها ليُطيل حبسها، فلو كان إذا لم يراجعها تستأنف العدة لم يكن حاجة إلى أن يراجعها والله تعالى قصرهم على الطلاق الثلاث دفعاً لهذا الضرر، كما جاءت بذلك الآثار، ودل على أنه كان مستقراً عند الله أن العدة لا تستأنف بدون رجعة، سواء كان ذلك لأن الطلاق لا يقع قبل الرجعة؟ أو يقع ولا يستأنف له العدة؟ وابن حزم إنما أوجب استئناف العدة بأن يكون الطلاق لاستقبال العدة فلا يكون طلاق إلا يتعقبه عدة إذ كان بعد الدخول، كما دل عليه القرآن، فلزمه على ذلك هذا القول الفاسد. وأما من أخذ بمقتضى القرآن وما دلت عليه الآثار فإنه يقول إن الطلاق الذي شرعه الله هو ما يتعقبه العدة، وما كان صاحبه مخيراً فيها بين الإمساك بمعروف والتسريح بإحسان وهذا منتف في إيقاع الثلاث في العدة قبل الرجعة فلا يكون جائزاً فلم يكن ذلك طلاقاً للعدة ولأنه قال: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فخيره بين الرجعة وبين أن يدعها تنقضي العدة فيسرحها بإحسان، فإذا طلقها ثانية قبل انقضاء العدة لم يمسك بمعروف ولم يسرح بإحسان) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (إن الحيض يمنع ستة الطلاق، فإذا طلقها في حالة الحيض كان مبتدعاً بذلك لقوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ يعني طاهراً من غير جماع) ١. هـ^(٢).

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا

الشَّهَادَةُ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾

(كقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي احملوا هذه الشهادة على هؤلاء المشهود عليهم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وإنما أمر بالاشهاد حين قال: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلَ فَأَتَيْكُمُوهُنَّ فَمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ والمراد هنا بالمفارقة تخلية سبيلها إذا قضت العدة، وهذا ليس بطلاق ولا برجعة ولا نكاح، والإشهاد في هذا باتفاق المسلمين، فعلم أن الإشهاد إنما هو على الرجعة.) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (بل قال: ﴿فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلَ فَأَتَيْكُمُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فخير الزوج إذا قارب انقضاء العدة بين أن يمسكها بمعروف - وهو الرجعة - وبين أن يسيبها فيخلي سبيلها إذا انقضت العدة، ولا يحبسها بعد انقضاء العدة كما كانت محبوسة عليه في العدة قال الله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِّنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى في آية الطلاق: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وَرَزَقَهُ مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «يا أبا ذر لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم»^(٤). وكان ابن عباس وغيره من الصحابة إذا تعدى الرجل حد الله في الطلاق يقولون له: لو اتقيت الله لجعل لك مخرجاً وفرجاً) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وَرَزَقَهُ مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ والتقوى تجمع فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه. ويروى عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «يا أبا ذر لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم».

ولهذا قال بعض السلف: ما احتاج تقي قط. يقول: إن الله ضمن للمتقين أن

(١) درء تعارض العقل (٨/٤٨٧). (٢) مجموع الفتاوى (٣٣/٣٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٣/٢٣).

(٤) ابن ماجه (٤٢٢٠) أحمد في المسند (٥/١٧٨) وفي الزهد (١/٧١ - ٧٢) والدارمي (٢/٦١٩) وفيه ضعف.

(٥) منهاج السنة (٥/٢٩١).

يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون فيدفع عنهم ما يضرهم ويجلب لهم ما يحتاجون إليه) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وفي سنن ابن ماجه وغيره، عن أبي ذر: أن هذه الآية لما نزلت قال النبي ﷺ: «يا أبا ذر لو أن الناس كلهم عملوا بهذه الآية لوسعتهم» وقد بين سبحانه في هذه الآية أن المتقي يدفع عنه المضرة، وهو أن يجعل له مخرجاً مما ضاق على الناس، ويجلب له المنفعة ويرزقه من حيث لا يحتسب وكل ما يتغذى به الحي مما تستريح به النفوس وتحتاج إليه في طيبها وانسراحها فهو من الرزق، والله تعالى يرزق ذلك لمن اتقاه بفعل المأمور وترك المحذور) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۖ﴾، فافترق الناس هنا أربعة أصناف: صنف لا يعبدونه ولا يتوكلون عليه، وهم شرار الخلق.

وصنف يقصدون عبادته بفعل ما أمر، وترك ما حظر، لكن لم يحققوا التوكل والاستعانة، فيعجزون عن كثير مما يطلبونه، ويجزعون في كثير من المصائب.

ثم من هؤلاء من يكذب بالقدر، ويجعل نفسه هو المبدع لأفعاله، فهؤلاء في الحقيقة لا يستعينونه ولا يطلبون منه صلاح قلوبهم، ولا تقويمها ولا هدايتها. وهؤلاء مخذلون كما هم عند الأمة كذلك، وقوم يؤمنون بالقدر قولاً واعتقاداً، لكن لم تتصف به قلوبهم علماً وعملاً، كما اتصفت بقصد الطهارة والصلاة، فهم أيضاً ضعفاء عاجزون.

وصنف نظر إلى جانب القدرة والمشية، وأن الله تعالى هو المعطي والمانع، والخافض والرافع، فغلب عليهم التوجه إليه من هذه الجهة والاستعانة به، والافتقار إليه لطلب ما يريدونه، فهؤلاء يحصل لأحدهم نوع سلطان وقدرة ظاهرة أو باطنة وقهر لعدوه، بل قتل له ونبيل لأغراضه، لكن لا عاقبة لهم، فإن العاقبة للتقوى، بل آخرتهم آخرة ردية) ا.هـ^(٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢/٢٢٩).

(١) جامع الرسائل (٨/٥٢٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/٣٢٣ - ٣٢٤).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝١﴾) وهذه الآية عامة في كل من يتق الله^(١)، وسياق الآية يدل على أن التقوى مرادة من هذا النص العام، فمن اتقى الله في الطلاق فطلق كما أمر الله تعالى جعل الله له مخرجاً مما ضاق على غيره، ومن يتعد حدود الله فيفعل ما حرم الله عليه فقد ظلم نفسه، ومن كان جاهلاً بتحريم طلاق البدعة فلم يعلم أن الطلاق في الحيض محرم، أو أن جمع الثلاث محرم: فهذا إذا عرف التحريم وتاب صار ممن اتقى الله فاستحق أن يجعل الله له مخرجاً. ومن كان يعلم أن ذلك حرام وفعل المحرم وهو يعتقد أنها تحرم عليه، ولم يكن عنده إلا من يفتيه بأنها تحرم عليه: فإنه يعاقب عقوبة بقدر ظلمه، كمعاقبة أهل السبت بمنع الحيتان أن تأتيهم، فإنه ممن لم يتق الله فعوقب بالضيق. وإن هداه الله فعرفه الحق وألهمه التوبة، وتاب: فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وحينئذ فقد دخل فيمن يتقي الله فيستحق أن يجعل الله له فرجاً ومخرجاً، فإن نبينا محمداً ﷺ نبي الرحمة، ونبي الملحمة. فكل من تاب فله فرج في شرعة^(٢)، بخلاف شرع من قبلنا؛ فإن التائب منهم كان يعاقب بعقوبات كقتل أنفسهم، وغير ذلك، ولهذا كان ابن عباس إذا سئل عمن طلق امرأته ثلاثاً يقول له: لو اتقيت الله لجعل لك مخرجاً. وكان تارة يوافق عمر في الإلزام بذلك للمكثرين من فعل البدعة المحرمة عليهم؛ مع علمهم بأنها محرمة وروى عنه أنه كان تارة لا يلزم إلا واحدة. وكان ابن مسعود يغضب على أهل هذه البدعة ويقول: أيها الناس، من أتى الأمر على وجهه فقد تبين له وإلا فوالله ما لنا طاقة بكل ما تحدثون) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝١﴾)، والحسب الكافي فبين أنه كاف من توكل عليه، وفي الدعاء: يا حسب المتوكل، فلا يقال: هو حسب غير المتوكل كما هو حسب المتوكل، لأنه علق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع في مثل ذلك أن يكون وجود الشرط كعدمه، ولأنه رتب الحكم على الوصف المناسب له فعلم أن توكله هو سبب كونه حسباً له،

(١) كذا في الأصل، ولا وجه لحذف حرف العلة.

(٢) كذا في الأصل، والصواب: شرعه. (٣) مجموع الفتاوى (٣٣/٣٤ - ٣٥).

ولأنه ذكر ذلك في سياق الترغيب في التوكل كما رغب في التقوى، فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية ما لا يحصل لغيره لم يكن ذلك مرغباً في التوكل، كما جعل التقوى سبباً للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب (١) هـ.

وقال رحمه الله ذاكراً أن العقوبة بالزام الطلاق الثلاث يدخلها الاجتهاد من وجهين، فذكر الوجه الأول ثم قال: (ومن جهة أن العقوبة إنما تكون لمن يستحقها، فمن كان من (المتقين) استحق أن يجعل الله له فرجاً ومخرجاً، لم يستحق العقوبة. ومن لم يعلم أن جمع الثلاث محرم، فلما علم أن ذلك محرم تاب من ذلك اليوم أن لا يطلق إلا طلاقاً سنياً. فإنه من (المتقين) في باب الطلاق) (٢) هـ.

فصل

وقال رحمه الله: (وأما قوله: ﴿وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ فقد بين فيها أن المتقي يرفع الله عنه المضرة بما يجعله له من المخرج، ويجلب له من المنفعة بما ييسره له من الرزق، والرزق اسم لكل ما يغتذي به الإنسان، وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة وقد قال بعضهم: ما افتقر تقي قط قالوا: ولم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ ﴿وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

وقول القائل: قد نرى من يتقي وهو محروم، ومن هو بخلاف ذلك وهو مرزوق. فجوابه: أن الآية اقتضت أن المتقي يرزق من حيث لا يحتسب، ولم تدل على أن غير المتقي لا يرزق، بل لا بد لكل مخلوق من الرزق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] حتى إن ما يتناوله العبد من الحرام هو داخل في هذا الرزق، فالكفار قد يرزقون بأسباب محرمة، ويرزقون رزقاً حسناً، وقد لا يرزقون إلا بتكلف، وأهل التقوى يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة، ولا يكون خبيثاً، والتقي لا يحرم ما يحتاج إليه من الرزق، وإنما يحمى من فضول الدنيا رحمة به وإحساناً إليه، فإن توسيع الرزق قد يكون مضرة على صاحبه، وتقديره يكون رحمة لصاحبه.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ [الفجر] أي ليس الأمر كذلك،

فليس كل من وسع عليه رزقه يكون مكرماً، ولا [كل] من قدر عليه رزقه يكون مهاناً، بل قد يوسع عليه رزقه إملاء واستدراجاً، وقد يقدر عليه رزقه حماية وصيانة له، وضيق الرزق على عبد من أهل الدين قد يكون لما له من ذنوب وخطايا، كما قال بعض السلف: إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»^(١).

وقد أخبر الله تعالى أن الحسنات يذهبن السيئات، والاستغفار سبب للرزق والنعمة، وأن المعاصي سبب للمصائب والشدة فقال تعالى: ﴿الرَّ كُتِبَ عَلَيْكُمُ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَرْحَمْكُمْ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] إلى قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ١-٣] وقال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ إلى قوله: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَثَرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢] وقال تعالى: ﴿وَالْوُ اسْتَغْفِرُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذْقاً﴾ [الجن: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بُرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِحْسَانَ مَا نَزَّلْنَا لَهُمْ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَأَرْجَاهُمْ﴾ [المائدة: ٦٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْأَسَلَةِ وَالْضَرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَفْزَعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أنه يتلى عباده بالحسنات والسيئات، فالحسنات هي النعم، والسيئات هي المصائب ليكون العبد صباراً شكوراً. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده! لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٢).

وقال أيضاً:

فصل

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾، قد روي عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم»^(١) وقوله: ﴿مَخْرَجًا﴾ عن بعض السلف: أي من كل ما ضاق على الناس، وهذه الآية مطابقة لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة] الجامعة لعلم الكتب الإلهية كلها، وذلك أن التقوى هي العبادة المأمور بها؛ فإن تقوى الله وعبادته وطاعته أسماء متقاربة متكافئة متلازمة، والتوكل عليه هو الاستعانة به فمن يتقي الله مثال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومن يتوكل على الله مثال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقال: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤] وقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ثم جعل للتقوى فائدتين: أن يجعل له مخرجاً وأن يرزقه من حيث لا يحتسب، والمخرج هو موضع الخروج، وهو الخروج، وإنما يطلب الخروج من الضيق والشدة، وهذا هو الفرج والنصر والرزق، فبين أن فيها النصر والرزق كما قال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝﴾ [قريش] ولهذا قال النبي ﷺ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟ بدعائهم، وصلاتهم، واستغفارهم»^(٢) هذا لجلب المنفعة، وهذا للدفع المضرة.

وأما التوكل فبين أن الله حسبه أي كافي، وفي هذا بيان التوكل على الله من حيث إن الله يكفي المتوكل عليه كما قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ﴾ [الزمر: ٣٦] خلافاً لمن قال: ليس في التوكل إلا التفويض والرضا، ثم إن الله بالغ أمره، ليس هو كالعاجز: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ وقد فسروا الآية بالمخرج من ضيق الشبهات بالشاهد الصحيح، والعلم الصريح، والذوق، كما قالوا: يعلمه من غير تعليم بشر، ويفطنه من غير تجربة، ذكره أبو طالب المكي، كما قالوا في قوله: ﴿إِنْ تَنَفَّوْا اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] إنه نور يفرق به بين الحق والباطل، كما قالوا: بصراً، والآية تعم المخرج من الضيق الظاهر، والضيق قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ

صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُصْلِحَ يَجْعَلْ صَدْرُهُ صَيِّقًا حَرَبًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴿[الأنعام: ١٢٥] وتعم ذوق الأجساد وذوق القلوب، من العلم والإيمان، كما قيل مثل ذلك في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْنُونَ﴾ [البقرة: ٣] وكما قال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] وهو القرآن والإيمان^(١).

﴿وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرٍ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ ﴿٢١﴾.

(وإذا كان الحسب معنى يختص به بعض الناس، علم أن قول المتوكل: حسبي الله وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أمر مختص لا مشترك، وأن التوكل سبب ذلك الاختصاص، والله تعالى إذا وعد على العمل بوعد أو خص أهله بكرامة فلا بد أن يكون بين وجود ذلك العمل وعدمه فرق في حصول تلك الكرامة، وإن كان قد يحصل نظيرها بسبب آخر، فقد يكفي الله بعض من لم يتوكل عليه كالأطفال، لكن لا بد أن يكون للمتوكل أثر في حصول الكفاية الحاصلة للمتوكلين، فلا يكون ما يحصل من الكفاية بالتوكل حاصلًا مطلقاً وإن عدم التوكل) ١. هـ^(٢).

﴿وَالَّتِي يَتَسَنَّ مِنَ الْمَحِضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ قُتْرًا﴾ ﴿٢٢﴾.

(والياس المذكور في قوله: ﴿وَالَّتِي يَتَسَنَّ مِنَ الْمَحِضِ﴾ ليس هو بلوغ سن، لو كان بلوغ سن لبينه الله ورسوله، وإنما هو أن تياس المرأة نفسها من أن تحيض، فإذا انقطع دمها ويئست من أن يعود فقد يئست من المحيض، ولو كانت بنت أربعين، ثم إذا تربصت وعاد الدم تبين أنها لم تكن آيسة، وإن عاودها بعد الأشهر الثلاثة فهو كما لو عاود غيرها من الآيسات، والمستربيات، ومن لم يجعل هذا هو اليأس فقوله مضطرب إن جعله سناً، وقوله مضطرب إن لم يحد اليأس لا بسن ولا بانقطاع طمع المرأة في الحيض، وبنفس الإنسان لا يعرف، وإذا لم يكن للنفس قدر فسواء ولدت المرأة توأمين أو أكثر ما زالت ترى الدم فهي نفساء وما تراه من حين تشرع في الطلق فهو نفاس، وحكم دم النفاس حكم دم الحيض) ١. هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٥٢ - ٥٦). (٢) جامع الرسائل (١/٩٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/٢٤٠).

وقال رحمه الله: (يكون في المسألة نص خاص، وقد استدل فيها بعضهم بعموم كاستدلال ابن مسعود وغيره بقوله: ﴿وَأُولَئِ الْأَمْثَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ وقال ابن مسعود: سورة النساء القصصى نزلت بعد الطولى، أي بعد البقرة، وقوله: ﴿أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ يقتضي انحصار الأجل في ذلك، فلو أوجب عليها أن تعتد بأبعد الأجلين لم يكن أجلها أن تضع حملها، وعلي وابن عباس وغيرهما أدخلوها في عموم الآيتين، وجاء النص الخاص في قصة سبيعة الأسلمية بما يوافق قول ابن مسعود) ا. هـ^(١).

﴿أَتَكُونُ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتَ مِنْ دُونِكِ وَلَا تُنَاصِرُونَهُمْ إِنْ يَضِيقُوا عَلَيْكَ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا يَنفِكُهُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَارَفْتُمْ فَسَرِّعْ لَهُ أُخْرَى ۖ﴾ (٦).

(وهذه الآية^(٢)) توجب رزق المرتضع على أبيه لقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَئِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فأوجب نفقته حملاً ورضيعاً بواسطة الإنفاق على الحامل والمرضع، فإنه لا يمكن رزقه بدون رزق حامله ومرضعه) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال في الحامل: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَئِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾، فدخلت نفقة الولد في نفقة أمه؛ لأنه يتغذى بها) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (إن القرآن جاء بإجارة الظئر للرضاع في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فقال كثير من الفقهاء: إن إجارة الظئر للرضاع على خلاف قياس الإجارة، فإن الإجارة عقد على منافع، وإجارة الظئر عقد على اللبن، واللبن من باب الأعيان لا من باب المنافع، ومن العجب أنه ليس في القرآن ذكر إجارة جائزة إلا هذه) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وليس في القرآن إجارة منصوصة إلا إجارة الظئر في قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ولما اعتقد بعض الفقهاء أن الإجارة لا تكون إلا على منفعة ليست عيناً ورأى جواز إجارة الظئر قال: المعقود عليه هو وضع الطفل في حجرها، واللبن دخل ضمناً وتبعاً كنقع البئر. وهذا مكابرة للعقل والحس، فإننا نعلم

(١) مجموع الفتاوى (١٩٦/١٩ - ١٩٧).

(٢) يعني قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

(٣) مجموع الفتاوى (١٠٦/٣٤). (٤) الاختيارات (٢٨٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٥٣١/٢٠).

بالاضطرار أن المقصود بالعقد هو اللبن كما ذكره الله بقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ وضم الطفل إلى حجرها: إن فعل فإنما هو وسيلة إلى ذلك وإنما العلة ما ذكرته: من أن الفائدة التي تستخلف مع بقاء أصلها تجري مجرى المنفعة، وليس من البيع الخاص، فإن الله لم يسم العوض إلا أجراً، لم يسمه ثمناً، وهذا بخلاف ما لو حلب اللبن، فإنه لا يسمى المعاوضة عليه حيث لا يباع، لأنه لم يستوف الفائدة من أصلها، كما يستوفي المنفعة من أصلها) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد دل على ثبوت عوض الإجارة بالمعروف قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ فأمر بإيتائهن أجورهن بمجرد الإرضاع) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ وهذا الأجر هو النفقة والكسوة، وقاله طائفة منهم الضحاك وغيره) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد دل على هذا الأصل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ فأمر بإيتاء الأجر بمجرد إرضاعهن، ولم يشترط عقد استئجار، ولا إذن الأب لها في أن ترضع بالأجر، بل لما كان إرضاع الطفل واجباً على أبيه، فإن أرضعته المرأة استحققت الأجر بمجرد إرضاعها) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (فإنه ليس في كتاب الله إجارة منصوص عليها في شريعتنا إلا هذه الإجارة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ وقال: ﴿وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] والسنة وإجماع الأمة دلا على جوازها وإنما تكون مخالفة للقياس لو عارضها قياس نص آخر، وليس في سائر النصوص وأقيستها ما يناقض هذه) ا.هـ^(٥).

﴿بَنَاتِيَّ الَّتِي إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُمُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَلكَ حَدُّهُ مِنَ اللَّهِ وَمَنْ بَعَدَ حَدُّهُ اللَّهُ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُمْعَنُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَى اللَّهَ بِجُلْدٍ لَهُ فَيَحْزَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ

(١) القواعد التورانية (١٧٢)، مجموع الفتاوى (٧٤/٢٩).

(٢) نظرية العقد (١٦٤)، مجموع الفتاوى (١٣٤/٣٤).

(٣) الاختيارات (٢٨٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٤٩/٣٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١٩٨/٣٠ - ١٩٩).

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢﴾ ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَتَكُونُونَ مِنْ حَيْثُ تَكْتُمُونَ مِنْ وَحْدِكُمْ وَلَا تَضَارِزُونَ لِنَصِيقِهَا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَاَنْتَقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.﴾

ومعلوم أن هذه السورة هي سورة الطلاق، وقد ذكر الله فيها من أحكام الطلاق والرجعة والعدد ونفقة الحامل والمرضع وغير ذلك ما لم يذكره في موضع آخر، وهي تدل على تحريم جمع الثلاث من وجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحٍ مُبِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ ﴿١﴾ فإذا بلغن أجلهن فأتىكموهن بمعروفٍ أو فارقوهن بمعروفٍ. ومعلوم أن هذا لا يكون في الطلاق الثلاث، فإن الثلاث لا إمساك بعدهن، وبعد الثلاث لا يحدث الله للزوج رجعة بدون رضاها. ولهذا قال غير واحد من الصحابة والتابعين والعلماء - كابن عباس وجابر وفاطمة بنت قيس - وفقهاء الحديث ومن وافقهم من العلماء: إن هذا في الرجعية.

الثاني: أن قوله ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ إذن في مطلق الطلاق، ليس إذنًا في كل طلاق. ومن ظن أن هذا عامٌ فقد غلط ولم يفرق بين العام والمطلق، فإن قول القائل «كُلٌّ» و«بَعْ» ونحو ذلك إذن في مطلق الأكل والبيع، لا يتعرض للعموم لا بنفي ولا إثبات. ولهذا لم يكن تقييد هذا المطلق رفعاً لمدلول اللفظ ولا نسخاً له، وإذا لم يكن فيه عمومٌ فهو لم يأذن إلا في الطلاق الذي وصفه، وهو أن يطلق للعدة وأن يُحصي العدة ويتقي الله، وأنه إذا بلغن أجلهن أمسك بمعروفٍ أو فارق بمعروفٍ. وهذه الصفة إنما هي في الطلاق دون الثلاث، كما أنها إنما هي في الطلاق لاستقبال العدة، فمن طلقها حائضاً فلم يُطلق كما أمره الله تعالى. كذلك من لم يطلق الطلاق الموصوف بأن صاحبه لا يدري لعل الله يحدث بعده أمراً، وبأنه إذا بلغت المرأة أجلها فإما أن يُمسك بمعروفٍ أو يُسرح بمعروفٍ، فلم يطلق الطلاق الذي أمر الله به.

الثالث: أنه أمر بإحصاء العدة وأن يتقي الله، وأمر إذا بلغن أجلهن أن يُمسك بمعروفٍ أو يُسرح بمعروفٍ، وهذا لا يحتاج إليه في الثلاث، فإن الثلاث إنما يحتاج إلى إحصاء العدة لتجلٍ لغيره، لا لأجل إمساكه وتسريحه.

الرابع: أنه قال ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَتْحٍ مُبِينٍ﴾،

وهذا حكم المطلقة الرجعية، فإن زوجها أحقُّ بها ما دامت في العدة، فليست كالزوجة من كل وجه، ولا كالبائن من كل وجه، بخلاف الزوجة فإن لها أن تخرج بإذن زوجها، والبائن لزوجها أن يُخرجها بلا إذنها، فإنها لا تستحقُّ عليه السكنى ولا النفقة، إلا أن يختار هو أن يُحصِنَهَا، فله إلزامها بالسكنى لحقِّه في العدة. وقد دلَّ على ذلك سنة رسول الله ﷺ الصحيحة في فاطمة بنت قيس حيث قال لها: «ليس لك سكنى ولا نفقة»^(١). ولم يعارض ذلك أحدٌ بمعارضة صحيحة، فإن القرآن لا يخالف ذلك بل يوافقه، فإن الله قال: ﴿أَتَكُونُ مِنْ حَيْثُ سَكَتَ مِنْ وَجْهِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِضَيْقِهِنَّ وَلَئِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَاَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، والضمير عائد على ما تقدم، وهي الرجعية. وما ذكره في الحامل والمرضع فبيِّن فيه أن النفقة حينئذٍ لأجل الحمل، لا لأجل النكاح، ولهذا قال: ﴿حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، فهذا ذكره لغاية نفقة الحمل، وإلا فقد بيَّن عدة الحامل بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ أَكْثَرُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وقوله بعد ذلك: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾. وقد ثبت بالإجماع أن أجره الرضاع نفقة الولد، وهي تجب للنسب لا للنكاح، فدلَّ ذلك على أن نفقة الحامل لذلك.

ولهذا كان أصح القولين أن نفقة الحامل تجب للحمل، وحكمها حكم نفقة الولد التي تجب على والده، وهذا مذهب مالك وأحمد في أظهر الروايتين عنه، والشافعي في أحد قوليه، ومن قال: إنها تجب للزوجة من أجل الحمل، فكلامه متناقض لا يُعقل. الخامس: أنه قال: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، وهو كما قال غير واحد من الصحابة، فأَيُّ أمرٍ يحدث بعد الثلاث، فإن الله ذكر هذا ليبين أنه قد يحدث بعد رغبة في الزوجة ونَدَمٌ على الطلاق، فيكون له سبيل إلى رجعتها.

السادس: أنه قال في سياق الآية: ﴿وَمَنْ يَتَى اللَّهَ بِحَبْلٍ لَهُ بَحرًا﴾، وقد قال الصحابة لمن طلق ثلاثاً: لو اتقيت الله لجعل لك قرجاً ومخرجاً، فعلم أن جامع الثلاث لم يتق الله.

السابع: أنه قال: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَاتَّكُوهُنَّ يَمَعُوهُنَّ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾، والإشهاد إنما يؤمر به في حكم الطلاق الرجعي، وهو واجب على الرجعة في أحد القولين، ويُستحب في الآخر.

الثامن: أنه قال: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ﴾ أي وصلن إلى آخر المدة، فإن الأجل هو

آخر المدة، والعدة مجموعها، ولهذا قال تعالى في الآيات: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾، وقال: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، فجعل الأجل وضع الحمل، ولم يجعل ذلك عدة، لأن العدة ما يُعَدُّ، وهي المدة التي تُعَدُّ. وأما الأجل فهو آخر المدة.

ولهذا دلت هذه الآية على أن الحامل لا أجل لها إلا وضع الحمل، سواء كانت متوفى عنها أو مدخولاً بها، ولهذا قال ابن مسعود^(١): أشهد أن سورة النساء القُصْرَى نزلت بعد الطولى، ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ (١. هـ)^(٢).

﴿لَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعِيهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٧).

(قوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي جعل رزقه قدر ما يغنيه من غير فضل، إذ لو ينقص الرزق عن ذلك لم يعش) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ أي وإن وقع في الأمر تكليف، فلا يكلف إلا قدر الوسع، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً) ١. هـ^(٤).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَسْلُكُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَعَلَّوْا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٧).

وقال رحمه الله: (وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنه لما سأله عن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ فقال: ما يؤمنك أني لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت؟ وكفرك تكذيبك بها. وقال لمن سأله عن قوله تعالى: ﴿تَمْرُجُ الْمَلَكِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج] هو يوم أخبر الله به، الله أعلم به^(٥) ومثل هذا كثير عن السلف) ١. هـ^(٦).

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٩١٠). قال الحافظ في «الفتح» (٨/٦٥٥، ٦٥٦): مراد ابن مسعود إن كان هناك نسخ فالمتأخر هو الناسخ، وإلا فالتحقيق أن لا نسخ هناك، بل عموم آية البقرة مخصوص بآية الطلاق.

(٢) جامع المسائل (١/٢٧٥ - ٢٧٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٤١٠ - ٤١١).

(٤) مجموع الفتاوى (١/٢٦).

(٥) ابن جرير (٢٨/١٥٣).

(٦) مجموع الفتاوى (٦/٥٩).

سورة التحريم

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتِ أَرْوَجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾

(ويدل على عموميه في الآية: أنه سبحانه قال: ﴿لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمُ الْخَيْلَ لِجَلَّةِ أَيْمَنِكُمْ﴾ [التحريم: ٢] فاقترضى هذا: أن نفس تحريم الحلال يمين، كما استدل به ابن عباس وغيره. وسبب نزول الآية: إما تحريمه العسل^(١)، وإما تحريمه مارية القبطية^(٢)، وعلى كل تقدير: فتحريم الحلال يمين على ظاهر الآية. وليس يميناً بالله ولهذا أفتى جمهور الصحابة - كعمر وعثمان - وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم وغيرهم: أن تحريم الحلال يمين مكفرة: إما كفارة كبرى كالظهار وإما كفارة صغرى كاليمين بالله وما زال السلف يسمون الظهار ونحوه يميناً.

و«أيضاً» فإن قوله تعالى: ﴿لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إما أن يراد به: لم تحرمه بلفظ الحرام؟ وإما لم تحرمه باليمين بالله ونحوها وإما لم تحرمه مطلقاً؟ فإن أريد الأول، أو الثالث: فقد ثبت تحريمه بغير الحلف بالله يمين فنعم. وإن أريد به: تحريمه بالحلف بالله فقد سمى الله الحلف بالله تحريماً للحلال، ومعلوم أن اليمين بالله لم توجب الحرمة الشرعية، لكن لما أوجبت امتناع الحالف من الفعل، فقد حرمت عليه الفعل تحريماً شرطياً لا شرعياً.

فكل يمين توجب امتناعه من الفعل، فقد حرمت عليه الفعل، فيدخل في عموم قوله: ﴿لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، وحينئذ فقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمُ الْخَيْلَ لِجَلَّةِ أَيْمَنِكُمْ﴾ لا بد أن يعم كل يمين حرمت الحلال لأن هذا حكم ذلك الفعل فلا بد أن يطابق جميع صورته لأن تحريم الحلال هو سبب قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمُ الْخَيْلَ لِجَلَّةِ أَيْمَنِكُمْ﴾ وسبب الجواب إذا كان عاماً كان الجواب عاماً لثلاث جواباً عن البعض دون البعض مع قيام السبب المقتضى للتعميم) ١- هـ^(٣).

(١) البخاري (٤٩/٢)، ومسلم (١٤٧٤).

(٢) النسائي في تفسيره (٦٢٧) وفي سننه (٣٩٥٩) والحاكم (٤٩٣/٢) وهو صحيح.

(٣) القواعد النورانية (٢٦٧ - ٢٦٨).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ لما منع نفسه من الأمة أو العسل باليمين بالله أو بالحرام صار ذلك تحريماً) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وكذلك لما تنازعوا في الحرام احتج من جعله يميناً بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ بَلَّغِي مَرْصَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وهذا هو الثابت عن أكثر الصحابة وأفضلهم: أنهم جعلوا تحريم الحلال يميناً، وجعلوا النذر يميناً وكلاهما يدل عليه النص وقوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ بَلَّغِي مَرْصَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴿١﴾ وآية المائدة تدل على أن تحريم الحلال يمين) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (فإن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ بَلَّغِي مَرْصَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ وهي تقتضي أنه ما من تحريم لما أحل الله إلا والله غفور لفاعله رحيم به وأنه لا علة تقتضي ثبوت ذلك التحريم لأن قول «لا شيء» استفهام في معنى النفي والإنكار والتقدير: لا سبب لتحريمك ما أحل الله لك والله غفور رحيم فلو كان الحالف بالنذر والعناق والطلاق على أنه لا يفعل شيئاً لا رخصة له لكان هنا سبب يقتضي تحريم الحلال، وانتفاء موجب المغفرة والرحمة عن هذا الفاعل) ١. هـ^(٤).

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١) وقال: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] وثبت عن النبي ﷺ في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة وعدي بن حاتم وأبي موسى أنه قال: «ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه»^(٥).

وجاء هذا المعنى في الصحيحين من حديث أبي هريرة، وأبي موسى، وعبد الرحمن بن سمرة، وهذا يعم جميع أيمان المسلمين فمن حلف بيمين من أيمان المسلمين وحنث أجزأته كفارة يمين. ومن حلف بأيمان الشرك: مثل أن يحلف بترية أبيه أو الكعبة، أو نعمة السلطان، أو حياة الشيخ، أو غير ذلك من المخلوقات: فهذه اليمين غير منعقدة، ولا كفارة فيها إذا حنث باتفاق أهل العلم) ١. هـ^(٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/١٩٧ - ١٩٨).

(٤) القواعد (٢٦٥).

(٦) مجموع الفتاوى (٣٣/٥٨ - ٥٩).

(١) الفتاوى (٣/١٨٧).

(٣) نظرية العقد (٧٢).

(٥) مرّ تخريجه.

وقال رحمه الله: (فإن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وقال في كتابه: ﴿ذَلِكَ كَفْتَرُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير»^(١) وهذا مروي عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة، وفي مسلم من حديث أبي هريرة، وعدي بن حاتم، وأبي موسى الأشعري، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»^(٢) وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لأن يلج أحدكم يمينه في أهله أثم له من»^(٣) يعطي الكفارة التي فرض الله»^(٤) وقال البخاري: من استلج في أهله فهو أعظم إثماً فقله ﷺ: «يلج» من اللجاج؛ ولهذا سميت هذه الأيمان «نذر اللجاج والغضب» ا.هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفْتَرُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ وثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحيح أنه قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه» وهذا يتناول [أيمان] جميع المسلمين لفظاً ومعنى؛ ولم يخصه نص ولا إجماع ولا قياس، بل الأدلة الشرعية تحقق عمومها) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه» وهذا يتناول جميع أيمان المسلمين لفظاً ومعنى أما اللفظ فلقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وقوله: ﴿ذَلِكَ كَفْتَرُ أَيْمَانِكُمْ﴾ وهذا خطاب للمؤمنين فكل ما كان من أيمانهم فهو داخل في هذا، والحلف بالمخلوقات شرك ليس من أيمانهم، لقول النبي ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»^(٧) رواه أهل السنن أبو

(١) مرّ تخريجه.

(٢) البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم كتاب الأيمان رقم (١١) وغيره.

(٣) كذا في الأصل. والصواب: من أن.

(٤) البخاري (٦٦٢٥)، ومسلم كتاب الأيمان رقم (٢٦).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣٩/٣٣ - ١٤٠). (٦) مجموع الفتاوى (٢٢١/٣٣ - ٢٢٢).

(٧) الترمذي (١٥٣٥) وأبو داود (٣٢٥١) وأحمد (١٢٥/٢) والطبراني (١٨٩٦) والحاكم (١٨/١).

وهو حديث صحيح.

داود وغيره، فلا تدخل هذه في أيمان المسلمين وأما عقده بالله أو لله فهو من أيمان المسلمين فيدخل في ذلك، ولهذا لو قال: أيمان المسلمين أو أيمان البيعة تلزمني ونوى دخول الطلاق والعتاق دخل في ذلك كما ذكر ذلك الفقهاء ولا أعلم فيه نزاعاً، ولا يدخل في ذلك الحلف بالكعبة وغيرها من المخلوقات، وإذا كانت من أيمان المسلمين تناولها الخطاب.

وأما من جهة المعنى فهو أن الله فرض الكفارة في أيمان المسلمين، لئلا تكون اليمين موجبة عليهم أو محرمة عليهم لا مخرج لهم كما كانوا عليه في أول الإسلام قبل أن تشرع الكفارة لم يكن للحالف مخرج إلا الوفاء باليمين، فلو كان من الأيمان ما لا كفارة فيه كانت هذه المفسدة موجودة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ومن ذلك أنه علق الكفارة بمسمى أيمان المسلمين في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيَمَّنِيكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] وقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ ولم يفرق بين يمين ويمين من أيمان المسلمين فجعل أيمان المسلمين المنعقدة تنقسم إلى مكفرة وغير مكفرة مخالف لذلك) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ولهذا قال ابن عباس «تحريم الحلال يمين في كتاب الله تعالى وقرأ: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾») ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (فأما الأولى فإنها تتعلق بالرسول لأنه لا حرج عليهم فيما فرض الله تعالى لهم وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ والمفروض هنا مباح مقدر محدود مثل إباحة زوجة المتبني بعد أن قضى منها وطراً وطلقها لا بأن تؤخذ منه بغير اختياره وقد قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠] أي أوحينا وحررنا قبل) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (فقد دخلت في قوله تعالى للمسلمين: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وإن لم تكن من أيمانهم، بل كانت من الحلف بالمخلوقات فلا يجب بالحنث لا كفارة ولا غيرها فتكون مهذرة) ١. هـ^(٥).

- (١) مجموع الفتاوى (٣٣/ ٥٠ - ٥١). (٢) مجموع الفتاوى (٣٦/ ٢٤).
(٣) مختصر الفتاوى المصرية (٥٣٦). (٤) جامع الرسائل (٥٠/ ١).
(٥) مجموع الفتاوى (٣٣/ ١٤٢).

وقال رحمه الله: (وجعلوا قوله: ﴿عَلَّةَ أَيْمَنِكُمْ﴾ ﴿كَثْرَةُ أَيْمَنِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] عاماً في اليمين بالله واليمين بالنذر، ومعلوم أن شمول اللفظ لنذر اللجاج والغضب في الحج والعقق ونحوهما سواء.

فإن قيل: المراد في الآية اليمين بالله فقط، فإن هذا هو المفهوم من مطلق اليمين، ويجوز أن يكون التعريف بالألف واللام والإضافة في قوله: ﴿عَقَدْتُمُ الْأَيْمَنَ﴾ [المائدة: ٨٩] ﴿عَلَّةَ أَيْمَنِكُمْ﴾ منصرفاً إلى اليمين المعهودة عندهم وهي اليمين بالله، وحينئذ فلا يعم اللفظ إلا المعروف عندهم والحلف بالطلاق ونحوه لم يكن معروفاً عندهم، ولو كان اللفظ عاماً فقد علمنا أنه لم يدخل فيه اليمين التي ليست مشروعة كاليمين بالمخلوقات فلا يدخل فيه الحلف بالطلاق ونحوه؛ لأنه ليس من اليمين المشروعة لقوله: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو فليصمت»^(١) وهذا سؤال من يقول كل يمين غير مشروعة فلا كفارة لها ولا حنث.

فيقال: لفظ «اليمين» شمل هذا كله بدليل استعمال النبي ﷺ والصحابة والعلماء اسم اليمين في هذا كله، كقوله ﷺ: «النذر حلف» وقول الصحابة لمن حلف بالهدي والعق: كفر يمينك، وكذلك فهمه الصحابة من كلام النبي ﷺ، كما سنذكره، ولإدخال العلماء لذلك في قوله ﷺ: «من حلف فقال إن شاء الله فإن شاء فعل وإن شاء ترك»^(٢) ويدل على عمومته في الآية أنه سبحانه قال: ﴿لَا تَحْرِمُوا مَا آَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَنِكُمْ﴾ فافتضى هذا أن نفس تحريم الحلال يمين، كما استدل به ابن عباس وغيره، وسبب نزول الآية: إما تحريمه العسل، وإما تحريمه مارية القبطية. وعلى التقديرين فتحريم الحلال يمين على ظاهر الآية؛ وليس يميناً بالله؛ ولهذا أفتى جمهور الصحابة كعمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وغيرهم أن تحريم الحلال يمين مكفرة: إما «كفارة كبرى» كالظهار وإما «كفارة صغرى» كاليمين بالله، وما زال السلف يسمون الظهار ونحوه يميناً.

وأيضاً: فإن قوله: ﴿لَا تَحْرِمُوا مَا آَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ إما أن يراد به: لم تحرم بلفظ الحرام، وإما: لم تحرمه باليمين بالله تعالى ونحوها؟ وإما: لم تحرمه مطلقاً؟ فإن أريد

(١) البخاري (٣٨٣٦)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) أبو داود (٣٢٦١) والنسائي (٢٥/٧) وابن ماجه (٢١٠٦) وأحمد (١٠/٢) وابن الجارود (٩٢٨) والحاكم (٣٠٣/٤) والحديث صحيح.

الأول والثالث فقد ثبت أن تحريمه بغير الحلف بالله يمين فيعم. وإن أريد به تحريمه بالحلف بالله فقد سمي الله الحلف بالله تحريماً للحلال، ومعلوم أن اليمين بالله لم توجب الحرمة الشرعية؛ لكن لما أوجبت امتناع الحالف من الفعل فقد حرمت عليه الفعل تحريماً شرطياً لا شرعياً، فكل يمين توجب امتناعه من الفعل فقد حرمت عليه الفعل فيدخل في عموم قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. وحينئذ فقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ لا بد أن يعم كل يمين حرمت الحلال لأن هذا حكم ذلك الفعل فلا بد أن يطابق صورته؛ لأن تحريم الحلال هو سبب قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾. وسبب الجواب إذا كان عاماً كان الجواب عاماً لئلا يكون جواباً عن البعض مع قيام السبب المقتضي للتعميم، وهذا التقدير في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٧ - ٨٩].

وأيضاً فإن الصحابة فهمت العموم وكذلك العلماء عامتهم حملوا الآية على اليمين بالله وغيرها.

وأيضاً فنقول: على الرأس، سلمنا أن اليمين المذكورة في الآية المراد بها اليمين بالله تعالى وأن ما سوى اليمين بالله تعالى لا يلزم بها حكم فمعلوم أن الحلف بصفاته كالحلف به كما لو قال: وعزة الله تعالى، أو لعمر الله أو: والقرآن العظيم فإنه قد ثبت جواز الحلف بهذه الصفات ونحوها عن النبي ﷺ والصحابة؛ ولأن الحلف بصفاته كاستعاذة بها وإن كانت الاستعاذة لا تكون إلا بالله في مثل قول النبي ﷺ أعوذ بوجهك وأعوذ بكلمات الله التامات و«أعوذ برضاك من سخطك» ونحو ذلك، وهذا أمر متقرر عند العلماء) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال الله تعالى لنبينا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لَا تُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ تَبَيَّنَ مَرَضَاتُ أَزْوَاجِكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وهذا الفرض هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٢) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٣) لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْاَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤)﴾ [المائدة] ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والله تعالى ذكر في سورة التحريم حكم أيمان المسلمين وذكر في السورة التي قبلها حكم طلاق المسلمين فقال في سورة التحريم: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِرَ تَحْرِمَ مَا آَمَلَ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمُ التَّحْلَةَ أَتَيْنِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ولهذا قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِرَ تَحْرِمَ مَا آَمَلَ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمُ التَّحْلَةَ أَتَيْنِكُمْ﴾ و«التحلة» مصدر حللت الشيء أحله تحليلاً وتحلة، كما يقال كرمته تكريماً وتكرمة وهذا مصدر يسمى به المحلل نفسه الذي هو الكفارة فإن أريد المصدر فالمعنى فرض الله لكم تحليل اليمين وهو حلها الذي هو خلاف العقد.

ولهذا استدل من استدل من أصحابنا وغيرهم كأبي بكر عبد العزيز بهذه الآية على التكفير قبل الحنث لأن التحلة لا تكون بعد الحنث؛ فإنه بالحنث تنحل اليمين؛ وإنما تكون التحلة إذا أخرجت قبل الحنث لتحل اليمين وإنما هي بعد الحنث كفارة؛ لأنها كفرت ما في الحنث من سبب الإثم لنقض عهد الله؛ فإذا تبين أن ما اقتضته اليمين من وجوب الوفاء بها رفعه الله عن هذه الأمة بالكفارة التي جعلها بدلاً من الوفاء في جملة ما رفعه عنها من الأصار التي نبه عليها بقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فقوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِرَ تَحْرِمَ مَا آَمَلَ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمُ التَّحْلَةَ أَتَيْنِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) فوجه الدلالة أن الله قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمُ التَّحْلَةَ أَتَيْنِكُمْ﴾ وهذا نص عام في كل يمين يحلف بها المسلمون أن الله قد فرض لها تحلة وذكره سبحانه بصيغة الخطاب للأمة بعد تقدم الخطاب بصيغة الأفراد للنبي ﷺ مع علمه سبحانه بأن الأمة يحلفون بأيمان شتى، فلو فرض يمين واحدة ليس لها تحلة، لكان مخالفاً للآية، كيف، وهذا عام لم يخص منه صورة واحدة لا بنص ولا بإجماع بل هو عام عموماً معنوياً مع عموم اللفظي؛ فإن اليمين معقودة توجب منع المكلف من الفعل فشرع التحلة لهذه العقدة مناسب لما فيه من التخفيف والتوسعة، وهذا موجود في اليمين بالعتق والطلاق أكثر منه في غيرها من أيمان نذر اللجاج والغضب) ١. هـ^(٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥٢/٣٥).

(١) مجموع الفتاوى (٦٢/٣٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٦٨/٣٥).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلِغْ مَرْصَاتَ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢)) وهذا الاستفهام استفهام إنكار يتضمن النهي، فإن الله لا يستفهم لطلب الفهم والعلم فإنه بكل شيء عليم ولكن مثل هذا يسميه أهل العربية استفهام إنكار، واستفهام الإنكار يكون يتضمن الإنكار مضمون الجملة: إما إنكار نفي إن كان مضمونها خبراً وإما إنكار نهى إن كان مضمونها إنشاء والكلام إما خبر وإما إنشاء وهذا كقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهْمُ﴾ [التوبة: ٤٣] وقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] ونحو ذلك.

فالله تعالى نهى نبيه عن تحريم الحلال كما نهى المؤمنين وأخبر أنه فرض لهم تحلة أيمانهم، كما ذكر كفارة اليمين بعد النهي عن تحريم الحلال في سورة المائدة وقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ هو ما ذكره في سورة المائدة وكان سبب نزول التحريم تحريم النبي ﷺ الحلال: إما أمته مارية القبطية، وإما العسل، وإما كلاهما، وكذلك آية المائدة فإن طائفة من المسلمين كانوا قد حرموا الطيبات إما تبلاً وترهباً كما عزم على ذلك عثمان بن مضعون^(١) ومن وافقه من الصحابة حتى نهاهم النبي ﷺ عن ذلك؛ وإما غير ذلك، وبين الله لهم أن الله جعل لمن حرم الحلال من هذه الأمة مخرجاً؛ وأن اليمين المتضمنة تحريمه للحلال له منها مخرج بالكفارة التي شرعها الله.

ليسوا كالذين من قبلهم الذين كانوا إذا حرموا شيئاً حرم عليهم ولم يكن لهم أن يكفروا قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالاً لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ﴾ [آل عمران: ٩٣] ولذلك قد قيل: إنهم كانوا إذا حلفوا على فعل شيء لزمهم ولم يكن لهم أن يكفروا، ولهذا قالت عائشة: كان أبو بكر الصديق لا يحث في اليمين حتى أنزل الله كفارة اليمين؛ ولهذا أمر الله أيوب بما يحلل يمينه؛ لأنه لم يكن لهم كفارة^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد سمي الله كل تحريم «يميناً» بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ (٣) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلِغْ مَرْصَاتَ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ فهذه الآية وما فيها من

(١) كذا بالضاد، والصواب بالظاء المشالة. (٢) مجموع الفتاوى (٣٢٩/٣٥ - ٣٣٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٣١٨/٣٥).

نهيه نبيه ﷺ عن تحريم ما أحل الله له؛ وذكره ما تقدم قبل ذلك من فرضه للمؤمنين تحلة أيمانهم يوافق تلك الآية، والآيتان جميعاً متفقتان على أن المؤمن ليس له أن يحرم الحلال بيمين ولا غيرها، وأنه إذا فعل ذلك أجزأه كفارة يمين) (١) هـ.

﴿إِنْ نُبَايَعُوا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (٢) هـ.

(وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول جهاراً من غير سر: «إن آل فلان ليسوا لي بأولياء - يعني طائفة من أقاربه - إنما ولي الله وصالح المؤمنين» (٣) وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وصالح المؤمنين هو من كان صالحاً من المؤمنين، وهم المؤمنون المتقون أولياء الله ودخل في ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة وكانوا ألفاً وأربعمائة وكلهم في الجنة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة» (٤) ومثل هذا الحديث الآخر: «أن أوليائي المتقون أي كانوا وحيث كانوا» (٥) هـ.

وقال رحمه الله: (وأفضل الأولياء من هذه الأمة هم صالح المؤمنين الذي صحبوا رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾) (٦) هـ.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فبين الله أن كل صالح من المؤمنين فهو مولى رسول الله ﷺ والله مولاه، وجبريل مولاه، وليس في كون الصالح من المؤمنين مولى رسول الله ﷺ كما أن الله مولاه، وجبريل مولاه، أن يكون صالح المؤمنين متولياً على رسول الله ﷺ ولا متصرفاً فيه) (٧) هـ.

وقال رحمه الله راداً على الرافضة:

(وقال: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلِكَةَ بَعْدَ

(١) نظرية العقد (٢٣ - ٢٤).

(٢) مَرَّ تَخْرِيجِهِ .

(٣) مَرَّ تَخْرِيجِهِ .

(٤) مَرَّ تَخْرِيجِهِ .

(٥) مجموع الفتاوى (١١/١٦٤).

(٦) الصفدية (١/٢٤٧).

(٧) منهاج السنة (٧/٢٧).

ذَلِكَ طَهِيرٌ، فبين أن الرسول ولي المؤمنين، وأنهم مواله أيضاً، كما بين أن الله ولي المؤمنين، وأنهم أولياؤهم، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض.

فالموالة ضد المعادة، وهي تثبت من الطرفين، وإن كان أحد المتواليين أعظم قدراً، وولايته إحسان وتفضل، وولاية الآخر طاعة وعبادة كما أن الله يحب المؤمنين والمؤمنون يحبونه، فإن الموالة ضد المعادة والمحاربة والمخادعة، والكفار لا يحبون الله ورسوله ويحادون الله ورسوله ويعادونه وقد قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، وهو يجازيهم على ذلك كما قال تعالى: ﴿إِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وهو ولي المؤمنين وهو مولاهم يخرجهم من الظلمات إلى النور، وإذا كان كذلك فمعنى كون الله ولي المؤمنين ومولاهم، وكون الرسول وليهم ومولاهم، وكون علي مولاهم، هي الموالة التي هي ضد المعادة.

والمؤمنون يتولون الله ورسوله الموالة المضادة للمعادة، وهذا حكم ثابت لكل مؤمن، فعلي عليه السلام من المؤمنين الذين يتولون المؤمنين ويتولونه) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله راداً على الرافضة فيما تعلقوا به من هذه الآية:

(قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أجمع المفسرون أن صالح المؤمنين هو علي روى أبو نعيم بإسناده إلى أسماء بنت عميس قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿وَلَنْ تَظْهَرَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: «صالح المؤمنين» علي بن أبي طالب واختصاصه بذلك يدل على أفضليته، فيكون هو الإمام، والآيات في هذا المعنى كثيرة اقتصرنا على ما ذكرنا للاختصار.

والجواب من وجوه: أحدها: قوله: «أجمع المفسرون على أن صالح المؤمنين هو علي» كذب مبين؛ فإنهم لم يجمعوا على هذا ولا نقل الإجماع على هذا أحد من علماء التفسير، ولا علماء الحديث ونحوهم.

ونحن نطالبهم^(٢) بهذا النقل ومن نقل هذا الإجماع؟

(١) منهاج السنة (٧/ ٣٢٢ - ٣٢٣).

(٢) كذا في الأصل، ولعله أدخل معه أصحابه الرافضة.

ذَلِكَ ظَهَرَ، فبين أن الرسول ولي المؤمنين، وأنهم مواليه أيضاً، كما بين أن الله ولي المؤمنين، وأنهم أولياؤهم، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض.

فالموالاة ضد المعادة، وهي تثبت من الطرفين، وإن كان أحد المتواليين أعظم قدراً، وولايته إحسان وتفضل، وولاية الآخر طاعة وعبادة كما أن الله يحب المؤمنين والمؤمنون يحبونه، فإن الموالاة ضد المعادة والمحاربة والمخادعة، والكفار لا يحبون الله ورسوله ويحادون الله ورسوله ويعادونه وقد قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، وهو يجازيهم على ذلك كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وهو ولي المؤمنين وهو مولاهم يخرجهم من الظلمات إلى النور، وإذا كان كذلك فمعنى كون الله ولي المؤمنين ومولاهم، وكون الرسول وليهم ومولاهم، وكون علي مولاهم، هي الموالاة التي هي ضد المعادة.

والمؤمنون يتولون الله ورسوله الموالاة المضادة للمعادة، وهذا حكم ثابت لكل مؤمن، فعلي عليه السلام من المؤمنين الذين يتولون المؤمنين ويتولونه) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله راداً على الرافضة فيما تعلقوا به من هذه الآية: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانِي وَجِبْرِيلُ وَصَلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ﴾ أجمع المفسرون أن صالح المؤمنين هو علي روى أبو نعيم بإسناده إلى أسماء بنت عميس قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَفَضَّلْنَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانِي وَجِبْرِيلُ وَصَلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: «صالح المؤمنين» علي بن أبي طالب واختصاصه بذلك يدل على أفضليته، فيكون هو الإمام، والآيات في هذا المعنى كثيرة اقتصرنا على ما ذكرنا للاختصار.

والجواب من وجوه: أحدها: قوله: «أجمع المفسرون على أن صالح المؤمنين هو علي» كذب مبین؛ فإنهم لم يجمعوا على هذا ولا نقل الإجماع على هذا أحد من علماء التفسير، ولا علماء الحديث ونحوهم.

ونحن نطالبهم^(٢) بهذا النقل ومن نقل هذا الإجماع؟

(١) منهاج السنة (٧/ ٣٢٢ - ٣٢٣).

(٢) كذا في الأصل، ولعله أدخل معه أصحابه الرافضة.

الثاني: أن يقال: كتب التفسير مملوءة بنقيض هذا قال ابن مسعود وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم^(١): هو أبو بكر وعمر وذكر هذا جماعة من المفسرين كابن جرير الطبري وغيره.

وقيل: هو أبو بكر رواه مكحول عن أبي أمانة.

وقيل: عمر قاله سعيد بن جبير ومجاهد.

وقيل: خيار المؤمنين قاله الربيع بن أنس.

وقيل: هم الأنبياء قاله قتادة والعلاء بن زياد وسفيان.

وقيل: هو علي حكاه الماوردي^(٢) ولم يسم قائله فلعله بعض الشيعة.

الثالث: أن يقال: لم يثبت [هذا] القول بتخصيص علي به عمن قوله حجة. والحديث المذكور كذب موضوع، وهو لم يذكر دلالة على صحته، ومجرد رواية أبي نعيم له لا تدل على الصحة.

الرابع: أن يقال: قوله: (وصالح المؤمنين) اسم يعم كل صالح من المؤمنين، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين».

الخامس: أن يقال: إن الله جعل في هذه الآية صالح المؤمنين مولى رسول الله ﷺ كما أخبر أن الله مولاه والمولى يمنع أن يراد به الموالي عليه فلم يبق المراد به إلا الموالي. ومن المعلوم أن كل من كان صالحاً من المؤمنين كان موالياً للنبي ﷺ قطعاً؛ فإنه [لو] لم يواله لم يكن من صالح المؤمنين، بل قد يواليه المؤمن وإن لم يكن صالحاً، لكن لا تكون موالاة كاملة، وأما الصالح فيواليه موالاة كاملة؛ فإنه إذا كان صالحاً أحب ما أحبه الله ورسوله، وأبغض ما أبغضه الله ورسوله، وأمر بما أمر به الله ورسوله، ونهى عما نهى الله عنه ورسوله وهذا يتضمن الموالاة.

وقد قال رسول الله ﷺ لابن عمر: «إن عبد الله رجل صالح لو كان يصلي من الليل» فما نام بعدها^(٣).

(١) ابن جرير (١٦٣/٢٨) عن الضحاك وابن كثير (٣٨٩/٤) وزاد المسير (٣١٠/٨).

(٢) كل هذه الأقوال من زاد المسير (٣١٠/٨ - ٣١١).

(٣) البخاري (٤٠/٩)، ومسلم (١٩٢٧/٤).

وقال عن أسامة بن زيد «إنه من صالحكم فاستوصوا به خيراً»^(١).

وأما قوله: «والآيات في هذا المعنى كثيرة» فغايته أن يكون المتروك من جنس المذكور، والذي ذكره خلاصة ما عندهم وياب الكذب لا ينسب ولهذا كان من الناس من يقابل كذبهم بما يقدر عليه من الكذب ولكن الله يقذف بالباطل على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق وللكذابين الويل مما يصفون.

وما ذكر وقال: «أريد به علي» إذا ذكر أنه أريد به أبو بكر أو عمر أو عثمان، لم يكن هذا القول بأبعد من قولهم بل يرجح على قوله، لا سيما في مواضع كثيرة.

وإذا قال: فهذا لم يقله أحد بخلاف قولنا كان الجواب من وجهين: أحدهما: أن هذا ممنوع بل من الناس من يخص أبا بكر وعمر ببعض ما ذكره من الآيات وغيرهما.

الثاني: أن قول القائل: خص هذا بواحد من الصحابة، إذا أمكن غيره أن يخصه بآخر، تكون حجته من جنس حجته فإنه يدل على فساد قوله وإن كان لم يقله، فإن الإنسان إذا كذب كذبة [لم] يمكن مقابلتها بمثلها، ولم يمكنه دفع هذا إلا بما يدفع به قوله ووجب إما تصديق الاثنين، وإما كذب الاثنين. كالحكاية المشهورة عن قاسم بن زكريا المطرزي، قال: دخلت على بعض الشيعة وقد قيل: إنه عباد بن يعقوب فقال لي: من حفر البحر؟ فقلت: الله تعالى فقال: تقول من حفره؟ قلت: من حفره؟ قال: علي ابن أبي طالب قال: من جعل فيه الماء؟ قلت: الله، قال: تقول من هو الذي جعل في الماء؟ قلت: من هو؟ قال: الحسن قال: فلما أردت أن أقوم، قال: من حفر البحر؟ قلت: معاوية قال: ومن [الذي] جعل فيه الماء؟ قلت: يزيد فغضب من ذلك وقام.

وكان غرض القاسم أن يقول: هذا القول مثل قولك وأنت تكره ذلك وتدفعه وبما به يدفع ذلك يدفع به قولك.

وكذلك ما تذكره الناس من المعارضات لتأويلات القرامطة والرافضة ونحوهم كقولهم في قوله: «فَقَبِّلُوا آيَةَ الْكُفْرِ» [التوبة: ١٢] طلحة والزبير وأبو بكر وعمر ومعاوية فيقابل هذا بقول الخوارج: إنهم علي والحسن والحسين وكل هذا باطل، لكن الغرض أنهم يقابلون بمثل حجتهم، والدليل على فسادها يعم النوعين فعلم بطلان الجميع) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله راداً على الرافضة :

(وأما قوله: «وأذاعت سر رسول الله ﷺ» فلا ريب أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ، وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيِّ الْحَبِيبِ ۝﴾ .

وقد ثبت في الصحيح [عن عمر] أنهما عائشة وحفصة^(١).

فيقال: أولاً: هؤلاء يعمدون إلى نصوص القرآن التي فيها ذكر ذنوب ومعاص بينة لمن نصت عنه من المتقدمين [يتأولون النصوص بأنواع التأويلات وأهل السنة يقولون: بل أصحاب الذنوب] تابوا منها ورفع الله درجاتهم بالتوبة.

وهذه الآية ليست [بأولى] في دلالتها على الذنوب من تلك الآيات فإن كان تأويل تلك سائغاً كان تأويل هذه كذلك، وإن كان تأويل هذه باطلاً فتأويل تلك أبطل.

ويقال: ثانياً: بتقدير أن يكون هناك ذنب لعائشة وحفصة فيكونان قد تابتا منه وهذا ظاهر لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فدعاهما الله تعالى إلى التوبة فلا يظن بهما أنهما لم يتوبا، مع ما ثبت من علو درجاتهما، وأنهما زوجتا نبينا في الجنة، وأن الله خيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ولذلك حرم الله عليه أن يتبدل بهن غيرهن وحرم عليه أن يتزوج عليهن، واختلف في إباحة ذلك له بعد ذلك ومات عنهن وهن أمهات المؤمنين بنص القرآن ثم قد تقدم أن الذنب يغفر ويعفى عنه بالتوبة وبالحسنات الماحية وبالمصائب المكفرة.

ويقال: ثالثاً: المذكور عن أزواجه كالمذكور عمن شهد له بالجنة من أهل بيته وغيرهم من الصحابة، فإن علياً لما خطب ابنة أبي جهل على فاطمة وقام النبي ﷺ خطيباً فقال: «إن بنى المغيرة استأذنونني أن ينكحوا علياً ابنتهم، وإني لا أذن ثم لا أذن ثم لا أذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي ويتزوج ابنتهم، إنما فاطمة بضعة مني، يريني ما رابها ويؤذيني ما آذاها»^(٢) فلا يظن بعلي رضي الله عنه أنه ترك الخطبة في الظاهر فقط، بل تركها بقلبه وتاب بقلبه عما كان طلبه وسعى فيه.

وكذلك لما صالح النبي ﷺ المشركين يوم الحديبية وقال لأصحابه: «انحروا

واحلقوا رؤوسكم» فلم يقم أحد فدخل مغضباً على أم سلمة فقالت: من أغضبك أغضبه الله؟ فقال: «ما لي لا أغضب وأنا أمر بالأمر فلا يطاع»^(١) فقالت: يا رسول الله ادع بهديك فانحره وأمر الحلاق فليحلق رأسك وأمر علياً أن يمحو اسمه فقال: والله لا أمحوك فأخذ الكتاب من يده ومحاه فمعلوم أن تأخر علي وغيره من الصحابة عما أمروا به حتى غضب النبي ﷺ: إذا قال القائل: هذا ذنب كان جوابه كجواب القائل: إن عائشة أذنبت في ذلك، فمن الناس من يتأول ويقول: إنما تأخروا متأولين لكونهم كانوا يرجون تغيير الحال بأن يدخلوا مكة، وآخر يقول: لو كان لهم تأويل مقبول لم يغضب النبي ﷺ، بل تابوا من ذلك التأخير ورجعوا عنه مع أن حسناتهم تمحو مثل هذا الذنب، وعلي داخل في هؤلاء رضي الله عنهم أجمعين.

وأما الحديث الذي رواه وهو قوله لها: «تقاتلين علياً وأنت ظالمة له» فهذا لا يعرف في شيء من كتب العلم المعتمدة ولا له إسناده معروف، وهو بالموضوعات المكذوبات أشبه منه بالأحاديث الصحيحة، بل هو كذب قطعاً؛ فإن عائشة لم تقاتل ولم تخرج لقتال، وإنما خرجت لقصد الإصلاح بين المسلمين، وظنت أن في خروجها مصلحة للمسلمين، ثم تبين لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى فكانت إذا ذكرت خروجها تبكي حتى تبل خمارها.

وهكذا عامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال، فندم طلحة والزبير وعلي رضي الله عنهم أجمعين، ولم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصد في الاقتتال، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم، فإنه لما ترأس علي وطلحة والزبير وقصدوا الاتفاق على المصلحة وأنهم إذا تمكنوا طلبوا قتلة عثمان أهل الفتنة وكان علي غير راض بقتل عثمان ولا معيناً عليه كما كان يحلف فيقول: والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله وهو الصادق البار في يمينه فخشي القتلة أن يتفق علي معهم على إمساك القتلة فحملوا على عسكر طلحة والزبير فظن طلحة والزبير أن علياً حمل عليهم، فحملوا دفعاً عن أنفسهم، فظن علي على أنهم حملوا عليه فحمل دفعاً عن نفسه، فوقع الفتنة بغير اختيارهم وعائشة راقبة: لا قاتلت، ولا أمرت بالقتال، هكذا ذكره غير واحد من أهل المعرفة بالأخبار) ١. هـ^(٢).

﴿عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ مُتَمَنِّيًا قَوْلُكِ قَوْلُكِ تَبَيَّنْتَ عَبْدَاتِ سَيِّئَاتٍ نَبِيَّتٍ وَأَنْكَرًا ۝﴾ .

(وفي الصحيحين^(١) عن أنس أن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث قلت: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وقلت: يا رسول الله: يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن يحتجن فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة، فقلت: ﴿عَنِ رَبِّهِ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ﴾ فنزلت كذلك) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وفي حديث آخر: «إن السياحة هي الصيام» أو «السائحون هم الصائمون» أو نحو ذلك وذلك تفسير لما ذكره الله تعالى في القرآن من قوله: ﴿السَّائِحُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] وقوله: ﴿سَيِّئَاتٍ﴾) ١. هـ^(٣).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾ .

(وقد وصف سبحانه بذلك ملائكة النار فقال: ﴿قَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وقد ظن بعضهم أن هذا تأكيد وقال بعضهم: بل لا يعصونه في الماضي ويفعلون ما أمروا به في المستقبل، وأحسن من هذا وهذا أن العاصي هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته على الامتناع، فلو لم يفعل ما أمر به لعجزه لم يكن عاصياً فإذا قال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ لم يكن في هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرون فإن العاجز ليس بعاص ولا فاعل لما أمر به وقال: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ليبين أنهم قادرون على فعل ما أمروا به، فهم لا يتركونه لا عجزاً ولا معصية، والمأمور إنما يترك ما أمر به لأحد هذين إما أن لا يكون قادراً وإما أن يكون عاصياً لا يريد الطاعة، فإذا كان مطيعاً يريد طاعة الأمر وهو قادر وجب وجود فعل ما أمر به، فكذلك الملائكة المذكورون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾) ١. هـ^(٤).

(١) البخاري (٤٠٢)، ومسلم (١٨٦٥/٤). (٢) منهاج السنة (٦٥/٨ - ٦٦).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٨٧/١) وقد مرّ تخريج الأقوال التي فيه.

(٤) مجموع الفتاوى (٦١/١٣).

وقال رحمه الله: ﴿يَتَأْتِي الَّذِينَ آمَنُوا قَوْلًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ قال علي عليه السلام ^(١): علموهم وأدبوهم) ا.هـ ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿مَلِكَةً غَلَاظَ شِدَادٍ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فهم لا يعصونه إذا نهاهم) ا.هـ ^(٣).

وقال رحمه الله: (فإذا قال تعالى عن الملائكة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ دخل في ذلك أنه إذا نهاهم عن شيء اجتنبوه وأما قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فقد قيل: لا يعتدون ما أمروا به وقيل: يفعلونه في وقته لا يقدمونه ولا يؤخرونه.

وقد يقال: هو لم يقل: ولا يفعلون إلا ما يؤمرون، بل هذا دل عليه قوله: ﴿لَا يَسْتَفِئُونَ بِالْقَوْلِ﴾ وهم يأمرؤ. **﴿٧﴾** [الأنبياء] وقد قيل: لا يعصون ما أمرهم به في الماضي ويفعلون ما يؤمرون في المستقبل وقد يقال: هذه الآية خبر عما سيكون ليس ما أمروا به هنا ماضياً، بل الجميع مستقبل فإنه قال: ﴿قَوْلًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وما يتقي به إنما يكون مستقبلاً وقد يقال: ترك المأمور تارة يكون لمعصية الأمر وتارة يكون لعجزه، فإذا كان قادراً مريداً لزم وجود المأمور المقذور فقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ﴾ لا يمتنعون عن الطاعة وقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي هم قادرون على ذلك لا يعجزون عن شيء منه بل يفعلونه كله، فيلزم وجود كل ما أمروا به، وقد يكون في ضمن ذلك أنهم لا يفعلون إلا المأمور به كما يقول القائل: أنا أفعل ما أمرت به أي أفعله ولا أتعداه لا زيادة ولا نقصان.

وأيضاً فقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ إن كان نهاهم عن فعل آخر كان ذلك من أمره، وإن كان لم ينههم لم يكونوا مذمومين بفعل ما لم ينهوا عنه) ا.هـ ^(٤).

﴿يَتَأْتِي الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَنِ رَبِّكُمْ أَنَّ يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَآمِنُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ رَبًّا أَنِمْ لَنَا نُورُنَا وَآغْفِرَ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **﴿٨﴾**.

(وقد قال تعالى: ﴿تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ ^(٥) أن يتوب ثم لا يعود، فهذه التوبة الواجبة التامة) ا.هـ ^(٦).

(١) الأولى أن يقال: عليه السلام وهذا من النسخ. (٢) جامع المسائل (١١٣/٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٦٧٤/١١). (٤) مجموع الفتاوى (١٧٤/٧ - ١٧٥).

(٥) ابن جرير (١٦٧/٢٨). (٦) مجموع الفتاوى (٧٠٠/١١).

وسئل رحمه الله:

(عن قوله تعالى: ﴿يَتَابَتَا إِلَيْكَ ءَامَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ هل هذا اسم رجل كان على عهد النبي ﷺ أم لا؟ وأيش معنى قوله: ﴿نَّصُوحًا﴾.

فأجاب الحمد لله، قال عمر بن الخطاب ^(١) رضي الله عنه وغيره من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه. و«نصوح» هي صفة للتوبة وهي مشتقة من النصح والنصيحة.

وأصل ذلك هو الخلوص يقال: فلان ينصح لفلان إذا كان يريد له الخير إرادة خالصة لا غش فيها، وفلان يغشه إذا كان باطنه يريد السوء وهو يظهر إرادة الخير كالدرهم المغشوش ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُفْقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١] أي أخلصوا لله ورسوله قصدهم وحبهم، ومنه قوله ﷺ في الحديث الصحيح «الدين النصيحة» ثلاثاً قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «الله وكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» ^(٢).

فإن أصل الدين هو حسن النية وإخلاص القصد، ولهذا قال ﷺ: «ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمور ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» ^(٣) أي هذه الخصال الثلاثة لا يحقد عليها قلب مسلم بل يحبها ويرضاها.

فالتوبة النصوح هي الخالصة من كل غش، وإذا كانت كذلك كائنة فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه، فمن خرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب، فهذه التوبة النصوح، وهي واجبة بما أمر الله تعالى ولو تاب العبد ثم عاد إلى الذنب قبل الله توبته الأولى، ثم إذا عاد استحق العقوبة فإن تاب تاب الله عليه أيضاً.

ولا يجوز للمسلم إذا تاب ثم عاد أن يصبر بل يتوب ولو عاد في اليوم مائة مرة فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن علي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يحب العبد المفتن التواب» ^(٤).

وفي حديث آخر: «لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار».

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ آنفاً.

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) رواه عبد الله بن أحمد في المسند (٦٠٥، ٨١٠) وأبو نعيم (٣/ ١٧٨ - ١٧٩) وأبو يعلى (٤٨٣).

وفي حديث آخر: «ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم مائة مرة» ومن قال من الجاهل: إن «نصوح» اسم رجل كان على عهد النبي ﷺ أمر الناس أن يتوبوا كتوبته: فهذا رجل مفتر كذاب جاهل بالحديث والتفسير جاهل باللغة ومعاني القرآن؛ فإن هذا امرؤ لم يخلقه الله تعالى ولا كان في المتقدمين أحد اسمه نصوح، ولا ذكر هذه القصة أحد من أهل العلم، ولو كان كما زعم الجاهل لقليل: توبوا إلى الله توبة نصوح وإنما قال: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ والنصوح هو التائب ومن قال: إن المراد بهذه الآية رجل أو امرأة اسمه «نصوح» وإن كان على عهد عيسى أو غيره فإنه كاذب يجب أن يتوب من هذه، فإن لم يتب وجبت عقوبته بإجماع المسلمين. والله أعلم^(١).

وقال رحمه الله: (إن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرُكُمُ الْيَوْمَ جَمَّةٌ تَبْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد].

نص عام في المؤمنين الذين مع النبي ﷺ وسياق الكلام يدل على عمومهم، والآثار المروية في ذلك تدل على عمومهم.

قال ابن عباس: ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ [نوره] يوم القيامة، والمؤمن يشفق مما يرى من إطفاء نور المنافق، فهو يقول: (ربنا أتمم لنا نورنا) فإن العموم في ذلك يعلم قطعاً وقيناً وأنه لم يرد به شخص واحد فكيف يجوز أن يقال: إنه علي وحده ولو أن قائلاً قال في كل ما جعلوه علياً إنه أبو بكر أو عمر أو عثمان أي فرق كان بين هؤلاء وهؤلاء إلا محض الدعوى والافتراء، بل يمكن ذكر شبه لمن يدعي اختصاص ذلك بأبي بكر وعمر أعظم من شبه الرافضة التي تدعي اختصاص ذلك بعلي، وحينئذ فدخل علي في هذه الآية كدخول الثلاثة بل هم أحق بالدخول فيها فلم يثبت بها أفضليته ولا إمامته) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وهذا النور الذي يكون للمؤمن في الدنيا على حسن عمله واعتقاده يظهر في الآخرة كما قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ الآية، فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة) ١. هـ^(٣).

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١١).

(وقال في سورة التحريم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١١) وَمِمَّنْ أَهْلَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَسَبِ (١٢)، فذكر امرأة فرعون التي ربت موسى بن عمران وجمعت بينه وبين أمه حتى أرضعته أمه عندها وذكر مريم أم المسيح التي ولدته وربته فهاتان المرأتان ربنا هذين الرسولين الكريمين فلما قال هنا: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أي في المرأة، و﴿فِيهِ﴾ أي في فرجها ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ وقال هنا: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧ - ١٩] دل على أن قوله: ﴿رُوحِنَا﴾ ليس المراد به أنه صفة لله لا الحياة ولا غيرها، ولا هو رب خالق، فلا هو الرب الخالق ولا صفة الرب الخالق، بل هو روح من الأرواح التي اصطفاه الله وأكرمها كما تقدم في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وأن الأكثرين على أنه جبريل) ١. هـ^(١).

﴿وَمِمَّنْ أَهْلَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَسَبِ﴾ (١٢).

(أما قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ وقوله في سورة الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١١) [الأنبياء]، فهذا قد فسرهُ قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَمَثَلٌ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (١٧) قَالَتْ إِنَّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) [مريم] وفي القراءة الأخرى: ليهب لك غلاماً زكياً.

فأخبر أنه رسوله وروحه وأنه تمثل لها بشراً وأنه ذكر أنه رسول الله إليها فعلم أن روحه مخلوق مملوك له، ليس المراد حياته التي هي صفته ﷺ.

وكذلك قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾، وهو مثل قوله في آدم ﷺ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وقد شبه المسيح بآدم في قوله: ﴿إِنِّي مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥١) [آل عمران] والشبهة في

هذا نشأت عند بعض الجهال من أن الإنسان إذا قال: روحي، فروحه في هذا الباب هي الروح التي في البدن، وهي عين قائمة بنفسها، وإن كان من الناس من يعتي بها الحياة، والإنسان مؤلف من بدن وروح، وهي عين قائمة بنفسها عند سلف المسلمين وأئمتهم وجماهير الأمم.

والرب تعالى منزّه عن هذا، وأنه ليس مركباً من بدن وروح، ولا يجوز أن يراد بروحه ما يريد الإنسان بقوله: روحي، بل تضاف إليه ملائكته وما ينزله على أنبيائه من الوحي والهدى والتأييد، ونحو ذلك) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (إن الكتب دلت على أن المسيح تجسد من روح القدس ومن مريم العذراء البتول وهكذا هو في الأمانة التي لهم، وبهذا أخبر القرآن حيث أخبر في غير موضع أنه نفخ في مريم من روحه مع إخباره أنه أرسل إليها روحه.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ ﴿٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝ ﴿٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝ ﴿٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا ۝ ﴿١٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَنَّهَا ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۝ ﴿١١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ ﴿١٢﴾ فَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ۝ [مريم]، وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ ۝﴾ [الأنبياء]، ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْقِسْلُ ۝﴾ فالكتب الإلهية يصدق بعضها بعضاً) ١. هـ^(٢).

سورة الملك

وقال في فضل سورة الملك:

(ويدل على ذلك ما رواه أهل السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «إن سورة من القرآن ثلاثين آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»^(١)) ا.هـ^(٢).

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وهو كما قال الفضيل بن عياض رحمته الله: «أخلصه وأصوبه فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة»، فالعمل الصالح لا بد أن يراد به وجه الله [تعالى]؛ فإن الله [تعالى] لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ولهذا كان أئمة السلف رحمهم الله يجمعون هذين الأصلين، كقول الفضيل بن عياض في قوله [تعالى]: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: أخلصه وأصوبه، فقبل له: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل وإذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة.

وقد روى ابن شاهين واللالكائي عن سعيد بن جبيرة قال: «لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة»^(٤).

(١) مَرَّ تَخْرِيجُهُ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَهُوَ صَحِيحٌ. (٢) مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى (٤٣٩/٢٢) (٣٥٢/٢٢).

(٣) الْإِسْقَامَةُ (٢٢٦/٢ - ٢٢٧).

(٤) اللَّالِكَايْنِ (٢٠)، وَقَرِيباً مِنْهُ عَنِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ فِي حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ (٣٣٥/٢) وَكَذَا عَنْ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ فِي حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ (٣٢/٧) (٨/٩).

وروي عن الحسن البصري^(١) مثله، ولفظ ما روى عن الحسن: «لا يصلح» مكان «لا يقبل» ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (كان عمر بن الخطاب يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً») ا. هـ^(٣).

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن تُفْهٍ ۚ﴾ (٢)

(وقال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ وليس في السماء إلا أجسام ما هو متشابه - فأما الثلاث، والتربيع، والتخميس، والتسدیس، وغير ذلك: ففيها تفاوت واختلاف، بالزوايا والأضلاع - لا خلاف فيه، ولا تفاوت، إذ الاستدارة التي هي الجوانب) ا. هـ^(٤).

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَايِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٣)

(قوله تعالى: ﴿ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ يراد به: مطلق العدد، كما تقول: قلت له مرة بعد مرة تريد: جنس العدد وتقول: هو يقول كذا ويقول كذا وإن كان قد قال مرات، كقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه: «جعل يقول بين السجدين: رب اغفر لي رب اغفر لي»^(٥) لم يرد: أن هذا قاله مرتين فقط، كما يظنه بعض الناس الغالطين بل يريد: أنه جعل يشي هذا القول ويرده ويكرره كما كان يشي لفظ التسييح) ا. هـ^(٦).

﴿تَكَادُ سَمَيرٌ مِّنَ الْقَبِيطِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمُ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٤)

(وقال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمُ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾^(٨) قَالُوا بَلَّيْنَا جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن سَمُومٍ ۖ إِنَّا نَتَّبِعُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾^(٩) فأخبر أنه كلما أُلقي في النار فوج أقروا بأنهم جاءهم النذير فكذبوه، فدل ذلك على أنه لا يلقي فيها فوج إلا من كذب النذير) ا. هـ^(٧).

(١) اللالكائي (٢٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٥٠٩/١١).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٥٨/٦).

(٤) مرّ تخريجه.

(٥) مجموع الفتاوى (٤٠٧/١٤)، جامع المسائل (٢٨٣/١) فقط قوله: مرة بعد مرة.

(٦) مجموع الفتاوى (١٨٧/١١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ مِّمَّنْ خَرْنَهَا اللَّهُ بِأَذْكُرْ نَذِيرٌ ۝٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ۝٩ فقد كذبوا بوجوده وكذبوا بتنزيله وأما في الآخرة فعفروا الجميع) ١. هـ^(١).

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠﴾.

(والله تعالى قد أخبر عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠﴾ فالضلال وقع في السمع والعقل) ١. هـ^(٢).

﴿وَأَيِّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١﴾.

(وأما قوله تعالى: ﴿وَأَيِّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١﴾ فالمراد به القول الذي تارة يسر به فلا يسمعه الإنسان وتارة يجهر به فيسمعونه كما يقال: أسر القراءة وجهر بها، وصلاة السر وصلاة الجهر ولهذا لم يقل: قولوه بالسنتكم أو بقلوبكم، وما في النفس لا يتصور الجهر به، وإنما يجهر بما في اللسان وقوله: ﴿إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١﴾ من باب التنبيه يقول: إنه يعلم ما في الصدور فكيف لا يعلم القول كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَيِّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١﴾ فلو أراد بالقول ما في النفس لكونه ذكر علمه بذات الصدور، لم يكن قد ذكر علمه بالنوع الآخر وهو الجهر) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد احتج بعض هؤلاء بقوله: ﴿وَأَيِّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١﴾ وجعلوا القول المسر في القلب دون اللسان؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١﴾ وهذه حجة ضعيفة جداً؛ لأن قوله: ﴿وَأَيِّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۚ﴾ يبين أن القول يسر به تارة ويجهر به أخرى، وهذا إنما هو فيما يكون في القول الذي هو بحروف مسموعة، وقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١﴾ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى فإنه إذا كان عليمًا بذات الصدور فعلمه بالقول المسر والمجهور به أولى) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَأَيِّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١﴾ أَلَا بَعْلُمْ مَنِ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٢﴾ وقد استدل طوائف من أهل السنة بهذه الآية على

(١) مجموع الفتاوى (١٥١/٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢٧٧/٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣٦/٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/١٥ - ٣٦).

أنه خالق أقوال العباد وما في صدورهم، وهذه الآية تدل على كونه عالماً بالجزئيات من طرق:

«أحدها»: من جهة كون الخلق يستلزم العلم بالمخلوق.

«والثاني»: من جهة كونه في نفسه لطيفاً خبيراً، وذلك يوجب علمه بدقيق الأشياء وحفيها.

ثم يقال: اللطيف الخبير علمه بنفسه أولى من علمه بغيره، وعلمه بنفسه، مستلزم لعلمه بلوازم ذاته كما تقدم، فقد تضمنت الآية هذه الطرق الثلاثة) ا. هـ (١).

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١)

(كما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فإنه في نفسه لطيف خبير يمتنع أن يخفى عليه شيء) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال في سورة الملك ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وهو بيان ما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بالطف (الوجه) ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فقد دلت هذه الآية، على وجوب علمه بالأشياء، من وجوه انتظمت البراهين المذكورة، لأهل النظر والاستدلال القياسي العقلي، من أهل الكلام والفلسفة وغيرهم:

«أحدها»: أنه خالق لها، والخلق هو الإبداع بتقدير، وذلك يتضمن تقديرها في العلم قبل تكوينها في الخارج.

«الثاني»: أن ذلك مستلزم للإرادة والمشئته، والإرادة مستلزمة لتصور المراد والشعور به، وهذه الطريقة المشهورة عند أكثر أهل الكلام.

«الثالث»: أنها صادرة عنه، وهو سببها التام، والعلم بأصل الأمر وسببه يوجب العلم بالفرع المسبب، فعلمه بنفسه مستلزم العلم بكل ما يصدر عنه.

«الرابع»: أنه في نفسه لطيف يدرك الدقيق، خبير يدرك الخفي، وهذا هو مقتضى العلم بالأشياء، فيجب وجود المقتضى لوجود السبب التام، فهو في علمه بالأشياء

(١) درء تعارض العقل (١٠/١١٧). (٢) درء تعارض العقل (١٠/١٢٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٣٥٤).

مستغن بنفسه عنها، كما هو غني بنفسه في جميع صفاته، ثم إذا رأى الأشياء بعد وجودها، وسمع كلام عباده ونحو ذلك، فإنما يدرك ما أبدع وما خلق، وما هو مفتقر إليه، ومحتاج من جميع وجوهه، لم يحتج في علمه وإدراكه إلى غيره ألبتة، فلا يجوز القول بأن علمه بالأشياء استفاده من نفس الأشياء الثابتة، الغنية في ثبوتها عنه) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فالعلم بها شرط في وجودها لكن ليس هو وحده العلة في وجودها بل لا بد من القدرة والمشية) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والمقصود هنا أنه إذا كان عالماً بنفسه لزم أن يكون عالماً بخلقه، وهذه قضية صحيحة، ويمكن تقريرها بطرق:

«أحدها»: أنه لا يكون عالماً بنفسه علماً تاماً إلا إذا كان عالماً بلوازمها، والخلق من لوازم مشيئته، التي هي من لوازم نفسه، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومشيئته من لوازم نفسه.

والفلاسفة يعبرون عن أصلهم بقولهم: إنه علة تامة والعلم بالعلة التامة يقتضي العلم بالمعلول.

ومن سلم منهم أنه يفعل باختياره وسماه مع ذلك علة فالنزاع معه لفظي والمعنى صحيح؛ فإنه حينئذ مع قدرته على الشيء إذا شاء وجب وجوده، فما شاء كان فهو بمشيئته وقدرته موجب لوجود ما شاءه والعلم بالموجب التام يوجب العلم بموجبه.

وأما من لم يسلم أنه يفعل باختياره، فهذا القول باطل من جهة نفيه لاختياره، لا من جهة أن كونه فاعلاً يوجب العلم بالمفعول، فإذا قدر أنه فاعل على هذا الوجه، كان علمه بنفسه يوجب علمه بمفعولاته؛ لأن العلم بالموجب التام يوجب العلم بالموجب.

ففي الجملة لا يكون عالماً بنفسه إن لم يكن عالماً بلوازمها، وقدرته وإرادته من لوازمها، ومراده من لوازم الإرادة، فالمفعولات لازمة للإرادة اللازمة لذاته، ولازم اللازم لازم، ومجرد النظر إلى كونه مستلزماً لمفعوله يوجب العلم مع قطع النظر عن توسط الإرادة، لكن هي ثابتة في نفس الأمر وإن لم يستحضر المستدل ثبوته، وهذا الدليل يستقيم على أصول أهل السنة الذين يقولون: إرادته من صفاته التي هي من لوازم ذاته.

وأما القدرة الذين يتكبرون قيام إرادة به فينفونها، أو يقولون: أحدث إرادة لا في محل، فهؤلاء يقولون: القادر المختار يرجح أحد مقدوريه بلا مرجح، وهؤلاء لا يسلكون هذه الطريق.

وهذا الدليل مأخوذ من معنى قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ودلالة الآية تقرر بطريق ثان، وهو أن يقال: خلق الخالق مشروط بتصوره للمخلوق قبل أن يخلقه؛ فإن الخلق إنما يخلق بالإرادة، والإرادة مشروطة بالعلم، فإرادة ما لا يشعر به محال، وإذا كان إنما يخلق بإرادته، وإنما يريد ما يصوره لزم من ذلك أن يعلم كل ما خلقه.

وهذه الطريقة هي طريقة مشهورة لنظار المسلمين، والقرآن قد دل عليها، والعقل الصريح يدرك صحتها، وطرد هذه الدلالة على أصول أهل السنة أن من سوى الله لا يخلق شيئاً، لأنه لا يحيط علماً بجزئيات أفعاله، فلا يكون خالقاً لها، وإن كان شاعراً بها من بعض الوجوه، ومريداً لها من بعض الوجوه، فهو فاعل لها من ذلك الوجه) ا. هـ^(١).

﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْآرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١١).

وقال رحمه الله فيما نقله عن البيهقي: (﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أراد فوق السماء كما قال: ﴿وَلَأُصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] وقال: ﴿فَيَسْخَرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] يعني على الأرض، وكل ما علا فهو سماء، والعرش على السماوات، فمعنى الآية: أأمتم من على العرش كما صرح به في سائر الآيات. وقال: فيما كتبنا من الآيات دلالة على إبطال قول من زعم من الجهمية بأن الله بذاته في كل مكان) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله فيما نقله عن أبي الحسن الأشعري: (وقال عليه السلام: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْآرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١١) والسماوات فوقها العرش وإنما أراد العرش الذي هو على السماوات ألا ترى أن الله ذكر السماوات فقال: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُجُومًا﴾ [نوح: ١٦] ولم يرد أن القمر يملؤها جميعاً وأنه فيهن جميعاً) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال في قوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أي من فوق السماء، واحتج البيهقي لذلك بقول النبي ﷺ (لسعد بن معاذ حين حكم في بني قريظة): «لقد حكمت فيهم بحكم الله الذي حكم به فوق سبع سماوات»^(٤).

(١) درء تعارض العقل (١١٣/١٠ - ١١٤).

(٢) بيان تلبس الجهمية (٥٣٠/٢).

(٤) مرّ تخريجه.

(٣) بيان تلبس الجهمية (٤٣٤/٢).

ويقول ابن عباس: إن بين السماء السابعة إلى كرسیه سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك^(١) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال أبو الحسن بن مهدي الطبري^(٣): فإن قيل: فما تقولون في قوله: ﴿ءَايَنُتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ؟﴾ قيل له: معنى ذلك أنه فوق السماء على العرش كما قال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] بمعنى على الأرض وقال: ﴿وَلَأُصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي على جذوع النخل فكذلك قوله: ﴿ءَايَنُتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ؟﴾.

قال: فإن قيل: فما تقولون في قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٢] قيل له: إن بعض القراء يجعل الوقف في السماوات ثم يبتدي: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وكيف ما كان فلو أن قائلًا قال: فلان بالشام والعراق ملك لدل على الملك بالشام والعراق لا أن ذاته فيهما، قال: فإن قيل: ما تقول في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] قيل له: كون الشيء مع الشيء على وجوه: منها بالنصر، ومنها بالصحة، ومنها بالمراساة، ومنها بالعلم، فمعنى هذا عندنا أن الله تعالى مع كل الخلق بالعلم.

قال: قال البلخي^(٤): فإن قيل لنا: ما معنى رفع أيدينا إلى السماء؟ وقوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُمْ﴾ [فاطر: ١٠] قلنا: تأويل ذلك أن أرزاق العباد لما كانت تأتي من السماء جاز أن نرفع أيدينا إلى السماء عند الدعاء وراز أن يقال: أعمالنا ترفع إلى الله لما كانت حفظة الأعمال إنما مساكنهم في السماء، قيل له: إن كانت العلة في رفع أيدينا إلى السماء أن الأرزاق فيها وأن الحفظة مساكنهم في السماء جاز أن نخفض أيدينا في الدعاء نحو الأرض من أجل أن الله يحدث فيها النبات والأقوات والمعاش وأنها قرارهم ومنها خلقوا أو لأن الملائكة معهم في الأرض، فلم تكن العلة في السماء بما وصفه، وإنما أمرنا الله تعالى برفع أيدينا قاصدين إليه لرفعها نحو العرش الذي هو مستو عليه) ١. هـ^(٥).

(١) مَرَّ تخريجه. (٢) بيان تلبیس الجهمية (٣٣٦/٢ - ٣٣٧).

(٣) هو أحد تلامذة الأشعري واسمه علي بن محمد بن مهدي الطبري، وفاته سنة ٣٨٠هـ.

(٤) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي، وهو من المعتزلة، توفي سنة ٣١٩هـ.

(٥) بيان تلبیس الجهمية (٣٣٦/٢ - ٣٣٧)، وكلام الطبري من كتابه «تأويل الأحاديث المشككة» وهو مخطوط قد نقل أكثر هذه العبارات التي نقلها شيخ الإسلام الدكتور الفاضل عبد الرحمن المحمود في رسالته القيمة «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٥١٨/٢ - ٥١٩) من المخطوطة الأصلية لأبي الحسن.

وقال رحمه الله: (وما في الكتاب والسنة من قوله: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ ونحو ذلك قد يفهم منه بعضهم أن (السماء) هي نفس المخلوق العالي العرش فما دونه فيقولون: قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ بمعنى على السماء كما قال: ﴿وَأَصْلَيْتُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي على جدوع النخل وكما قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧] أي على الأرض ولا حاجة إلى هذا بل السماء اسم جنس للعالي لا يخص شيئاً فقوله في السماء أي في العلو دون السفل وهو العلي الأعلى فله أعلى العلو وهو ما فوق العرش وليس هناك غيره العلي الأعلى ﷻ) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ أَنَّ يَخِيفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ من توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله في داخل السماوات فهو جاهل ضال بالاتفاق، وإن كنا إذا قلنا: إن الشمس والقمر في السماء يقتضي ذلك فإن حرف (في) متعلق بما قبله وبما بعده، فهو بحسب المضاف إليه) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ إن كان قد قال أحد: إنه في جوف السماء فهو شر قولاً من هؤلاء ولكن هذا ما علمت به قائلاً معيناً منسوباً إلى علم حتى أحكيه^(٣) قولاً.

ومن قال: «إنه في السماء» فمراده أنه في العلو ليس مراده أنه في جوف الأفلاك إلا [أن بعض] الجهال يتوهم ذلك، وقد ظن طائفة أن هذا ظاهر اللفظ.

(الظاهر)، ولا ريب، أنه محمول على خلاف هذا بالاتفاق، لكن^(٤) هذا هو الذي يظهر لعامة المسلمين الذين يطلقون هذا القول ويسمعونه، أو هو مدلول اللفظ في اللغة، هو مما لا يسلم لهم كما قد ييسط في مواضع) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (قال الشيخ في قوله: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ أَنَّ يَخِيفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ من توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله في داخل السماوات فهو جاهل ضال بالاتفاق وإن كنا إذا قلنا إن الشمس والقمر في السماء يقتضي ذلك، فإن حرف (في) متعلق بما قبله وبما بعده فهو بحسب المضاف إليه ولهذا يفرق بين كون الشيء في المكان وكون الجسم في الحيز وكون العرض في الجسم وكون الوجه في المرأة وكون

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٠١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٥٢).

(٣) في الأصل: أحكيه، وهو تحريف.

(٤) لعله سقط لفظ «كون».

(٥) مجموع الفتاوى (١٦/١٠٨ - ١٠٩).

الكلام في الورق فإن لكل نوع من هذه الأنواع خاصة يتميز بها عن غيره وإن كان حرف (في) مستعملاً في ذلك فلو قال قائل: العرش في السماء أو في الأرض ل قيل في السماء ولو قيل الجنة في السماء أم في الأرض؟ ل قيل: الجنة في السماء، ولا يلزم من ذلك أن يكون العرش داخل السماوات، بل ولا الجنة، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة، وأوسط، الجنة وسقفها عرش الرحمن»^(١) فهذه الجنة سقفها الذي هو العرش فوق الأفلاك مع أن الجنة في السماء يراد به العلو، سواء كان فوق الأفلاك أو تحتها، قال تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

ولما كان قد استقر في نفوس المخاطبين أن الله هو العلي الأعلى وأنه فوق كل شيء: كان المفهوم من قوله إنه في السماء أنه في العلو، وأنه فوق كل شيء، وكذلك الجارية لما قال لها: أين الله؟ قالت في السماء، إنما أرادت العلو، مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها، وإذا قيل: العلو فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء ولا يقتضي هذا أن يكون هناك ظرف وجودي يحيط به إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله كما لو قيل العرش في السماء: فإنه لا يقتضي أن يكون العرش في شيء آخر موجود مخلوق وإن قدر أن «السماء» المراد بها الأفلاك كان المراد أنه عليها كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] وكما قال: ﴿قَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧] وكما قال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] ويقال: فلان في الجبل، وفي السطح وإن كان على أعلى شيء فيه.

ثم من توهم أن كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب إن نقله عن غيره وضال إن اعتقده في ربه، وما سمعنا أحد يفهمه من اللفظ ولا رأينا نقله عن واحد، ولو سئل سائر المسلمين هل يفهمون من قوله سبحانه ورسوله إن الله في السماء أن السماء تحويه لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا، وإذا كان الأمر هكذا فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئاً محالاً لا يفهمه الناس منه ثم يريد أن يتأوله، بل عند المسلمين: «إن الله في السماء» و«هو على العرش» واحد؛ إذ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنى إن الله في العلو لا في السفلى، وقد علم المسلمون أن كرسية ﷺ وسع السماوات والأرض، وأن الكرسي في العرش

كمخلقة ملقاة بأرض فلاة وأن العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبة له إلى قدرة الله وعظمته، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره ويحويه؟!

وما في الكتاب والسنة من قوله: ﴿أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ ونحو ذلك قد يفهم منه بعضهم أن السماء هي نفس المخلوق العالي العرش فما دونه فيقولون قوله في السماء بمعنى على السماء كما قال: ﴿وَلَا صَلَتُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي على جذوع النخل وكما قال: ﴿فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧] أي على الأرض، ولا حاجة إلى هذا، بل السماء اسم جنس للعالي لا يخص شيئاً فقلوه: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي في العلو دون السفلى وهو العلي الأعلى فله العلو وهو ما فوق العرش، وليس هناك غيره العلي الأعلى ﴿عَلَى﴾ هـ^(١).

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَوْنَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ (٧).

(والرسل صلوات الله عليهم أخبروا بأن الله فوق العالم بعبارات متنوعة تارة يقولون: هو العلي وهو الأعلى وتارة يقولون: هو في السماء كقلوه: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وليس مرادهم بذلك أن الله في جوف السماوات، أو أن الله يحصره شيء من المخلوقات، بل كلام الرسل كله يصدق بعضه بعضاً، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٦) ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨٧) وَلِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٨) [الصافات]، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢١) [الحديد].

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء»^(٢) فأخبر أنه لا يكون شيء فوقه.

ولهذا قال غير واحد من أئمة السلف: إنه ينزل إلى السماء الدنيا ولا يخلو العرش منه فلا يصير تحت المخلوقات وفي جوفها قط، بل العلو عليها صفة لازمة له، حيث وجد مخلوق، فلا يكون الرب إلا عالياً عليه.

وقول الرسل في السماء أي في العلو، ليس مرادهم أنه في جوف الأفلاك بل السماء العلو، وهو إذا كان فوق العرش فهو العلي الأعلى وليس هناك مخلوق حتى يكون الرب محصوراً في شيء من المخلوقات ولا هو في جهة موجودة بل ليس موجوداً

إلا الخالق والمخلوق والخالق بائن عن مخلوقاته، عالٍ عليها، فليس هو في مخلوق أصلاً، سواء سمي ذلك المخلوق جهة أو لم يسم جهة) ١. هـ^(١).

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرُكُ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (١٠) ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (١١).

(ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق أو دفع ضرر: فهو الذي يأتي بالرزق لا يأتي به غيره، وهو الذي يدفع الضرر لا يدفعه غيره كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرُكُ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (١٠) ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (١١) ١. هـ^(٢)).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرُكُ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (١٠) ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (١١) والنصر يتضمن دفع الضرر والرزق يتضمن حصول المنفعة قال الله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (١١) [قريش] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُوكَ إِلَيْهِ تَمُوتُ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وقال الخليل ﷺ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦] وقال النبي ﷺ: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»^(٣): بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم؟) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وهو الذي يرزقهم ويعافيتهم وينصرهم ويهديهم؛ لا أحد غيره يفعل ذلك قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرُكُ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (١٠) ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (١١) ١. هـ^(٥)).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧٥) (يسمى الموعد وعداً في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧٥) قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ وإنما رأوا ما وعده من العذاب) ١. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (وهؤلاء ومن وافقهم على بعض أقوالهم التي تنفي حقيقة اللقاء

- | | |
|-----------------------------------|--------------------------------|
| (١) الجواب الصحيح (٣١٦/٤ - ٣١٧). | (٢) مجموع الفتاوى (٣٧/١). |
| (٣) مرّ تخريجه. | (٤) مجموع الفتاوى (٣١/١ - ٣٢). |
| (٥) مجموع الفتاوى (٣٧١/٣٥ - ٣٧٢). | (٦) مجموع الفتاوى (٢٥٣/١٩). |

يتأولون اللقاء على أن المراد به لقاء جزاء ربهم ويقولون إن الجزاء قد يرى كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ فإن ضمير المفعول في رأوه عائد إلى الوعد، والمراد به الموعود أي فلما رأوا ما وعدوا سيئت وجوه الذين كفروا.

ومن قال إن الضمير عائد هنا إلى الله فقوله ضعيف (١) هـ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَدْعُونَ﴾ (٢٧)

(فقد تمسك بعضهم بقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ واعتقدوا أن الضمير عائد إلى الله وهذا غلط فإن الله ﷻ قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ فهذا يبين أن الذي رأوه هو الوعد أي الموعود به من العذاب، ألا تراه يقول: ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَدْعُونَ﴾؟ وتمسكوا بأشياء باردة فهموها من القرآن ليس فيها دلالة بحال) (٢) هـ.

سورة القلم

وقال في عموم سورة (ن):

(إن الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم بما بلاهم به في سورة نون وهم قوم كان للمساكين حق في أموالهم إذا جذوا نهاراً بأن يلتقط المساكين ما يتساقط من الثمر فأرادوا أن يجذوا ليلاً ليسقط ذلك الحق ولئلا يأتيهم مسكين فأرسل الله على جنتهم طائفاً وهم نائمون فأصبحت كالصريم عقوبة على احتيالهم لمنع الحق الذي كان للمساكين في أموالهم فكان في ذلك عبرة لكل من احتال لمنع حق الله أو لعباده من زكاة أو شفعة وقصد هؤلاء معروف كما ذكرناه، على أن في التنزيل ما يكفي في الدلالة فإن هؤلاء لو لم يكونوا أرادوا منع واجب لم يعاقبوا بمنع التطوع؛ فإن الذم والعقوبة إنما يكون على فعل محرم أو ترك واجب، وهذه خاصة الواجب والحرام التي تفصل بينهما وبين المستحب والمكروه، ثم إن كان عوقبوا على الاحتيال على ترك المستحب ففيه تنبيه على العقوبة على ترك الواجب، ولا يجوز أن تكون العقوبة على ترك الاستثناء وحده فإن هذا إنما يعاقب صاحبه بمنع الفعل بأن يتلى بما يشغله عنه أما عقوبته بإهلاك المال فلا، لأن الله قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧] بعد أن قال: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ فِئَةٍ مِّنْهُمْ﴾ هَذَا مَشْلَمٌ بِتَمِيمٍ ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَشِيرٍ﴾ عُنِيَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْعٍ ﴿[القلم] فعلم أنها عبرة لمن منع الخير ولأن الله قص عنهم أنهم أقسموا ليصرمتها مصبحين ولا يستثنون فإنهم انطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين فعلم أن جميع هذه الأمور لها تأثير في العقوبة فعلم أنها محرمة لأن ذكر ما لا تأثير له في الحكم مع المؤثر غير جائز كما لو ذكر مع هذا أنهم أكلوا أو شربوا فإن كان هؤلاء عوقبوا على قصد منع الخير المستحب فكيف بمن قصد منع الواجب وإن كانوا إنما قصدوا منع واجب وهو الصواب كما قررناه فهم لم يمتنعوه بعد وجوبه لأنه لو كان قد وجب لم يكن فرق بين صرمة بالليل وصرمة بالنهار وإنما قصدوا بالصرم ليلاً الفرار مما كان للمساكين فيه من اللقاط فعلم أن الأمر كما ذكره المفسرون من أن

حق المساكين كان فيما يساقط ولم يكن شيئاً موقناً ووجوب هذا مشروط بسقوطه وحضور من يأخذه من المساكين كان الساقط عفو المال وفضله وحضور أهل الحاجة بمنزلة السؤال والفاقة ومثل هذه الحال يجب فيها ما لا يجب في غيرها كما يجب قرى الضيف وإطعام المضطر ونفقة الأقارب وحمل العقل ونحو ذلك فيكون هذا فراراً من حق قد انعقد سبب وجوبه قبل وقت وجوبه فهو مثل الفرار من الزكاة قبل حلول الحول بعد ملك النصاب والفرار من الشفعة بعد إرادة البيع قبل تمامه والفرار من قرى الضيف قبل حضوره ونحو ذلك ولولا أن قصدنا هنا الإشارة فقط لبسطنا القول في ذلك) ا.هـ^(١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

(سورة ﴿ت﴾ هي سورة «الْخُلُق» الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ قال الله تعالى فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال ابن عباس: على دين عظيم، وقاله ابن عيينة، وأخذه أحمد عن ابن عيينة، فإن الدين والعادة والخلق ألفاظ متقاربة المعنى في الذات وإن تنوعت في الصفات كما قيل في لفظ الدين، فهذا دينه أبداً وديني،

وجمع بعض الزنادقة بينهما في قوله:

ما الأمر إلا نسق واحد ما فيه من مدح ولا ذم
وإنما العادة قد خصصت والطبع والشارع بالحكم

﴿ت﴾ أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون، فإن القلم به يكون الكتاب الساطر للكلام: المتضمن للأمر والنهي والإرادة، والعلم المحيط بكل شيء، فالإقسام وقع بقلم التقدير ومسطوره، فتضمن أمرين عظيمين تناسب المقسم عليه:

«أحدهما»: الإحاطة بالحوادث قبل كونها، وأن من علم بالشيء قبل كونه أبلغ ممن علمه بعد كونه فأخباره عنه أحكم وأصدق.

«الثاني» أن حصوله في الكتابة والتقدير يتضمن حصوله في الكلام والقول والعلم من غير عكس، فإقسامه بآخر المراتب العلمية يتضمن أولها من غير عكس، وذلك غاية المعرفة واستقرار العلم إذا صار مكتوباً فليس كل معلوم مقولاً، ولا كل مقول مكتوباً،

وهذا يبين لك حكمة الإخبار عن القدر السابق بالكتاب دون الكلام فقط أو دون العلم فقط .

والمقسم عليه ثلاث جمل: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (١) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٣﴾ سلب عنه النقص الذي يقدر فيه، وأثبت له الكمال المطلوب في الدنيا والآخرة، وذلك أن الذي أتى به إما أن يكون حقاً أو باطلاً، وإذا كان باطلاً فيما أن يكون مع العقل أو عدمه فهذه الأقسام الممكنة في نظائر هذا:

«الأول» أن يكون باطلاً ولا عقل له فهذا مجنون لا ذم عليه ولا يتبع.

«الثاني» أن يكون باطلاً وله عقل فهذا يستحق الذم والعقاب.

«الثالث» أن يكون حقاً مع العقل فنفي عنه الجنون أولاً، ثم أثبت له الأمر الدائم الذي هو ضد العقاب ثم بين أنه على خلق عظيم، وذلك يبين عظم الحق الذي هو عليه بعد أن نفى عنه البطلان.

وأيضاً: فالناس نوعان: إما معذب، وإما سليم منه، والسليم ثلاثة أقسام: إما غير مكلف، وإما مكلف قد عمل صالحاً: مقتصداً، وإما سابق بالخيرات. فجعل القسم مرتباً على الأحوال الثلاثة ليبين أنه أفضل قسم السعداء، وهذا غاية كمال السابقين بالخيرات، وهذا تركيب بديع في غاية الإحكام.

ثم قال: ﴿فَلَا تَطْلِعْ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨) [القلم] فتضمن أصليين:

«أحدهما» أنه نهاه عن طاعة هذين الضربين فكان فيه فوائد:

«منها» أن النهي عن طاعة المرء نهى عن التشبه به بالأولى، فلا يطاع المكذب والحلاف، ولا يعمل بمثل عملهما كقوله: ﴿وَلَا تَطْلِعْ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْمُتَوَفِّيِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وأمثاله، فإن النهي عن قبول قول من يأمر بالخلق الناقص أبلغ في الزجر من النهي عن التخلق به.

و«منها» أن ذلك أبلغ في الإكرام، والاحترام، فإن قوله: لا تكذب، ولا تحلف، ولا تشتم، ولا تهمز، ليس هو مثل قوله لا تطع من يكون متلبساً بهذه الأخلاق، لما فيه من تشريفه وبراءته.

و«منها» أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة، ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم فليأخذ حذره، فإنه محتاج إلى مخالفتهم لأجل دعوتهم إلى الله تعالى.

و«منها» أنهم يريدون مصالح فيما يأمر به، فلا تطع من كان هكذا ولو أبداه، فإن الباعث لهم على ما يأمر به هو ما في نفوسهم من الجهل والظلم، وإذا كان الأصل المقتضي للأمر فاسداً لم يقبل من الأمر، فإن الأمر مداره على العلم بالمصلحة وإرادتها، فإذا كان جاهلاً لم يعلم المصلحة، وإذا كان الخلق فاسداً لم يرددها وهذا معنى بليغ.

«الأصل الثاني»: أنه ذكر قسمين المكذبين وذوي الأخلاق الفاسدة وذلك لوجوه: «أحدها»: أن المأمور به هو الإيمان والعمل الصالح فضده التكذيب والعمل الفاسد.

«الثاني»: أن المؤمنين مأمورون بالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فكما أنا مأمورون بقبول هذه الوصية والإيضاء بها، فقد نهينا عن قبول ضدها وهو التكذيب بالحق والترك للصبر فإن هذه الأخلاق إنما تحصل لعدم الصبر، والصبر ضابط الأخلاق المأمور بها، ولهذا ختم السورة به وقال: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت: ٣٥] فكان في سورة العصر ما بين هنا فنهاه عن طاعة الذي في خسر ضد الذي للمؤمنين الأمرين بالحق والصبر، والذي في خسر هو الكذاب المهين، فهو تارك للحق والصبر.

«الأصل الثالث»: أن صلاح الإنسان في العلم النافع والعمل الصالح، وهو الكلم الطيب الذي يصعد إلى الله، والعمل الصالح جماع العدل، وجماع ما نهى الله عنه الناس: هو الظلم، كما قرر في غير هذا قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] والتكذيب بالحق صادر، إما عن جهل وإما عن ظلم وهو الجاحد المعاند، وصاحب الأخلاق الفاسدة إنما يوقعه فيها أحد أمرين: إما الجهل بما فيها وما في ضدها فهذا جاهل وإما الميل والعدوان وهو الظلم.

فلا يفعل السيئات إلا جاهل بها أو محتاج إليها متلذذ بها وهو الظالم، فنهاه عن طاعة الجاهلين والظالمين.

وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ [القلم: ٩] أخبر أنهم يحبون إدهانه ليدهنوا، فهم لا يأمر به نصحاً، بل يريدون منه الإدهان ويتوسلون بإدهانه إلى إدهانهم ويستعملونه لأغراضهم في صورة الناصح وذلك لما نشأ من تكذبيهم بالحق، فإنه لم يبق في قلوبهم غاية ينتهون إليها من الحق، لا في الحق المقصود ولا الحق الموجود، لا خبراً عنه، ولا أمراً به، ولا اعتقاداً، ولا اقتصاداً.

ثم قال: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ خَلَافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٥] ذكر أربع آيات كل آيتين جمعت نوعاً من الأخلاق الفاسدة المذمومة وجمع في كل آية بين النوع المتشابه خبراً وطلباً فالحلاف مقرون بالمهين، لأن الحلاف هو كثير الحلف وإنما يكون على الخبر أو الطلب، فهو إما تصديق أو تكذيب، أو حض أو منع، وإنما يكثر الرجل ذلك في خبره إذا احتاج أن يصدق ويوثق بخبره، ومن كان كثير الحلف كان كثير الكذب في العهد محتاجاً إلى الناس فهو من أذل الناس: ﴿خَلَافٍ مَّهِينٍ﴾ حلاف في أقواله مهين في أفعاله.

وأما الهماز المشاء بنميم: فالهمز أقوى من اللمز وأشد ساء كان همز الصوت أو همز حركة ومنه «الهمزة» وهي نبرة من الحلق مثل التهوع ومنه الهمز بالعقب، كما في حديث زمزم: «إنه همز جبريل بعقبه»^(١).

والفعال: مبالغة في الفاعل، فالهماز المبالغ في العيب نوعاً وقدرأ، القدرة من صورة اللفظ، وهو الفعال، والنوع من مادة اللفظ وهو الهمزة، والمشاء بنميم هو من العيب، ولكنه عيب في القفا فهو عيب الضعيف عاجز، فذكر العياب بالقوة، والعياب بالضعف، والعياب في مشهد، والعياب في مغيب.

وأما ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ﴾ [القلم: ١٦] فإن الظلم نوعان: ترك الواجب وهو منع الخير، وتعد على الغير وهو المعتدي، وأما الأثيم مع المعتدي فكقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وأما العتل الزنيم: فهو الجبار الفظ الغليظ الذي قد صار من شدة تجبره وغلظه معروفاً بالشر، مشهوراً به، له زنة كزنة الشاة ويشبه والله أعلم أن يكون الحلاف المهين الهماز المشاء بنميم من جنس واحد وهو في الأقوال وما يتبعها، والمناع المعتدي الأثيم العتل الزنيم من جنس وهو في الأفعال وما يتبعها من الأقوال، فالأول الغالب على جانب الأعراض، والثاني الغالب على جانب الحقوق في الأحوال والمنافع ونحو ذلك، ووصفه بالظلم واليخل والكبر كما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ [النساء: ٣٦] الَّذِينَ يَبْخُلُونَ [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿سَنَسِفُ عَلَى أَنْزَلِمْ﴾ [القلم: ١٧] فيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضاً، فإن الله جعل للصالحين سيما وجعل للفاجرين سيما قال تعالى: ﴿سَيَبَاهُمْ﴾

(١) البخاري (٣٣٦٥) وهو في قصة هاجر وإسماعيل في مكة.

فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ آثَرِ السُّجُودِ [النسج: ٢٩] وقال يظهر: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَأَرَيْنَهُمْ فَلَمَرَقَتُهُمْ بِسَبِيحَتِهِمْ﴾ [محمد: ٣٠] فجعل الإرادة والتعريف بالسيما الذي يدرك بالبصر معلقاً على المشيئة، وأقسم على التعريف في لحن القول وهو الصوت الذي يدرك بالسمع، فدل على أن المناققين لا بد أن يعرفوا في أصواتهم وكلامهم الذي يظهر فيه لحن قولهم، وهذا ظاهر بين لمن تأمله في الناس، من أهل الفراسة في الأقوال وغيرها مما يظهر فيها من النواقص والفحش وغير ذلك.

وأما ظهور ما في قلوبهم على وجوههم فقد يكون، وقد لا يكون، ودل على أن ظهور ما في باطن الإنسان على فلتات لسانه أقوى من ظهوره على صفحات وجهه، لأن اللسان ترجمان القلب، فإظهاره لما أكنه أو كده، ولأن دلالة اللسان قالية، ودلالة الوجه حالية، والقول أجمع وأوسع للمعاني التي في القلب من الحال، ولهذا فضل من فضل كابر قتيبة وغيره السمع على البصر.

والتحقيق: أن السمع أوسع، والبصر أخص وأرفع، وإن كان إدراك السمع أكثر فإدراك البصر أكمل، ولهذا أقسم أنه لا بد أن يدركهم بسمعه، وأما إدراكه إياهم بالبصر بسيماهم فقد يكون، وقد لا يكون، فأخبر سبحانه أنه لا بد أن يوسم صاحب هذه الأخلاق الخبيثة على خرطومهم، وهو أنفه الذي هو عضوه البارز، الذي يسبق البصر إليه عند مشاهدته، لتكون السيما ظاهرة من أول ما يرى وهذا ظاهر في الفجرة الظلمة، الذين ودعهم الناس اتقاء شرهم وفحشهم فإن لهم سيما من شر يعرفون بها، وكذلك الفسقة وأهل الريب وقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ [الفلم: ١٧] فيه بيان حال البخلاء، وما يعاقبون به في الدنيا قبل الآخرة من تلف الأموال إما إغراقاً، وإما إحراقاً، وإما نهباً، وإما مصادرة، وإما في شهوات الغي وإما في غير ذلك مما يعاقب به البخلاء، الذين يمتنعون الحق، وليس إقدام في صنائع المعروف، وهو قوله: ﴿مَنَاعَ الْخَيْرِ﴾ [الفلم: ١٢] وهو أحد نوعي الظلم كما أخبروا به عن نفوسهم في قولهم: ﴿يَزِيلْنَا إِنَّا كُنَّا طُغَيْنَ﴾ [الفلم: ٣١] وكما قال: «مطل الغني ظلم»^(١).

وتضمن عقوبة الظالم المانع للحق، أو متعدي الحق، كما يعاقب الله مانع الزكاة وهو مناع الخير، وأكل الربا والميسر؛ الذي هو أكل المال بالباطل، وكل متهما أخبر الله في كتابه أنه يعاقبه بنقيض قصده، فهنا أخبر بعقوبة تارك الحقوق، وفي البقرة بعقوبة

المرابي، وهذه العقوبة تتناول من يترك هذا الواجب، وفعل هذا المحرم من المحتالين، كما أخبر في هذه السورة، وكما هو المشاهد في أهل منع الحقوق المالية، والحيل الربوية، من العقوبات والمثالات.

فإنه سبحانه إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإنفاق فيه فبخل عاقبه بباب من الشر يذهب فيه أضعاف ما بخل به، وعقوبته في الآخرة مدخرة، ثم أتبع ذلك بعقوبة المتكبر الذي هو من نوع العتل الزنيم، الذي يدعى إلى السجود والطاعة فيأبى، ففيها عقوبة تارك الصلاة، وتارك الزكاة، فتارك الصلاة هو المعتدي الأثيم العتل الزنيم وتارك الزكاة الظالم البخيل.

وختمها بالأمر بالصبر الذي هو جماع الخلق العظيم في قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٤٨] وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية والصبر على الأول أشد، وصاحب الحوت ذهب مغاضباً لربه لأجل الأمر السماوي ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١] فأخرها منعطف على أول ما في قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْتُونٍ﴾ [القلم: ٥٢] وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١] والإزلاق بالبصر هو الغاية في البغض، والغضب، والأذى، فالصبر على ذلك نوع من الحلم، وهو احتمال أذى الخلق وفي ذلك ما يدفع كيدهم وشرهم.

وما ذكره في قصة أهل الجنة من أمر السخاء والجود، وما ذكره هنا من الحلم والصبر: هو جماع الخلق الحسن كما جمع بينهما في قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] كما قيل:

بحلم وبذل ساد في قومه الفتى
وكونك إياه عليك يسير

فالإحسان إلى الناس بالمال والمنفعة واحتمال أذاهم، كالسخاء المحمود كما جمع بينهما في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ففي أخذه العفو من أخلاقهم احتمال أذاهم وهو نوعان: ترك مالك من الحق عليهم فأخذ العفو أن لا تطلب ما تركوه من حقتك وأن لا تنهاهم فيما تعدوا فيه الحد فيك^(١).

﴿وَلَنْكَ لَعَلَّ خُلِّي عَظِيمٌ﴾

(وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَنْكَ لَعَلَّ خُلِّي عَظِيمٌ﴾ قال ابن عباس^(٢)، ومن وافقه

كابن عيينة وأحمد بن حنبل: «على دين عظيم» والدين فعل ما أمر به.

وقالت عائشة: «كان خلقه القرآن» رواه مسلم^(١) وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه ولا ينتقم لنفسه لكن يعاقب الله وينتقم الله أخبرت أنه كان يعفو عن حظوظه^(٢) ١هـ^(٣).

﴿يَا أَيَّتُهَا الْمَفْتُونُ﴾.

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ وَبِحَمْدِهِ﴾ ٥) ﴿يَا أَيَّتُهَا الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]، حار فيها كثير من الناس، والصواب فيها التفسير المأثور عن السلف: روى ابن أبي حاتم وغيره بالأسانيد الصحيحة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد^(٤): ﴿يَا أَيَّتُهَا الْمَفْتُونُ﴾^(٥)، قال: «الشیطان»، وفي رواية قال: «هو إبليس»، وقال الحسن^(٥): «أيكم أولى بالشیطان. قال فهم أولى بالشیطان من نبي الله ﷺ».

فبين الحسن المعنى المراد وإن لم يتكلم على اللفظ كعادة السلف في اختصار الكلام مع البلاغة وفهم المعنى. وقال الضحاك^(٦): ﴿يَا أَيَّتُهَا الْمَفْتُونُ﴾^(٦) قال: «المجنون، فإن من كان به الشيطان ففيه الجنون».

وذكر أبو الفرج^(٧) عنهم أربعة أقوال:

«أحدها» قال: الضال قاله الحسن.

و«الثاني» الشيطان، قاله مجاهد.

و«الثالث» المجنون، قاله الضحاك، قال: والمعنى قد [فتن] بالجنون.

وكذلك رواه العوفي^(٨) عن ابن عباس.

و«الرابع» المعذب، حكاه الماوردي^(٩).

فهذا الرابع ليس مأثوراً عن السلف، وإنما المأثور ما قدمناه [عن السلف]: عن مجاهد، وعن الحسن، وعن الضحاك، وما ذكره عن الحسن: من أنه الضال، فهو لفظ

(١) مسلم (١٧٠) جزء من حديث طويل.

(٢) وهذا أيضاً ثابت بعدة روايات في مسلم وغيره.

(٣) جامع الرسائل (١٣١/٢ - ١٣٢، ٢١٨) والاستقامة (٤٤٣/١) ومجموع الفتاوى (١٠/١٢٧، ٥٠٣).

(٤) ابن جرير (٢٩/٢٠).

(٥) ابن جرير (٢٩/٢٠).

(٦) ابن جرير (٢٩/٢٠).

(٧) ابن المنذر كما في الدر المنثور.

(٨) زاد المسير (٨/٣٢٩).

(٩) النكت والعيون (٦/٢٨٥).

آخر عنه، وهو يوافق ما قدمناه، فإن الضال به المفتون الذي هو شيطان، وإنما ذكر الحسن لفظ الضال؛ لأنهم لم يريدوا بالمجنون الذي يخرق ثيابه، ويقذف بالحجارة، ويتكلم بالهذيان.

وهم إنما نسبوا الأنبياء إلى الجنون لمخالفتهم ما عليه أهل العقل في نظرهم، كما يقال: «ما لفلان عقل معيشي». فإن الأنبياء أتوا بخلاف ما يعرفونه، وهو عندهم يضر صاحبه في عقله ويفارق به دينه الذي هم [عليه]، وكما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿وَأَن يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ لَكُمُ الْبَصَائِرُ لِمَا نَسَمُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۚ﴾ [القلم]، وقد ذكر أنهم رموه بالجنون في غير موضع من كتابه، وكذلك الأنبياء قبله فرد الله ذلك على المشركين، وأخبر أنه ليس بمجنون، ثم قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَبِحَمْدِ اللَّهِ ۚ﴾ [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا] أي أيكم هو المجنون الذي به المفتون، وهو الشيطان؟

وهذا الأمر قد رمي به أتباع الرسل [من] مثل هؤلاء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۚ﴾ [الأنعام] إلى قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۚ﴾ [المطففين]، ومثل هؤلاء في هذه الأمة كثير يسخرون من المؤمنين، ويضحكون منهم، ويرمونهم بالجنون والعظائم التي هم أولى بها منهم.

قال الحسن: «لقد رأيت رجلاً لو رأيتموهم لقلت مجانين، ولو رأوكم لقالوا هؤلاء شياطين، ولو رأوا خياركم لقالوا هؤلاء قوم لا خلاق لهم، ولو رأوا شراركم لقالوا هؤلاء [قوم] لا يؤمنون بيوم الحساب»^(١).

وهذا كثير في كلام السلف، يصفون أهل زمانهم وما هم عليه من مخالفة من تقدمهم من خيار هذه الأمة، فما الظن بأهل زماننا؟

(١) ومن أخرجه نحوه:

- علقمة بن مرثد في كتاب زهد الثمانية من التابعين، رواية ابن أبي حاتم (٦٤ - ٦٦).

- أبو نعيم في حلية الأولياء (١٣٤/٢).

وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء مختصراً (٥٨٥/٤) عن علقمة بن مرثد في ذكر الثمانية من التابعين.

وأورده كذلك في سير أعلام النبلاء (٢٩٧/٦) عن صدقة بن خالد، حدثنا زيد بن واقد، حدثني رجل من أهل البصرة، يقال له الحسن، قال: «لقد أدركت أقواماً، لو رأوا خياركم، لقالوا: ما لهم من خلاق، ولو رأوا شراركم، لقالوا: أما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب؟»

ويدل أيضاً على هذا المعنى في الآية أن في قراءة أبي بن كعب، والجوني، وابن أبي عبله: «في أيكم المفتون»^(١)، والشیطان مفتون بلا ريب، والذين لم يفهموا هذا قالوا: الباء زائدة، كما قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة، وأبو بكر، وكذلك نحاة البصرة والكوفة، ثم ذكروا قولين: «أحدهما» أن المفتون مصدر، كما زعموا أن المعقور^(٢)، والمعقود، والمجلود يكون مصدراً.

ومنهم من قال: ﴿يَأْتِيَكُمْ﴾ أي بأي الفريقين، [أي المجنون، أبالفريق الذي أنت فيهم أم بفريق الكفار؟].

وهذه أقوال ضعيفة، وكون المفتون] بمعنى الفتنة لا أصل له في اللغة البتة، وجعل المصدر على زنة «مفعول» لو صح لم يكن قياساً. بل مقصوراً على السماع، كيف وفيما ذكره كلام ليس هذا موضعه؟ وكذلك قول من يقول: «بأي الفريقين؟». والمقصود أن جميع الكفار مفتونون بالشیطان، وفيهم الشيطان [المفتون]، ليس المقصود أن يعاب الفريق بواحد منهم.

(وقد كان بعض الكفار يقول: إن الذي يأتي محمداً شیطان لا مَلَكٌ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِمْ﴾ [التكوير]، وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء]، ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ﴾ [الشعراء]، (وقال فيمن كذب رسوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [الناسف]، ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِرَةٍ﴾ [العلق]. فهذا الكاذب الفاجر هو الذي فيه الشيطان الذي إنما يقترن بكل أفاك أثيم).

وقال قوم صالح: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ [القمر: ٢٥] قال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكُذَّابِ الْآثِرِ﴾ [القمر] وكذلك [قال] قوم نوح: ﴿إِنْ تَسْحَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْحَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْحَرُونَ﴾ [٢٨] فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ [٢٩] [هود] وهذا كثير) ١. هـ^(٣).

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فِدْهُنُونَ﴾ [١].

(وكذلك قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فِدْهُنُونَ﴾ [١] تقديره ودوا أن تدهن، وقال بعضهم:

(١) هذه القراءة شاذة، ومن ذكرها، الكرمانى ونسبها إلى ابن أبي عبله، وأما ابن الجوزي فنسبها إلى أبي بن كعب، وأبي عمران، وابن أبي عبله.

(٢) السيوطي ذكر هذا عن ابن أبي حاتم من زيد. (٣) تفسير آيات أشكلت (١/١٤٧ - ١٥٩).

بل هي لو شرطية وجوابها محذوف، والمعنى على التقديرين: معلوم، وهو محبة ذلك الفعل وإرادته، ومحبة الخير وإرادته محمود، والحزن والجزع وترك الصبر مذموم، والله أعلم) ١. هـ^(١).

﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٌ﴾ (١٢).

(وقال في حق الكافر: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٌ﴾ (١٢) أي له زئمة من الشر، أي علامة يعرف بها، وقد روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما أسر أحد سريرة إلا أبدأها الله على صفحات وجهه وفتات لسانه» ١. هـ^(٢).

﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْبٍ قَدِيرٍ﴾ (١٥).

(وقوله: ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْبٍ قَدِيرٍ﴾ (١٥) إلى قوله: ﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُدْخِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ الآية [٣٢] قال أبو الفرج^(٣): وفي قوله قادرين ثلاثة أقوال:

«أحدها»: قادرين على جنتهم عند أنفسهم، قاله قتادة^(٤) قلت: وهو قول مجاهد وقتادة^(٥) رواه ابن أبي حاتم عنهما، قال مجاهد: قادرين في أنفسهم، وهذا الذي ذكره البغوي^(٦): قادرين عند أنفسهم على جنتهم وثمارها لا يحول بينهم وبينها أحد، وعن قتادة قال: غدا القوم وهم يحدون^(٧) إلى جنتهم قادرين على ذلك في أنفسهم^(٨).

قال أبو الفرج: والثاني: قادرين على المساكين، قاله الشعبي^(٩): أي على منعمهم، وقيل: على إعطائهم لكن البخل منعهم من الإعطاء والله أعلم. والثالث: غدوا وهم قادرين: أي واجدين، قاله ابن قتيبة^(١٠).

قلت: الآية وصفتهم بأنهم غدوا على حرد قادرين، فالحرد يرجع إلى القصد فغدوا بإرادة جازمة وقدرة ولكن الله أعجزهم، وقول من قال: قادرين عند أنفسهم: أي ظنوا أن الأمر يبقى كما كان، ولو كان كذلك لثمت قدرتهم، لكن سلبوا القدرة بإهلاك جنتهم. قال البغوي: الحرد في اللغة يكون بمعنى القصد والمنع والغضب. قال الحسن

(١) مجموع الفتاوى (٤٢٩/١٨). (٢) الجواب الصحيح (٤٨٦/٦ - ٤٨٧).

(٣) زاد المسير (٣٣٨/٨) إلى هنا القول الثاني.

(٤) إلى هنا القول الأول في زاد المسير (٣٣٨/٨).

(٥) ابن جرير (٣٢/٢٩). (٦) البغوي (٣٥٠/٤).

(٧) في ابن جرير (محدود). (٨) ابن جرير (٣٢/٢٩) وفيه.

(٩) زاد المسير (٣٣٨/٨) إلى هنا القول الثاني. (١٠) زاد المسير (٣٣٨/٨).

وقتادة وأبو العالية: على جد وجهه. وقال القرطبي ومجاهد وعكرمة على أمر مجتمع قد أسسوه بينهم. قال: وهذا على معنى القصد؛ لأن القاصد إلى الشيء جاد مجمع على الأمر. وقال أبو عبيدة والقتبي: غدوا من أنفسهم^(١) [على حرد]^(٢) على منع المساكين، يقول^(٣): حاردت السنة إذا لم يكن لها مطر، وحاردت الناقة علي إذا لم يكن لها لبن وقال الشعبي وسفيان: على حنق وغضب من المساكين وفي [تفسير الوالبي]^(٤) عن ابن عباس: على قدرة^(٥).

قلت: الحرد فيه معنى العزم الشديد؛ فإن هذا اللفظ يقتضي هذا وحرد السنة والناقة لما فيه من معنى الشدة وكذلك الحنق والغضب فيه شدة فكان لهم عزم شديد على أخذها وعلى حرمان المساكين، وغدوا بهذا العزم قادرين ليس هناك ما يعجزهم وما يمنعهم لكن جاءها أمر من السماء فأبطل ذلك كله، وقيل الحرد هو الغيظ والغضب، والله أعلم.

ونظير هذا وهو صريح في المطلوب أن القدرة تكون على الأعيان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى قوله ﴿أَتُنْهَآ أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَكَ بِالْأَمْسِ﴾ الآية [يونس: ٢٤]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَهَا فَتَدْرُونَ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ٢٤] يبين أنه لولا الجائحة لكان ظنهم صادقاً، وكانوا قادرين عليها؛ لكن لما أتاها أمر الله تبين خطأ الظن ولو لم يكونوا قادرين عليها لا في حال سلامتها ولا في حال عطبها لم يكن الله أبطل ظنهم بما أحدثه من الإهلاك وهؤلاء لم يكونوا ذهبوا ليحصدوا بل سلبوا القدرة عليها - وهي القدرة التامة - فانتفت لانتفاء المحل القابل، لا لضعف من الفاعل وفي تلك قال: ﴿عَلَىٰ حَرٍّ قَدِيرٍ﴾ ولم يقل قادرين عند أنفسهم، فإن كان قائله من قال عند أنفسهم فالمعنى واحد، وإن أريد بكونهم قادرين أي ليس في أنفسهم ما ينافي القدرة: كالمرض والضعف، ولكن بطل محل القدرة كالذي يقدر على النقد والرزق ولا شيء عنده) ا.هـ^(٦).

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلُونَ﴾ (٣٥).

(وقال تعالى عن أهل الجنة التي أصبحت كالصريم: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

(٢) ما بين [] غير موجودة في المطبوع.

(٤) ما بين [] غير موجودة في المطبوع.

(٦) مجموع الفتاوى (١٣/٨ - ١٥).

(١) في المطبوع (من بينهم).

(٣) في المطبوع يقال.

(٥) البغوي (٤/٣٥٠).

يَتْلُوْنَ ﴿٣٥﴾ أَي يُلَوِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ۖ ا.هـ^(١).

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَئِنَّ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾.

(وكذلك في سورة ﴿تَّوَالَّفُوا﴾ ذكر قصة أهل البستان الذين منعوا حق أموالهم وما عاقبهم به ثم قال: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَئِنَّ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ ا.هـ^(٢).

﴿فَتَجْعَلُ الْمُتْلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾.

(وأيضاً فقوله تعالى: ﴿فَتَجْعَلُ الْمُتْلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿٣٨﴾ [ص] وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ [الجاثية]، إلى غير ذلك.

فدل على أن التسوية بين هذين المختلفين من الحكم السيئ الذي ينزه عنه، وأن ذلك منكر لا يجوز نسبته إلى الله تعالى، وأن من جَوَّزَ ذلك فقد جَوَّزَ منكراً لا يصلح أن يضاف إلى الله تعالى، فإن قوله: ﴿فَتَجْعَلُ الْمُتْلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ استفهام إنكار، فعلم أن جعل هؤلاء مثل هؤلاء منكر لا يجوز أن يظن بالله أنه يفعله، فلو كان هذا وضده بالنسبة إليه سواء جاز أن يفعل هذا وهذا) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿فَتَجْعَلُ الْمُتْلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ وهذا استفهام إنكار على من ظن ذلك وهو يتضمن تقرير المخاطبين واعترافهم بأن هذا لا يجوز عليه وأن ذلك بين معروف يجب اعترافهم به وإقرارهم به كما يقال لمن ادعى أمراً ممتنعاً مثل نعم كثيرة في موضع صغير فيقال له: أهنا كانت هذه النعم أي هذا ممتنع فاعترف بالحق وإذا ادعى على من هو معروف بالصدق والأمانة أنه نَقَبَ داره وأخذ ماله قيل له: أهذا فعل هذا، ومنه قوله: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَتَتْ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخَذُونِي وَآلِيَّ لِلنَّهْيِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ [سبا] ونظائره كثيرة) ا.هـ^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/١٤١) الاستقامة (٢/٢٣٩).

(٣) منهاج السنة (٥/١٠٦ - ١٠٧). (٤) النبوات (٢٣٣).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿أَفْجَلُ النَّاسِ كَالْخِرْيَيْنِ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾) أي، هذا حكم جائر، لا عادل، فإن فيه تسوية بين المختلفين) ا. هـ (١).

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢).

(وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَرَ إِلَى أَجَلٍ لَهُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (٣٩) [الأعراف] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ لم يقل يوم يكشف الساق وهذا يبين خطأ من قال المراد بهذه كشف الشدة وأن الشدة تسمى ساقاً، وأنه لو أريد ذلك لقليل يوم يكشف [عن الشدة] أو يكشف الشدة) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد ثبت في الصحاح (٣) من غير وجه حديث تجلى الله لعباده في الموقف إذا قيل: «ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون؛ فيتبع المشركون آلهتهم ويبقى المؤمنون فيتجلى لهم الرب في غير الصورة التي يعرفون فينكرونه ثم يتجلى لهم في الصورة التي يعرفونها فيسجد له المؤمنون وتبقى ظهور المنافقين كقرون البقر يريدون السجود فلا يستطيعون» وذكر قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢) والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع، والله أعلم) ا. هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وكذلك من قال: تكليف العاجز واقع محتملاً بقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢) فإنه يناقض هذا الإجماع ومضمون الإجماع نفى وقوع ذلك في الشريعة، وأيضاً فإن مثل هذا الخطاب إنما هو خطاب تعجيز على وجه العقوبة لهم لتركهم السجود وهم سالمون، يعاقبون على ترك العبادة في حال قدرتهم بأن أمروا بها حال عجزهم على سبيل العقوبة لهم، وخطاب العقوبة والجزاء من جنس خطاب التكوين لا يشترط فيه قدرة المخاطب إذ ليس المطلوب فعله، وإذا تبينت الأنواع والأقسام زال الاشتباه والابهام) ا. هـ (٥).

وقال رحمه الله: (إن الله تعالى قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٤٢) خِئْمَةً أَمَرُهُمْ رَفَعَهُمْ إِلَٰهٌ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَمِنْ سُلُوكٍ ﴿٤٣﴾) وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة: «أنه إذا تجلى لهم يوم القيامة سجد له المؤمنون، ومن كان يسجد في الدنيا رياء يصير ظهره مثل الطبق» (٦).

(١) الرد على المنطقيين (٣٨٢ - ٣٨٣).

(٢) البخاري (٥٦/٦)، ومسلم (١١٢/١).

(٣) الاستغاثة (٢٨٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٠٤/٤).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٠٢/٨).

(٦) وهو الحديث السابق.

فقد أمروا بالسجود في عرصات القيامة، دون غيره من أجزاء الصلاة، فعلم أنه أفضل من غيره) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ١٢) خَشَعَةً أَبْصَرَهُمْ رَبُّهُمْ إِلَهًُ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ١٣ ﴿﴾ وقد ثبت في الصحيح من غير وجه عن النبي ﷺ أنه قال: «يتجلى الله لعباده في الموقف إذا قيل: ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون، فيتبع المشركون آلهتهم ويبقى المؤمنون فيتجلى لهم الرب الحق في غير الصورة التي كانوا يعرفون فينكرونه ثم يتجلى لهم في الصورة التي يعرفون، فيسجد له المؤمنون، وتبقى ظهور المنافقين كقرون البقر فيريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون وذلك قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ الآية والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع» ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وتمام هذا أنني لم أجدهم تنازعوا إلا في مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ فروي عن ابن عباس^(٣) وطائفة أن المراد به الشدة إن الله يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات، للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين^(٤).

ولا ريب أن ظاهر القرآن [لا] يدل على أن هذه من الصفات فإنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ نكرة في الإثبات لم يضيفها إلى الله ولم يقل عن ساقه فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل، إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف، ولكن كثير من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولاً له، ثم يريدون صرفه عنه، ويجعلون هذا تأويلاً، وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرة) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (نقل عن ابن عباس^(٦) في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ أنه قال: عن شدة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد^(٧) في حديثه الطويل الذي فيه تجلي الله تعالى لعباده يوم القيامة «وأنه يحتجب ثم يتجلى قال: فيكشف عن ساقه فينظرون إليه».

(٢) مجموع الفتاوى (٣٧٣/٢٤).

(٤) الذي مرّ تخريجه.

(١) مجموع الفتاوى (٧٦/٢٣).

(٣) ابن جرير (٣٨/٢٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٩٤/٦ - ٣٩٥).

والذي في القرآن (ساق) ليست مضافة، فلهذا وقع النزاع، هل هو من الصفات أم

٢٩

قال شيخ الإسلام كَلَّمَهُ عَلَيْهِ: ولا أعلم خلافاً عن الصحابة في شيء مما يعد من الصفات المذكورة في القرآن إلا هذه الآية، لعدم الإضافة فيها، والذي يجعلها من الصفات يقول فيها كقوله في قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَّطْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] ونحو ذلك فإنه مع الصفات تثبت ويجب تنزيه الرب تعالى عن التمثيل لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] هـ (١).

﴿خَشِيعَةً أَقْصَرُوهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يَعْبُدُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَائِلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿خَشِيعَةً أَقْصَرُوهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذَلَّةٌ﴾، وقوله: ﴿خَشِيعِينَ مِنَ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ حَافِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وهو الانخفاض والسكون هـ (٢).

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الثَّوَّتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

(والمقصود هنا قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فإن ما فعلوه من الأذى هو مما حكم به عليك قدراً، فاصبر لحكمه وإن كانوا ظالمين في ذلك، وهذا الصبر أعظم من الصبر على ما جرى وفعل بالأنبياء، وقوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الثَّوَّتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقد نهى النبي ﷺ أن يفضل أحدٌ منا نفسه على يونس بن متى مع قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الثَّوَّتِ﴾ وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصفات: ١٤٢] تنبيهاً على أن غيره أولى أن لا يفضل أحد نفسه عليه، ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم إني خير من يونس بن متى» (٤) وفي صحيح البخاري أيضاً عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لعبد أن يكون خيراً من يونس بن متى» (٥) وفي لفظ: «أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» (٦) وفي البخاري أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب» (٧) وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي (أنه قال - يعني رسول الله - «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير

(١) مختصر الفتاوى المصرية (٢٠١ - ٢٠٢). (٢) تفسير آيات أشكلت (١/٤٢٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/٣٢٦). (٤) مرّ تخريجه.

(٥) مرّ تخريجه. (٦) مرّ تخريجه.

(٧) مرّ تخريجه.

من يونس بن متى^(١) وفي الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ وفي لفظ: فيما يرويه عن ربه: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى^(٢) وهذا فيه نهى عام.

وأما ما يرويه بعض الناس أنه قال: «لا تفضلوني على يونس بن متى» ويفسره باستواء حال صاحب المعراج، وحال صاحب الحوت فنقل باطل وتفسير باطل، وقد قال النبي ﷺ: «اثبت أحد فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد^(٣)» وأبو بكر أفضل الصديقين) ١. هـ^(٤).

وفي قصة صاحب الحوت يونس عليه الصلاة والسلام قال:

(والمقصود هنا أن ما تضمنته قصة «ذي النون» مما يلام عليه كله مغفور، بدلالة الله به حسنات ورفع درجاته وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ يَكَادُ رَيْكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الْكُوفِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْشُوفٌ ﴿٨٨﴾ فَلَوْلَا أَن نَّارَكُم نُّفَعُ مِن رَّبِّهِ لَنَبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٨٩﴾ فَاجْبِنهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٠﴾﴾ وهذا بخلاف حال النقام الحوت فإنه قال: ﴿فَالنَّفْعَةُ الْكُوفُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [الصفات: ١٤٢] فأخبر أنه في تلك الحال ملِيم و(الملِيم) الذي فعل ما يلام عليه فالملام في تلك الحال لا في حال نبذه بالعراء وهو سقيم فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها) ١. هـ^(٥).

(٢) مَرَّ تَخْرِيجُهُ.

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٣ - ٢٢٤).

(١) مَرَّ تَخْرِيجُهُ.

(٣) البخاري (٣٦٨٦).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٩).

سورة الحاقة

وقال في عموم سورة الحاقة:

وكذلك في (سورة الحاقة) ذكر قصص الأمم كشمود وعاد وفرعون ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نُنْخِثُ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَجِدَةً ۝ وَجِئْنَا بِكَ دَكَّةً وَجِدَةً ۝﴾ [الحاقة]؛ إلى تمام ما ذكره من أمر الجنة والنار) ١. هـ^(١).

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ غَلِيْلٌ ۝ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقٍ ۝﴾ ٢. هـ^(٢).

وكذلك عاد لما أهلكهم أرسل الريح الصرصر سبع ليال وثمانية أيام حسوماً كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ غَلِيْلٌ حَاقٍ ۝ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقٍ ۝﴾ ٣. هـ^(٣).

وقال راداً على الرافضة:

﴿لِنَجْلِيَنَّ لَكَ نَذْرَةَ نَعِيَّا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝﴾ ٤. هـ^(٤).

(أن قوله: ﴿إِنَّا لَنَّا طَعْنَا أَلَمًا حَمَلْتَهُ فِي الْبَارَةِ ۝ لِنَجْلِيَنَّ لَكَ نَذْرَةَ نَعِيَّا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝﴾ لم يرد به أذن واحد من الناس فقط، فإن هذا خطاب لبني آدم.

وحملهم في السفينة من أعظم الآيات، قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَئْمٍ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ۝﴾ [يس] ٥. هـ^(٥).

وقال راداً على قول الرافضي:

(وفيه^(٤)) نزل قوله تعالى: ﴿وَعَبِيَّا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝﴾، والجواب: أنه حديث موضوع^(٥)

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/١٤٠ - ١٤١).

(٢) الجواب الصحيح (٦/٤٠٢ - ٤٠٣).

(٣) منهاج السنة (٧/١٧١).

(٤) أي في علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٥) الحديث رواه أبو نعيم في الحلية (١/٦٧)، والطبري (٢٩/٢٦) وابن المغازلي (١٢/٣١٢)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير، والحديث ضعفه أهل العلم ومنه من حكم عليه بالوضع، وذكره ابن تيمية في مقدمة في أصول التفسير مثلاً لما في كتب التفسير من الموضوعات، راجع الفتاوى (١٣/٣٥٤).

باتفاق أهل العلم، ومعلوم بالاضطرار أن الله تعالى لم يرد بذلك أن لا تعيها إلا أذن واعية واحدة من الأذان ولا أذن شخص معين لكن المقصود النوع فيدخل في ذلك كل أذن واعية) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال الرافضي: «البرهان العشرون: قوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ أَذُنُ رَعِيَةٍ﴾ في تفسير الثعلبي، قال رسول الله ﷺ: سألت الله ﷻ أن يجعلها أذنك يا علي. ومن طريق أبي نعيم، قال: قال رسول الله ﷺ: [يا علي] إن الله أمرني أن أذكرك وأعلمك، يا علي إن الله أمرني أن أذكرك وأعلمك لتعي، وأنزلت علي هذه الآية ﴿وَتَبَيَّنَ أَذُنُ رَعِيَةٍ﴾ فأنت أذن واعية وهذه الفضيلة لم تحصل لغيره، فيكون هو الإمام).

والجواب من وجوه: أحدها: بيان صحة الإسناد. والثعلبي وأبو نعيم يرويان ما لا يحتاج به بالإجماع.

الثاني: أن هذا موضوع باتفاق أهل العلم.

الثالث: أن قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ﴾ ١١ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَبَيَّنَ أَذُنُ رَعِيَةٍ﴾ ١٢ لم يرد به أذن واحد من الناس فقط، فإن هذا خطاب لبني آدم.

وحملهم في السفينة من أعظم الآيات. قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَمَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ١٣ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ١٤ [يسر] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلَّكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِرَبِّكَ مِنْ ءَايَتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ١٥ [لقمان] فكيف يكون ذلك كله ليعي ذلك واحد من الناس؟.

نعم أذن علي من الأذان الواعية، كأذن أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم. وحيث فلا اختصاص لعلي بذلك. وهذا مما يعلم بالاضطرار: أن الأذان الواعية ليست أذن علي وحدها. أترى أذن رسول الله ﷺ ليست واعية؟ ولا أذن الحسن والحسين وعمار وأبي ذر والمقداد وسلمان الفارسي وسهل بن حنيف وغيرهم ممن يوافقون علي فضيلتهم وإيمانهم؟ وإذا كانت الأذن الواعية له ولغيره، لم يجز أن يقال: هذه الأفضلية لم تحصل لغيره) ١. هـ^(٢).

﴿وَالْمَلِكُ عَلَیْ أَجَابِيهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ ١٦.

(وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ يوجب أن لله عرشاً يحمل ويوجب أن

ذلك العرش ليس هو الملك كما تقوله طائفة من الجهمية فإن الملك هو مجموع الخلق فهنا دلت الآية على أن الله ملائكة من جملة خلقه يحملون عرشه وآخرون يكونون حوله وعلى أنه يوم القيامة يحمله ثمانية: إما ثمانية أملاك وإما ثمانية أصناف وصفوف وهذا إلى مذهب المثبتة أقرب منه إلى قول النافية بلا ريب (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (إن إضافة العرش مخصوصة إلى الله؛ لقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ يقتضي أنه مضاف إلى الله إضافة تخصه كما في سائر المضافات إلى الله كقوله بيت الله، وناقة الله، ونحو ذلك. وإذا كان العرش مضافاً إلى الله في هذه الآية إضافة اختصاص، وذلك يوجب أن يكون بينه وبين الله من النسبة ما ليس لغيره، فما يذكره الجهمية من الاستيلاء والقدرة وغير ذلك أمر مشترك بين العرش وسائر المخلوقات وهذه الآية التي احتج بها تنفي أن يكون الثابت من الإضافة هو القدر المشترك، وتوجب اختصاصاً للعرش بالله ليس لغيره كقوله: ﴿عَرْشَ رَبِّكَ﴾ وهذا إنما يدل على قول المثبتة، أو هو إلى الدلالة عليه أقرب وأيهما كان فقد دلت الآية على نقيض مطلوبه، وهو الذي ألزمناه، فلم يذكر آية من كتاب الله على مطلوبه إلا وهي لا دلالة فيها؛ بل دلالتها على نقيض مطلوبه أقوى) هـ. ١ (٢).

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَذِبًا يُسَبِّحُ ۖ يَقُولُ ۖ هَآؤُمُ أَقْرَبُوا كَذِيبَةً ۖ﴾

(وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يدنو أحدكم من ربه، حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم يا رب، فيقرره، ثم يقول: قد سترت عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، قال: ثم يعطي كتاب حسناته وهو قوله: ﴿هَآؤُمُ أَقْرَبُوا كَذِيبَةً﴾ وأما الكفار والمنافقون فينادون: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين» (٣) هـ. ١ (٤).

وقال رحمه الله: (وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «اليدنو أحدكم من ربه حتى ليقفه عليه فيقول: عملت كذا وكذا فيقول: نعم يا رب فيقرره ثم يقول: قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطي كتاب حسناته وهو قوله تعالى: ﴿هَآؤُمُ أَقْرَبُوا كَذِيبَةً﴾ وأما الكافر والمنافق فينادون: هؤلاء الذين كذبوا على

(١) بيان تليس الجهمية (١/٥٧٦). (٢) بيان تليس الجهمية (١/٥٧٦ - ٥٧٧).

(٣) البخاري (٦٠٧٠)، ومسلم (٢٧٦٨). (٤) درء تعارض العقل (٢/١٤٣).

ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» فأخبر ﷺ أنه سبحانه يقول قولاً ثم يقول العبد ثم يقول الرب تعالى قولاً آخر، وهذا الأصل العظيم دلت عليه الكتب المنزلة من الله القرآن والثورة والإنجيل وكان عليه سلف الأمة وأئمتها بل وعليه جماهير العقلاء وأكابرهم من جميع الطوائف حتى من الفلاسفة (١) هـ.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا آسَفْتُمْ فِي الْآيَاتِ الْخَالِيَةِ﴾ (٢١).

(وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» (٢) وهذا لا ينافي قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا آسَفْتُمْ فِي الْآيَاتِ الْخَالِيَةِ﴾ (٢١) فإن الرسول نفى بآء المقابلة والمعادلة والقرآن أثبت بآء السبب (٣) هـ.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبُمُ إِشْمَالِهِ فَيَقُولُ بَلَّغْتَنِي لَوْ أَوْتِ كَيْبِيَّةٌ﴾ (٢٥).

(وعن الفراء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبُمُ إِشْمَالِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بَلَّغْتَنِي﴾ كَاتِبُ الْقَاضِيَةِ (٢٦) وذلك أن القضاء هو الإكمال والإتمام، والأمر المقتضي هو الذي قد مضى وفرغ (٤) هـ.

﴿مَا أَغْفَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ (٢٩).

(الحرص إنما ذم لأنه يفسد الدين الذي هو الإيمان والعمل الصالح، فكان ترك هذا الحرص لصالح العمل، وهذان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿مَا أَغْفَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٢٨) وهما اللذان ذكرهما الله في سورة القصص حيث افتتحها بأمر فرعون، وذكر علوه في الأرض، وهو الرياسة والشرف والسلطان، ثم ذكر في آخرها قارون وما أوتيته من الأموال، وذكر عاقبة سلطان هذا وعاقبة مال هذا، ثم قال: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْآخِرَةُ يَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] كحال فرعون وقارون فإن جمع الأموال من غير إنفاقها في مواضعها المأمور بها وأخذها من غير وجهها هو من نوع الفساد (٥) هـ.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٠) وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (١١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تُذَكِّرُونَ (١٢).

- (١) الفتاوى (شرح الأصفهانية) (٤٢/٥). (٢) مرّ تخريجه.
(٣) مجموع الفتاوى (٢٥٦/١١). (٤) الرد على من قال بفناء النار (٧٣).
(٥) مجموع الفتاوى (١٤٣/٢٠).

(وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فهذا قد ذكره في موضعين فقال في الحاقة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ فالرسول هنا محمد ﷺ وقال في التكويم: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٦﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿١٧﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَمِينِ ﴿١٩﴾ [التكويم] فالرسول هنا جبريل فأضافه إلى الرسول من البشر تارة، باسم الرسول، ولم يقل: إنه لقول ملك ولا نبي، لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ عن غيره لا منشئ له من عنده ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِيعِ﴾ [النور: ٥٤] فكان قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة] بمنزلة قوله لتبليغ رسول، أو مبلغ من رسول كريم، أو جاء به رسول كريم، أو مسموع عن رسول كريم؛ وليس معناه أنه أنشأه أو أحدثه أو أنشأ شيئاً منه أو أحدثه رسول كريم إذ لو كان منشأً لم يكن رسولاً فيما أنشأه وابتدأه وإنما يكون رسولاً فيما بلغه وأداه، ومعلوم أن الضمير عائد إلى القرآن مطلقاً.

و(أيضاً) فلو كان أحد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه امتنع أن يكون الرسول الآخر هو المنشئ المؤلف لها، فبطل أن تكون إضافته إلى الرسول لأجل إحداث لفظه ونظمه ولو جاز أن تكون الإضافة هنا لأجل إحداث الرسول له أو لشيء منه لجاز أن نقول أنه قول البشر، وهذا قول الوحيد الذي أصلاه الله سقر.

فإن قال قائل: فالوحيد جعل الجميع قول البشر، ونحن نقول إن الكلام العربي قول البشر، وأما معناه فهو كلام الله.

فيقال لهم: هذا نصف قول الوحيد، ثم هذا باطل من وجوه أخرى.

وهو أن معاني هذا النظم معان متعددة متنوعة، وأنتم تجعلون ذلك المعنى معنى واحداً هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار وتجعلون ذلك المعنى إذا عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإذا عبر عنه بالعبرانية كان تورا، وإذا عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من العقل والدين؛ فإن التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن معناه معنى التوراة.

وأيضاً فإن معنى آية الكرسي ليس هو معنى آية الدين وإنما يشتركان في مسمى الكلام، ومسمى كلام الله، كما تشترك الأعيان في مسمى النوع، فهذا الكلام وهذا الكلام وهذا الكلام كله يشترك في أنه كلام الله اشتراك الأشخاص في أنواعها، كما أن

الإنسان وهذا الإنسان يشتركون في مسمى الإنسان وليس في الخارج شخص بعينه هو هذا وهذا وهذا، وكذلك ليس في الخارج كلام واحد هو معنى التوراة والإنجيل والقرآن وهو معنى آية الدين وآية الكرسي (١) هـ.

وقال رحمه الله: (فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهذا يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربي قيل: هذا باطل؛ وذلك لأن الله ذكر هذا في القرآن في موضعين، والرسول في أحد الموضعين محمد، والرسول في الآية الأخرى جبريل. قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَا يَقُولُ كَإِيهَا قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾ فالرسول هنا محمد ﷺ وقال في سورة التكوين: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٤﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿١٥﴾ [التكوين] فالرسول هنا جبريل فلو كان أضافه إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً لكان الخبران متناقضين، فإنه إن كان أحدهما هو الذي أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها.

وأيضاً فإنه قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ولم يقل: لقول ملك ولا نبي، ولفظ «الرسول» يستلزم مرسلأً له، فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله؛ لا أنه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه. وهذا يدل على أنه أضافه إلى الرسول، لأنه بلغه وأداه، لا لأنه أنشأ منه شيئاً وابتداه.

وأيضاً فإن الله قد كَفَّرَ من جعله قول البشر، بقوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَفَدَّرَ﴾ فَقِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٢﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ خَيْرٌ مِّنِّي ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٤﴾ [المدرثر] ومحمد بشر فمن قال: إنه قول محمد فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول: هو قول بشر أو جني أو ملك، فمن جعله قولاً لأحد من هؤلاء فقد كفر، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ فجعله قول الرسول البشري مع تكفيره من يقول إنه قول البشر، فعلم أن المراد بذلك أن الرسول بلغه عن مرسله، لا أنه قول له من تلقاء نفسه، وهو كلام الله الذي أرسله كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فالذي بلغه الرسول هو كلام الله لا كلام الرسول (٢) هـ.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُشِّرُونَ﴾ ٢٨ ﴿وَمَا لَا بُشِيرُونَ﴾ ٢٩ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ٣٠ ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ٣١ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ٣٢ ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٣ ﴿وَلَهُمْ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٤ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ٣٥ ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾﴾ ٣٦ [الشعراء] إلى آخر السورة.

فذكر في هذه السورة علامة الكهان الكاذبين، والشعراء الغاوين، ونزله عن هذين الصنفين، كما في سورة الحاقة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وربما استدل بعضهم بأنه مضاف إلى الرسول فيكون هو أحدث حروفه ولم يتأمل هذا القائل فيرى أنه أضافه تارة إلى رسول هو جبريل، وتارة إلى رسول هو محمد بقوله في الآية الأولى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ٣٠ ذى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٣١﴾ مُطَّلَعٌ تَمَّ أَمِينٍ ﴿٣٢﴾ [التكوير] فهذا جبريل وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ٣٠ ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ٣١ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ٣٢ وهذا محمد فلو كانت إضافته إليه لأنه ابتداء حروفه؛ وأحدثها لم يصلح أن يضاف إلى كل منهما؛ لامتناع أن يكون كل منهما هو أحدث حروفه ولأنه قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ وهذا إخبار عن القرآن الذي هو بالمعنى أحق عندهم وعند أهل السنة أيضاً فلو كان الرسول ابتداءه لكان القرآن من عنده لا من عند الله، وإنما أضافه الله إلى الرسول لأنه بلغه وأداه وجاء به من عند الله، ولهذا قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل لقول ملك ولا نبي بل جاء باسم الرسول ليتبين أنه واسطة فيه وسفير، والكلام كلام لمن اتصف به مبتدئاً منشأً، لا لمن تكلم به مبلغاً مؤدياً، كما يقال مثل ذلك في جميع كلام الناس فكيف بكلام الله؟ وهذا على القول المشهور في التفسير المطابق لظاهر القرآن: أن الرسول في أحد الموضعين محمد ﷺ، وفي الآخر جبريل عليه السلام) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: مبيناً أنه عني بالرسول (رسول الله وليس جبريل):

وقال رحمه الله: (وقال في سورة الحاقة: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَا بُشِّرُونَ﴾ ٢٨ ﴿وَمَا لَا بُشِيرُونَ﴾ ٢٩ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ٣٠ ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ٣١ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ٣٢ ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٣ ﴿وَلَوْ لَقَوْلُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ٣٤ ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ٣٥ ﴿ثُمَّ لَقَطَفْنَا مِنْهُ الْوَيْتَ﴾ ٣٦ ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ﴾ ٣٧ ﴿فَهَذَا مُحَمَّدٌ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ كُلُّهُ،

وهذا قول عامة العلماء. وقد غلط بعض من شذ فزعم أن جبريل غلط، كما غلط من هو أعظم غلطاً منه فزعم أن التي في التكويد في محمد ﷺ، وهو ﷺ إنما أضافه إلى هذا تارة وإلى هذا تارة بلفظ الرسول ﷺ ليبين أنه قول رسول بلغه عن مرسله، لم يحدث منه شيئاً من تلقاء نفسه) ١. هـ^(١).

﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۚ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۚ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ﴾ (١٧).

(وقد قيل آية الحاقة وآية الشورى^(٢) تبين أنه لو افترى عليه لعاقبه، فهذه سنته في الكاذبين. وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وهو الاعتبار بالمأمور به في القرآن كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَنَاتِ فَإِنَّهُ تَفَتَّلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْأَمِيَّةِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَأْ لَكَ فِي ذَلِكَ لَعْنَةٌ لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١٣) [آل عمران] ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۚ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۚ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ﴾ (١٧) وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] فأخبر: أنه بتقدير الافتراء لا بد أن يعاقب من افترى عليه) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۚ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۚ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ﴾ (١٧) ليبين سبحانه أنه ينتقم ممن يكذب في الرسالة كائناً من كان، وأنه لو قدر أنه غير الرسالة لانتقم منه، والمقصود نفي هذا التقدير لانتفاء لازمه) ١. هـ^(٥).

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٥٢).

(فإن الذكر مأمور به فيهما بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٥٢) و﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى] قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» والثانية: «اجعلوها في سجودكم»^(٦) ١. هـ^(٧).

(٢) آية الشورى هي (٢٤).

(١) الرد على الأخنائي (٢٠٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١٤/٢٦٩ - ٢٧٠).

(٣) النبوات (٢٤٩).

(٦) مرّ تخريجه.

(٥) الاستغاثة (٢/٤٦٤ - المحقق).

(٧) مجموع الفتاوى (٢٢/٣٧٨).

وقال رحمه الله: (فعن عتبة بن عامر رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الطير ﴿٥٦﴾ قال رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم ولما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الأعلى قال: اجعلوها في سجودكم» رواه أبو داود وابن ماجه فأمر النبي ﷺ بجعل هذين التسميتين في الركوع والسجود، وأمره على الوجوب، وذلك يقتضي وجوب ركوع وسجود تبعاً لهذا التسميح، وذلك هو الطمأنينة) ١. هـ^(١).

سورة المعارج

وقال في نزول سورة المعارج:

(وأيضاً فإن هذه السورة - سورة سأل سائل - مكية باتفاق أهل العلم، نزلت بمكة قبل الهجرة فهذه نزلت قبل غدِير خم بعشر سنين أو أكثر من ذلك، فكيف [تكون] نزلت بعده؟) ١. هـ^(١).

﴿وَإِذَا الْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٨﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢٠﴾﴾

(وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٨﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقال غيره: هو في اللغة أشد الحرص وأسوأ الجزع ومنه قول النبي ﷺ: «شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع»^(٢) وناقعة هلوع إذا كانت سريعة السير خفيفة، وذئب هلع بلع، والهلع من الحرص، والبلع من الابتلاع، ولهذا كان كلام السلف في تفسيره يتضمن هذه المعاني. فروي عن ابن عباس^(٣) قال: هو الذي إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً وروي عنه أنه قال: هو الحريص^(٤) على ما لا يحل له، وعن سعيد بن جبير: شحيحاً^(٥) وعن عكرمة: ضجوراً^(٦) وعن جعفر^(٧): حريصاً. وعن الحسن والضحاك: بخيلاً^(٨) وعن مجاهد: شرها^(٩) وعن الضحاك^(١٠) أيضاً: الهلوع الذي لا يشبع وعن مقاتل^(١١): ضيق القلب

(١) منهاج السنة (٤٥/٧) والكلام رداً على الروافض.

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) ذكره صاحب الدر (٢٦٥/٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة أنه سأل ابن عباس والحقيقة أنني لم أجده عند ابن جرير.

(٤) ابن جرير (٨٠/٢٩). (٥) ابن جرير (٨٠/٢٩).

(٦) البغوي (٣٦٣/٤) زاد المسير (٣٦٣/٨). (٧) لم أجده.

(٨) البغوي (٣٦٣/٤) زاد المسير (٣٦٣/٨). (٩) زاد المسير (٣٦٣/٨).

(١٠) ابن المنذر كما في الدر (٢٦٦/٦). (١١) البغوي (٣٦٣/٤).

وعن عطاء^(١): عجولاً وهذه المعاني كلها تنافي الثبات والقوة والاجتماع والإمساك والصبر وقد قال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُعِثُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠] وهذا وإن كان قد قيل إن المراد به أنها تنصدع فيموتون، فإنه كما قيل في مثل ذلك: قد انصدع قلبه وقد تفرق قلبي، وقد تشتت قلبي، وقد تَقَسَّم قلبي، ومنه يقال للخوف: قد فرق قلبه، ويقال بإزاء ذلك: هو ثابت القلب، مجتمع القلب، مجموع القلب) ا.هـ^(٢).

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (٣٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٣٤﴾

فإن الله ﷻ ذم عموم الإنسان واستثنى (إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (٩١) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٩٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٩٣﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٩٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٩٥﴾، والسلف من الصحابة ومن بعدهم قد فسروا الدائم على الصلاة بالمحافظ على أوقاتها وبالذائم على أفعالها بالإقبال عليها، والآية تعم هذا وهذا فإنه قال: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ والدائم على الفعل هو المديم له الذي يفعله دائماً فإذا كان هذا فيما يفعل في الأوقات المتفرقة: هو أن يفعله كل يوم، بحيث لا يفعله تارة ويتركه أخرى وسمى ذلك دواماً عليه فالدوام على الفعل الواحد المتصل أولى أن يكون دواماً وأن تتناول الآية ذلك وذلك يدل على وجوب إدامة أفعالها؛ لأن الله ﷻ ذم عموم الإنسان واستثنى المداوم على هذه الصفة فتارك إدامة أفعالها يكون مذموماً من الشارع، والشارع لا يذم إلا على ترك واجب أو فعل محرم.

وأيضاً: فإنه ﷻ قال: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٩٤) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٩٥﴾ فدل ذلك على أن المصلي قد يكون دائماً على صلاته، وقد لا يكون دائماً عليها، وأن المصلي الذي ليس بدائم مذموم. وهذا يوجب ذم من لا يديم أفعالها المتصلة والمنفصلة. وإذا وجب دوام أفعالها فذلك هو نفس الطمأنينة فإنه يدل على وجوب إدامة الركوع والسجود وغيرهما ولو كان المجزئ أقل مما ذكر من الخفض وهو نقر الغراب لم يكن ذلك دواماً ولم يجب الدوام على الركوع والسجود وهما أصل أفعال الصلاة) ا.هـ^(٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/٢٣٣ - ٢٣٤).

(١) لم أجده.

(٣) القواعد النورانية (٦٣ - ٦٤).

وقال رحمه الله: (وروى أبو بكر بن المنذر في تفسيره من حديث أبي عبد الرحمن عن عبد الله قال: «قيل لعبد الله: إن الله أكثر ذكر الصلاة في القرآن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (٣٣) و﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (١) و﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ و﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَخَافُونَ﴾ (٣٤) فقال عبد الله: ذلك على مواقيتها فقالوا: ما كنا نرى ذلك يا أبا عبد الرحمن إلا الترك قال: تركها كفر» وروى سعيد بن منصور، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن مسلم عن مسروق: «في قول الله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَخَافُونَ﴾ (٣٣) قال: على مواقيتها فقالوا: ما كنا نرى ذلك يا أبا عبد الرحمن، إلا الترك قال: تركها كفر» وروي من حديث سعيد بن أبي مريم «﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٥) [الماعون] بتضييع ميقاتها» وروي عن أبي ثور عن ابن جريج في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَخَافُونَ﴾ (٣٤) المكتوبة والتي في سأل سائل: التطوع. وهذا قول ضعيف) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فكل بني آدم ظلم جهول إلا من تاب الله عليه قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿١١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿١٢﴾) الآيات وقد وصف الله الإنسان بأنه ﴿لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠] ﴿لَيَبُوسَ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩] و﴿لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] و﴿لَطَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] جبار إلى غير ذلك مما يدل على أنه لا بد أن تقع منه الذنوب) ١. هـ^(٢).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ (٣٣).

(وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ (٣٣) في سورتي المؤمنون والمعارج، وهذا من صفة المستثنين من الهلع المذموم بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿١١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿١٢﴾) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٧٨﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَرْغُومِ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُتَشَفِّقُونَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٧٦﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٧٥﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٣٣﴾ وهذا يقتضي وجوب ذلك لأنه لم يستثن من المذموم إلا من

(١) كل الكتب التي ذكرها شيخ الإسلام هي في عداد المخطوط والمفقود ولكن ثبت ذلك عن ابن مسعود من غير وجه كما في ابن كثير (٤/٤٢١) والدر المنثور (٦/٢١٦) والنص هذا في القواعد النورانية (٧٧).

(٢) نظرية العقد (٣٤).

انصف بجميع ذلك ولهذا لم يذكر فيها إلا ما هو واجب) ا. هـ^(١).

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَاءًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُفُسٍ يَؤُفْسُونَ﴾ (١٤٢).

(وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَاءًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُفُسٍ يَؤُفْسُونَ﴾ (١٤٢) خِشَعَةً أَبْصَرَهُمْ زَهْرَتُهُمْ ذَلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٤٤) وفي القراءة الأخرى^(٢) (خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ) وفي هاتين الآيتين وصف أجسادهم بالحركة السريعة حيث لم يصف بالخشوع إلا أبصارهم بخلاف آية الصلاة) ا. هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/١٤١ - ١٤٢).

(٢) لم أجد هذه القراءة ولا في موسوعة القراءات.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/٥٥٧).

سورة نوح

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾

(وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾ قَالَ يُقَوِّمُ إِلَيَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢) أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ٤) فبدل على أنها كانت ذنباً قبل إنذاره إياهم) ١ هـ.

﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣﴾

(قال نوح عليه السلام: ﴿إِلَيَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣) فجعل العبادة والتقوى لله وحده وجعل الطاعة للرسول؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله) ١ هـ.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ١١﴾

(وقد قال بعضهم: إن الأفلاك غير السموات لكن رد عليه غيره هذا القول بأن الله تعالى قال: ﴿أَلَمْ نَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ١١﴾ فأخبر أنه جعل القمر فيهن، وقد أخبر أنه في الفلك وليس هذا موضع بسط الكلام في هذا) ١ هـ.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ١٣﴾

وقال رحمه الله: (وأما القبور فقد ورد نهيه ﷺ عن اتخاذها مساجد ولعن من يفعل ذلك وقد ذكره غير واحد من الصحابة والتابعين، كما ذكره البخاري في صحيحه، والطبراني، وغيره في تفاسيرهم، وذكره وثيمة وغيره في «قصص الأنبياء» في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ١٣﴾ قالوا: هذه أسماء قوم صالحين كانوا من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم طال عليهم

الأمم فاتخذوا تماثيلهم أصناماً؟ وكان العكوف على القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها وفيها ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الأوثان، ولهذا قال النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد»^(١) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ٣٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا قال ابن عباس وغيره: هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم، وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخاري وغيره، وهذه أبطلها النبي ﷺ وحسم مادتها وسد ذريعتها، حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها وإن كان المصلي فيها لا يستشفع بهم، ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل علي بن أبي طالب فأمره أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه، ولا تمثالاً إلا طمسه ومحاه ولعن المصورين وعن أبي الهياج الأسدي: قال لي علي بن أبي طالب: «أبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته» وفي لفظ: «ولا صورة إلا طمستها»^(٣) أخرجه مسلم ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ٣٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وهذه أسماء قوم صالحين كانوا في قوم نوح فلما ماتوا جعلوا الأصنام على صورهم ثم ذهبت هذه الأصنام لما أغرق الله أهل الأرض ثم صارت إلى العرب كما ذكر ذلك ابن عباس وغيره إن لم تكن أعيانها وإلا فهي نظائرها) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (فإن الله قال في كتابه عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ٣٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا.

وقد روى البخاري في صحيحه بإسناده عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب تعبد؛ أما (ود)؛ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سواع) فكانت لهذيل، وأما (يعقوث) فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان، وأما (نسر)؛ فكانت لحمير لآل ذي الكلاع وكانت أسماء

(١) مالك (٨٨)، أحمد (٢٤٦/٢) والحديث صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى (٧٨/٢٧ - ٧٩). (٣) البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥١/١ - ١٥٢).

(٥) مجموع الفتاوى (١٦٧/١، ٣٢١) (١٤/٣٦٣)، جامع المسائل (٤/١٦٥).

رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا: أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبت.

وقد ذكر قريباً من هذا المعنى طوائف من السلف، في «كتب التفسير» و«قصص الأنبياء» وغيرها: أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين ثم منهم من ذكر أنهم كانوا يعكفون على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ومنهم من ذكر أنهم كانوا يصحبون تماثيلهم معهم في السفر يدعون عندها ولا يعبدونها ثم بعد ذلك: عبت الأوثان (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى في كتابه عن المشركين من قوم نوح **﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾** قال ابن عباس وغيره من السلف: هؤلاء قوم كانوا صالحين من قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، فعبدوهم فكان هذا مبدأ عبادة الأوثان، فنهى النبي **﴿ﷺ﴾** عن اتخاذ القبور مساجد ليسد باب الشرك، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها؛ لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ، والشيطان يقارنها وقت الطلوع ووقت الغروب، فتكون في الصلاة حينئذ مشابهة لصلاة المشركين، فسد هذا (الباب) (٢) هـ.

﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذِنُوا نَارًا فَلَمَّا يَجِدُوا هُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ .

(قلت: يقال في العمد: خطأ كما يقال في غير العمد على قراءة ابن عامر، فيقال لغير المتعمد: أخطأت كما يقال له: خطيت، ولفظ الخطيئة من هذا، ومنه قوله تعالى: **﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾** وقول السحرة: **﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** (الشعراء) (٣) هـ.

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٤٥٤ - ٤٥٥) (٢٧/١٥٦ - ١٥٧) (٢٧/٢٢٣ - ٢٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/٢٩٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/٢١).

سورة الجن

قال في عموم سورة الجن :

(ومن آياته الظاهرة التي في القرآن ما ذكره من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً، بخلاف ما كانت العادة جارية به قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ ٢ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَهَا مُلْبَتً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدُ الشَّمْسِ وَلَمْ نَلِدْ وَلَمْ نَكُنْ لَهَا كَاشِئَةً قَدِيمًا﴾ ٩ وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَيُّكُمْ يَرَاهُ عِندَ رَبِّهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ إِنَّهُمْ عَلَى آثَارِهِم بِلاَ حِشَابٍ﴾ ١٠ فَالْمَلَكُ لَمْ يَأْمُرْ بِالْعُرْوَةِ الْوَعْدِ وَأَنَّهُمْ كَانَتْ هُمْ بِآثَارِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ إِنَّهُمْ عَلَى آثَارِهِم بِلاَ حِشَابٍ﴾ ١١ فَالْمَلَكُ لَمْ يَأْمُرْ بِالْعُرْوَةِ الْوَعْدِ وَأَنَّهُمْ كَانَتْ هُمْ بِآثَارِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ إِنَّهُمْ عَلَى آثَارِهِم بِلاَ حِشَابٍ﴾ ١٢ [الجن].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ٢١ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ٢٢ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُوونَ﴾ ٢٣ [الشعراء].

وهذا كان النبي ﷺ يقرؤه على الناس، وهم يقرءونه، ولم ينكره أحد، ولا ارتاب به مؤمن، ولا احتج به عليه كافر فدل أن الناس علموا صدق ما أخبرت به الجن، من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً وأنهم لم يتمكنوا حيثئذ مما كانوا يتمكنون منه قبل ذلك من الاستماع.

ومعلوم أن هذا أمر يراه الناس بأبصارهم، فإن امتلاء السماء بالشهب، أمر يراه الناس كلهم، فلو لم يكن كذلك لكان الناس يكذبون بهذا، مؤمنهم وكافرهم، فإن الجماعة العظيمة الذين لم يتواطؤوا، يمتنع اتفاقهم على الكذب، وعلى التصديق بما يعلمون أنه كذب، وعلى كتمان ما يعلمونه، وعلى ترك إنكار ما يعلمون أنه كذب.

وقد سمع القرآن ألوف مؤلفة أدركوا مبعثه وشاهدوا أحوال السماء، فلو لم يكن هذا كان موجوداً - مع أن عامتهم كانوا مكذبين له. وَلَمَّا آمَنُوا كَانُوا طَوَائِفَ مَتَابِينِ يَمْتَنِعُ اتِّفَاقُهُمْ عَلَى كَذِبٍ أَوْ كِتْمَانٍ أَوْ سَكُوتٍ - فلما لم ينكر ذلك أحد بل تظاهرت الأخبار بمثل ما أخبر به القرآن من الرمي العظيم بالشهب الذي لم يعهد مثله، حتى صاروا يشكون: هل ذلك في الكواكب التي في الفلك أو في غيرها؟ قالوا: إن كان في

سورة الجن

قال في عموم سورة الجن:

(ومن آياته الظاهرة التي في القرآن ما ذكره من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً، بخلاف ما كانت العادة جارية به قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَهَا مُلْتَثَّ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَحْدُ لَهُمْ شَهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝١١﴾ وَمَا يَنْبِئُ لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝١٢﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ۝١٣﴾ [الشعراء].

وهذا كان النبي ﷺ يقرؤه على الناس، وهم يقرءونه، ولم ينكره أحد، ولا ارتاب به مؤمن، ولا احتج به عليه كافر فدل أن الناس علموا صدق ما أخبرت به الجن، من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً وأنهم لم يتمكنوا حينئذ مما كانوا يتمكنون منه قبل ذلك من الاستماع.

ومعلوم أن هذا أمر يراه الناس بأبصارهم، فإن امتلاء السماء بالشهب، أمر يراه الناس كلهم، فلو لم يكن كذلك لكان الناس يكذبون بهذا، مؤمنهم وكافرهم، فإن الجماعة العظيمة الذين لم يتواطؤوا، يمتنع اتفاقهم على الكذب، وعلى التصديق بما يعلمون أنه كذب، وعلى كتمان ما يعلمونه، وعلى ترك إنكار ما يعلمون أنه كذب.

وقد سمع القرآن ألوف مؤلفة أدركوا مبعثه وشاهدوا أحوال السماء، فلو لم يكن هذا كان موجوداً - مع أن عامتهم كانوا مكذبين له. وَلَمَّا آمَنُوا كانوا طوائف متباينين يمتنع اتفاقهم على كذب أو كتمان أو سكوت - فلما لم ينكر ذلك أحد بل تظاهرت الأخبار بمثل ما أخبر به القرآن من الرمي العظيم بالشهب الذي لم يعهد مثله، حتى صاروا يشكون: هل ذلك في الكواكب التي في الفلك أو في غيرها؟ قالوا: إن كان في

كواكب الأفلاك فهو خراب العالم فلما رأوه فيما دونها علموا أنه لأمر حدث، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين السماء أرسلت علينا الشهب قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا: ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فمر النقر الذين أخذوا نحو تهامة وهي بنخل عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١]، فأنزل الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وفي لفظ البخاري بنخلة قريباً من مكة وهو الصواب.

وقد ظن بعض الناس أن الشهب لم يكن يرمى بها قبل ذلك بحال، والصواب: أنه كان الرمي بها كما هو الآن أحياناً كما ثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس ورواه أيضاً أحمد في مسنده، أن رسول الله ﷺ بينما هو في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم: ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به في الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول حين رأيناها يرمى بها: مات ملك، ولد مولود. فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك كذلك ولكن الله إذا قضى في خلقه أمراً يسمعه أهل العرش فيسبحون فيسبح من تحتهم بتسبيحهم، فيسبح من تحت ذلك، فلم يزل التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا حتى يقول بعضهم لبعض: لم سبّحتم؟ فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا بتسبيحهم فيقولون: ألا تسألون من فوقكم مم سبّحوا؟ فيسألونهم فيقولون: قضى الله في خلقه كذا وكذا: الأمر الذي كان فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى سماء الدنيا فيتحدثون به فتسرقه الشياطين بالسمع على توهم منهم واختلاف، ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض، فيحدثونهم فيخطئون ويصيبون فيحدث الكهان»^(١).

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله إن الكهان قد كانوا يحدثوننا بالشيء فيكون حقاً، قال: «تلك الكلمة من الحق، يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليه، فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة»^(٢).

وروى البخاري في صحيحه عن عائشة أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسرق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»^(١).

وفي صحيح البخاري أيضاً عن أبي هريرة قال: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣] فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض فيسمع الكلمة فيلقبها على لسان الساحر أو الكاهن وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقبها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا الكلمة التي سمعت من السماء فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»^(٢).

ورواه محمد بن إسحاق عن الزهري وقال في آخره: «ثم إن الله ﷻ حجب الشياطين عن السمع بهذه النجوم فانقطعت الكهانة فلا كهانة» ورواه معمر عن الزهري وقال: «فقلت للزهري: أو كان يرمى بها في الجاهلية؟ قال نعم قلت: يقول الله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدَ الشَّمْسِ لِلْأَيَّةِ﴾ [الجن: ٩]».

قال: غلظت واشتد أمرها حين بعث النبي ﷺ وروى الطبري عن داود ثنا عاصم بن علي بن عاصم عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان للجن مقاعد في السماء يستمعون الوحي وكان الوحي إذا أوحى، سمعت الملائكة كهيئة الحديد رمى بها على الصفوان فإذا سمعت الملائكة صلصلة الوحي، خر لجباهم من في السماء من الملائكة، فإذا نزل عليهم أصحاب الوحي قالوا: ماذا قال ربكم؟ قال: فينادون قال ربكم: ﴿الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

قال: فإذا نزل إلى السماء الدنيا قالوا: يكون في الأرض كذا وكذا موتاً، وكذا وكذا حياة، وكذا وكذا جدوبة وكذا وكذا خصباً، وما يريد أن يصنع، وما يريد أن يبتدئ تبارك وتعالى فنزلت الجن فأوحوا إلى أوليائهم من الإنس ما يكون في الأرض فبينما هم كذلك إذ بعث النبي ﷺ فزجرت الشياطين ورموهم بالكواكب فمنعوا فجعل لا يصعد أحد إلا احترق وفرع أهل الأرض لما رأوا في الكواكب ولم يكن قبل ذلك

فقالوا: هلك من في السماء وكان أهل الطائف أول من فرغ فينطلق الرجل إلى إبله فينحر فيذبح كل يوم بعيراً لألهتهم فينطلق صاحب الغنم يذبح كل يوم شاة فينطلق صاحب البقر فيذبح كل يوم بقرة فقال لهم رجل: ويلكم لا تهلكوا أموالكم فإن معالكم من الكواكب التي تهتدون بها، ولم يسقط منها شيء فألقوا وقد أسرعوا في أموالهم وقال إبليس: حدث في الأرض حدث فأثوني من كل مكان في الأرض بترية فجعل لا يؤتى بترية أرض إلا شمهها فلما أتى بترية تهامة قال: «ههنا حدث الحدث» فصرف الله إليه نفرأ من الجن وهو يقرأ القرآن فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا مَجْجَبًا﴾ [الجن: ١] حتى ختم الآية فولوا: ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ورواه أبو زرعة عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن عطاء بنحوه ورواه البيهقي من طرق عن حماد بن سلمة عن عطاء أيضاً.

فقد تبين أنه لما كان في زمن المبعث ملئت السماء حرصاً شديداً وشهباً وقبل ذلك لم يكن الحرص شديداً ولا كانت السماء مملوءة حرصاً وشهباً كما هي الآن يرمى بها أحياناً وكانوا يقعدون بها مقاعد للسمع: أي يسترق أحدهم ما يسمعه كما يستمع المستمع إلى حديث غيره مختفياً بسماعه مسترقاً له فكانت الشياطين تسترق (أي تستمع) ما تقوله الملائكة: فلما بعث محمد ﷺ صار أحدهم إذا سمع وجد الشهاب قد أرصد له فلم يستطع أن يقعد ويستمع كما كان قبل ذلك) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأنزل الله تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا مَجْجَبًا﴾ ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ② وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَنِيعَهُ وَلَا وَلَدًا ③ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ④ وَإِنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ⑤ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥﴾ [الجن: ١] أي السفية منا في أظهر قولي العلماء.

وقال غير واحد من السلف^(٢): كان الرجل من الإنس إذا نزل بالوادي قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر سفهاء قومه فلما استغاثت الإنس بالجن ازدادت الجن طغياناً وكفراً كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ① وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ⑦ وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا

(١) الجواب الصحيح (٥٧/٦ - ٦٧).

(٢) ابن جرير (١٠٨/٢٩) عن ابن عباس والحسن وغيرهم.

مُلِثْتُ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ﴿٨﴾ [الجن] وكانت الشياطين ترمى بالشهب قبل أن ينزل القرآن لكن كانوا أحياناً يسترقون السمع قبل أن يصل الشهاب إلى أحدهم فلما بعث محمد ﷺ ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً وصارت الشهب مرصدة لهم قبل أن يسمعوها كما قالوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعِ الْآنَ بَيِّنٌ لِّهُ شَهَابًا رَّسَدًا ﴿٩﴾ [الجن] وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الشعراء] قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَوِيدٌ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهُمْ رَشَدًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١٤﴾﴾ [الجن] أي على مذاهب شتى كما قال العلماء منهم المسلم والمشرک والنصراني والسني والبدعي ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَّقْجِرَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن] أخبروا أنهم لا يعجزونه: لا إن أقاموا في الأرض ولا إن هربوا منه ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدْحَىءَ آمَنَّا بِهِ فَنَنبُؤُهُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَغْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٦﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴿١٧﴾ أَي الظالمون يقال أقسط إذ عدل وقسط جار وظلم ﴿فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٨﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٩﴾ وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِنَنَّكُمْ مَاءً عَذْقًا ﴿٢٠﴾ لَتَنفِقَنَّهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿٢١﴾ وَأَن الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٦﴾ أَي ملجأ ومعاداً ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَن أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴿٢٨﴾﴾ [الجن] ١. هـ (١).

وقال رحمه الله: (إن هذه الأخبار الغيبية التي لا يعلمها إلا نبي أعلمه الله بها أو من تعلّمها من نبي: هي مما أنبأه الله به ولم يعلمه ذلك بشر وهذا من الغيب الذي قال الله فيه في السورة التي فيها استماع الجن للقرآن وإنذار قومهم به حيث قال: ﴿أَوْحَىٰ إِلَيْ أَنَّهُ أَسْمَعَ نَفَرٍ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَقَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن].

إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَّغَا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْمَعُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ [الجن]، فقوله تعالى: ﴿فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، يبين أنه غيب يضاف إليه يختص به لا يعلمه أحد إلا من جهته بخلاف ما يغيب عن بعض الناس ويعلمه بعضهم فإن هذا قد يتعلمه بعضهم من بعض) ا.هـ^(١).

﴿وَأَنْتُمْ قَتَلْتُمْ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ﴿٢٥﴾.

(وقد قالت الجن المؤمنون: ﴿وَأَنْتُمْ قَتَلْتُمْ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ﴿٢٥﴾ فنزهوه عن هذا وهذا وهؤلاء الجن المؤمنون أكمل عقلاً وديناً من هؤلاء النصارى) ا.هـ^(٢).

﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُودُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ﴿٢٦﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُودُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ﴿٢٦﴾ كان أحدهم إذا نزل بواد يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه فقالت الجن: الإنس تستعيذ بنا فزادوهم رهقاً. وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلووا به على أن كلام الله غير مخلوق لما ثبت عنه ﷺ: أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، فإذا كان لا يجوز ذلك فلا أن لا يجوز أن يقول: أنت خير مستعاذ يستعاذ به أولى، فالاستعاذة، والاستجارة، والاستغاثة: كلها من نوع الدعاء، أو الطلب، وهي ألفاظ متقاربة) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُودُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ﴿٢٦﴾ كان الإنس إذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه وكانت الإنس تستعيذ بالجن فصار ذلك سبباً لطغيان الجن وقالت: الإنس تستعيذ بنا) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال في السورة: ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُودُونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ﴿٢٦﴾، كان الرجل من الإنس ينزل بالوادي، والأودية ميطان الجن؛ فإنهم يكونون بالأودية أكثر مما يكونون بأعالي الأرض فكان الإنسي يقول: أعوذ بعظيم هذا

(١) الجواب الصحيح (٥/٣٩٥ - ٣٩٦).

(٢) الجواب الصحيح (٤/٢٨٢ - ٢٨٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١/٣٦٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/٢٧٧).

الوادي من سفهائه فلما رأت الجن أن الإنسان تستعيز بها، زاد طغيانهم وغيرهم^(١)، وبهذا يجيبون المعزم والراقي بأسمائهم وأسماء ملوكهم فإنه يقسم عليهم بأسماء من يعظمونه فيحصل لهم بذلك من الرئاسة والشرف على الإنسان ما يحملهم على أن يعطوهم بعض سؤلهم لا سيما وهم يعلمون أن الإنسان أشرف منهم وأعظم قدراً فإذا خضعت الإنسان لهم واستعادت بهم؛ كان بمنزلة أكابر الناس إذا خضع لأصاغرهم ليفضي له حاجته) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكتب السحر مملوءة من الإقسام والعزائم على الجن بساتاتهم الذين يعظمونهم ولذلك كانت الإنسان تستعيز بالجن كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يُوَدُّونَ رِجَالًا مِّنَ الْغِيِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾^(٣) كانوا إذا نزل الرجل منهم بواد يقول: أعود بعظيم هذا الوادي من سفهائه فأنزل الله هذه الآية) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يُوَدُّونَ رِجَالًا مِّنَ الْغِيِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾^(٤) والإنس سموا إنساً لأنهم يؤنسون أي يرون كما قال تعالى: ﴿إِنِّي عَاقَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠] أي رأيته، والجن سموا جنّاً لاجتماعهم، يجتنون عن الأبصار أي يستترون كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] أي استولى عليه فغطاه وستره) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وإنما هناك رجال من الجن فالجن رجال كما أن الإنسان رجال قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يُوَدُّونَ رِجَالًا مِّنَ الْغِيِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾^(٥) ا.هـ^(٥).

﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾^(٦) وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ مِنْهَا رَصَدًا﴾^(٧).

(فكان معروفاً عندهم إخبار الكهان عن الشياطين التي تسترق السمع، فلما رأوا أن السماء قد حرست حرساً شديداً خلاف العادة علموا أن الشياطين منعوا استراق السمع وعلمت الجن ذلك كما تقدم وقد قالت الجن: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾^(٨) وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ مِنْهَا رَصَدًا﴾^(٩).

(١) كذا في الأصل، ولعلها: وتجيبرهم. (٢) مجموع الفتاوى (١٩/٣٣ - ٣٤).

(٣) الصفدية (١/١٦٩) الاستغاثة (٢٨٧). (٤) مجموع الفتاوى (١٧/٤٦٥).

(٥) مجموع الفتاوى (١١/٢٩٤).

وقد تواترت الأخبار بأنه حين المبعث كثر الرمي بالشهب وهذا أمر خارق للعادة حتى خاف بعض الناس أن يكون ذلك لخراب العالم، حتى نظروا: هل الرمي بالكواكب التي في الفلك أم الرمي بالشهب؟ فلما رأوا أنه بالشهب علموا أنه لأمر حدث وأرسلت الجن تطلب سبب ذلك حتى سمعت القرآن فعلموا أنه كان لأجل ذلك. وهذا من أعلام النبوة ودلائلها.

وقبل زمان البعث وبعده كان الرمي خفيفاً لم تمتلئ به السماء كما ملئت حين نزول القرآن وقال تعالى: ﴿هَلْ أُتِيتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۖ تَنَزَّلُ عَلَىٰ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ۖ﴾ [الشعراء] والأفاك: الكذاب والأثيم: الفاجر كما قال: ﴿لَنَسْفَعًا نَّاصِيغًا إِنَّكَ أَصِيغٌ بِكَ نَاصِيغَةٍ كَذِبِي خَاطِلَةٌ ۖ﴾ [العلق].

قال في الحديث المتفق على صحته: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يدعو إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(١).

فالشياطين تنزل على من يحصل مقصودها بنزولها عليه وهو المناسب لها في الكذب والفجور فأما الصادق البار فلا يحصل به مقصود الشياطين؛ فإن الشيطان لا يطلب الصدق والبر وإنما يطلب الكذب والفجور.

ومحمد ﷺ ما زال قومه يعرفونه بينهم بالصادق الأمين لم تجرب عليه كذبة واحدة ولما جاءه الروح بالوحي لم يخبر بخبر واحد كذب لا عمداً ولا خطأ.

ومن تنزلت عليه الشياطين لا بد أن يخبر بالكذب فإن الشياطين يلقون إليهم السمع ولا يلقون إليهم ما سمعوه على وجهه بل يكذبون فيه كثيراً إذ كان أكثر الشياطين الذين ينزلون عليهم كاذبين فيما ينزلون به عليهم والشياطين وإن كان كلهم كاذباً، فليس كل من ألقى السمع يكذب فيما يلقيه، بل قد يصدق أحدهم فيما يلقيه من السمع ويستترقه، ولكن أكثرهم يكذبون، والذي يصدق منهم مرة يكذب مرات، والذي ينزل عليه الشياطين أفاك أثيم.

فالفرق بين الصادق البار الذي يأتيه الملك والكاذب الأثيم الذي يأتيه الشيطان

الرجيم فرق بين يعرف بأدنى معرفة بحال الاثنين ولمّا كان الكاهن الذي يأتيه شيطان قد يخبر ببعض الأمور الغائبة بين سبحانه أن هذا يكون - وإن صدق في بعض الأخبار - كاذباً فاجراً، والذي يأتيه بالكذب، فلا يشتبه بمن لا يكذب ولا يفجر، وهذا مما يبين أن النبي لا يكون إلا باراً معصوماً أن يصّر على ذنب) ا.هـ^(١).

﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١٠).

(الشر لا يجيء في كلام الله وكلام رسوله إضافته وحده إلى الله ولكنه يأتي على أحد ثلاثة أوجه: إما على وجه العموم أو يحذف فاعله كقوله: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أو يضاف إلى فاعله من المخلوقين) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأما حذف الفاعل فمثل قول الجن ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١٠) وقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (١٧) [الفاتحة] ونحو ذلك) ا.هـ^(٣).

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ (١١).

(وقد قال تعالى فيما أخبر عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ (١١) قالوا مذاهب شتى مسلمين ويهود ونصارى وشيعة وسنة.

فأخبر أن منهم الصالحون ومنهم دون الصالحين فيكون: إما مطيعاً في ذلك فيكون مؤمناً وإما عاصياً في ذلك فيكون كافراً ولا ينقسم مؤمن إلى صالح وإلى غير صالح، فإن غير الصالح لا يعتقد صلاحه لترك الطاعات، فالصالح هو القائم بما وجب عليه ودون الصالح لا بد أن يكون عاصياً في بعض ما أمر به وهو قسم غير الكافر فإن الكافر لا يوصف بمثل ذلك وهذا يبين أن فيهم من يترك بعض الواجبات والله أعلم) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقد أخبر الله عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ (١١) أي مذاهب شتى: مسلمون وكفار وأهل سنة وأهل بدعة) ا.هـ^(٥).

(١) الجواب الصحيح (٣٥٣/٥ - ٣٥٧).

(٢) طريق الوصول (١٦٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٩٥/٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٣٧/٤).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٨/١٩).

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨).

(إن مواضع الساجد تسمى مساجد كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) هـ. ١).

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ (١٩).

(ولفظ العبد في القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَشَرٌّ لَّكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فالاستثناء فيه منقطع كما قاله أكثر المفسرين والعلماء وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتُشَوَّنُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ [ص: ١٧] و﴿نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١] ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥] ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف: ٦٥] ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٦] ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] ونحو هذا كثير) هـ. ١ (٢).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (١٠) ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (١١) ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (١٢) ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (١٣).

(وقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (١١) ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (١٢) ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ يقول: لن يجيرني من الله أحد إن عصيته كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥] ﴿لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي ملجأ ألبأ إليه إلا بلاغاً من الله ورسالاته: أي لا يجيرني منه أحد إلا طاعته أن أبلغ ما أرسلت به إليكم فبذلك تحصل الإجارة والأمن وقيل أيضاً: لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً: لا أملك إلا تبليغ ما أرسلت به منه ومثل هذا في القرآن كثير) هـ. ١ (٣).

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً. وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ (١٣).

(وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾، فدل القرآن في غير موضع على أن من أطاع الرسول كان من أهل السعادة، ولم يشترط في ذلك طاعة معصوم آخر.

ومن عصى الرسول كان من أهل الوعيد وإن قدر أنه أطاع من ظن أنه معصوم فالرسول ﷺ هو الذي فرق الله به بين أهل الجنة وأهل النار وبين الأبرار والفجار وبين الحق والباطل وبين الغي والرشاد والهدى والضلال وجعله القسيم الذي قسم الله به عباده إلى شقي وسعيد فمن اتبعه فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقي وليست هذه المرتبة لغيره) ١. هـ (١).

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١٤).

(وهذا يظهر الفرق بين أخبار الأنبياء عن الغيب ما لا سبيل لمخلوق إلى علمه إلا منه كما قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١٤) إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (١٥) لِّيَعْلَمَ أَن قَدِ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْبَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (١٦) فقوله على غيبه هو غيبه الذي اختص به وأما ما يعلمه بعض المخلوقين فهو غيب عمن لم يعلمه وهو شهادة لمن علمه فهذا أيضاً تخبر منه الأنبياء بما لا يمكن الشياطين أن تخبر به كما في إخبار المسيح بقوله: ﴿وَأَتَيْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] فإن الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس وبما يدخرونه لكن الشياطين إنما تتسلط على من لا يذكر اسم الله) ١. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (كذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١٤) إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (١٥) فهذا غيب الرب الذي اختص به مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله) ١. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (كما قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١٤) إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (١٥) لِّيَعْلَمَ أَن قَدِ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْبَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (١٦) فقوله على غيبه هو غيبه الذي اختص به وأما ما يعلمه بعض المخلوقين فهو غيب عمن لم يعلمه وهو شهادة لمن علمه فهذا أيضاً تخبر منه الأنبياء بما لا يمكن الشياطين أن تخبر به كما في إخبار المسيح بقوله: ﴿وَأَتَيْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] فإن الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس وبما يدخرونه لكن الشياطين إنما تتسلط على من لا يذكر اسم الله) ١. هـ (٣).

رَبِّهِمْ وَأَخَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَعَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿١٨﴾ فهو يسلك الوحي من بين يدي الرسول ومن خلفه وهذا في معنى عصمته من الناس فهو المؤيد المعصوم بما يحفظه الله من الإنس والجن حتى يبلغ رسالات ربه كما أمر فلا يكون فيها كذب ولا كتمان) ا.هـ^(١).

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ ﴿١٧﴾.

(وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ ﴿١٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولِي رَّبِّهِمْ ﴿١٨﴾ ومعلوم أن في ذلك مقاصد أخرى من هداية الخلق وقيام الحجة على من بلغهم وغير ذلك) ا.هـ^(٢).

(١) النبوات (٢٢٢).

(٢) الجواب الصحيح (١/٤٣٣ - ٤٣٤).

سورة المزمل

﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾.

(كما أنه لما سماها قياماً في قوله تعالى: ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ دل على وجوب القيام) ١. هـ^(١).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾.

(وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ فقد فسرهُ أهل النقل^(٢) أن المراد به ثقل الحكم؛ ولأن الكلام ليس بذات) ١. هـ^(٣).

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝﴾.

(وقال في سورة المزمل: ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ يَضَعُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زَدَ عَلَيْهِ وَزَيْلَ الْقُرْآنِ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝)، وإذا نسخ الوجوب بقي الاستحباب، قال أحمد وغيره: و - الناشئة - لا تكون إلا بعد نوم، يقال: نشأ، إذا قام) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ عند أكثر العلماء هو إذا قام الرجل بعد نوم ليس هو أول الليل، وهذا هو الصواب؛ لأن النبي ﷺ هكذا كان يصلي، والأحاديث بذلك متواترة عنه كان يقوم بعد النوم لم يكن يقوم بين العشاءين) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (ويناسب هذا قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَرْيَلُ ۝﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ إلى قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا ۝ أي ذهاباً ومجيئاً، وبالليل تكون فارغاً. وناشئة الليل في أصح القولين: إنما تكون بعد

(١) مجموع الفتاوى (٥٥١/٢٢)، القواعد النورانية (٦٣).

(٢) يراجع ابن جرير (١٢٧/٢٩) وغيره. (٣) بيان تليس الجهمية (٥٧٤/١).

(٤) مجموع الفتاوى (٨٧/٢٣). (٥) مجموع الفتاوى (٤٧٤/١٧).

النوم، يقال نشأ إذا قام بعد النوم؛ فإذا قام بعد النوم كانت مواطأة قلبه للسانه أشد لعدم ما يشغل القلب، وزوال أثر حركة النهار بالنوم، وكان قوله (أقوم) ا. هـ^(١).

﴿وَأَذْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ وَتَنَزَّلْ اِلَيْهِ تَبَيُّلاً﴾ (٨).

(لكن هنا يقال: بسم الله؛ فيذكر نفس الاسم الذي هو (ألف سين ميم) وأما في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ﴾؛ فيقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله.

وهذا أيضاً مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى، وقوله في الذبيحة ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اِسْمُ اللّٰهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] كقوله: ﴿اقْرَأْ بِاِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) [العلق] وقوله: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ يَجْرِيهَا وَمُرْسَتْهَا﴾ [هود: ٤١] فقوله: ﴿اقْرَأْ بِاِسْمِ رَبِّكَ﴾ هو قراءة بسم الله في أول السور.

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع، وبين أن هذه الآية تدل على أن القارئ مأمور أن يقرأ بسم الله وأنها ليست كسائر القرآن؛ بل هي تابعة لغيرها، وهنا يقول: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ﴾ (١) كما كتب سليمان وكما جاءت به السنة المتواترة وأجمع المسلمون عليه، فينطق بنفس الاسم الذي هو اسم مسمى، لا يقول بالله الرحمن الرحيم؛ كما في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ﴾ فإنه يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ونحو ذلك وهنا قال: ﴿اقْرَأْ بِاِسْمِ رَبِّكَ﴾ لم يقل: اقرأ اسم ربك وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ﴾ يقتضي أن يذكره بلسانه.

وأما قوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ [آل عمران: ٤١] فقد يتناول ذكر القلب، وقوله: ﴿اقْرَأْ بِاِسْمِ رَبِّكَ﴾ هو كقول الآكل باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبي ﷺ: «ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله» ا. هـ^(٢).

﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (١).

(وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ وَتَنَزَّلْ اِلَيْهِ تَبَيُّلاً﴾ (٨) رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَتَّبِعْنَا مَوْسٰى اَلْكِتٰبَ وَجَعَلْنٰهُ هُدًى لِّبَنِي اِسْرٰءِيْلَ اِلَّا تَتَّخِذُوْا مِنْ دُوْنِیْ وَكِیْلًا﴾ [الإسراء] فأمر أن يتخذ وكيلاً، ونهى أن يتخذ من دونه وكيلاً، لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد والوكالة الجائزة أن يوكل الإنسان في فعل يقدر عليه، فيحصل للموكل بذلك بعض مطلوبه، فأما مطالبه كلها فلا يقدر

عليها إلا الله وذلك الذي يوكله لا يفعل شيئاً إلا بمشيئة الله ﷻ وقدرته فليس له أن يتوكل عليه وإن وكله بل يعتمد على الله في تيسير ما وكله فيه، فلو كان الذي يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره، أو يحصل بلا توكل، لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلاً أنفع من اتخاذ الخالق وكيلاً، وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (والثاني من معنى الربوبية؛ إذ الإله: هو الذي يؤله فيعبد محبة وإثابة وإجلالاً وإكراماً، والرب: هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ [الرعد: ٣٠] وقوله: ﴿وَيَتَنَلَّ إِلَيْهِ رَنِيلاً﴾ (٨) رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة] وقوله: ﴿رَبِّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٩) وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وقد يقال: لفظ (التبتل) لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة) ١. هـ^(٣).

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (١٠).

(إن هجرة الفجار نوعان: هجرة ترك، وهجرة تعزير. أما الأولى فقد دل عليها قوله تعالى: ﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ وقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠]) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (والله تعالى ذكر في القرآن (الهجر الجميل) و(الصبر الجميل))

(٢) مجموع الفتاوى (١/٢٢٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/٢١٦).

(١) جامع الرسائل (١/٨٩).

(٣) جامع الرسائل (٢/٧٧).

وقد قيل: إن (الهجر الجميل) هو هجر بلا أذى، والصفح الجميل صفح بلا معاتبة، والصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق) ا.هـ^(١).

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (١٥)

(لفظ الرسول في الموضعين لفظ واحد مقرون باللام، لكن ينصرف في كل موضع إلى المعروف عند المخاطب في ذلك الموضع، فلما قال هنا: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ كان اللام لتعريف رسول فرعون، وهو موسى بن عمران عليه السلام. ولما قال لامة محمد: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُّهَا بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] كان اللام لتعريف الرسول المعروف عند المخاطبين بالقرآن المأمورين بأمره المتهين بنهيه، وهم أمة محمد ﷺ) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُّهَا بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] ففي الموضعين لفظ الرسول ولام التعريف لكن المعهود المعروف هناك هو رسول فرعون وهو موسى عليه السلام والمعهود هنا عند المخاطبين بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ هو محمد ﷺ، وكلاهما حقيقة والاسم متواطئ وهو مُعَرَّفٌ باللام في الموضعين لكن العهد في أحد الموضعين غير العهد في الموضع الآخر، وهذا أحد الأسباب التي بها يدل اللفظ؛ فإن لام التعريف لا تدل إلا مع معرفة المخاطب بالمعهود المعروف) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ صار معهوداً بتقدم ذكره) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال سبحانه: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ إن اللام هي أوجبت قصر الرسول على موسى، لا نفس لفظ (رسول) ا.هـ^(٥)).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي إِلِيلٍ وَبَصَغُومٌ وَتُلْمِزُ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدِرُ إِلِيلَ وَالتَّهَارَ عَلِمَ أَنَّ لَّنْ تَحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأُوا مَا نَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِيمَ أَنَّ سَبْكُونُ مِنْكُمْ

(٢) مجموع الفتاوى (٤٢٨/٢٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٤٨/٢١).

(١) مجموع الفتاوى (١٨٣/١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٤٩٥/٢٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١٤٤/١١).

تَرْهَقَ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْصَرِفْ مِنْهُ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْرِضُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ تَبَرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦﴾

(وعلى هذا قوله: ﴿فَأَقْرِبُوا مَا يَنْصَرِفُ مِنْهُ﴾ فسر بقراءته بالليل لثلاثين سنة) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (ذكر ذلك في قوله: ﴿فَأَقْرِبُوا مَا يَنْصَرِفُ مِنْ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ تَرْهَقَ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾).

فالصنف الواحد: القراء، وهم جنس العلماء والعباد، ويدخل فيهم من تفرع من هذه الأصناف من المتكلمة والمتصوفة وغيرهم.

والصنف الآخر المكتسب بالضرب في الأرض. وأما المقيمون من أهل الصناعات والتجارات، فيمكن أن يكونوا من القراء المقيمين أيضاً، بخلاف المسافرين فإن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل مثل [ما] كان يعمل وهو صحيح مقيم»^(٢) أخرجاه في الصحيحين عن أبي موسى.

والله سبحانه إنما ذكر هذه الأصناف في الآية ليبين من يسقط عنه قيام الليل من أهل الأعدار، فذكر المريض والمسافر اللذين ذكرا في الحديث، وذكر المسافرين في ضريين: الضاريين في الأرض يبتغون من فضل الله والمقاتلين في سبيل الله وهم التجار [و] الأجناد.

والمقصود هنا أن الأجناس الأربعة من المقاتلة، والتجار، ومن يلحق بهم من الصناع والقراء وأهل الأعدار كالمرضى ونحوهم، كل هؤلاء قد حصل فيهم من الأنواع المختلفة ما يطول وصفه) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وكذلك ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وقد ختم الله (سورة المزمل) وفيها قيام الليل بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كما ختم بذلك (سورة المدثر) بقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّوْحِيدِ﴾).

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/٨٥). (٢) البخاري (٤/٧٠)، وهو من أفراد.

(٣) الاستقامة (١/٣٢٨ - ٣٢٩)، ومجموع الفتاوى (٨/٥٣٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١١/٢٥٤).

وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ [المدثر: ٥٦] فهو سبحانه أهل التقوى ولم يقل سبحانه: أهل للتقوى بل قال: ﴿أَهْلُ التَّقْوَى﴾ فهو وحده أهل أن يتقى، فيعبد دون ما سواه، ولا يستحق غيره أن يتقى كما قال: ﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النحل] وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ يَتَّقِ اللَّهَ وَيَتَّقِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور] وهو أهل المغفرة، ولا يغفر الذنوب غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] (١) هـ.

سورة المدثر

وقال في أسباب نزول السورة:

(قال جابر في حديثه عن النبي ﷺ في فترة الوحي، قال: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: «زملوني» [زملوني]^(١)، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَبَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝﴾ فحمي الوحي وتتابع) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال ابن شهاب الزهري، سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن قال أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: «فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئت حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلي فقلت: زملوني، زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَبَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝﴾ [المدثر].

فهذا يبين أن «المدثر» نزلت بعد تلك الفترة، وأن ذلك كان بعد أن عاين الملك الذي جاءه بحراء أولاً فكان قد رأى الملك مرتين.

وهذا يفسر حديث جابر الذي روي من طريق آخر كما أخرجه من حديث يحيى بن أبي كثير، قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن. قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَبَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝﴾ [العلق] فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك [و] قلت له مثل ما قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي، فلم

الحاجة، وكما صار مميس النساء ومباشرتهن حقيقة في الجماع، فيجب حمل الكلام عليه، ولذلك وجهان:

«أحدهما»: إن اللباس يضاف إليه من الحكم ويقصد به الإضافة إلى الإنسان نفسه للعلم بأن المقصود مَنْ في الثوب لا نفس الثوب، ويجعل ذلك نوعاً من الكناية، كما قال الأنصار للنبي ﷺ: «لنمنعك مما نمنع منه أزرنا»^(١).

«الثاني» أن يراد نفس تطهير الثوب، لكن الطهارة في كتاب الله على قسمين: طهارة حسية من الأعيان النجسة، ومن أسباب الحدث المعلوم. وطهارة عقلية من الأعمال الخبيثة.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] «نزلت في أهل قباء لما كانوا يستنجون من البول والغائط»^(٢)، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَتَّطَهَّرْنَ فَإِذَا ظَهَرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَّطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

والثاني: كقوله سبحانه: ﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَدَيُّوهُمُ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرٌ﴾ [المجادلة: ١٢]، وقوله: ﴿صَدَقَ تَطْهِرُهُمْ وَتَزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا مَالَ لُوطٍ مِنْ قَرَّتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَّطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وفي غير موضع، وقوله ﷺ: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، إلى غير ذلك من الآيات، وإذا كان كذلك فالثوب نفسه يكتسب صفة حقيقة من لابسه إن كان صالحاً أو فاسقاً حتى يظهر ذلك فيه إذا قوي تأثير صاحبه فيه ويظهر ذلك في مواضع الخير ومواضع الشر، ولأجل الارتباط الذي بين اللباس والمقعد وبين صاحبهما أمر بتطهيرهما من النجاسة، وكانت طهارة الخفين طهارة للقدمين واستحب تكريم البقاع والثياب التي عملت فيها الصالحات حتى «أعد سعد رضي الله عنه جبته التي شهد فيها بدرأ كفناً» واستوهب بعض أزواج النبي ﷺ منه بردة لتخذها كفناً.

(١) أحمد (٤/٤٦٢).

(٢) أبو داود (٤٤)، الترمذي (٣٥٧)، أحمد (٣/٣٢٢)، والحدِيث صحيح.

وهذا كثير فالأمر بتطهير عينه من الأنجاس أمر بطهارة صاحبه بالضرورة.

والأشبه والله أعلم: أن الآية تعم نوعي الطهارة وتشمل هذا كله فيكون مأموراً بتطهير الثياب المتضمنة تطهير البدن والنفس من كل ما يستقذر شرعاً من الأعيان والأخلاق والأعمال، لأن تطهيرها أن تجعل طاهرة ومتى اتصل بها وبصاحبها شيء من الأنجاس لم تكن مطهرة على الإطلاق فإنها متى أزيل عنها نجس دون نجس لم تكن قد طهرت حتى يزال عنها كل نجس، بل كل ما أمر الله باجتنابه من الأرجاس وجب التطهير منه وهو داخل في عموم هذا الخطاب (١) هـ.

وفي أسباب نزول السورة قال:

(فإنه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ﴾ بعد أن أنزلت عليه سورة (اقرأ) التي بها نبيء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ﴾ ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ﴾ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ ﴿وَيَا أَيُّهَا فَطَمِرْ﴾ ﴿وَالْجُزْءَ فَأَهْبِزْ﴾ ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرْ﴾ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧] فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالندارة، وختمها بالأمر بالصبر، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر؛ فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر وقال: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِزْهُمْ هَزْجًا جَمِيلًا﴾ [الزمل: ١٠] ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ آلِ عَادٍ﴾ [القلم: ٤٨] ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١٠٥] هـ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ﴾ ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ﴾ هـ (٣).

(وكذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ﴾ ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ﴾ لما أمر بتبليغ ما أنزل إليه من الإنذار وهذا فرض على الكفاية فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل إليه وينذروا كما أنذر) هـ (٣).

﴿وَيَا أَيُّهَا فَطَمِرْ﴾ هـ (٤).

(قال أكثر المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا فَطَمِرْ﴾ أي عملك) هـ (٤).

(١) شرح العمدة - الصلاة (٤٠٤ - ٤٠٧). (٢) مجموع الفتاوى (١٣٦/٢٨ - ١٣٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٢٧/١٦). (٤) مختصر الفتاوى المصرية (١٧٣).

وقال رحمه الله: (إن المراد به إصلاح العمل وتطهير النفس من الرذائل) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (الطهارة تارة تكون من الأعيان النجسة وتارة من الأعمال الخبيثة وتارة من الأحداث المانعة فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَبِأَنَّكَ فَطَرْتَهُ﴾ على أحد الأقوال ومن الثاني قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ [التوبة: ١٠٨] ومن الثالث قوله تعالى: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦] ا.هـ^(٢).

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾.

(قال الإمام أحمد: قد سمي الله رجلاً كافراً اسمه الوليد بن المغيرة المخزومي فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وقد كان الله سماه وحيداً له عينان وأذنان ولسان وشفطان ويدان ورجلان وجوارح كثيرة فقد سماه وحيداً بجميع صفاته) ا.هـ^(٣).

وفي أسباب نزول الآية (١١) قال:

(وعن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه من القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل].

قال: أعد، فأعاد النبي ﷺ فقال: «والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا البشر».

وفي لفظ: إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فاتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: ولم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعوض مما قبله. قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر لها وأنتك كاره له. قال ماذا أقول فو الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. لا ترضى

(١) جامع المسائل (٤/٢٢٥).

(٢) الفتاوى (١/٤).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/٤٦٤) درء تعارض العقل (١/١١٣) منهاج السنة (١/٤١) الفتاوى (التسعينية) (٥/٧٧) وهذا كلام الإمام أحمد.

عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر
يأثره عن غيره فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (١)، رواه عبد الرزاق عن معمر عن
أيوب عن عكرمة^(١) عنه.

وفي رواية أخرى: «أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش وكان ذا سن فيهم
وقد حضر الموسم فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم،
هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد بعضكم قول
بعض، فقالوا: فانت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأياً نقوم به، فقال: بل أنتم فقولوا
وأنا أسمع، فقالوا: نقول: كاهن، فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان، فما هو
بزمزمة الكهان. فقالوا: نقول: مجنون. فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون
وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته قالوا: فنقول شاعر، فقال: ما هو
بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.
قالوا: فنقول: ساحر، قال: فما هو بساحر، قد رأينا السحار وسحرم، فما هو بنفته
ولا عقده فقالوا: ما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن أصله
لغدق وإن فرعه لجنى، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب
القول أن تقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء
وزوجته، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه، فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم،
لا يمر بهم أحداً إلا حذروه إياه، وذكروا له أمره فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة،
وذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (١) إلى قوله: ﴿مُتَّحِلِهِ مَقَرٌّ﴾ (٢) وأنزل في
النفر الذين كانوا معه ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٣) [الحجر] أي أصنافاً) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكان في أئمة الكفر «الوحيد» الذي قال الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ
خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (٢) وَبَيْنَ شُهُودًا (٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ
أَزِيدَ (٥) كَلَّا إِنَّكَ كَأَنَّ لَإِيتِنَا عَيْدًا (٦) سَأَرْهَبُهُمْ صَعُودًا (٧) إِنَّهُمْ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (٨) قَتِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٩) ثُمَّ
قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٠) فاستعمل نظر أهل المنطق من التفكير الذي يطلب به الحد الأوسط، ثم
التقدير الذي هو القياس الذي ينتقل فيه من الحد الأوسط إلى المطلوب وكذب بكون
القرآن كلام الله تعالى وجعله كلام البشر وهذا في الحقيقة قول هؤلاء المفسفة) ا.هـ^(٣).

(١) عبد الرزاق في تفسيره (٣٢٧/٢/٢). (٢) الجواب الصحيح (٣٧٣/٥ - ٣٧٧).

(٣) بيان تليس الجهمية (٣٧٧/١).

﴿سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا﴾ (٧)

(إن الخبر عما كان ويكون لا يدخله نسخ كقوله في أبي لهب: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٣)، وكقوله في الوليد: ﴿سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا﴾ (٧) ا.هـ (١).

﴿إِنَّهُ فَعَّرَ وَقَدَّرَ﴾ (٨) ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (٩) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (١٠) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (١١) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (١٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (١٣) ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (١٤) ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (١٥).

(وكان الوحيد من ذوي الرأي والقياس والتدبير من العرب، وهو معدود من حكمائهم وفلاسفتهم.

ولهذا أخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة في قوله: ﴿إِنَّهُ فَعَّرَ وَقَدَّرَ﴾ (٨) ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (٩) ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (١٠) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (١١) ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (١٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (١٣) ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (١٤) ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (١٥) ا.هـ (٢).

(وهؤلاء الذين يقولون عن القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (١٥) فإن «الوحيد» الذي هو الوليد بن المغيرة من جنسهم كان من المشركين الذين هم صابئون أيضاً) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقد توعد الله تعالى من قال: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (١٥) فمن قال: «إن هذا القرآن قول البشر» فقد كفر وقال بقول الوحيد الذي أوعده الله سقر ومن قال: «إن شيئاً منه قول البشر» فقد قال ببعض قوله، ومن قال: «إنه ليس بقول رسول كريم وإنما هو قول شاعر أو مجنون أو مفتر»، أو قال: «هو قول شيطان نزل به عليه» ونحو ذلك فهو أيضاً كافر ملعون) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (ولا ريب أنه لم يرد بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (١٥) كما أراده الله بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٦) [الحاقة] فإنه لو أراد أن البشر بلغوه عن غيرهم كما يتعلمه الناس بعضهم من بعض لم يكن هذا باطلاً وإنما أراد أن البشر أحدثوه وأنشئوه عنه) ا.هـ (٥).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (١٧) وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا

- (١) مجموع الفتاوى (٣٢٦/٤).
 (٢) مجموع الفتاوى (٢٠/١٢).
 (٣) درء تعارض العقل (٢٥٨/١).
 (٤) مجموع الفتاوى (٥٤٣/٦).
 (٥)

مَمْدُونًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَعْدَتْ لَهُمْ تَهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّكُمْ كُنَّ لَابْنِيَا عَيْدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْفَعُهُمْ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّكُمْ فَكَّرْ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٢﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا صِغْرٌ يَوْمُرَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٤﴾ فَمَنْ قَالَ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَوْلُ الْبَشَرِ كَانَ قَوْلُهُ مُضَاهِيًا لقَوْلِ الْوَحِيدِ الَّذِي أَصْلَاهُ اللَّهُ سَقَرَ ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: (بل قد كفر من قال إنه «قول البشر» في قوله: ﴿ذَرِّبْنَا وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا﴾ ﴿١٢﴾ وَجَعَلْتَ لَهُمْ مَالًا مَمْدُونًا ﴿١٣﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٤﴾ وَمَعْدَتْ لَهُمْ تَهِيدًا ﴿١٥﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ ﴿١٦﴾ كَلَّا إِنَّكُمْ كُنَّ لَابْنِيَا عَيْدًا ﴿١٧﴾ سَأَرْفَعُهُمْ صَعُودًا ﴿١٨﴾ إِنَّكُمْ فَكَّرْ وَقَدَّرَ ﴿١٩﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا صِغْرٌ يَوْمُرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُضْلِيهِمْ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ والكلام الذي توعد بسقر من قال إنه «قول البشر» هو الكلام الذي أضافه إلى رسول من البشر تارة، وإلى رسول من الملائكة تارة ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله وعابه وأوعده عذابه وتوعده حيث قال: ﴿سَأُضْلِيهِمْ سَقَرَ﴾ ﴿٢٦﴾ فلما أوعد الله سقر لمن قال: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ﴿٢٥﴾ علمنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر) ا.هـ (٣).

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْكِتَابِ وَرِزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا ابْنًا وَلَا يَرْثَ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْكِتَابِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ ﴿٢٦﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فهذا التأويل لهذا المتشابه لا يعلمه إلا هو، وإن علمنا تفسيره ومعناه، لكن لم نعلم تأويله الواقع في الخارج) ا.هـ (٤).

وقال رحمه الله: (وذكر عن المروزي قال قلت لأبي عبد الله: رجل يقول إن الله أجبر العباد، فقال: هكذا لا تقول وأنكر ذلك، وقال: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ﴾

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٢٥٩).

(٢) الرد على المنطقيين (٥٤١ - ٥٤٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/٥٠٧). وهو كلام الطحاوي.

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/٣٧٨).

وذكر عن المروزي أن رجلاً قال إن الله لم يجبر العباد على المعاصي فرد عليه آخر فقال إن الله جبر العباد، أراد بذلك إثبات القدر، فسألوا عن ذلك أحمد بن حنبل فأنكر عليهما جميعاً على الذي قال جبر، وعلى الذي قال لم يجبر حتى تاب، وأمر أن يقال: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١) هـ.

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (١٢) قَالُوا لَوْ نَكُنَّا مِنَ الْمُصَلِّينَ (١٣) وَلَوْ نَكُنَّا نَقُومُ السَّجْدَ (١٤) وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَافِضِينَ (١٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (١٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (١٧) ﴿١﴾

(وذلك مثل قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (١٢) قَالُوا لَوْ نَكُنَّا مِنَ الْمُصَلِّينَ (١٣) وَلَوْ نَكُنَّا نَقُومُ السَّجْدَ (١٤) وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَافِضِينَ (١٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (١٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (١٧) ﴿١﴾ فهذا قالوه وهم في جهنم وأخبروا أنهم كانوا على ما هم عليه من ترك الصلاة والزكاة والتكذيب بالآخرة والخوض مع الخائضين حتى أتاهم اليقين ومعلوم أنهم مع هذا الحال لم يكونوا مؤمنين بذلك في الدنيا ولم يكونوا مع الذين قال الله فيهم: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] وإنما أراد بذلك أنه أتاهم ما يوعدون وهو اليقين (٢) هـ.

﴿قَالُوا لَوْ نَكُنَّا مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (١٣) ﴿٢﴾

(وقال أحمد في رواية عبد الله: معنى قوله: ﴿لَوْ نَكُنَّا مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ يعني من الموحدين) (٣) هـ.

﴿وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَافِضِينَ﴾ (١٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (١٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (١٧) فَمَا نَعْمُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ (١٨) ﴿٣﴾

(قال تعالى عن أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَافِضِينَ﴾ (١٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (١٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (١٧) فَمَا نَعْمُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ (١٨) ﴿٣﴾، قال الحسن البصري: إن الله لم يجعل لعباده المؤمنين أجلاً دون الموت (٤) وتلا هذه الآية (٥) هـ.

﴿كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥٠) ﴿٤﴾

(كالمشركين الذين كانوا ﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (٤٩) كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) قَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) ﴿٥﴾ ولهذا يوجد في هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع كما تنفر

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٠٣ - ١٠٤). (٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٤١٨ - ٤١٩).

(٣) المسودة (٤٦). (٤) مر الكلام عليه آنفاً.

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٢ - ٥٠٣).

الحرر المستنفرة التي تفر من الرماة ومن الأسد ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: ﴿قَسَرَ﴾ الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد) ا. هـ^(٢).

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ﴾ ﴿٥٦﴾.

(يقال إنه ﴿أَهْلُ النَّقْوَى﴾ أي المستحق لأن يتقى) ا. هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٢٢٤/١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٣٠/١٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٣١٧/١٦ - ٣١٨).

سورة القيامة

وقال في عموم السورة:

(وفي سورة القيامة: ذكر أيضاً القيامتين فقال: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ❶ ثم قال: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَلَامَةِ﴾ ❷ [القيامة] وهي نفس الإنسان.

وقد قيل: إن النفس تكون لوامة وغير لوامة، وليس كذلك. بل نفس كل إنسان لوامة فإنه ليس بشعر إلا يلوم نفسه ويندم إما في الدنيا وإما في الآخرة فهذا إثبات النفس. ثم ذكر معاد البدن فقال: ﴿يُحَسَّبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ ❸ بَلَّ قَدِيرِينَ عَلَّ أَنْ سُوَّىٰ بَنَانَهُ ❹ بَلَّ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرُ أَمَانَهُ ❺ يُنْزَلُ أَكَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ❻ [القيامة] ووصف حال القيامة إلى قوله: ﴿تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ ❼ [القيامة].

ثم ذكر الموت فقال: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ ❽ [القيامة]، وهذا إثبات للنفس وأنها تبلغ التراقي كما قال هناك: ﴿بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] والتراقي متصلة بالحلقوم.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ ❾ [القيامة] يرقبها وقيل: من صاعد يصعد بها إلى الله؟ والأول أظهر؛ لأن هذا قبل الموت، فإنه قال: ﴿وَوَظَنَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ ❿ [القيامة] فدل على أنهم يرجونه ويطلبون له راقياً يرقيه، وأيضاً فصعودها لا يقتصر إلى طلب من يرقى بها، فإن لله ملائكة يفعلون ما يؤمرون، والرقية أعظم الأدوية فإنها دواء روحاني؛ ولهذا قال النبي ﷺ في صفة المتوكلين: «لا يسترقون»^(١) والمراد أنه يخاف الموت ويرجو الحياة بالراقي؛ ولهذا قال: ﴿وَوَظَنَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ ❿.

ثم قال: ﴿وَالنَّفْسُ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ ⓫ إِنْ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ كَسَافٌ ⓬ [القيامة] فدل على نفس موجودة قائمة بنفسها تساق إلى ربها والعرض القائم بغيره لا يساق، ولا بدن الميت، فهذا نص في إثبات نفس تفارق البدن تساق إلى ربها، كما نطق بذلك الأحاديث المستفيضة في قبض روح المؤمن وروح الكافر.

(١) أي حديث المتفق عليه: «يدخل من أمتي سبعين ألف بغير حساب» حديث عكاشة بن محسن.

ثم ذكر بعد هذا صفة الكافر بقوله مع هذا الوعيد الذي قدمه: ﴿فَلَا صَلَاقَ وَلَا صَلَٰنَ﴾ [القيامة] وليس المراد أن كل نفس من هذه النفوس كذلك) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة] ثم قال: ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ [القيامة] فجمع عظامه هو في القيامة الكبرى - إلى قوله - ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ أَجْلَهَا وَقِيلَ لَهُم مَّا رَأَوْنَاهُمْ إِلَّا أَلْهَامًا مِّن رَّبِّهِمْ أَلَمْ يَكُن لَّهُمْ بَرَاءةً يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القيامة] فبين ما يقول عند الموت - إلى قوله - ﴿يَكْتَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة] فاستدل سبحانه بقدرته على الخلق الأول على قدرته على إحياء الموتى، وذلك في القرآن كذلك) ا.هـ^(٢).

﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾.

(ويقال النفوس ثلاثة أنواع:

(وهي النفس الأمانة بالسوء) التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي.

(والنفس اللوامة) وهي التي تذنّب وتتوب، فعنها خير وشر، لكن إذا فعلت الشر تابت وأنابت فتسمى لوامة لأنها تلوم صاحبها على الذنوب، ولأنها تتلوم أي تتردد بين الخير والشر.

(والنفس المطمئنة) وهي التي تحب الخير والحسنات وتريده وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك وقد صار ذلك لها خلقاً وعادة وملكة فهذه صفات وأحوال لذات واحدة، وإلا فالنفس التي لكل إنسان هي نفس واحدة، وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه) ا.هـ^(٣).

﴿يَكْتَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿يَكْتَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة] بَلْ قَدَرِينَ عَلَّٰمَ أَن سُوءَ بَأْسِهِمْ فَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يَشَاوُهُ) ا.هـ^(٤).

﴿لَا تُخْرِكْ يَدَيْهِ لِسَانُكَ لِنَعْمَلْ بِهِ﴾.

(وفي الصحيحين^(٥) عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥). (٢) مختصر الفتاوى المصرية (١٨٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٤). (٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٨٩).

(٥) البخاري (٨/ ٦٨٠ - الفتح)، ومسلم (١/ ٣٣٠، ٣٣١).

وكان يحرك شفّتيه فقال ابن عباس: أنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما. وقال سعيد بن جبير: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما فحرك شفّتيه فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجَعلَ بِهِ﴾ (١١) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٢) قال: جمعه لك في صدرك وتقرأه: ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْبَحْ قُرْآنَهُ﴾ (١٣) [القيامة] فإذا قرأه رسولنا وفي لفظ: فإذا قرأه جبريل فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا نِجَانَهُ﴾ (١٤) [القيامة] أي نقرؤه فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه» (١) هـ. ١.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٥) ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْبَحْ قُرْآنَهُ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا نِجَانَهُ﴾ (١٧).

(وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٥) ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْبَحْ قُرْآنَهُ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا نِجَانَهُ﴾ (١٧) هو كقوله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص: ٢٣] (٢) هـ. ١.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٨).

(والقاري: هو الذي يظهر القرآن ويخرجه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٩) ففرق بين الجمع والقرآن) هـ. ١ (٣).

وقال رحمه الله: (وهذا كـ[القرآن] قد يراد به المصدر وقد يراد به الكلام المقروء وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٢٠) ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْبَحْ قُرْآنَهُ﴾ (٢١) والقرآن هنا مصدر كما في الآية عن ابن عباس قال: علينا أن نجمله في صدرك ثم أن تقرأه بلسانك فإذا قرأه جبريل فاستمع لقراءته ثم إن علينا أن نبينه.

وقد يراد بـ[القرآن] نفس الكلام المقروء كما قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقَوْمٌ﴾ [الإسراء: ٩] وقال تعالى: ﴿لَوْ أَرْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] ونظائره كثيرة) هـ. ١ (٤).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْبَحْ قُرْآنَهُ﴾ (٢٢) هو قراءة جبريل له عليه والله قرأه بواسطة جبريل كما قال: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِلَاذِنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] فهو مكلم لمحمد بلسان جبريل وإرساله إليه وهذا ثابت للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿قَدْ

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٢٩٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١٢/١٩٨).

(١) مجموع الفتاوى (١٢/١٠١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٧٨).

تَبَاً اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ» [التوبة: ٩٤] وإنباء الله لهم إنما كان بواسطة محمد إليهم) ا.هـ^(١).
وقال رحمه الله: ﴿عَلَيْنَا جَمْعُهُمْ وَقُرْآنُهُمْ﴾ و﴿عَلَيْنَا بَيَانُهُمْ﴾ فalcراءة هنا حين يسمعه من
جبريل والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن) ا.هـ^(٢).

﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْفَحَ قُرْآنَهُ﴾

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْفَحَ قُرْآنَهُ﴾ وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: إن
علينا أن نجمعه في قلبك ثم أن تقرأه بلسانك، فإذا قرأه جبريل فاستمع له حتى
يفرغ) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ﴾ قال ابن عباس أي قراءة جبريل ﴿فَأَلْفَحَ قُرْآنَهُ﴾
فاستمع له حتى يقضي قراءته) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ﴾ و﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ﴾ و﴿عَلَيْنَا بَيَانَهُمْ﴾ فالقرآن
هنا حين يسمعه من جبريل والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن) ا.هـ^(٥).

﴿وَجُوهٌ يُؤْمِنُ نَاصِرَةٌ﴾

وقال رحمه الله: (لا سيما وقد جاء في حديث ابن عمر الذي رواه الترمذي عن
إسرائيل عن ثوير بن أبي فاختة سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى
أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة
وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشياً - ثم قرأ رسول الله ﷺ: - ﴿وَجُوهٌ
يُؤْمِنُ نَاصِرَةٌ﴾ إِنْ رَجَعَا نَاصِرَةٌ﴾» ا.هـ^(٦).

قال الترمذي: وقد روي هذا الحديث من غير وجه إسرائيل عن ثوير عن ابن عمر
مرفوعاً ورواه عبد الملك بن أبجر عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر موقوفاً ورواه
عبيد الله الأشجعي عن سفيان عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قوله: ولم يرفعه وقال
الترمذي: لا نعلم أحداً ذكر فيه مجاهداً غير ثوير وأظنه قد قيل: في قوله: ﴿وَلَمْ يَرْفُهِمْ
فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] إن منه النظر إلى الله.

(١) مجموع الفتاوى (٥/٢٣٥).

(٢) منهاج السنة (٥/٣٨١).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٢٣٣).

(٤) الترمذي (٤/٦٨٨) وأحمد (٥٣١٧) والسنة لعبد الله بن أحمد (١/٢٥١ - ٢٥٢) والمستدرک

(٥/٥٠٩) والحديث ضعيف.

وروي في ذلك حديث مرفوع رواه الدارقطني في الرؤية: حدثنا أبو عبيد قاسم بن إسماعيل الضبي حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق البصري، حدثنا هاني بن يحيى، حدثنا صالح المصري عن عباد المنقري عن ميمون بن سياه عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ أقرأه هذه الآية: ﴿وَجُودَ يُؤْمِرُ نَاصِرَةٌ ۖ إِلَٰهَ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (١٣) قال: والله ما نسخها منذ أنزلها يزورون ربهم تبارك وتعالى فيطعمون ويسقون، ويطيّبون ويحملون، ويرفع الحجاب بينه وبينهم، فينظرون إليه وينظر إليهم ﷺ، وذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَرْفُفْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي هذا الحديث في (الموضوعات) (١) وقال: هذا لا يصح، فيه ميمون بن سياه، قال ابن حبان: ينفرد بالمناكير عن المشاهير، لا يحتج به إذا انفرد، وفيه صالح المصري، قال النسائي: متروك الحديث (٢) هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وروي اللالكائي (٣) عن ابن وهب قال: سمعت مالك بن أنس يقول: الناظرون ينظرون إلى الله ﷻ يوم القيامة بأعينهم، وعن أشهب قال: وسئل مالك عن قوله تعالى: ﴿وَجُودَ يُؤْمِرُ نَاصِرَةٌ ۖ إِلَٰهَ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (١٣) أينظر الله ﷻ؟ قال: نعم فقلت: إن أقواماً يقولون: ينظر ما عنده قال: بل ينظر إليه نظراً، وقد قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَنْ تَرَنِي ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال الله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِيزُ لَمَحْجُورُونَ﴾ (١٥) [المطففين: ٤] وعن مالك أنه قيل له: إنهم يزعمون أن الله لا يرى فقال: السيف، السيف (٥).

وقد تقدم كلام ابن الماجشون (٦)، واحتجاه أيضاً على الرؤية بحجابه عن الكفار وعن الأوزاعي أنه قال: إني لأرجو أن يحجب الله جهماً وأصحابه أفضل ثوابه الذي وعده أوليائه، حيث يقول: ﴿وَجُودَ يُؤْمِرُ نَاصِرَةٌ ۖ إِلَٰهَ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (١٣) فجحد جهم وأصحابه أفضل ثوابه الذي وعد أوليائه (٧)، وعن الوليد بن مسلم (٨) قال: سألت الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي فيها

(١) الموضوعات لابن الجوزي (٣/٢٦٠). (٢) مجموع الفتاوى (٦/٤٢٤ - ٤٢٥).

(٣) اللالكائي رقم (٨٧٠)، الآجري في الشريعة (٢٥٤).

(٤) اللالكائي رقم (٨٧١). (٥) اللالكائي رقم (٨٠٨، ٨٧٢).

(٦) اللالكائي (٨٧٣). (٧) اللالكائي (٨٧٤).

(٨) في المطبوع (أبي الوليد مسلم) والتصحيح من اللالكائي.

الرؤية فقال: أمروها بلا كيف^(١)، وعن الربيع قال: حضرت الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُونَ﴾^(٢) [المطففين] قال الشافعي: فلما أن حجب هؤلاء في السخط كان هذا دليلاً عن أنهم يرونه في الرضى، قال الربيع: قلت: يا أبا عبد الله وبه تقول، قال نعم، وبه أدين الله لو لم يؤمن محمد بن إدریس أنه يرى الله لما عبد الله^(٣) وعن عبد الله بن المبارك قال: ما حجب الله عنه أحداً إلا عذبه ثم قرأ: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُونَ﴾^(٤) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ^(٥) ثُمَّ بَقَا هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ فَكَذِبُونَ^(٦) [المطففين] قال بالرؤية) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك ما دل من الكتاب على (الرؤية) كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾^(٧) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ^(٨) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ كَاسِرَةٌ^(٩) تَنُكَّرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَافِرَةٌ^(١٠) هو تقسيم لجنس الإنسان المذكور في قوله: ﴿يَبْنِيهِ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾^(١١) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ^(١٢) [القيامة] وظاهر انقسام الوجوه إلى هذين النوعين، كما أن قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾^(١٣) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ^(١٤) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ^(١٥) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ^(١٦) [عبس] أيضاً إلى هذين النوعين، فمن لم يكن من الوجوه الباسرة كان من الوجوه الناضرة الناطرة؛ كيف وقد ثبت في الحديث أن النساء يزددن حسناً وجمالاً كما يزداد الرجال في مواقيت النظر؟) ١. هـ^(٤).

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾^(١٧).

(قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾^(١٨) وكل من لم يصدق لم يصل) ١. هـ^(٥).

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾^(١٩) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَكَّلَ^(٢٠).

(وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾^(٢١) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَكَّلَ^(٢٢) وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾^(٢٣) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ^(٢٤) وَلَمْ نَكُ نَقُومِ الْمَسْكِينَ^(٢٥) وَكُنَّا نَحْمُسُّ مَعَ الْخَافِضِينَ^(٢٦) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ^(٢٧) حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ^(٢٨) [المدثر] فوصفه بترك الصلاة، كما وصفه بترك التصديق، ووصفه بالتكذيب والتولي، و(المتولي) هو العاصي الممتنع من الطاعة كما قال تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمٍ أَولَىٰ بِأَنِسٍ شَدِيدٍ لِّغَتِلُونَهُمْ أَوْ

(١) اللالكائي (٨٧٥).

(٢) اللالكائي (٨٨٣) وفيه لم يوقن بطل (لم يؤمن).

(٣) بيان تلبس الجهمية (٤١٥/٢ - ٤١٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٣٧/٦).

(٥) درء تعارض العقل (٢٦٦/٥).

يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِعُوا يُؤَيِّدُكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿الفتح: ١٦﴾ ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال عن جنس الكافر: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ **﴿٣٨﴾** ولكن كَذَبَ وَقَوْلُ **﴿٣٩﴾** فالتكذيب للخبر، والتولي عن الأمر) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وضد التصديق التكذيب، وضد الطاعة التولي، فلهذا قال: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ **﴿٣٨﴾** ولكن كَذَبَ وَقَوْلُ **﴿٣٩﴾**) ا. هـ^(٣).

﴿٤٠﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى **﴿٤١﴾**.

(وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ **﴿٤١﴾** قال المفسرون وأهل اللغة^(٤): السدى المهمل الذي لا يؤمر ولا ينهى؛ كالذي يترك الإبل سدى مهملة) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ **﴿٤١﴾** أي مهملًا لا يؤمر ولا ينهى. وهذا استفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب) ا. هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (وهذا كقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ **﴿٤١﴾** لا يؤمر ولا ينهى. أي أيظن أن هذا يكون؟ هذا ما لا يكون ألبتة. بل لا بد أن يؤمر وينهى) ا. هـ^(٧).

﴿٤٢﴾ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ نَفْثَةِ مَيْنٍ يَمْنَى **﴿٤٣﴾** ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَلَقٍ مَسْئَى **﴿٤٤﴾** جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى **﴿٤٥﴾** أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْمَوْتَ **﴿٤٦﴾**.

(وقد قال في سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُنْ مِنْ نَفْثَةِ مَيْنٍ يَمْنَى﴾ **﴿٤٣﴾** ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَلَقٍ مَسْئَى **﴿٤٤﴾** جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى **﴿٤٥﴾** أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْمَوْتَ **﴿٤٦﴾** فهنا ذكر هذا على إمكان النشأة الثانية التي تكون من التراب. ولهذا قال في موضع آخر: ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ﴾ **﴿٤٧﴾** إِنَّ كُنُتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ **﴿٤٨﴾** [الحج: ٥] ففي القيامة استدلل بخلقه من نطفة فإنه معلوم لجميع الخلق، وفي الحج ذكر خلقه من تراب، فإنه قد علم بالأدلة القطعية. وذكر أول الخلق أدل على إمكان الإعادة) ا. هـ^(٨).

- | | |
|---|-----------------------------------|
| (١) مجموع الفتاوى (٦١٢/٧ - ٦١٣). | (٢) مجموع الفتاوى (٥٩/٧). |
| (٣) مجموع الفتاوى (١٤٢/٧). | (٤) راجع زاد المسير (٤٢٥/٨). |
| (٥) مجموع الفتاوى (٥٢/٨)، (٢٥٨/١١)، (١٧٤/١٧). | (٦) مجموع الفتاوى (٢٩٩/١٦). |
| (٧) مجموع الفتاوى (٤٩٥/١٦). | (٨) مجموع الفتاوى (٢٦١/١٦ - ٢٦٢). |

سورة الإنسان

وقال في نزول هذه السورة راداً على الرافضة:

(وأما سورة: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإنسان: ١] فمن قال إنها نزلت فيه وفي فاطمة وابنيهما فهذا كذب^(١)؛ لأنها مكية والحسن والحسين إنما ولدا في المدينة، وبتقدير صحته فليس فيه أنه من أطعم مسكيناً ويَتِيماً وأسيراً أفضل الصحابة، بل الآية عامة مشتركة فيمن فعل هذا، وتدل على استحقاقه للشواب على هذا العمل مع أن غيره من الأعمال من الإيمان بالله والصلاة في وقتها والجهد أفضل منه) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال الرافضي «البرهان الحادي والعشرون: سورة «هل أتى».

في تفسير الثعلبي من طرق مختلفة قال: مرض الحسن والحسين، فعادهما جدهما رسول الله ﷺ وعامة العرب، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك. فنذر صوم ثلاثة أيام، وكذا نذرت أمهما فاطمة وجاريتهم فضة، فبرثا، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير، فاستقرض عليّ ثلاثة أصع من شعير، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته، وخبزت منه خمسة أقراص، لكل واحد منهم قرصاً، وصلى عليّ مع النبي ﷺ المغرب، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه، إذ أتاهم مسكين، فقال: السلام عليكم أهل بيت

(١) حديث هل أتى وتزولها ذكره الثعلبي في تفسيره المخطوط؛ كما في الفتح السماوي رقم (٩٧٢) وله طريقان: الأولى فيها القاسم بن مهران (ويقال ابن بهرام) كُذِبَ وذكره الحافظ في اللسان (٤٥٨/٤ - ٤٥٩) (١١٨/٧) وعزا له هذا الحديث، والمجروحين لابن حبان (٢/٢١٤).

والطريق الثاني فيه الكلبي وصالح باذام، والكلبي متهم وصالح ضعيف. ومن طريق الثعلبي نقله الخطيب الخوارزمي في المناقب (٩٧٢)، وله طريق أخرى مرسلّة عن طاووس، رواها المغازلي في مناقب علي رقم (٣٢٠) وفي سندها محمد بن مروان السدي وهو كذاب وليث بن أبي سليم ضعيف، والحديث حكم بوضعه الذهبي، وابن حجر، والسيوطي، والمنائي والشوكاني وغيرهم والله تعالى أعلم.

وللحكيم الترمذي في كتابه «نوادير الأصول» (ص ٦٥) كلام جميل في نقده.

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٤١٩).

محمّد ﷺ، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فسمعه عليّ، فأمر بإعطائه، فأعطوه الطعام، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح.

فلما كان اليوم الثاني قامت فاطمة فخبزت صاعاً، وصلى علي مع النبي ﷺ ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه، فأتاها يتيماً، فوقف بالباب، وقال: السلام عليكم أهل بيت محمّد ﷺ، يتيماً من أولاد المهاجرين استشهد والذي يوم العقبة، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فسمعه عليّ، فأمر بإعطائه، فأعطوه الطعام، ومكثوا يومين وليتين لم يذوقوا إلا الماء القراح.

فلما كان اليوم الثالث قامت فاطمة إلى الصاع الثالث، فطحنته وخبزته، وصلى علي مع النبي ﷺ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه، إذ أتى أسير فقال: أتأسروننا وتشردوننا ولا تطعموننا، أطعموني فإني أسير محمّد أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه عليّ، فأمر بإعطائه، فأعطوه الطعام، ومكثوا ثلاثة أيام بلياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح.

فلما كان اليوم الرابع، وقد وقوا نذورهم، أخذ علي الحسن بيده اليمنى، والحسين بيده اليسرى، وأقبل على رسول الله ﷺ، وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، فلما بصرهما النبي ﷺ قال: يا أبا الحسن ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم، انطلق بنا إلى منزل ابنتي فاطمة، فانطلقوا إليها، وهي في حجرتها، قد لصق بطنها ظهراً من شدة الجوع، وغارت عيناها، فلما رآها النبي ﷺ قال: واغوثاه، بالله أهل بيت محمّد يموتون جوعاً! فهبط جبريل على محمّد ﷺ، فقال: يا محمّد خذ ما هنّاك الله في أهل بيتك، فقال ما أخذ يا جبريل؟ فأقرأه: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ﴾ [الإنسان: ١].

وهي تدل على فضائل جمة لم يسبقه إليها أحد، ولا يلحقه أحد، فيكون أفضل من غيره، فيكون هو الإمام.

والجواب من وجوه: أحدها: المطالبة بصحة النقل، كما تقدم. ومجرد رواية الثعلبي والواحدي وأمثالهما لا تدل على أنه صحيح باتفاق أهل السنة والشيعة. ولو تنازع اثنان في مسألة من مسائل الأحكام والفضائل، واحتج أحدهما بحديث لم يذكر ما يدل على صحته، إلا رواية الواحد من هؤلاء له في تفسيره، لم يكن ذلك دليلاً على صحته، ولا حجة على منازعه باتفاق العلماء.

وهؤلاء من عاداتهم يروون ما رواه غيرهم، وكثير من ذلك لا يعرفون هل هو صحيح أم ضعيف، ويروون من الأحاديث الإسرائيلية ما يعلم غيرهم أنه باطل في نفس الأمر، لأن وصفهم النقل لما نُقل، أو حكاية أقوال الناس، وإن كان كثير من هذا وهذا باطلاً، وربما تكلموا على صحة بعض المنقولات وضعفها، ولكن لا يتردون هذا ولا يلتزمونه.

الثاني: أن هذا الحديث من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، الذي هم أئمة هذا الشأن وحكامه. وقول هؤلاء هو المنقول في هذا الباب، ولهذا لم يرو هذا الحديث في شيء من الكتب التي يُرجع إليها في النقل، لا في الصحاح، ولا في المسانيد، ولا في الجوامع، ولا السنن، ولا رواه المصنفون في الفضائل، وإن كانوا قد يتسامحون في رواية أحاديث ضعيفة، كالتسائي فإنه صَنَّفَ خصائص عليّ، وذكر فيها عدة أحاديث ضعيفة، ولم يرو هذا وأمثاله.

وكذلك أبو نُعيم في «الخصائص»، وخيثمة بن سليمان، والترمذي في «جامعه» روى أحاديث كثيرة في فضائل عليّ، كثير منها ضعيف، ولم يرو مثل هذا لظهور كذبه.

وأصحاب السير، كابن إسحاق وغيره، يذكرون من فضائله أشياء ضعيفة، ولم يذكروا مثل هذا، ولا رَوَوْا مما قلنا فيه: إنه موضوع باتفاق أهل النقل، من أئمة أهل التفسير، الذين ينقلونها بالأسانيد المعروفة، كتفسير ابن جريج، وسعيد بن أبي عروبة، وعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأحمد، وإسحاق، وتفسير بقي بن مخلد، وابن جرير الطبري، ومحمد بن أسلم الطوسي، وابن أبي حاتم، وأبي بكر بن المنذر، وغيرهم من العلماء الأكابر، الذي لهم في الإسلام لسان صدق، وتفسيرهم متضمنة للمنقولات التي يعتمد عليها في التفسير.

الوجه الثالث: أن الدلائل على كذب هذا كثيرة. منها: أن عليّاً إنما تزوج فاطمة بالمدينة، ولم يدخل بها إلا بعد غزوة بدر، كما ثبت ذلك في الصحيح. والحسين وُلِدَا بعد ذلك، سنة ثلاث أو أربع. والناس متفقون على أن عليّاً لم يتزوج فاطمة إلا بالمدينة ولم يولد له ولد إلا بالمدينة. وهذا من العلم العام المتواتر، الذي يعرفه كل من عنده طرف من العلم بمثل هذه الأمور.

وسورة ﴿هَلْ أَتَى﴾ [الإنسان: ١] مكية باتفاق أهل التفسير والنقل، لم يقل أحد

منهم: إنها مدنية. وهي على طريقة السور المكية في تقرير أصول الدين المشتركة بين الأنبياء، كالإيمان بالله واليوم الآخر، وذكر الخلق والبعث. ولهذا قيل: إنه كان النبي ﷺ يقرؤها مع: ألم تنزل (١) هـ.

وقال رحمه الله حاكياً قول الرافضي: (ثم لو أنفق لوجب أن ينزل فيه قرآن، كما أنزل في علي: ﴿هَلْ أَتَى﴾ [الإنسان: ١] (٢).

والجواب: أما نزول: ﴿هَلْ أَتَى﴾ في علي، فمما اتفق أهل العلم بالحديث على أنه كذب موضوع، وإنما يذكره من المفسرين من جرت عادته بذكر أشياء من الموضوعات. والدليل الظاهر على أنه كذب: أن سورة ﴿هَلْ أَتَى﴾ مكية باتفاق الناس، نزلت قبل الهجرة، وقبل أن يتزوج علي بفاطمة، ويولد الحسن والحسين، وقد بسط الكلام على هذه القضية في غير موضع، ولم ينزل قط قرآن في إنفاق علي بخصوصه لأنه لم يكن له مال، بل كان قبل الهجرة في عيال النبي ﷺ وبعد الهجرة كان أحياناً يؤجر نفسه: كل دلو بتمرة، ولما تزوج بفاطمة لم يكن له مهر إلا درعه، وإنما أنفق على العرس ما حصل له من غزوة بدر.

وفي الصحيحين (٣) عن علي رضي الله عنه قال: كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وأعطاني رسول الله ﷺ شارقاً من الخمس، فلما أردت أن ابنتي بفاطمة وأعدت رجلاً صواغاً من بني قينقاع يرتحل معي، فنأتي بإذخر أردت أن أبيع به من الصواغين، فاستعين به في وليمة عرس، فبينما أنا أجمع لشارفي متاعاً من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاي مناخان إلى جانب بيت رجل من الأنصار قال: وحمزة يشرب في ذلك البيت، وقينة تغنيه، فقالت:

ألا يا حمزُ للشرف النواء

فثار إليها حمزة فاجتبأ ستمتها، وبقر خواصرها، وذكر الحديث، في البخاري، وذلك قبل تحريم الخمر.

وأما الصديق رضي الله عنه فكل آية نزلت في مدح المنفقين في سبيل الله فهو أول المرادين بها من الأمة، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مَنكَرٌ مِّنْ أَنتَقَىٰ مِنَ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٌ

(١) منهاج السنة (٧/ ١٧٧ - ١٧٩).

(٢) هذا كلام الرافضي اللعين ابن المطهر في تنقصه من الصديق رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٤/ ٧٨ - ٧٩) مسلم (٣/ ١٥٦٨ - ١٥٧٠).

أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتِنَا ﴿١٠﴾ [الحديد: ١٠] وأبو بكر أفضل هؤلاء وأولهم.

وكذلك قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٢٠] وقوله: ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآلَتَى﴾ (١٧) ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (١٨) [الليل] فذكر المفسرون مثل ابن جرير الطبري، وعبد الرحمن بن أبي حاتم وغيرهما، بالأسانيد عن عروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن المسيب وغيرهم، أنها نزلت في أبي بكر (١٩) ١. هـ (٢٠).

﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾ (٢١).

(وهكذا قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ﴾ قال: السعادة والشقاوة (٢٢)، وقال عكرمة (٢٣): سبيل الهدى. رواهما عبد بن حميد) ١. هـ (٢٤).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾ (٢٥) قيل هو الهدى المشترك، وهو أنه بين له الطريق التي يجب سلوكها، والطريق التي لا يجب سلوكها، وقيل بل هدى كلا من الطائفتين إلى ما سلكه من السبيل: ﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾) ١. هـ (٢٦).

﴿عِنَّا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٢٧).

(وكذلك قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ضمن يروي بها) ١. هـ (٢٨).

وقال رحمه الله: (فإذا قال القائل: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أن الباء زائدة كان من قبله علمه؛ فإن الشارب قد يشرب ولا يروي؛ فإذا قيل: يشرب منها: لم يدل على الري، وإذا ضمن معنى الري فقول: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ كان دليلاً على الشرب الذي يحصل به الري، وهذا شرب خاص دل عليه لفظ الباء) ١. هـ (٢٩).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ضمن معنى يروي فعلى بحرف الباء مع بقاء معنى الشرب) ١. هـ (٣٠).

- | | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| (١) سيمر ذكرها في سورة الليل. | (٢) منهاج السنة (٨/٥٥٣ - ٥٥٥). |
| (٣) ابن جرير (٢٩/٢٠٦). | (٤) ابن كثير (٤/٤٥٣). |
| (٥) مجموع الفتاوى (١٦/١٤٣). | (٦) مجموع الفتاوى (١٥/٩٩). |
| (٧) مجموع الفتاوى (١٣/٣٤٢). | (٨) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٢٤). |
| (٩) الاستغاثة (٨٢). | |

﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ وَنَذَرُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧).

(ولم يثبت له أن الأمر بوفاء النذر مقيد بطاعة الله، ولهذا نقل مالك في «موطئه» الحديث الذي أخرجه البخاري بعده عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»^(١) مع أن القرآن ليس فيه أمر بالوفاء بالنذر بلفظ النذر مطلقاً؛ إذ قوله: ﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ﴾ خبر وثناء) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَشَكْنًا وَيَتِيمًا وَأَيِّمًا﴾ (٨) إِنَّمَا تَطْعَمُكَ يَوْمَهِ اللَّهِ) ومن طلب من الفقراء الدعاء أو الثناء خرج من هذه الآية) ا. هـ^(٣).

﴿إِنَّمَا تَطْعَمُكَ يَوْمَهِ اللَّهِ لَا تَزِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (٩).

(ولهذا قال المخلصون: ﴿إِنَّمَا تَطْعَمُكَ يَوْمَهِ اللَّهِ لَا تَزِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (٩) فأخبروا أنهم لا يريدون من المنعم عليهم لا جزاءً ولا شكوراً، ولم يقولوا لا نريد ذلك من أحد لا من الله ولا من غيره؛ فإن هذا إما ممتنع وإما سفاهة، ولهذا كان المحققون للإخلاص لا يطلبون من المحسن إليه لا دعاءً ولا ثناءً ولا غير ذلك فإنه إرادة جزاء منه؛ فإن الدعاء نوع من الجزاء على الإحسان والإساءة؛ كما جاء في الحديث: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه»^(٤) وقال الشاعر:

ارفع صغيرك لا يجزيك ضعفه
أرفع صغيرك لا يجزيك ضعفه
أثني عليك بما فعلت فقد جرى) ا. هـ^(٥)

وقال رحمه الله: (قال العلماء في قوله: ﴿إِنَّمَا تَطْعَمُكَ يَوْمَهِ اللَّهِ﴾ لم يقوله بالسنتهم وإنما علمه الله من قلوبهم، ولهذا لم يستحبوا أن يتلفظ بنية الإخلاص) ا. هـ^(٦).

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا قَطَرًا﴾ (١٠).

(وقد قيل في اليوم الشديد العذاب إنه: ﴿يَوْمًا غُيُوبًا قَطَرًا﴾) ا. هـ^(٧).

(١) مرّ تخريجه. (٢) مجموع الفتاوى (٣٥/٣٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/١١).

(٤) أبو داود (١٦٧٢) والنسائي (٨٢/٥) أحمد (٦٨/٢) والبخاري في الأدب المفرد (٢١٦) والطبرسي (١٨٩٥) والحاكم (٤١٢/١) (٢/٦٣ - ٦٤) والحديث صحيح.

(٥) بيان تليس الجهمية (١٩٢/١ - ١٩٣). (٦) شرح العمدة - الصلاة (٥٩١).

(٧) مجموع الفتاوى (١٢١/٦).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيَةً أَوْ كَفُورًا ٢٤
وَاذْكُرْ آثَمَ رَبِّكَ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا ٢٥ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ٢٦﴾.

(وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيَةً أَوْ كَفُورًا ٢٤﴾ وَاذْكُرْ آثَمَ رَبِّكَ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا ٢٥ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ٢٦﴾ فإن هذا يتناول صلاة العشاء، والوتر، وقيام الليل لقوله: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (١) هـ.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيَةً أَوْ كَفُورًا ٢٤﴾ (ومثله قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيَةً أَوْ كَفُورًا﴾ فإن «الكفور» هم الآثم أيضاً؛ لكنه عطف خاص على عام وقد قيل: هما وصفان لموصوف واحد، وهو أبلغ فإن عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد، كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ٣﴾ [الأعلى] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥﴾ [المؤمنون] ونظائر هذا كثيرة.

قال ابن زيد^(٢): الآثم، المذنب الظالم والكفور، هذا كله واحد قال ابن عطية: هو مخير^(٣) في أنه يعرف الذي ينبغي أن لا يطيعه بأي وصف من هذين؛ لأن كل واحد منهم فهو آثم، وهو كفور، ولم يكن للأمة^(٤) من الكثرة بحيث يغلب^(٥) الآثم على المعاصي، قال: واللفظ إنما يقتضي نهى الإمام عن طاعة آثم من العصاة، أو كفور من المشركين.

وقال أبو عبيدة وغيره^(٦): ليس فيها تخيير «أو» بمعنى الواو^(٧) وكذلك قال طائفة: منهم البغوي^(٨) وابن الجوزي^(٩).

وقال المهدي^(١٠): أي لا تطع من آثم أو كفر. ودخول «أو» يوجب أن لا تطيع

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/٨٧). (٢) ابن جرير (٢٩/٢٢٤).

(٣) في المطبوع (تخير).

(٤) في المطبوع (ولم يكن للأمة حيثئذ من الكثرة).

(٥) في المطبوع (يقع).

(٦) زيادة لا توجد في المطبوع.

(٧) في المطبوع [أو بمعنى الواو وليس في هذا تخيير] انتهى كلام ابن عطية (١٦/١٩٣).

(٨) البغوي (٤/٣٩٩).

(٩) زاد المسير (٨/٤٤١).

(١٠) هو المهدي صاحب التفسير وليس المهدي وقد ترجمنا له، وتفسيره جزء منه لا زال مخطوطاً =

كل واحد منهما على انفراده. ولو قال: ولا تطع منهما أثماً أو كفوراً لم يلزم النهي إلا في حال اجتماع الوصفين) ١. هـ^(١).

وفي رسالة مستقلة عن سورة الدهر قال شيخ الإسلام:

(اعلم أن سورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإنسان: ١] سورة عجيبة الشأن من سور القرآن على اختصارها، فإن الله سبحانه ابتدأها بذكر كيفية خلق الإنسان من النطفة ذات الأمشاج والأخلاق التي لم يزل بقدرته ولطفه وحكمته يصرفه عليها أطواراً، وينقله من حال إلى حال، إلى أن تمت خلقته وكملت صورته، فأخرجه إنساناً سوياً، سمياً بصيراً، ثم لما تكامل تمييزه وإدراكه هداه طريقه الخير والشر، والهدى والضلال، وأنه بعد هذه الهداية إما أن يشكر ربه وإما أن يكفره. ثم ذكر مآل أهل الشكر والكفر، وما أعد لهؤلاء وهؤلاء، وبدأ أولاً بذكر عاقبة أهل الكفر، ثم عاقبة أهل الشكر، وفي آخر السورة ذكر أولاً أهل الرحمة ثم أهل العذاب، فبدأ السورة بأول أحوال الإنسان - وهي النطفة - وختمها بآخر أحواله - وهي كونه من أهل الرحمة أو العذاب - ووسطها بأعمال الفريقين، فذكر أعمال أهل العذاب مجملة في قوله: ﴿إِنَّا آغَثْنَا لَكُفْرِينَ﴾ [الإنسان: ٤] وأعمال أهل الرحمة مفصلة وجزاءهم مفصلاً.

فتضمنت السورة خلق الإنسان وهدايته، ومبدأه وتوسطه ونهايته، وتضمنت المبدأ والمعاد، والخلق والأمر: وهما القدرة والشرع، وتضمنت إثبات السبب وكون العبد فاعلاً مريداً حقيقةً، وأن فاعليته ومشيئته إنما هي بمشيئة الله، ففيها الرد على طائفتين: القدرية والجبرية، وفيها ذكر أقسام بني آدم كلهم، فإنهم إما أهل شمال - وهم الكفار - أو أهل يمين: وهم نوعان: أبرار مقربون، وذكر سبحانه أن شراب الأبرار يمزج من شراب عباده المقربين لأنهم مزجوا أعمالهم، ويشربه المقربون صرفاً خالصاً كما أخلصوا أعمالهم، وجعل سبحانه شراب المقربين من الكافور الذي فيه من التبريد والقوة ما يناسب برد اليقين وقوته لما حصل لقلوبهم ووصل إليها في الدنيا، مع ما في ذلك من مقابله للسعير.

وأخبر سبحانه أن لهم شراباً آخر ممزوجاً من الزنجبيل لما فيه من طيب الرائحة

= وقد حقق بعض منه رسائل علمية في الجامعة الأردنية.

(١) مجموع الفتاوى (٢١/٣٨٨ - ٣٨٩).

ولذة الطعم، والحرارة التي توجب تغير برد الكافور وإذابة الفضلات وتطهير الأجواف، ولهذا وصفه سبحانه بكونه شراباً طهوراً أي مطهراً لبطونهم.

فوصفهم سبحانه بجمال الظاهر والباطن، كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الْمَلَكُ فِي هَذِهِ ۖ وَلَقَدْ يَمُرُّ بِالْإِنسَانِ الْغَائِبُ﴾ [١١] فالنصرة جمال وجوههم، والسرور جمال قلوبهم، كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّازِلِ﴾ [المطففين].

وقريب من هذا قول امرأة العزيز في يوسف: ﴿فَدَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ زُودْتُمُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ فَاسْتَعَصِمَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فأخبرت بجمال ظاهره حين أشارت إليه بالخروج عليهن ثم ضمت إلى ذلك إخبارها بأن باطنه أجمل من ظاهره: بأن روادته فأبى إلا العفة والحياء والاستعصام.

ثم ذكر سبحانه من أعمال الأبرار ما ينبه سامعه على جمعهم لأعمال البر كلها، فذكر سبحانه وفاءهم بالنذر، وخوفهم من ربهم، وإطعامهم الطعام على محبتهم له، وإخلاصهم لربهم في طاعتهم.

وذكر سبحانه الوفاء بالنذر وهو أضعف الواجبات، فإن العبد هو الذي أوجبه على نفسه بالتزامه، فهو دون ما أوجبه الله سبحانه عليه، فإذا وفى لله بأضعف الواجبين الذي التزمه هو؛ فهو بأن يوفي بالواجب الأعظم الذي أوجبه الله عليه أولى وأحرى.

ومن ههنا قال من قال من المفسرين: المقربون يوفون بطاعة الله ويقومون بحقه عليهم؛ وذلك أن العبد إذا نذر لله طاعة فوفى بها فإنما يفعل ذلك لكونها صارت حقاً لله يجب الوفاء بها، وهذا موجود في حقوقه كلها، فهي في ذلك سواء.

ثم أخبر عنهم بأنهم يخافون اليوم العسير القمطير، وهو يوم القيامة؛ ففي ضمن هذا الخوف إيمانهم باليوم الآخر، وكفهم عن المعاصي التي تضرهم في ذلك اليوم، وقيامهم بالطاعات التي ينفعهم فعلها ويضرهم تركها في ذلك اليوم.

ثم أخبر عنهم بإطعام الطعام على محبتهم له، وذلك يدل على نفاسته عندهم وحاجتهم إليه، وما كان كذلك فالنفوس به أشح، والقلوب به أعلق واليد له أمسك، فإذا بذلوه في هذه الحال، فهم لما سواه من حقوق العباد أبذل.

فذكر من حقوق العباد بذل قوت النفس على نفاسته وشدة الحاجة منبهاً على الوفاء بما دونه، كما ذكر من حقوقه الوفاء بالنذر منبهاً على الوفاء بما هو فوقه وأوجب

منه، ونبه بقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨] أنه لولا أن الله سبحانه أحب إليهم منه لما آثروه على ما يحبونه، فأثروا المحبوب الأعلى على الأدنى.

ثم ذكر أن مصرف طعامهم إلى المسكين واليتيم والأسير الذين لا قوة لهم ينصرونهم بها، ولا مال لهم يكافئونهم به، ولا أهل عشيرة يتوقعون منهم مكافأتهم كما يقصده أهل الدنيا والمعاوضون بإنفاقهم وإطعامهم. ثم أخبر عنهم أنهم إنما فعلوا ذلك لوجه الله، وأنهم لا يريدون ممن أطعموه عوضاً من أموالهم ولا ثناء عليهم بالسنتهم، كما يريد من لا إخلاص له بإحسانه إلى الناس من معاوضتهم أو الشكور منهم، فضمن ذلك المحبة والإخلاص والإحسان.

ثم أخبر سبحانه عنهم بما صدقهم عليه قبل أن يقولوه حيث قالوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠] فصدقهم قبل قولهم، إذ يقول تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ وَنَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] ثم أخبر سبحانه بأنه وقاهم شر ما يخافونه ولقاهم فوق ما كانوا يأملونه.

وذكر سبحانه أصناف النعيم الذي حياهم به من المساكن والملابس والمجالس والثمار والشراب والخدم والنعيم والملك الكبير.

ولما كان في الصبر من حبس النفس والخشونة التي تلحق الظاهر والباطن من التعب والنصب والحرارة ما فيه كان الجزاء عليه بالجنة التي فيها السعة، والحرير الذي فيه اللين والنعومة، والاتكاء الذي يتضمن الراحة، والظلال المنافية للحر.

ثم ذكر سبحانه لون ملابس الأبرار وأنها ثياب سندس خضر وإستبرق، وحليتهم وأنها أساور من فضة، فهذه زينة ظواهرهم ثم ذكر زينة بواطنهم، وهو الشراب الطهور، وهو بمعنى التطهير.

فإن قيل: فلم اقتصر من آيتهم وحليتهم على الفضة دون الذهب ومعلوم أن الجنان جنتان من فضة آيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آيتهما وحليتهما وما فيهما.

قيل: سياق هذه الآيات إنما هو في وصف الأبرار ونعيمهم مفصلاً دون تفصيل جزاء المقربين، فإنه سبحانه إنما أشار إليه إشارة تنبه على ما سكت عنه، وهو أن شراب الأبرار يمزج من شرابهم.

فالسورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التفصيل، وذلك - والله أعلم - لأنهم

أعم من المقربين وأكثر منهم . ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، وعن المقربين السابقين بأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين .

وأيضاً فإن في ذكر جزاء الأبرار تنبيهاً على أن جزاء المقربين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وأيضاً فإنه سبحانه ذكر أهل الكفر وأهل الشكر . وأهل الشكر نوعان: أبرار أهل يمين ، ومقربون سابقون ، وكل مقرب سابق فهو من الأبرار ، ولا ينعكس فاسم الأبرار والمقربين كاسم الإسلام والإيمان أحدهما أعم من الآخر .

وأيضاً فإنه سبحانه أخبر أن هذا جزاء سعيهم المشكور ، وكل من الأبرار والمقربين سعيهم مشكور ، فذكر سبحانه السعي المشكور والسعي المسخوط .

ثم ذكر سبحانه نبيه ﷺ بما أنعم عليه ، من تنزيل القرآن عليه وأمره بأن يصبر لحكمه ، وهو يعم الحكم الديني الذي أمره به في نفسه وأمره بتبليغه ، والحكم الكوني الذي يجري عليه من ربه ، فإنه سبحانه امتحن عباده وابتلاهم بأمره ونهيه ، وهو حكمه الديني ، وابتلاهم بقضائه وقدره ، وهو حكمه الكوني ، وفرض عليهم الصبر على كل واحد من الحكمين ، وإن كان الحكم الديني في هذه الآية أظهر إرادة ، وأنه أمر بالصبر على تبليغه والقيام بحقوقه .

ولما كان صبره عليه لا يتم إلا بمخالفته لمن دعاه إلى خلافه من كل آثم أو كفور ، نهاء عن طاعة هذا وهذا ، وأتى بحرف «أو» دون «الواو» ليدل على أنه منهي عن طاعة أيهما كان : إما هذا وإما هذا ، فكأنه قيل له : لا تطع أحدهما ، وهو أعم في النهي من كونه منهيّاً عن طاعتهما فإنه لو قيل له : لا تطعهما ، أو لا تطع أثماً وكفوراً لم يكن صريحاً في النهي عن طاعة كل منهما بمفرده .

ولما كان لا سبيل إلى الصبر إلا بتعويض القلب بشيء هو أحب إليه من فوات ما يصبر على فوته أمره بأن يذكر ربه سبحانه بكرة وأصيلاً - فإن ذكره أعظم العون على تحمل مشاق الصبر - وأن يصبر لربه بالليل فيكون قيامه بالليل عوناً على ما هو بصده بالنهار ، ومادة لقوته ظاهراً وباطناً ، ولنعيمه عاجلاً وآجلاً .

ثم أخبر سبحانه عما يمنع العبد من إثارة ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة ، وهو حب العاجلة وإثارة ما على الآخرة تقديماً لداعي الحس على داعي العقل .

ثم ذكر سبحانه خلقهم وإحكامه واتقانه بما شد من أسرهم ، وهو اتلاف الأعضاء

والمفاصل والأوصال وما بينها من الرباطات وشد بعضها ببعض، وحقيقته القوة، ومنه قول الشاعر:

من كل مجتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالاً^(١)
ولا يكون ذلك إلا فيما له شد ورباط، ومنه الإسار، وهو الحبل الذي يشد به الأسير.

ثم أخبر سبحانه أنه قادر على أن يبدل أمثالهم بعد موتهم، وأنه إذا شاء ذلك فعله. و«إذا» للمحقق، فهذا التبديل واقع لا محالة، فهو الإعادة التي هي مثل البداءة. هذا هو معنى الآية، ومن قال غير ذلك لم يصب معناها، ولا توحشك لفظة «المثل»، فإن المعاد مثل للمبدوء وإن كان هو بعينه، فهو معاد، أو هو مثله من جهة المغايرة بين كونه مبدءاً ومعاداً. وهذا كالدار إذا تهدمت وأعيدت بعينها فهي الأولى، وكذلك الصلاة المعادة هي الأولى وهي مثلها.

وقد نطق القرآن بأنه سبحانه يعيدهم ويعيد أمثالهم إذا شاء، وكلاهما واحد فقال: ﴿كَأَمْ بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧] وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] وقال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْشُورِينَ﴾ [٦٠] عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ وَتُتَشَكَّمُ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ [الواقعة].

فهذا كله معاد الأبدان، وقد صرح سبحانه بأنه خلق جديد في موضعين من كتابه. وهذا الخلق الجديد هو «المثل».

ثم ختم سبحانه السورة بالشرع والقدر كما افتتحها بالخلق والهداية فقال: ﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ﴾ فهذا شرعه ومحل أمره ونهيه ثم قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فهذا قضاؤه وقدره، ثم ذكر الاسمين الموجبين للتخصيص وهما اسم: العليم الحكيم. وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فأخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيئته، ومع هذا فلا يوجب ذلك حصول الفعل منهم، إذ أكثر ما فيه أنه جعلهم شائين، ولا يقع الفعل إلا حين يشاؤه منهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ [٥٥] وَمَا

يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[المصدر] وقال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٧٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[النكوير]، ومع هذا فلا يقع الفعل منهم حتى يريد من نفسه إعانتهم وتوفيقهم. فهنا أربع إرادات: إرادة البيان، وإرادة المشيئة، وإرادة الفعل، وإرادة الإعانة، والله أعلم، آخره، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً) ١. هـ^(١).

(١) جامع الرسائل (٦٩/١ - ٧٧) وهي رسالة كاملة نشرها محمد رشاد سالم رَحِمَهُ اللهُ فِي جَامِعِ
الرسائل.

سورة المرسلات

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ (١).

(و«المرسلات» سواء كانت هي الملائكة النازلة بالوحي والمقسم عليه الجزاء في الآخرة، أو الرياح، أو هذا وهذا، فهي معلومة أيضاً) ا.هـ^(١).

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ (٢).

(وقد يستدل بقوله: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (٢٠) إلى قوله: ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ على قول من جعله من القدرة، فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإن كان سبحانه قادراً أيضاً على خلقه، فالقدرة على خلقه قدرة عليه، والقدرة عليه قدرة على خلقه، وجاء أيضاً الحديث منصوصاً في مثل قول النبي ﷺ لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده «الله أقدر عليك منك على هذا» ا.هـ^(٢).

فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد، وأنه أقدر عليه منه على عبده، وفيه إثبات قدرة العبد) ا.هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٢٠).

(٢) مسلم (١٦٥٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/١٢).

سورة النبأ

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾

(ولفظ الضياء والنور ونحو ذلك، يراد به الشيء بنفسه المستنير كالشمس والقمر والناار، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾.

وسمى - سبحانه - الشمس سراجاً وضياءً، لأن فيها - مع الإنارة والإشراق - تسخيناً وإحراقاً، فهي بالنار أشبه، بخلاف القمر فإنه ليس فيه - مع الإنارة - تسخيناً، فلهذا قال: ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

والمقصود هنا، أن لفظ الضياء والنور ونحو ذلك، يراد به الشيء المستنير المضيء القائم بنفسه، كالشمس والقمر والناار، ويراد به الشعاع الذي يحصل بسبب ذلك في الهواء والأرض، وهذا الثاني عرض قائم بغيره ليس هو الأول، ولا صفة قائمة بالأول، ولكنه حادث بسببه.

فالشعاع الذي هو الضوء والنور الحاصل على الماء والطين والهواء وغير ذلك، هو عرض قائم بغيره، وليس هو متحداً به البتة (١) هـ.

﴿لَيْتَيْنِ فِيهَا آحَابَا ۝١٤﴾

(وأما القول بفناء النار: ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين، ومن بعدهم.

وهذا أحد المأخذين في دوام عذاب من يدخلها، فإن الذين يقولون: إن عذابهم له حد ينتهي إليه ليس بدائم، كدوام نعيم الجنة قد يقولون: إنها قد تفتى، وقد يقولون: إنهم يخرجون منها، فلا يبقى فيها أحد، لكن قد يقال: إنهم لم يريدوا بذلك أنهم يخرجون مع بقاء العذاب فيها على غير أحد، بل يفتى عذابها، وهذا هو معنى فنائها.

[وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود، وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم].
[وقد روى عبد بن حميد - وهو من أجل علماء الحديث - في تفسيره المشهور،
قال: أنا سليمان بن حرب، أنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن البصري، قال:
قال عمر: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عاليج، لكان لهم على ذلك يوم
يخرجون فيه] ^(١).

وقال: أنبأنا حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، أن
عمر بن الخطاب قال: (لو لبث أهل النار في النار عدد رمال عاليج، لكان لهم يوم
يخرجون فيه) ^(٢).

ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾.

وهذا يبين أن مثل هذا الشيخ الكبير من علماء الحديث والسنة يروي عن مثل
هؤلاء الأئمة في الحديث والسنة مثل سليمان بن حرب، الذي هو من أجل علماء
السنة، والحديث، ومثل حجاج بن منهال في كلامهما عن حماد بن سلمة مع جلالة في
العلم، والسنة، والذي يروي من وجهين: من طريق ثابت، ومن طريق حميد هذا عن
الحسن البصري الذي يقال إنه أعلم من بقي من التابعين في زمانه، يرويه عن عمر بن
الخطاب، وإنما سمعه الحسن من بعض التابعين، فسواء كان هذا قد حفظ هذا عن
عمر، أو لم يحفظ، كان مثل هذا الحديث متداولاً بين هؤلاء العلماء الأئمة لا
ينكرونه، وهؤلاء كانوا ينكرون على من خرج عن السنة من الخوارج، والمعتزلة،
والمرجئة، والجهمية.

وكان أحمد بن حنبل يقول: (أحاديث حماد بن سلمة هي الشجاء في حلق
المبتدعة).

فهؤلاء من أعظم أعلام أهل السنة الذين ينكرون من البدع ما هو دون هذا لو كان
هذا القول عندهم من البدع المخالفة للكتاب، والسنة، والإجماع كما يظنه طائفة من
الناس.

وعبد بن حميد ذكر هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، ليعين قول

(١) أعلّ هذا الأثر بالانقطاع بين الحسن وعمر، راجع قول الصنعاني في كشف الأستار (ص ٦٥)
والألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٧٣/٢) وتعليقه على كشف الأستار.

(٢) نفس الكلام السابق عليه.

من قال: الأحقاب لها أمد ينفذ، ليس كالرزق الذي مآله من نفاذ، ولا ريب أنه من قال هذا القول، قول عمر، ومن نقله عنه، إنما أرادوا بذلك جنس أهل النار الذين هم أهلها.

فأما قوم أصيبوا بذنوب، فأولئك قد علم هؤلاء، وغيرهم، بخروجهم منه، وأنهم لا يلبثون فيها قدر رمل عالج، ولا قريباً من ذلك) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فيقال: إنهما لم يريدوا ذلك، فإنهما قالا بعد ما يلبثون فيها أحقاباً وهؤلاء هم الكفار المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٦﴾ لِلطَّاغُوتِ ﴿٢٧﴾ مَتَابًا ﴿٢٨﴾ لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٩﴾ لَا يَدْخُلُوهَا بِرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٣٠﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٣١﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٣٢﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٣٤﴾﴾، وهذا وصف الذين كذبوا بآيات الله ﴿كِذَابًا﴾ أي تكذيباً، فهو تكذيب مؤكد بالمصدر، ولم أجد نقلاً مشهوراً عن أحد من الصحابة يخالف ذلك، بل أبو سعيد وأبو هريرة هما روي حديث ذبح الموت^(٢)، وأحاديث الشفاعة، وخروج أهل التوحيد وغيرهما، قالا في فناء النار ما قالا، وقد نقل البغوي: روى السُّدِّيُّ، عن مرة، عن عبد الله، قال: (لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا)^(٣).

وقد استفاض عن غير واحد من السلف تقدير الحقب بحد محدود، والأحقاب، جمع حَقَب، فروى ابن أبي حاتم، عن عطية، عن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٩﴾﴾ قال: «سنين»^(٤).

وعن أبي صالح السَّمان، عن أبي هريرة قال: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٩﴾﴾.

قال: الحقب ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم كألف سنة^(٥) اليوم منها كالدينا كلها.

قال ابن أبي حاتم، وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهلال الهجري والضحاك، وذكوان، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعمرو بن ميمون أنهم قالوا: الحقب: ثمانون سنة^(٦).

(١) الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٥٢ - ٥٥).

(٢) البخاري (٤٧٣٠). (٣) البغوي (٤٣٨/٤).

(٤) ذكره صاحب الدر (٣٠٧/٦). (٥) الطبري (١١/٣٠).

(٦) تفسير ابن كثير (٤٦٣/٤).

وعن هشام، وعن الحسن البصري أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿لَيَبَيِّنَنَّ فِيهَا أَهْقَابًا﴾ (١) فقال: الله أعلم بالأحقاب فليس فيها عدد إلا الخلود، ولكنه بلغنا أن الحقب الواحد سبعون ألف سنة، كل يوم من تلك الأيام كألف سنة مما تعدون^(٢).

وعن هشام، عن الحسن قال: «الأحقاب» لا يدري أحد ما هي؟ ولكن الحقب الواحد سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة مما تعدون^(٣) وقوله: الله أعلم ما الأحقاب، ولا يدري ما هي؟ يقتضي أن لها عدداً الله أعلم به، ولو كانت لا عدد لها لعلم كل أحد أنه لا عدد لها، ويؤيد ما نقله الحسن، عن عمر بن الخطاب كما تقدم؛ قول الحسن: «ليس فيها عدد إلا الخلود» حق أيضاً، فإنهم خالدون فيها، لا يخرجون منها ما دامت باقية، فأقوال الحسن يُصدق بعضها بعضاً.

وأما خلودهم في النار فهو حق كما أخبر الله.

وعن السدي: ﴿لَيَبَيِّنَنَّ فِيهَا أَهْقَابًا﴾ (١) قال: «سبعمائة حقب، كل حقب سبعون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون»^(٣) وعن عبد الله بن عمرو قال: «الحقب: أربعون سنة»^(٤).

وقد تنازع الناس في الأحقاب، هل هي مقدرة محدودة؟ على قولين: فعلى قول السدي وغيره: هي محدودة، مقدرة، وهو قول الزجاج، وغيره، لكن قال الزجاج: «المعنى أنهم يلبثون فيها أحقاباً، لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً».

قال الزجاج^(٥): «وبيانه: أن الأحقاب حدّ لعذابهم بالحميم والغساق، فإذا انقضت الأحقاب عذبوا بغير ذلك من العذاب».

وهذا الذي قاله الزجاج شاذ، خلاف ما عليه الأولون والآخرين، وهو خلاف ما دلّ عليه القرآن، فإن هذا يقتضي أنهم يبقون بعد الأحقاب فيها، ولكن لا يذوقون البرد والشراب حينئذ، وهذا باطل قطعاً، ثم إذا ذاقوا البرد والشراب فهذا نعيم، فكيف يكونون معذبين فيها بعد ذلك؟

وقال بعضهم: هذه الآية منسوخة، وقيل: «هي في أهل التوحيد» قال عبد الحق بن عطية في «تفسيره»: «ومن الناس من ظن لذكر الأحقاب أن مدة العذاب تنحصر وتتم،

(٢) تفسير الطبري (١٢/٣٠).

(٤) ابن كثير (٤/٤٦٣).

(١) الطبري (١١/٣٠).

(٣) ابن كثير (٤/٤٦٤).

(٥) زاد المسير (٨/٩).

فطلبوا التأويل لذلك»، فقال مقاتل بن حيان: الحقب سبع عشرة ألف سنة وهي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣٠) قال: وقد ذكرنا فساد هذا القول.

وقال آخرون: الموصوفون باللبث أحقاباً: عصاة المؤمنين. قال: وهذا أيضاً ضعيف فما بعده من السورة يرد عليه.

وقال آخرون: إنما المعنى: ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (٣٢) غير ذائقين برداً ولا شراباً، فهذه الحال: يلبثون أحقاباً، ثم يبقى العذاب سرمداً وهم يشربون أشربة جهنم.

والقول الثاني: إنها غير مقدرة، وقال هؤلاء: هذا لا يدل على غاية، لأنه كلما مضى حقب تبعه حقب، ولو أنه قال: لا بئس فيها عشرة أحقاب، أو خمسة أحقاب دل على غاية، هذا قول ابن قتيبة وغيره) ١. هـ^(١).

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٣٧).

(وفي قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ لم يذكر استثناء. فإن أحداً لا يملك من الله خطاباً مطلقاً. إذ المخلوق لا يملك شيئاً يشارك فيه الخالق، كما قد ذكرناه في قوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦] أن هذا عام مطلق. فإن أحداً - ممن يدعي من دونه - لا يملك الشفاعة بحال. ولكن الله إذا أذن لهم شفَعُوا من غير أن يكون ذلك مملوكاً لهم. وكذلك قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ هذا قول السلف وجمهور المفسرين.

وقال بعضهم: هؤلاء هم الكفار، لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم. قال ابن عطية: قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الضمير للكفار. أي لا يملكون - من إفضاله وإكماله^(٢) - أن يخاطبوه^(٣) بمعذرة ولا غيرها^(٤). وهذا مبتدع. وهو خطأ محض.

والصحيح: قول الجمهور والسلف: أن هذا عام، كما قال في آية أخرى ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] وفي حديث التجلي الذي في الصحيح - لما ذكر مرورهم على الصراط - قال ﷺ: «ولا يتكلم أحد إلا بالرسول، ودعوى الرسول: اللهم سلم سلم». فهذا في وقت المرور على الصراط. وهو بعد الحساب والميزان. فكيف بما قبل ذلك؟) ١. هـ^(٥).

(١) الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٦١ - ٦٥). والحق أن الجنة والنار خلقتا للبقاء.

(٢) في المطبوع (إجماله). (٣) في المطبوع (مخاطبوه).

(٤) ابن عطية (٢١٥/١٦). (٥) مجموع الفتاوى (٣٩٧/١٤).

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٢٨).

(ثم قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٢٨) فقد أخبر: أن «الروح والملائكة» يقومون صفًّا، لا يتكلمون، وهذا هو تحقيق قوله: ﴿لَا يَلْكُونُ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبا: ٣٧] والعرب تقول: ما أملك من أمر فلان أو من فلان شيئاً أي لا أقدر من أمره على شيء، وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره: خطابه، ولو بالسؤال.

فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئاً، ولا الخطاب. فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه. ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤] فقد أخبر الخليل: أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء. فكيف غيره؟.

وقال مجاهد أيضاً: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ قال: حقاً في الدنيا، وعمل به^(١)، رواه - والذي قبله - عبد بن حميد. وروى عن عكرمة^(٢) ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ قال: الصواب قول لا إله إلا الله.

فعلى قول مجاهد: يكون المستثنى: من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح) ا. هـ^(٣). وقال رحمه الله: (والشفاعة يومئذ لا تنفع لا شافعاً ولا مشفوعاً له) ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فهذا الصنف المأذون لهم، المرضي قولهم: هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة) ا. هـ^(٤).

﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٢٩).

(والحديث في قول الكافر يوم القيامة ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ لما روي من - جعل البهائم تراباً - معروف. وما أعلم فيه خلافاً) ا. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (فالكافر اسم جنس، ليس كافراً بعينه. بل قد جاء في الحديث: «إن البهائم يقتص بعضها من بعض ثم يقال لها: كوني تراباً»^(٦) فأعيدت البهائم إلى أصلها) ا. هـ^(٧).

(٢) ابن جرير (٢٤/٣٠).

(١) ابن جرير (٢٤/٣٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٩٢/١٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٩٨/١٤ - ٣٩٩).

(٦) أحمد (٣٦٣/٢).

(٥) مختصر الفتاوى المصرية (٢٥٤).

(٧) جامع المسائل (٣٠٢/٤).

وقال رحمه الله راداً على الرافضة:

(وأما قول الرافضي: وهل هذا إلا مساوٍ لقول الكافر: ﴿يَلْتَنِي كُتُّ رَبِّا﴾، فهذا جهل منه؛ فإن الكافر يقول ذلك يوم القيامة، حين لا تُقبل توبة، ولا تنفع حسنة. وأما من يقول ذلك في الدنيا، فهذا يقوله في دار العمل على وجه الخشية لله، فيُثاب على خوفه من الله.

وقد قالت مريم: ﴿يَلْتَنِي مِثُّ قَبَلٍ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًا﴾ [مريم: ٢٣] ولم يكن هذا كتمني الموت يوم القيامة.

ولا يُجعل هذا كقول أهل النار، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ يَقْضِ عَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وكذلك قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ١٨] فهذا إخبار عن حالهم يوم القيامة حين لا ينفع توبة ولا خشية) ا. هـ^(١).

سورة النازعات

وقال في عموم السورة:

(وأما ذكره لعقوبة الدنيا والآخرة ففي سورة: ﴿وَالْتَزَعَتِ غَرْقًا﴾ (١) ﴿وَالْتَشِطَّلَتْ نَشْطًا﴾ (٢)؛ ثم قال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ (٣) ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّاكِبَةُ﴾ (٤) فذكر القيامة مطلقاً، ثم قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقُدْسِ طُوًى (٦) أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّكَ طَفَى (٧) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ (٨)، ثم ذكر المبدأ والمعاد مفصلاً فقال: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٩) ﴿إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّلَاقَةُ الْكُبْرَى﴾ (١٠)، إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَفَى﴾ (١١) ﴿وَأَثَرُ الْمَوْتِ أَذْنًا﴾ (١٢) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (١٣) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (١٤) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (١٥)﴾ [النازعات] إلى آخر السورة) ١. هـ^(١).

﴿وَالْتَزَعَتِ غَرْقًا﴾ (١).

(وأما النازعات غرقاً فهي الملائكة القابضة للأرواح، وهذا يتضمن الجزاء، وهو من أعظم المقسم عليه) ١. هـ^(٢).

﴿فَالْمَذِيرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥).

(قال تعالى فيهم: ﴿فَالْمَذِيرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥) - وقال: ﴿فَالْقَسِيَتِ أَمْرًا﴾ (١) [الذاريات] وهم الملائكة باتفاق السلف وغيرهم من علماء المسلمين) ١. هـ^(٣).

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقُدْسِ طُوًى﴾ (٦).

وقال رحمه الله: «(جبل طور سيناء) وهو (البقعة المباركة) و(الوادي المقدس) الذي ذكره الله في كتابه، وكلم عليه كلمه موسى) ١. هـ^(٤).

﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرَكِّي﴾ (١٢) ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشَى﴾ (١٣).

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/١٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٢٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/١٧٧)، الرد على المنطقيين (٤٧١).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/١١٠).

(وقد قال في السورة في قصة فرعون: ﴿أَنهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١٧) ﴿فَقَالَ لَهُ لَكَ إِلَٰهَ أَن تَزُكِّي﴾ (١٨) ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (١٩) فجمع بين التزكي والهدى والخشية) ١. هـ^(١).
وقال رحمه الله: (قال موسى لفرعون: ﴿هَلْ لَّكَ إِلَٰهَ أَن تَزُكِّي﴾ (١٨) ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (١٩) وعطف عليه ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ (٢٠) [عسى] لوجوه:

أحدها: أن التزكي يحصل بامثال أمر الرسول وإن كان صاحبه لا يتذكر علوماً عنه، كما قال: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَبُرُكْيَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، فالتلاوة عليهم والتزكية عام لجميع المؤمنين، وتعليم الكتاب والحكمة خاص ببعضهم، وكذلك التزكي عام لكل من آمن بالرسول، وأما التذكر فهو مختص لمن له علوم يذكرها، فعرف بتذكره ما لم يعلمه غيره من تلقاء نفسه.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ (٢٠) يدخل فيه النفع، قليله وكثيره، والتزكي أخص من ذلك.

الثالث: أن التذكر سبب التزكي، فإنه إذا تذكر خاف ورجا، فتزكى، فذكر الحكم وذكر سببه، ذكر العمل وذكر العلم، وكل منهما مستلزم للآخر.

فإنه لا يتزكى حتى يتذكر ما يسمعه من الرسول، كما قال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ (٢٠) [الأعلى] فلا بد لكل مؤمن من خشية وتذكر، وهو إذا تذكر فإنه ينتفع، وقد تتم المنفعة، فيتزكى) ١. هـ^(٢).

﴿فَآرَأَهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ (٢٠)

(قال تعالى: ﴿فَآرَأَهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ (٢٠) فله تعالى آية كبيرة وصغيرة وقال عن نبيه محمد ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (٢١) [النجم]، فالآيات الكبرى مختصة بهم وأما الآيات الصغرى فقد تكون للصالحين) ١. هـ^(٣).

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (٢١)

(فقد صبح من الله سبحانه أنه أخذه نكالا على ذلك وجعله في ذلك عبرة، وجعل المناداة بهذه الكلمة عينها عين الكفر حيث قال: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ (٢٢) ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَوَلَّىٰ﴾ (٢٣) فَحَسَرَ فَنَادَىٰ﴾ (٢٤) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ (٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/١٨٥ - ١٨٦).

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٤٣).

(٣) النبوات (١٩٨).

وقد قالوا: إن قوله الآخرة والأولى: أي كلمته الأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلَّمْتُكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وكلمته الأخرى وهي قوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [٢٤]، فإن هذه أعظم من تلك) ١. هـ^(١).

﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ تَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [٢٥].

قال الله تعالى: ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ تَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [٢٥] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى [٢٦]، قال كثير من العلماء: أي نكال الكلمة الآخرة، ونكال الكلمة الأولى، فنكل الله تعالى به على الكلمتين باعترافه، وجعل ذلك عبرة لمن يخشى، ولو كان هذا ممن لم يعاقب على ما تقدم من كفره، ولم^(٢) يكن عقابه عبرة، بل من آمن غفر الله له ما سلف، ولم يذكره بكفر ولا بدم أصلاً، بل يمدحه على إيمانه، ويشني عليه كما أثنى على من آمن بالرسول، وأخبر أنه نجاهم) ١. هـ^(٣).

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ [٢٧].

(وقد روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ قال: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [٢٧] [الصفات]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهُ رَيْنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقد كنتموا في هذه الآية وقال: ﴿أَرِ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿دَحَّهَا﴾ [النازعات: ٣٠] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال: ﴿أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، فذكر في هذه الآية خلق الأرض قبل السماء وقال: وكان الله غفوراً رحيماً عزيزاً حكيماً سميعاً بصيراً فكأنه كان ثم مضى فقال: لا أنساب في النفخة الأولى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب عند ذلك ولا يتساءلون ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قوله ما كنا مشركين ولا يكتُمون الله حديثاً فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم قال المشركون تعالوا نقل لم نكن مشركين فختم على أفواههم فتنطق أيديهم فعند ذلك عرفوا أن الله لا يكتُم حديثاً وعنده يود الذين كفروا الآية، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء

(١) بغية المرتاد (٣٨٠).

(٢) كذا في الأصل، ولعل الواو زائدة حتى تكون جملة (لم يكن) جواب «لو».

(٣) جامع الرسائل (١/٢١١).

فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الأرض ودحاها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام خلقت السموات في يومين وكان الله غفوراً رحيماً سمى نفسه ذلك وذلك قوله أني لم أزل كذلك فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب فيه الذي أراد فلا يختلف عليك القرآن فإن كلا من عند الله هكذا رواه البخاري مختصراً).

ورواه البرقاني في صحيحه من الطريق الذي أخرجه البخاري بعينها من طريق شيخ البخاري بعينه بالقائلة الثامنة أن ابن عباس جاءه رجل فقال: يا ابن عباس إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي فقد وقع ذلك في صدري فقال ابن عباس أنكذيب فقال الرجل ما هو بتكذيب ولكن اختلاف قال فهل ما وقع في نفسك فقال له الرجل أسمع الله يقول: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال في آية أخرى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْتَأْذِنُ﴾ [الصافات] وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] وقال في آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ رِئَاسًا لِّكُلِّ مُشْرِكٍ﴾ [الأنعام: ٢٣] فقد كنتموا في هذه الآية وفي قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ بَنَاتُهَا﴾ [٢٧] رَفَعَ سَمَكَهَا فَتَوْنَهَا [٢٨] وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا [٢٩] وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا [٣٠] فذكر في هذه الآية خلق السماء قبل الأرض وقال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ أَبِئْكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٩] وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسٍ مِّنْ قَوْفِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيلَةٍ [١٠] ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [١١] [انصت] وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨] ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] وكأنه كان ثم انقضى فقال ابن عباس هات ما في نفسك من هذا فقال السائل إذا أنبأتني بهذا فحسبي قال ابن عباس قوله: (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) فهذا في النفخة الأولى ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ثم إذا كان في النفخة الأخرى قاموا قبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قول الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ رِئَاسًا لِّكُلِّ مُشْرِكٍ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] فإن الله تعالى يوم القيامة يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم لا يتعاطم عليه ذنب أن يغفره ولا يغفر شركاً فلما رأى المشركون قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك تعالوا نقول: إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فقال الله تعالى أما إذا كنتموا الشرك فأختم على أفواههم فيختم على أفواههم فتنتطق أيديهم

وأرجلهم بما كانوا يكسبون فعند ذلك عرف المشركون أن الله لا يُكتم حديثاً فذلك قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئَىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٦] وأما قوله: ﴿أَوِ اتَّمَأْتَتْهَا﴾ [٤٧] رَفَعَ سَفَكَهَا فَتَوْنَهَا [٤٨] وَأَغَطَّشَ لَبَاقَهَا وَأَخْرَجَ مَخْنَهَا [٤٩] وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا [٥٠] فإنه خلق الأرض في يومين قبل خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين يعني ثم دحى الأرض و(دحىها) أن أخرج منها الماء والمرعى وشق فيها الأنهار وجعل فيها السبل وخلق الجبال والرمال والآكام وما فيها في يومين آخرين فذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [٥٠] وقوله: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٥١] وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا مِّنْ قَوْفِهَا وَبَنَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيَأْمَنُوا [٥٢] [فصلت] وجعلت السموات في يومين آخرين وأما قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] فإن الله جعل نفسه ذلك وسمى نفسه ذلك ولم ينحله أحد غيره وكان الله أي لم يزل كذلك ثم قال ابن عباس: احفظ عني ما حدثتك واعلم أن ما اختلف عليك من القرآن أشباه ما حدثك فإن الله لم ينزل شيئاً إلا أصاب به الذي أراد ولكن الناس لا يعلمون فلا يختلف عليك القرآن فإن كلا من عند الله وهكذا رواه يعقوب ابن سفيان في تاريخه عن شيخ البخاري كما رواه البرقاني وإنما يختلفان في يسير من الأحرف وما ذكره أئمة السنة) ١ هـ. (١).

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ [٥٣].

(وقال في الخاص: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ [٥٣] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ﴾ [يس: ١١] فهذا الإنذار الخاص، وهو التام النافع الذي انتفع به المنذر، والإنذار هو الإعلام بالمخوف، فعلم المخوف فخاف، فأمن وأطاع) ١ هـ. (٢).

﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَبْشُرُونَ إِلَّا غَيْبَةً أَوْ مَخْلَصًا﴾ [٥٤].

(نص على ذلك أحمد وغيره، قال عبد الله بن أحمد: قرأت على أبي ثنا يعلى بن عبيد؛ ثنا سفيان؛ عن محمد بن أبي ليلي؛ عن الحكم؛ عن سعيد بن جبير؛ عن ابن عباس قال: إذا عسر على المرأة ولادتها فليكتب: بسم الله لا إله إلا الله الحليم الكريم؛ سبحان الله رب العرش العظيم؛ الحمد لله رب العالمين، ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَبْشُرُونَ إِلَّا غَيْبَةً أَوْ مَخْلَصًا﴾ [٥٤]، ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَبْشُرُونَ إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغُ

(١) الفتاوى التسعينية (٥٤/٥ - ٥٦) وقد مر هذا المقطع مراراً، وخرجناه.

(٢) مجموع الفتاوى (١٥٧/١٦).

فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ [الأحقاف: ٣٥]، قال أبي: ثنا أسود بن عامر بإسناده بمعناه، وقال: يكتب في إناء نظيف فيسقى، قال أبي: وزاد فيه وكيع فتسقى وينضح ما دون سرتها، قال عبد الله: رأيت أبي يكتب للمرأة في جام أو شيء نظيف.

وقال أبو عمرو محمد بن أحمد بن حمدان الحيري: أنا الحسن بن سفيان النسوي؛ حدثني عبد الله بن أحمد بن شبيب؛ ثنا علي بن الحسن بن شقيق؛ ثنا عبد الله بن المبارك؛ عن سفيان؛ عن ابن أبي ليلى؛ عن الحكم؛ عن سعيد بن جبير؛ عن ابن عباس قال: إذا عسر على المرأة ولادها فليكتب: بسم الله لا إله إلا الله العلي العظيم لا إله إلا الله الحليم الكريم؛ سبحان الله وتعالى رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين، ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَوْ يَخْبِتُونَ إِلَّا عِشَّةً أَوْ حُمْلَةً﴾ ﴿١﴾، ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَوْ يَخْبِتُونَ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ [الأحقاف: ٣٥]. قال علي: يكتب في كاغدة فيعلق على عضد المرأة، قال علي: وقد جربناه فلم نر شيئاً أعجب منه، فإذا وضعت تحلُّه سريعاً ثم تجعله في خرقة أو تحرقه (١) هـ.

سورة عبس

﴿وَفَكَهَأَ وَأَبَا﴾.

(وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمود بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وَفَكَهَأَ وَأَبَا﴾ فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم^(١)؟ - منقطع - وقال أبو عبيد أيضاً حدثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب^(٢) قرأ على المنبر: ﴿وَفَكَهَأَ وَأَبَا﴾ فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر، وقال عبد بن حميد: حدثنا سليمان بن حرب، قال: حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنا عند عمر بن الخطاب وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرا: ﴿وَفَكَهَأَ وَأَبَا﴾ فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف فما عليك أن لا تدريه) ١. هـ^(٣).

فصل

وقال رحمه الله:

ولجماعة من الفضلاء كلام في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْرِزُ الْمُرَّةُ مِنْ أَخِيهِ﴾ **﴿٢٤﴾** وَأَيُّهُ. **﴿٢٥﴾** لم ابتدأ بالأخ ومن عادة العرب أن يبدأ بالأهم؟

فلما سئلت عن هذا قلت: إن الإبتداء يكون في كل مقام بما يناسبه فتارة يقتضي الإبتداء بالأعلى وتارة بالأدنى، وهنا المناسبة تقتضي الإبتداء بالأدنى؛ لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلاً شيئاً بعد شيء، فلو ذكر الأقرب أولاً لم يكن في ذكر

(١) صاحب الدر (٣١٧/٦) وعزاه لأبي عبيد وعبد بن حميد.

(٢) ابن جرير (٦١/٣٠)، وعزاه صاحب الدر (٣١٧/٦) لسعيد بن منصور وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب والحاكم.

(٣) مجموع الفتاوى (٣٧١/١٣ - ٣٧٢).

الأبعد فائدة طائلة، فإنه يعلم أنه إذا فر من الأقرب فر من الأبعد، ولما حصل للمستمع استشعار الشدة مفصلة، فابتدئ بنفي الأبعد منتقلاً منه إلى الأقرب، فقليل أولاً: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ النَّارُ مِنْ آخِهَا﴾ (٢٦) ﴿فَعَلِمَ أَنَّ ثَمَّ شِدَّةَ تَوْجِبِ ذَلِكَ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَفِرَ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَفِرَ، فَقِيلَ: ﴿وَأُمُّهُ وَأَبُوهُ﴾ (٢٧) ﴿فَعَلِمَ أَنَّ الشِّدَّةَ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ، بَحِيثٍ تَوْجِبِ الْفِرَارِ مِنَ الْأَبْوَيْنِ.

ثم قيل: ﴿وَمَلَجَيْنِيهِ وَيَبِيهِ﴾ (٣١) ﴿فَعَلِمَ أَنَّهَا طَامَةٌ بَحِيثٍ تَوْجِبِ الْفِرَارِ مِمَّا لَا يَفِرُ مِنْهُمْ إِلَّا فِي غَايَةِ الشِّدَّةِ وَهِيَ الزَّوْجَةُ وَالْبَنُونَ، وَلَفْظُ صَاحِبَتِهِ أَحْسَنُ مِنْ زَوْجَتِهِ.

سورة التكوير

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ﴿٥﴾

(وأما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه. كما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْثِلَ لَهُ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ١٩] وحرف ﴿إِذَا﴾ إنما يكون لما يأتي لا محالة.

والأحاديث في ذلك مشهورة، فإن الله ﷻ يوم القيامة يحشر البهائم ويقتصر لبعضها من بعض، ثم يقول لها: كوني تراباً. فتصير تراباً. فيقول الكافر حينئذ ﴿يَلْتَنِي كُتٌّ تُرَاباً﴾ ومن قال إنها لا تحيا فهو مخطئ في ذلك أقبح خطأ؛ بل هو ضال أو كافر والله أعلم. ١. هـ.^(١)

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ﴾ ﴿٨﴾

(إسقاط الحمل حرام بإجماع المسلمين، وهو من الوأد الذي قال الله فيه: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ﴾ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ﴿٩﴾ ١. هـ.^(٢)

وقال شيخ الإسلام:

(قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ﴾ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ﴿٩﴾ دليل على أنه لا يجوز قتل النفس إلا بذنوب منها، فلا يجوز قتل الصبي والمجنون، لأن القلم مرفوع عنهما، فلا ذنب لهما، وهذه العلة لا ينبغي أن يشك فيها في النهي عن قتل صبيان أهل الحرب، وأما العلة المشتركة بينهم وبين النساء فكونهم ليسوا من أهل القتال على الصحيح الذي هو قول الجمهور، أو كونهم يصيرون للمسلمين.

فأما التعليل بهذا وحده في الصبي فلا، والآية تقتضي ذم قتل كل من لا ذنب له من صغير وكبير، وسؤالها توبيخ قاتلها، وقوله في السورة: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة] إلى قوله: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ نَجِيمٍ﴾ [النكوير] هو جبريل، وهو نظير ما في سورة الشعراء أنه تنزلت به الملائكة لا الشياطين، بخلاف الإفك ونحوه فإنه تنزل به الشياطين، فوقع الفرق بين النبي ﷺ والأفك، والشاعر، والكاهن، وبين المَلَك والشیطان، والعلماء ورثة الأنبياء^(١).

﴿الْجَوَارِ الْكُنْزِ﴾ [١١] ﴿وَالْأَيْلِ إِذَا عَسَّسَ﴾ [٧].

(وأما إقسام الله بالنجوم، كما أقسم بها في قوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخُنُوسِ﴾ [٥] الْجَوَارِ الْكُنْزِ [١١] فهو كإقسامه بغير ذلك من مخلوقاته، كما أقسم بالليل والنهار، والشمس والقمر، وغير ذلك: يقتضي تعظيم قدر المقسم به، والتنبيه على ما فيه من الآيات والعبرة، والمنفعة للناس؛ والإنعام عليهم، وغير ذلك؛ ولا يوجب ذلك أن تتعلق القلوب به، أو يظن أنه هو المسعد المنحس، كما لا يظن ذلك في ﴿وَالْأَيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [١] وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى [٢] [الليل]، وفي ﴿وَاللَّارِبَتِ ذَرَوْا﴾ [١] فَلَمَحَلَّتْ وَقَرًا [٢] [الذاريات]، وفي ﴿وَالطُّورِ﴾ [١] وَكُنْزٍ مَسْطُورٍ [٢] [الطور]، وأمثال ذلك) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخُنُوسِ﴾ [٥] الْجَوَارِ الْكُنْزِ [١١] والخنوس الاختفاء، وذلك قبل ظهورها من المشرق. والخنوس رجوعها من جهة المغرب، فما خنس قبل ظهورها كنس بعد مغيبها، جوار حال ظهورها، تجري من المشرق إلى المغرب) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخُنُوسِ﴾ [٥] الْجَوَارِ الْكُنْزِ [١١] فسمها جوارى، كما سمى الفلك جوارى، في قوله: ﴿وَمِنْ أَيْتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾ [٣٧] [الشورى]، والكواكب فوق السحاب) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخُنُوسِ﴾ [٥] الْجَوَارِ الْكُنْزِ [١١] يعني: الكواكب التي تكون في السماء خائسة أي مختلفة قبل طلوعها، فإذا ظهرت رآها الناس جارية في السماء، فإذا غربت ذهبت إلى كناسها الذي يحجبها ﴿وَالْأَيْلِ إِذَا عَسَّسَ﴾ [٧]

(٢) مجموع الفتاوى (١٧٧/٣٥).

(٤) الجواب الصحيح (٢٠٨/٥).

(١) مجموع الفتاوى (٨٠/١٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٩٤/٦).

[التكوير] أي إذا أدير، وأقبل الصبح ﴿وَالْفُتُوحُ إِذَا نَفَسَ﴾ [١٨] [التكوير] أي أقبل ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [١٩] [التكوير] وهو جبريل عليه السلام ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [٢٠] ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [٢١] أي مطاع في السماء أمين ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [٢٢] [التكوير] أي صاحبكم الذي من الله عليكم به إذ بعثه إليكم رسولاً من جنسكم يصحبكم إذ كنتم لا تطيقون أن تروا الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ لَّفَضَّيْنَا الْأَمْرَ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [٢٣] ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ الآية [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ﴾ [٢٤] [التكوير] أي رأى جبريل عليه السلام ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [٢٥] [التكوير] أي بمتهم، وفي القراءة الأخرى^(١): ﴿بِضْنِينٍ﴾ أي ببخيل يكتم العلم ولا يبذله إلا بجعل، كما يفعل من يكتم العلم إلا بالعوض. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [٢٦] [التكوير] فنهز جبريل عليه السلام عن أن يكون شيطاناً، كما نزه محمداً عليه السلام عن أن يكون شاعراً أو كاهناً) ا. هـ^(٢).

﴿وَأَنزَلَ إِذَا نَفَسَ﴾ [٢٧]

(ولفظ (عسعس) الذي يراد به إقبال الليل وإدباره) ا. هـ^(٣).

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [٢٨] ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [٢٩] ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [٣٠] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ﴾ [٣١]

(إنه في سورة التكوير: لما كان الشيطان قد يشبه بالملك - فنفي أن يكون قول شيطان رجيم - علم أن الرسول المذكور هو المصطفى من الملائكة) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ولم يقل: لقول ملك ولا نبي، فذكر ذلك بلفظ الرسول ليبين أنه يبلغ عن غيره، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وفي السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؛ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»^(٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٧٣ - ٢٧٤).

(١) زاد المسير (٩/ ٤٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٥٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٠).

(٥) أبو داود (٤٧٣٤) والترمذي (٢٩٢٥) وابن ماجه (٢٠١) والبخاري في «خلق أفعال العباد»

(٧٧) والحديث صحيح.

و«أيضاً» فإن قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة] عائد إلى القرآن) ا. هـ^(١).
 وقال رحمه الله: (وأضاف القول إلى كل منهما باسم الرسول فقال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ لأن الرسول يدل على المرسل، فدل على أنه قول رسول بلغه عن مرسل. لم يقل: إنه لقول ملك ولا بشر بل كفر من جعله قول بشر بقوله: ﴿ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِداً﴾ [١١] وَجَعَلْتُ لَكُمْ مَالاً مَمْدُوداً [١٢] وَبَيْنَ شُهُودَا [١٣] وَمَهَّدْتُ لَهُمْ تَمْهِيداً [١٤] ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ [١٥] كَلَّا إِنَّهُمْ كَانُوا لِآيَاتِنَا عِيناً [١٦] سَاهِقُهُمْ صَعُوداً [١٧] إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَّرُوا [١٨] فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا [١٩] ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا [٢٠] ثُمَّ نَظَرُوا [٢١] ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَ [٢٢] ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ [٢٣] فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ [٢٤] إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ [٢٥] [المدثر]، فمن قال إنه قول بشر أو قول مخلوق غير البشر فقد كفر، ومن جعله قول رسول من البشر فقد صدق؛ لأن الرسول ليس له فيه إلا التبليغ والأداء كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وفي سنن أبي داود عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؟» فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»^(٢) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فإنه أضافه إليه لأنه بلغه وأداه لا لكونه أحدث منه شيئاً وابتداه؛ فإنه سبحانه قال في إحدى الآيتين: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [٤٥] وَمَا هُوَ يَقُولُ سَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ [٤٦] وَلَا يَقُولُ كَافِرٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ [٤٧] نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٤٨] [الحاقة] فالرسول هنا محمد ﷺ. وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [٤٩] ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ [٥٠] مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ [٥١] فالرسول هنا جبريل. والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس؛ فلو كانت إضافته إلى أحدهما لكونه ألف النظم العربي، وأحدث منه شيئاً غير ذلك تناقض الكلام؛ فإنه إن كان نظم أحدهما لم يكن نظم الآخر.

وأيضاً فإنه قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل لقول ملك ولا نبي، ولفظ الرسول يشعر بأنه مبلغ له عن مرسله، لا أنه أنشأ من عنده شيئاً.

وأيضاً فقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ضمير يعود إلى القرآن والقرآن يتناول معانيه ولفظه، ومجموع هذا ليس قولاً لغير الله بإجماع المسلمين، وإطلاق القول بأن

(١) مجموع الفتاوى (٥٤٢/٦).

(٢)

مرّ تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٨٢/١٧ - ٨٣).

القرآن كلام جبريل أو محمد أو غيرهما من المخلوقين كفر لم يقله أحد من أئمة المسلمين؛ بل عظم الله الإنكار على من يقول إنه قول البشر، فقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ فَكَرُوا وَقَدَّرَ ۚ﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٢﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا بَغْيٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٤﴾ سَأَصْلِيهِ سَفَرٌ ﴿٢٥﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَفَرٌ ﴿٢٦﴾ [المدرثر]. فمن قال: إن القرآن قول البشر فقد كفر، وكذلك من قال إنه قول ملك) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٧﴾ إلى آخر السورة. فالرسول هنا جبريل، وفي الآية الأولى محمد ﷺ؛ ولهذا نزه محمداً هناك عن أن يكون شاعراً أو كاهناً، ونزه هنا الرسول إليه أن يكون من الشياطين) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٧﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢٨﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ ﴿٣٠﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٣١﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿٣٢﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيعَ ﴿٣٥﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ فالقرآن قول رسول أرسله الله لم يرسله الشيطان وهو ملك كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين فهو مطاع عند ذي العرش في الملأ الأعلى، والشياطين لا يطاعون في السموات بل ولا يصعدون إليها) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (والرسول في آية الحاقة محمد وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٧﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢٨﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ ﴿٣٠﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٣١﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿٣٢﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيعَ ﴿٣٥﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ فلما أخبر به أنه قول رسول هو ملك من الملائكة نفى أن يكون قول شيطان، ولما أخبر هناك أنه قول رسول من البشر نفى أن يكون قول شاعر أو كاهن فهذا تنزيه للقرآن نفسه ونزه الرسول أن يكون على الغيب بظنين أي متهم وأن يكون بمجنون، فالجنون فساد في العلم، والتهمة فساد في القصد كما قالوا: ساحر أو مجنون) ا. هـ^(٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٥٥ - ٥٥٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ١٣٧).

(٤) النبوات (٢٧١).

(٣) النبوات (١٧٠).

وقال رحمه الله: (وإن احتج محتج بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ١٨ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ قيل له: فقد قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ٤٥ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٢١﴾ [الحاقة] فالرسول في هذه الآية محمد ﷺ والرسول في الأخرى جبريل، فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران. فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث ولهذا قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل ملك ولا نبي، ولا ريب أن الرسول بلغه، كما قال تعالى: ﴿يَكَلِّمُهَا أَلْرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي؟»^(١) ولما أنزل الله: ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الرُّومُ﴾ ١١ [الروم] خرج أبو بكر الصديق فقرأها على الناس فقالوا: هذا كلام أم كلام صاحبك؟ فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد أضافه إلى كل من الرسولين لأنه بلغه وأداه؛ لا لأنه أنشأه وابتداه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ١٨ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ فهذا نعت جبريل الذي قال فيه: ﴿مَنْ كَانَتْ عِدْوًا لِحَبْرِيلَ فَإِنَّهُمْ نَزَّلُوهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ١٧٢ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبٍ مُبِينٍ ﴿١٧٥﴾ [الشعراء] ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (فقال في موضع: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ١٨ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٢١﴾ [الحاقة]، فهذا الرسول محمد ﷺ وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ١٨ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ ﴿٢١﴾ فهذا جبريل، فأضافه تارة إلى الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري. والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ١٨ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينَ ﴿٢١﴾ لأن لفظ الرسول يستلزم المرسل ويدل على أنه مبلغ له عن مرسله لا

(١) مرّ تخريجه. (٢) مجموع الفتاوى (٥٢١/١٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٨٢/١٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٤١/٦) (٥٠/١٢)، (١٣٥)، الجواب الصحيح (٣١٢/٥)، جامع الرسائل (١٥٩/١).

يتكلم به من تلقاء نفسه بخلاف من جعله قولاً لمخلوق بشر أو ملك أو جني أو جعل شيئاً منه قوله، فإن هذا هو الذي توعد الله ﷻ ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ١٨ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ١٩ ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ ٢٠) فهذه صفة جبرائيل. ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ٢١ ﴿فوصف جبرائيل بالكرم والرسالة، والقوة والتمكين عنده، وأنه مطاع وأنه أمين، فوصفه بهذه الصفات الفاضلة ثم عطف عليه بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ٢٢) فأضاف الرسول البشري إلينا وسلب عنه الجنون، وأثبت له رؤية جبرائيل، ونفى عنه البخل والتهمة، وفي هذا تفاوت عظيم بين البشر والملائكة، وبين الصفات والنعم، وهذا قاله بعض المعتزلة، زل به عن سواء السبيل.

والجواب: أولاً: أين هو من قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ٢٣ [الإنشراح]، إلى آخرها وقوله: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ٢٤ ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَىٰ﴾ ٢٥ [الضحى]، وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ٢٦ [الآيات [الفتح]، وقوله: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وأين هو عن قصة المعراج التي تأخر فيها جبرائيل عن مقامه؟ ثم أين هو عن الخلعة؟ وهو التقريب؛ فهذا نزاع من لم يقدر النبي ﷺ قدره.

ثم نقول ثانياً: لما كان جبرائيل هو الذي جاء بالرسالة، وهو صاحب الوحي وهو غيب عن الناس؛ لم يروه بأبصارهم، ولم يسمعوا كلامه بأذانهم وزعم زاعمون أن الذي يأتيه شيطان يعلمه ما يقول، أو أنه إنما يعلمه إياه بعض الإنس، أخبر الله العباد أن الرسول الذي جاء به، ونعته أحسن النعت. وبين حاله أحسن البيان، وذلك كله إنما هو تشريف لمحمد ﷺ، ونفي عنه ما زعموه، وتقدير للرسالة؛ إذ كان هو صاحبه الذي يأتيه بالوحي، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ٢٨ أي أن الرسول البشري لم ينطق به من عند نفسه، وإنما هو مبلغ يقول ما قيل له؛ فكان في اسم الرسول إشارة إلى محض التوسط والسعاية.

ثم وصفه بالصفات التي تنفي كل عيب؛ من القوة والمكنة، والأمانة والقرب من الله سبحانه، فلما استقر حال الرسول الملكي، بين أنه من جهته، وأنه لا يجيء إلا بالخير.

وكان الرسول البشري معلوم ظاهره عندهم، وهو الذي يبلغهم الرسالة، ولولا هؤلاء لما أطاقوا الأخذ عن الرسول الملكي؛ وإنما قال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ إشارة إلى أنه قد صاحبكم سنين قبل ذلك، ولا سابقة له بما تقولون فيه وترمونه؛ من الجنون والسحر وغير ذلك؛ وأنه لولا سابقته وصحبته إياكم لما استطعتم الأخذ عنه؛ ألا تسمعه يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]، - تمييزاً - من المرسلين؛ ثم حقق رسالته بأنه رأى جبرائيل، وأنه مؤتمن على ما يأخذه عنه، فقام أمر الرسالة بهاتين الصفتين، وجاء على الوجه الأبلغ والأكمل والأصلح.

وقد احتجوا بآيات تقدم التنبيه على مقاصدها؛ من وصف الملائكة بالتسبيح، والطاعة، والعبادة وغير ذلك) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٧﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٨﴾ تُطَاعُ ثَمَّ أَيْنَ ﴿١٩﴾﴾ فهذا جبريل. ثم قال: وما صاحبكم بمجنون وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ كقوله في الآية الأخرى: ﴿وَالنَّجِيرِ إِذَا هَوَىٰ ﴿٢٠﴾ مَا صَلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم].

الحكمة في إرسال الرسول البشري إلى البشر دون الملكي.

فقوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ تنبيه على نعمته على البشر وإحسانه إليهم إذ بعث إليهم من يصحبهم ويصحبونه بشراً مثلهم. فإنهم لا يطيقون الأخذ عن الملك كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُتِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٢﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوتَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام].

وروى ابن أبي حاتم، عن أبي زرعة، عن منجاب بن الحرث، عن بشر بن عمار، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس^(٢): ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُتِيَ الْأَمْرُ﴾ لأهلكتناهم، ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ لا يؤخرون. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ يقول: لو أتاهم ملك في صورة رجل ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة، وكذلك قال غيره من المفسرين: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ﴾ قالوا: لخلطنا ولشبهنا عليهم ما يخلطون ويشبهون على أنفسهم، حتى يشكوا فلا يدروا أملك هو أو آدمي.

فبين سبحانه أنه لو أنزل ملكاً لم يمكنهم أن يروه إلا في صورة بشر، كما كان

جبريل يأتي النبي ﷺ إذا رآه الناس في صورة دحية الكلبي، أو في صورة أعرابي لما أتاه وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان. وكذلك لما أتوا إبراهيم ولوطاً وراثة سارة وقوم لوط لم يأتوا إلا في صورة رجال. وكذلك لما أتى جبريل مريم ﷺ لينفخ فيها أنماها في صورة رجل. قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم] وإذا كانوا لا يستطيعون أن يروا الملك إلا في صورة رجل فلو جاءهم لقالوا: «هذا بشر وليس بملك» واشتبه الأمر واختلط، والتبس الأمر عليهم. فلم تكن هذه شبهة تنقطع بإنزال ملك.

وهذا كما قال في السورة الأخرى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٢٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٢٧﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٢٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٢٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا ۝٣٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٣١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْقَالَ حَبَّةٍ أَوْ تَأْتِيَ بِنَا اللَّهُ وَالْمَلَكُ قَبِيلًا ۝٣٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى نُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝٣٣﴾ [الإسراء]؟

وأيضاً في قوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ بيان أنه عربي بعث بلسانهم، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٧٨﴾ [التوبة] قيل: المراد «من أنفس العرب» فالخطاب لهم.

وقيل: «من أنفس بني آدم»، فهو بشر لا ملك ولا جني، لأن الخطاب لجميع الخلق الذي أرسل إليهم. لا سيما وهذه في سورة براءة، وهي من آخر القرآن نزولاً، وقيل إن هذه الآية آخر ما نزل. وقد نزلت بعد دعوة الروم، والفرس، والقبط.

وهو «بالمؤمنين» من هؤلاء كلهم «رؤوف رحيم» ولا ريب أنه ﷺ من الإنس؛ ومن العرب - أفضل الإنس؛ ومن قريش - أفضل العرب؛ ومن بني هاشم - أفضل قريش. و«الأنفس» يراد بهم جنس الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرٌ ﴿١٢﴾ [النور: ١٢]، فقولوه «صاحبكم» مثل قوله «من أنفسكم» ومثل قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢٧].

وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] لم يقصد بهذا اللفظ تفضيل الملك عليه، كما توهمه بعض الناس. كما أن قوله ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ لم يقصد به أن غيره أفضل منه) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال سبحانه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ ١٣) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿١٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿١٥﴾ فالرسول هنا هو الرسول الملكي - جبريل. وقال في السورة الأخرى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بِعَصِ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَكِيزِينَ ﴿٤٧﴾ [الحاقة]، فالرسول هنا محمد ﷺ.

وأضافه إلى هذا الرسول تارة، وإلى هذا تارة، لأن كلا من الرسولين بلغه وأداه. ولفظ «الرسول» يتضمن مرسلًا أرسله. فكان في اللفظ ما يبين أن الرسول مبلغ له عن غيره، لا أن الرسول أحدث شيئاً منه، كما توهمه بعض الناس وظن أن إضافته إلى الرسول تقتضي أنه هو أحدث القرآن العربي. فإنه قصد إضافته إلى هذا تارة وإلى هذا تارة. فلو كان المراد الإحداث لتناقض الخبران.

ولأنه أضافه إليه باسم «رسول» لم يقل «إنه لقول ملك» ولا «قول بشر» بل قد كفر من قال «إنه قول بشر» في قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَوَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِبْنِنَا عِينًا ﴿١٦﴾ سَارِقَهُمْ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ فَكَّرْ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا يَحْمِرُ يُوَزَّرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَاحِلِهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾ [المدثر].

والكلام الذي توعده بسقر من قال: «إنه قول البشر» هو الكلام الذي أضافه إلى رسول من البشر تارة وإلى رسول من الملائكة تارة لأن المراد هناك أنه بلغه، والذي

كفره قال: «إنه أنشأه» و«إنه كلام نفسه»، سواء كان المراد المعنى، أو اللفظ، أو كلاهما، فإن الذي لعنه الله هو الذي قال: «إن هذا إلا قول البشر».

فمن قال: (إن هذا القرآن قول البشر) فهو من جنس قوله من بعض الوجوه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقِ اللَّهَ مَأْمُونًا﴾ [التوبة: ٦]، فأخبر أن ما يسمعه المستجير هو كلام الله، والمستجير يسمعه بصوت القارئ، والصوت: صوت القارئ والكلام: كلام الباري، كما قال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»^(١). وقال: «الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قبيته»^(٢).

وكذلك ذكر في غير موضع أن الصوت المسموع من العبد هو صوت العبد، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُفَضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ﴾ [الحجرات: ٣]، وقال لقمان لابنه: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِّنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١] هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ولم يكن أحد من السلف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد وبالمتلو مجرد معنى واحد يقوم بذات الباري تعالى: بل الذي كانوا عليه أن القرآن كلام الله تكلم الله به بحروفه ومعانيه، ليس شيء منه كلاماً لغيره، لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما؛ بل قد كفر الله من جعله قول البشر، مع أنه سبحانه أضافه تارة إلى رسول من البشر وتارة إلى رسول من الملائكة فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا يُلْمُونَ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا لَذَكَّرُونَ (٤٢) نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) [الحاقة] فالرسول هنا محمد ﷺ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٨) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَمِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَّجِيزٍ (٢٥) فَإِنَّ تَذَهُبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) فالرسول هنا جبريل.

وأضافه سبحانه إلى كل منهما باسم رسول لأن ذلك يدل على أنه مبلغ له عن غيره، وأنه رسول فيه لم يحدث هو شيئاً منه؛ إذ لو كان قد أحدث منه شيئاً لم يكن

(٢) مرّ تخريجه.

(١) مرّ تخريجه.

(٣) الرد على المنطقيين (٥٤١ - ٥٤٢).

رسولاً فيما أحدثه بل كان منشئاً له من تلقاء نفسه، وهو سبحانه يضيفه إلى رسول من الملائكة تارة ومن البشر تارة، فلو كانت الإضافة لكونه أنشأ حروفه لتناقض الخبران، فإن إنشاء أحدهما له يناقض إنشاء الآخر له) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأما الملائكة فالأنبياء لا تدعو الملائكة إلى الإيمان بهم بل الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم وتؤيدهم، فالخوارق التي تكون بأفعال الملائكة تختص بالأنبياء وأتباعهم، لا تكون للكفار والسحرة والكهان، ولهذا أخبر الله تعالى أن الذي جاءه بالقرآن ملك لا شيطان فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَمِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ۝﴾ ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَمِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ۝﴾ فبين أن الرسول الذي جاء به إلى محمد رسول كريم، ذو قوة، عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين. وهذه صفة لا تنطبق على ما في النفس من الخيال، ولا على العقل الفعال. فإنه أخبر أنه مطاع، والمطاع فوق السموات ليس هذا ولا هذا. وكذلك قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ ۝﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ۝﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ۝﴾ [النحل] ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَمِينِ ۝ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ۝﴾ فأخبر أن الذي جاء بالقرآن رسول كريم، ذو قوة عند ذي العرش مكين، وأنه مطاع ثم أمين، وهذا يمتنع أن تكون صفة أعراض تقوم بنفوس البشر، ولا سيما عند هؤلاء الفلاسفة الذين يمنعون أن يكون لدعاء البشر تأثير في الملائكة

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٣٠٧ - ٣٠٨).

(٢) النبوات (٧).

(٣) الرد على المنطقيين (٤٩١ - ٤٩٢).

الأعلى، وقد أخبر أنه رآه عند سدرة المحتهى عندها جنة المأوى، وأنه رآه بالأفق المبين، وما يحصل في نفس الرسول لا يكون هنا ولا هنا) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٨﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿٢٥﴾﴾ وبين في هذه الآية أن الرسول البشري الذي صحبناه وسمعناه منه ليس بمجنون، وما هو على الغيب بمتهم. وذكره باسم «الصاحب» لما في ذلك من النعمة به علينا إذ كنا لا نطيق أن نتلقى إلا عمن صحبناه وكان من جنسنا كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الشوبة: ١٣٨]، وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيشُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ٩]، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالنَّجِيرِ إِذَا هَوَىٰ ﴿٢١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم]، وبين أن الرسول الذي من أنفسنا والرسول الملكي أنهما مبلغان فكان في هذا تحقيق أنه كلام الله.

فلما كان الرسول البشري يقال: إنه مجنون أو مفتر نزهه عن هذا وهذا، وكذلك في السورة الأخرى قال: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٨﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الحاقة] وهذا مما يبين أنه أضافه إليه لأنه بلغه وأداه لا لأنه أحدثه وأنشأه فإنه قال: ﴿وَلَهُمْ لَنَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشعراء]، فجمع بين قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ وبين قوله: ﴿وَلَهُمْ لَنَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء] والضميران عائدان إلى واحد، فلو كان الرسول أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلاً من رب العالمين؛ بل كان يكون تنزيلاً من الرسول. ومن جعل الضمير في هذا عائداً إلى غير ما يعود إليه الضمير الآخر مع أنه ليس في الكلام ما يقتضي اختلاف الضميرين، ومن قال إنَّ هذا عبارة عن كلام الله - فقل له: هذا الذي تقرؤه أهو عبارة عن العبارة التي أحدثها الرسول الملك أو البشر على زعمك؟ أم هو نفس تلك العبارة؟ فإن جعلت هذا عبارة عن تلك العبارة جاز أن تكون عبارة جبريل أو الرسول عبارة عن عبارة الله، وحينئذ فيبقى النزاع لفظياً؛ فإنه متى قال إن محمداً سمعه من جبريل جميعه، وجبريل سمعه من الله جميعه، والمسلمون سمعوه من الرسول جميعه، فقد قال الحق - وبعد هذا فقلوه: (عبارة) لأجل التفريق بين التبليغ والمبلغ عنه كما سنبينه) ١. هـ^(٢).

﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أُبِينُ﴾ (١١).

(قال معقل: ثم جلست إلى ميمون بن مهران، فقلت يا أبا أيوب: لو قرأت لنا سورة ففسرتها، قال: فقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) [التكوير] حتى إذا بلغ: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أُبِينُ﴾ (١١) قال: ذاكم جبريل (١) ا. هـ (٢).

﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أُبِينُ﴾ (١١) وَمَا صَاحِبُكُمْ يَبْجُتُونُ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْاَلْبِينِ (١٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْاَلْبِيبِ بِضَنِينِ (١٤).

﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أُبِينُ﴾ (١١) وَمَا صَاحِبُكُمْ يَبْجُتُونُ (١٢).

(وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْوَى إِذَا هَوَىٰ﴾ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) [النجم]، وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ يَبْجُتُونُ﴾ (١٢) المراد به محمد ﷺ لكونه صاحب البشر؛ فإنه إذا كان قد صحبتهم كان بينه وبينهم من المشاركة ما يمكنهم أن ينقلوا عنه ما جاءه من الوحي، وما يسمعون به كلامه، ويفقهون معانيه، بخلاف الملك الذي لم يصحبهم، فإنه لا يمكنهم الأخذ عنه) ا. هـ (٣).

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْاَلْبِينِ﴾ (١٣).

(وفي الصحيحين (٤) عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة رضي الله عنها، فقالت: «يا أبا عائشة! ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية» [قلت: «وما هن؟» قالت]: «من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. ومن زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية. ومن زعم أنه كتم شيئاً مما أوحى إليه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: «يا أم المؤمنين! أنظريني، ولا تعجليني. ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْاَلْبِينِ﴾ (١٣) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٤) [النجم]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين. رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض». وفي لفظ: فقلت «فأين قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (١٠) [النجم].

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠٦/٧).

(١) ابن جرير (٨١/٣٠).

(٤) البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

(٣) منهاج السنة (٨/٤٧٠).

قالت: إنما ذاك جبريل عليه السلام، كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه هذه المرة في صورته [التي هي صورته]، فسد أفق السماء.

وفي الصحيحين^(١) أيضاً عن الشيباني قال: سألت زر بن حبيش عن قول الله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم]. قال أخبرني ابن مسعود أن: «النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح». وعن ابن مسعود أيضاً قال: ما كذب الفؤاد ما رأى، قال: «رأى جبريل له ستمائة جناح». وعنه أيضاً: لقد رأى من آيات ربه الكبرى، قال: «رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح». وقال البخاري في بعض طرقه: «رأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق». وعن عبد الله قال: لقد رأى من آيات ربه الكبرى، قال: «رأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق» وفي صحيح مسلم^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه: ولقد رآه نزلة أخرى، قال: «رأى جبريل» ١. هـ^(٣).

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينَ﴾.

(لأن قراءة الأكثرين: بظنين، أي بمتهم. وهو المناسب، أي ما هو بمتهم على ما غاب عنا، بل هو أمين في إخباره بالغيب. وإذا قيل: ضنين، بمعنى بخيل، كان ذلك وصفاً له بأنه لا يبخل بعلم الغيب، بل يبين الحق. ولهذا قال: على الغيب بظنين) ١. هـ^(٤).

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ﴾.

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾.

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ فإذا شاء الاستقامة صار مستقيماً ١. هـ^(٥).

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

(وقال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ٢٨) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فأثبت مشيئة العبد، وجعلها لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى ١. هـ^(٦).

(١) البخاري (٤٨٥٦)، ومسلم (١٧٤). (٢) مرّ تخريجه.

(٣) الرد على المنطقيين (٤٩٠ - ٤٩١).

(٤) مجموع الفتاوى (٣١٥/١٦) الرد على المنطقيين (٢٧٨)، درء تعارض العقل (٢١٨/١٠)، والجواب الصحيح (٤٤٦/٥ - ٤٤٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٧٥/٨). (٦) منهاج السنة (٢٣٦/٣ - ٢٣٧).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ لا يدل على أن العبد ليس بفاعل لفعله الاختياري، ولا أنه ليس بقادر عليه، ولا أنه ليس بمريد؛ بل يدل على أنه لا يشاؤه إلا أن يشاء الله، وهذه الآية رد على الطائفتين: المجبرة الجهمية، والمعتزلة القدرية، فإنه تعالى قال: ﴿لَنْ يَشَاءَ اللَّهُ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) فأثبت للعبد مشيئة وفعلًا، ثم قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩) فبين أن مشيئة العبد معلقة بمشيئة الله. والأولى رد «على الجبرية»، وهذه رد على القدرية، الذين يقولون: قد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله كما يقولون: إن الله يشاء ما لا يشاؤون.

وإذا قالوا: المراد بالمشيئة هنا الأمر على أصلهم، والمعنى: وما يشاؤون فعل ما أمر الله به إن لم يأمر الله به. قيل: سياق الآية يبين أنه ليس المراد هذا؛ بل المراد: وما تشاؤون بعد أن أمرتم بالفعل أن تفعلوه إلا أن يشاء الله؛ فإنه تعالى ذكر الأمر والنهي والوعد والوعيد ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ اخْتَدِ إِلَيْكَ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٣٠) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ ﴿[الإنسان] وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ نفي لمشيئتهم في المستقبل. وكذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تعليق لها بمشيئة الرب في المستقبل، فإن حرف ﴿أَنْ﴾ تخلص الفعل المضارع للاستقبال، فالمعنى: إلا أن يشاء بعد ذلك، والأمر متقدم على ذلك، وهذا كقول الإنسان: لا أفعل هذا إلا أن يشاء الله.

وقد اتفق السلف والفقهاء على أن من حلف فقال: لأصلين غداً إن شاء الله، أو لأقضين ديني غداً إن شاء الله، ومضى الغد ولم يقضه أنه لا يحث، ولو كانت المشيئة هي الأمر لحث؛ لأن الله أمره بذلك، وهذا مما احتج به على القدرية، وليس لهم عنه جواب، ولهذا خرق بعضهم الإجماع القديم وقال: إنه يحث.

و«أيضاً» فقلوه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ سيق لبيان مدح الرب والثناء عليه ببيان قدرته، وبيان حاجة العباد إليه، ولو كان المراد لا تفعلون إلا أن يأمركم لكان كل أمر بهذه المثابة، فلم يكن ذلك من خصائص الرب التي يمدح بها، وإن أريد أنهم لا يفعلون إلا بأمره كان هذا مدحاً لهم لا له) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ﴾ فأخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيئته، ومع هذا فلا يوجب ذلك وجود الفعل منهم، إذ أكثر ما فيه أن جعلهم شائين. ولا يقع الفعل منهم إلا حين يشاؤه منهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (٥٥) ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر]، وقال: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٧٨) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، ومع هذا فلا يقع الفعل منهم حتى يريد من نفسه إعانتهم وتوفيقهم، فهنا أربع إرادات: إرادة البيان، وإرادة المشيئة، وإرادة الفعل، وإرادة الإعانة - والله أعلم) ١. هـ^(١).

(١) جامع الرسائل (٧٧/١)، وهي الرسالة المسماة (رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان).

سورة الانفطار

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٨)

(فيقال: المُرَكَّبُ لِمَا رَكَّبَهُ غيره، كما قال تعالى: ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٨) ويقال: رَكَّبْتُ الباب في موضعه ونحو ذلك، وهذا هو مفهوم المُرَكَّب في اللغة) ١. هـ^(١).

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (١٢)

(وكذلك لفظ (الأبرار) إذا أطلق دخل فيه كل بقي من السابقين والمقتصدين، وإذا قرن بالمقربين كان أخص، قال تعالى في الأول: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (١٢) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٣) وقال في الثاني: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّاتٍ ﴾ (١٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ (١٥) كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ (١٦) يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (١٧) [المطففين] ١. هـ^(٢).

(١) الصفدية (١/١٠٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/١٦٩).

سورة المطففين

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

(وقوله: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين - يقوم أحدهم في العرق إلى أنصاف أذنيه» (١) (٢) هـ.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْمُومٌ (٩).

(فالسماء أبداً في الجهة العالية التي علوها ثابت لازم لا يتبدل، والأرض أبداً في الجهة السافلة التي سفولها ثابت لازم لا يتبدل، وكلما علت اتسعت؛ وكلما سفلت ضاقت؛ فلهذا كان الأعلى هو الأوسع وكان السفلى هو الأضيق؛ ولهذا قابل الله تعالى بين عليين وبين سجين في كتابه فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (٧) وقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (٧) ولم يقل في سفلين، كما لم يقل هناك في وسعين؛ ليعين الضيق والخرج الذي في المكان؛ كما بين سفوله بمقابلته بعلين؛ وبين أيضاً سعة عليين بمقابلة سجين؛ فيكون قد دل على العلو والسعة التي للأبرار، وعلى السفول والضيق الذي للفجار) (٣) هـ.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٠).

(وفي الحديث: «إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو كل قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾» رواه الترمذي وصححه (٤) (٥) هـ.

(١) البخاري (٦٩٦/٨)، مسلم (٢١٩٦/٤). (٢) الرد على المنطقيين (٤٥٩).

(٣) بيان تليس الجهمية (٢١٧/٢).

(٤) المسند (٢٩٧/٢) الترمذي (٤٣٤/٥)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والحاكم (٥١٧/٢)، والحديث صحيح.

(٥) مختصر الفتاوى المصرية (١١١)، جامع الرسائل (٢٢٥/١ - ٢٢٦)، مجموع الفتاوى (١٧/٥٢٢ - ٥٢٣) تفسير آيات أشكلت (٣٨٣/١)، جامع المسائل (٥٢/٤).

وقال رحمه الله: (وإن زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه، فذلك (الران) الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾) رواه الترمذي وصححه، وفي الصحيح أنه قال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»^(١) والغين حجاب رقيق أرق من الغيم فأخبر أنه يستغفر الله استغفاراً يزيل الغين عن القلب فلا يصير نكتة سوداء كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لا تصير رينا) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال: «إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى [فيه]: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾») ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (والمؤمن لا يزال يخرج من الظلمات إلى النور، ويزداد هدى، فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك، فيتوب مما تركه وفعله، والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنوب، كما قال النبي ﷺ: «إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾») ١. هـ^(٤).

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾

(على ذلك الأحاديث الصحيحة التي في الصحيح وغيره، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما مع موافقة ظاهر القرآن، قالوا: وقوله: ﴿لَمَحْجُورُونَ﴾ يشعر بأنهم عاينوا ثم حجبوا، ودليل ذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾؛ فعلم أن الحجب كان يومئذ. فيشعر بأنه يختص بذلك اليوم، وذلك إنما هو في الحجب بعد الرؤية فأما المنع الدائم من الرؤية فلا يزال في الدنيا والآخرة) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وكذلك قال أبو عبد الله الماجشون - وهو من أقران مالك - في كلام له: فورب السماء والأرض ليجعل الله رؤيته يوم القيامة للمخلصين ثواباً، فتنضر

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨٣/١٥).

(٤) جامع الرسائل (٢٣٧/١).

(١) مّ تخرجه.

(٣) الاستقامة (١٩٢/٢ - ١٩٣).

(٥) مجموع الفتاوى (٤٦٦/٦).

بها وجوههم دون المجرمين، وتفلج بها حجتهم على الجاحدين، جهنم وشيعته، وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون، لا يرونه كما زعموا أنه لا يرى، ولا يكلمهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم؛ كيف لم يعتبروا يقول الله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ۚ فَذَرِكُنِي﴾ (١٥) أفیظن أن الله يقصصهم ويعنتهم ويعذبهم بأمر يزعم الفاسق أنه وأوليائه فيه سواء، ومثل هذا الكلام كثير في كلام غير واحد من السلف، مثل وكيع بن الجراح وغيره) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ۚ فَذَرِكُنِي﴾ (١٥) واختصاص بعض خلقه بالحجاب يمنع أن يكون الجميع محجوبين، وإذا كان البعض محجوباً والبعض ليس محجوباً امتنع أن يكون فيهم كلهم، لأن نسبتهم إليه حينئذ تكون نسبة واحدة، ووجب أن يكون بينه وبين بعضهم حجاباً، وذلك يقتضي المباينة كما تقدم.

ومثل هذا قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾ [الأنعام: ٦٢] وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] وقوله: ﴿وَعَرِضُْوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] فلفظ (إليه) و(عنده) و(عليه) بحيث يكون بعض الخلق مردوداً إليه وبعضهم موقوفاً عليه ومعروضاً عليه وبعضهم ناكسو رؤوسهم عنده يقتضي أن الخلق ليسوا كلهم كذلك، وأنهم قبل ذلك لم يكونوا كذلك، وأنهم مباينون له منفصلون عنه، وأنه بحيث يكون شيء عنده ويرد شيء إليه ويعرض، ولو كانت ذاته مختلطة بذواتهم لامتنع ذلك، وهذا يقتضي مباينته وامتيازته واختصاصه بجهة وحد) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وفي الأحاديث والآثار ما يصدق هذا، قال الله تعالى في حق الكفار: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ۚ فَذَرِكُنِي﴾ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات؛ ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى) ١. هـ^(٣).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٤٨ - ٥٤٩).

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧).

وقال رحمه الله: (ويقولون: إن الله يُرى بالأيصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون لأنهم عن الله محجوبون قال الله تعالى: ﴿لَا يَنظُرُونَ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥) ﴿١﴾ هـ.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمَهُمْ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرْءَهُمْ مِنْ تَسْلِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾.

(وأهل الجنة نوعان: سابقون مقربون، وأبرار أصحاب يمين.

قال تعالى: ﴿لَا يَنظُرُونَ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥) ﴿٢﴾ هـ. وقال رحمه الله: ﴿لَا يَنظُرُونَ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥) ﴿٣﴾ هـ. ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمَهُمْ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرْءَهُمْ مِنْ تَسْلِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾.

قال ابن عباس: «تمزج لأصحاب اليمين مزجاً، ويشربها المقربون صرفاً» (٢) هـ. (٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾) إن (البر) سبب هذا الثواب و(البر) مشترك بين الصنفين، وكذلك كل ما علقت به (الرؤية) من اسم الإيمان ونحوه يقتضي أنه هو السبب في ذلك فيعم الطائفتين (٤) هـ.

وقال رحمه الله: (والمقربون هم فوق أصحاب اليمين الأبرار، الذين كتب لهم في عليين: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا﴾ (١٨) ﴿٤﴾ هـ. ﴿لَا يَنظُرُونَ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥) ﴿٥﴾ هـ. ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمَهُمْ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرْءَهُمْ مِنْ تَسْلِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾).

قال ابن عباس: ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً. فقد أخبر أن الأبرار في نفس النعيم، وأنهم يسقون من الشراب الذي وصفه الله تعالى، ويجلسون على الأرائك ينظرون فكيف يقال: إن المقربين - الذين هم أعلى من هؤلاء بحيث يشربون صرفها ويمزج لهؤلاء مزجاً - إنما تقريبهم هو مجرد النعيم الذي

(٢) ابن جرير (١٠٩/٣٠).

(١) الفتاوى (التسعينية) (٩٨/٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٣٩/٦).

(٣) الاستقامة (١١١/٢ - ١١٢).

أولئك فيه؟ هذا مما يعلم فساده بأدنى تأمل (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وكذلك ذكر في سورة المطففين فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين] إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي عَلَيْنٍ﴾ (٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنٌ (٩) كِتَابٌ مَرْهُومٌ (١٠) يَشْهَدُهُ الْمُرُؤُونَ (١١) إِنَّ الْآثِرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٢) عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ (١٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (١٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ (١٥) خَتَمَهُ بِكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ (١٦) وَمُرَاجِعُهُمْ فِي النَّعِيمِ (١٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (١٨) ، وعن ابن عباس رضي الله عنه وغيره من السلف قالوا: «يمزج لأصحاب اليمين مزجاً ويشرب بها المقربون صرفاً»، وهو كما قالوا، فإنه تعالى قال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ ولم يقل: يشرب منها لأنه ضمن ذلك قوله يشرب يعني يروي بها، فإن الشارب قد يشرب ولا يروي فإذا قيل يشربون منها لم يدل على الري، فإذا قيل يشربون بها كان المعنى يروون بها، فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلى دونها؛ فلهذا يشربون منها صرفاً، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجاً، وهو كما قال تعالى في سورة الإنسان: ﴿كَانَ مِرْاجُهَا كَافُورًا﴾ (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) [الإنسان] ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، فإنه لو قيل: يشرب منها لم تدل على الري، فضمن يشرب معنى يروي، فقيل: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ فأفاد ذلك أنه شرب يحصل معه الري) ا. هـ (٣).

﴿قَالِیْمَ الَّذِیْنَ ءَامَنُوْا مِنْ الْکُفَّارِ یَضْحَکُوْنَ﴾ (٢٤) عَلَى الْأَرَاكِ یَنْظُرُونَ (٢٥) هَلْ تُؤَبُّ الْکُفَّارُ مَا کَانُوْا یَفْعَلُوْنَ (٢٦) .

(روي عن ابن عباس: أنه يفتح لهم باب من الجنة وهم في النار فيسرعون إليه فيغلق، ثم يفتح لهم باب آخر فيسرعون إليه فيغلق، فيضحك منهم المؤمنون، قال تعالى: ﴿قَالِیْمَ الَّذِیْنَ ءَامَنُوْا مِنْ الْکُفَّارِ یَضْحَکُوْنَ﴾ (٢٤) عَلَى الْأَرَاكِ یَنْظُرُونَ (٢٥) هَلْ تُؤَبُّ الْکُفَّارُ مَا کَانُوْا یَفْعَلُوْنَ (٢٦) ا. هـ (٤).

- (١) مجموع الفتاوى (٣/٤١٧)، (٦/١٢ - ١٣)، (١١/٢٣ - ٢٤)، جامع الرسائل (١/٢٢٨).
- (٢) مجموع الفتاوى (١٨/١٧٧ - ١٧٨).
- (٣) مجموع الفتاوى (٢١/١٢٣).
- (٤) مجموع الفتاوى (٧/١١٢).

سورة الانشقاق

وقال في السجود في هذه السورة:

(ففي الصحيحين عن أبي رافع قال صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا الشَّمَاۤءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم، ولا أزال أسجد بها حتى ألقاه^(١)، وهذا الحديث قد اتفق العلماء على صحته) ١. هـ^(٢).

﴿وَإِذْ أَنْتَ لِرَبِّكِ وَحَقَّتْ﴾.

(قوله: ﴿وَإِذْ أَنْتَ لِرَبِّكِ وَحَقَّتْ﴾ أي سمعت) ١. هـ^(٣).

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَلْقِهِ﴾.

(﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَلْقِهِ﴾ فذكر أنه يكدح إلى الله فيلاقيه، والكدح إليه يتضمن السلوك والسير إليه، واللقاء يعقبهما) ١. هـ^(٤).

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبٌ بِمِيزَانٍ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾.

(وكذلك لما قال: «من نوقش الحساب عذب، قالت له عائشة: ألم يقل الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَتَبٌ بِمِيزَانٍ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: «ذلك العرض ومن نوقش الحساب عذب»^(٥).

ومعلوم أن الحساب اليسير لا يتناول من نوقش، وقد زادها بياناً، فأخبر أنه العرض لا المقابلة المتضمنة للمناقشة) ١. هـ^(٦).

(١) البخاري (١٩٤/١)، ومسلم (٨٩/٢). (٢) مجموع الفتاوى (١٥٣/٢٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٩٠/١١) (١٣٣/١٣).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٦٢/٦ - ٤٦٣).

(٥) مرّ تخريجه.

(٦) الجواب الصحيح (٢٢٧/١ - ٢٢٨)، درء تعارض العقل (٢٢٨/٥)، الصفدية (١٤/١)، منهاج السنة (٤٦٨/١).

﴿فَوَقَّ الْحَسَابُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨).

(وأيضاً ففي الصحيح أنه قال ﷺ: «من نوقش الحساب عذب». قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول في كتابه: ﴿فَوَقَّ الْحَسَابُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨)، فقال: ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عذب».

ومعلوم أن قوله: ﴿فَوَقَّ الْحَسَابُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ لا يدل ظاهره على أن المحاسب يناقش، بل الظاهر من لفظ الحساب اليسير أنه لا تكون فيه مناقشة، ومع هذا فلما قال: من نوقش الحساب عذب، فظنت امرأة تحيه ويحبها - وهي أحب النساء إليه، وأبوها أحب الرجال إليه - أن ظاهر خطابه يعارض تلك الآية - سألته عن ذلك ولم تسكت^(١).

وقال رحمه الله: (فلما نفى النبي ﷺ مناقشة الحساب عن الناجين، لم ينف كل ما يُسَمَّى حساباً، والحسابُ يراد به الموازنة بين الحسنات والسيئات، وهذا يتضمن المناقشة، ويُراد به عرض الأعمال على العامل وتعريفه بها.

ولهذا لما تنازع أهل السنة في الكفار: هل يحاسبون أم لا؟ كان فصل الخطاب إثبات الحساب، بمعنى عدّ الأعمال وإحصائها وعرضها عليهم، لا بمعنى إثبات حسنات نافعة لهم في ثواب يوم القيامة تقابل سيئاتهم) ا. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (إن العباد لا بد لهم من سيئات، ولا بد في حياتهم من تقصير، فلولا عفو الله لهم عن السيئات، وتقبله أحسن ما عملوا لما استحقوا ثواباً. ولهذا قال ﷺ: «من نوقش الحساب عُدِّبَ»، قالت عائشة: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِحِسَابِهِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ نَفْسُهَا وَآقَرُهَا كِتَابُهُ﴾ [الحاقة] قال: ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عُدِّبَ» ا. هـ^(٣).

﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْشَّفَقِ﴾ (١١).

(قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْشَّفَقِ﴾ (١١)، بالحمرة، وما قبلها من النهار، وفهم أكثر الصحابة وأكابرهم من الشفق الحمرة. قال عمر وابن عمر وابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهم: «الشفق الحمرة» وقال عبادة بن الصامت وشداد بن أوس: «الشفق

(١) درء تعارض العقل (٤٨/٧).

(٢) درء تعارض العقل (٢٢٩/٥).

(٣) جامع الرسائل (١٥٠/١).

شفقان الحمرة والبياض، فإذا غابت الحمرة حلت الصلاة^(١) ا. هـ^(٢).

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾

(وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ^(٧) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ^(٨)) فهذا يتناول جميع القرآن، وأنه من قرئ عليه القرآن فهو مأمور بالسجود، والمصلي قد قرئ عليه القرآن، وذلك سبب للأمر بالسجود، فلهذا يسمع القرآن ويسجد الإمام والمنفرد يسمع قراءة نفسه وهو يقرأ على نفسه القرآن وقد يقال: لا يصلون؛ لكن قوله: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ [السجدة: ١٥] صريح في السجود المعروف، لا اقترانه بلفظ الخرو. وأما هذه الآية ففيها نزاع، قال أبو الفرج^(٣): ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ ^(٩) فيه قولان:

أحدهما: لا يصلون، قاله عطاء، وابن السائب^(٤).

والثاني: لا يخضعون له، ولا يستكينون له، قاله ابن جرير^(٥).

واختاره القاضي أبو يعلى، قال: واحتج بها قوم على وجوب سجود التلاوة، وليس فيها دلالة على ذلك، وإنما المعنى لا يخشعون، ألا ترى أنه أضاف السجود إلى جميع القرآن، والسجود يختص بمواضع منه.

قلت: القول الأول هو الذي يذكره كثير من المفسرين، لا يذكرون غيره: كالثعلبي، والبغوي، وحكوه عن مقاتل، والكلبي وهو المنقول عن مفسري السلف، وعليه عامة العلماء.

وأما القول الثاني: فما علمت أحداً نقله عن أحد من السلف، والذين قالوه إنما قالوه لما رأوا أنه لا يجب على كل من سمع شيئاً من القرآن أن يسجد، فأرادوا أن يفسروا الآية بمعنى يجب في كل حال. فقالوا: يخضعون، ويستكينون، فإن هذا يؤمر به كل من قرئ عليه القرآن) ا. هـ^(٦).

(١) أخرج هذه الآثار ما عدا أثر عمر، وابن عباس: الدارقطني (١/٢٦٩)، والبيهقي في السنن (٣٧٣/٢).

(٢) شرح العمدة - الصلاة (١٧٦). (٣) زاد المسير (٩/٦٨).

(٤) زاد المسير (٩/٦٨). (٥) ابن جرير (٣٠/١٢٥).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٣/١٥٠ - ١٥٢).

سورة البروج

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (١٠).
 (وقد دل على ذلك أيضاً ما ذكره الله في قصة أصحاب الأخدود حيث قال:
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾).

وقد روى مسلم^(١) في صحيحه عن صهيب قصتهم مبسطة، فيها: أن الراهب صبر حتى قتل، وأن الغلام أمر بقتل نفسه لما علم أن ذلك سبب لإيمان الناس إذا رأوا تلك الآية، وأن الناس لما آمنوا فتنهم الكفار حتى يرجعوا عن دينهم فلم يرجعوا، حتى إن المرأة التي أرادت أن ترجع أنطق الله صبيها، وقال: اصبري يا أماء فإنك على الحق) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: ﴿الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ وكانت فتنتهم أنهم ألقوهم في النار حتى كفروا) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة) ١. هـ^(٤).

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾.

(والودود فعول من الود، وقال شعيب: ﴿إِنَّ رَجِيماً وَدُوداً﴾ [هود: ٩٠] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ فقرنه بالرحيم في موضع وبالغفور في موضع، قال أبو بكر بن الأنباري: الودود معناه المحب لعباده، من قولهم: وددت الرجل أوده وداً ووداً ووداً ويقال: وددت الرجل وداً ووداداً وودادة. وقال الخطابي: هو اسم مأخوذ من الود وفيه وجهان: أحدهما أن يكون فعولاً في محل مفعول كما قيل رجل هبوب بمعنى

(١) مسلم (٢٢٩/٨ - ٢٣١ - النووي). (٢) الاستقامة (٢/٣٣٢).

(٣) الصارم المسلول (٤٩٥).

(٤) منهاج السنة (٢٠٦/٦)، مجموع الفتاوى (١٨٦/١٨).

مهيّب وفرس ركوب بمعنى مركوب، والله ﷻ مودود في قلوب أوليائه لما يعرفونه من إحسانه إليهم، والوجه الآخر أن يكون بمعنى الود أي أنه يود عباده الصالحين بمعنى أنه يرضى عنهم ويتقبل أعمالهم ويكون معناه أن يوددهم إلى خلقه كقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَّكُمْ الرَّحْمَنُ وَدًّا﴾ [مريم: ٩٦] قلت قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَّكُمْ الرَّحْمَنُ وَدًّا﴾ فسروها بأنه يحبهم ويحبهم إلى عباده كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله العبد نادى يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض»^(١) وقال في البغض مثل ذلك. وقال عبد بن حميد أنبأ عبيد الله بن موسى عن ابن أبي ليلى عن الحكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿سَيَجْعَلُ لَّكُمْ الرَّحْمَنُ وَدًّا﴾ قال يحبهم ويحبهم، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً وقال عبد أخبرني شابة عن ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿سَيَجْعَلُ لَّكُمْ الرَّحْمَنُ وَدًّا﴾ قال: يحبهم ويحبهم إلى المؤمنين، أخبرنا عبد الرزاق عن الثوري عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس ﴿سَيَجْعَلُ لَّكُمْ الرَّحْمَنُ وَدًّا﴾ قال: محبة، وهذا فيه إثبات حبه لهم بعد أعمالهم بقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَّكُمْ الرَّحْمَنُ وَدًّا﴾ وهو نظير قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فهو يحبهم إذا اتبعوا الرسول، ونظير قوله في الحديث الصحيح «ولا يزال عبيد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها»^(٢) وكذلك قوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُسْتَطِيرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْنِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوسٍ﴾ [الصف].

وهذه الآيات وأشباهاها تقتضي أن الله يحب أصحاب هذه الأعمال فهو يحب التوابين، وإنما يكونون توابين بعد الذنب، ففي هذه الحال يحبهم، وهذا مبني على الصفات الاختيارية، فمن نفاها رد هذا كله، ولهم قولان: أحدهما: أن المحبة قديمة، فهو يحبهم في الأزل إذا علم أنهم يموتون على حال مرضية، ويقولون: إن الله يحب الكفار في حال كفرهم إذا علم أنهم يموتون على الإيمان، ويبغض المؤمن إذا علم أنه يرتد، هذا قول ابن كلاب ومن تبعه، ثم منهم من يفسر المحبة بالإرادة. ومنهم من يقول هي صفة زائدة على الإرادة، والقول الثاني يجعلون هذا من باب الفعل فالمحبة

عندهم إحسانه إليهم والإحسان عندهم ليس فعلاً قائماً به بل بائناً عنه . والكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة والأدلة العقلية إنما تدل على القول الأول كما قد بسط في غير هذا الموضع إذ المقصود هنا ذكر اسمه الودود، والأكثر على ما ذكره ابن الأنباري وأنه فعول بمعنى فاعل أي هو الواد كما قرنه بالغفور، وهو الذي يغفر، وبالرحيم وهو الذي يرحم، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، ثنا عيسى بن جعفر قاضي الري، ثنا سفيان في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، قال: محب وقال: قُرئ على يونس، ثنا ابن وهب قال وقال ابن زيد: قوله: ﴿الْوَدُودُ﴾ قال: الرحيم، وقد ذكر فيه قولين: القول الأول رواه من تفسير الوالبي عن ابن عباس قوله: الودود قال: الحبيب، والثاني قول ابن زيد: الرحيم، وما ذكره الوالبي أنه الحبيب قد يراد به المعنيان أنه يُحِبُّ وَيُحَبُّ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ يَحِبُّهُ وَأَوْلِيَائِهِ يَحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، والبغوي ذكر الأمرين فقال: وللودود معنيان: أن يحب المؤمنين، وقيل هو بمعنى المودود أي محبوب المؤمنين، وقال أيضاً في قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ أي المحب لهم وقيل: معناه المودود كالحلوب والركوب بمعنى المحلوب والمركوب، وقيل: يغفر ويود أن يغفر وقيل المتودد إلى أوليائه بالمغفرة: قلت: هذا اللفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل كقول النبي ﷺ: «تزوجوا الودود الولود» وفعول بمعنى فاعل كثير كالصبور والشكور وأما مفعول فقليل وأيضاً فإن سياق القرآن يدل على أنه أراد أنه هو الذي يود عباده كما أنه هو الذي يرحمهم ويغفر لهم، فإن شعيباً قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] فذكر رحمته ووده كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] وهو أراد وصفاً يبين لهم أنه سبحانه يغفر الذنب ويقبل على التائب وهو كونه ودوداً كما قال إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أن الله يفرح بتوبة التائب أشد من فرح من فقد راحلته بأرض دوية مهلكة ثم وجدها بعد اليأس فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له ومودته له وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ فإنه مثل قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨] وأيضاً فإن كونه مودوداً أي محبوباً يذكر على الوجه الكامل الذي يتبين اختصاصه به مثل اسم الإله فإن الإله المعبود هو مودود بذلك ومثل اسمه الصمد ومثل ذي الجلال والإكرام ونحو ذلك وكونه مودوداً ليس بعجيب وإنما العجب جوده وإحسانه فإنه يتودد إلى عباده كما جاء في الأثر «يا عبدي كم أتودد إليك بالنعم

وأنت تتمقت إليّ بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم يصعد إلي منك بعمل سيء» وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال يقول الله تعالى: «من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» وجاء في تفسير اسمه الحنان المنان أن الحنان الذي يقبل على من أعرض عنه والمنان الذي يجود بالنوال قبل السؤال، وأيضاً فمبدأ الحب والود منه لكن اسمه الودود يجمع المعنيين، كما قال الوالبي عن ابن عباس أنه الحبيب وذلك أنه إذا كان يود عباده فهو مستحق لأن يوده العباد بالضرورة، ولهذا من قال: أنه يحب المؤمنين، قال: إنهم يحبونه فإن كثيراً من الناس يقول: إنه محبوب وهو لا يحب شيئاً مخصوصاً لكن محبته بمعنى مشيئة العامة، ومن الناس من قال: إنه لا يحب مع أنه يثبت محبته للمؤمنين فالقسمة في المحبة رباعية فالسلف وأهل المعرفة أثبتوا النوعين، قالوا إنه يحب ويحب والجهمية والمعتزلة تنكر الأمرين ومن الناس من قال إنه يحبه المؤمنون وأما هو فلا يحب شيئاً دون شيء ومنهم من عكس فقال: بل هو يحب المؤمنين مع أنه ذاته لا يحب كما يقولون: إنه يرحم ولا يرحم فإذا قيل: إن الودود بمعنى الواد لزم أن يكون مودوداً بخلاف العكس فالصواب القطع بأن الودود هو الذي يود وإن كان ذلك متضمناً لأنه يستحق أن يود ليس هو بمعنى المودود فقط ولفظ الوداد بالكسر هو مثل المادة والتواد وذاك يكون من الطرفين كالترحاب وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة كان كل منهما يود الآخر ويرحمه وهو سبحانه كما ثبت في الحديث الصحيح: أرحم بعباده من الوالدة بولدها وقد بين الحديث الصحيح أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة إذا وجدتهما بعد اليأس وهذا الفرح يقتضي أنه أعظم مودة لعبده المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض كيف وكل ود في الوجود فهو من فعله فالذي جعل الود في القلوب هو أولى بالود كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] قال: يحبهم ويحبهم. وقد دل الحديث الذي في الصحيحين على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الناس هو بعد أن يكون هو قد أحبه وأمر جبريل أن ينادي بأن الله يحبه فنأدى جبريل في السماء أن الله يحب فلاناً فأحبهه وبسط هذا له موضع آخر).

وفي مناجاة بعض الداعين: ليس العجب من حبي لك مع حاجتي إليك، العجب من حبك لي مع غناك عني، وفي أثر آخر: يا عبدي وحقي إني لك محب فبحقي عليك

كن لي محباً. ورؤي: يا داود حببني إلى عبادي وحبيب عبادي إلي، مُرَّهم بطاعتي فأحبهم، وذكرهم آتاني فيحبوني؛ فإنهم لا يعرفون مني إلا الحسن الجميل، وهو سبحانه كما قال. كل ما خلقه فإنه من نعمه على عباده، ولهذا يقول: ﴿فَإِنِّي مَآلَاءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن] والخير بيديه لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب بالسيئات إلا هو ولا حول ولا قوة إلا به ولا ملجأ ولا منجأ منه إلا إليه، ووده سبحانه هو لمن تاب إليه وأناب إليه كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [٩١] [مريم] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فلا يستوحش أهل الذنوب وينفرون منه كأنهم حمر مستنفرة فإنه ودود رحيم بالمؤمنين يحب التوابين ويحب المتطهرين، ولهذا قال شعيب: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُؤْوُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [٩٠] [هود] وقال هنا: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [٤] فذكر الودود في الموضعين لبيان مودته للمذنب إذا تاب إليه بخلاف القاسي الجافي الغليظ الذي لا ود فيه) ا. هـ (١).

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [٤] ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ [٥] فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ [١١].

(وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [٤] ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ [٥] فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ [١١] وقد قرئ (المجيد) بالرفع صفة لله؛ وقرئ بالخفض صفة للعرش) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وقد تجيء خبراً بعد خبر، كقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [٤] ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ [٥] فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ [١١] ولو كان (فعال) صفة لكان مُعَرِّفاً بل هو خبر بعد خبر) ا. هـ (٣).

(١) النبوات (٧١ - ٧٥)، وجميع الآثار والأحاديث في هذا المقطع مر تخريجها سابقاً.

(٢) مجموع الفتاوى (٥٥١/٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢٨/١٦).

سورة الطارق

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (١)

(وكذلك لفظ (الماء) عند الإطلاق لا يتناول المني؛ وإن كان يسمى ماء مع التقيد، كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (١) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)﴾ (١) هـ. (١).
وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (١) سمي المني ماء تسمية مقيدة) (٢) هـ. (٢).

﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ (٣)

(وقد قال تعالى في القرآن: ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ (٣) أي فاصل يفصل بين الحق والباطل، فكيف يكون فصلاً إذا لم يكن إلى معرفة معناه سبيل؟! (٣) هـ. (٣).

(١) مجموع الفتاوى (٣٠٥/٣٢).

(٢) اقتضاء الصراط (٢٠٩/١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٣٢/١٧).

سورة الأعلى

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١).

(وأيضاً: فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (٧٨) قال رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم ولما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) قال: اجعلوها في سجودكم»، رواه أبو داود، وابن ماجه ^(١) ١. هـ ^(٢) . وقال رحمه الله: (وقال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) فقال النبي ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»، فالله هو الأعلى، وهو الأكبر، والعلم مطابق للمعلوم فيجب أن تكون معرفته وعلمه: أكبر العلوم وأعلاها) ١. هـ ^(٣) .

قال رحمه الله: (وأما احتجاجهم بقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) وأن المراد سبح ربك الأعلى وكذلك قوله: ﴿بَنَزَكْ أَنْتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨) [الرحمن] وما أشبه ذلك فهذا للناس فيه قولان معروفان وكلاهما حجة عليهم، منهم من قال: الاسم هنا صلة والمراد سبح ربك وتبارك ربك وإذا قيل هو صلة فهو زائد لا معنى له، فيبطل قولهم إن مدلول لفظ اسم ألف سين ميم هو المسمى؛ فإنه لو كان مدلول مراد لم يكن صلة. ومن قال: إنه هو المسمى وأنه صلة كما قاله ابن عطية فقد تناقض؛ فإن الذي يقول هو صلة لا يجعل له معنى كما يقول ذلك في الحروف الزائدة التي تنجيء للتوكيد كقوله: ﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] و﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَارِينَ﴾ (٤٠) [المؤمنون] ونحو ذلك.

ومن قال: إنه ليس بصلة، بل المراد تسبيح الاسم نفسه، فهذا مناقض لقولهم مناقضة ظاهرة.

والتحقيق أنه ليس بصلة بل أمر الله بتسبيح اسمه كما أمر بذكر اسمه. والمقصود بتسبيحه وذكره هو تسبيح المسمى وذكره؛ فإن المنسبح والذاكر إنما يسبح اسمه ويذكر

(١) مرّ تخريجه.

(٢) القواعد النورانية (٦٢)، مجموع الفتاوى (٣٧٨/٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٥٠/٢٢).

اسمه فيقول: سبحان ربي الأعلى، فهو نطق بلفظ ربي الأعلى، والمراد هو المسمى بهذا اللفظ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى ومن جعله تسبيحاً للاسم يقول: المعنى: إنك لا تسب به غير الله ولا تلحد في أسمائه فهذا مما يستحقه اسم الله، لكن هذا تابع للمراد بالآية ليس هو المقصود بها القصد الأول.

وقد ذكر الأقوال الثلاثة غير واحد من المفسرين كالبعثي قال: قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي قل: سبحان ربي الأعلى، وإلى هذا ذهب جماعة من الصحابة، وذكر حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فقال: سبحان ربي الأعلى. قلت في ذلك حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه لما نزل: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة] قال: اجعلوها في ركوعكم، ولما نزل ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: اجعلوها في سجودكم، والمراد بذلك أن يقولوا في الركوع: سبحان ربي العظيم وفي السجود: سبحان ربي الأعلى كما ثبت في الصحيح عن حذيفة عن النبي ﷺ أنه قام بالبقرة والنساء وآل عمران ثم ركع نحواً من قيامه يقول: «سبحان ربي العظيم» وسجد نحواً من ركوعه يقول: «سبحان ربي الأعلى».

وفي السنن عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: إذا قال العبد في ركوعه سبحان ربي العظيم ثلاثاً فقد تم ركوعه، وذلك أدناه، وإذا قال في سجوده: سبحان ربي الأعلى ثلاثاً فقد تم سجوده، وذلك أدناه.

وقد أخذ بهذا جمهور العلماء، قال البغوي: وقال قوم: معناه: نزه ربك الأعلى عما يصفه به الملحدون إنما نطق بالاسم الذي هو الله والذي هو ربنا فتسبيحه إنما وقع على الاسم لكن مراده هو المسمى، فهذا يبين أنه ينطق باسم المسمى والمراد المسمى. وهذا لا ريب فيه، لكن هذا لا يدل على أن لفظ اسم الذي هو «ألف سين ميم» المراد به المسمى لكن يدل على أن أسماء الله مثل الله وربنا وربنا الأعلى ونحو ذلك يراد بها المسمى مع أنها هي في نفسها ليست هي المسمى، لكن يراد به المسمى الذي هو الذات ولكن يراد به مسماه الذي هو الأسماء كأسماء الله الحسنی في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] فله هذه الأسماء الحسنی التي جعلها هؤلاء هي التسميات وجعلوا التعبير عنها بالأسماء توسعاً فخالفوا إجماع الأمم كلهم من العرب وغيرهم، وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول.

والذين شاركوهم في هذا الأصل وقالوا: الأسماء ثلاثة قد تكون هي المسمى

وقد تكون غيره وقد تكون لا هي هو ولا غيره وجعلوا الخالق والرازق ونحوهما غير المسمى وجعلوا العليم والحكيم ونحوهما للمسمى غلطوا من وجه آخر فإنه إذا سلم لهم أن المراد بالاسم الذي هو «ألف سين ميم» هو مسمى الأسماء فاسمه الخالق هو الرب الخالق نفسه ليس هو المخلوقات المنفصلة، واسمه العليم هو الرب العليم الذي العلم صفة له، فليس العلم هو المسمى، بل المسمى هو العليم فكان الواجب أن يقال على أصلهم: الاسم هنا هو المسمى وصفته. وفي الخالق الاسم هو المسمى وفعله.

ثم قولهم إن الخلق هو المخلوق وليس الخلق فعلاً قائماً بذاته قول ضعيف مخالف لقول جمهور المسلمين كما قد بسط في موضعه. فتبين أن هؤلاء الذين قالوا: الاسم هو المسمى إنما يسلم لهم أن أسماء الأشياء إذا ذكرت في الكلام أريد به المسمى، وهذا مما لا ينازع فيه أحد من العقلاء؛ لا أن لفظ اسم «ألف سين ميم» يراد به الشخص.

وما ذكروه من قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

فمراده ثم النطق بهذا الاسم وذكره وهو التسليم المقصود، كأنه قال: ثم سلام عليكم، ليس مراده أن السلام يحصل عليهما بدون أن ينطق به ويذكر اسمه فإن نفس السلام قول فإن لم ينطق به ناطق ويذكره لم يحصل^(١).

قال ابن القيم:

(وعبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة فقال: المعنى سبح ناطقاً باسم ربك متكلاً به) ١. هـ^(٢).

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (٣)

(قال سبحانه: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ (١) ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ (٢) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (٣)، وقال موسى: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١١) [البلد]، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (٢٠) [الإنسان].

ولهذا قيل: الهدى أربعة أقسام:

أحدها: الهداية إلى مصالح الدنيا، فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم؛ وبين المؤمن والكافر.

والثاني الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ما ينفعهم وأمرهم بذلك، وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب، فهذا أيضاً يشترك فيه جميع المكلفين، سواء آمنوا أو كفروا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فهذا مع قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الفصص: ٥٦]، يبين أن الهدى الذي أثبتته هو البيان والدعاء، والأمر والنهي، والتعليم وما يتبع ذلك، ليس هو الهدى الذي نفاه، وهو القسم الثالث الذي لا يقدر عليه إلا الله.

والقسم الثالث: الهدى الذي هو جعل الهدى في القلوب، وهو الذي يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد، وبعضهم يقول: هو خلق القدرة على الإيمان، كالتوفيق عندهم ونحو ذلك، وهو بناء على أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة. وأما من قال: إنهما استطاعتان:

«إحدهما»: قبل الفعل، وهي الاستطاعة المشروطة في التكليف، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(١) وهذه الاستطاعة يقترب بها الفعل تارة والترك أخرى، وهي الاستطاعة التي لم تعرف القدرية غيرها، كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة، وأما الذي عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فإثبات النوعين جميعاً، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع؛ فإن الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعاً.

و«الثانية»: المقارنة للفعل؛ وهي الموجبة له، وهي المنفية عمن لم يفعل في مثل قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، وهذا الهدى الذي يكثر ذكره في القرآن في مثل قوله:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وأمثال ذلك.

وهذا هو الذي تنكر القدريّة أن يكون الله هو الفاعل له، ويزعمون أن العبد هو الذي يهدي نفسه، وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم؛ حيث قال: «يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم»^(١) فأمر العباد بأن يسألوه الهداية، كما أمرهم بذلك في أم الكتاب في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وعند القدريّة أن الله لا يقدر من الهدى إلا على ما فعله من: إرسال الرسل ونصب الأدلة وإزاحة العلة، ولا مزية عندهم للمؤمن على الكافر في هداية الله تعالى، ولا نعمة له على المؤمن أعظم من نعمته على الكافر في باب الهدى.

وقد بين الاختصاص في هذه بعد عموم الدعوة في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس]، فقد جمع الحديث: تنزيهه عن الظلم الذي يجوزه عليه بعض المثبتة، وبيان أنه هو الذي يهدي عباده، رداً على القدريّة، فأخبر هناك بعدله الذي يذكره بعض المثبتة، وأخبر هنا بإحسانه وقدرته الذي تنكره القدريّة، وإن كان كل منهما قصده تعظيماً لا يعرف ما اشتمل عليه قوله.

والقسم الرابع: الهدى في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [٢٣] وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ [٢٤] [الحج] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [١] [يونس] فقلوه: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ كقلوه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، على أحد القولين في الآية، وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا، كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا؛ وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ أَلِذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [٢٢] مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاقْنُصُوا إِلَيْكَ صِرَاطَ الْحَمِيدِ [٢٣] [الصفات] ا. هـ^(٢).

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَىٰ﴾ (٢) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (٣).

(وقال في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَىٰ﴾ (٢) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (٣): العطف يقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فيما ذكر، وأن بينهما مغايرة في الصفات؛ فإن الذي خلق فسوى، هو الذي قدر فهدى؛ لكن هذا الاسم والصفة ليس هو ذاك الاسم والصفة) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (إن العطف يكون تارة لتغاير الذوات، وتارة لتغاير الصفات، كقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ (١) ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَىٰ﴾ (٢) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (٣) ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْأَرْضَ﴾ (٤) ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ (٥)، والذي خلق هو الذي قدر وأخرج، وكذلك قوله: ﴿إِلَهُكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ﴾ (١) هـ^(٢).

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ (١) ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَىٰ﴾ (١٠).

(قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ (١) ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَىٰ﴾ (١٠) ﴿وَنَجِّنِيهَا الْأَشَقَىٰ﴾ (١١) ﴿الَّذِي يَصَلِّيْ أَتَارَ الْكِبْرَىٰ﴾ (١٢)، فأخبر أن من يخشاه يتذكر، والتذكر هنا مستلزم لعبادته، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَابَتِيكُمْ وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) [غافر] وقال: ﴿تَبَصَّرْهُ وَذِكْرِيَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (٨) [ق]. ولهذا قالوا في قوله: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَىٰ﴾ (١٠): سيتعظ بالقرآن من يخشى الله، وفي قوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾، إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة وهذا لأن التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره: فإن تذكر محبوباً طلبه، وإن تذكر مرهوباً هرب منه) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ (١) ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَىٰ﴾ (١٠) ﴿وَنَجِّنِيهَا الْأَشَقَىٰ﴾ (١١) ﴿الَّذِي يَصَلِّيْ أَتَارَ الْكِبْرَىٰ﴾ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (١٣) فالجزاء من جنس العمل، لما كان في الدنيا ليس بحي الحياة النافعة التي خلق لأجلها، بل كانت حياته من جنس حياة البهائم، ولم يكن ميتاً عديم الإحساس، كان في الآخرة كذلك، فإن مقصود الحياة، هو حصول ما ينتفع به الحي ويستلذ به، والحي لا بد له من لذة أو ألم، فإذا لم تحصل له اللذة، لم يحصل له مقصود الحياة، فإن الألم ليس مقصوداً،

(١) بيان تليس الجهمية (١/٥٤٦ - ٥٤٧). (٢) الجواب الصحيح (٣/٤٥٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٢٤ - ٢٥).

كمن هو حي في الدنيا، وبه أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء، فهذا يبقى طول حياته يختار الموت، ولا يحصل له) ١. هـ^(١).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (١٦).

(فهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (١٦) [الشمس] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (١٦) نفس المتصدق تزكو، وماله يزكو، يطهر ويزيد في المعنى) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قالوا: في ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (١٦) تطهر من الشرك ومن المعصية بالتوبة، وعن أبي سعيد وعطاء وقتادة: صدقة الفطر^(٣)، ولم يريدوا أن الآية لم تتناول إلا هي، بل مقصودهم: أن من أعطى صدقة الفطر وصلى صلاة العيد فقد تناولته وما بعدها، ولهذا كان يزيد بن حبيب^(٤) كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة، ويتصدق بها قبل الصلاة، ولو لم يجد إلا بصلاً، قال الحسن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (١٦) من كان عمله زاكياً^(٥)، وقال أبو الأحوص^(٦): زكاة الأمور كلها، وقال الزجاج^(٧): تزكى بطاعة الله ﷻ، ومعنى الزاكي النامي الكثير.

وكذلك قالوا في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفُورُونَ ﴿٧﴾ [فصلت].

قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد: لا يزكون أعمالهم أي ليست زاكية، وقيل لا يطهرونها بالإخلاص كأنه أراد - والله أعلم - أهل الرياء، فإنه شرك. وعن الحسن: لا يؤمنون بالزكاة، ولا يقرون بها، وعن الضحاك: لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة، وعن السائب: لا يعطون زكاة أموالهم. قال: كانوا يحجبون ويعتمرون ولا يزكون^(٨).

و«التحقيق» أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال

(١) مجموع الفتاوى (٢٩٧/١٤ - ٢٩٨). (٢) مجموع الفتاوى (٨/٢٥).

(٣) زاد المير (٩١/٩).

(٤) يزيد بن حبيب المتوفى سنة ١٧٥ هـ وهو فقيه ثقة، وورد عن السلف آثار كثيرة في هذا المعنى يراجع الدر المنثور (٢٤١/٦).

(٥) الطبري (١٥٦/٣٠). (٦) زاد المسير (٩١/٩).

(٧) زاد المسير (٩١/٩). (٨) هذه الأقوال من «زاد المسير» (٢٤٢/٧).

الصالحة، كقوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزُكَّ﴾ [النازعات: ١٨]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ (١) [الشمس] والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها) ١. هـ^(١).

فصل

قال الشيخ رحمه الله في تفسير هذه السورة:

قال ابن فورك في كتابه الذي كتبه إلى أبي إسحاق الإسفرائيني^(٢) يحكي ما جرى له قال: وجرى في كلام السلطان^(٣): أليس تقول: إنه يرى لا في جهة؟ فقلت: «نعم - يرى لا في جهة، كما أنه لم يزل يرى نفسه لا في جهة، ولا من جهة، ويراها غيره على ما يرى ورأى نفسه، والجهة ليست بشرط في الرؤية، وقلت أيضاً: «المرئيات المعقولة فيما بيننا هكذا نراها في جهة ومحل، والقضاء بمجرد المعهود لا يمكن دون السير والبحث، لأننا كما لا نرى إلا في جهة ومحل كذلك لم نر إلا مثلوناً ذا قدر وحجم يحتمل المساحة، والثقل^(٤)»، ولا يخلو من حرارة ورطوبة أو يبوسة إذا لم يكن عرضاً لا يقبل الشبهة والتأليف وغير ذلك، ومع هذا فلا عبرة بشيء من هذا».

قال: ثم بلغني أن السلطان ذلك اليوم واللييلة وثاني يوم يكرر على نفسه في مجلسه: «كيف يعقل شيء لا في جهة؟» وما شغل القلب في أول الأمر وتربى عليه فإن قلعه صعب، والله المعين، غير أنه فرحت الكرامية بما كان منه في ذلك، فلما رجعت إلى البيت فإذا أنا برقعة فيها مكتوب: «الأستاذ! - أدام الله سلامته - على مذهبه أن الباري ليس في جهة، فكيف يرى لا في جهة؟».

فكتبت: «خبر الرؤية صحيح، وهي واجبة كما بشرهم النبي ﷺ، وفيه دلالة على

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٣٢ - ٦٣٣).

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران أبو إسحاق، عالم بالفقه والأصول كان يلقب بركن الدين. قال ابن تغري بردي وهو أول من لقب من الفقهاء نشأ في اسفرايين (بين نيسابور وجرجان) ثم خرج إلى نيسابور وبنيت له فيها مدرسة عظيمة فدرس فيها ورحل إلى خراسان وبعض أنحاء العراق فاشتهر له كتاب (الجامع) في أصول الدين خمس مجلدات، ورسالة في أصول الفقه، وكان ثقة في رواية الحديث وله مناظرات مع المعتزلة. مات في نيسابور عام ٤١٨ هـ.

(٣) السلطان هو محمود بن سبكتكين.

(٤) كتب عبد الصمد شرف الدين في الهامش «بياض في الأصل» وكتب في الأصل: التجزئة والحركة (مقدراً البياض بهاتين الكلمتين).

أن الله يرى لا في جهة، لأنه ﷺ قال: «لا تضامون في رؤيته»^(١) ومعناه: لا تضمكم جهة واحدة في رؤيته، فإنه لا في جهة» وكلاماً طويلاً من كل وجه ملأت ظهر الرقعة ويطننها منه.

فلما ردت إليه أنفذها إلى حاكم البلد، وهو أبو محمد الناصحي، واستفتاه فيما قلته، فجمع قوماً من الحنفية، والكرامية، فكتب هو - أعزك الله - بأن من قال بأن الله لا يرى في جهة مبتدع ضال، وكتب أبو حامد المعتزلي مثله، وكتب إنسان بسطامي مؤدب^(٢) في دار صاحب الجيش مثله، فردوا عليه، فأنفذ إلي ما في ذلك المحضر الذي فيه خطوطهم، وكتب إلي رقعة وقال فيها: «إنهم كتبوا هكذا، فما تقول في هذه الفتاوى؟».

فقلت: إن هؤلاء القوم يجب أن يسألوا عن مسائل الفقه التي يقال فيها بتقليد العامي للعالم، فأما معرفة الأصول والفتاوى فيها فليس من شأنهم، وهم يقولون: إنا لا نحسن ذلك.

قلت: قول هؤلاء: «إن الله يرى من غير معاينة ومواجهة» قول انفردوا به دون سائر طوائف الأمة، وجمهور العقلاء على أن فساد هذا معلوم بالضرورة.

والأخبار المتواترة عن النبي ﷺ ترد عليهم، كقوله في الأحاديث الصحيحة: «إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر لا تضارون في رؤيته»^(٣) وقوله لما سأله الناس: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل ترون الشمس صحواً ليس دونها سحاب؟». قالوا: نعم، «وهل ترون القمر صحواً ليس دونه سحاب؟» قالوا: نعم. قال: «فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر»^(٤).

فشبه الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي، فإن الكاف - حرف التشبيه - دخل على الرؤية، وفي لفظ للبخاري «يرونه عياناً». ومعلوم أنا نرى الشمس والقمر عياناً مواجهة، فيجب أن نراه كذلك، وأما رؤية ما لا نعين ولا نواجه فهذه غير متصورة في العقل، فضلاً عن أن تكون كرؤية الشمس والقمر.

ولهذا صار حذاقهم إلى إنكار الرؤية، وقالوا: قولنا هو قول المعتزلة في الباطن، فإنهم فسروا الرؤية بزيادة انكشاف ونحو ذلك مما لا ننازع فيه المعتزلة.

(٢) كتب عبد الصمد (يحتمل أن يكون مؤذن).

(٤) مَرَّ تخريجه.

(١) مَرَّ تخريجه.

(٣) مَرَّ تخريجه.

فلذا قيل: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أي لا تحيط به، دل على أنه بوصف بنفي الإحاطة به مع إثبات الرؤية، وهذا ممتنع على قول هؤلاء، فإن هذا إنما يكون بزعمهم فيما ينقسم، فيرى بعضه من بعض، فتكون هناك رؤية بلا إدراك وإحاطة، وعندهم لا يتصور أن يرى إلا رؤية واحدة متماثلة، كما يقولونه في كلامه: إنه شيء واحد لا يتبعض ولا يتعدد، وفي الإيمان به: إنه شيء واحد لا يقبل الزيادة والنقصان. وأما الإدراك والإحاطة الزائدة على مطلق الرؤية فليس انتفاؤه لعظمة الرب عندهم، بل لأن ذاته لا تقبل ذلك كما قالت المعتزلة: إنها لا تقبل الرؤية.

وأيضاً فهم والمعتزلة لا يريدون أن يجعلوا للأبصار إدراكاً غير الرؤية. سواء أثبتت الرؤية أو نفيت، فإن هذا يبطل قول المعتزلة بنفي الرؤية، ويبطل قول هؤلاء بإثبات رؤية بلا معاينة ومواجهة.

فصل

هذا مع أن ابن فورك هو ممن يثبت الصفات الخيرية كالوجه واليدين، وكذلك المجيء والإتيان، موافقة لأبي الحسن، فإن هذا قوله وقول متقدمي أصحابه.

فقال ابن فورك فيما صنف في أصول الدين، فإن سألت الجهمية عن الدلالة على أن القديم سميع بصير، قيل لهم: قد اتفقنا على أنه من تستحيل عليه الآفات، والحي إذا لم يكن مأووفاً بآفات تمنعه من إدراك المسموعات والمبصرات كان سميعاً بصيراً.

وإن سألت فقلت: «أين هو؟» فجوابنا «إنه في السماء» كما أخبر في التنزيل عن نفسه بذلك فقال - عز من قائل - ﴿ءَأَمِنُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦].

وإشارة المسلمين بأيديهم عند الدعاء في رفعها إليه، وأنت لو سألت صغيرهم وكبيرهم فقتل: «أين الله؟» لقالوا: «إنه في السماء» ولم ينكروا لفظ السؤال بـ«أين» لأن النبي ﷺ سأل الجارية التي عرضت للعتق فقال: «أين الله؟» فقالت: «في السماء» مشيرة بها. فقال النبي ﷺ: «أعتقها فإنها مؤمنة»^(١) ولو كان ذلك قولاً منكراً لم يحكم بإيمانها، ولأنكره عليها، ومعنى ذلك أنه فوق السماء، لأن «في» بمعنى «فوق» قال الله تعالى: ﴿فَيَسْجُوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] أي فوقها. قال: وإن سألت «كيف هو؟» قلنا له: «كيف» سؤال عن صفته، وهو ذو الصفات العلى - هو العالم الذي له العلم،

والقادر الذي له القدرة، والحي الذي له الحياة، الذي لم يزل منفرداً بهذه الصفات لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء.

«قلت» فهذا الكلام هو موافق لما ذكره الأشعري في كتاب «الإبانة» ولما ذكره ابن كلاب كما حكاه عنه ابن فورك؟، لكن ابن كلاب يقول: إن العلو والمباينة من الصفات العقلية، وأما هؤلاء فيقولون: كونه في السماء صفة خبرية كالمجيء والإتيان، ويطلقون القول بأنه بذاته فوق العرش، وذلك صفة ذاتية عندهم.

والأشعري يبطل تأويل من تأول الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر بأنه لم يزل مستولياً على العرش وعلى كل شيء والاستواء مختص بالعرش. فلو كان بمعنى الاستيلاء لجاز أن يقال «هو مستو على كل شيء وعلى الأرض وغيرها» كما يقال: «إنه مستول عليها» ولما اتفق المسلمون على أن الاستواء مختص بالعرش، فهذا الاستواء الخاص ليس بمعنى الاستيلاء العام، وأين للسلطان^(١) جعل الاستواء بمعنى الغلبة والقهر وهو الاستيلاء؟.

فيشبهه - والله أعلم - أن يكون اجتهاده مختلفاً في هذه المسائل كما اختلف اجتهاد غيره، فأبو المعالي كان يقول بالتأويل، ثم حرمه، وحكى إجماع السلف على تحريمه، وابن عقيل له أقوال مختلفة، وكذلك لأبي حامد، والرازي وغيرهم.

ومما يبين اختلاف كلام ابن فورك أنه في مصنف آخر قال: فإن قال قائل: «أين هو؟» فقول: ليس بذي كيفية فنخبر عنها إلا أن يقول: «كيف صنعه؟» فمن صنعه أنه يعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو الصانع للأشياء كلها.

فهنا أبطل السؤال عن الكيفية، وهناك جوّزه وقال: الكيفية هي الصفة، وهو ذو الصفات، وكذلك السؤال عن الماهية. قال في ذلك المصنف: وإن سألت الجهمية فقلت «ما هو؟» يقال لهم: «ما» يكون استفهاماً عن جنس أو صفة في ذات المستفهم، فإن أردت بذلك سؤالاً عن صفته فهو العلم، والقدرة، والكلام، والعزة والعظمة.

وقال في الآخر: فإن [قال] قائل: «حدثونا عن الواحد الذي تعبدونه ما هو؟» قيل: إن أردت بقولك «ما هو؟» أي أشيروا إليه حتى أدركه بحواسي، فليس بحاضر

(١) كذا في الأصل، والمعنى واضح، وهو أن ابن فورك فسر الاستواء بالغلبة والقهر عند السلطان الذي ناظر الكرامية عنده، وأثبت أن الله في السماء في كتابه في أصول الدين.

للحواس، وإن أردت بقولك: «ما هو؟» أي دلوني عليه بعجائب صنعته وآثار حكمته،
فالدلالة عليه قائمة. وإن أردت بقولك «ما اسمه؟» فنقول: هو الله الرحمن الرحيم،
القادر السميع البصير^(١).

[وهو]^(٢) في هذا المصنف أثبت أنه على العرش بخلاف ما كان عليه قبل
العرش، فقال: فإن قال: «فحدثونا عنه أين كان قبل أن يخلق؟» قال: «أين» تقتضي
مكاناً، والأمكنة مخلوقات، وهو سبحانه لم يزل قبل الخلق والأماكن لا في مكان ولا
يجري عليه وقت ولا زمان.

فإن قال: «فعلى ما هو اليوم؟» قيل له: مستو على العرش كما قال سبحانه:
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه].

وقال: فإن قال قائل: «لم يزل الباري قادراً عالماً حياً سميعاً بصيراً؟» قيل:
«نعم» فإن قال: «فلم أنكرتم أن يكون لم يزل خالقاً؟» قيل له: إن أردت بقولك «لم
يزل خالقاً» أي لم يزل الخلق معه في قدمه، فهذا خطأ، لأن معنى الخلق أنه لم
يكن ثم كان، فكيف يكون ما لم يكن ثم كان لم يزل موجوداً، وإن أردت بقولك
أن الخالق لم يزل وكان قادراً على أن يخلق الخلق، فكذلك نقول، لأن الخالق لم
يزل والخلق لم يكن ثم كان، وقد كان لم يزل قادراً على أن يخلق الخلق فهذا
الجواب.

قال: فإن قيل «إذا قلتم إنه الآن خالق فما أنكرتم أن يكون لم يزل خالقاً؟» قيل
له: لا يلزم ذلك. وذلك أنه الآن مستو على عرشه، فلا يجب أن يكون لم يزل مستوياً
على عرشه، فكذلك ما قلناه يناسبه.

فإن قيل: «الاستواء منه فعل، ويستحيل أن يكون الفعل لم يزل». فإن قيل:
والخلق منه فعل، ويستحيل أن يكون الخلق لم يزل.

فهذا الكلام [ليس]^(٣) إلا ببيان الذين يقولون: إنه استوى على العرش بعد أن لم
يكن، ويقولون بقدم صفة التكوين والخلق، وأنه لم يزل خالقاً فالزمهم: «أنا نقول في
الخلق ما نقوله نحن وأنتم في الاستواء». وهذا جواب ضعيف من وجوه:

(١) هنا بياض في الأصل قدر سطر وشيء (عبد الصمد).

(٢) ما بين [] من تقدير (عبد الصمد). (٣) ما بين [] تقدير (عبد الصمد).

«أحدها»: أنه في الحقيقة ليس عنده أنه استوى بعد أن لم يكن، كما قد بحثه مع السلطان، بل هو الآن كما كان، فلا يصح القياس عليه.

«الثاني»: أنه قد سَلِمَ أنه لم يزل قادراً على أن يخلق الخلق، وهذا يقتضي إمكان وجود المقدور في الأزل، فإنه إذا كان المقدور ممتنعاً لم تكن هناك قدرة، فكيف يجعله لم يزل قادراً مع امتناع أن يكون المقدور لم يزل ممكناً؟ بل المقدور عنده كان ممتنعاً ثم صار ممكناً بلا سبب حادث اقتضى ذلك.

«الثالث»: أن قوله: «لأن معنى الخلق أنه لم يكن ثم كان، فكيف يكون ما لم يكن ثم كان لم يزل موجوداً؟» فيقال: بل كل مخلوق فهو محدث مسبوق بعدم نفسه، وما ثم قديم أزلي إلا الله وحده.

وإذا قيل: «لم يزل خالقاً» فإنما يقتضي قدم نوع الخلق، و«دوام خالقيته» لا يقتضي قدم شيء من المخلوقات، فيجب الفرق بين أعيان المخلوقات الحادثة بعد أن لم تكن، فإن هذه لا يقول عاقل إن منها شيئاً أزلياً، ومن قال بقدم شيء من العالم - كالفلك أو مادته - فإنه يجعله مخلوقاً بمعنى أنه كان بعد أن لم يكن، ولكن إذ أوجده القديم.

ولكن لم يزل فعالاً خالقاً، [ودوام خالقيته]^(١) من لوازم وجوده، فهذا ليس قولاً بقدم شيء من المخلوقات، بل هذا متضمن لحديث كل ما سواه، وهذا مقتضى سؤال السائل له.

«الوجه الرابع» أن يقال: العرش حادث كائن بعد أن لم يكن [و]^(٢) لم يزل مستوياً عليه بعد وجوده، وأما الخلق فالكلام في نوعه، ودليله على امتناع حوادث لا أول لها قد عرف ضعفه، والله أعلم.

وكان ابن فورك في مخاطبة السلطان قصد إظهار مخالفة الكرامية، كما قصد بنيسابور القيام على المعتزلة في استتابتهم، وكما كفرهم عند السلطان، ومن لم يعدل في خصومه ومنازعيه ويعذرهم بالخطأ في الاجتهاد، بل ابتدع بدعة وعادى من خالفه فيها أو كفره، فإنما هو ظلم نفسه، وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ويرحمون الخلق، يتبعون الرسول فلا يتدعون، ومن اجتهد فأخطأ خطأ يعذره فيه الرسول عذروه.

وأهل البدع - مثل الخوارج - يتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم ويستحلون دمه، وهؤلاء كل منهم يرد بدعة الآخرين، ولكن هو أيضاً مبتدع، فيرد بدعة ببدعة، وباطلاً بباطل.

وكذلك ما حكاه من مناظراتهم له عند الوزير مجلساً بعد مجلس هو من هذا الباب، فإن المعتزلة والكرامية يقولون حقاً وباطلاً وسنة وبدعة، [كما أنه هـ]^(١) أو أيضاً كذلك يقول حقاً وباطلاً [موافقة] لأبي الحسن، وأبو الحسن سلك في مسألة الأسماء، والأحكام، والقدر مسلك الجهم بن صفوان، مسلك المجبرة ومسلك غلاة المرجئة - فهؤلاء قدرية مجبرة، والمعتزلة قدرية نافية، فوقع بينهم غاية التضاد في مسائل التعديل والتجوير^(٢) ونحوها.

والله يحب الكلام بعلم وعدل ويكره الكلام بجهل وظلم، كما قال النبي ﷺ: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة - رجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة»^(٣).

وقد حرم سبحانه الكلام بلا علم مطلقاً، وخص القول عليه بلا علم بالنهي، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف]. وأمر بالعدل على أعداء المسلمين فقال: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

فصل

وهو سبحانه وصف نفسه بالعلو، وهو من صفات المدح له بذلك والتعظيم، لأنه من صفات الكمال، كما مدح نفسه بأنه العظيم، والعليم، والقدير، والعزیز، والحليم، ونحو ذلك، وأنه الحي القيوم، ونحو ذلك من معاني أسمائه الحسنى، فلا يجوز أن يتصف بأضداد هذه.

(١) ما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

(٢) كذا في الأصل، والصواب: «التجوير» بالراء المهملة.

(٣) مرّ تخريجه.

فلا يجوز أن يوصف بضد الحياة والقيومية والعلم والقدرة، مثل الموت والنوم والجهل والعجز واللغوب، ولا بضد العزة وهو الذل، ولا بضد الحكمة وهو السفه. فكذا لا يوصف بضد العلو وهو السفول، ولا بضد العظيم وهو الحقير، بل هو سبحانه منزّه عن هذه النقااض لصفات الكمال الثابتة له، فثبوت صفات الكمال له ينفي انتصافه بأضدادها وهي النقااض.

وهو سبحانه ليس كمثله شيء فيما يوصف به من صفات الكمال. فهو منزّه عن النقص المضاد لكماله. ومنزه عن أن يكون له مثل في شيء من صفاته، ومعاني التنزيه ترجع إلى هذين الأصلين، وقد دل عليهما سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن بقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ [الإخلاص] فاسمه (الصمد) يجمع معاني صفات الكمال، كما قد بسط ذلك في تفسير هذه السورة وفي غير موضع، وهو كما في تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس^(١)، أنه المستوجب لصفات السؤدد [والشرف]^(٢)، العليم الذي قد كمل في علمه - الحكيم الذي قد كمل في حكمته، إلى غير ذلك مما قد بين.

وقوله: «الأحد» يقتضي أنه لا مثل له ولا نظير، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص]، وقد ذكرنا في غير موضع أن ما وصف الله تعالى به نفسه من الصفات السلبية فلا بد أن يتضمن معنى ثبوتياً، فالكمال هو في الوجود والثبوت، والنفي مقصوده نفي ما يناقض ذلك، فإذا نفي النقيض الذي هو العدم والسلب لزم ثبوت النقيض الآخر الذي هو الوجود والثبوت.

وبينا هذا في آية الكرسي وغيرها مما في القرآن كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۝﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فإنه يتضمن كمال الحياة والقيومية، وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۝﴾ [البقرة: ٢٥٥] يتضمن كمال الملك، وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ شَيْئًا مِنْ عِلْمِهِ ۝﴾ [البقرة: ٢٥٥] يقتضي اختصاصه بالتعليم دون ما سواه، والوحدانية تقتضي الكمال، والشركة تقتضي النقص، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يُدْرِكُهُ حِفْظُهُمَا ۝﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۝﴾ [ق: ٣٨] ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ ۝﴾ [الأنعام: ١٠٣] ﴿لَا يَغْرِبُ عَنْهُ شَقَالٌ ذَرَرٍ ۝﴾ [سبا: ٣]. وأمثال ذلك مما هو مبسوط في غير هذا الموضع.

(١) مرّ تخريجه.

(٢) ما بين [] يياض بالأصل وأكملناه من عبارة تفسير سورة الإخلاص (عبد الصمد).

والمقصود هنا أن علوه من صفات المدح اللازمة له، فلا يجوز اتصافه بضد العلو البتة، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء. وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»^(١)، ولم يقل «تحتك»^(٢). وقد تكلمنا على هذا الحديث في غير هذا الموضع. وإذا كان كذلك فالمخالفون للكتاب والسنة وما كان عليه السلف لا يجعلونه متصفاً بالعلو دون السفول، بل إما أن يصفوه بالعلو والسفول أو بما يستلزم ذلك، وإما أن ينفوا عنه العلو والسفول، وهم نوعان:

فالجهمية القائلون بأنه بذاته في كل مكان، أو بأنه لا داخل العالم ولا خارجه، لا يصفونه بالعلو دون السفول، فإنه إذا كان في مكان، فالأمكنة منها عال وسافل، فهو في العالي عال، وفي السافل سافل. بل إذا قالوا إنه في كل مكان فجعلوا الأمكنة كلها محال له - ظروفاً وأوعية - جعلوها في الحقيقة أعلى منه، فإن المحل يحوي الحال، والظرف والوعاء يحوي المظروف الذي فيه، والحاوي فوق المحوي.

والسلف والأئمة وسائر علماء السنة إذا قالوا: «إنه فوق العرش، وإنه في السماء فوق كل شيء» لا يقولون إن هناك شيئاً يحويه أو يحصره أو يكون محلاً له أو ظرفاً ووعاء - ﷻ عن ذلك بل هو فوق كل شيء، وهو مستغن عن كل شيء، وكل شيء مفتقر إليه، وهو عال على كل شيء، وهو الحامل للعرش ولحملة العرش بقوته وقدرته، وكل مخلوق مفتقر إليه، وهو غني عن العرش وعن كل مخلوق.

وما في الكتاب والسنة من قوله: ﴿ءَأَمْنُم مِّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] ونحو ذلك قد يفهم منه بعضهم أن ﴿السَّمَاءِ﴾ هي نفس المخلوق العالي - العرش فما دونه فيقولون: قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ بمعنى «على السماء» كما قال: ﴿وَلَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي «على جذوع النخل» وكما قال: ﴿قَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل: ٣٦] أي «على الأرض» ولا حاجة إلى هذا، بل «السَّمَاء» اسم جنس للعالي - لا يخص شيئاً، فقوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي «في العلو دون السفل» وهو العلي الأعلى، فله أعلى العلو، وهو ما فوق العرش، وليس هناك غيره - العلي الأعلى ﷻ.

(١) مر تخريجه.
(٢) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

والقائلون بأنه في كل مكان هو عندهم في المخلوقات السفلية القذرة الخبيثة، كما هو في المخلوقات العالية، وغلاة هؤلاء الاتحادية الذين يقولون «الوجود واحد» كابن عربي الطائي صاحب «فصوص الحکم» و«الفتوحات المكية» يقولون: «الموجود الواجب القديم هو الموجود المحدث الممكن».

ولهذا قال ابن عربي في «فصوص الحکم»: «ومن أسمائه الحسنی «العلي» على من، وما ثم إلا هو؟، وعن ماذا، وما هو إلا هو؟ فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمى «محدثات» هي العلية لذاتها وليست إلا هو. إلى أن قال: «فالعلي لنفسه هو الذي يكون له جميع الأوصاف الوجودية والنسب العدمية، سواء كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً، وليس ذلك إلا المسمى الله».

فهو عنده الموصوف بكل ذم، كما هو الموصوف بكل مدح.

وهؤلاء يفضلون عليه بعض المخلوقات، فإن من المخلوقات ما يوصف بالعلو دون السفول كالسماوات، وما كان موصوفاً بالعلو دون السفول كان أفضل مما لا يوصف بالعلو، أو يوصف بالعلو والسفول.

وقد قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] قال ابن عربي: «ولما كان فرعون في منصب التحكم والخليفة بالسيف جاز في العرف الناموسي أن قال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ أي وإن كان أن الكل أرباباً^(١) بنسبة ما فأنا الأعلى منهم بما أعطيته من الحكم فيكم، ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لم ينكروه، بل أقروا له بذلك، وقالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] فالدولة لك. فصيح قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾.

فبهذا وأمثاله يصححون قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ وينكرون أن يكون الله عالياً، فضلاً عن أن يكون هو الأعلى، ويقولون «على من يكون أعلى» أو على ماذا يكون أعلى؟».

وهكذا سائر الجهمية يصفون بالعلو - على وجه المدح - ما هو عال من المخلوقات، كالسماوات، والجنة، والكواكب، ونحو ذلك، ويعلمون أن العالي أفضل من

(١) كذا بالأصل، ولعل «أن» زائدة أو محرفة عن «أي».

السافل، وهم لا يصفون ربهم بأنه الأعلى، ولا العلي، بل يجعلونه في السافلات كما هو في العاليات.

والجهمية الذين يقولون «ليس هو داخل العالم ولا خارجه ولا يشار إليه البتة، هم أقرب إلى التعطيل والعدم، كما أن أولئك أقرب إلى الحلول والاتحاد بالمخلوقات، فهؤلاء يثبتون موجوداً لكنه في الحقيقة المخلوق لا الخالق، وأولئك ينفون فلا يثبتون وجوداً البتة، لكنهم يثبتون وجود المخلوقات ويقولون إنهم يثبتون وجود الخالق.

وإذا قالوا: نحن نقول: «هو عال بالقدرة أو بالقدر» قيل: هذا فرع ثبوت ذاته وأنتم لم تثبتوا موجوداً يعرف وجوده فضلاً عن أن يكون قادراً أو عظيم القدر.

وإذا قالوا: كان الله قبل خلق الأمكنة والمخلوقات موجوداً، وهو الآن على ما عليه كان لم يتغير، ولم يكن هناك فوق شيء ولا عالياً على شيء فكذلك هو الآن، قيل: هذا غلط، ويظهر فسادة بالمعارضة ثم بالحل وبيان فسادة:

أما «الأول» فيلزمهم أن لا يكون الآن عالياً بالقدرة ولا بالقدر كما كان في الأزل، فإنه إذا قدر وجوده وحده فليس هناك موجود يكون قادراً عليه ولا قاهراً له ولا مستولياً عليه، ولا موجوداً يكون هو أعظم قادراً منه.

فإن كان مع موجود المخلوقات لم يتجدد له علو عليها كما زعموا، فيجب أن يكون بعدها ليس قاهراً لشيء ولا مستولياً عليه؛ ولا قاهراً لعباده، ولا قدره أعظم من قدرها، وإذا كانوا يقولون هم وجميع العقلاء إنه مع وجود المخلوق يوصف بأمور إضافية لا يوصف بها إذا قدر موجوداً وحده علم أن التسوية بين الحالين خطأ منهم.

وقد اتفق العقلاء على جواز تجدد النسب والإضافات مثل المعية، وإنما النزاع في تجدد ما يقوم بذاته من الأمور الاختيارية، وقد بين في غير هذا الموضع أن النسب والإضافات مستلزمة لأمر ثبوتية، وأن وجودها بدون الأمور الثبوتية ممتنع.

والإنسان إذا كان جالساً فتحول المتحول عن يمينه بعد أن كان عن شماله قيل «إنه عن شماله» فقد تجدد من هذا فعل به تغيرت النسبة والإضافة، وكذلك من كان تحت السطح فصار فوقه فإن النسبة بالتحية والفوقية تجدد لما تجدد فعل هذا.

وإذا قيل «نفس السقف لم يتغير» قيل قد يمنع هذا ويقال: ليس حكمه إذا لم يكن فوقه شيء كحكمه إذا كان فوقه شيء، وإذا قيل عن الجالس «إنه لم يتغير». قيل: قد يمنع هذا ويقال: ليس حكمه إذا كان الشخص عن يساره كحكمه إذا كان عن

يمينه، فإنه يحجب هذا الجانب ويوجب من التفات الشخص وغير ذلك ما لم يكن قبل ذلك.

وكذلك من تجدد له أخ أو ابن أخ بإيلاء أبيه أو أخيه قد وجد هنا أمور ثبوتية، وهذا الشخص يصير فيه من العطف والحنو على هذا الولد المتجدد ما لم يكن قبل ذلك، وهي الرحم والقربة. وبهذا يظهر الجواب الثاني، وهو أن يقال: العلو والسفل ونحو ذلك من الصفات المستلزمة للإضافة، وكذلك الاستواء، والربوبية، والخالقية، ونحو ذلك، فإذا كان غيره موجوداً فلما أن يكون عالياً عليه وإما أن لا يكون، كما يقولون هم: إما أن يكون عالياً عليه بالقهر أو بالقدر أو لا يكون، خلاف ما إذا قدر وحده، فإنهم لا يقولون إنه حيثئذ قاهر، [أو قادر،] أو مستول عليه، فلا يقال إنه عال عليه، وإن قالوا: «إنه قادر وقاهر» كان ذلك مشروطاً بالغير، وكذلك علو القدر، قيل: وكذلك علو ذاته ما زال عالياً بذاته لكن ظهور ذلك مشروط بوجود الغير، والإلزامات مفحمة لهم.

وحقيقة قولهم إنه لم يكن قادراً في الأزل ثم صار قادراً، يقولون لم يزل قادراً مع امتناع المقدور، وإنه لم يكن الفعل ممكناً فصار ممكناً فيجمعون بين التقيضين.

فصل

وأما الذين يصفونه بالعلو والسفل فالذين يقولون: هو فوق العرش وهو أيضاً في كل مكان، والذين يقولون: إذا نزل كل ليلة فإنه يخلو منه العرش، أو غيره من المخلوقات أكبر منه، ويقولون: لا يمتنع أن يكون الخالق أصغر من المخلوق، كما يقول شيوخهم: إنه لا يمتنع أن يكون الخالق أسفل من المخلوق، فهؤلاء لا يصفونه بأنه أكبر من كل شيء، بل ولا هو - على قولهم - الكبير المتعال، ولا هو العلي العظيم.

وقد بسط الرد على هؤلاء في مسألة النزول «لما ذكر قول أئمة السنة مثل حماد بن زيد وإسحاق بن راهويه، وغيرهما: «إنه ينزل ولا يخلو منه العرش» ذكر قول من أنكر ذلك من المتأخرين المنتسبين إلى الحديث والسنة، وبين فساد قولهم شرعاً وعقلاً. وهؤلاء في مقابلة الذين ينفون النزول.

وإذا قيل: حديث النزول ونحوه ظاهر ليس [يحتمل التأويل] فهذا صحيح إذا أريد بالظاهر ما يظهر لهؤلاء ونحوهم [من أنه ينزل إلى أسفل] فيصير تحت العرش كما ينزل

الإنسان من سطح داره إلى أسفل، وعلى قول هؤلاء ولا^(١) يبقى حينئذ العلي ولا الأعلى، بل يكون تارة أعلى وتارة أسفل - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وكذلك ما ورد من نزوله يوم القيامة في ظلل من الغمام، ومن نزوله إلى الأرض لما خلقها، ومن نزوله لتكليم موسى، وغير ذلك، كله من باب واحد، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر] وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والنفاة المعطلة ينفون المجيء والإتيان بالكلية ويقولون: ما ثم إلا ما يحدث في المخلوقات، والحُلُولِيَّةُ يقولون: إنه يأتي ويحيى بحيث يخلو منه مكان ويشغل آخر، فيخلو منه ما فوق العرش ويصير بعض المخلوقات فوقه، فإذا أتى وجاء لم يصِر على قولهم العلي الأعلى، ولا كان هو العلي العظيم، لا سيما إذا قالوا: إنه يحويه بعض المخلوقات فتكون أكبر منه - ^{تعالى} عما ما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً عظيماً.

وكذلك قوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] إن كان قد قال أحد: إنه في جوف السماء فهو شر قولاً من هؤلاء، ولكن هذا ما علمت به قائلاً معيناً منسوباً إلى عالم حتى أحكيه قولاً.

ومن قال: «إنه في السماء» فمراده أنه في العلو، ليس مراده أنه في جوف الأفلاك، إلا أن [بعض] الجاهل يتوهم ذلك، وقد ظن طائفة أن هذا ظاهر اللفظ.

«الظاهر» ولا ريب أنه محمول على خلاف هذا بالاتفاق، لكن هذا هو الذي يظهر لعامة المسلمين الذين يطلقون هذا القول ويسمعونه، أو هو مدلول اللفظ في اللغة، هو مما لا يسلم لهم كما قد يبسط في مواضع.

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] فاستثنى نفسه، والعالم ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولا يجوز أن يقال هذا استثناء منقطع، لأن المستثنى مرفوع، ولو كان منقطعاً لكان منصوباً، والمرفوع على البذل، والعامل فيه هو العامل في المبدل منه، وهو بمنزلة المفرغ، كأنه قال: «لا يعلم الغيب إلا الله» فيلزم أنه داخل في ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وقد قدمنا أن لفظ «السماء» يتناول كل ما سما، ويدخل فيه السموات والكرسي، والعرش، وما فوق ذلك، لأن هذا في جانب النفي، وهو لم يقل هنا «السموات السبع» بل عم بلفظ ﴿السَّمَوَاتِ﴾.

وإذا كان لفظ «السماء» قد يراد به السحاب، ويراد به الفلك، ويراد به ما فوق العالم، ويراد به العلو مطلقاً، فـ ﴿السَّمَوَاتِ﴾ جمع «سما» وكل من فيما يسمى «سما» وكل من فيما يسمى «أرضاً» لا يعلم الغيب إلا الله.

وهو سبحانه قال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ﴾ [النمل: ٦٥] ولم يقل «ما» فإنه لما اجتمع ما يعقل وما لا يعقل غلب ما يعقل وعبر عنه بـ ﴿مَنْ﴾ لتكون «أبلغ»، فإنهم مع كونهم من أهل العلم والمعرفة لا يعلم أحد منهم الغيب إلا الله.

وهذا هو الغيب المطلق عن [جميع المخلوقين] الذي قال فيه: ﴿فَلَا يُظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]. [والغيب المقيد ما علمه] بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الإنس وشهدوه، وإنما هو غيب عمن غاب عنه، ليس هو غيباً عمن شهد، والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا، فيكون غيباً مقيداً، أي غيباً عمن غاب عنه من المخلوقين، لا عمن شهد، ليس غيباً مطلقاً غاب عن المخلوقين قاطبة.

وقوله: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] أي عالم ما غاب عن العباد مطلقاً ومعيناً وما شهدوه، فهو سبحانه يعلم ذلك كله.

والنفاة للعلو ونحوه من الصفات معترفون بأنه ليس مستندهم خبر الأنبياء - لا الكتاب، ولا السنة، ولا أقوال السلف - ولا مستندهم فطرة العقل وضرورته، ولكن يقولون: معنا النظر العقلي، وأما أهل السنة المثبتون للعلو فيقولون: إن ذلك ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، مع فطرة الله التي فطر العباد عليها وضرورة العقل، ومع نظر العقل واستدلاله.

لكن الذين يقولون بأنه ينزل ولا يبقى فوق العرش، وأنه يكون في جوف المخلوقات، ونحو هؤلاء، قد يقولون إن مستندهم في ذلك السمع، وهو ما فهموه من القرآن أو من الأحاديث الصحيحة أو غير الصحيحة، أو من أقوال السلف وهم أخطأوا من حيث نظروا - اقتصروا على فهمه من نص واحد، كفهمهم من حديث النزول - ولم يتدبروا ما في الكتاب والسنة مما يصفه بالعلو والعظمة ونحو ذلك مما ينافي أن يكون شيء أعلى منه أو أكبر منه.

ويتدبروا أيضاً دلالة النص، مثل نزوله إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر^(١) بأن الليل يختلف، فيكون ليل أهل المشرق ونصفه وثلثه الآخر قبل ذلك في المغرب بقريب من يوم، فيلزم على قولهم أنه لا يزال تحت العرش، وهو قد أخبر أنه استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض، وما ذكره ينافي استواءه على العرش، وأنه ليس فوق العرش، كما قد بسط في مواضع.

فصل

«الأعلى» على وزن أفعل التفضيل، مثل الأكرم، والأكبر، والأجمل، ولهذا قال النبي ﷺ لما قال أبو سفيان «اعل هبل، اعل هبل»! فقال النبي ﷺ: «ألا تعجبونه؟» قالوا: وما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل؟^(٢) وهو مذكور بأداة التعريف «الأعلى» مثل ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣] بخلاف ما إذا قيل «الله أكبر» فإنه مُنْكَرٌ.

ولهذا معنى يخصه يتميز به، كما بين العلو والكبرياء، والعظمة، فإن هذه الصفات وإن كانت متقاربة، بل متلازمة، فبينها فروق لطيفة، ولهذا قال النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعتني واحداً منهما عذبت»^(٣) فجعل الكبرياء بمنزلة الرداء وهو أعلى من الإزار. ولهذا كان شعائر الصلاة، والآذان، والأعياد والأماكن العالية، هو التكبير، وهو أحد الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن، سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ.

ولم يجيء في شيء من الأثر بدل قول «الله أكبر» «الله أعظم» ولهذا كان جمهور الفقهاء على أن الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير، فلو قال: «الله أعظم» لم تنعقد به الصلاة لقول النبي ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم»^(٤) وهذا قول مالك، والشافعي، وأحمد، وأبي يوسف، وداود، وغيرهم، ولو أتى بغير ذلك من الأذكار - مثل سبحانه الله والحمد لله - لم تنعقد به الصلاة.

ولأن التكبير مختص بالذكر في حال الارتفاع، كما أن التسبيح مختص بحال الانخفاض، كما في السنن عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذا علونا كبرنا، وإذا هبطنا سبحنا، فوضعت الصلاة على ذلك.

(١) مَرَّ تَخْرِيجُهُ . (٢) مَرَّ تَخْرِيجُهُ .

(٣) مَرَّ تَخْرِيجُهُ . (٤) مَرَّ تَخْرِيجُهُ .

ولما نزل قوله: ﴿قَسِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة] قال: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزل ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»^(١) وثبت عنه أنه كان يقول في ركوعه «سبحان ربي العظيم» وفي سجوده «سبحان ربي الأعلى» ولم يكن يكبر في الركوع والسجود، لكن قد كان يقرن بالتسبيح التحميد والتهليل، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أنه ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن - أي يتأول قوله: ﴿قَسِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ وَالْمُسْتَفْرِغَةُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَابًا﴾ [النصر] فكان يجمع بين التسبيح والتحميد.

وكذلك قد كان يقرن بالتسبيح في الركوع والسجود التهليل، كما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسست ثم رجعت، فإذا هو راکع أو ساجد يقول: «سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت» فقلت: بأبي أنت وأمي! إني لفي شأن وإنك لفي شأن^(٢) فعن هذه الأحاديث كلها أنه كان يسبح في الركوع والسجود، لكن قد يقرن بالتسبيح التحميد والتهليل، وقد يقرن به الدعاء، ولم ينقل أنه كبر في الركوع والسجود.

وأما قراءة القرآن فيهما فقد ثبت عنه أنه قال: «إني نهيت أن أقرأ القرآن راکعاً وساجداً»^(٣) رواه مسلم من حديث علي، ومن حديث ابن عباس. وذلك أن القرآن كلام الله فلا يتلى إلا في حال الارتفاع، والتكبير أيضاً محله حال الارتفاع.

وجمهور العلماء على أنه يشرع التسبيح في الركوع والسجود، وروي عن مالك أنه كره المداومة على ذلك لثلا يظن وجوبه، ثم اختلفوا في وجوبه، فالمشهور عن أحمد، وإسحاق، وداود، وغيرهم وجوبه، وعن أبي حنيفة، والشافعي، استحبابه.

والقائلون بالوجوب، منهم من يقول: يتعين «سبحان ربي العظيم» و«سبحان ربي الأعلى» للأمر بهما، وهو قول كثير من أصحاب أحمد، ومنهم من يقول: بل يذكر بعض الأذكار المأثورة.

والأقوى أنه يتعين التسبيح، إما بلفظ «سبحان» وإما بلفظ «سبحانك» ونحو ذلك،

وذلك أن القرآن سماها «تسبيحاً» فدل على وجوب التسبيح فيها، وقد بينت السنة أن محل ذلك الركوع والسجود، كما سماها الله «قرآناً» وقد بينت السنة أن محل ذلك القيام، وسماها «قياماً» و«سجوداً» و«ركوعاً» وبيئت السنة علة ذلك ومجله.

وكذلك التسبيح - يسبح في الركوع والسجود، وقد نقل عن النبي ﷺ أنه كان يقول «سبحان ربي العظيم» و«سبحان ربي الأعلى» وأنه كان يقول «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي» و«سبحانك وبحمدك. لا إله إلا أنت» وفي بعض روايات أبي داود «سبحان ربي العظيم وبحمده» وفي استحباب هذه الزيادة عن أحمد روايتان.

وفي صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده «سبح قدوس، رب الملائكة والروح»^(١) وفي السنن أنه كان يقول «سبحان ذي الجبروت، والملكوت، والكبرياء، والعظمة»^(٢) فهذه كلها تسبيحات.

والمنقول عن مالك أنه [كان يكره المداومة على ذلك. فإن] كان كراهة المداومة على «سبحان ربي الأعلى والعظيم» فله وجه، وإن كان كراهة المداومة على جنس التسبيح فلا وجه له، وأظنه الأول، وكذلك المنقول عنه إنما هو كراهة المداومة على «سبحان ربي العظيم» لئلا يظن أنها فرض، وهذا يقتضي أن مالكا أنكر أن تكون فرضاً واجباً.

وهذا قوي ظاهر، بخلاف جنس التسبيح، فإن أدلة وجوبه في الكتاب والسنة كثيرة جداً، وقد علم أنه ﷺ كان يداوم على التسبيح بألفاظ متنوعة.

وقوله: «اجعلوها في ركوعكم وفي سجودكم»^(٣) يقتضي أن هذا محل لامثال هذا الأمر، لا يقتضي أنه لا يقال إلا هي مع ما قد ثبت أنه كان يقول غيرها.

والجمع بين صيغتي تسبيح بعيد، بخلاف الجمع بين التسبيح، والتحميد، والتهليل والدعاء، فإن هذه أنواع، والتسبيح نوع واحد فلا يجمع فيه بين صيغتين.

وأيضاً قد ثبت في الصحيح أنه قال: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من

(١) مسلم (٤٨٧).

(٢) أبو داود (٨٧٣) والنسائي (١٠٤٩) والترمذي في الشمائل (٢٧١) وأحمد (٣٨٨/٥، ٣٩٧) وهو صحيح.

(٣) مَرَّ تَخْرِيجِهِ.

القرآن - سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر^(١) فهذا يقتضي أن هذه الكلمات أفضل من غيرها، فإن جعل التسبيح نوعاً واحداً ف«سبحان الله» و«سبحان ربي الأعلى» سواء، وإن جعل متفاضلاً ف«سبحان الله» أفضل بهذا الحديث.

وأيضاً فقولہ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [VI] (الواقعة) أمر بتسبيح ربه، ليس أمراً بصيغة معينة، فإذا قال «سبحان الله وبحمده» «سبحانك اللهم وبحمدك» فقد سبّح ربه الأعلى والعظيم، فإن الله هو الأعلى، وهو العظيم، واسمه «الله» يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن، وإن كان التصريح بالعلو والعظمة ليس هو فيه، ففي اسمه «الله» التصريح بالإلهية، واسمه «الله» أعظم من اسمه «الرب» وفي صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل: «أي الكلام أفضل؟ فقال: ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده - سبحان الله وبحمده»^(٢).

فالقيام فيه التحميد [و] في الاعتدال من الركوع، وفي الركوع والسجود التسبيح، وفي الانتقال التكبير، وفي القعود التشهد وفيه التوحيد، فصارت الأنواع الأربعة في الصلاة.

والفاتحة أيضاً فيها التحميد والتوحيد، فالتحميد والتوحيد ركن يجب في القراءة، والتكبير ركن في الافتتاح، والتشهد الآخر ركن في [القعود كما هو] المشهور عن أحمد، وهو مذهب الشافعي، وفيه التشهد المتضمن للتوحيد.

يبقى التسبيح، وأحمد يوجهه في الركوع والسجود، وروي عنه أنه ركن، وهو قوي لثبوت الأمر به في القرآن والسنة، فكيف يوجب الصلاة على النبي ﷺ ولم يجيء أمر بها في الصلاة خصوصاً ولا يوجب التسبيح مع الأمر به في الصلاة، ومع كون الصلاة تسمى «تسبيحاً» وكل ما سميت به الصلاة من أبعاضها فهو ركن فيها، كما سميت «قياماً» و«ركوعاً» و«سجوداً» و«قراءة» وسميت أيضاً «تسبيحاً» ولم يأت عن النبي ﷺ ما ينفي وجوبه في حال السهو كما ورد في التشهد الأول أنه لما تركه سجد للسهو، لكن قد يقال: لما لم يأمر به المصلي في صلاته دل على أنه واجب ليس بركن، وبسط هذه المسائل له موضع آخر.

(١) مرّ تخريجه.

(٢) الترمذي (٣٥٩٣) وأحمد (٣٦/٤) وهو صحيح.

والمقصود هنا أن التسبيح قد خص به حال الانخفاض، كما خص حال الارتفاع بالتكبير، فذكر العبد في حال انخفاضه وذلك ما يتصف به الرب [مقابل] ذلك، فيقول في السجود «سبحان ربي الأعلى» وفي الركوع «سبحان ربي العظيم».

و«الأعلى» يجمع معاني العلو جميعها، وأنه الأعلى: بجميع معاني العلو، وقد اتفق الناس على أنه علا على كل شيء، بمعنى أنه قاهر له، قادر عليه، متصرف فيه، كما قال: ﴿إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وعلى أنه عال عن كل عيب ونقص فهو عال عن ذلك، منزّه عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٣٩) أَفَأَصْفَكَ رِيبُكُمْ بِالْبَيْنِ وَأَتَّخِذَ مِنَ الْمَلَكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْنَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَنَهُ وَقُلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) [الإسراء] فقرن تعالىه عن ذلك بالتسبيح، وقال تعالى: ﴿مَا أَتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾ [المؤمنون]، وقالت الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾ [الجن].

وفي دعاء الاستفتاح: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك» وفي الصحيحين أنه كان يقول في آخر استفتاحه: «تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك» (١).

فقد بين سبحانه أنه تعالى عما يقول المبطلون وعما يشركون، فهو متعال عن الشركاء والأولاد، كما أنه سبحانه عن ذلك، وتعالىه سبحانه عن الشريك هو تعالىه عن السَّمي، والنَّد، والمِثْل فلا يكون شيء مثله.

وقد ذكروا من معاني العلو الفضيلة، كما يقال: الذهب أعلى من الفضة. ونفي المثل عنه يقتضي أنه أعلى من كل شيء فلا شيء مثله، وهو يتضمن أنه أفضل وخير من كل شيء، كما أنه أكبر من كل شيء وفي القرآن: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ وَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥١) [النمل] ويقول: ﴿أَقَمْنِ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ ﴿٧﴾ [النحل] ويقول: ﴿أَفَنُيْهِدُ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ [يونس: ٣٥] وقالت السحرة: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣].

وهو سبحانه يبين أن المعبودين دونه ليسوا مثله في مواضع كقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا لِلنَّاسِ لَدُنْكَ عِلْمٌ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِ تُصْرَفُونَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْحَاقِّ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَكْبِتُوا لِلْحَاقِّ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنِ تَوَفَّكُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنُيْهِدُ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿أَفَنُخْلِقَ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُنْلُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل].

وكذلك قوله في أثناء السورة:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْهَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل] فهو سبحانه يبين أنه هو المستحق للعبادة دون ما يعبد من دونه وأنه لا مثل له، ويبين ما اختص به من صفات الكمال وانتفاها عما يعبد من دونه، ويبين أنه يتعالى عما يشركون وعما يقولون من إثبات الأولاد والشركاء له.

وقال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ عَالِمَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء] وهم كانوا يقولون إنهم يشفعون لهم، ويتقربون بهم. لكن كان يثبتون الشفاعة بدون إذنه، فيجعلون المخلوق يملك الشفاعة، وهذا نوع من الشرك، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦] فالشفاعة لا يملكها أحد غير الله.

كما روى ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

[الإسراء: ٤٢]. يقول: لا ابتغى الحوائج من الله. وعن معمر، عن قتادة «إذاً لا ابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً» لا ابتغوا التقرب إليه مع أنه ليس كما يقولون. وعن سعيد، عن قتادة: «لو كان معه آلهة كما يقولون» يقول: لو كان معه آلهة إذاً لعرفوا له فضله ومزيته عليهم ولا ابتغوا إليه ما يقربهم إليه. وروي عن سفيان الثوري: لتعاطوا سلطانه.

وعن أبي بكر الهذلي، عن سعيد بن جبير: سبيلاً إلى أن يزيلوا ملكه، والهذلي ضعيف^(١).

فقد تضمن العلو الذي ينعت به نفسه في كتابه أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء والأولاد، فليس كمثله شيء، وهذا يقتضي ثبوت صفات الكمال له دون ما سواه.

وأنه لا يماثله غيره في شيء من صفات الكمال، بل هو متعال عن أن يماثله شيء، وتضمن أنه عال على كل ما سواه، قاهر له، قادر عليه، نافذة مشيئته فيه، وأنه عال على الجميع فوق عرشه، فهذه ثلاثة أمور في اسمه «العلي».

وإثبات علوه - علوه على ما سواه، وقدرته عليه وقهره - يقتضي ربوبيته له، وخلقه له، وذلك يستلزم ثبوت الكمال، وعلوه عن الأمثال يقتضي أنه لا مثل له في صفات الكمال.

وهذا وهذا يقتضي جميع ما يوصف به في الإثبات والنفي، ففي الإثبات يوصف بصفات الكمال، وفي النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال، وينزه عن أن يكون له مثل في صفات الكمال، كما قد دلت على هذا سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ [الإخلاص].

وتعالیه عن الشركاء يقتضي اختصاصه بالإلهية، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده، كما قال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝﴾ [الإسراء] أي وإن كانوا - كما يقولون - يشفعون عنده بغير إذنه ويقربونكم إليه بغير إذنه فهو الرب والإله دونهم، وكانوا يبتغون إليه سبيلاً بالعبادة له والتقرب إليه. هذا أصح القولين، كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمِنْ شَاءِ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۝ [الإنسان] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ إِنَّمَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ۝﴾ [المدثر]

وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].
ثم قال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٥٨] فتعالى عن أن يكون معه إله غيره، أو أحد يشفع عنده إلا بإذنه، أو يتقرب إليه أحد إلا بإذنه، فهذا هو الذي كانوا يقولون.

ولم يكونوا يقولون إن آلهتهم تقدر أن تمنعه أو تغالبه، بل هذا يلزم من فرض إله آخر يخلق كما يخلق، وإن كانوا هم لم يقولوا ذلك، كما قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فقد تبين أن اسمه «الأعلى» يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فصل

والأمر بتسبيحه يقتضي أيضاً تنزيهه عن كل عيب وسوء، وإثبات صفات الكمال له، فإن [التسبيح] يقتضي التنزيه والتعظيم، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه، وتحميده، وتكبيره، وتوحيده.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، ثنا ابن نفيل الحراني، ثنا النضر بن عربي قال: سألت رجل ميمون بن مهران عن «سبحان الله» فقال: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء.

وقال: حدثنا أبو سعيد الأشج، ثنا حفص بن غياث، عن حجاج عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس قال «سبحان» قال: تنزيه الله نفسه من السوء. وعن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] قال: عجب. وعن أبي الأشهب، عن الحسن قال: «سبحان» اسم لا يستطيع الناس أن يتحلوه.

وقد جاء عن غير واحد من السلف مثل قول ابن عباس: «أنه تنزيه نفسه من السوء» وروي في ذلك حديث مرسل، وهو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات، كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة. ونفي النقائص يقتضي ثبوت صفات الكمال، وفيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء. وروى عبد بن حميد: حدثنا أبو نعيم، ثنا سفيان، عن عثمان بن عبد الله بن موهب، عن موسى بن طلحة قال: سئل النبي ﷺ عن التسبيح، فقال: «إنزاهه عن السوء». وقال

حدثنا الضحاك بن مخلد، عن شبيب عن عكرمة، عن ابن عباس: «سبحان الله» قال: تنزيهه.

حدثنا كثير بن هشام، ثنا جعفر بن برقان، ثنا يزيد بن الأصم قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: «[لا إله]»^(١) إلا الله» تعرفها أنه لا إله غيره، والحمد لله» تعرفها أن النعم كلها منه وهو المحمود عليها، والله أكبر» تعرفها أنه لا شيء أكبر منه، فما «سبحان الله»؟ فقال ابن عباس: وما ينكر منها؟ هي كلمة رضيها الله لنفسه، وأمر بها ملائكته، وفرغ إليها الأخيار من خلقه^(٢).

فصل

قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۖ﴾ العطف يقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فيما ذكر وأن بينهما مغايرة إما في الذات وإما في الصفات. وهو في الذات كثير، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧].

وأما في الصفات فمثل هذه الآية، فإن الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى، لكن هذا الاسم والصفة ليس هو ذاك الاسم والصفة، ومثله قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] ومثله قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ومثله قوله: ﴿لَنَكُنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ومثله قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] ومثله قوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [الزمر: ١١] ومثله قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] والآيات فإنه [من صدق و]^(٣) صبر ولم يسلم ولم يؤمن لم يكن ممن أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا.

وكثيراً ما تأتي الصفات بلا عطف، كقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَّ يَكُنْ

(١) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

(٢) مرّ تخريج هذه الآثار.

(٣) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

الْقُدُّوسِ أَسْلَمَ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ [الحشر: ٢٣] وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ①﴾ مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ [الناس]. وقد تجيء خبراً بعد خبر، كقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ④﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ⑤ ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ⑥﴾ [البروج] ولو كان ﴿فَعَالٌ﴾ صفة لكان معرفاً بل هو خبر بعد خبر، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ﴾ [القيامة: ٣] خبر بعد خبر. لكن بالعطف بكل من الصفات.

وأخبار المبتدأ قد تجيء بعطف وبغير عطف، وإذا ذكر بالعطف كان كل اسم مستقلاً بالذكر، وبلا عطف يكون الثاني من تمام الأول بمعنى. ومع العطف لا تكون الصفات إلا للمدح والثناء أو للمدح، وأما بلا عطف فهو في النكرات للتمييز، وفي المعارف قد يكون للتوضيح. ﴿وَالَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ①﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ② وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ③ وصف بكل صفة من هذه الصفات، ومدح بها، وأثنى عليه بها، وكانت كل صفة من هذه الصفات مستوجبة لذلك.

فصل

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ①﴾ فأطلق الخلق والتسوية ولم يخص بذلك الإنسان، كما أطلق قوله بعد ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ②﴾ لم يقيده، فكان هذا المطلق لا يمنع شموله لشيء من المخلوقات، وقد بين موسى ﷺ شموله في قوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ⑤﴾ [طه]، وقد ذكر المقيد بالإنسان في قوله: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَاكَ رَبُّكَ أَلْكَبِيرُ ⑥﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦ [الإنفطار].

وقد ذكر المطلق والمقيد في أول ما نزل من القرآن، وهو قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ [العلق] وفي جميع هذه الآيات - مطلقها ومقيدها والجامع بين المطلق والمقيد - قد ذكر خلقه، وذكر هدايته وتعليمه بعد الخلق، كما قال في هذه السورة: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ①﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ②.

لأن جميع المخلوقات خلقت لغاية مقصودة بها، فلا بد أن تهدي إلى تلك الغاية التي خلقت لها، فلا تتم مصلحتها وما أريدت له إلا بهدايتها لغاياتها. وهذا مما يبين أن الله خلق الأشياء لحكمة وغاية تصل إليها، كما قال ذلك السلف وجمهور المسلمين وجمهور العقلاء. وقالت طائفة - كجهم وأتباعه - إنه لم يخلق شيئاً لشيء، ووافقه أبو الحسن

الأشعري ومن اتبعه من الفقهاء - أتباع الأئمة وهم يثبتون أنه مريد، وينكرون أن تكون له حكمة يريد بها.

وطائفة من المتفلسفة يثبتون عنايته وحكمته، وينكرون إرادته، وكلاهما تناقض، وقد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء في غير هذا الموضع وأن منتهاهم جحد الحقائق.

فإن هذا يقول: لو كان له حكمة يفعل لأجلها لكان يجب [أن يريد]^(١) الحكمة ويستفيع بها، وهو منزّه عن ذلك وذاك يقول: لو كان له إرادة لكان يفعل لجر منفعة، فإن الإرادة لا تعقل إلا كذلك، وأرسطو وأتباعه يقولون: لو فعل شيئاً لكان الفعل لفرض، وهو منزّه عن ذلك.

فيقال لهؤلاء: هذه الحوادث المشهودة أُلها محدث أم لا؟ فإن قالوا: «لا» فهو غاية المكابرة، وإذا جوزوا حدوث الحوادث بلا محدث فتجوزها بمحدث لا إرادة له أولى.

وإن قالوا «لها محدث» ثبت الفاعل، وإذا ثبت الخالق المحدث فإما أن يفعل بإرادة أو بغير إرادة. فإن قالوا «يفعل بغير إرادة» كان ذلك أيضاً مكابرة فإن كل حركة في العالم إنما صدرت عن إرادة.

فإن الحركات إما طبيعية، وإما قسرية، وإما إرادية، لأن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك، أو من سبب خارج، وما كان منها^(٢) فإما أن يكون مع الشعور، أو بدون الشعور، فما كان سببه من خارج فهو القسري، وما كان سببه منها بلا شعور فهو الطبيعي، وما كان من الشعور فهو الإرادي، فالقسري تابع للقاسر، والذي يتحرك بطبعه، كالماء والهواء والأرض، هو ساكن في مركزه، لكن إذا خرج عن مركزه قسراً طلب العود إلى مركزه، فأصل حركته القسر، ولم تبق حركة أصلية إلا الإرادية، فكل حركة في العالم فهي عن إرادة.

فكيف تكون جميع الحوادث والحركات بلا إرادة؟

وأيضاً، فإذا جوزوا أن تحدث الحوادث العظيمة عن فاعل غير مريد فجواز ذلك عن فاعل مريد أولى.

(١) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

(٢) كذا في الأصل، ولعل «من المتحرك» سقطت.

وإذا ثبت أنه مريد قيل: إما أن يكون أرادها لحكمة، وإما أن يكون أرادها لغير حكمة. [فإن قالوا «لغير حكمة» كان] مكابرة. فإن الإرادة لا تعقل إلا إذا كان المريد قد فعل لحكمة يقصدها بالفعل.

وأيضاً، فإذا جوزوا أن يكون فاعلاً مريداً بلا حكمة فكونه فاعلاً مريداً لحكمة أولى بالجواز.

وأما قولهم: «هذا لا يعقل إلا في حق من ينتفع، وذلك يوجب الحاجة، والله منزّه عن ذلك».

فإن أرادوا أنه يوجب احتياجه إلى غيره أو شيء من مخلوقاته، فهو ممنوع وباطل، فإن كل ما سواه محتاج إليه من كل وجه، وهو الصمد الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه محتاج إليه، وهو القيوم القائم بنفسه المقيم لكل ما سواه، فكيف يكون محتاجاً إلى غيره؟ وإن أرادوا أنه تحصل له بالخلق حكمة هي أيضاً حاصلة بمشيئته فهذا لا محذور فيه، بل هو الحق.

وإذا قالوا «الحكمة هي اللذة» قيل: لفظ «اللذة» لم يرد به الشرع، وهم موهم ومجمل، لكن جاء الشرع بأنه «يحب» و«يرضى» و«يفرح بتوبة التائبين» ونحو ذلك، فإذا أريد ما دل عليه الشرع والعقل فهو حق.

وإن قالوا: الحكمة إما أن تراد لنفسها أو لحكمة. قيل: المرادات نوعان - ما يراد لنفسه، وما يراد لغيره، وقد يكون الشيء غاية وحكمة بالنسبة إلى مخلوق وهو مخلوق لحكمة أخرى فلا بد أن ينتهي الأمر إلى حكمة يريد بها الفاعل لذاتها.

والمعتزلة ومن وافقهم، كابن عقيل وغيره، تثبت حكمة لا تعود إلى ذاته، وأما السلف فإنهم يثبتون حكمة تعود إليه، كما قد بين في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا ذكر قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۖ﴾ [التسوية: جعل الشيء سواء كما قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر] وقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾ [آل عمران: ٦٤] و﴿سَوَاءٌ﴾ وسط، لأنه معتدل بين الجوانب.

وذلك أنه لا بد في الخلق والأمر من العدل، فلا بد من التسوية بين المتماثلين، فإذا فضل أحدهما فسد المصنوع، كما في مصنوعات العباد إذا بنوا بنياناً فلا بد من

التسوية بين الحيطان، إذ لو رفع حائط على حائط رفعا كثيراً فسد. ولا بد من التسوية بين جذوع السقف، فلو كان بعض الجذوع قصيراً عن الغاية وبعضها فوق الغاية فسد. وكذلك إذا بني صف فوق صف لا بد من التسوية بين الصفوف، وكذلك الدرج المبنية، وكذلك إذا صنع لسقي الماء جداول ومساكب فلا بد من العدل والتسوية فيها، وكذلك إذا صنعت ملابس للآدميين فلا بد من أن تكون مقدرة على أبدانهم لا تزيد ولا تنقص، وكذلك ما يصنع من الطعام لا بد أن تكون أخلاطه على وجه الاعتدال، والنار التي تطبخه كذلك، وكذلك السفن المصنوعة.

ولهذا قال الله لداود: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] أي لا تدق المسمار فيقلق، ولا تغلظه فيقصم، واجعله بقدر.

فإذا كان هذا في مصنوعات العباد - وهي جزء من مصنوعات الرب - فكيف بمخلوقاته العظيمة التي لا صنع فيها للعباد، كخلق الإنسان وسائر البهائم، وخلق النبات، وخلق السموات والأرض والملائكة.

فالملك الذي خلقه وجعله مستديراً ما له من فروج، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَإِنَّهُمْ بَالِغٌ أَلْبَصَرُ ۚ كَذَٰلِكَ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ١١] وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ [الذاريات: ٧] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

فهو سبحانه سواها كما سوى الشمس والقمر وغير ذلك من المخلوقات، فعدل بين أجزائها، ولو كان أحد جانبي السماء داخلياً أو خارجاً لكان فيها فروج، وهي الفتوق والشقوق، ولم يكن سواها، كمن بنى قبة ولم يسوها، وكذلك لو جعل أحد جانبيها أطول أو أقصر، ونحو ذلك.

فالعدل والتسوية لازم لجميع المخلوقات والمصنوعات، فمتى لم تصنع بالعدل والتسوية بين المتماثلين وقع فيها الفساد.

وهو سبحانه ﴿الَّذِي خَلَقَ مَوْتًى﴾ قال أبو العالية في قوله: ﴿خَلَقَ مَوْتًى﴾ قال: سَوَّى خَلْقَهُنَّ^(١)، وهذا كما قال تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

(١) لم أجده ولعله عند ابن أبي حاتم ولم يذكره لا ابن كثير ولا صاحب الدر.

فصل

ثم إذا خلق المخلوق فسوى، فإن لم يهده إلى تمام الحكمة التي خلق لها فسد، فلا بد أن يهدي بعد ذلك إلى ما خلق له.

وتلك الغاية لا بد أنها معلومة للخالق، فإن العلة الغائية هي أول في العلم والإرادة، وهي آخر في الوجود والحصول.

ولهذا كان الخالق لا بد أن يعلم ما خلق، فإنه قد أراده، وأراد الغاية التي خلقه لها، والإرادة مستلزمة للعلم، فيمتنع أن يريد الحي ما لا شعور له به.

والصانع إذا أراد أن يصنع شيئاً فقد علمه وأراده، وقدر في نفسه ما يصنعه، والغاية التي ينتهي إليها، وما الذي يوصله إلى تلك الغاية، والله سبحانه قدر وكتب مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»^(١).

وفي البخاري عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض» وفي رواية «ثم خلق السموات والأرض»^(٢).

فقد قدر سبحانه ما يريد أن يخلقه من هذا العالم حين كان عرشه على الماء إلى يوم القيامة، كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب. فقال ما اكتب؟ فقال: اكتب ما يكون إلى يوم القيامة»^(٣).

وأحاديث تقديره سبحانه وكتابته لما يريد أن يخلقه كثيرة جداً.

روى ابن [أبي] حاتم عن الضحاك أنه سئل عن قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر] فقال: قال ابن عباس: إن الله قدر المقادير بقدرته ودبر الأمور بحكمته، وعلم ما العباد صائرون إليه، وما هو خالق وكائن من خلقه، فخلق الله لذلك الجنة وناراً، فجعل الجنة لأوليائه وعرفهم وأحبهم وتولاهم ووفقهم وعصمهم، وترك أهل النار استحوذ عليهم إبليس وأضلهم وأزلهم.

فخلق لكل شيء ما يشاكله في خلقه - ما يصلحه من رزقه في بر أو في بحر،

(١) مَرَّ تَخْرِيجُهُ. (٢) مَرَّ تَخْرِيجُهُ.

(٣) أبو داود (٢٧٠٠)، الترمذي (٢١٥٥) والحديث صحيح.

فجعل للبعير خلقاً لا يصلح شيء من خلقه على غيره من الدواب، وكذلك كل دابة خلق الله له منها ما يشاكلها في خلقها، فخلقه مؤتلف لما خلقه له غير مختلف.

قال ابن أبي حاتم: ثنا أبي، ثنا يحيى بن زكريا بن مهران القزاز، ثنا حبان بن عبيد قال: سألت الضحاك عن هذه الآية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر]. قال الضحاك، قال ابن عباس، فذكره.

وقال: حدثنا أبو سعيد الأشح، ثنا طلحة بن سنان، عن عاصم، عن الحسن قال: من كذب بالقدر كذب بالحق، خلق الله خلقاً، وأجل أجلاً، وقدر رزقاً، وقدر معصية، وقدر بلاء، وقدر عافية، فمن كفر بالقدر فقد كفر بالقرآن.

وقال: حدثنا الحسن بن عرفة، ثنا مروان بن شجاع الجزري، عن عبد الملك بن جريج، عن عطاء بن أبي رباح قال أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه. فقلت له: قد تكلم في القدر. فقال: أو [قد] فعلوها؟ قلت: نعم. قال: والله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [الأنعام] إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٦٩﴾ [القمر] أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحداً فقات عينه بأصبعي هاتين.

وقال أيضاً: حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدثنا سهل الخياط، ثنا أبو صالح الحداني، ثنا حبان بن عبيد الله قال: سألت الضحاك عن قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢] قال: قال ابن عباس: إن الله خلق العرش فاستوى عليه، ثم خلق القلم فأمره ليجري بإذنه - وعظم القلم كقدر ما بين السماء والأرض - فقال القلم: بما يا رب أجري؟ فقال: «بما أنا خالق وكائن في خلقي من قطر أو نبات أو نفس أو أثر - يعني به العمل - أو رزق أو أجل» فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فأثبته الله في الكتاب المكنون عنده تحت العرش^(١).

فصل

فقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ يتضمن أنه قدر ما سيكون للمخلوقات، وهداها إليه، علم ما يحتاج إليه الناس والدواب من الرزق فخلق ذلك الرزق وسواه،

وخلق الحيوان وسواه وهده إلى ذلك الرزق، وهدى غيره من الأحياء أن يسوق إليه ذلك الرزق.

وخلق الأرض، وقدر حاجتها إلى المطر، وقدر السحاب وما يحمله من المطر، وخلق ملائكة هداهم ليسوقوا ذلك السحاب إلى تلك الأرض فيمطر المطر الذي قدره، وقدر ما نبت بها من الرزق، وقدر حاجة العباد إلى ذلك الرزق، وهدهم إلى ذلك الرزق، وهدى من يسوق ذلك الرزق إليهم.

وقد ذكر المفسرون أنواعاً من تقديره وهدايته، فروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهما، بالإسناد الثابت عن مجاهد في قوله: ﴿قَدَّرَ قَهْدًى﴾ قال: الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتها^(١)، وكذلك رواه عبد بن حميد في تفسيره، قال: هدى الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراتها.

وقال: حدثنا يونس، عن شيبان عن قتادة^(٢): ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ قَهْدًى﴾ قال: «لا والله. ما أكره الله عبداً على معصية قط ولا على ضلالة، ولا رضيها له ولا أمره، ولكن رضي لكم الطاعة فأمركم بها، ونهاكم عن معصيته».

«قلت»: قتادة ذكر هذا عند هذه الآية ليبين أن الله قدر ما قدره من السعادة والشقاوة، كما قال الحسن وقتادة، وغيرهما من أئمة المسلمين، فإنهم لم يكونوا متنازعين، فما^(٣) سبق من سبق تقدير الله، وإنما كان نزاع بعضهم في الإرادة وخلق الأفعال.

وإنما نازع في التقدير السابق والكتاب أولئك الذين تبرأ منهم الصحابة كابن عمر وابن عباس وغيرهما.

وذكر قتادة أن الله لم يكره أحداً على معصيته وهذا صحيح، فإن أهل السنة المثبتين للقدر متفقون على أن الله لا يكره أحداً على معصيته كما يكره الوالي والقاضي وغيرهما للمخلوق على خلاف مراده. يكرهونه بالعقوبة والوعيد، بل هو سبحانه يخلق إرادة العبد للعمل وقدرته وعمله وهو خالق كل شيء.

وهذا الذي قاله قتادة قد يظن فيه أنه من قول القدرية، وأنه لسبب مثل هذا

(١) قال صاحب الدر (٣٣٩/٦) أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) لم أجده.

(٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب «فيما».

اتهم قتادة بالقدر، حتى قيل: إن مالكا كره لمعمر أن يروي عنه التفسير لكونه اتهم بالقدر.

وهذا القول حق، ولم يعرف أحد من السلف قال إن الله أكره أحداً على معصيته. بل أبلغ من ذلك أن لفظ «الجبر» منعوا من إطلاقه، كالأوزاعي والثوري، والزبيدي، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل وغيرهم. نهوا عن أن يقال: إن الله جبر العباد، وقالوا: إن هذا بدعة في الشرع، وهو مفهوم للمعنى الفاسد.

قال الأوزاعي وغيره: إن السنة جاءت بـ«جبل» ولم تأت بـ«جبر» فإن النبي ﷺ قال لأشج [عبد] القيس «إن فيك لخلقين يحبهما الله - الحلم والأناة»^(١) فقال: أخلقين [تخلقت] بهما أم خلقين جبلت عليهما؟ فقال: «بل خلقين جبلت عليهما» [قال]: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله.

وقال الزبيدي وغيره: إنما يجبر العاجز - يعني الجبر الذي هو بمعنى الإكراه - كما تجبر المرأة على النكاح! والله أجل وأعظم من أن يجبر أحداً - يعني أنه يخلق إرادة العبد فلا يحتاج إلى إجباره.

فالزبيدي وطائفة نفوا «الجبر» وكان مفهومه عندهم هذا.

وأما الأوزاعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهما ففكروها أن يقال «جبر» وأن يقال: لم يجبر، لأن «الجبر» قد يراد به الإكراه والله لا يكره أحداً. وقد يراد به أنه خالق الإرادة، كما قال محمد بن كعب، الجبار هو الذي جبر العباد على ما أراد، و«الجبر» بهذا المعنى صحيح.

وقول مجاهد في قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾: «الإنسان للسعادة والشقاوة»، يبين أن هذا عنده مما دخل في قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أي هدى السعداء إلى السعادة التي قدرها، وهدى الأشقياء إلى الشقاء الذي قدره.

وهكذا قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] قال: السعادة والشقاوة. وقال عكرمة: سبيل الهدى، رواهما عبد بن حميد.

وكذلك روى ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: قال: الشقاوة والسعادة].

وقد قال هو وجماهير السلف: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [١٧]: أي الخير والشر. رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود ثم قال: وروى عن علي بن أبي طالب، وابن عباس في إحدى [رواياته]^(١)، وشقيق بن سلمة، وأبي صالح، ومجاهد، والحسن، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وشرحبيل بن سعد، وابن سنان الرازي، والضحاك، وعطاء الخراساني، وعمرو بن قيس الملائي، نحو ذلك.

وروي عن محمد بن كعب القرظي قال: الحق والباطل. وهذا كلام مجمل فيه ما هو متفق عليه، وهو أنه يبين للناس ما أرسله من الرسل، ونصبه من الدلائل والآيات، وأعطاهم من العقول - طريق الخير والشر - كما في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧].

وأما [إدخال]^(٢) الهدى الذي هو الإلهام في ذلك، بمعنى أنه هدى المؤمن إلى أن يؤمن ويعمل صالحاً إلى أن يسعد بذلك، وهدى الكافر إلى ما يعلمه إلى أن يشقى بذلك، فهذا منهم من يدخله في الآية، كمجاهد وغيره ويدخله في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] وعكرمة وغيره يخرجون ذلك عن معنى هذه الآية وإن كانوا مُقَرِّين بالقدر. ومن قال: ﴿هدى﴾ بمعنى بَيِّن فقط، فقد هدى كل عبد إلى نجد الخير والشر جميعاً، أي بين له طريق الخير والشر.

ومن أدخل في ذلك السعادة والشقاوة يقول: في هذا تقسيم، أي هذه الهداية عامة مشتركة، وخص المؤمن بهداية إلى نجد الخير، وخص الكافر بهداية إلى نجد الشر.

ومن لم يدخل ذلك في الآية قد يحتجون بحديث من مراسيل الحسن قال: ذكر لنا [أن]^(٣) رسول الله ﷺ كان يقول: «يا أيها الناس: إنما هما التجدان - نجد الخير، ونجد الشر، فما يجعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير؟»^(٤).

ويحتجون بأن إلهام الفاجر طريق الفجور لم يسمه هدى، بل سماه ضلالاً، والله امتن بأنه هدى.

(١) ما بين [] من إضافات (عبد الصمد) وهو بياض بالأصل.

(٢) في الأصل (إرسال) وهو تصحيف (عبد الصمد).

(٣) أضفناه من تفسير ابن كثير (عبد الصمد).

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع (٢٥٩/١٠) وقال: رواء الطبراني من حديث فضالة عن أبي أمامة، وفضالة هذا ضعيف.

وقد يجيب الآخر بأن يقول: هو لا يدخل في الهدى المطلق، لكن يدخل في الهدى المقيد، كقوله: ﴿فَأَمْدُومُ إِلَى صِرَاطِ الْحَيِّمِ﴾ [الصافات: ٢٣] وكما في لفظ البشارة، قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] ولفظ الإيمان فقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْحَبِيبِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وهذان القولان في قوله: ﴿فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) [الشمس] قيل: هو البيان العام، وقيل: بل ألهم الفاجر الفجور والتقي التقوى.

وهذا في تلك الآية أظهر، لأن الإلهام استعماله مشهور في إلهام القلوب، لا في التبيين الظاهر الذي تقوم به الحجة

وقد علم النبي ﷺ حصيناً الخزاعي لما أسلم أن يقول «اللهم! ألهمني رشدي وقني شر نفسي» ولو كان الإلهام بمعنى البيان الظاهر لكان هذا حاصلًا للمسلم والكافر.

قال ابن عطية: ﴿وَسَوَى﴾ معناه عدل وأتقن حتى صارت الأمور مستوية، دالة على قدرته ووحدانيته.

وقرأ جمهور القراء ﴿قَدَّرَ﴾ بتشديد الدال، فيحتمل أن يكون من القدر والقضاء، ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة بين الأشياء.

قلت: هما متلازمان، لأن التقدير الأول يسمى تقديرًا، لأن ما يجري بعد ذلك يجري على قدره، فهو موازن له ومعاقل له.

قال: وقرأ الكسائي وحده بتحقيق الدال، فيحتمل أن يكون بمعنى القدرة^(١)، ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة.

قلت: وهذا قول الأكثرين أنهما بمعنى واحد.

قال ابن عطية: وقوله ﴿فَهَدَى﴾ عام لوجوه الهدايات في الإنسان والحيوان، وقد خصص بعض المفسرين أشياء من الهدايات، فقال الفراء: معناه هدى وأصل، واكتفى بالواحد لدالاتها على الأخرى، قال: وقال مقاتل والكلبي: هدى إلى وطء الذكور للإناث. وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي. وقال مجاهد: هدى الناس للخير والشر، والبهائم للمراتع.

(١) كذا بالأصل ولعل الصواب (القدر). (عبد الصمد).

قال ابن عطية: وهذه الأقوال مثالات، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وفي كل هداية.

وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي هذه الأقوال وغيرها، فذكر سبعة أقوال: قدر السعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، قاله مجاهد. وقيل: جعل لكل ذابة ما يصلحها وهداها إليه، قاله عطاء. وقيل: قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج، قاله السدي. وقيل: قدرهم ذكراً وإناثاً وهدى الذكور لإتيان الإناث، قاله مقاتل. وقيل: قدر فهدى وأضل، فحذف «وأضل» لأن في الكلام ما يدل عليه، حكاه الزجاج. وقيل: قدر الأرزاق وهدى إلى طلبها. وقيل: قدر الذنوب فهدى إلى التوبة، حكاهما الثعلبي.

قلت: القول الذي حكاه الزجاج هو قول الفراء، وهو من جنس قوله: إن نفعت وإن لم تنفع، ومن جنس قوله: ﴿سَرَّيْلٌ تَفِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَّيْلٌ﴾ [النحل: ٨١] وقد تقدم ضعف مثل هذا، ولهذا لم يقله أحد من المفسرين.

والأقوال الصحيحة هي من باب المثالات، كما قال ابن عطية.

وهكذا كثير من تفسير السلف - يذكرون من النوع مثلاً لينبهوا به على غيره، أو لحاجة المستمع إلى معرفته، أو لكونه هو الذي يعرفه، كما يذكرون مثل ذلك في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح: ١٦] وقوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٣] وقوله: ﴿مَوَدَّةً بَيْنَ اللَّهِ يَوْمَ يَقُومُ الْحُجُبُ وَيُخَوِّنُهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، وكذلك تفسير: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾ [الفجر: ٢] ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٢] وغير ذلك، وقوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ١١] وأمثال ذلك كثير من تفسيرهم هو من باب المثال.

ومن ذلك قولهم: «إن هذه الآية نزلت في فلان وفلان» فهذا يمثل بمن نزلت فيه - نزلت فيه أولاً وكان سبب نزولها - لا يريدون به أنها^(١) آية مختصة به، كآية اللعان، وآية القذف، وآية المحاربة، ونحو ذلك. لا يقول مسلم إنها مختصة بمن كان نزولها بسببه.

(١) في الأصل ما صورته (إلا أنه مختصة به) ولعل الصواب كما أثبتنا كما جاء في الجملة التي بعدها (عبد الصمد).

واللفظ العام وإن قال طائفة إنه يقتصر على سببه فمرادهم على النوع الذي هو سببه - لم يريدوا بذلك أنه يقتصر على شخص واحد من ذلك النوع.

فلا يقول مسلم إن آية الظهار لم يدخل فيها إلا أوس بن الصامت، وآية اللعان لم يدخل فيها إلا عاصم بن عدي، أو هلال بن أمية. وأن ذم الكفار لم يدخل فيه إلا كفار قريش، ونحو ذلك مما لا يقوله مسلم ولا عاقل.

فإن محمداً ﷺ قد عرف بالاضطرار من دينه أنه مبعوث إلى جميع الإنس والجن، والله تعالى خاطب بالقرآن جميع الثقلين، كما قال: ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ، وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] فكل من بلغه القرآن من إنسي وجني أنذره الرسول به، والإنذار هو الإعلام بالمخوف، والمخوف - هو العذاب - ينزل بمن عصى أمره ونهيه.

فقد أعلم كل من وصل إليه القرآن أنه إن لم يطعه وإلا عذبه الله تعالى، وأنه إن أطاعه أكرمه الله تعالى.

وهو قد مات، فإنما طاعته باتباع ما في القرآن مما أوجبه الله وحرمه، وكذلك ما أوجبه الرسول وحرمه بسنته، فإن القرآن قد بين وجوب طاعته، وبين أن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة، وقال لأزواج نبيه: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

فصل

ثم قال: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۖ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ ﴿٣٥﴾ هو سبحانه لما ذكر قوله: ﴿قَدَّرَ قَهْدَهُ﴾ دخل في ذلك ما قدره من أرزاق العباد [والبهائم] ^(١) وهداهم إليها، فهدى من يأتي بها إليهم، وذلك من تمام إنعامه على عباده، كما جاء في الأثر: إن الله يقول: «إني والجن والإنس لفي نأ عظيم - أخلق ويعبدون غيري، وأرزق ويشكرون سواي» ^(٢).

وهذا المعنى قد روي في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ ﴿١٨١﴾ [الواقعة] أي تجعلون شكركم وشكر ربكم التكذيب بإنعام الله، وإضافة الرزق إلى غيره كالأنواء، كما

(١) يياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

(٢) الطبراني في مسند الشاميين (٩٧٤، ٩٧٥)، البيهقي في الشعب (٤٥٦٣)، ومسنند الفردوس

(٤٤٣٩)، وعزاه صاحب الدر لإضافة لما ذكرنا إلى الحاكم في التاريخ، الدر (١٢٨/٦).

ثبت في الصحيح عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكراً، ومنهم كافر - قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا»^(١) قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ [الواقعة].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين - ينزل الله الغيث فيقولون: الكوكب كذا وكذا - وفي رواية «بكوكب كذا وكذا»^(٢).

وروى ابن المنذر في تفسيره: ثنا محمد بن علي - يعني الصائغ، ثنا سعيد هو ابن منصور، ثنا هشيم، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾^(٣) شكركم ﴿أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ يعني الأنواء، وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً وكانوا يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا. فأنزل الله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾^(٤).

وروى ابن أبي حاتم، عن عطاء الخراساني، عن عكرمة، في قول الله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾^(٥) قال: تجعلون رزقكم من عند غير الله تكذيباً، وشكراً [لغيره]^(٦).

لكن قوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾^(٧) خص به إخراج المرعى، وهو ما ترعاه الدواب، وذكر أنه جعله غشاء أحوى، وهذا فيه ذكر أقوات البهائم، لكن أقوات الادميين أجل من ذلك، وقد دخلت هي وأقوات البهائم، في قوله: ﴿قَدَرٌ مِّمَّا يَكْنِى﴾.

وأيضاً، فالذي يصير غشاء أحوى لم تقتت به البهائم، وإنما تقتات به قبل ذلك.

فهو - والله أعلم - خص هذا بالذكر لأنه مثل الحياة الدنيا.

إذ كانت هذه السورة تضمنت أصول الإيمان - الإيمان بالله واليوم الآخر،

(١) مرّ تخريجه.

(٢)

كل الآثار مرّ تخريجها.

(٣) زيادة من تفسير ابن جرير (عبد الصمد).

(٤) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

والإيمان بالرسول والكتب التي جاؤوا بها، وذلك يتضمن الإيمان بالملائكة، وفيها العمل الصالح الذي ينفع في الآخرة والفساد الذي يضر فيها.

فذكر سبحانه المرعى عقب ما ذكره من الخلق والهدى ليبين مآل بعض المخلوقات، وأن الدنيا هذا مثلها.

وقد ذكر الله ذلك في الكهف، ويونس، والحديد، قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ۝٥٥﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَيْنَاهَا أُمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٥٦﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ يَبْتَغُونَ وَكَثْرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَسْجُ فَرْدُهُ مُصْفًى ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝٥٧﴾ [الحديد].

وقد جعل إهلاك المهلكين حصداً لهم، فقال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۝٥٨﴾ [هود]، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٥٩ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٦٠ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦١﴾ [التين]، فقلوه: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ النَّعْيَ ۝٦٢ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝٦٣﴾ هو مثل للحياة الدنيا، وعاقبة الكفار، ومن اغتر بالدنيا، فإنهم يكونون في نعيم وزينة وسعادة، ثم يصيرون إلى شقاء في الدنيا والآخرة، كالمرعى الذي جعله غثاء أحوى.

فصل

قلوه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٦٤ سَيَذَكِّرُ مِنْ نَحْوِهَا ۝٦٥ وَنَجِّنَهَا الْأَشْقَى ۝٦٦ الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى ۝٦٧﴾، فقلوه: ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ كقلوه: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وقوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ و﴿إِنْ﴾ هي للشرطية.

وحكى الماوردي أنها بمعنى «ما» وهذه تكون «ما» المصدرية وهي بمعنى الظرف، أي ذكر ما نفعت، ما دامت تنفع، ومعناها قريب من معنى الشرطية.

وأما إن ظن ظان أنها نافية فهذا غلط بين، فإن الله لا ينفي نفع الذكرى مطلقاً

وهو القائل: ﴿فَقَوْلٌ عَلَيْهِمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى نَفَعُ ۝٥٥﴾ ثم قال: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٤، ٥٥].^(١)

وعن [مجاهد]^(٢) ﴿فَذَكَرَ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٥٤﴾: إن قبلت الذكرى.

وعن مقاتل: فذكر وقد نفعت الذكرى.

وقيل: ذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع. قاله طائفة، أولهم الفراء، واتبعه جماعة^(٣)، منهم النحاس، والزهرائي، والواحدي، والبغوي، ولم يذكر غيره. قالوا: وإنما لم يذكر الحال الثانية كقوله: ﴿سَرَّيْلٌ يَفِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وأراد الحر والبرد.

وإنما قالوا هذا لأنهم قد علموا أنه يجب عليه تبليغ جميع الخلق وتذكيرهم سواء آمنوا أو كفروا. فلم يكن وجوب التذكير مختصاً بمن تنفعه الذكرى، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝٥١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝٥٢﴾ [الغاشية] وقال: ﴿وَلَا يُذَكِّرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝٥٤﴾ [الزخرف] وقال: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّمَا لِحُجُوتٍ ۝٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾ [القلم] وقال: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝٥١﴾ [الفرقان: ١].

وهذا الذي قالوه [له] معنى صحيح، وهو قول الفراء وأمثاله، [لكن] لم يقله أحد من مفسري السلف، ولهذا كان أحمد بن حنبل ينكر على الفراء وأمثاله ما ينكره، ويقول: كنت أحسب الفراء رجلاً صالحاً حتى رأيت كتابه في معاني القرآن.

وهذا المعنى الذي قالوه مدلول عليه بآيات أخر، وهو معلوم بالاضطرار من أمر الرسول، فإن الله بعثه مبلغاً ومذكراً لجميع الثقيلين الإنس والجن، لكن ليس هو معنى هذه الآية.

بل معنى هذه يشبه قوله: ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٍ ۝٤٥﴾ [ق: ٤٥] وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ۝٤٥﴾ [النازعات] وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ۝٤٦﴾ [يس: ١١] وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٤٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ ۝٤٨﴾ [النكوير].
فالقُرآن جاء بالعام والخاص، وهذا كقوله: ﴿هُدًى لِلْمُنْتَفِعِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢] ونحو

(١) بياض في الأصل (عبد الصمد).

(٢) بياض في الأصل وما بين [] مضافة من محمد السيد الجليلند من «دقائق التفسير» أما عبد الصمد فكتب (هنا بقية البياض السابق ولعله عن فلان ولم تهتد إلى المراد بهذا الفلان).

(٣) زاد المسير (٩٠/٩ - ٩١).

ذلك. وسبب ذلك أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل، وله قابل، فال معلم المذكر يعلم غيره، ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر، وقد لا يتعلم ولا يتذكر، فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير، وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل، دون المَحَلِّ القابل، فيقال في مثل هذا: علمته فما تعلم، وذكرته فما تذكر، وأمرته فما أطاع.

وقد يقال «ما علمته وما ذكرته» لأنه لم يحصل تاماً، ولم يحصل مقصوده، فيُنْقَى لانتفاء كماله وتمامه، وانتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب.

فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به، وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا.

وهذا هو الهدى المذكور في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك، وهو كالإنذار العام والتذكير العام. وهنا قد هدى المتقين، وغيرهم، كما قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وأما قوله: ﴿أَهْدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة] فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الإعتداء، كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧] وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [المائدة: ١٦] وهذا كثير في القرآن.

وكذلك الإنذار، قد قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مريم] وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [يونس: ٢]. وقال في الخاص: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَى اللَّهَ﴾ [النازعات]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] فهذا الإنذار الخاص، وهو التام النافع الذي انتفع به المنذر، والإنذار هو الإعلام بالمخوف، فعلم المخوف فخاف، فأمن وأطاع.

وكذلك التذكير عام وخاص، فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد، وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا بِنَدٍ

التَّكْفِينِ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، وص: ٨٧] ثم قال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿٨٨﴾ [التكوير] فذكر العام والخاص.

والتذكير هو الذكر التام الذي يذكره المذكر به ويستفَع به.

وغير هؤلاء قال تعالى فيهم: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿٩١﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٩٢﴾ [الشعراء] فقد أتاهم وقامت به الحجة، ولكنهم لم يصغوا إليه بقلوبهم فلم يفهموه، أو فهموه فلم يعلموا به، كما قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ [الأنفال].

والخاص هو التام النافع، وهو الذي حصل معه تذكّر لمذكر، فإن هذا ذكرى كما قال: ﴿فَذِكْرٌ لِي أَنْ نَقَعَ الذِّكْرُ﴾ ﴿٩٤﴾ سِدْرٌ مَنْ يَخْتِى ﴿٩٥﴾ وَتَجَنَّبَ الْاَسْفَى ﴿٩٦﴾ أي يجنب الذكرى، وهو إنما جنب الذكرى الخاصة.

وأما المشترك الذي تقوم به الحجة فقد ذكر هو وغيره بذلك وقامت الحجة عليهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿لَئِنْ لَا يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال عن أهل النار: ﴿كَلَّمَآ أَلْفَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿٩٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك] وقال تعالى: ﴿يَتَمَشَّرَ الْحَيْنُ وَالْأَيْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ عَائِقَى وَمُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وأما تمثيلهم ذلك بقوله: ﴿سَرَّيْلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي وتقيكم البرد، فعنه جوابان:

أحدهما: أنه ليس هناك حرف شرط علق به الحكم بخلاف هذا الموضع فإنه إذا علق الأمر بشرط وكان مأموراً به في حال وجود الشرط كما هو مأمور به في حال عدمه كان ذكر الشرط تطويلاً للكلام قليلاً للفائدة وإضلالاً للسامع.

وجمهور الناس على أن مفهوم الشرط حجة، ومن نازع فيه يقول: سكت عن غير المعلق، لا يقول: إن اللفظ دل على المسكوت كما دل على المنطوق، فهذا لا يقوله أحد.

الثاني: أن قوله: ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ على بابه، وليس في الآية ذكر البرد، وإنما

يقول «إن المعطوف محذوف» هو الفراء وأمثاله ممن أنكر عليهم الأئمة حيث يفسرون القرآن بمجرد ظنهم وفهمهم لنوع من علم العربية عندهم، وكثيراً لا يكون ما فسرُوا به مطابقاً، وليس في الكلام ما يدل على ذكر البرد، ولكن الله ذكر في هذه السورة إنعامه على عباده، وتسمى «سورة النعم»^(١) فذكر في أولها أصول النعم التي لا بد منها ولا تقوم الحياة إلا بها، وذكر في أثنائها تمام النعم.

وكان ما بقي البرد من أصول النعم، فذكر في أول السورة في قوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾ [النحل: ٥]. فالدفء ما يدفئ ويدفع البرد.

والبرد الشديد يوجب الموت بخلاف الحر، فقد مات خلق من البرد بخلاف الحر، فإن الموت منه غير معتاد، ولهذا قال بعض العرب: البرد بؤس، والحر أذى.

فلما ذكر في أثنائها تمام النعم ذكر الظلال وما بقي الحر، وذكر الأسلحة ما بقي القتل، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

فذكر أنه يتم نعمته كما بين ذلك في هذه الآيات فقال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

وفرق بين الظلال والأكنان، فإن الظلال يكون بالشجر ونحوه مما يظل ولا يكن، بخلاف ما في الجبال من الغيران فإنه يظل ويكن. فهذا في الأمكنة، ثم قال في اللباس: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ﴾ فهذا في اللباس، واللباس والمساكن كلاهما تقي الناس ما يؤذيهم من حر وبرد وعدو، وكلاهما تسترهم عن أعين الناظرين.

وفي البيوت خاصة يسكنون، كما قال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠] فلما ذكر البيوت المسكونة امتن بكونه جعلها سكناً يسكنون فيها من تعب الحركات، وذكر أنه جعل لهم بيوتاً أخرى يحملونها معهم ويستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم، فذكر البيوت الثقيلة التي لا تحمل والخفيفة التي تحمل. فتبين أن ما مثلوا به حجة عليهم.

(١) أي في سورة النحل تسمى هكذا.

فقوله: ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ - كما قال مفسرو السلف والجمهور - على بابها، قال الحسن البصري: تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لا يمنع كون الكافر يبلغ القرآن لوجوه:

أحدها: أنه لم يخص قوماً دون قوم لكن قال: ﴿فَذَكِّرْ﴾ وهذا مطلق بتذكير كل أحد، وقوله: ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لم يقل «إن نفعت كل أحد» بل أطلق النفع. فقد أمر بالتذكير إن كان ينفع. والتذكير المطلق العام ينفع. فإن من الناس من يتذكر فينتفع به، والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك، فيكون خيره لغيره، فيحصل بتذكيره نفع أيضاً، ولأنه بتذكيره تقوم عليه الحجة، فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد وغيره، فتحصل بالذكرى منفعة.

فكل تذكير ذكر به النبي ﷺ للمشركين^(١) حصل به نفع في الجملة، وإن كان النفع للمؤمنين الذي قبلوه واعتبروا به وجاهدوا المشركين الذين قامت عليهم الحجة. فإن قيل: فعلى هذا كل تذكير قد حصل به نفع، فأى فائدة في التقييد؟

قيل: بل منه ما لم ينفع أصلاً، وهو ما لم يؤمر به، وذلك كمن أخبر الله أنه لا يؤمن، كأبي لهب، فإنه بعد أن أنزل الله قوله: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد] فإنه لا يخص بتذكير بل يعرض عنه. وكذلك كل من لم يصغ إليه ولم يستمع لقوله فإنه يعرض عنه، كما قال: ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمُلُومٍ﴾ [الذاريات]، ثم قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات] فهو إذا بلغ قوماً الرسالة فقامت الحجة عليهم، ثم امتنعوا من سماع كلامه أعرض عنهم، فإن الذكرى حينئذ لا تنفع أحداً.

وكذلك من أظهر أن الحجة قامت عليه وأنه لا يهتدى فإنه لا يكرر التبليغ عليه. الوجه الثاني: أن الأمر بالتذكير أمر بالتذكير التام النافع، كما هو أمر بالتذكير المشترك.

وهذا التام النافع يخص به المؤمنين المتفاعلين، فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل، وكلما أنزل شيء من القرآن ذكرهم به ويذكرهم بمعانيه، ويذكرهم [بما] نزل قبل ذلك، بخلاف الذين قال فيهم: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَظِرُوا لِلذِّكْرِ فَتَرْتَمِجِينَ﴾ [المدثر] فإن هؤلاء لا يذكرهم كما يذكر المؤمنين إذا كانت الحجة قد قامت

عليهم وهم معرضون عن التذكرة لا يسمعون. ولهذا قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَخْبَرُ ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يَتَزَكَّى ۚ (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَن تَلَمْ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ (٧) وَأَمَّا مَنِ جَاءَكَ يُسَبِّحُ (٨) وَهُوَ بِخَشْيَةٍ (٩) فَأَن تَعْنَهُ لِلَّهِ (١٠)﴾ [عبس] فأمره أن يقبل على من جاءه يطلب أن يتزكى وأن يتذكر.

وقال: ﴿سَبِّدْكَرٌ مِّنْ يَّخْشَىٰ (١٠) وَيَجْتَنِبُ الْإِسْقَىٰ (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤)﴾ فذكر التذكر والتزكي، كما ذكرهما هناك، وأمره أن يقبل على من أقبل عليه دون من أعرض عنه، فإن هذا ينتفع بالذكرى دون ذاك. فيكون مأموراً أن يذكر المتتبعين بالذكرى تذكيراً يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة، كما قال: ﴿قَوْلٌ عَلَيْهِمْ مَّا أَنْتَ بِمَلُومٌ (١٥) وَذِكْرٌ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات].

وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] وفي الصحيحين عن ابن عباس: قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن سمعه المشركون فسبوا القرآن ومن أنزل عليه ومن جاء به، فقال الله له: «ولا تجهر به فيسمعه المشركون، ولا تخافت به عن أصحابك»^(١) فنهى عن أن يسمعه إسماعاً يكون ضرره أعظم من نفعه.

وهكذا كل ما يأمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة على مفسدته، والمصلحة هي المنفعة، والمفسدة هي المضرة، فهو إنما يؤمر بالتذكير إذا كانت المصلحة راجحة، وهو أن تحصل به منفعة راجحة على المضرة، وهذا يدل على الوجه الأول والثاني، فحيث كان الضرر راجحاً فهو منهي عما يجلب ضرراً راجحاً.

والنفع أعم في قبول جميعهم، فقبول بعضهم نفع، وقيام الحجة على من لم يقبل نفع، وظهور كلامه حتى يبلغ البعيد نفع، وبقاؤه عند من سمعه حتى يبلغه إلى من لم يسمعه نفع، فهو ﷺ ما ذكر قط إلا ذكرى نافعة، لم يذكر ذكرى قط يكون ضررها راجحاً.

وهذا مذهب جمهور المسلمين من السلف والخلف أن ما أمر الله به لا بد أن تكون مصلحته راجحة ومنفعته راجحة، وأما ما كانت مضرته راجحة فإن الله لا يأمر به.

وأما جهنم ومن وافقه من الجبرية فيقولون: إن الله قد يأمر بما ليس فيه منفعة ولا مصلحة البتة، بل يكون ضرراً محضاً إذا فعله المأمور به، وقد وافقهم على ذلك طائفة من متأخري أتباع الأئمة ممن سلك مسلك المتكلمين - أبي الحسن [الأشعري وغيره - في^(١)] مسائل القدر، فنصر مذهب جهنم والجبرية.

الوجه الثالث: أن قوله: ﴿الذِّكْرُ﴾ يتناول التذكر والتذكير، فإنه قال: ﴿قَدْ كُنَّ إِن نَفَعَتِ الذِّكْرُ﴾ فلا بد أن يتناول ذلك تذكيره.

ثم قال: ﴿سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [١٠] وَتَجْنِبُهَا الْأَشْقَى [١١]. والذي يتجنبه الأشقى هو الذي فعله من يخشى، وهو التذكر، فضمير الذكرى هنا يتناول التذكر، وإلا فمجرد التذكير الذي قامت به الحجة لم يتجنبه أحد.

لكن قد يراد بتجنبها أنه لم يستمع إليها ولم يصغ، كما قال: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] والحجة قامت بوجود الرسول المبلغ، وتمكنهم من الاستماع والتدبر، لا بنفس الاستماع، ففي الكفار من تجنب سماع القرآن واختار غيره، كما يتجنب كثير من المسلمين سماع أقوال أهل الكتاب وغيرهم، وإنما ينتفعون إذا ذكروا فتذكروا، كما قال: ﴿سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى﴾.

فلما قال: ﴿قَدْ كُنَّ إِن نَفَعَتِ الذِّكْرُ﴾ فقد يراد بالذكرى نفس تذكيره - تذكر أو لم يتذكر -، وتذكيره نافع لا محالة كما تقدم وهذا يناسب الوجه الأول.

وقد ذكر بعضهم أن هذا يراد به توبيخ من لم يتذكر من قريش، قال ابن عطية: اختلف الناس في معنى قوله: ﴿قَدْ كُنَّ إِن نَفَعَتِ الذِّكْرُ﴾ فقال القراء والنحاس والزهراوي: معناه «وإن لم تنفع» فاقصر على الاسم الواحد لدلالته على الثاني.

قال: وقال بعض الحذاق: [قوله ﴿قَدْ كُنَّ إِن نَفَعَتِ﴾^(٢) الذِّكْرُ] اعتراض بين الكلامين على وجه التوبيخ لقريش. أي إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة، وهذا كنحو قول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

(١) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

(٢) بياض في الأصل وما بين [] من تقدير (عبد الصمد).

وهذا كله كما تقول لرجل: «قل لفلان واعذله إن سمعك»، إنما هو توبيخ للمشار إليه.

«قلت»: هذا القائل هو الزمخشري^(١) وهذا القول فيه بعض الحق، لكنه أضعف من ذاك القول من وجه آخر، فإن مضمون هذا القول أنه مأمور بتذكير من لا يقبل ولا ينتفع بالذكرى دون من يقبل، كما قال: «إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة وكما أنشده في البيت.

ثم البيت الذي أنشده خبر عن شخص خاطب آخر فيقول: - لقد أسمعت لو كان من تناديه حياً، وهذا كقوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ [البقرة] وقوله: «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَعْدَ وَلَا تَسْمَعُ الدَّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أُمَّةٌ إِنْكَارٌ ﴿٢﴾ [النمل] وقوله: «قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّرُ الدَّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٣﴾ [الأنبياء] فهذا يناسب معنى البيت، وهو خبر خاص.

وأما الأمر بالإنذار فهو مطلق عام، وإن كان مخصوصاً بالمؤمنون أحق بالتخصيص، كما قال: «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ [ق: ٤٥] وقال: «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ [التازعات] ليس الأمر مختصاً بمن لا يسمع.

كيف وقد قال بعد ذلك: «سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١١﴾ وَنَجِّنَ الْأَشْقَى ﴿١٢﴾» فهذا الذي يخشى هو ممن أمره بتذكيره، وهو ينتفع بالذكرى، فكيف لا يكون لهذا الشرط فائدة إذا ذم من لم يسمع؟.

وأما قول القائل «قل لفلان واعذله إن سمعك» فهذا وأمثاله يقوله الناس لمن يظنون أنه لا يقبل ولكن يرجون قبوله، فهم يقصدون توبيخه على تقدير الرد، لا على تقدير القبول، فيقولون: «قل له إن كان يسمع منك» و«قل له إن كان يقبل» و«انصحه إن كان يقبل النصيحة». وهو كله من هذا الباب، فهو أمر بالنصيحة التامة المقبولة إن كان يقبلها، وأمر بأصل النصيح وإن رده، وذم له على التقدير.

وكذلك قوله: «فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿١٦﴾» أمر بتذكير كل أحد، فإن انتفع كان تذكره تاماً نافعاً، وإلا حصل أصل التذكير الذي قامت به الحجة، ودل ذلك على ذمه واستحقاقه التوبيخ.

مع أنه سبحانه إنما قال: ﴿إِنْ نَفَعِيَ الذِّكْرَى﴾ ولم يقل: ذكر من تنفع الذكرى فقط. كما في قوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٌ﴾ [ق: ٤٥] فهناك الأمر بالتذكير خاص. وقد جاء عاماً وخاصاً كخطاب القرآن بـ ﴿يَتَذَكَّرُ النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] وهو عام و﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] خاص لمن آمن بالقرآن. فهناك قال: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وهنا قال: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [١١] وَنَجِّنَهَا الْأَشَقَى ﴿١٢﴾ ولم يقل "سينتفع من يخشى" فإن النفع الحاصل بالتذكير أعم من تذكر من يخشى.

فإنه إذا ذكر قامت الحجة على الجميع، والأشقى الذي تجنبها حصل بتذكيره قيام الحجة عليه واستحقاقه لعذاب الدنيا والآخرة، وفي ذلك لله حكم ومنافع هي نعم على عباده، فكل ما يقضيه الله تعالى هو من نعمته على عباده ولهذا يقول عقب تعديد ما يذكره: ﴿فَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن].

ولما ذكر ما ذكره في سورة النجم وذكر إهلاك مكذبي الرسل قال: ﴿فَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم] فإهلاكهم من آلاء ربنا. وآلؤه نعمه التي تدل على رحمته، وعلى حكمته، وعلى مشيئته، وقدرته وربوبيته ﷻ.

ومن نفع تذكير الذي يتجنبها أنه لما قامت عليه الحجة واستحق العذاب خف بذلك شر عن المؤمنين، فإن الله يهلكهم بعذاب من عنده أو بأيديهم، وبهلاكه ينتصر الإيمان وينتشر، ويعتبر به غيره، وذلك نفع عظيم.

وهو أيضاً يتعجل موته فيكون أقل لكفره، فإن الله أرسل محمداً رحمة للعالمين، فيه تصل الرحمة إلى كل أحد بحسب الإمكان. وأيضاً، فإن الذي يتجنبها بتجنبه استحق هذا الوعيد المذكور، فصار ذلك تحذيراً لغيره من أن يفعل مثل فعله، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦] وقال تعالى عن فرعون: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَفَكاً وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥١] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

فصل

وقوله: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [١٢] يقتضي أن كل من يخشى يتذكر، والخشية قد تحصل عقب الذكر، وقد تحصل قبل الذكر وقوله: ﴿مَنْ يَخْشَى﴾ مطلق. ومن الناس من

يظن أن ذلك يقتضي أنه لا بد أن يكون قد خشي أولاً حتى يذكر، وليس كذلك، بل هذا كقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ ﴿٢٠﴾ [النازعات] وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١].

وهو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه، لم يكن وعيد قبل سماع القرآن وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١] وهو إنما اتبع الذكر وخشي الرحمن بعد أن أنذره الرسول.

وقد لا يكونون خافوها قبل الإنذار ولا كانوا متقين قبل سماع القرآن، بل به صاروا متقين.

وهذا كما يقول القائل: ما يسمع هذا إلا سعيد، وإلا مفلح، وإلا من رضي الله عنه، وما يدخل في الإسلام إلا من هداه الله، ونحو ذلك، وإن كانت هذه الحسنات والنعم تحصل بعد الإسلام وسماع القرآن.

ومثل هذا قوله: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ [الجاثية] وقد قال في نظيره: ﴿وَسَجَّيْنَاهُ الْأَشْقَى﴾ ﴿١١﴾ وإنما يشقى بتجنبها وهذا كما يقال: إنما يحذر من يقبل، وإنما ينتفع بالعلم من عمل به، فمن استمع القرآن فآمن به وعمل به صار من المتقين الذين هو هدى لهم، ومن لم يؤمن به ولم يعمل به لم يكن من المتقين، ولم يكن ممن اهتدى به، بل هو كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] ولم يرد أنهم كانوا مؤمنين، فلما سمعوه صار هدى وشفاء، بل إذا سمعه الكافر فآمن به صار في حقه هدى وشفاء، وكان من المؤمنين به بعد سماعه.

وهذا كقوله في النوع المذموم: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة] ولا يجب أن يكونوا فاسقين قبل ضلالهم، بل من سمعه فكذب به صار فاسقاً وضل.

وسعد بن [أبي] وقاص^(١) وغيره أدخلوا في هذه الآية أهل الأهواء كالخوارج.

وكان سعد يقول: هم من ﴿الْفٰسِقِينَ﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدَلٍ مِثْقَلِ ذَرَّةٍ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴿البقرة﴾ ولم يكن علي وسعد، وغيرهما من الصحابة يكفرونهم.

وسعد أدخلهم في هذه الآية لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾ وهم ضلوا به بسبب تحريفهم الكلم عن مواضعه وتأويله على غير ما أراد الله، فتمسكوا بمتشابهه، وأعرضوا عن محكمه وعن السنة الثابتة التي تبين مراد الله بكتابه، فخالقوا السنة وإجماع الصحابة مع ما خالفوه من محكم كتاب الله تعالى.

ولهذا أدخلهم كثير من السلف في الذين ﴿فَيَعْبَهُونَ مَا تَشْتَبِهَ مِنْهُ ابْتَغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] ﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود الآية، وقد دلت على أن كل من يخشى فلا بد أن يتذكر، فقد يتذكر فتحصل له بالتذكر خشية، وقد يخشى فتدعوه الخشية إلى التذكر.

وهذا المعنى ذكره قتادة. فقال: والله! ما خشي الله عبد قط إلا ذكره.

﴿وَنَجِّنِيَّ الْأَشَقَى﴾ قال قتادة: فلا والله! لا يتنكب عبد هذا الذكر زهداً فيه وبغضاً له ولأهله إلا شقياً بين الشقاء.

والخشية في القرآن مطلقة تناول خشية الله وخشية عذابه في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ ﴿١٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْجَبَهَا ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ بَحْشَهَا ﴿١٥﴾ [النازعات] وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٧﴾ يَسْعَىٰ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى]، وقال: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ﴿١١﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْ عَلِمْنَا عَذَابَ السُّمُورِ ﴿١٧﴾ [الطور].

فصل

وقوله: ﴿وَنَجِّنِيَّ الْأَشَقَى﴾ ﴿١١﴾ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكَرْبَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَبُورُ فِيهَا وَلَا يَخِي ﴿١٣﴾ وقد ذكر في سورة الليل قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْغَىٰ﴾ ﴿٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشَقَى ﴿٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَكَّىٰ ﴿١١﴾ [الليل] وهذا الصلي قد فسرہ النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها

فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال: بخطاياهم - فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحمًا أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة! أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»^(١) فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية. وفي رواية ذكرها ابن أبي حاتم فقال: ذكر عن عبد الصمد بن عبد الوارث، ثنا أبي، ثنا سليمان التيمي، عن أبي نصر، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ خطب، فأتى على هذه ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤] فقال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون» وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيهم فيشفعون، فيؤتى بهم [إلى] نهر يقال له الحياة، أو الحيوان فينبتون كما ينبت الغطاء في حميل السيل»^(٢).

فقد بين النبي ﷺ [أن] هذا الصلي لأهل النار الذين هم أهلها، وأن الذين ليسوا من أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم وأن الله يميتهم فيها حتى يصيروا فحمًا، ثم يشفع فيهم فيخرجون ويؤتى بهم إلى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل.

وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ - بل متواتر - في أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة، وغيرهما.

وفيها رد على طائفتين. على الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن أهل التوحيد يخلدون فيها، وهذه الآية حجة عليهم، وعلى من حكى عنه من غلاة المرجئة: أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وأولئك.

وفيه رد على من يقول: يجوز أن لا يدخل الله من أهل التوحيد أحداً النار، كما يقوله طائفة من المرجئة الشيعية، ومرجئة أهل الكلام المنتسبين إلى السنة - وهم الواقفة من أصحاب أبي الحسن وغيرهم، كالقاضي أبي بكر وغيره - فإن النصوص المتواترة تقتضي دخول بعض أهل التوحيد وخروجهم.

والقول بـ: «أن أحداً لا يدخلها من أهل التوحيد» ما أعلمه ثابتاً عن شخص معين فأحكيه عنه، لكن حكى عن مقاتل بن سليمان وقال: احتج من قال ذلك بهذه الآية.

وقد أجيبوا بجوابين:

أحدهما: جواب طائفة، منهم الزجاج، قالوا: هذه نار مخصوصة. لكن قوله بعدها ﴿وَسَيَجْزِيهَا آلَتَى﴾ [الليل] لا يبقى فيه كبير وعد، فإنه إذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها.

وجواب آخرين قالوا: لا يصلونها صلي خلود، وهذا أقرب: وتحقيقه أن الصلي هنا هو الصلي المطلق، وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائماً. فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلي، ليس هو الصلي المطلق لا سيما إذا كان قد مات فيها والنار لم تأكله كله، فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود، والله أعلم.

فصل

جمع الله سبحانه بين إبراهيم وموسى ﷺ وعلى سائر المرسلين في أمور، مثل قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (٢)، وفي حديث أبي ذر الطويل قلت: يا رسول الله كم كتاباً أنزل الله؟.

قال: «مائة كتاب وأربعة كتب: ثلاثين صحيفة على شيث، وخمسين على إدريس، وعشر على إبراهيم، وعشر على موسى قبل التوراة، وأنزل التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان» وقال في الحديث: «فهل عندنا شيء مما في صحف إبراهيم؟ فقال: «نعم» وقرأ قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٣) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (٤) بَلْ تُؤْوِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٥) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٦) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (٧) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (٨)» (١).

فإن (٢) التزكي هو التطهر والتبرك بترك السيئات الموجب زكاة النفس، كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس] ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء والزيادة وتارة بالنظافة والإماطة، والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين - إزالة الشر، وزيادة الخير، وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان. وذلك لا ينفع إلا بالإخلاص لله، وعبادته وحده لا شريك له، الذي هو أصل الإيمان، وهو قوله: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (٣).

(١) ابن حبان (٣٦١ - الإحسان) وأبو نعيم في الحلية (١/١٦٦ - ١٦٨) وابن عدي في الكامل (٧/٢٦٩٩) وابن حبان في المجروحين (٣/١٢٩) وفيه ضعف واضح.

(٢) هكذا بقاء التعقيب مع أنه لم يسبقها كلام يخصها والظاهر أن هناك سقطاً ويدل على الخلل ما تقدمها من قطعة في غير مناسبة (عيد الصمد).

فهذه الثلاث - قد يقال - تشبه الثلاث التي يجمع الله بينها في القرآن في مواضع، مثل قوله في أول البقرة ﴿هُدًى لِّلثَنَيْنِ ۖ ۝١٢١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُسَمُّونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِيمُونَ ۝١٢٢﴾ [البقرة] ومثل قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَوِّنْكُمْ فِي الَّذِينَ﴾ [التوبة: ١١].

وقد يقال: تشبه الثنتين المذكورتين في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة: ٦٢] الآية، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

لكن هنا التزكي في الآية أعم من الإنفاق، فإنه ترك السيئات الذي أصله بترك الشرك.

فأول التزكي التزكي من الشرك، كما قال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْنُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت] وقال: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

والتزكي من الكبائر، الذي هو تمام التقوى، كما قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُلْطَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ [النساء] فعلم أن التزكية هو الإخبار بالتقوى.

ومنه التزكي بالطهارة، وبالصداقة والإحسان، كما قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

و﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ قد يعنى به الإيمان بالله، و«الصلاة»: العمل، فقد يذكر اسم ربه من لا يصلي.

ومن الفقهاء من يقول: هو ذكر اسمه في أول الصلاة، ولهذا - والله أعلم - قدم التزكي في هذه الآية.

وكان طائفة من السلف إذا أدوا صدقة الفطر قبل صلاة العيد يتأولون بهذه الآية، وكان بعض السلف - أظنه يزيد بن أبي حبيب يستحب أن يتصدق أمام كل صلاة لهذا المعنى^(١).

ولما قدم الله الصلاة على النحر في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَخَّرَ ۝١﴾ [الكوثر] وقدم

التزكي على الصلاة في قوله: ﴿قَدْ أَلَمَعَ مِنْ نَرِّكَ﴾ (٤) وَذَكَرَ أَسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّ (٥) كانت السنة أن الصدقة قبل الصلاة في عيد الفطر، وأن الذبح بعد الصلاة في عيد النحر.

ويشبهه - والله أعلم - أن يكون الصوم من التزكي المذكور في الآية. فإن الله يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] فمقصود الصوم التقوى، وهو من معنى التزكي.

وفي حديث ابن عباس: «فرض رسول الله ﷺ صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين» (١) فالصدقة من تمام طهرة الصوم، وكلاهما متقدم على صلاة العيد. فجمعت هاتان الكلمتان الترغيب فيما أمر الله به من الإيمان والعمل الصالح وفي قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَابَقِيَ (٧) الإيمان باليوم الآخر.

وهذه الأصول المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٩) [البقرة: ١٧٧] وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَبِىَّ الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٠) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١١) وقال أيضاً: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَكَّلَ﴾ (١٢) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (١٣) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (١٤) أَمْ لَمْ يُبْنِ يَمَّا فِي صُحُفِ مُوسَى (١٥) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَكَّلَ (١٦) أَلَا نُرِىْ زُرَّارَةً وَذُرَّ أُخْرَى (١٧) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (١٨) وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يَرَى (١٩) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى (٢٠) [النجم].

وأيضاً، فإن إبراهيم صاحب الملة وإمام الأمة قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] وقال: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥] وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠] وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

وموسى صاحب الكتاب والكلام والشرعة، الذي لم ينزل من السماء كتاب أهدي منه ومن القرآن.

ولهذا قرن بينهما في مواضع، كقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ - إلى قوله - ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩١، ٩٢] وقوله: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾ - إلى

قوله - ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنِيعَةً﴾ [القصص: ٤٨، ٤٩] وقول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠] وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠] وقول النجاشي^(١): «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

وقيل في موسى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وفي إبراهيم ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وأصل الخلّة^(٢) عبادة الله وحده، والعبادة غاية الحب والذل وموسى صاحب الكتاب والكلام.

ولهذا كان الكفار بالرسول ينكرون حقيقة خلّة إبراهيم وتكليم موسى: ولما نبغت البدع الشركية في هذه الأمة أنكر ذلك الجعد بن درهم فقتله المسلمون لما ضحى به أمير العراق خالد بن عبد الله وقال: ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم - إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً، ثم نزل فذبحه. ولما بعث الله نبيه ﷺ بعثه إلى أهل الأرض وهم في الأصل صنفان - أميون وكتابيون، والأميون كانوا ينتسبون إلى إبراهيم، فإنهم ذريته، وخزان بيته، وعلى بقايا من شعائره، والكتابيون أصلهم كتاب موسى، وكلا الطائفتين قد بدلت وغيرت. فأقام ملة إبراهيم بعد اعوجاجها، وجاء بالكتاب المهيمن، المصدق لما بين يديه، المبين لما اختلف فيه وما حرف وكتّم من الكتاب الأول^(٣).

(١) مرّ تخريجه.

(٢) في الأصل (الملة) والظاهر أنه تصحيف من (الخلّة) (عبد الصمد).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٢ - ٢٠٣).

الصفحة

الموضوع

تفسير سورة الفتح

الكلام على نزول السورة ٦ - ٥

الكلام على قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ ٦

تفسير قوله: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ١٠ - ٩ ، ٦

لرد على من تأول قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ بذنوب آدم ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بذنوب أمته ١١ - ٦

الاستغفار والتوبة قد يكونان من ترك الأفضل ٨

بيان أن المبتدعين الغالين كالرافضة أهل جهل وضلال وكذب ١١

اعتقاد هؤلاء الغلاة العصمة لأئمتهم ١١

الكلام على قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ ١٣ - ١١

السكينة طمأنينة في القلب وهو الثبات في الحرب ١٣ - ١٢

الكلام على اليقين والريب المنافي له ١٢

الكلام على قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۖ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ﴾ ١٤ - ١٣

الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي يَبَايِعُكَ يَبَايِعُكَ إِنَّمَا يَبَايِعُكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ﴾ ١٧ - ١٤

النكث نقض المبايعة وإن لم يكن فيها قسم بالله ١٤

معنى الآية عند أهل الحلول والإلحاد ١٦ - ١٥

الكلام على الحلول العام والخاص ١٥

الكلام على قوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَعْلَوْنَا فَنَشْتَفِقْ لَنَا﴾ ١٧

الكلام على قوله: ﴿قُلِ الْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ آوَلَىٰ بِأَنْ شَيْعُوا تَقْبَلُوهُمْ أَوْ يُسَلُّوهُ﴾ ٢٦ - ١٧

- الكلام على الاستدلال بهذه الآية على خلافة الصديق ١٨ - ٢١
- بيان الصحيح في معنى الآية ٢١ - ٢٥
- بيان أن الآية تدل أن قتال علي لم تتناوله الآية ٢١ ، ٢٦
- اتفق المسلمون على أخذ الجزية من أهل الكتاب والمجوس وتنازعوا في سائر الكفار ٢٢ - ٢٤
- كانت غزوة الطائف آخر غزواته ﷺ للعرب وكانت بعد حنين سنة ثمان ٢٣
- كان الأمر في أول الإسلام أنه يقاتل الكفار ويهادنهم بلا جزية ٢٣
- مذهب أهل السنة أنه يغزي مع كل أمير برأ كان أو فاجراً ٢٥
- هذه الآية تدل على وجوب الجهاد مع كل أمير دعا الناس إليه ٢٥
- الرافضة لا ترى الجهاد إلا مع إمام معصوم ولا معصوم عندهم من الصحابة إلا علي ٢٥
- الأمير الغازي إذا كان فاجراً لا تجب طاعته في القتال مطلقاً بل فيما أمر الله به ورسوله ٢٥
- قد قيل: إن التأييد في النار لم يذكر في القرآن إلا في وعيد الكفار ٢٥ - ٢٦
- الذين لم يقاتلوا علياً في الفتنة ولم يقاتلوا معه ولم يطيعوه كلهم مسلمون بالنص والإجماع ٢٦
- الكلام على قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾ ٢٦ - ٢٧
- بيان فضل الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ٢٦
- من رضي الله عنه ورضي عن الله يكون رضاه موافقاً لرضى الله ٢٦
- تفسير قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَاكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذَى...﴾ ٢٨
- تفسير قوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلاً...﴾ ٢٨ - ٢٩
- الكلام على قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَانِ مَكَّةَ...﴾ ٣٠
- قصة أبي بصير ٣٠
- تفسير قوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُكُمُ...﴾ ٣٠ - ٣١
- الكلام على قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ لِيَغْلِبَ اللَّهُ...﴾ ٣١
- سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ٣١ - ٣٢
- الغضب والحمية تحمل المرء على فعل ما يضره وترك ما ينفعه وهذا من الجهل ٣١
- الكلام على قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ السَّجْدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ...﴾ ٣٢ - ٣٧

- بيان أن الحلق والتقصير من النسك ٣٢ - ٣٣
- الكلام على معنى الاستثناء في الآية ٣٣
- بيان أن الاستثناء هنا للتحقيق ٣٤ - ٣٦
- حكم من أراد باستثناءه في اليمين التحقيق لا التعليق هل يكون مستثنياً به؟ ٣٥ - ٣٦
- الحكمة من استغاثه النبي ﷺ ربه يوم بدر مع أنه قد أخبرهم بمصارع المشركين ٣٦
- الاستثناء بالمشيئة يحصل في الخبر المحض وفي الخبر الذي معه طلب ٣٦
- الفرق بين الحلف على الماضي والحلف على المستقبل ٣٧
- الكلام على قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ٣٨ - ٤٠
- ظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان وباليد والحديد ٣٨
- بيان أن النبي ﷺ بين الدين كله أصوله وفروعه وأقواله وأفعاله ٣٩
- الكلام على قوله: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾ الآية ٤٠ - ٤٢
- الكلام على قوله: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ ٤١
- يوصف الكذاب بسواد الوجه ويوصف الصادق ببياض الوجه ٤١
- ما في القلب من النور والظلمة والخير والشر يسري كثيراً إلى الوجه والعين ٤١
- ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه ٤١ - ٤٢
- لا يشارك الكفار في غيظهم الذي كتبوا به جزاء لكفرهم إلا كافر ٤٢
- من غاظه الله بأصحاب محمد فقد وجد في حقه موجب ذلك وهو الكفر ٤٢
- قال عبد الله بن إدريس: ما آمن أن يكونوا قد ضارعوا الكفار - يعني الرافضة - ٤٢
- تفسير سورة الحجرات**
- تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ٤٣
- من أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله ففيه نوع من التقدم بين يدي الله ورسوله ٤٣
- الكلام على قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ٤٣ - ٤٥
- إنما نهاهم عن ذلك لأنه يفضي إلى الكفر المقتضي للحبوط ٤٤
- لا يحبط الأعمال غير الكفر ٤٤ - ٤٥
- بيان أن أذى النبي ﷺ والاستخفاف به كفر ٤٥

- الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُغْضِبُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ
لِلثَّقَوٰى﴾ ٤٥
- الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ ٤٥ - ٤٨
- من الأنباء ما ينهى فيه عن التبين ومنها ما يباح فيه ترك التبين ٤٦
- قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات ٤٦
- متى اقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه فقد استبان الأمر ٤٦
- بيان أنه لا يجوز تصديق الفاسق بمجرد إخباره ولا تكذيبه إلا بعد التبين ٤٧
- الكلام على خبر الفاسقين ٤٧ - ٤٨
- الكلام على قوله: ﴿وَلَيْكُنَّ اللَّهُ حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَرَيْسَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
وَالْوَعْصَانَ﴾ ٤٨ - ٤٩
- الحكمة من ذكره الطاعة مجملة والمعاصي مفصلة ٤٨
- كره جميع المعاصي يستلزم حب جميع الطاعات ٤٨
- ذكر تأويل القدرية للآية والرد عليهم ٤٩
- الكلام على قوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ٥٠ - ٦١
- جعلهم مؤمنين إخوة مع الاقتتال والبغي ٥٠ - ٥٢
- كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضاً موالاة الدين ٥١
- لا يخرج البغي عن الإيمان ولا عن أخوة الإيمان ٥١ - ٥٠
- لم يخرج طلحة ولا الزبير ولا عائشة لقصد القتال ٥١
- قتال البغاة لم يأمر الله به ابتداء ولم يأمر بقتال كل باغ ٥٢ - ٥٣ ، ٥٦ - ٥٨ ، ٦٠
- متى كانت طائفة باغية ولم تقاتل لم يكن في الآية أمر بقتالها ٥٢ - ٥٣
- قالت عائشة: «هذه الآية ترك الناس العمل بها» يعني إذ ذاك ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧
- الكلام على الحرب التي دارت بين علي ومعاوية ٥٢ ، ٥٨
- إذا قوتلت الباغية ثم فاءت إلى الإصلاح لم تقاتل ٥٣ ، ٥٥
- إذا كان عاجزاً عن قتال الباغية حتى تفيء إلى أمر الله لم يكن مأموراً بقتالها ٥٤ ، ٥٨
- تفسير حديث: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر...» ٥٤ - ٥٥

- أوجب الله على عباده العدل في الصلح كما أوجه في الحكم وفيد الإصلاح الذي يشيب
 ٥٥ عليه بالإخلاص
- ٦٠ - ٥٩ ، ٥٦ كيفية الإصلاح بين الطائفتين
- ٥٧ فعل القتال من علي عليه السلام لم يكن مأموراً به بل كان تركه أفضل
- ٥٨ قتال الطائفة الباغية مشروط بالقدرة والإمكان
- من رأى أن هذا القتال مفسدته أكثر من مصلحته علم أنه قتال فتنة فلا تجب طاعة
- ٥٨ الإمام فيه
- أخبر النبي بظلم الأمراء بعده ويغيهم ونهى عن قتالهم لأن ذلك غير مقدور ومفسدته
- ٥٨ أعظم من مصلحته
- الغرم لإصلاح ذات البين يبيع لصاحبه أن يأخذ من الزكاة بقدر ما غرم
- ٦٠ لا يُتبدأ البغاة بقتالهم حتى يقاتلوا بخلاف الخوارج فإنهم يقتلون
- ٦١ الكلام على قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحْزَنَ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ الآية
- ٦٢ - ٦١ حصر الله الظلم فيمن لم يتب بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
- ٦١ تفسير اللمز والهمز
- ٦٢ - ٦١ لا تسمى النساء بانفرادهن قوماً ولكن قد يدخلن في اللفظ تبعاً
- ٦٢ الكلام على قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ الآية
- ٦٣ - ٦٢ تفسير الغيبة
- ٦٢ كلما كان العبد أعظم إيماناً كان اغتيابه أشد
- ٦٢ بيان أن المغتاب له سبيل إلى التوبة بكل حال
- ٦٣ - ٦٢ وليس عليه أن يستحله في الدنيا إذا لم يكن علم
- ٦٣ الكلام على قوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾
- ٦٥ - ٦٣ ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحداً بنسبه ولا يذم أحداً بنسبه
- ٦٣ أفضل الخلق النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون وأفضل كل صنف ألقاهم
- ٦٤ الصواب في الفقير الصابر والغني الشاكر أن أفضلهما ألقاهما
- ٦٤ شرح حديث: «أي الناس أكرم؟»
- ٦٥ - ٦٤ إذا قصد الرجل الخير قصداً جازماً وعمل منه ما يقدر عليه كان له أجر كامل
- ٦٥

- الكلام على قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا...﴾ ٧٨ - ٦٦
- كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ٦٦
- قد ينفي الإيمان لترك بعض الواجبات ٦٦
- بيان أنه ما بغت امرأة نبي قط ٦٧
- نكاح البغي ديانة ٦٧
- الكلام على الإيمان والإسلام في قوله: ﴿فَأُخْرِجْنَا مِنْهَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢٥ ﴿فَمَا وَحَدَّا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٦٧ - ٦٦
- صفات المؤمنين حقاً ٦٧ - ٦٨
- تفسير قوله: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ ٦٨
- قد ثبت في القرآن والسنة وجود إسلام بلا إيمان ٦٩
- الكلام على هؤلاء الذين نفى الله عنهم دخول الإيمان في قلوبهم هل يثابون على إسلامهم؟ ٧١ - ٦٩
- الكلام على الإيمان والإسلام ٧٠، ٨٠
- قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ غير قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ ٧١ - ٧٠
- من لم يكن من المؤمنين حقاً ولكنه مسلم هل يطلق عليه اسم الإيمان؟ ٧١
- بيان أن الخطاب بالإيمان يدخل فيه ثلاث طوائف: ٧١
- الإيمان والإسلام عند الخوارج والمعتزلة واحد لا فرق بينهما ٧١
- الدليل على أن الإسلام المذكور في الآية هو إسلام يثابون عليه وأنهم ليسوا منافقين ٧١ - ٧٨
- نفي الإيمان بانتفاء بعض واجباته ٧٣
- تفسير قوله: ﴿يَقْسِ الْأَيْمَنُ الْقُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ ٧٥
- احتج أحمد وغيره بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا...﴾ على أنه يستثنى في الإيمان دون الإسلام ٧٨
- الكلام على قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا...﴾ ٧٨
- بيان أن الناس في قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ صادق وكاذب والكاذب فيه نفاق بحسب كذبه ٧٩
- من جوز أن يكون فيما أخبر به الرسول ما يعارضه صريح المعقول لم يزل في ريب ٧٩
- لا بد للمؤمن من ثلاثة أمور: ٧٩ - ٨٠

- الكلام على اليقين والريب وييان أن الرب توعان ٨٠
 الكلام على قوله: ﴿يَمْتَنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا...﴾ ٨٠ - ٨١

تفسير سورة ق

- الكلام على عموم السورة ٨٢
 كان النبي ﷺ يقرأ بـ (ق) في صلاة العيد وصلاة الصبح وفي خطبة الجمعة ٨٢ - ٨٣
 الكلام على قوله: ﴿أَنفَرُوا يَنْظُرُوا إِلَى أَسْمَاءَ فَوْقَهُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿تَبَصَّرَهُ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ ٨٣
 العلم يحصل بالعلم بالدليل ٨٣
 تفسير قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَشَمُودٌ...﴾ الآيات ٨٤
 كل مكذب للرسول كافر به وليس كل كافر مكذباً به ٨٤
 تفسير قوله: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْحَلَقِ الْأَوَّلِ﴾ ٨٤ - ٨٦
 الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ قَسُودٌ...﴾ ٨٦ - ٩٤
 المَلَك يعلم ما يهم به العبد من حسنة وسيئة ٨٦
 الشيطان يلتقم قلب العبد فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل عن ذكره وسوس ٨٦
 تفسير قوله: ﴿وَمَنْ أَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ٩٤ - ٩٧
 نقل ابن عبد البر وغيره إجماع الصحابة والتابعين على أنه سبحانه معهم بعلمه ٨٨
 مقاتل بن حيان ثقة في التفسير ليس بمجروح كما جرح مقاتل بن سليمان ٨٩
 قوله: ﴿وَمَنْ أَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هو قرب ذوات الملائكة وقرب علم الله ٨٩ - ٩٠ ، ٩٢
 قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، إنما جاء في الدعاء ٩٠
 الفرق بين القرب والمعية ٩٠ - ٩٤
 قوله: ﴿وَمَنْ أَأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ لا يجوز أن يراد به مجرد العلم ٩١
 نحن لا ندم كل ما يسمى تأويلاً وإنما ندم تحريف الكلم ومخالفة الكتاب والسنة والقول ٩٣
 في القرآن بالرأي ٩٣
 تفسير قوله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ ٩٤
 دلّ القرآن على أن الملائكة تكتب جميع أقوال العبد ٩٤
 تفسير قوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عِنْدٍ﴾ ٩٤ - ٩٥

- الكلام على قوله: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَلِيمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (١٩) ٩٥
- نزه سبحانه نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن الممتنع لنفسه ٩٥
- الكلام على قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِّجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ (٢٠) ٩٥ - ٩٦
- بيان أن جهنم واسعة ولا تمتلئ حتى يضييقها على من فيها ٩٦
- تفسير قوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٢١) ٩٦
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَإِذْكُرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٢٢) ٩٦ - ٩٧
- بيان أن من يؤتى الحكمة ويتفعل بالعلم على منزلتين ٩٧
- تفسير قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٢٣) ٩٧ - ٩٨
- نفي مس اللغوب دليل على كمال القدرة ونهاية القوة ٩٧ - ٩٨
- تفسير قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَّحُهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورَ﴾ (٢٤) ٩٨ - ٩٩
- تفسير قوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِبِدُ﴾ ٩٩

تفسير سورة الذاريات

- تفسير قوله: ﴿وَالذَّارِبُ ذَرَوًا﴾ (١) ١٠٠
- تفسير قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا لَنِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ (٨) ١٠١
- الحق يصدق بعضه بعضاً والباطل مختلف متناقض ١٠١
- ما من دليل يستدل به على نبوة أحد من الأنبياء إلا وهو على نبوة نبينا أدل ١٠١
- تفسير قوله: ﴿قُلِ الْخِرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمَرِهِمْ سَاهُونَ﴾ (١١) ١٠١
- الغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير ١٠٢
- تفسير قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾ (١٧) ١٠٢
- تفسير قوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١) ١٠٢
- تفسير قوله: ﴿قُورَيْبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ ١٠٢ - ١٠٣
- الكلام على قصة ضيف إبراهيم المكرمين ١٠٣ - ١٠٥
- الكلام على قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢٦) ١٠٤
- بيان أن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ١٠٥
- تفسير قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٢٧) ١٠٦

- تفسير قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩) ١٠٦
- الزوج يراد به النظير المماثل والضد المخالف ١٠٦
- تفسير قوله: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ﴾ (٥٦) ١٠٧
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ١٠٨ - ١١٩
- لا عبادة إلا ما هو واجب أو مستحب في دين الله وما سوى ذلك فضلال ١٠٨
- الكلام على اللام في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ وبيان أنها لام التعليل ١٠٨ - ١٠٩
- بيان أن الإرادة في كتاب الله على نوعين: إرادة كونية وإرادة شرعية ١٠٩ - ١١٠
- وعلى ذلك فالأقسام أربعة: ١١٠
- الكلام على حجة الله على خلقه وعظيم حكمته وعلمه ١١٣ - ١١٥
- بيان فساد مذهب القدرية في المشيئة ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٧
- أصل الإقرار بالصانع مستقر في قلوب جميع الإنس والجن ١١٨

تفسير سورة الطور

- تفسير قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ مَوَرًا﴾ (٩) ١٢٠
- تفسير قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ حَقًّا يَرْجُوهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ١٢٠
- أطفال المؤمنين مع آبائهم في الجنة ١٢٠
- تفسير قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (١٨) ١٢٠
- تفسير قوله: ﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِمَعْتَرٍ رَبِّكَ يَكَاذِبُونَ وَلَا يَحْزَنُونَ﴾ (٢٩) ١٢١
- تفسير قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ سَاعِرٌ زَرْعٌ بِهِ رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ (٢٠) ١٢١
- صَدَقَ ١٢١
- في القرآن آيات التحدي والتعجيز ١٢١
- تفسير قوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٦٦) ١٢١ - ١٢٣
- بيان ضعف القول بأن معنى الآية: (أم خلقوا من غير مادة) ١٢٣
- تفسير قوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ١٢٤ - ١٢٥
- حكم الله نوعان: خلق وأمر ١٢٤
- تفسير قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَحُمِّهِ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ (٩) ١٢٥ - ١٢٦

تفسير سورة النجم

- سورة النجم باتفاق الناس من أول ما نزل بمكة ١٢٧
- تفسير قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ ١٢٧ - ١٢٩
- نفي عنه الهوى وأثبت العلم الكامل ١٢٨
- الكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علماً وقصداً ١٢٨
- من لم يكن صادقاً: إما أن يكون متعمداً للكذب أو مخطئاً ١٢٨
- الغي والضلال يجمعان جميع سيئات بني آدم ١٢٩
- تفسير قوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ... ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ ١٣٠ - ١٣١
- تفسير قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ ١٣١ - ١٣٢
- الكلام على الرؤية ١٣١ - ١٣٢
- بيان أن المرئي جبريل عليه السلام ١٣٢
- تفسير قوله: ﴿مَا رَأَىٰ الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ ﴿١٧﴾﴾ ١٣٢
- الكلام على قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنُوءَ النَّاتِلَةَ الْآخَرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ ١٣٣ - ١٣٧
- بيان أن السفر إلى المشاهد حج إليها ١٣٣
- الكلام على أصنام العرب في الجاهلية ١٣٣ - ١٣٧
- تفسير قوله: ﴿الْكُفْرَ أَذْكَرَ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ ١٣٧
- تفسير قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَمَا بَآؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿٢٣﴾﴾ ١٣٧ - ١٣٨
- تفسير قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴿٢٤﴾﴾ ١٣٧ - ١٣٨
- الإنسان مأمور بطلب العلم الذي يحتاج إليه بحسب إمكانه ١٣٧
- تفسير قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ ... ﴿٢٥﴾﴾ ١٣٨ - ١٣٩
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئُونَ أَلَلَّهُكَ نِسِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٦﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ... ﴿٢٧﴾﴾ ١٤٠
- كل من خالف الرسول لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس ١٤٠
- تفسير قوله: ﴿وَذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ... ﴿٢٨﴾﴾ ١٤٠ - ١٤١
- الكلام على قوله: ﴿وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَيَجْعَلَنَّ الَّذِينَ آسَأُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْعَلَنَّ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَعْنَىٰ ﴿٢٩﴾﴾ ١٤١

الصفحة

الموضوع

- الكلام على قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَيْدَ الْآخِرِ وَالْفَوْجِشَ إِلَّا أَلَمَ...﴾ ١٤١ - ١٤٢
- تفسير قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ١٤٢
- تفسير قوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٦١) ١٤٢ - ١٤٩
- بيان صحة انتفاع الإنسان بسعي غيره ١٤٢ - ١٤٣
- الكلام على إهداء ثواب القرب إلى الميت ١٤٣ - ١٤٤
- لا يلزم من نفي الملك نفي الانتفاع ١٤٤ ، ١٤٦
- أصول الإيمان بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ١٤٥
- ما أكثر ما يحرف قول ابن عباس ويغلط عليه ١٤٧
- الكلام على أقوال العلماء في تفسير الآية ١٤٦ - ١٤٩
- بيان أن الإنسان قد ينتفع بما لم ينو كانتفاع الميت بالصدقة عنه ١٤٨
- يرحم الله العباد بغير سعيهم أعظم مما يرحمهم بسعيهم ١٤٩
- تفسير قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (٤٧) ١٤٩
- تفسير قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَعَارَىٰ﴾ (٥٥) ١٤٩ - ١٥٠
- تفسير قوله: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأَوَّلِ﴾ (٥٦) ١٥٠
- تفسير قوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَاهُونَ﴾ (٦١) ١٥٠ - ١٥١
- الكلام على قوله: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٦٧) ١٥١

تفسير سورة القصر

- الكلام على عموم السورة ١٥٢
- كان ﷺ يقرأ هذه السورة في المجامع الكبار كالجمع والأعياد ١٥٢ ، ١٥٥
- الإنذار هو الإعلام بالمخوف ١٥٢
- الكلام على انشقاق القمر ١٥٣ - ١٥٧
- لا يحدث شيء إلا بإحداث أسباب ودفع موانع ١٥٧
- تفسير قوله: ﴿تَجَرَّىٰ بِأَعْيُنِنَا﴾ ١٥٨
- تفسير قوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ﴾ (١٥) ١٥٨ - ١٥٩
- تفسير قوله: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَتَىٰ لَكُمُ بَرَاءَةٌ فِي الزَّيْرِ﴾ (١٧) ١٥٩ - ١٦١
- حيث ظهر الكفار فإنما ذاك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم ١٦١
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٤٧) ١٦١

الموضوع

الصفحة

- الكلام على قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (١٩) ١٦٢ - ١٦١
- من كفر بالقدر فقد كفر بالقرآن ١٦٢
- ذم القدرة ١٦٢
- تفسير قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (٥٦) ١٦٣
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ الْتَقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهَرٍ﴾ (٥٨) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٩﴾ ١٦٣
- تعريف التقوى ١٦٣

تفسير سورة الرحمن

- الكلام على تكرار قوله: ﴿فَإِنِّي آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٢) ١٦٤
- الكلام على قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (٤) ١٦٥ - ١٦٤
- العي عي القلب لا عي اللسان ١٦٤
- تفسير قوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (٥) ١٦٥
- الكلام على قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ١٦٦ - ١٦٥
- الكلام على قوله: ﴿فَإِنِّي آءَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٢) ١٦٦ - ١٧٠
- كل ما خلقه الله فهو نعمة على المؤمنين يستحق أن يحمده عليه ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٦٩
- كل قضاء الله للمؤمن خير ١٦٧
- الكلام على نعمة الضراء ونعمة السراء ومنزلي الصبر والشكر فيهما ١٦٨
- كل ما يفعله الله فهو نعمة منه ١٦٨
- كيف تكون ذنوب الإنسان نعمة؟ ١٦٨ - ١٦٩
- تسمى سورة النحل سورة النعم ١٦٩
- الحمد أعم من الشكر من جهة أسبابه والشكر أعم من جهة أنواعه ١٦٩
- مذهب السلف أن الله الملك والحمد تامين خلافاً للجهمية والقدرية والمعتزلة ١٧٠
- الكلام على قوله: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٩) يَتَّبِعُهُمَا بَرَجٌ لَا يُصَيَّبَانِ ﴿٢٠﴾ ١٧٠ - ١٧٢
- بيان بطلان قول من فسر الآية بعلي وفاطمة والحسن والحسين ١٧٠ - ١٧٢
- إذا كان محمد أفضل من إبراهيم عليه السلام فلم قيل: كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم؟ ١٧١
- الكلام على معنى اللؤلؤ والمرجان ١٧٢
- تفسير قوله: ﴿وَلَهُ الْمَوْجِرُ الْمُنَشَّاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْعُلَمِ﴾ (٢٤) ١٧٢

الموضوع

الصفحة

- الكلام على قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ رَبُّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿٧٧﴾ ١٧٢ - ١٧٧
- جهنم في الأرض والأرض لا تعدم بالكلية ولكن فناؤها بتغير حالها ١٧٣
- جميع الأعمال تفتى ولا يبقى منها شيء ينفع صاحبه إلا ما كان لوجه الله ١٧٣
- تفسير قوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ١٧٣ - ١٧٧
- بيان أن التحميد والتوحيد مقدم على مجرد التعظيم ١٧٥
- الكلام على الاسم والمسمى ١٧٦ ، ١٧٩ - ١٨١
- الاسم نفسه يسبح ويذكر ويراد بذلك المسمى ١٧٦
- بيان مراد من قال من أهل السنة: إن الاسم هو المسمى بهذا الكلام ١٧٦ - ١٧٧
- الكلام على الصفات الثبوتية والسلبية ١٧٧
- الكلام على قوله: ﴿يَسْتَلِدُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿١٦﴾ ١٧٧ - ١٧٨
- الكلام على أصناف بني آدم في العبادة والاستعانة ١٧٧
- بيان أن حدثه سبحانه لا يشبه حدث المخلوقين ١٧٧
- النهي عن سؤال أهل الكتاب عن كتبهم ١٧٧ - ١٧٨
- تفسير قوله: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ ﴿٤٦﴾ ١٧٨
- أهل رغبة الله مستحقون لجنته بلا عذاب ١٧٨
- تفسير قوله: ﴿فَمِنْ قَصِيرَاتٍ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُ فَنَالَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٥٦﴾ ١٧٨
- تفسير قوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ ﴿٦٠﴾ ١٧٨ - ١٧٩
- الكلام على قوله: ﴿بَبَرَكَةِ اسْمِكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿٧٨﴾ ١٧٩ - ١٨١
- بيان أن نفس أسمائه سبحانه مباركة ويركتها من جهة دلالتها على المسمى ١٧٩
- الحروف الزائدة في القرآن قد تجيء للتوكيد ١٨٠
- بيان أن تسبيح الاسم وذكره هو تسبيح المسمى وذكره ١٨٠

تفسير سورة الواقعة

- الكلام على عموم السورة ١٨٢ - ١٨٤
- من مات فقد قامت قيامته ١٨٢
- الكلام على القيامة الصغرى والكبرى ١٨٢ - ١٨٣
- الكلام على الأبرار أصحاب اليمين والسابقين المقربين ١٨٤

الموضوع

الصفحة

- تفسير قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ١٨٤ - ١٨٥
- «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة» ١٨٤
- تفسير قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٨٥
- ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ١٨٥
- قولهم: (اللهم صل على محمد في الأولين) ليس مأثوراً ١٨٥
- تفسير قوله: ﴿يَطْرُقُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُخْلَدُونَ﴾ ١٨٥
- ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ١٨٥
- تفسير قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ﴾ ١٨٥ - ١٨٦
- ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ١٨٥ - ١٨٦
- لا توجد الحوادث إلا بفاعل قديم غير محدث غني عن غيره ١٨٥ - ١٨٦
- الكلام على قوله: ﴿عَلَى أَنْ يُدَلَّ أَشْلُكُمْ وَتُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ١٨٦ - ١٨٩
- الكلام على المبدأ والمعاد ١٨٦ - ١٨٩
- تفسير قوله: ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الزَّيْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ ١٨٩
- الكلام على قوله: ﴿لَا يَمْسُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ١٨٩ - ١٩٢
- بيان أن الصحيح أن الكتاب هو اللوح المحفوظ وأن (المطهرون) هم الملائكة ١٨٩
- إذا كان من حكم الكتاب الذي في السماء أن لا يمسه إلا المطهرون وجب أن يكون ١٨٩ - ١٩٢
- الذي في الأرض كذلك ١٩٠
- بيان عدم جواز مس المصحف إلا على طهارة ١٩٠
- حكم النجاسة لا يتعدى محلها ١٩٠
- إذا حمل غير المتطهر المصحف بحائل له منفصل منه من غير مس جاز في ظاهر ١٩٠
- المذهب ١٩٠
- مفهوم قوله: «لا يمس القرآن إلا طاهر» جواز ما سوى المباشرة ١٩٠ - ١٩١
- العلاقة وإن اتصلت به فليست منه بخلاف الجلد ١٩١
- الكلام على حكم كتابته للمحدث ١٩١
- يجوز مس كتب التفسير والحديث والفقه في المشهور عن أحمد ١٩١
- يجوز مس ما كتب فيه المنسوخ والتوراة والإنجيل في المشهور من الوجهين ١٩١
- وفي مس الدراهم المكتوب عليها القرآن روايتان ١٩١
- لا يجوز تمليك المصحف من كافر ولا السفر به إلى بلادهم ١٩١
- الاستدلال بالآية على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر من باب التنبيه والإشارة ١٩١ - ١٩٢

- تفسير قوله: ﴿وَجَعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ (٨٧) ١٩٣ - ١٩٢
- الكلام على قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٧) ، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٨٨) ١٩٦ - ١٩٤
- بيان أن القرب في الآية إنما هو قرب الملائكة ١٩٤
- صيغة (نحن) يقولها المتبوع المطاع العظيم الذي له جنود يتبعون أمره ١٩٥
- يرى المحتضر ملائكة الموت ١٩٦
- تفسير قوله: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦) ١٩٦
- الكلام على قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٩٦) ١٩٦

تفسير سورة الحديد

- أول سورة الحديد إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من آيات الصفات ١٩٧
- الكلام على قوله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ١٩٧
- تفسير قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢) ٢٠٢ - ١٩٧
- تفسير قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ٢٠٦ - ١٩٨
- الكلام على المعية العامة والخاصة ١٩٩ - ١٩٨
- بيان فساد تفسير المعية على أنه سبحانه في كل مكان ٢٠٦ - ٢٠٥ ، ١٩٩
- لم يجئ اسم (الباطن) إلا مقروناً باسم (الظاهر) ١٩٩
- بيان خطأ من فسر (الظاهر) بأنه المعروف ٢٠٠
- ليس لفظ القرب في القرآن واللغة كلفظ المعية ٢٠١
- العلو لله صفة لازمة له وحين ينزل إلى السماء الدنيا لا يخلو العرش منه ٢٠٢
- الكلام على الجهة ٢٠٢
- القمر موضوع في السماء وهو مع المسافرين أينما كان ٢٠٣
- بيان أن الله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة ٢٠٤
- هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد ٢٠٥ - ٢٠٤
- قوله: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية ٢٠٤
- الاطلاع والنصر والتأييد ٢٠٤
- فرق بين المعية ومقتضاها وربما صار مقتضاها من معناها ٢٠٥

- تفسير قوله: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ ٢٠٦ - ٢٠٧
- تفسير قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ...﴾ ٢٠٧ - ٢١٠
- المراد بالفتح هنا صلح الحديبية ٢٠٨ - ٢٠٩
- ليس في الآية ما يدل على أن كل من كان أسبق إلى الإسلام كان أفضل من غيره ٢٠٨
- فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ٢٠٩ - ٢١٠
- تفسير قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ قُرْكُمْ﴾ ٢١٠ - ٢١٢
- بيان أن غالب المنافقين على عهده ﷺ قد تاب من نفاقه ٢١٠
- الذين كانوا معه ﷺ بالحديبية بايعوه كلهم إلا الجد بن قيس ٢١١
- الكلام على قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ...﴾ ٢١٢ - ٢١٥
- الكلام على الخشوع في الصلاة وغيرها ٢١٢ - ٢١٣
- خشوع الجسد تبع لخشوع القلب إذا لم يكن الرجل مرائياً ٢١٢ - ٢١٣
- الكلام على قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ٢١٣ - ٢١٥
- تفسير قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ٢١٥
- كل مؤمن آمن بالله ورسوله فهو صديق ٢١٥
- تفسير قوله: ﴿مَا آصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ...﴾ ٢١٦
- تفسير قوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ﴾ ٢١٦
- تفسير قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَأَمُرُّنَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ٢١٧
- يعم البخل في الآية كل ما ينفع في الدين والدنيا من مال وعلم وغير ذلك ٢١٧
- الكلام على قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ...﴾ ٢١٧ - ٢٢٣
- تفسير الميزان ٢١٧ - ٢٢٢
- قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر، والكتاب هو الأصل ٢١٨ - ٢١٩
- أنزل الحديد من الجبال التي يخلق فيها ٢١٨
- العدل جماع الدين والحق والخير كله ٢١٩
- بين الرسل ﷺ العلوم العقلية التي بها يتم دين الناس ٢٢٠
- الكلام على الميزان العقلي ٢٢٠
- نزلت الأمانة في جذر قلوب الرجال ٢٢١

- من خرج عن الكتاب والميزان قوتل بالحديد ٢٢٢
- الكتاب والعدل متلازمان، ومن حكم بالعدل فقد حكم بالشرع ٢٢٢
- الكلام على معنى لفظ (النزول) في القرآن ٢٢٢ - ٢٢٣
- الكلام على إنزال الحديد ٢٢٢ - ٢٢٣
- الرد على النصارى في استدلالهم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ على أن المقصود
الحواريون ٢٢٣ - ٢٣٠
- الكلام على حديث: (الأنبياء مائة ألف نبي والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر) ٢٢٥
- أولو الأمر هم العلماء والأمرء ٢٢٧
- الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ ٢٣٠
- الرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر يكون أكمل من غيره ٢٣٠
- فضل نوح وإبراهيم ﷺ ٢٣٠
- ذكروا أن أول من بدل دين المسيح هو بولس الذي كان يهودياً فأسلم نفاقاً ٢٣٠
- تفسير قوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ...﴾ ٢٣١ - ٢٣٥
- بيان أن ابتغاء رضوان الله واجب ٢٣١
- لا يجوز أن يكون المعنى أن الله كتب عليهم الرهبانية ابتغاء رضوانه ٢٣٢
- بيان غلط من قال: إن الله جعل في قلوبهم الرهبانية جعلاً شرعياً ممدوحاً ٢٣٣
- لم يكن فيمن صحب المسيح ﷺ راهب ٢٣٣
- بيان ذم الرهبانية وأنها بدعة وضلالة ٢٣٣ - ٢٣٥
- بيان ذم مبتدعي الرهبانية من وجهين ٢٣١، ٢٣٤
- بيان أن الصحيح في الآية أن الاستثناء فيها منقطع ٢٣٢، ٢٣٥
- تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْخَذْ مِنْكُمْ كَفَّالَيْنِ مِنْ رَحْمَةِ...﴾ ٢٣٥ - ٢٣٦

تفسير سورة المجادلة

- الكلام على قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا...﴾ ٢٣٧ - ٢٣٨
- كانوا أول الإسلام يرون لفظ الظهار صريحاً في الطلاق ٢٣٨
- جعل الله الظهار موجياً للكفارة ولو نوى به الطلاق ٢٣٨
- بيان أنه إذا وجدت الأعمال والأقوال سمعها الله ورآها ٢٣٨

- الكلام على قوله: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ...﴾ ٢٣٨
- حكم من نذر أن ينحر ابنة ٢٣٨
- تفسير قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ...﴾ ٢٣٩
- قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ اسم مطلق يدخل فيه المؤمنة والكافرة ٢٣٩
- تفسير قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآثَا﴾ ٢٣٩
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ كُفْرًا كَمَا كُنْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ٢٣٩ - ٢٤٠
- الكلام على قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ جَبَرٍ ثَلَاثَةً إِلَّا هُوَ رَبُّهُمْ...﴾ ٢٤٠ - ٢٤٥
- بيان أن الله على العرش سبحانه وعلمه في كل مكان ٢٤٥ - ٢٤٠
- قال ابن المبارك وإسحاق: هو على عرشه بائن من خلقه بحد ٢٤٢
- الكلام على قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ...﴾ ٢٤٥ - ٢٤٦
- بيان أن حديث النفس ليس هو الكلام المطلق وإنه ليس باللسان ٢٤٥
- الكلام على قوله: ﴿بَرَفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ٢٤٦ - ٢٤٨
- بيان فضل العلم على فضل العبادة ٢٤٧
- أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ٢٤٧
- الكلام على منزلة فهم القرآن وبيان فضلها وفضل أصحابها ٢٤٨
- ذم التكلف والاعتناء بغرائب التأويل ونحو ذلك ٢٤٨
- الكلام على قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ﴾ ٢٤٨ - ٢٤٩
- كان بعض السلف يتصدق بين يدي الصلاة والدعاء إذا أمكنه وكان شيخ الإسلام يفعله ٢٤٩
- الكلام على قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾ ٢٤٩ - ٢٥١
- بيان أن المراد بهؤلاء المنافقون، وبيان حكمهم ٢٥١ - ٢٤٩
- اليمين إنما تكون جنة إذا لم نأت ببينة عادلة تكذبها ٢٥٠
- ليس في الروافض إلا من فيه شعبة من شعب النفاق ٢٥١
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ أُولَئِكَ فِي الْآذَانِ﴾ ٢٥١ - ٢٥٣
- بيان أن المحاد لله ورسوله لا يكون له عهد يعصمه ٢٥٣ - ٢٥١
- الكلام على قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْكَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ٢٥٣ - ٢٥٤

- لم تكن كفارة اليمين شرعت أول الإسلام ثم شرعت بعد ٢٥٣
- الكلام على قوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ ٢٥٤
- بيان أن موادة عدو الله ورسوله تنافي المحبة وتنافي الإيمان ٢٥٤
- لا ولاء لله إلا بالبراءة من عدو الله ورسوله ٢٥٤
- لا يوجد مؤمن يواد الكفار ٢٥٦
- الإيمان قول وعمل ٢٥٥ - ٢٥٦
- مذهب السلف أن ترك الواجبات الظاهرة دليل على انتفاء الإيمان الواجب من القلب ٢٥٦
- إرادة القلب مع القدرة توجب فعل المراد ٢٥٩ ، ٢٥٧
- المشابهة الظاهرة للكفار مظنة الموادة فتكون محرمة ٢٥٧
- المحاداة أعم من المشاقة ٢٥٨
- بيان أن أهل الكتاب محادون لله ورسوله وإن كانوا معاهدين ٢٥٩
- الكلام على تلازم الظاهر والباطن ٢٥٩

تفسير سورة الحشر

- الكلام على قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ...﴾ ٢٦٠ - ٢٦١
- تفسير الاعتبار في قوله: ﴿فَاعْتَرِضُوا يُنَادِي الْأَبْصَرِ﴾ ٢٦٠ - ٢٦١
- تفسير قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا﴾ ٢٦١
- تفسير قوله: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْهَا قَائِمَةً...﴾ ٢٦٢
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَرْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ ٢٦٢ - ٢٦٣
- الكلام على الفيء وتعريفه ٢٦٢ - ٢٦٥ ، ٢٦٨ - ٢٦٩
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ...﴾ الآية ٢٦٣ - ٢٦٧
- جمهور العلماء على أن الفيء لا يخمس وهو الصحيح ٢٦٤
- الكلام على مذهب الظاهرية ٢٦٤
- الكلام على سهم الرسول ﷺ من الفيء ٢٦٥
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا ءَانَكُمُ الرَّسُولُ فَحُذُّوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ٢٦٦ - ٢٦٧
- تفسير قوله: ﴿كَئِنْ لَا يَكُنْ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَعْيُنِ مِنْكُمْ﴾ ٢٦٧

الموضوع

الصفحة

- الكلام على قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ...﴾ ٢٦٧ - ٢٧٠
- من سب الصحابة لم يكن له في الفی نصيب ٢٦٩، ٢٧٥، ٢٧٧
- تفسير قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْرِجُونَ مِنْ هَاجَرٍ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية ٢٧٠ - ٢٧٦
- الترهيب من الشح والحسد ٢٧١ - ٢٧٥
- كل شحيح بخيل وليس كل بخيل شحيحاً ٢٧٣ - ٢٧٤
- الكلام على قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ ٢٧٦ - ٢٧٨
- تفسير قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ ٢٧٨
- تفسير قوله: ﴿لَا يَنْفُلُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدٍّ...﴾ ٢٧٨ - ٢٧٩
- الكلام على قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ ٢٧٩ - ٢٨١
- قولهم: (من عرف نفسه عرف ربه) ليس بحديث ٢٧٩
- من ذكر ربه ذكر نفسه، ومن نسي ربه نسي نفسه ٢٧٩
- نفي الاختلاف عن القرآن لا يكون إلا بتدبره كله ٢٨١
- الكلام على قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيمُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ...﴾ ٢٨١ - ٢٨٢
- إلى آخر السورة ٢٨١ - ٢٨٢
- آخر سورة الحشر من أعظم آيات الصفات ٢٨٢

تفسير سورة الممتحنة

- الكلام على قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّكُمْ وَأَوْلِيَاءَ﴾ ٢٨٣ - ٢٨٤
- الكلام على قوله: ﴿فَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾ ٢٨٤ - ٢٨٧
- الكلام على الولاء والبراء ٢٨٥ - ٢٨٧
- بيان ضلال الحلولية في استدلالهم بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ على إلحادهم ٢٨٧
- تفسير قوله: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً﴾ ٢٨٧ - ٢٨٨
- قد يكون الشخص عدواً لله ثم يصير ولياً لله ٢٨٨
- تفسير قوله: ﴿لَا يَتَّبِعُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ٢٨٨ - ٢٨٩
- تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ...﴾ ٢٨٩ - ٢٩٥
- مجرد إظهار الإسلام لا يكون دليلاً على الإيمان في الباطن ٢٩٥ - ٢٩٠

- الكلام على قوله: ﴿وَلَا تُسْكُوا يَصِيمِ الْكَافِرِ﴾ ٢٨٩ - ٢٩٤
- المهاجرة من أهل الحرب ليس عليها عدة إنما عليها استبراء بحيضة ٢٩١
- المهاجر من عبيد المشركين يكون حراً بالإسلام والهجرة ٢٩١
- المهاجر من رقيق المعاهدين يرد عليهم ثمنه دون عينه ٢٩١
- لو أسلم عبد الدمي أمر بإزالة ملكه عنه ببيع أو هبة أو عتق وإلا بيع عليه ٢٩١ - ٢٩٢
- تفسير قوله: ﴿وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ بِمَالِكِ الْفُقَرَاءِ﴾ ٢٩٢
- دلّت الآية على أن المرأة إذا أفست نكاحها رجع عليها زوجها بالمهر ٢٩٢
- الرد على من كره نكاح نساء أهل الكتاب ٢٩٢ - ٢٩٣
- تفسير قوله: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَقَبْتُمْ﴾ ٢٩٥
- تفسير قوله: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعَنَّكَ﴾ ٢٩٥

تفسير سورة الصف

- الكلام على قوله: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ
- أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) ٢٩٦
- الكلام على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا لِمَ تَوَدُّونَنِي﴾ ٢٩٦ - ٢٩٧
- الكلام على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ ٢٩٧ - ٢٩٨
- البشارة بنبينا محمد ﷺ ٢٩٧
- ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال ٢٩٨
- تفسير قوله: ﴿وَالْآخَرَىٰ تُجْزَوْنَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧) ٢٩٨ - ٢٩٩
- بيان فضل الجهاد ٢٩٨
- الكلام على قوله: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُّوا أُنْصَارَ اللَّهِ﴾ ٢٩٩
- المهاجرون أفضل من الأنصار ٢٩٩
- بيان أن الله أرسل رسله بالآيات البيّنات وهي الأدلة والبراهين البيّنة ٢٩٩ - ٣٠٠

تفسير سورة الجمعة

- تفسير قوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ٣٠١ - ٣٠٢
- بيان أن الحكمة هي السّنة ٣٠٢
- تفسير قوله: ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ ٣٠٢

- جاء الكتاب والسنة بمدح بعض الأعاجم ٣٠٢ - ٣٠٣
- تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ ٣٠٣ - ٣٠٧
- السعي في كتاب الله هو العمل والفعل ٣٠٤
- الكلام على معنى السعي في الكتاب والسنة ٣٠٤ - ٣٠٦
- ليس في الكتاب والسنة إلا مقيم ومسافر والمقيم هو المستوطن ٣٠٥
- المسافرون لا يعقدون جمعة لكن إذا عقدها أهل المصر صلوا معهم ٣٠٥
- الكلام على معنى (القضاء) في الكتاب والسنة وفي اصطلاح الفقهاء ٣٠٦ - ٣٠٧
- تفسير قوله: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ ٣٠٧

تفسير سورة المنافقون

- الكلام على قوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا...﴾ ٣٠٨ - ٣٠٩
- بيان أن المنافقين كانوا يرضون المؤمنين بالإيمان الكاذبة وذلك دليل على أنهم يقتلون إذا ثبت ذلك عليهم لوجوه ٣٠٨ - ٣٠٩
- تفسير قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ...﴾ ٣٠٩ - ٣١١
- بيان معنى الجسم في لغة العرب ٣١٠ - ٣١١
- الكلام على قوله: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ ٣١١ - ٣١٢
- زيد بن أرقم هو صاحب الأذن الذي وفي الله بأذنه ٣١١
- بيان أن العز في طاعة الله والذل في معصيته ٣١٢
- بيان أن المنافقين كانوا أذلاء بين المؤمنين ٣١٢
- تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾ ٣١٢ - ٣١٣
- من ألهاه ماله وولده عن فعل المكتوبة في وقتها فهو خاسر ٣١٢ - ٣١٢
- تفسير قوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ...﴾ ٣١٣

تفسير سورة التغابن

- تفسير قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ ٣١٤
- تفسير قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبُيُوتِهِمْ لَيُعَذِّبَهُنَّ اللَّهُ...﴾ ٣١٤
- تفسير قوله: ﴿مَا آصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ٣١٤ - ٣١٥
- تفسير قوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ ٣١٥

الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا اللَّيْلُ مَأْمُونًا إِنَّكَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوَّلَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾

- ٣١٦
 ٣١٦ (من) في الآية للتبعض باتفاق الناس
 ٣١٧ - ٣١٦ بيان أن قول من قال إنها هنا زائدة غلط لوجوه
 ٣١٩ - ٣١٧ الكلام على قوله: ﴿فَأَنفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾
 ٣١٩ - ٣١٨ الكلام على معنى الاستطاعة
 ٣١٩ النسخ في عرف السلف

تفسير سورة الطلاق

- ٣٢٢ - ٣٢٠ الكلام على قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾
 ٣٢٠ الطلاق على أربعة أوجه
 ٣٢١ - ٣٢٠ بيان أن المبتوتة ليس لها نفقة ولا سكنى على الصحيح
 بيان أن المطلقة في القرآن هي الرجعية وأن الله لم يبح إلا الطلاق الرجعي وإلا الطلاق
 للعدة
 ٣٢٢ - ٣٢١ معنى الطلاق للعدة؛ أي لاستقبال العدة
 ٣٢٢ إذا طلق زوجته في حالة الحيض كان مبتدعاً بذلك
 ٣٢٩ - ٣٢٢ الكلام على قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَحْلَاهُ فَاتَسَبَّكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...﴾
 ٣٢٩ - ٣٢٣ الكلام على قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا...﴾
 ٣٢٦ ، ٣٢٣ قال بعض السلف: (ما احتاج بقي قط)
 ٣٢٤ بيان أن الناس ينقسمون إلى أربعة أصناف في العبادة والتوكل
 من كان جاهلاً بتحريم طلاق البدعة فإذا عرف التحريم وثاب استحق أن يجعل الله له
 مخرجاً
 ٣٢٦ - ٣٢٥ التائب من الذنب كمن لا ذنب له
 ٣٢٥ الحسب الكافي
 ٣٢٩ - ٣٢٦ الكلام على قوله: ﴿وَبَرِّزْهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾
 ٣٣٤ ، ٣٢٦ الرزق اسم لكل ما يغتذي به الإنسان من رزق الدنيا والآخرة

الجواب عن قول القائل: قد نرى من يتقي وهو محروم ومن هو بخلاف ذلك وهو

- مرزوق ٣٢٦
- بيان أن الاستغفار سبب للرزق والنعمة، والمعاصي سبب للمصائب والشدة ٣٢٧
- يتلي الله عباده بالمصائب والنعمة ليكون العبد صباراً شكوراً ٣٢٧
- بيان مطابقة هذه الآية لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٣٢٨
- قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هي الآية الجامعة لعلم الكتب الإلهية كلها ٣٢٨
- فضل تقوى الله والتوكل عليه ٣٢٨ - ٣٢٩
- الكلام على قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ٣٢٩
- تفسير قوله: ﴿وَالَّذِي يَمُنْ مِنَ الْمَيْمَنِ مِنْ نَسَائِكُمْ﴾ ٣٢٩ - ٣٣٠
- تفسير اليأس المذكور في الآية ٣٢٩
- حكم دم النفاس حكم دم الحيض ٣٢٩
- تفسير قوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْهَلُ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ ٣٣٠
- تفسير قوله: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ ٣٣٠
- ليس في القرآن إجارة منصوصة إلا إجارة الظئر ٣٣٠ - ٣٣١
- الفائدة التي تستخلف مع بقاء أصلها تجري مجرى المنفعة ٣٣١
- تفسير قوله: ﴿فَإِنْ أَضَعْنَ لَكُمْ فَاتَوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ ٣٣١
- بيان أن سورة الطلاق تدل على تحريم جمع الثلاث من وجوه ٣٣٢ - ٣٣٤
- الصحيح أن نفقة الحامل تجب للحمل ٣٣٣
- تفسير قوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ ٣٣٣
- الحامل لا أجل لها إلا وضع الحمل سواء كانت متوفى عنها أو مدخولاً بها ٣٣٤
- تفسير قوله: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ...﴾ ٣٣٤
- الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ٣٣٤

تفسير سورة التحريم

- تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...﴾ ٣٣٥ - ٣٣٦
- بيان أن تحريم الحلال يمين والنذر يمين ٣٣٥ - ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٤٢
- اليمين بالله لم توجب الحرمة الشرعية ٣٣٥، ٣٤٠

- الكلام على قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ ٣٣٦ - ٣٤٣
- من حلف يمين من أيمان المسلمين فحنث أجزأته كفارة يمين ٣٣٦ - ٣٤٣
- من حلف بأيمان الشرك فهي يمين غير منعقدة ولا كفارة فيها إذا حنث باتفاق أهل العلم ٣٣٦
- حكم من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ٣٣٧
- الحلف بالمخلوقات شرك ليس من أيمان المسلمين ٣٣٧ - ٣٣٨
- لو قال: أيمان المسلمين تلزمني ونوى دخول الطلاق والعناق دخل في ذلك، لا أعلم فيه نزاعاً ٣٣٨
- لم تكن كفارة اليمين مشروعة أول الإسلام، ولا فيمن كانوا قبلنا ٣٣٨، ٣٤٢
- الحلف بالنذر والطلاق ونحوهما هو من الحلف بصفات الله ٣٤٠
- التكفير قبل الحنث في قول أبي بكر عبد العزيز وغيره من أصحابنا ٣٤١
- الكلام على قوله: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ...﴾ ٣٤٣ - ٣٤٨
- الكلام على الموالاة ٣٤٣ - ٣٤٤
- الرد على الرافضي في زعمه أن المقصود بصالح المؤمنين في الآية علي عليه السلام ٣٤٤ - ٣٤٦
- حديث: أن النبي صلى الله عليه وآله فسر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعلي، كذب موضوع ٣٤٤ - ٣٤٥
- بيان أن قوله: ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعم كل صالح من المؤمنين ٣٤٣ - ٣٤٥
- الرد على الرافضي الضال في طعنه في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وغيرها من أمهات المؤمنين ٣٤٧ - ٣٤٨
- فضل أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ٣٤٧
- حديث: (تقاتلين علياً وأنت ظالمة له) كذب موضوع ٣٤٨
- بيان أن عائشة وعامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال يوم الجمل ٣٤٨
- بيان أنهم لم يخرجوا لقصد الاقتال، وإنما وقع بغير اختيارهم ٣٤٨
- الكلام على قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّمَّنْكَ...﴾ ٣٤٩
- تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَعْلَوُكُمْ نَارًا...﴾ ٣٤٩ - ٣٥٠
- العاصي هو الممتنع من طاعة الله مع قدرته على الامتثال ٣٤٩

- بيان الحكمة من العطف بقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ٣٤٩ - ٣٥٠
- تفسير قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا...﴾ ٣٥٠ - ٣٥٢
- تعريف التوبة النصوح ٣٥٠ - ٣٥٢
- من أحكام التوبة ٣٥١
- تفسير قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ تَوْبَهُمْ يَسْئَلُ يَوْمَ ذَلِكَ أَلْيَهُمْ وَيَأْتِيهِمْ...﴾ ٣٥٢
- الرد على الرافضة في استدلالهم بهذه الآية على أفضلية عليّ على أبي بكر وعمر ٣٥٢
- تفسير قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ٣٥٣
- أعداء الدين نوعان: الكفار والمنافقون ٣٥٣
- تفسير قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ﴾ ٣٥٣
- نكاح الكافرة قد يجوز في بعض الشرائع ٣٥٣
- نكاح البغي ديانة، وهو حرام حتى تتوب ٣٥٣
- تفسير قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ ٣٥٤
- تفسير قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ ٣٥٤ - ٣٥٥
- دلت الكتب على أن المسيح تجسد من روح القدوس ومن مريم العذراء البتول وبهذا ٣٥٥
- أخبر القرآن ٣٥٥

تفسير سورة الملك

- فضل سورة الملك ٣٥٦
- تفسير قوله: ﴿يَبْلُغُهُمْ أَتُّكُرُ لَحَسَنُ عَمَلًا﴾ ٣٥٦
- تفسير قوله: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ ٣٥٧
- تفسير قوله: ﴿ثُمَّ أَتِيجَ الْبَصَرُ كَرْنَيْنِ﴾ ٣٥٧
- تفسير قوله: ﴿كَلَّمَآ أَلَيْنِ فِيهَا فَوْجٌ سَلَمْتُمْ خَزَنَتَهَا﴾ ٣٥٧ - ٣٥٨
- تفسير قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ٣٥٨
- تفسير قوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ٣٥٨
- بيان ضعف قول من يقول: إن القول المسر في القلب دون اللسان ٣٥٨
- الاستدلال بالآية على أن الله خالق أقوال العباد وما في صدورهم ٣٥٨ - ٣٥٩

- الكلام على قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (٧) ٣٥٩
- الكلام على إرادة الله ومشيتته ٣٥٩ - ٣٦١
- القدرية ينكرون قيام الإرادة به سبحانه ٣٦١
- الكلام على قوله: ﴿وَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ ٣٦٥ - ٣٦١
- كل ما علا فهو سماء ٣٦١
- معنى الآية: ءأمتتم من على العرش ٣٦١
- الكلام على الفوقية والاستواء ٣٦٥ - ٣٦١
- الكلام على قوله: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ٣٦٦ - ٣٦٥
- قال غير واحد من السلف: إن الله يتزل إلى السماء الدنيا ولا يخلو العرش منه ٣٦٥
- العلو على المخلوقات صفة لازمة لله تعالى ٣٦٥
- ليس الرب في مخلوق أصلاً سواء سمي ذلك المخلوق جهة أو لم يسم جهة ٣٦٦
- الكلام على الجهة ٣٦٦
- تفسير قوله: ﴿أَمْ نَظُنُّكَ مِنَ الْكَافِرِينَ...﴾ ٣٦٦
- تفسير قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) ٣٦٧ - ٣٦٦
- تفسير قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ ٣٦٧

تفسير سورة القلم

- الكلام على عموم السورة ٣٦٨ - ٣٧٤
- قصة أصحاب الجنة ٣٦٨ - ٣٦٩
- سورة (ن) هي سورة الخلق الذي هو جماع الدين ٣٦٩
- تفسير قوله: ﴿تَّوَالَّفَ وَمَا يَسْطُورُونَ﴾ (١) ٣٦٩
- الإقسام وقع بقلم التقدير ومسطوره فتضمن أمرين عظيمين ٣٦٩
- حكمة الإخبار عن القدر السابق بالكتاب ٣٦٩ - ٣٧٠
- بيان فضل وشرف النبي ﷺ ٣٧٠
- الكلام على قوله: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨) ٣٧٠ - ٣٧١
- النهي عن طاعة المرء نهى عن التشبه به بالأولى ٣٧٠

الموضوع

الصفحة

- الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة ٣٧٠
- الصبر ضابط الأخلاق المأمور بها ٣٧١
- صلاح الإنسان في العلم النافع والعمل الصالح وهو الكلم الطيب ٣٧١
- جماع ما نهى الله عنه الناس هو الظلم ٣٧١
- تفسير قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ يَدْهِنُونَ﴾ (٩) ٣٧٧، ٣٧١
- تفسير قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (١٠) ٣٧٨، ٣٧٢
- كثير الحلف من أكذب الناس وأذلهم ٣٧٢
- الهمز أقوى من اللمز وأشد ٣٧٢
- الظلم نوعان: ترك الواجب وتعدُّ على الغير ٣٧٢
- تعريف العتل الزنيم ٣٧٢
- تفسير قوله: ﴿سَئِمُّهُ عَلَى الْفُتُورِ﴾ (١١) ٣٧٣ - ٣٧٢
- القول أجمع وأوسع للمعاني التي في القلب من الحال ٣٧٣
- التحقيق أن السمع أوسع والبصر أخص وأرفع ٣٧٣
- الكلام على عقوبة البخل وعقوبة الظلم وعقوبة التكبر ٣٧٤ - ٣٧٣
- الكلام على فضيلة الصبر على أذى الناس والإحسان إليهم ٣٧٤
- تفسير قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَكَلِّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١٢) ٣٧٥ - ٣٧٤
- تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْهَثُوا أَمْكُنُوا﴾ (١٣) ٣٧٧ - ٣٧٥
- تفسير قوله: ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَدِيرٍ﴾ (١٤) ٣٧٩ - ٣٧٨
- تفسير قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُونَ﴾ (١٥) ٣٨٠ - ٣٧٩
- الكلام على قوله: ﴿أَفَتَجْمَلُ الْكَافِرِينَ﴾ (١٦) ٣٨١ - ٣٨٠
- الكلام على قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (١٧) ٣٨٣ - ٣٨١
- بيان خطأ من قال: المراد كشف الشدة ٣٨١
- خطاب القدرة والجزاء لا يشترط فيه قدرة المخاطب ٣٨١
- جعل هذه الآية من آيات الصفات ليس بتأويل ٤٨٢
- الكلام في النزاع في معنى الآية ٤٨٣ - ٤٨٢
- تفسير قوله: ﴿خَشِيعَةً أَنْصَرُمُ تَرْفَعُهُمْ إِلَهُ﴾ ٣٨٣

- تفسير قوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُتَى﴾ ٣٨٤ - ٣٨٣
- لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى ٣٨٤ - ٣٨٣
- ما يرويه بعض الناس أنه قال: (لا تفضلوني على يونس بن متى) فنقل: باطل ٣٨٤
- كان يونس عليه السلام بعد توبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع ٣٨٤

تفسير سورة الحاقة

- الكلام على قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَبَعِثْنَا أَذْنَ وَنَبِيًّا﴾ ٣٨٦ - ٣٨٥
- الحديث الوارد في أن قوله: ﴿وَبَعِثْنَا أَذْنَ وَنَبِيًّا﴾ نزل في علي بن أبي طالب حديث موضوع بالاتفاق ٣٨٦ - ٣٨٥
- تفسير قوله: ﴿وَنَجْعَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ غَلِيظًا﴾ ٣٨٧ - ٣٨٦
- الرد على الجهمية في تأويلهم الاستواء على العرش ٣٨٧
- ما من آية يحتج بها هؤلاء إلا ودالاتها على نقيض مطلوبهم أقوى من دالاتها على مطلوبهم ٣٨٧
- تفسير قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ بَسْمِئِهِ فَقَوْلٌ هَؤُلَاءِ أَفْرَؤُا كَيْفَ﴾ ٣٨٨ - ٣٨٧
- تفسير قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ اللَّائِيَةِ﴾ ٣٨٨
- الجمع بين الآية وحديث: (لن يدخل الجنة أحد بعمله) ٣٨٨
- تفسير قوله: ﴿مَا أَفْرَؤُا عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾ ٣٨٨
- الحرص يفسد الدين ٣٨٨
- تفسير قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ٣٩٢ - ٣٨٩
- الرد على أهل البدع القائلين بأن القرآن مخلوق ومعناه من عند الله ٣٩١ - ٣٨٩
- الحكمة من قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل: لقول ملك ولا نبي ٣٩١ - ٣٩٠
- بيان أن الرسول هنا هو محمد ﷺ ليس جبريل عليه السلام ٣٩٢ - ٣٩١
- تفسير قوله: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ٣٩٢
- الكلام على قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ٣٩٣ - ٣٩٢
- وجوب الطمأنينة في الصلاة ٣٩٥ ، ٣٩٣

تفسير سورة المعارج

- تفسير قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ٣٩٥ - ٣٩٤

- تفسير قوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ ٣٩٥ - ٣٩٦
- الشارع لا يذم إلا على ترك واجب أو فعل محرم ٣٩٥
- كل بني آدم ظلوم جهول إلا من تاب الله عليه ٣٩٦
- تفسير قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَعُونَ﴾ (٢٢) ٣٩٦ - ٣٩٧
- تفسير قوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا﴾ ٣٩٧

تفسير سورة نوح

- تفسير قوله: ﴿إِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ (٢) ٣٩٨
- تفسير قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ ٣٩٨
- الكلام على قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا...﴾ ٣٩٨ - ٤٠٠
- حسم مادة الشرك وسد ذرائعه ٣٩٩ - ٤٠٠
- تفسير قوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ ٤٠٠

تفسير سورة الجن

- الكلام على عموم السورة ٤٠١ - ٤٠٦
- الكلام على استراق الشياطين السمع من السماء ٤٠١ - ٤٠٥ ، ٤٠٥ - ٤٠١
- الكلام على قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٦) ٤٠٦ - ٤٠٧
- الكلام على الرقي والعزائم الشركية وأصحابها ٤٠٧
- سبب تسمية الإنس بالإنس والجن بالجن ٤٠٧
- الكلام على قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَهَا مِثْلَ تَحَرُّمٍ شَدِيدٍ وَنُهَايَا﴾ ٤٠٧ - ٤٠٩
- الكلام على فضيلة الصدق وذم الكذب ٤٠٨ - ٤٠٩
- الكلام على تنزل الشياطين على أوليائهم من الإنس ٤٠٨ - ٤٠٩
- النبي لا يكون إلا باراً معصوماً لا يصر على ذنب ٤٠٩
- الكلام على قوله: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْآلَافِ...﴾ ٤٠٩
- أوجه مجيء (الشر) في كلام الله وكلام رسوله ٤٠٩
- تفسير قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمَنَّانُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَا﴾ (١١) ٤٠٩
- قالوا: مذاهب شتى مسلمين ويهود ونصارى وشيعة وسنة ٤٠٩
- تفسير قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ ٤١٠

- مواضع الساجد تسمى مساجد ٤١٠
- تفسير قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ۝١٦﴾ ٤١٠
- لفظ العبد في القرآن لا يتناول إلا من عبد الله ٤١٠
- تفسير قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِيَ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾ إِلَّا بَلَّغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ... ٤١٠
- تفسير قوله: ﴿وَمَنْ يَعْبُدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ ٤١١
- جعل الله رسوله القسيم الذي قسم به عبادته إلى شقي وسعيد ٤١١
- تفسير قوله: ﴿عَلَيْهِمُ الْغَيْبُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٣﴾ إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ... ٤١٢ - ٤١١
- الكلام على غيب الرب الذي اختص به ٤١١

تفسير سورة المزمل

- تفسير قوله: ﴿فَرَأَىٰ إِلًا فَيَلَا ۝٢﴾ ٤١٣
- تفسير قوله: ﴿إِنَّا سُلِّفِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ ٤١٣
- بيان أن المراد ثقل الحكم ٤١٣
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ ٤١٣
- قال أكثر العلماء: الناشئة لا تكون إلا بعد نوم وهو الصواب ٤١٣ - ٤١٤
- تفسير قوله: ﴿وَاذْكُرْ أَمْرَ رَبِّكَ وَبَيْنَلْهُ إِلَهِ تَبْيِيكَ ۝٨﴾ ٤١٤
- الكلام على الاسم والمسمى ٤١٤
- تفسير قوله: ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ ٤١٤ - ٤١٥
- الكلام على معنى الإله والرب ٤١٥
- تفسير قوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَعْرِضْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ ٤١٥ - ٤١٦
- هجرة الفجار نوعان ٤١٥
- الكلام على معنى الهجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل ٤١٥ - ٤١٦
- الكلام على قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِيَّاكَ مِنْ قَبْلُ ۝١٥﴾ فَقَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ ٤١٦
- الكلام على قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ...﴾ الآية ٤١٦ - ٤١٨
- سورة المزمل هي سورة قيام الليل ٤١٧

تفسير سورة المدثر

- أول المدثر أول ما نزل من القرآن بعد أول سورة اقرأ ٤٢٢ ، ٤١٩
- الكلام على قوله: ﴿وَيْلٌ لَّكَ فَطِرَ﴾ ٤٢٣ - ٤٢٠
- فسر جماهير السلف الآية بأن المراد: زك نفسك وأصلح عملك وهو الصحيح ٤٢٣ - ٤٢٠
- بيان ضعف قول من حمل الآية على ظاهرها ٤٢٠
- كان الاهتمام أول الإسلام بجمل الشرائع وكلياتها دون الواحد من تفاصيلها ٤٢٠
- بيان أن الطهارة في كتاب الله على قسمين: حسية وعقلية ٤٢٣ ، ٤٢١
- بيان أن الآية تعم نوعي الطهارة ٤٢٢
- سمى الله الوليد بن المغيرة وحيداً - الكلام عليه - ٤٢٣ - ٤٢٥
- مشابهة حال الوليد بن المغيرة بحال المتفلسفة ٤٢٥ - ٤٢٤
- الكلام على قوله - حكاية عن الوحيد - ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ٤٢٦ - ٤٢٥
- الكلام على قوله: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَبْتَغِي وَهْدًى مِّنْ يَّبْتَغِي وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ٤٢٧ - ٤٢٦
- الكلام على الجبر ٤٢٧ - ٤٢٦
- الكلام على قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ٤٢٧
- تفسير اليقين ٤٢٧
- تفسير قوله: ﴿قَالُوا لَرَّبُّكَ مِنَ الْمُضِلِّينَ﴾ ٤٢٧
- تفسير قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَنِ التَّذْكِيرِ مُعْرِضِينَ﴾ ٤٢٨ - ٤٢٧
- ﴿قَسَوْرَمَ﴾ يراد به الرامي ويراد به الأسد ٤٢٨
- تفسير قوله: ﴿هُوَ أَهْلُ الْقُوَى﴾ ٤٢٨

تفسير سورة القيامة

- الكلام على عموم السورة ٤٢٩ - ٤٣٠
- تفسير قوله: ﴿وَلَا أَقِمْ بِالنَّفْسِ اللَّوَاْمَةَ﴾ ٤٢٩ - ٤٣٠
- بيان أن نفس كل إنسان لواءة ٤٢٩ - ٤٣٠
- النفوس ثلاثة أنواع ٤٣٠
- الكلام على قوله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ مُجَمَّعٌ عِظَامُهُ﴾ ٤٣٠
- بيان أن الله قادر على ذلك وهو لا يشاؤه ٤٣٠

- تفسير قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) الآيات ٤٣٠ - ٤٣١
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ٤٣١
- قد يراد بـ«القرآن» المصدر وقد يراد به الكلام المقروء ٤٣١
- تفسير قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْرَأْهُ قَرْءًا نَهْيًا﴾ (١٨) ٤٣٢
- تفسير قوله: ﴿وَهُوَ يُؤْمِرُ بِأَعْيُنِهِ فَأُتِيَ﴾ (١٩) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةً (٢٠) ٤٣٢ - ٤٣٤
- بيان أن أهل الجنة يرون ربهم حقيقة ٤٣٢ - ٤٣٤
- النظر إلى وجه الله تعالى أفضل نعيم أهل الجنة ٤٣٣
- قال ابن المبارك: ما حجب الله عنه أحداً إلا عذبه به ٤٣٤
- تفسير قوله: ﴿فَلَا صَلَفَ وَلَا صَلَاحَ﴾ (٢١) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَكَّلَ (٢٢) ٤٣٤ - ٤٣٥
- كل من لم يصدق لم يصل ٤٣٤
- تفسير قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٢٣) ٤٣٥
- تفسير قوله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ بِكَ نَفْسٌ مِنْ مَتْنِي يَمِينٍ﴾ (٢٤) ... الآيات ٤٣٥

تفسير سورة الإنسان

- الرد على الرافضة في زعمهم أنها نزلت في علي وفاطمة وابنيهما ﷺ ٤٣٦ - ٤٤٠
- الكلام على تفسير الثعلبي والواحدي وأمثالهما ٤٣٧ - ٤٣٨
- صنف النسائي (خصائص علي) وذكر فيه عدة أحاديث ضعيفة ٤٣٨
- تفسير قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ...﴾ ٤٤٠
- تفسير قوله: ﴿عَيْنًا يَتْرَبُّ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ٤٤٠
- ضمن الشرب معنى الري فعدها بالباء ٤٤٠
- الكلام على قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَدْرِ﴾ ٤٤١
- الكلام على قوله: ﴿إِنَّمَا تُطْمِئِنُّ بِرَبِّكَ إِلَهُ لَا تُبَدِّلُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (٢٥) ٤٤١
- المخلصون لا يطلبون من المحسن إليه دعاء ولا ثناء ولا غير ذلك ٤٤١
- لم يستحب العلماء أن يتلفظ بنية الإخلاص ٤٤١
- تفسير قوله: ﴿إِنَّا خَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ (٢٦) ٤٤١
- تفسير قوله: ﴿وَمِنْ أَلْبَلٍ فَأَسْمِدُ لَمْ وَسِجَمُهُ لَبَلًا طَوِيلًا﴾ (٢٧) ٤٤٢
- تفسير قوله: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْلُعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا﴾ (٢٨) ٤٤٢ ، ٤٤٦

- الكلام على هذه السورة في رسالة مستقلة، وبيان فضلها، وما تضمنته من العلوم والحكم ٤٤٣ - ٤٤٨
- تضمنت السورة الرد على القدرية والجبرية في الإرادة والمشيئة ٤٤٣
- الوفاء بالنذر أضعف الواجبات ٤٤٤
- بيان الحكمة من الاقتصار في السورة على ذكر آية وحلي الفضة دون الذهب ٤٤٥ - ٤٤٦
- اسم الأبرار والمقربين كاسم الإسلام والإيمان أحدهما أعم من الآخر ٤٤٦
- ذكر الله أعظم العون على تحمل مشاق الصبر ٤٤٦
- قيام العبد بالليل عون له على ما هو بصده بالنهار ٤٤٦
- تفسير قوله: ﴿لَخَنَّ خَلْقَهُمْ وَشَدَدْنَا آسْرَهُمْ﴾ الآية ٤٤٦ - ٤٤٧
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ٤٤٧ - ٤٤٨

تفسير سورة المرسلات

- تفسير قوله: ﴿وَالْمُرْسَلَتْ عَرَفًا﴾ ٤٤٩
- الكلام على قوله: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعَمَ الْقَدِيرُونَ﴾ ٤٤٩

تفسير سورة النبأ

- تفسير قوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ ٤٥٠
- الكلام على قوله: ﴿لَيْتَيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ ٤٥٠
- الكلام على مسألة فناء النار ٤٥٠ - ٤٥٤
- أحاديث حماد بن سلمة هي الشجاء في حلوق المبتدعة ٤٥١
- الكلام على قوله: ﴿لَيْتَيْنِ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ ٤٥١ - ٤٥٤
- تفسير قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ٤٥٤
- لا يملك المخلوق شيئاً يشارك فيه الخالق ٤٥٤
- تفسير قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ٤٥٥
- تفسير قوله: ﴿وَقَوْلُ الْكَافِرِ يَلْتَنِي كُتٌّ ثَرْبًا﴾ ٤٥٥ - ٤٥٦
- هل يصح أن يقول المسلم ذلك وأمثاله في الدنيا على وجه الخشية لله؟ ٤٥٦

تفسير سورة النازعات

- تفسير قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا﴾ ﴿١﴾ ٤٥٧
- تفسير قوله: ﴿فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا﴾ ﴿٥﴾ ٤٥٧
- تفسير قوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى﴾ ﴿١١﴾ ٤٥٧
- تفسير قوله: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى﴾ ﴿١٨﴾ ٤٥٨ - ٤٥٧
- الكلام على التزكي والتذكر ٤٥٨
- تفسير قوله: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ ﴿٢٠﴾ ٤٥٨
- تفسير قوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ ٤٥٨ - ٤٥٩
- الكلام على قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَسْفَهًا﴾ ﴿٢٧﴾ ٤٦١ - ٤٥٩
- ذكر حديث الرجل الذي جاء إلى ابن عباس يسأله عن أشياء تختلف عليه في القرآن ٤٦١ - ٤٥٩
- تفسير قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ ﴿٤٥﴾ ٤٦١
- الكلام على قوله: ﴿كَانَتْ يَوْمَ يَوْمِ يَوْمِهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ ﴿١١﴾ ٤٦٢ - ٤٦١

تفسير سورة عبس

- الكلام على قوله: ﴿وَفَعَلَكُمُ الْوَعْدَ﴾ ﴿٢١﴾ ٤٦٣
- ذم الكلام في كتاب الله بغير علم ٤٦٣
- الكلام على قوله: ﴿يَوْمَ يَعْرِ الْمَوْتَ مِنْ لَدُنْهُ﴾ ﴿٢٢﴾ ٤٦٣ - ٤٦٤

تفسير سورة التكوثر

- تفسير قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ﴿٥﴾ ٤٦٥
- الكلام على قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُحِلَتْ﴾ ﴿٨﴾ بِأَنِّي ذُنْبٌ قُتِلْتُ ﴿٩﴾ ٤٦٥
- الكلام على قوله: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحَفَنِسِ﴾ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَاسِ ﴿١١﴾ ٤٦٦
- الحكمة من الإقسام بهذه المخلوقات ٤٦٦
- تفسير قوله: ﴿وَالْبَلِّ إِذَا عَمَّسَ﴾ ﴿٧﴾ وَالصَّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾ ٤٦٧
- الكلام على قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿١٩﴾ ٤٦٧ - ٤٧٨
- الحكمة من إضافته إلى الرسول ٤٦٧ - ٤٧٠ ، ٤٧٤
- بيان أن القرآن كلام الله ليس كلام الرسول ٤٦٧ - ٤٧٠ ، ٤٧٤ - ٤٧٧
- بيان فضل النبي ﷺ وشرّفه على العالمين ٤٧١ - ٤٧٣

- الكلام على قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ يَبْجُوتُنِ﴾ (٢٢) وما أفاده قوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ ٤٧٢ - ٤٧٤ ، ٤٧٧ - ٤٧٨
- الحكمة من إرسال الرسول البشري دون الملكي ٤٧٢ - ٤٧٨
- بيان أن صوت العبد بالقرآن صوته ولكن الكلام كلام الله ٤٧٥
- بيان أن القرآن كلام الله تكلم به بحروفه ومعانيه ٤٧٥
- الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْبَينِ﴾ (٢٣) ٤٧٨ - ٤٧٩
- تفسير قوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينِ﴾ (٢٤) ٤٧٩
- الكلام على قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥) ٤٧٩
- الرد على أهل البدع وبيان أن للعبد مشيئة ولكنها معلقة بمشيئة الله ٤٨٠ - ٤٨١
- بيان أنواع الإرادة ٤٨١

تفسير سورة الانفطار

- تفسير قوله: ﴿فِي أَوَّلِ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٨) ٤٨٢
- تفسير قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) ٤٨٢

تفسير سورة المطففين

- تفسير قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) ٤٨٣
- الكلام على قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (٧) ٤٨٣
- بيان أن العلو والسعة للأبرار والسفول والضيق للفجار ٤٨٣
- الكلام على قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) ٤٨٣ - ٤٨٤
- الكلام على الران والغين الذي يعلو القلب ٤٨٣ - ٤٨٤
- فضل التوبة وبيان أنها تصقل القلب وتجليه ٤٨٤
- الكلام على قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُونُونَ﴾ (١٥) ٤٨٤ - ٤٨٦
- قوله: ﴿لَمَّحْجُونُونَ﴾ يشعر بأنهم عاينوا ثم حجبا ٤٨٤
- الكلام على مباينة الله تعالى لخلقه واختصاصه بجهة وحد ٤٨٥
- عذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات ٤٨٥
- الكلام على قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ (١٨) ... الآيات ٤٨٦
- أهل الجنة نوعان سابقون مقربون وأبرار أصحاب يمين ٤٨٦
- الكلام على قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢٨) ٤٨٦ - ٤٨٧

- ٤٨٧ ضَمَّنَ يَشْرَبُ مَعْنَى يَرَوِي فَعْدَاهُ بِالْبَاءِ
- ٤٨٧ الْكَلَامَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ٢٩ ... ﴿

تفسير سورة الانشقاق

- ٤٨٨ الْكَلَامَ عَلَى السُّجُودِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ
- ٤٨٨ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَأَذِّنْ لِلرَّبِّهَا وَحَّتْ﴾ ٢٠
- ٤٨٨ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقْبِهِ﴾ ٦
- ٤٨٩ - ٤٨٨ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْلَهُ بِإِيمَانِهِ﴾ ٧ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٨
- ٤٨٩ الْكَلَامَ عَلَى مُحَاسَبَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ
- ٤٩٠ - ٤٨٩ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ ١١
- ٤٩٠ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ ١٢

تفسير سورة البروج

- ٤٩١ الْكَلَامَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنَّا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَبُتُوا﴾ ... ﴿
- ٤٩٥ - ٤٩١ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ ١٤
- ٤٩٤ - ٤٩٢ الْكَلَامَ عَلَى صِفَةِ الْمَحَبَةِ لِلَّهِ تَعَالَى
- ٤٩٤ تَفْسِيرُ الْحَنَانِ الْمَنَانِ
- ٤٩٤ أَثْبَتَ السَّلَفَ لِلَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ يَجِبُ وَيَحِبُّ وَأَنْكَرَتِ الْجَهْمِيَّةَ وَالْمَعْتَزِلَةَ الْأَمْرِينَ
- ٤٩٤ - ٤٩٢ بَيَانُ أَنَّ الصَّوَابَ الْقَطْعُ بِأَنَّ (الْوُدُودَ) هُوَ الَّذِي يُودُ وَهَذَا يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُودَ ...
- ٤٩٥ وَدَّهَ سَبْحَانَهُ هُوَ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ
- ٤٩٥ الْكَلَامَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿ذُو الْعَرْشِ لِلْجِدِّ﴾ ١٥ ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ ١٦

تفسير سورة الطارق

- ٤٩٦ الْكَلَامَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿خَلَقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ١
- ٤٩٦ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ﴾ ١٣

تفسير سورة الأعلى

- ٥٢٦ - ٥٢٤ ، ٥٢٠ ، ٤٩٩ - ٤٩٧ الْكَلَامَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ١
- ٤٩٩ - ٤٩٧ الْكَلَامَ عَلَى الْأَسْمِ وَالْمُسَمَّى

الموضوع

الصفحة

- أمر الله بتسبيح اسمه وذكر اسمه والمقصود تسبيح المسمى وذكره ٤٩٧ - ٤٩٩
- معنى الآية: سبح ناطقاً باسم ربك متكلماً به ٤٩٩
- الكلام على قوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (٣) ٤٩٩ - ٥٠١
- بيان أن الهدى أربعة أقسام: ٤٩٩ - ٥٠١
- الكلام على الاستطاعة وبيان أنها نوعان ٥٠٠
- بيان فساد مذهب القدرية في هداية الله تعالى ٥٠١
- العطف تكون تارة لتغاير الذوات وتارة لتغاير الصفات ٥٠٢
- الكلام على قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ (٩) ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْتَارُ﴾ (١٠) ٥٠٢ - ٥٠٣
- الجزاء من جنس العمل ٥٠٢
- الكلام على قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) ٥٠٣ - ٥٠٤
- التركية تناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة ٥٠٣ - ٥٠٤، ٥٥٥
- الكلام على رؤية الله ﷻ ورد قول من قال: يرى لا في جهة ٥٠٤ - ٥٠٨
- الكلام على العلو والاستواء لله تعالى ٥٠٨ - ٥٢٦
- القول بالخلق كالقول بالاستواء جواب ضعيف من وجوه ٥١٠ - ٥١١
- العدر بالجهل والخطأ في الاجتهاد ٥١١ - ٥١٢
- الكلام على أبي الحسن الأشعري ٥١٢، ٥٤٩
- بيان أن الله تعالى لا يجوز أن يوصف بضد أسمائه الحسنى ٥١٢ - ٥١٤
- لا تعني عبارات السلف في الفوقية أن هناك شيئاً يحويه سبحانه أو يكون محلاً له أو وعاء ٥١٤
- بيان أن قوله: ﴿أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني في العلو دون السفلى ٥١٤
- الكلام على قوله: من قال أن (في) في الآية بمعنى (على) ٥١٤
- بيان فساد وبطلان قول من يقول: إنه في كل مكان وينفي علو الله على خلقه ٥١٥ - ٥١٦
- بيان أن الله ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، ولا يخلو منه العرش، وكذا في كل نزول ٥١٧ - ٥٢٠
- جمهور الفقهاء على أن الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير ٥٢٠
- التكبير مختص بالذكر في حال الارتفاع والتسبيح مختص بحال الانخفاض ٥٢٠، ٥٢٤

- الحكمة من النهي عن قراءة القرآن في حال الركوع والسجود ٥٢١
- بيان أنه يتعين التسبيح في الركوع والسجود وجوباً على الراجع ٥٢١ - ٥٢٣
- في استحباب زيادة (وبحمده) في تسبيح الركوع والسجود عن أحمد روايتان ٥٢٢
- اسم (الله) يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن وهو أعظم من اسم (الرب) ٥٢٣
- بيان أن الصلاة تضمنت التسبيح والتحميد والتكبير والتوحيد ٥٢٣
- الكلام على علو الذات وعلو الصفات لله تعالى ٥٢٤ - ٥٢٧
- بيان أن اسمه «الأعلى» يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال وتنزيهه عن صفات النقص ٥٢٤ - ٥٢٧
- الكلام على معنى التسبيح ٥٢٧ - ٥٢٨
- نفي النقائص يقتضي ثبوت صفات الكمال ٥٢٧
- الكلام على قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ قَوْنِي ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ ٥٢٨ - ٥٤٠
- مجيء الصفات بالعطف وبلا عطف ٥٢٨ - ٥٢٩
- بيان أن الله خلق الخلق بإرادة لحكمة وغاية والرد على المخالفين في ذلك ٥٢٩ - ٥٣٢
- بيان أن السلف يثبتون حكمة تعود إليه سبحانه ٥٣١
- بيان أنه لا بد في الخلق والأمر من العدل والتسوية بين المتماثلين ٥٣١ - ٥٣٢
- تفسير قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّعْدِ﴾ ٥٣٢
- من كفر بالقدر فقد كفر بالقرآن، الكلام على القدر ٥٣٤ - ٥٣٥
- بيان أن الله لم يكره أحداً على معصيته ٥٣٥ - ٥٣٦
- الكلام على قتادة واتهامه بالقدر ٥٣٥ - ٥٣٦
- الكلام على الجبر، وبيان كراهة أن يقال (جبر) وأن يقال: (لم يجبر) ٥٣٦
- الكلام على قوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ ٥٣٤ - ٥٤٠
- الإلهام يستعمل في إلهام القلوب لا في قيام الحجة ٥٣٨
- كثيراً ما يذكر السلف في التفسير من النوع مثلاً لينبها به على غيره ٥٣٩ - ٥٤٠
- الكلام على قوله: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الرَّعَىٰ ۖ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَىٰ﴾ ٥٤٠ - ٥٤٢
- الكلام على قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّمَسَّ الذِّكْرَىٰ﴾ ٥٤٢ - ٥٥٢
- الكلام على الفراء وكتابه «معاني القرآن» ٥٤٣، ٥٤٥ - ٥٤٦